تاريخ الخلفاء الراشدين

بين الحقائق والأباطيل

تأليف الدكتور
محمّد عبد العال محمّد حسن
أستاذ التّاريخ والحضارة الإسلاميّة بجامعة الأزهر

تاريخ الخلفاء الرّاشدين بين الحقائق والأباطيل

تأليف الدّكتور

محمّد عبد العال محمّد حسن

أستاذ التّاريخ والحضارة الإسلاميّة

جامعة الأزهر – فرع أسيوط

دار صيد الخاطر

الطّبعة الأولى

القاهرة

١٤٤٦هـ/٢٠٢٥م

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة

الحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على سيّدنا محمّد، خاتم النّبيّين، وإمام المرسلين، ورحمة الله للعالمين، وسيّد الأوّلين والآخرين.

وبعد،

فيطلق مصطلح "الخلافة الرّاشدة"(١) على الثّلاثين عامًا الّتي تعاقب فيها الخلفاء الأربعة بعد النّبيّ ﷺ؛ وذلك لأنّهم ساروا على نهج رسول الله ﷺ حسَب الطّريق المستقيم الّذي ارتضاه الله ﷻ لعباده، فكانت مدّتهم تتمّة لعهد النّبيّ ﷺ، والصّورة الصّحيحة للحكم الإسلاميّ في كلّ جوانبها ومعطياتها(٢)، ويؤكّد هذا قول الرّسول ﷺ: "عَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ"(٣).

---

(١) ثبت من غير وجه عن سَفِينة ﷺ -مولى رسول الله ﷺ- أنّه كان يَقصر الخلافة الرّاشدة على الأربعة الرّاشدين، أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعليّ ﷺ؛ لقول النّبيّ ﷺ: "الْخِلَافَةُ ثَلَاثُونَ عَامًا، ثُمَّ يَكُونُ بَعْدَ ذَلِكَ الْمُلْكُ". أحمد بن حنبل: المسند، تحقيق/ شعيب الأرناؤوط، وآخرين، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م، ج٣٦، ص٢٤٨، ح٢١٩١٩؛ عبد الله بن أحمد بن حنبل: السُّنّة، تحقيق/ محمّد سعيد القحطانيّ، دار ابن القيّم، الدّمّام، الطّبعة الأولى، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ج٢، ص٥٩١. وقد اعتمد الإمام أحمد حديث سفينة ﷺ وصحّحه. الخلّال: السُّنّة، تحقيق/ عطيّة الزّهرانيّ، دار الرّاية، الرّياض، الطّبعة الثّانية، ١٩٩٤م، ج٢، ص٤٢٢- ٤٢٤. بينما يرى الحافظ ابن كثير أنّ "الخلافة الرّاشدة" أو "خلافة النّبوّة" تمتدّ إلى نهاية عهد الحسن بن عليّ رضي الله عنهما سنة ٤١هـ/٦٦١م. البداية والنّهاية، تحقيق/ علي شيري، دار إحياء التّراث، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ج٦، ص٢٢٠، ٢٢١.

(٢) محمود شاكر: التّاريخ الإسلاميّ، (الجزء الثّالث)، الخلفاء الرّاشدون، المكتب الإسلاميّ، بيروت، الطّبعة الثّامنة، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ص٥.

(٣) أبو داود: السّنن، تحقيق/ شعيب الأرناؤوط، ومحمّد كامل قرّة بللي، دار الرّسالة العالميّة، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م، (كتاب السُّنّة، باب في لزوم السُّنّة)، ج٧، ص١٦، ح٤٦٠٧؛ التّرمذي: السّنن، تحقيق/ أحمد محمّد شاكر، وآخرين، مكتبة البابي الحلبي، القاهرة، الطّبعة الثّانية، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م، (كتاب العلم، باب ما جاء في الأخذ بالسُّنّة واجتناب البدع)، ج٥، ص٤٤، ح٢٦٧٦. وقال: التّرمذيّ: "حسن صحيح".

وقد نصّ القرآن الكريم والسُّنّة النّبويّة على خيريّة الخلفاء الرّاشدين خاصّة، وصحابة رسول الله ﷺ عامّة على غيرهم، فقال الله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾(١)، وقال نبيّنا ﷺ: "خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الّذِينَ يَلُونَهُمْ"(٢).

وثبت عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنّه قال: "كُنَّا نُخَيِّرُ بَيْنَ النَّاسِ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ، فَنُخَيِّرُ أَبَا بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ، ثُمَّ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ رضي الله عنهم"(٣).

وعلى الرّغم من أهمّيّة تاريخ الخلفاء الرّاشدين والصّحابة الّذين نقلوا لنا القرآن والسُّنّة، فقد أوغل المغرضون وأهلُ الأهواء في تزييف حقائق تاريخهم وتشويه أحداثه، فكان لزامًا على علماء المسلمين عامّة والباحثين في التّاريخ الإسلاميّ خاصّة أن يهتمّوا بتاريخ تلك الفترة ويقدّموها للنّاس في صورة أقرب إلى الحقيقة النّقيّة الّتي كانت عليها.

وقد نهض بعض علماء المسلمين قديمًا وحديثًا لتنقية مادّة الخلافة الرّاشدة من الأباطيل والأكاذيب الّتي لحقت بها، لكن ممّا يؤسف له أنّ كثيرًا من الكتّاب المسلمين لا يزالون ينقلون مادّتهم عنها من بطون المصادر التّاريخيّة والأدبيّة ومثيلاتها على أنّها حقائق مقرّرة، دون تمحيص للرّوايات ومحاكمة للأخبار، وإن كان فيها ما يستنكره القارئ، أو يستشنعه السّامع، كما نبّه على ذلك شيخ المؤرّخين الإمام محمّد بن جرير الطّبريّ (ت: ٣١٠هـ/٩٢٣م) في مقدّمته لتاريخه.

---

(١) سورة التّوبة: الآية ١٠٠.

(٢) البخاريّ: الجامع المسند الصّحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيّامه، تحقيق/ مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، بيروت، الطّبعة الثّالثة، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، (كتاب فضائل الصّحابة، باب فضائل أصحاب النّبيّ ﷺ)، ج٣، ص١٣٣٥، ح٣٤٥١؛ مسلم: المسند الصّحيح المختصر من السّنن بنقل العدل عن العدل عن رسول الله ﷺ، تحقيق/ محمّد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التّراث العربيّ، بيروت، بدون تاريخ طبع، (كتاب فضائل الصّحابة، باب فضل الصّحابة، ثمّ الّذين يلونهم)، ج٤، ص١٩٦٣، ح٢٥٣٣.

(٣) البخاريّ: الصّحيح، (كتاب فضائل الصّحابة، باب فضل أبي بكر بعد النّبيّ ﷺ)، ج٣، ص١٣٣٧، ح٣٤٥٥.

ولم يعد مقبولاً من الباحثين في تاريخ صدر الإسلام أنّ يأخذوا مادّتهم عن "تاريخ الخلفاء الرّاشدين" من الإخباريّين الّذين روى عنهم الإمام ابن جرير الطّبريّ في موسوعته التّاريخيّة، أو من تاريخ اليعقوبيّ الشّيعيّ (توفّي بعد ٢٩٢هـ/٩٠٥م)(١)، وصنوه المسعوديّ (ت: ٣٤٦هـ/٩٥٧م)(٢)، ولا من كتاب "الإمامة والسّياسة" (تاريخ الخلفاء) المنسوب للإمام ابن قتيبة الدّينوريّ (ت: ٢٧٠هـ/٨٨٣م)، ولا من أغاني أبي الفرج الأصفهانيّ الشّيعيّ (ت: ٣٥٦هـ/٩٦٧م)(٣)، ولا من عِقْد ابن عبد ربّه الأندلسيّ (ت: ٣٢٨هـ/٩٤٠م)، ولا

---

(١) اليعقوبيّ: أحمد بن أبي يعقوب موسى بن جعفر بن وهب، الكاتب العبّاسيّ المعروف باليعقوبيّ، له تصانيف كثيرة، منها: التّاريخ، والبلدان، ومشاكلة النّاس لزمانهم، وهو شيعيّ إماميّ، ومن يطالع تاريخه يجده يحشد الموضوعات والمكذوبات حول سيّدنا عليّ وآل بيته، وتوفّي بمصر. ينظر ياقوت الحموي: معجم الأدباء (إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب)، تحقيق/ إحسان عبّاس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م، ج٢، ص٥٥٧؛ مجموعة من المستشرقين: موجز دائرة المعارف الإسلاميّة، ترجمة/ إبراهيم زكي خورشيد، وآخرين، مركز الشّارقة للإبداع الفكري، الطّبعة الأولى، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، ج٣٢، ص١٠٢٢٢، ١٠٢٢٣.

(٢) المسعوديّ: عليّ بن الحسين بن عليّ المسعوديّ، من ولد عبد الله بن مسعود ﷺ، ولد بالعراق، وجال بالآفاق، واستقرّ بمصر، وهو صاحب كتاب مروج الذّهب ومعادن الجوهر، وتنبيه الأشراف، وأخبار الزّمان ومن أباده الحدثان، وغيرها، وكتبه طافحة بأنّه كان رافضيًّا معتزليًّا، وفيها من الأكاذيب ما لا يحصيه إلّا الله تعالى. ابن تيمية: منهاج السُّنّة النّبويّة في نقض كلام الشّيعة والقدريّة، تحقيق/ محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلاميّة، المدينة المنورة، الطّبعة الأولى، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ج٤، ص٨٤؛ ابن حجر: لسان الميزان، تحقيق/ عبد الفتّاح أبو غدّة، دار البشائر الإسلاميّة، الطّبعة الأولى، ٢٠٠٢م، ج٥، ص٥٣١، ٥٣٢.

(٣) الأصفهانيّ: عليّ بن الحسين بن محمدّ الكاتب، أمويّ النّسب، شيعيّ المذهب، متّهم بكثرة الكذب، ويصرّح في كتبه بما يوجب عليه الفسق، ويهوّن شرب الخمر. الخطيب: تاريخ بغداد، تحقيق/ بشّار عوّاد معروف، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م، ج١٣، ص٣٣٧؛ ابن الجوزيّ: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، تحقيق/ محمّد عبد القادر عطا، ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلميّة، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، ج١٤، ص١٨٥.

مرآة الزّمان لسِبْط ابن الجوْزيّ[١]، وغيرها من المؤلّفات الّتي تحوي الغثّ والسّمين، دون محاكمة أخبارها، وتبيين صحيحها من سقيمها، و"النّاقد البصير قسطاس نفسه في تزييفهم فيما ينقلون، أو اعتبارهم، فللعمران طبائع في أحواله ترجع إليها الأخبار، وتُحمل عليها الرّوايات والآثار"[٢].

ولقد شغفت بتاريخ الخلفاء الرّاشدين منذ اطّلعت عليه في تاريخ الخلفاء للإمام السّيوطيّ (ت: ٩١١هـ/١٥٠٥م) أيّام الدّراسة الجامعيّة، ولكنّني لم أجد فيه ما تطمئنّ إليه النّفس آنذاك من صحيح التّاريخ، فلمّا وقفت على "العواصم من القواصم" للإمام محمّد بن عبد الله المعروف بابن العربيّ المالكيّ (ت: ٥٤٣هـ/١١٤٨م)، استشعرت عظم المسئوليّة على المتخصّصين في تاريخ صدر الإسلام.

وقد آثرت الاعتماد على صحيح روايات المحدّثين وثقات المؤرّخين في تصنيف هذا الكتاب إلى حدّ كبير، وقرنتها - غالبًا - بأحكام العلماء القدامى والحديثين؛ لتكون عند القرّاء أكثر وثوقًا، وأشدّ تثبيتًا.

وسيلاحظ القارئ الكريم أنّ كثيرًا من المعلومات المشهورة الّتي أُلقيت على مسامعنا منذ المراحل التّعليميّة المبكرة، والّتي حفظناها في أعمارنا الباكرة غير موجودة في هذا الكتاب؛ وذلك لأنّي أطلت العكوف على تنقية أخباره، وعزفتُ فيه عن بَهْرَج الزّيف، ودأبت على التّحقيق والتّدقيق، وابتعدت - قدر الإمكان - عن روايات الأخباريّين المتّهمين بالتّحيّز لمذاهبهم وقبائلهم على حساب الحقيقة التّاريخيّة، وعلى رأسهم: أبو مخنف لوط بن

(١) هو يوسف بن قِزْأُوغْلِي المعروف بسبط ابن الجوزيّ، صاحب تاريخ "مرآة الزّمان في تواريخ الأعيان"، و"إعلام الخواصّ"، المصنّف في الاثني عشرَ، وهو يذكر في مصنّفاتِه أنواعًا من الغثّ والسّمين، ويحتجّ في أغراضه بأحاديثَ كثيرةٍ ضعيفةٍ وموضوعةٍ، وكان يصنّف بحسَب مقاصد النّاس، فيصنّف للشّيعة ما يناسبهم ليعوّضوه بذلك، ويصنّف على مذهب أبي حنيفة لبعض الملوك لينال بذلك أغراضه، ولهذا يوجد في بعض كتبه ثَلْبُ الخلفاء الرّاشدين وغيرهم من الصّحابة لأجل مداهنة من قصد بذلك من الشّيعة، ويوجد في بعضها تعظيم الخلفاء الرّاشدين وغيرهم. ابن تيمية: منهاج السُّنّة النّبويّة، ج٤، ص٩٧، ٩٨.

(٢) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر في أحوال العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السّلطان الأكبر، تحقيق/ خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، الطّبعة الثّانية، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ج١، ص٧.

يحي الأزديّ الكوفيّ (ت: ١٥٧هـ/٧٧٤م)، ذلك الشّيعيّ المُحترق، الّذي تطفح رواياتُه بالرّفض والكذب على صحابة النّبيّ ﷺ، وسيفُ بن عمرَ التّميميّ[(١)] الّذي كاد أن يجعل الفتوحات الإسلاميّة في عصر الخلفاء الرّاشدين من مآثر قومه التّميميّين خاصّة.

ولولا المسؤوليّة والضّرورة العلميّة ما خطّ المداد حرفًا واحدًا في أحداث الفتنة الّتي وقعت في عصر الرّاشدين، والّتي طال وقوفي معها أكثر من عشر سنين، وكلّما قدّمت رجلاً أخّرت أخرى، وكثيرًا ما سطرت فقرة في المساء ومحوتها في الصّباح، أملاً في الله - تعالى - أن يجنّبني القواصم، وأن يحفظني بالعواصم، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم، وهو المستعان، وعليه التُّكلان.

وأسأل الله - تعالى - أن يجعل عملي هذا صوابًا حسنًا، خالصًا لوجهه الكريم، وأن يرجّح حسناتي يوم الدّين، وأن يحشرني في زمرة خاتم النّبيّين ﷺ.

إعداد الدّكتور
محمّد عبد العال محمّد حسن
أستاذ التّاريخ والحضارة الإسلاميّة
جامعة الأزهر

---

(١) سيف: هو الأخباريّ سيف بن عمر الأسيِّديّ التّميميّ الكوفيّ، توفّي نحو: ١٨٠هـ/٧٩٦م، وروايته التّاريخيّة "لا شيء" عند العلماء النّقاد. (الفسوي: المعرفة والتاريخ، تحقيق/ أكرم ضياء العمري، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطّبعة الثّانية، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، جـ٣، ص٥٨). ولا يحتجّ بأخباره الّتي تخالف قول أهل العلم. (الخطيب البغدادي: مُوَضِّح أوهام الجمع والتّفريق، تحقيق/ عبد المعطي أمين قلعجي، دار المعرفة، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م، جـ١، ص٢٦٣). غير أنّ الطّبريّ آثر النّقل عنه في الرّدّة والفتوح والفتنة، فاغترّ كثير من المؤرّخين بصنيعه! على الرّغم من تنبيهه في مقدّمة تاريخه على ضرورة محاكمة ما يستنكره القارئ، أو يستشنعه السّامع من الأخبار، بل إنّ جماعة من كبار النّقّاد يتّهمون سيفًا بالوضع والزّندقة. ولذا لا ينبغي الاعتماد عليه قبل محاكمة أخباره؛ لأنّه يشوّه تاريخ الصّحابة أكثر ممّا يروي في إنصافهم. ينظر محمّد عبد العال محمّد حسن: سيف بن عمر التّميميّ ومرويّاته في ميزان النّقد الموضوعيّ، بحث منشور في مؤتمر "التّاريخ بين التّصحيح والتّحريف"، كلّيّة اللّغة العربيّة بأسيوط، جامعة الأزهر، ١٤٤٠هـ/٢٠١٩م، جـ١، ص٤٩٨- ٥١٤.

الباب الأوّل

خلافة أبي بكر الصّدّيق

(١١ - ١٣هـ/٦٣٢ - ٦٣٤م)



الفصل الأوّل
موجز حياة الصّدّيق قبل الخلافة

🕮 نسب أبي بكر وكنيته ولقبه:

هو عبد الله، بن عثمان، بن عامر، بن عمرو، بن كعب، بن سعد، بن تَيْم، بن مُرّة، ابن كعب، بن لُؤَيّ، التّيميّ، القرشيّ، وأمّه أمّ الخير سَلْمى بنت صخر بن عامر، ابنة عمّ أبيه، ويكنى بأبي بكر(١)، كما يُكْنى أبوه عثمان بأبي قحافة(٢).

ولأبي بكر ﷺ ألقابٌ عديدة تدلّ على سموّ مكانته، وعلوّ منزلته، وشرف حسبه(٣)، فقد سُمّي عتيقًا عندما قال له النّبيّ ﷺ: "أَنْتَ عَتِيقُ اللَّهِ مِنَ النَّارِ"(٤)، كما سمّاه النّبيّ ﷺ صدّيقًا(٥)؛ وذلك أنّه ﷺ صَعِدَ أُحُدًا، هو وأبو بكرٍ، وعمرُ، وعثمانُ فرجف بهم، فقال: "اثْبُتْ أُحُدُ، فَإِنَّمَا عَلَيْكَ نَبِيٌّ، وَصِدِّيقٌ، وَشَهِيدَانِ"(٦).

---

(١) البكر: الفَتِيُّ من الإبل. ابن منظور: لسان العرب، دار صادر، بيروت، الطّبعة الثّالثة، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م، ج٤، ص٧٩. ولذا كان المرتدّون في عهده يقولون: "لا نبايع أبا الفَصِيل أبدًا"، يريدون تصغير الصّدّيق. الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، دار الكتب العلميّة، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، ج٢، ص٢٦٠.

(٢) ابن سعد: الطّبقات الكبرى، دار صادر، بيروت، لبنان، الطّبعة الأولى، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م، ج٢، ص١٦٩؛ ابن حجر: الإصابة في تمييز الصّحابة، تحقيق/ عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمّد معوّض، دار الكتب العلميّة، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، ج٤، ص١٤٤، ١٤٥.

(٣) علي محمّد محمّد الصّلّابي: الانشراح ورفع الضّيق بسيرة أبي بكر الصّدّيق، دار الفجر للتّراث، القاهرة، الطّبعة الثّانية، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، ص١٧.

(٤) التّرمذي: السّنن، (كتاب المناقب، باب مناقب أبي بكر الصّدّيق ﷺ)، ج٥، ص٦١٦، ح٣٦٧٩. وقال التّرمذيّ: "حديث غريب". ورواه ابن حبّان في صحيحه، ترتيب/ الأمير علاء الدّين بن بلبان (الإحسان في تقريب صحيح ابن حبّان)، تحقيق/ شعيب الأرناؤوط، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، (ذكر السّبب الّذي من أجله سمّي أبو بكر عتيقًا)، ج١٥، ص٢٨٠، ح٦٨٦٤. وصحّح المحقّق إسناده.

(٥) ابن حبّان: الصّحيح، (ذكر تسمية النّبيّ ﷺ أبا بكر ﷺ صدّيقًا)، ج١٥، ص٢٨٠.

(٦) البخاري: الصّحيح، (كتاب فضائل الصّحابة، باب قول النّبيّ ﷺ: لو كنت متخذًا خليلاً لاتّخذت أبا بكر)، ج٣، ص١٣٤٤، ح٣٤٧٢.

وقد اجتمعت الأمّة على تسمية أبي بكر ﷺ بالصّدّيق، لأنّه بادر إلى تصديق رسول الله ﷺ، ولازم الصّدق، فلم تقع منه هَناةٌ ما، ولا وقفةٌ في حال من الأحوال(١).

🕮 أشهر صفات أبي بكر الخَلْقية:

كان أبو بكر ﷺ أبيض اللّون، نحيف البدن، خفيف اللّحم(٢)، حتّى إنّ إزاره ليسترخي أحيانًا من أحد شقّيه(٣)، وقدم المدينة وهو أشمط(٤) اللّحية، فخضبها بالحِنّاء، والكَتَم(٥).

🕮 حياة أبي بكر ومكانته في الجاهليّة:

كان أبو بكر الصّدّيق ﷺ رجلاً عاقلاً عفيفًا، فقد حرّم على نفسه الخمر في الجاهليّة(٦)؛ وذلك أنّه مرّ برجل سكران يضع يده في العَذِرَة، ويدنيها من فيه، فإذا وجد ريحها صرفها عنه، فحرّمها أبو بكر منذ تلك اللّحظة على نفسه(٧).

---

(١) السّيوطي: تاريخ الخلفاء، تحقيق/ محمّد محيي الدّين عبد الحميد، المكتبة العصريّة، صيدا، بيروت، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م، ص٣١؛ الصّالحي: سُبل الهُدى والرّشاد في سيرة خير العباد وذكر فضائله وأعلام نبوّته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد، تحقيق/ عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمّد معوّض، دار الكتب العلميّة، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م، ج١١، ص٢٣٧.

(٢) رواه الحافظ أحمد بن منيع عن قيس بن أبي حازم مشاهدة بإسناد صحيح. ابن حجر: المطالب العالية بزوائد المسانيد الثّمانية، دار العاصمة، الرّياض، الطّبعة الأولى، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، ج١٥، ص٦٩٣.

(٣) البخاري: الصّحيح، (كتاب الأدب، باب من أثنى على أخيه بما يعلم)، ج٥، ص٢٢٥٢، ح٥٧١٥؛ التّرمذي الحكيم: المنهيّات، تحقيق/ محمّد عثمان الخشت، مكتبة القرآن، القاهرة، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ص٥٣.

(٤) أشمط: اختلط الشّيب بسواد شعره. ابن الجوزي: كشف المشكِل من حديث الصّحيحين، تحقيق/ علي حسين البوّاب، دار الوطن، الرّياض، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، ج٣، ص٢٩٨.

(٥) البخاري: الصّحيح، (كتاب فضائل الصّحابة، باب هجرة النّبيّ ﷺ وأصحابه إلى المدينة)، ج٣، ص١٤٢٦، ح٣٧٠٥. والكتَم: نبت فيه حمرة. ابن منظور: لسان العرب، ج١٢، ص٥٠٨.

(٦) أبو نعيم: معرفة الصّحابة، تحقيق/ عادل يوسف العزّازي، دار الوطن، الرّياض، الطّبعة الأولى، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ج١، ص٣٣. وجوّد السّيوطيّ إسناد أبي نعيم، وصحّح رواية ابن عساكر في ترك أبي بكر وعثمان شرب الخمر. تاريخ الخلفاء، ص٣٤.

(٧) أبو نعيم: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، مطبعة السّعادة، القاهرة، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م، ج٧، ص١٦٠.



ورُوي أنّ أبا بكر الصّدّيق ﷺ رفض الاستجابة لأبيه في عبادة الأصنام، ولم يسجد لصنم قطّ[١].

وكان أبو بكر الصّدّيق ﷺ أنسب قريش لقريش، وأعلمها بما كان فيها من خير أو شرّ، وكان مَألَفًا (مؤلّفًا) لقومه، محبّبًا، سهلاً، وكان رجلاً تاجرًا ذا خلق ومعروف، ولذلك كان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر، لعلمه، وتجارته، وحسن مجالسته[٢].

ولهذا كلّه كان أبو بكر ﷺ من وجهاء قريش وأشرافهم وأحد رؤسائهم، وذلك أنّ الشّرف في قريش في الجاهليّة قد انتهى إلى عشرة رهط من عشرة أبطن، وكانت لأبي بكر الأشناق، وهي الدّيّات، فكان إذا حمل شيئًا صدّقته قريش وأمضوا حمالته وحمالة من قام معه، وإن احتملها غيره خذلوه ولم يصدّقوه[٣].

وقد خاطب ابن الدُّغُنّة - سيّد القارة - أبا بكر ﷺ عندما خرج مهاجرًا إلى الحبشة بقوله: "إِنَّ مِثْلَكَ لَا يَخْرُجُ وَلَا يُخْرَجُ، فَإِنَّكَ تَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ على نَوَائِبِ الْحَقِّ، وَأَنَا لَكَ جَارٌ، فَارْجِعْ فَاعْبُدْ رَبَّكَ بِبِلَادِكَ"[٤]، فوصفه بنظير ما وصفت به خديجةُ رضي الله عنها رسولَ الله ﷺ لمّا بُعث، فتواردا فيهما على نعت واحد من غير أن يتواطئا على ذلك، وهذا غاية في مدح الصّدّيق؛ لأنّ صفات النّبيّ ﷺ منذ نشأ كانت أكمل الصّفات[٥].

---

(١) ابن حديدة الأنصاري: المصباح المُضِي في كُتّاب النّبي الأمّي ورسلِه إلى ملوك الأرض من عربي وعجمي، تحقيق/ محمّد عظيم الدّين، عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، جا، ص٣٨.

(٢) محمّد بن إسحاق: المبتدأ والمبعث والمغازي، (سيرة ابن إسحاق)، تحقيق/ محمّد حميد الله الحيدر آبادي الهندي، معهد الدّراسات والأبحاث للتعريب، المغرب، ١٣٩٦هـ/١٩٧٦م، ص١٢١.

(٣) ابن عبد البرّ: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، تحقيق/ علي محمّد البجّاوي، دار الجيل، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، ج٣، ص٩٦٦.

(٤) البخاري: الصّحيح، (كتاب الكفالة، باب جوار أبي بكر)، ج٢، ص٨٠٤، ح٢١٧٥.

(٥) ابن حجر: الإصابة في تمييز الصّحابة، ج٤، ص١٤٩.

🕮 إسلام أبي بكر:

تتعارض الرّوايات في أوّليّة من أسلم من الذّكور بين أبي بكر وعليّ رضي الله عنهما؛ فقد صحّ عن زيد بن أرقم ﷺ أنّه قال: "أَوَّلُ مَنْ أَسْلَمَ عَلِيٌّ"(١).

وفي أثرٍ عن عبد الله بن عبّاس رضي الله عنهما أنّ عليّ بن أبي طالب ﷺ كان "أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ مِنَ النَّاسِ بَعْدَ خَدِيجَةَ"(٢).

وصحّ في شأن أبي بكر الصّدّيق ﷺ أنّ النّبيّ ﷺ قال: "إِنَّ اللَّهَ بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ، فَقُلْتُمْ: كَذَبْتَ، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ صَدَقَ، وَوَاسَانِي بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ"(٣). وهذا كالنّص على أنّه أوّلُ من أسلم، كما رآه الحافظ ابن كثير (ت: ٧٧٤هـ/١٣٧٢م)(٤).

وفي حديث لأبي بكر ﷺ يخاطب فيه جمعًا من الصّحابة ﷺ فيقول: "أَلَسْتُ أَحَقَّ النَّاسِ بِهَا؟ أَلَسْتُ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ؟ أَلَسْتُ صَاحِبَ كَذَا، أَلَسْتُ صَاحِبَ كَذَا؟(٥).

ولهذا جزم بعض العلماء بأوّليّة إسلام الصّدّيق ﷺ، وكذّبوا الرّواية الأخرى؛ لأنّ عليًّا ﷺ كان صغير السّنّ آنذاك، "لم تجْرِ عليه الأحكام والفرائض والحدود"(٦).

---

(١) التّرمذي: السّنن، (كتاب المناقب، باب مناقب عليّ بن أبي طالب ﷺ)، ج٥، ص٦٤٢، ح٣٧٣٥. وقال التّرمذيّ: "هذا حديث حسن صحيح". ورواه الحاكم النّيسابوريّ، وصحّح إسناده، وأقرّه الذّهبيّ. المستدرك على الصّحيحين، وبهامشه تلخيص المستدرك، تحقيق/ مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلميّة، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤١١هـ/١٩٩٠م، ج٣، ص٣٤٧.

(٢) أحمد بن حنبل: المسند، ج٥، ص١٧٩، ح٣٠٦١. وضعّف المحقّقون إسناده.

(٣) البخاري: الصّحيح، (كتاب فضائل الصّحابة، باب قول النّبيّ ﷺ: لو كنت متّخذًا خليلاً)، ج٣، ص١٣٣٩، ح٣٤٦١.

(٤) ابن كثير: البداية والنّهاية، ج٣، ص٣٧.

(٥) التّرمذي: السّنن، (كتاب المناقب، باب مناقب أبي بكر ﷺ)، ج٥، ص٦١١، ح٣٦٦٧. وقد رواه التّرمذيّ من طريقين، وقوّى إحداهما في الصّحة عن الأخرى. ورواه ابن حبّان في صحيحه، ج١٥، ص٢٧٩، ح٦٨٦٣. وعلق عليه شعيب الأرناؤوط فقال: "رجاله ثقات". ورواه المقدسيّ في الأحاديث المختارة، تحقيق/ عبد الملك عبد الله دهيش، دار خضر، بيروت، الطّبعة الثّالثة، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، ج١، ص١٠٠، ١٠١، ح١٨. وقال المحقّق: "إسناده صحيح".

(٦) ابن أبي يَعْلَى: طبقات الحنابلة، دار المعرفة، بيروت، بدون تاريخ طبع، ج١، ص٣٤٣.

📖 **نهوض أبي بكر للدّعوة إلى الإسلام وجهاده في سبيل الله:**

كان أبو بكر ﷺ كنزًا ادّخره الله ﷻ لنبيّه ﷺ[1]؛ فلقد جمع الله فيه كلّ الصّفات الّتي يحتاجها الدّاعية إلى الإسلام، ولذلك كان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر، لعلمه، وتجارته، وحسن مجالسته، فلمّا أسلم أظهر إسلامه، وجعل يدعو إلى الإسلام من وثق به من قومه ممّن يغشاه ويجلس إليه، فكان ممّن أسلم على يديه: عثمان بن عفّان الأمويّ، وطلحة بن عبيد الله التّيميّ، والزّبير بن العوّام الأسديّ، وسعد بن أبي وقّاص الزّهريّ، وعبد الرّحمن بن عوف الزّهريّ، وغيرهم من سادات الصّحابة ﷺ[2].

وبلغت ثروة أبي بكر ﷺ عند بعثة النّبيّ ﷺ أربعين ألف درهمٍ[3]، فكان يُعتق منها ويقوّي المسلمين حتّى قدم المدينة بخمسة آلاف درهمٍ، ثمّ كان يفعل فيها ما كان يفعلُ بمكّة[4]، ومات ولم يترك دينارًا ولا درهمًا[5]، ولذا قال النّبيّ ﷺ في حقّه: "مَا لِأَحَدٍ عِنْدَنَا يَدٌ إِلَّا وَقَدْ كَافَيْنَاهُ مَا خَلَا أَبَا بَكْرٍ، فَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا يَدًا يُكَافِيهِ اللَّهُ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَا نَفَعَنِي مَالُ أَحَدٍ قَطُّ مَا نَفَعَنِي مَالُ أَبِي بَكْرٍ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلاً لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً، أَلَا وَإِنَّ صَاحِبَكُمْ خَلِيلُ اللَّهِ"[6].

وقد شهد أبو بكر الصّدّيق ﷺ المشاهد كلّها مع رسول الله ﷺ، واختصّ بمصاحبته للنّبيّ ﷺ في الهجرة المباركة[7]، ومرافقته له في الغار[8]، كما أمره النّبيّ ﷺ

---

(١) ابن كثير: البداية والنّهاية، ج٣، ص٢٦.

(٢) ابن إسحاق: سيرة ابن إسحاق، ص١٢١؛ ابن حجر: الإصابة في تمييز الصّحابة، ج٤، ص١٤٧.

(٣) أبو داود: الزّهد، تحقيق/ ياسر إبراهيم، وآخرين، دار المشكاة، حلوان، مصر، الطّبعة الأولى، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م، ص٥٨. والأثر عن عروة بن الزّبير بسند صحيح. ابن حجر: الإصابة، ج٤، ص١٤٧.

(٤) ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٣، ص١٧٢؛ ابن حجر: الإصابة، ج٤، ص١٤٧، ١٤٨.

(٥) أبو داود: الزّهد، ص٥٨. والأثر عن السّيّدة عائشة بسند صحيح. ابن حجر: الإصابة، ج٤، ص١٤٧.

(٦) التّرمذي: السّنن، (كتاب المناقب، مناقب أبي بكر)، ج٥، ص٦٠٩، ح٣٦٦١. وقال التّرمذيّ: "هذا حديث حسنٌ غريب".

(٧) البخاري: الصّحيح، (كتاب فضائل الصّحابة، باب هجرة النّبيّ ﷺ وأصحابه إلى المدينة)، ج٣، ص١٤١٨، ح٣٦٩٢.

(٨) ابن حجر: الإصابة، ج٤، ص١٤٨.

بالصّلاة بالنّاس في حياته، ولم يسمح لأحد من الصّحابة بالتّقدّم للإمامة في حضوره[1]، وأمّره على النّاس في الحجّ سنة تسع من الهجرة[2].

ولئن كانت ولاياتُ أبي بكر ﷺ على المغازي والسّرايا قليلةً في حياة النّبيّ ﷺ فلا يدلّ ذلك على فضل غيره عليه؛ لأنّ النّبيّ ﷺ ولّى على الرّاشدينَ الأربعةِ من هم دونهم باتّفاق أهل السُّنّة والشّيعة، مثل عمرو بن العاص، وخالد بن الوليد رضي الله عنهما، ثمّ إنّ ترك ولايته لا يدلّ على نقصه، بل قد يترك النّبيّ ﷺ ولايته لأنّه عنده أنفع له منه في تلك الولاية، وحاجته إليه في المقام عنده وغنائه عن المسلمين أعظم من حاجته إليه في تلك الولاية، فإنّ أبا بكر وعمر رضي الله عنهما كانا مثل الوزيرين للنّبيّ ﷺ، وكان يكثر من مشاورتهما، لكن كانت مشاورته لأبي بكر ﷺ أغلب، واجتماعه به أكثر، وعلى هذا النّهج النّبويّ سار عمر ﷺ في خلافته؛ فإنّه لم يكن يولّي أهل الشّورى، كعثمان، وعليّ، وطلحة، والزّبير، وهم عنده أفضل ممّن ولّاه مثل عمرو بن العاص، ومعاوية، وغيرهما؛ لأنّ انتفاعه بأهل الشّورى في حضوره أكمل من انتفاعه بواحد منهم في ولاية يكفي فيها من دونهم[3].

🕮 علم الصّدّيق وفطنته:

كان أبو بكر الصّدّيق ﷺ أعلمَ الصّحابة وأذكاهم[4]، ويدلّ على ذلك حديث أبي سعيدٍ الخُدْرِيّ ﷺ بآخر خطبة للنّبيّ ﷺ[5]، وفيها جلس على المنبر فقال: "إِنَّ عَبْدًا خَيَّرَهُ اللهُ بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيَهُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا مَا شَاءَ، وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ، فَاخْتَارَ مَا عِنْدَهُ"، فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ،

---

(١) أحمد بن حنبل: المسند، ج٣١، ص٢٠٣- ٢٠٦، ح١٨٩٠٦؛ أبو داود: السّنن، (كتاب السُّنّة، باب في استخلاف أبي بكر ﷺ)، ج٧، ص٥٥، ح٤٦٦٠. والحديث صحيح؛ لإمامة ابن إسحاق في السّيرة، وتصريحه بالتّحديث عند أبي داود والحاكم، وصحّة سماع أحمد بن عبد الجبّار للسّيرة.

(٢) البخاري: الصّحيح، (كتاب التّفسير، باب قوله تعالى: ﴿فَسِيحُوا فِي الأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾، ج٤، ص١٧٠٩، ح٤٣٧٨؛ مسلم: الصّحيح، (كتاب الحجّ، باب لا يحجّ بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان)، ج٢، ص٩٨٢، ح١٣٤٧.

(٣) ابن تيمية: منهاج السُّنّة، ج٨، ص٢٩٤، ٢٩٥.

(٤) النّوويّ: تهذيب الأسماء واللّغات، دار الكتب العلميّة، بيروت، بدون تاريخ طبع، ج٢، ص١٩٠.

(٥) الحاكم: المستدرك على الصّحيحين، ج٤، ص٣١٤، ح٧٧٥٦. وصحّح الحاكم هذا الحديث على شرط الشّيخين، وأقرّه الذّهبيّ.



وقال: فَدَيْنَاكَ بِآبَائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا، فَعَجِبْنَا لَهُ، وَقَالَ النَّاسُ: انْظُرُوا إِلَى هذَا الشَّيْخِ، يُخْبِرُ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَنْ عَبْدٍ خَيَّرَهُ اللهُ بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيَهُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا مَا شَاءَ وَبَيْنَ مَا عِنْدَ اللهِ، وَهُوَ يَقُولُ: فَدَيْنَاكَ بِآبَائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا! فَكَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ هُوَ الْمُخَيَّرَ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ هُوَ أَعْلَمَنَا بِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "إِنَّ مِنْ أَمَنِّ النَّاسِ عَلَيَّ فِي صُحْبَتِهِ وَمَالِهِ أَبَا بَكْرٍ، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلاً مِنْ أُمَّتِي لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ، إِلَّا خُلَّةَ الْإِسْلَامِ، لَا يَبْقَيَنَّ فِي الْمَسْجِدِ خَوْخَةٌ(١) إِلَّا خَوْخَةُ أَبِي بَكْرٍ"(٢).

وقد نصّ غير واحد من العلماء على أنّ أبا بكر ﷺ من كبار الصّحابة الّذين حفظوا القرآن كلّه(٣).

واستدلّ الشّيخ أبو الحسن الأشعريّ (ت: ٣٣٤هـ/٩٣٦م) بتقديم النّبيّ ﷺ لأبي بكر الصّدّيق ﷺ في الصّلاة على أنّه أعلمُ الصّحابة وأقرؤهم، وذلك لقول النّبيّ ﷺ: "يَؤُمُّ الْقَوْمَ أَقْرَؤُهُمْ لِكِتَابِ اللهِ، فَإِنْ كَانُوا فِي الْقِرَاءَةِ سَوَاءً، فَأَعْلَمُهُمْ بِالسُّنَّةِ، فَإِنْ كَانُوا فِي السُّنَّةِ سَوَاءً، فَأَقْدَمُهُمْ هِجْرَةً، فَإِنْ كَانُوا فِي الْهِجْرَةِ سَوَاءً، فَأَقْدَمُهُمْ سِلْمًا"(٤).

---

(١) خوخة: باب صغير كالنّافذة الكبيرة تكون بين بيتين ينصب عليها باب. ابن منظور: لسان العرب، ج٣، ص١٤. وكانت خوخة أبي بكر في غربي المسجد النّبويّ. ابن شبّة: أخبار المدينة، تحقيق/ علي محمد دندل، وياسين سعد الدّين بيان، دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٤١٧هـ، ج١، ص١٤٩.

(٢) البخاري: الصّحيح، (كتاب فضائل الصّحابة، باب هجرة النّبيّ ﷺ وأصحابه إلى المدينة)، ج٣، ص١٤١٧، ح٣٦٩١؛ مسلم: الصّحيح، (كتاب فضائل الصّحابة، باب من فضائل أبي بكر الصّدّيق ﷺ) ج٤، ص١٨٥٤، ح٢٣٨٢؛ التّرمذي: السّنن، (كتاب المناقب، مناقب أبي بكر)، ج٥، ص٦٠٨، ح٣٦٦٠.

(٣) النّوويّ: تهذيب الأسماء واللّغات، ج٢، ص١٩١؛ ابن حجر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، تحقيق/ محمّد فؤاد عبد الباقي، ومحبّ الدين الخطيب، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩هـ/١٩٥٩م، ج٩، ص٥١؛ السّيوطي: الإتقان في علوم القرآن، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م، ج١، ص٢٤٧.

(٤) أحمد بن حنبل: المسند، ج٢٨، ص٣٢٠، ٣٢١، ح١٧٠٩٢؛ مسلم: الصّحيح، (كتاب المساجد ومواضع الصّلاة، باب من أحقّ بالإمامة)، ج١، ص٤٦٥، ح٦٧٣؛ أبو داود: السّنن، (كتاب الصّلاة، باب من أحقّ بالإمامة)، ج١، ص٤٣٦، ح٥٨٢؛ التّرمذي: السّنن، (كتاب الصّلاة، باب من أحقّ بالإمامة)، ج١، ص٤٥٨- ٤٦١، ح٢٣٥. وفي رواية بنفس الموضع من صحيح مسلم: "أكبرهم سنًّا" مكان "سلمًا". والمقصود بالسّلم الإسلام.

وعلّق الحافظ ابن كثير فقال: "وَهَذَا مِنْ كَلَامِ الأَشْعَرِيِّ - رحمه الله - مِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يُكْتَبَ بِمَاءِ الذَّهَبِ"(١).

وقد عنون الإمام البخاريّ - رحمه الله - (ت: ٢٥٦هـ/٨٧٠م) لبابٍ في صحيحه بقوله: "بَابٌ: أَهْلُ العِلْمِ وَالفَضْلِ أَحَقُّ بِالإِمَامَةِ"، وأدرج تحته خمسة أحاديث في تقديم رسول الله ﷺ أبا بكر للصّلاة بالنّاس(٢)، وعنوان البخاريّ يدلّ دلالة صريحة على أنّ الصّدّيق أبا بكر ﷺ كان أعلم الصّحابة بالقرآن والسُّنّة وأفضلهم على الإطلاق. و"لم يكن أحدٌ يقضي ويخطب ويُفتي بحضرة النّبيّ ﷺ إلّا أبو بكر ﷺ، ولم يشتبه على النّاس شيءٌ من أمر دينهم إلّا فصّله أبو بكر"(٣).

ويدلّ على سبق أبي بكر ﷺ للصّحابة في العلم بالسُّنّة أنّهم رجعوا إليه في غير موضع، فبرز عليهم بنقل سُننٍ عن النّبيّ ﷺ ليست عندهم، وكان يحفظها ويستحضرها عند الحاجة إليها(٤)، كما كان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما يفتيان النّاس في زمن رسول الله ﷺ(٥).

ويؤيّد هذا قول النّبيّ ﷺ: "إِنِّي لَا أَدْرِي مَا بَقَائِي فِيكُمْ، فَاقْتَدُوا بِاللَّذَيْنِ مِنْ بَعْدِي"، وَأَشَارَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ"(٦).

وكان أبو بكر الصّدّيق ﷺ أعلمَ النّاس بأنساب العرب لاسيّما قريش، وكان غاية في علم تعبير الرّؤيا، وعرف ذلك عنه في زمن النّبيّ ﷺ، كما كان أفصح خطباء أصحاب رسول الله ﷺ، وأسَدّ الصّحابة رأيًا، وأكملهم عقلاً(٧).

---

(١) البداية والنّهاية، جـ٥، ص٢٥٦.

(٢) (كتاب الأذان)، جـ١، ص٢٣٩- ٢٤١.

(٣) ابن تيمية: منهاج السُّنّة، جـ٧، ص٥٠١.

(٤) السّيوطيّ: تاريخ الخلفاء، ص٤٢.

(٥) رواه ابن سعد من طريق الواقدي عن عبد الله بن عمر. الطّبقات الكبرى، جـ٢، ص٤٧٩.

(٦) أحمد بن حنبل: المسند، جـ٣٨، ص٣٠٩، ٣١٠، ح ٢٣٢٧٦؛ فضائل الصّحابة، تحقيق/ وصيّ الله محمّد عبّاس، دار ابن الجوزي، الدّمام، الطّبعة الثّانية، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، جـ١، ص٤٠٦، ح٤٧٨؛ التّرمذي: السّنن، (كتاب المناقب، مناقب أبي بكر الصّدّيق ﷺ)، جـ٥، ص٦٠٩، ٦١٠، ح٣٦٦٣، ٣٦٦٤. وقال التّرمذيّ: "هذا حديث حسن".

(٧) السّيوطي: تاريخ الخلفاء، ص٤٢.



🕮 ثبات الصّدّيق عند وفاة النّبيّ ﷺ:

لقد كان وقعُ خبر وفاة النّبيّ ﷺ شديدًا على الصّحابة ﷺ، حتّى أنكره الفاروق عمر ﷺ فقام فقال: "إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمْ يَمُتْ، وَلَكِنَّ رَبَّهُ أَرْسَلَ إِلَيْهِ كَمَا أَرْسَلَ إِلَى مُوسَى فَمَكَثَ عَنْ قَوْمِهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً، وَاللَّهِ إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ يَعِيشَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى يَقْطَعَ أَيْدِي رِجَالٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَأَلْسِنَتَهُمْ يَزْعُمُونَ - أَوْ قَالَ يَقُولُونَ - إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ مَاتَ"(١).

وكان أبو بكر ﷺ قد ظنّ أنّ النّبيّ ﷺ برأ من مرضه لمّا نظر إليهم في صلاة الصّبح وضحك إليهم يوم الاثنين الّذي توفّي فيه، فخرج إلى مسكنه بالسُّنْح - أعلى المدينة - فلمّا بلغه الخبر أقبل مسرعًا على فرسه، فلم يُكلّم النّاس حتّى دخل على النّبيّ ﷺ وهو مُسَجًّى بِبُرْدِ حِبَرَةٍ(٢)، فكشف عن وجهه، ثمّ أكبّ عليه فقبّله، ثمّ بكى فقال: "بِأَبِي أَنْتَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ، لَا يَجْمَعُ اللَّهُ عَلَيْكَ مَوْتَتَيْنِ، أَمَّا الْمَوْتَةُ الَّتِي كُتِبَتْ عَلَيْكَ فَقَدْ مُتَّهَا". ثمّ خرج إلى النّاس وقد هالهم الأمر، فهم بين منكرٍ ومصدّق، وعمر يخطبهم منكرًا الوفاة، فأمره الصّدّيق أبو بكر ﷺ بالجلوس فأبى عليه، فتشهّد فمال إليه النّاس، وتركوا عمر، فقال: "أَمَّا بَعْدُ، فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا ﷺ فَإِنَّ مُحَمَّدًا ﷺ قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ"، وتلا عليهم قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾(٣)، فتلقّاها منه النّاسُ، وكأنّهم لم يكونوا يعلمون أَنّ الله أنزلها حتّى تلاها أبو بكر ﷺ فما يُسمع بشرٌ إلّا يتلوها. وأمّا عمر ﷺ فهوى إلى الأرض ما تُقلّه رجلاه إذ علم أنّ رسول الله ﷺ قد مات(٤).

---

(١) أحمد بن حنبل: المسند، ج٢٠، ص٣٣٠، ٣٣١، ح١٣٠٢٨؛ ابن حبّان: الصّحيح، ج١٥، ص٢٩٦. وصحّح المحقّقون هذا الحديث.

(٢) برد حبرة: الحِبَرَة والحَبَرة: ضرب من برود اليمن منمّر. ابن منظور: لسان العرب، ج٤، ص١٥٩.

(٣) سورة آل عمران: الآية ١٤٤.

(٤) البخاري: الصّحيح، (كتاب المغازي، باب مرض النّبيّ ﷺ ووفاته)، ج٤، ص١٦١٨، ح٤١٨٧.

وقد ظهر في هذا الموقف رجحان علم الصّدّيق ﷺ، ورباطة جأشه، وشجاعته، وجرأته، وقوّة رأيه(١).

وقد زعم الرّاوية الكذوب سيف بن عمر التّميميّ أنّ عمر بن الخطّاب ﷺ قال عند وفاة النّبيّ ﷺ: "وَاللهِ لَا أَسْمَعُ أَحَدًا يَذْكُرُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ مَاتَ إِلَّا عَلَوْتُهُ بِسَيْفِي هَذَا"! وزاد بأنّ العبّاس بن عبد المطّلب ﷺ قام في المسلمين قبل أبي بكر ﷺ فتكلّم بنحو كلامه، ولكنّ المسلمين لم يسمعوا له(٢).

ولم أجد هذا الموقف المذكور للعبّاس ﷺ في شيء من كتب السُّنّة والسّيرة، وأقطع بأنّه من أكاذيب سيف بن عمر التّميميّ الّتي حشرها في فتوحه مجاملة للملوك العبّاسيّين.

وقد راح بعض المؤرّخين يستنتجون ويفيدون من هذا الخبر المكذوب، ثمّ قام بعض المشتغلين بتحقيق الكتب والتّعليق عليها بعزو مثل هذه الأخبار الموضوعة إلى صحيح الإمام البخاريّ!(٣).

(١) ابن حجر: فتح الباري، ج٧، ص٣٠، ج٨، ص١٤٦.

(٢) انفرد به سيف بن عمر التّميمي. ابن ناصر الدّين الدّمشقي: جامع الآثار في السِّيَر ومولد المختار، تحقيق/ نشأت كمال، دار الفلاح، الطّبعة الأولى، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م، ج٦، ص٤٦٦؛ المقريزي: إمتاع الأسماع بما للنّبيّ ﷺ من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع، تحقيق/ محمّد عبد الحميد التّميسيّ، دار الكتب العلميّة، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ج١٤، ص٥٥٩. وعلّق الحافظ العراقيّ على هذا الخبر فقال: "لم أجد له أصلاً، وهو منكر". المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار، دار ابن حزم، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، ص١٨٥٤.

(٣) ينظر محمّد الطّيّب النّجّار: القول المبين في سيرة سيّد المرسلين، دار النّدوة الجديدة، بيروت، ص٣٩٦، ٣٩٧.



الفصل الثّاني
استخلاف أبي بكر الصّدّيق

🕮 إشارات النّبيّ ﷺ باستخلاف أبي بكر:

تحوي كتب السُّنّة النّبويّة عدّة روايات تشير إلى استخلاف رسول الله ﷺ لأبي بكر الصّدّيق ﷺ من بعده، ولكنّ العلماء يختلفون حول هذه الإشارات بين التّلميح والنّصّ الصّريح، كما سيتبيّن من هذا العرض السّريع.

(١) ثبت أنّ النّبيّ ﷺ كان ذات يوم في مجلسٍ مع أصحابه فقال: "إِنِّي لَا أَدْرِي مَا بَقَائِي فِيكُمْ، فَاقْتَدُوا بِاللَّذَيْنِ مِنْ بَعْدِي"، وأشار إلى أبي بكرٍ وعمر[(١)].

(٢) لمّا بعث بنو المُصْطَلِقِ[(٢)] الخزاعيّون أنسَ بن مالك ﷺ إلى رسول الله ﷺ بسؤالهم له: "إِلَى مَنْ نَدْفَعُ صَدَقَاتِنَا بَعْدَكَ؟ فَقَالَ: "إِلَى أَبِي بَكْرٍ"[(٣)].

(٣) حدث أن جاءت امرأةٌ إلى النّبيّ ﷺ فسألته شيئًا، فأمرها أن ترجع إليه، فقالت: أرأيْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنْ لَمْ أَجِدْكَ؟ {كأنّها تعني الموت} فقال: "إِنْ لَمْ تَجِدِينِي، فَأْتِي أَبَا بَكْرٍ"[(٤)].

فهذا الحديث يبيّن أنّ النّبيّ ﷺ أرشد الأمّة إلى خلافة أبي بكر الصّدّيق ﷺ ودلّهم عليها، وأنّ أبا بكر أحقّ بها من غيره[(٥)].

---

(١) أحمد بن حنبل: المسند، ج٣٨، ص٣٠٩، ٣١٠، ح٢٣٢٧٦؛ فضائل الصّحابة، ج١، ص٢٢٨- ٢٣٠، ح١٩٨. التّرمذي: السّنن، (كتاب المناقب، مناقب أبي بكر الصّدّيق)، ج٥، ص٦٠٩، ٦١٠، ح٣٦٦٣، ٣٦٦٤. وقال التّرمذيّ: "هذا حديثٌ حسن".

(٢) بنو المصطلق: بطن من خزاعة، غزاهم رسول الله ﷺ في الغزوة المعروفة بالمريسيع، وتزوّج جويرية بنت سيّدهم الحارث بن أبي ضرار فأعتق الصّحابة أسراهم، فدخلوا في الإسلام. يحي عصمت عبد العزيز هيبة: دور خزاعة في نشر الإسلام، من فجر الإسلام إلى نهاية العصر الأموي، رسالة ماجستير، كلّيّة الشّريعة، جامعة أمّ القرى، ١٤٠٩هـ، ص٧٤- ٨٢.

(٣) الحاكم: المستدرك، ج٣، ص٨٢، ح٤٤٦٠. وصحّح الحاكم إسناده على شرط الشّيخين، وأقرّه الذّهبيّ.

(٤) البخاري: الصّحيح، (كتاب الأحكام، باب الاستخلاف)، ج٦، ص٢٦٣٩، ح٦٧٩٤؛ (كتاب الاعتصام بالكتاب والسُّنّة، باب الأحكام الّتي تعرف بالدّلائل)، ج٦، ص٢٦٧٩، ح٦٩٢٧؛ مسلم: الصّحيح، (كتاب فضائل الصّحابة، باب من فضائل أبي بكر الصّدّيق ﷺ)، ج٤، ص١٨٥٦، ح٢٣٨٦.

(٥) ابن تيمية: منهاج السُّنّة، ج٨، ص٥٧٥.

(٤) ثبت عن أبي هريرة ﷺ أنّه سمع النّبيّ ﷺ يقول: "بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُنِي عَلَى قَلِيبٍ[١] عَلَيْهَا دَلْوٌ، فَنَزَعْتُ مِنْهَا مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ أَخَذَهَا ابْنُ أَبِي قُحَافَةَ فَنَزَعَ بِهَا ذَنُوبًا أَوْ ذَنُوبَيْنِ[٢]، وَفِي نَزْعِهِ ضَعْفٌ، وَاللَّهُ يَغْفِرُ لَهُ ضَعْفَهُ، ثُمَّ اسْتَحَالَتْ غَرْبًا، فَأَخَذَهَا ابْنُ الخَطَّابِ فَلَمْ أَرَ عَبْقَرِيًّا[٣] مِنَ النَّاسِ يَنْزِعُ نَزْعَ عُمَرَ، حَتَّى ضَرَبَ النَّاسُ بِعَطَنٍ"[٤].

(٥) لمّا اشتدّ المرض على النّبيّ ﷺ عند وفاته وحضرت الصّلاةُ قال: "مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ"، فَقَالَتْ عَائِشَةُ ﵂: إِنَّهُ رَجُلٌ رَقِيقٌ، إِذَا قَامَ مَقَامَكَ لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يُصَلِّيَ بِالنَّاسِ، فأعاد قوله ثلاث مرار لمعاودتها، وزاد في الثّالثة: "مُرِي أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ، فَإِنَّكُنَّ صَوَاحِبُ يُوسُفَ"[٥].

(٦) عندما قدّم الصّحابةُ عمرَ ﷺ للصّلاة في غيبة أبي بكر، وسمع رسول الله ﷺ تكبيره قال: "فَأَيْنَ أَبُو بَكْرٍ؟ يَأْبَى اللَّهُ ذَلِكَ وَالْمُسْلِمُونَ، يَأْبَى اللَّهُ ذَلِكَ وَالْمُسْلِمُونَ"[٦].

---

(١) القليب: البئر الّتي لم تطو، وقيل هي البئر القديمة العادية الّتي لا يعلم لها صاحب، وهي تُذكّر وتؤنّث. ابن منظور: لسان العرب، جـ١، ص٦٨٩.

(٢) الذّنوب: الدّلو العظيمة، ويقال إنّها تذكّر وتؤنّث. ابن منظور: لسان العرب، جـ١، ص٣٩٢.

(٣) العبقريّ: يطلق على سيّد القوم وكبيرهم وشديدهم وقويّهم، كما يطلق على فائق الذّكاء، والمتفوّق المبرّز النّابغة. ابن منظور: لسان العرب، جـ٤، ص٥٣٥؛ أحمد مختار عبد الحميد: معجم اللّغة العربيّة المعاصرة، عالم الكتب، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، جـ٢، ص١٤٥٢.

(٤) البخاري: الصّحيح، (كتاب المناقب، باب علامات النّبوّة في الإسلام)، جـ٣، ص١٣٢٩، ح٣٤٣٤؛ مسلم: الصّحيح، (كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عمر ﷺ)، جـ٤، ص١٨٦٠، ح٢٣٩٢. وقد شرح الإمام الشّافعيّ قوله: "وفي نزعه ضعف"، فقال: "قصر مدّته، وعجلة موته، وشغله بالحرب لأهل الرّدّة عن الافتتاح والتّزيّد الّذي بلغه عمر في طول مدّته". كتاب الأُمّ، دار المعرفة، بيروت، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، جـ١، ص١٨٩.

(٥) البخاري: الصّحيح، (كتاب الأذان، باب أهل العلم والفضل أحقّ بالإمامة)، جـ١، ص٢٤٠، ح٦٤٦؛ مسلم: الصّحيح، (كتاب الصّلاة، باب استخلاف الإمام إذا عرض له عذر)، جـ١، ص٣١٦، ح٤٢٠. وقد شبّه رسولُ الله ﷺ عائشة ﵂ بصواحب يوسف في إظهار خلاف ما في الباطن. ابن حجر: فتح الباري، جـ٢، ص١٥٣.

(٦) أحمد بن حنبل: المسند، جـ٣١، ص٢٠٣، ح١٨٩٠٦؛ أبو داود: السّنن، (كتاب السُّنّة، باب في استخلاف أبي بكر ﷺ)، جـ٧، ص٥٥، ح٤٦٦٠. كلاهما من طريق محمّد بن إسحاق، وهو إمام في السّير والمغازي.

(٧) روتْ عائشة رضي الله عنها أنّ رسول الله ﷺ قال لها في مرضه الأخير: "ادْعِي لِي أَبَا بَكْرٍ، أَبَاكِ، وَأَخَاكِ، حَتَّى أَكْتُبَ كِتَابًا، فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يَتَمَنَّى مُتَمَنٍّ وَيَقُولَ قَائِلٌ: أَنَا أَوْلَى، وَيَأْبَى اللهُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَّا أَبَا بَكْرٍ"(١).

ولأهل السُّنّة قولان في إمامة أبي بكر الصّدّيق رضي الله عنه من حيث الإشارة إليها بالنّصّ الخفيّ أو الجليّ، فقالت طائفة بثبوت إمامته بالنّصّ الخفيّ والإشارة، وهذا قول الحسن البصريّ (١١٠هـ/٧٢٨م)(٢)، ورواية عن الإمام أحمد (ت: ٢٤١هـ/٨٥٥م)، وجماعة من أهل الحديث(٣)، وترى طائفة أخرى من أهل الحديث والفقه والكلام أنّ خلافة أبي بكر رضي الله عنه ثابتةٌ بالنّص الجليّ(٤).

والنّاظر في مواقف الصّحابة رضي الله عنهم وفي مقدّمتهم بنو هاشم يراهم متّفقين على أنّ النّبيّ ﷺ لم يصرّح بالخليفة من بعده، ويؤيّد هذا أنّ عبد الله بن عبّاس رضي الله عنهما أخبر "أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه خَرَجَ مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي وَجَعِهِ الَّذِي تُوُفِّيَ فِيهِ، فَقَالَ النَّاسُ: يَا أَبَا حَسَنٍ، كَيْفَ أَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟ فَقَالَ: أَصْبَحَ بِحَمْدِ اللَّهِ بَارِئًا، فَأَخَذَ بِيَدِهِ عَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَقَالَ لَهُ: أَنْتَ وَاللَّهِ بَعْدَ ثَلَاثٍ عَبْدُ الْعَصَا، وَإِنِّي وَاللَّهِ لَأَرَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ سَوْفَ يُتَوَفَّى مِنْ وَجَعِهِ هَذَا، إِنِّي لَأَعْرِفُ وُجُوهَ بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ عِنْدَ الْمَوْتِ، اذْهَبْ بِنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَلْنَسْأَلْهُ فِيمَنْ هَذَا الْأَمْرُ، إِنْ كَانَ فِينَا عَلِمْنَا ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ فِي غَيْرِنَا عَلِمْنَاهُ، فَأَوْصَى بِنَا، فَقَالَ عَلِيٌّ: إِنَّا وَاللَّهِ لَئِنْ سَأَلْنَاهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَمَنَعَنَاهَا لَا يُعْطِينَاهَا النَّاسُ بَعْدَهُ، وَإِنِّي وَاللَّهِ لَا أَسْأَلُهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ"(٥).

---

(١) أحمد بن حنبل: فضائل الصّحابة، ج١، ص٢٣٣، ٢٣٤، ح٢٠٥؛ مسلم: الصّحيح، (كتاب فضائل الصّحابة، باب من فضائل أبي بكر الصّدّيق رضي الله عنه)، ج٤، ص١٨٥٧، ح٢٣٨٧.

(٢) البلاذري: أنساب الأشراف، تحقيق/ سهيل زكّار، ورياض زركلي، دار الفكر، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، ج١، ص٥٦١.

(٣) ابن تيمية: منهاج السُّنّة النّبويّة، ج١، ص٤٨٦، ٤٨٧.

(٤) ابن حزم: الفِصَل في المِلل والأهواء والنِّحَل، مكتبة الخانجي، القاهرة، بدون تاريخ طبع، ج٤، ص٨٨؛ ابن تيمية: منهاج السُّنّة، ج١، ص٤٨٨. ج٦، ص٤٤٣.

(٥) أحمد بن حنبل: المسند، ج٤، ص٢٠٥، ح٢٣٧٤؛ البخاري: الصّحيح، (كتاب المغازي، باب مرض النّبيّ ﷺ ووفاته)، ج٤، ص١٦١٥، ح٤١٨٢.

وتؤكّد مواقف الصّحابة ﭫ هذا القول في اختيار خليفة للنّبيّ ﷺ عقب وفاته، ولو كان ثَمّتَ نصٌّ على الخلافة ما خاضوا فيها[(١)]، ولا فكّر الأنصار في اختيار خليفة منهم قبل الاجتماع على أبي بكر[(٢)].

ولمّا قيل لعمرَ بن الخطّاب ﭬ: "أَلَا تَسْتَخْلِفُ؟ قَالَ: إِنْ أَسْتَخْلِفْ فَقَدِ اسْتَخْلَفَ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي، أَبُو بَكْرٍ، وَإِنْ أَتْرُكْ فَقَدْ تَرَكَ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي، رَسُولُ اللَّهِ ﷺ"[(٣)].

وقد جزمت السّيّدة عائشة ﭶ بأنّ رسول الله ﷺ قُبض ولم يستخلف أحدًا[(٤)]. ولمّا سُئلت "مَنْ كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُسْتَخْلِفًا لَوِ اسْتَخْلَفَهُ؟ قَالَتْ: أَبُو بَكْرٍ، فَقِيلَ لَهَا: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَتْ: عُمَرُ، قِيلَ لَهَا: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَتْ: أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ"[(٥)].

وجدير بالذّكر أنّ أمّ المؤمنين عائشة ﭶ هي الّتي أمرها النّبيّ ﷺ أن تدعو له أباها وأخاها في مرضه الأخير ليكتب للنّاس كتابًا، كما في أبين رواية يستدلّ بها القائلون بالنّصّ الجليّ، ولو كان عندَ أحدٍ من المهاجرين والأنصار نصٌّ من النّبيّ ﷺ على تعيين أحدٍ بعينه للخلافة لما اختلفوا في ذلك ولا تفاوضوا فيه، وهذا قولُ جمهور أهل السُّنّة، واستند من قال إنّهُ نصَّ على خلافة أبي بكرٍ ﭬ بأُصولٍ كلّيّةٍ، وقرائنَ حاليّةٍ، تقتضي أنّه أحقُّ بالإمامة وأولى بالخلافة[(٦)].

وأمّا قول الشّيعة بوصيّة رسول الله ﷺ لعليّ بن أبي طالب ﭬ بالإمامة من بعده فهو محض افتراء، وفيه اتّهام للصّحابة ﭫ بالنّفاق، ولو وصّى النّبيّ ﷺ لعليّ لكان الصّدّيقُ أسرعَ النّاس إلى تنفيذ أمره، ولما بايع عليٌّ أبا بكر وسكت عن الوصيّة، وهو الّذي لا تأخذه في الله

---

(١) القاضي عبد الجبّار المعتزلي: تثبيت دلائل النّبوّة، دار المصطفى، القاهرة، ص٢٥٥.

(٢) تثبيت دلائل النّبوّة، ص٢٦١.

(٣) البخاري: الصّحيح، (كتاب الأحكام، باب الاستخلاف)، جـ٦، ص٢٦٣٨، ح٦٧٩٢.

(٤) أحمد بن حنبل: المسند، جـ٤٠، ص٤٠٤، ح٢٤٣٤٦؛ فضائل الصّحابة، جـ١، ص٢٣٢، ح٢٠٣. وصحّح المحقّقون إسناده.

(٥) أحمد بن حنبل: فضائل الصّحابة، جـ١، ص٢٣٢، ح٢٠٤؛ مسلم: الصّحيح، (كتاب فضائل الصّحابة، باب من فضائل أبي بكر ﭬ)، جـ٤، ص١٨٥٦، ح٢٣٨٥.

(٦) القرطبي (ت: ٦٥٦هـ/١٢٥٨م): المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، تحقيق/ محيي الدّين ديب مستو، وآخرين، دار ابن كثير، دمشق، الطّبعة الأولى، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، جـ٦، ص٢٤٨.



لومة لائم، وكيف للصّحابة جميعًا أن يتواطئوا على السّكوت عن الوصيّة، ويظهروا غير ما يبطنون!(١).

ولا ينبغي لعاقل تدبّر أمور الصّحابة ﷺ وعرف سيرهم أن يتوهّم أنّ عليّ بن أبي طالب ﷺ خاف النّاس فلم يذكر لهم الحقّ، ولم ينطق بحضرتهم، وتوقّى أن يذكر لهم عهدًا من رسول الله ﷺ أو وصيّة لرسول الله ﷺ؛ فهذا لا يظنّه إلّا أجهلُ النّاس بهم وبأحوالهم، أو عاقل بقيس أحوالهم بأحوال من رأى وسمع من الجبابرة وولاة الجور، وإنّما أَلقى هذا إلى الإماميّة فيما صنّفوه لهم قومٌ من أعداء الأنبياء ادّعوا التّشيّع وتستّروا بالرّفض، لينفّروا النّاس عمّن شيّد الإسلام وبناه ونصر الرّسول ﷺ في حياته وبعد موته، ليخرجوهم من الإسلام من حيث لا يشعرون(٢).

ولم يكن النّاس يخافون من إظهار الحقّ وإبداء آرائهم خلال عصر الرّاشدين كلّهم، والأخبارُ كثيرة في كلام المهاجرين والأنصار في أمر الخلافة منذ السّقيفة(٣).

ولو وسع عليًّا ﷺ السّكوتُ على أمر الخلافة -وهي من أصول الدّين عند الشّيعة- والأخذ بالتّقيّة -كما يزعمون- لسكت عن إتمام عثمان ﷺ للصّلاة بمكّة، ولما احتجّ عليه بقصره الصّلاة مع رسول الله ﷺ وأبي بكر وعمر، وبقصره هو في أوّل خلافته(٤)، ولما خالف عثمانَ ﷺ عندما نهى عن قِران الحجّ بالعمرة، وأعلن أنّه لن يترك أمرًا أجازه رسول الله ﷺ لقول أحد من النّاس، ولسكت عن مطالبة عثمان ﷺ بإقامة الحدّ على الوليد بن عقبة الأمويّ في شرب الخمر، ولما جلده بنفسه، وهو من أشراف قريش(٥). ولا يتصوّر عاقلٌ أن يقوم عليٌّ ﷺ ويعارض في الأمور الصّغار الّتي غيرُها أولى، ولا يترخّص فيها، ثمّ يقعد ويسكت عن تبديل الصّحابة للقرآن، وتعطيلهم النّصوص، وتغييرهم الشّريعة!(٦).

---

(١) محمود شاكر: التّاريخ الإسلامي، (الخلفاء الرّاشدون)، ص٥٥، ٥٦.

(٢) القاضي عبد الجبّار: تثبيت دلائل النّبوّة، جا، ص٢٣١.

(٣) تثبيت دلائل النّبوّة، جا، ص٢٢٧.

(٤) تثبيت دلائل النّبوّة، جا، ص٢٤٠.

(٥) تثبيت دلائل النّبوّة، جا، ص٢٤١.

(٦) تثبيت دلائل النّبوّة، جا، ص٢٤٣.

وقد أنكرت طائفة على عليّ ﷺ تحكيمه الرّجال في دين الله، ثمّ قاتلوه على ذلك، فهل كان عليٌّ ﷺ أضعف من هؤلاء؟[1].

وهذه أدلّة واضحة على تناقض الشّيعة واضطرابهم في أمر عليّ ﷺ؛ "فإنّهم يصفون عليًّا ﷺ بأنّه كان هو النّاصرُ لرسول الله ﷺ الّذي لولا هو لما قام دينُه، ثمّ يصفونه بالعجز والذّلّ المُنافي لذلك"[2].

ولو كانت إمامة عليّ ﷺ من الفرائض العامّة اللّازمة لكلّ أحد في عينه وكان النّصّ عليها من رسول الله ﷺ أمرًا عظيمًا جسيمًا -كما يدّعي الشّيعة- لكانت شهرتُها بين المسلمين كالصّلاة والزّكاة ورمضان والحجّ، وغيرها من العبادات الّتي لا اختلاف بين الأمّة في مشروعيّتها وفرضيّتها[3].

ويتبيّن ممّا سبق أنّ أفعال رسول الله ﷺ وأقواله ووصاياه وعهوده تشهد بأنّه ما عهد إلى رجل بعينه، وأنّ الأمر في الخلافة بعده إلى خواصّه وأصحابه ليختاروا من يرون، وأنّ الخلفاء بعده يجوز عليهم الخطأ والزّلل[4].

ويذكر كبار مؤرّخي الشّيعة أنّ العبّاس بن عبد المطّلب الهاشميّ وأبا سفيان بن حرب العبشميّ عرضا الخلافة على عليّ ﷺ فأنكر عليهم، ولم يقبل منهم[5]، بل كان أكثرُ بني عبد مناف لهم ميلٌ قويّ لاختيار عليّ ﷺ للخلافة، ولو كان عندهم نصٌّ لذكروه، ولما سلّموا أمر الخلافة للصّدّيق[6].

---

(١) القاضي عبد الجبّار: تثبيت دلائل النّبوّة، ج١، ص٢٤٤، ٢٤٥.

(٢) ابن تيمية: منهاج السُّنّة، ج٤، ص٤٨٥.

(٣) الباقِلّاني: تمهيد الأوائل وتلخيص الدّلائل، تحقيق/ عماد الدّين أحمد حيدر، مؤسّسة الكتب الثّقافيّة، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ص٤٤٢؛ القاضي عبد الجبّار: تثبيت دلائل النّبوّة، ج٢، ص٥١٠.

(٤) القاضي عبد الجبّار: تثبيت دلائل النّبوّة، ج١، ص٢٥٢.

(٥) تثبيت دلائل النّبوّة، ج١، ص٢٦٣، ٢٦٤.

(٦) ابن تيمية: منهاج السُّنّة، ج٧، ص٤٩.

🕮 اجتماع الصّحابة لاختيار خليفة لرسول الله ﷺ:

توفّي النّبيّ ﷺ ضحى يوم الاثنين، الثّاني عشر من شهر ربيع الأوّل، سنة إحدى عشرة من الهجرة على المشهور(١).

وكان الأنصار ﷺ قد وَتروا القبائل كلّها في طاعة رسول الله ﷺ، فلمّا توفّاه الله رأوْا أنّه خلّفهم ولا أمير عليهم، فخافوا أن يُبيّتوا بعده، وينتشر أمرُهم، فاشتدّ اهتمامهم بحراسة الإسلام، وبادروا إلى اختيار خليفة منهم(٢)، ولم يقصدوا بمبادرتهم إلى الإمارة إلّا الله، وإحياءَ الإسلام، والمسارعةَ إلى مواجهة أعداء رسول الله ﷺ(٣).

وقد اجتمع المهاجرون ﷺ يومئذ إلى أبي بكر الصّدّيق ﷺ يتشاورون في ولاية أمر الأمّة، وبلغهم أنّ الأنصار اجتمعوا في سقيفة بني ساعدة الخزرجيّين، والتفّوا حول سيّد الخزرج سعد بن عبادة ﷺ(٤)، فقرّروا الاجتماع بهم، لينظروا ما صنعوا(٥)، وليدخلوهم معهم في هذا الأمر(٦)، لأنّ لهم في هذا الحقّ نصيبًا(٧).

وكان عدد المهاجرين الّذين توجّهوا إلى سقيفة الأنصار قليلاً في البداية، بل يبدو أنّ أبا بكر وعمر وأبا عبيدة ﷺ ذهبوا أوّلاً، ثمّ تلاحق بهم المهاجرون(٨).

---

(١) ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٢، ص٢٧٢، ٢٧٣؛ خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، تحقيق/ أكرم ضياء العمري، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، الطّبعة الثّانية، ١٣٩٧هـ، ص٩٤. وقد جزم ابن سعد بتحديد يوم الاثنين بالثّاني عشر، وأفاد ابن كثير أنّه المشهور. البداية والنّهاية، ج٦، ص٣٣٢.

(٢) القاضي عبد الجبّار: تثبيت دلائل النّبوّة، ج١، ص٢٦٨.

(٣) تثبيت دلائل النّبوّة، ج١، ص٢٦٦، ٢٦٧.

(٤) البخاري: الصّحيح، (كتاب الحدود، باب رجم الحُبْلى من الزّنا إذا أحصنت)، ج٦، ص٢٥٠٥، ح٦٤٤٢.

(٥) ابن حبّان: الصّحيح، ج٢، ص١٤٨، ح٤١٣. وصحّح المحقّقون إسناده.

(٦) ابن أبي عاصم: الآحاد والمثاني، تحقيق/ باسم فيصل الجوابرة، دار الرّاية، الرّياض، الطّبعة الأولى، ١٤١١هـ/١٩٩١م، ج٣، ص١٤، ح١٢٩٩.

(٧) النّسائي: السّنن الكبرى، تحقيق/ عبد الغفّار سليمان البنداري، وسيّد كسروي، دار الكتب العلميّة، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤١١هـ/١٩٩١م، (كتاب الوفاة، باب كيف صُلّي على رسول الله ﷺ)، ج٤، ص٢٦٣، ح٧١١٩.

(٨) ابن حجر: فتح الباري، ج١٢، ص١٥٣.

وبالرّغم من الذُّهول الّذي أصاب كبار الصّحابة وعامّة المسلمين فإنّ أهمّيّة إقامة السُّلطة في الإسلام جعلتهم يتحرّكون في اتّجاه اختيار الحاكم قبل أن ينتهوا من تشييع الجسد الشّريف إلى مثواه(١).

وها هو حديث بيعة السّقيفة من أصحّ الرّوايات التّاريخيّة وأحسنها، ومعظمه من رواية عمر بن الخطّاب ﷺ حيث يقول: "كَانَ مِنْ خَبَرِنَا حِينَ تَوَفَّى اللَّهُ نَبِيَّهُ ﷺ أَنَّ الْأَنْصَارَ خَالَفُونَا، وَاجْتَمَعُوا بِأَسْرِهِمْ فِي سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ، وَخَالَفَ عَنَّا عَلِيٌّ وَالزُّبَيْرُ وَمَنْ مَعَهُمَا، وَاجْتَمَعَ الْمُهَاجِرُونَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ، فَقُلْتُ لِأَبِي بَكْرٍ: يَا أَبَا بَكْرٍ انْطَلِقْ بِنَا إِلَى إِخْوَانِنَا هَؤُلَاءِ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَانْطَلَقْنَا نُرِيدُهُمْ، فَلَمَّا دَنَوْنَا مِنْهُمْ، لَقِيَنَا مِنْهُمْ رَجُلَانِ صَالِحَانِ(٢)، فَذَكَرَا مَا تَمَالَأَ عَلَيْهِ الْقَوْمُ، فَقَالَا: أَيْنَ تُرِيدُونَ يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ؟ فَقُلْنَا: نُرِيدُ إِخْوَانَنَا هَؤُلَاءِ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَا: لَا عَلَيْكُمْ أَنْ لَا تَقْرَبُوهُمْ، اقْضُوا أَمْرَكُمْ(٣)، فَقُلْتُ: وَاللَّهِ لَنَأْتِيَنَّهُمْ، فَانْطَلَقْنَا حَتَّى أَتَيْنَاهُمْ فِي سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ، فَإِذَا رَجُلٌ مُزَمَّلٌ بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِمْ، فَقُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ فَقَالُوا: هَذَا سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ، فَقُلْتُ: مَا لَهُ؟ قَالُوا: يُوعَكُ، فَلَمَّا جَلَسْنَا قَلِيلاً تَشَهَّدَ خَطِيبُهُمْ، فَأَثْنَى عَلَى اللَّهِ بِمَا هُوَ أَهْلُهُ، ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ، فَنَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ وَكَتِيبَةُ الإِسْلَامِ، وَأَنْتُمْ مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ رَهْطٌ، وَقَدْ دَفَّتْ دَافَّةٌ مِنْ قَوْمِكُمْ، فَإِذَا هُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يَخْتَزِلُونَا مِنْ أَصْلِنَا، وَأَنْ يَحْضُنُونَا مِنَ الْأَمْرِ. فَلَمَّا سَكَتَ أَرَدْتُ أَنْ أَتَكَلَّمَ، وَكُنْتُ قَدْ زَوَّرْتُ

---

(١) تختلف الرّوايات في اليوم الّذي دُفن فيه النّبيّ ﷺ بين ليلة الثّلاثاء وليلة الأربعاء، والرّاجح ليلة الأربعاء؛ فقد رواها محمّد بن إسحاق بإسناد حسن. ابن هشام: السّيرة النّبويّة، تحقيق/ مصطفى السّقّا، وآخرَيْن، مكتبة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، الطّبعة الثّانية، ١٣٧٥هـ/١٩٥٥م، ج٢، ص٦٦٤؛ مهدي رزق الله أحمد: السّيرة النّبويّة في ضوء المصادر الأصليّة، دار إمام الدّعوة، الرّياض، الطّبعة الأولى، ١٤٢٤هـ، ج٢، ص٢٧٨.

(٢) الرجلان هما: عُوَيْمُ بْنُ سَاعِدَةَ الأوسيّ، وَمَعْنُ بْنُ عَدِيٍّ البلويّ، حليف لبني عمرو بن عوف الأوسيّين. البخاري: الصّحيح، (كتاب المغازي، باب شهود الملائكة بدرًا)، ج٤، ص١٤٧٥، ح٣٧٩٦.

(٣) ويدلّ موقف هذين الرّجلين على أنّ موقف الأنصار لم يكن واحدًا منذ البداية. ابن حجر: فتح الباري، ج١٢، ص١٥١.

مَقَالَةً أَعْجَبَتْنِي أُرِيدُ أَنْ أُقَدِّمَهَا بَيْنَ يَدَيْ أَبِي بَكْرٍ، وَكُنْتُ أُدَارِي مِنْهُ بَعْضَ الحَدِّ[١]، فَلَمَّا أَرَدْتُ أَنْ أَتَكَلَّمَ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: عَلَى رِسْلِكَ، فَكَرِهْتُ أَنْ أُغْضِبَهُ، فَتَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ، فَكَانَ هُوَ أَحْلَمَ مِنِّي وَأَوْقَرَ، وَاللَّهِ مَا تَرَكَ مِنْ كَلِمَةٍ أَعْجَبَتْنِي فِي تَزْوِيرِي، إِلَّا قَالَ فِي بَدِيهَتِهِ مِثْلَهَا أَوْ أَفْضَلَ مِنْهَا حَتَّى سَكَتَ، فَقَالَ: مَا ذَكَرْتُمْ فِيكُمْ مِنْ خَيْرٍ فَأَنْتُمْ لَهُ أَهْلٌ، وَلَنْ يُعْرَفَ هَذَا الأَمْرُ إِلَّا لِهَذَا الحَيِّ مِنْ قُرَيْشٍ، هُمْ أَوْسَطُ العَرَبِ نَسَبًا وَدَارًا"[٢].

ولم يترك أبو بكر ﷺ شيئًا أُنزل في الأنصار ولا ذكره رسول الله ﷺ من شأنهم، إلّا وذكره، فكان ممّا قال: "وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: "لَوْ سَلَكَ النَّاسُ وَادِيًا، وَسَلَكَتِ الأَنْصَارُ وَادِيًا، سَلَكْتُ وَادِيَ الأَنْصَارِ"[٣].

وذكّرهم أبو بكر ﷺ بتقوى الله تعالى، وخوّفهم من الفُرقة فقال لهم: "فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَصَدَّعُوا الْإِسْلَامَ، وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ مَنْ أَحْدَثَ فِي الْإِسْلَامِ"[٤].

كما دلّل الصّدّيق ﷺ للأنصار على أنّ الخلافة في قريش بوصيّة النّبيّ ﷺ بالأنصار خيرًا؛ وذلك أنّ رسول الله ﷺ خطب على منبره في مرضه الّذي مات فيه فقال: "إِنَّ النَّاسَ يَكْثُرُونَ وَيَقِلُّ الْأَنْصَارُ، حَتَّى يَكُونُوا فِي النَّاسِ بِمَنْزِلَةِ المِلْحِ فِي الطَّعَامِ، فَمَنْ وَلِيَ مِنْكُمْ شَيْئًا يَضُرُّ فِيهِ قَوْمًا وَيَنْفَعُ فِيهِ آخَرِينَ، فَلْيَقْبَلْ مِنْ مُحْسِنِهِمْ وَيَتَجَاوَزْ عَنْ مُسِيئِهِمْ، فَكَانَ آخِرَ مَجْلِسٍ جَلَسَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ"[٥].

---

(١) الحَدّ: الحدّ والحدّة من الغضب. ابن منظور: لسان العرب، ج٣، ص١٤١.

(٢) البخاري: الصّحيح، (كتاب الحدود، باب رجم الحُبْلى من الزّنا إذا أحصنت)، ج٦، ص٢٥٠٥، ٢٥٠٦، ح٦٤٤٢.

(٣) أحمد بن حنبل: المسند، ج١، ص١٩٩، ح١٨. وهو مرسل صحيح عن التّابعيّ عبد الرّحمن بن حميد الحميريّ.

(٤) رواه ابن أبي شيبة من حديث عبد الله بن عبّاس رضي الله عنهما من خطبة لعمر بن الخطّاب ﷺ في شأن بيعة السّقيفة، وسنده صحيح. المصنّف في الأحاديث والآثار، تحقيق/ كمال يوسف الحوت، مكتبة الرّشد، الرّياض، الطّبعة الأولى، ١٤٠٩هـ، ج٧، ص٤٣٢، ح٣٧٠٤٣.

(٥) البخاري: الصّحيح، (كتاب المناقب، باب علامات النّبوّة في الإسلام)، ج٣، ص١٣٢٧، ح٣٤٢٧. والحديث من رواية عبد الله بن عبّاس رضي الله عنهما.

وممّا احتجّ به أبو بكر ﷺ على الأنصار قوله: "إنّ الله سمّانا ﴿الصَّادِقِينَ﴾ وسمّاكم ﴿الْمُفْلِحِينَ﴾، إشارة إلى قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ۝٨ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾(١)، وقد أمركم أن تكونوا معنا حيثما كنّا فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝١١٩﴾(٢)، إلى غير ذلك من الأقوال المصيبة والأدلّة القويّة(٣).

ولمّا انتهى الصّدّيق ﷺ من عرض أدلّته على الأنصار اتّخذ إجراء عمليًّا لاختيار خليفة من قريش، فقال لهم: "وَقَدْ رَضِيتُ لَكُمْ أَحَدَ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ، فَبَايِعُوا أَيَّهُمَا شِئْتُمْ"، فَأَخَذَ بِيَدِ عُمَرَ وَبِيَدِ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الجَرَّاحِ، وَهُوَ جَالِسٌ بَيْنَهما، فعلّق الفاروق ﷺ على ذلك بقوله: "فَلَمْ أَكْرَهْ مِمَّا قَالَ غَيْرَهَا، كَانَ وَاللَّهِ أَنْ أُقَدَّمَ فَتُضْرَبَ عُنُقِي، لَا يُقَرِّبُنِي ذَلِكَ مِنْ إِثْمٍ، أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَتَأَمَّرَ عَلَى قَوْمٍ فِيهِمْ أَبُو بَكْرٍ، اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ تُسَوِّلَ إِلَيَّ نَفْسِي عِنْدَ المَوْتِ شَيْئًا لَا أَجِدُهُ الآنَ"(٤).

ولذلك قال الفاروق للصّدّيق رضي الله عنهما: "بَلْ نُبَايِعُكَ أَنْتَ، فَأَنْتَ سَيِّدُنَا، وَخَيْرُنَا، وَأَحَبُّنَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ"(٥).

---

(١) سورة الحشر: الآيتان ٨، ٩.

(٢) سورة التّوبة: الآية ١١٩.

(٣) ابن العربي: العواصم من القواصم، تحقيق/ محبّ الدين الخطيب، دار الجيل، بيروت، الطّبعة الثّانية، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ص٦١، ٦٢.

(٤) البخاري: الصّحيح، (كتاب الحدود، باب رجم الحُبْلى من الزّنا إذا أحصنت)، ج٦، ص٢٥٠٦، ح٦٤٤٢.

(٥) البخاري: الصّحيح، (كتاب فضائل الصّحابة، باب قول النّبيّ ﷺ: لو كنت متخذًا خليلاً)، ج٣، ص١٣٤١، ح٣٤٣٧.

وأمّا ردّ فعل الأنصار فقد قال قائلٌ منهم[1]: أَنَا جُذَيْلُهَا المُحَكَّكُ[2]، وَعُذَيْقُهَا المُرَجَّبُ[3]، مِنَّا أَمِيرٌ، وَمِنْكُمْ أَمِيرٌ، يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، فَكَثُرَ اللَّغَطُ، وَارْتَفَعَتِ الأَصْوَاتُ"، حَتَّى فَرِقَ الفاروقُ عمرُ ﷺ مِنَ الاختلاف[4].

وكان ردّ الشّيخين - الصّدّيق والفاروق - سريعًا صريحًا على هذا العرض، فقد رفضه أبو بكر ﷺ بالمرّة، وقال: "لَا، وَلَكِنَّا الأُمَرَاءُ، وَأَنْتُمُ الوُزَرَاءُ"[5]. وتبعه عمر ﷺ فقال: "سَيْفَانِ فِي غَمْدٍ وَاحِدٍ إِذًا لَا يَصْلُحَانِ"[6].

ونهض عمر ﷺ يدلّل على تقديمه للصّدّيق ﷺ بدلائل مقنعة، فقال للأنصار قبل أن يبايع أبا بكر ﷺ: "أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ أَمَرَ أَبَا بَكْرٍ أَنْ يَؤُمَّ النَّاسَ؟ فَأَيُّكُمْ تَطِيبُ نَفْسُهُ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَبَا بَكْرٍ؟ قَالُوا: نَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ نَتَقَدَّمَ أَبَا بَكْرٍ"[7].

---

(١) صرّحت رواية أخرى للإمام البخاري عن السّيّدة عائشة رضي الله عنها بأنّ الحباب بن المنذر الأنصاريّ ﷺ هو صاحب هذه المقولة. صحيح البخاري، (كتاب فضائل أصحاب النّبيّ ﷺ، باب قول النّبيّ ﷺ: لو كنت متّخذًا خليلاً)، ج٣، ص١٣٤١، ح٣٤٣٧.

(٢) جذيلها المحكّك: هو عُودٌ ينصبُ للجرباء من الإبل لتحتكّ به، وأراد أنّه يستشفى برأْيه كما تستشفى الإبل الجربى بالاحتكاك. ابن منظور: لسان العرب، ج١٠، ص٤١٣.

(٣) عذيقها المرجّب: هو أن تُعمد النّخلة الكريمةُ ببناء من حجارة أو خشب إذا خيف عليها لطولها وكثرة حَملها أن تقع، ويَقصد بهذه المقولة أنّ له عشيرة تمنعه وتعضده، وترفده. ابن منظور: لسان العرب، ج١، ص٤١٢.

(٤) البخاري: الصّحيح، (كتاب الحدود، باب رجم الحُبْلى من الزّنا إذا أحصنت)، ج٦، ص٢٥٠٦، ح٦٤٤٢.

(٥) البخاري: الصّحيح، (كتاب فضائل أصحاب النّبيّ ﷺ، باب قول النّبيّ ﷺ لو كنت متخذًا خليلاً)، ج٣، ص١٣٤١، ح٣٤٦٧.

(٦) رواه عبد الرزّاق بإسناد صحيح. المصنّف، تحقيق/ حبيب الرّحمن الأعظمي، المجلس العلمي، الهند، الطّبعة الثّانية، ١٤٠٣هـ، ج٥، ص٤٤٤.

(٧) أحمد بن حنبل: المسند، ج١، ص٢٨٢، ح١٣٢؛ النّسائي: السّنن الصّغرى، تحقيق/ عبد الفتّاح أبو غدّة، مكتب المطبوعات الإسلاميّة، حلب، الطّبعة الثّانية، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، (كتاب الإمامة، باب ذكر الإمامة والجماعة، إمامة أهل العلم والفضل)، ج٢، ص٧٤، ح٧٧٧. وقد حسّن ابن حجر هذا الحديث. فتح الباري، ج١٢، ص١٥٣.

وقد خاطب الفاروقُ الأنصارَ بين يدي أبي بكر ﷺ فقال: "مَنْ لَهُ مِثْلُ هَذِهِ الثَّلَاثَةِ: ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ﴾[1]، من هما؟[2]، فتذكّرت الأنصار ذلك كلّه، وانقادت إليه[3].

وعندئذ قال الفاروق للصّدّيق رضي الله عنهما: "ابْسُطْ يَدَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ، فَبَسَطَ يَدَهُ" فَبَايَعَهُ عمرُ، "وَبَايَعَهُ المُهَاجِرُونَ، ثُمَّ بَايَعَتْهُ الأَنْصَارُ"[4]، "وبايعه النّاس بيعةً حسنةً جميلةً"[5].

وانصرف النّاس عندئذ عن سيّد الخزرج سعد بن عبادة ﷺ حتّى قال عمر ﷺ: "وَنَزَوْنَا عَلَى سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ، فَقَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ: قَتَلْتُمْ سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ، فَقُلْتُ: قَتَلَ اللَّهُ سَعْدَ ابْنَ عُبَادَةَ[6].

وعلّق الفاروق عمر ﷺ على تلك البيعة بقوله: "وَإِنَّا وَاللَّهِ مَا وَجَدْنَا فِيمَا حَضَرْنَا مِنْ أَمْرٍ أَقْوَى مِنْ مُبَايَعَةِ أَبِي بَكْرٍ، خَشِينَا إِنْ فَارَقْنَا القَوْمَ وَلَمْ تَكُنْ بَيْعَةٌ أَنْ يُبَايِعُوا رَجُلاً مِنْهُمْ بَعْدَنَا، فَإِمَّا بَايَعْنَاهُمْ عَلَى مَا لَا نَرْضَى، وَإِمَّا نُخَالِفُهُمْ فَيَكُونُ فَسَادٌ، فَمَنْ بَايَعَ رَجُلاً عَلَى غَيْرِ مَشُورَةٍ مِنَ المُسْلِمِينَ، فَلَا يُتَابَعُ هُوَ وَلَا الَّذِي بَايَعَهُ، تَغِرَّةً[7] أَنْ يُقْتَلَا"[8].

وقد انتهى ما عزم عليه الأنصار في بداية اجتماعهم وسلّموا للمهاجرين، وبايعوا أبا بكر ﷺ عن طيب خاطر، وكان لكاتب الوحي زيد بن ثابت الخزرجيّ ﷺ موقفٌ مشرّف

---

(١) سورة التوبة: من الآية ٤٠.

(٢) التّرمذي: الشّمائل المحمديّة، المكتبة التّجارية، مصطفى الباز، مكّة المكرّمة، الطّبعة الأولى، ١٤١٢هـ/١٩٩٣م، ص٣٣٦. والحديث إسناده صحيح. الألباني: مختصر الشّمائل المحمديّة، المكتبة الإسلاميّة، الأردنّ، الطّبعة الأولى، ١٤٠٥هـ، ص١٩٨، ح٣٣٣.

(٣) ابن العربي: العواصم من القواصم، ص٦٢.

(٤) البخاري: الصّحيح، (كتاب الحدود، باب رجم الحُبْلى من الزّنا إذا أحصنت)، ج٦، ص٢٥٠٦، ح٦٤٤٢.

(٥) التّرمذي: الشّمائل المحمديّة، ص٣٣٨، ح٣٣٣.

(٦) المراد بقوله: "قتل الله سعد بن عبادة": إخبار عمّا قدّره الله -تعالى- من منعه الخلافة، أو دعاء عليه لكونه لم ينصر الحقّ. العيني: عمدة القاري شرح صحيح البخاري، دار إحياء التّراث العربي، بيروت، بدون تاريخ طبع، ج١٠، ص٢٤.

(٧) تغرّة: خوفًا وحذرًا من تقاتلهما. ابن منظور: لسان العرب، ج٥، ص١٣.

(٨) البخاري: الصّحيح، (كتاب الحدود، باب رجم الحُبْلى من الزّنا إذا أحصنت)، ج٦، ص٢٥٠٦، ح٦٤٤٢.

في مؤتمر السّقيفة، فإنّه لمّا رأى تتابع خطباء الأنصار في عرض فكرة ولاية رجلين معًا قام فقال: "إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ، وَإِنَّ الْإِمَامَ إِنَّمَا يَكُونُ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ، وَنَحْنُ أَنْصَارُه كَمَا كُنَّا أَنْصَارَ رَسُولِ اللهِ ﷺ"، فقام أبو بكر فقال: "جَزَاكُمُ اللهُ خَيْرًا مِنْ حَيٍّ يَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ، وَثَبَّتَ قَائِلَكُمْ، وَاللهِ لَوْ فَعَلْتُمْ غَيْرَ ذَلِكَ لَمَا صَالَحْنَاكُمْ"(١).

ويتّضح من حديث السّقيفة أنّ بيعةَ أبي بكر ﷺ كانت "فَلْتَةً وَقَى اللهُ الْمُسْلِمِينَ شَرَّهَا"، كما صرّح بذلك الفاروق عمر ﷺ؛ لأنّهم بادروا إليها من غير تريّثٍ ولا انتظارٍ، وكان الصّدّيق ﷺ متعيّنًا لها، كما قال عمر ﷺ: "وَلَيْسَ فِيكُمُ الْيَوْمَ مَنْ تُقْطَعُ إِلَيْهِ الْأَعْنَاقُ مِثْلُ أَبِي بَكْرٍ"(٢)، فكانتْ دلالةُ النّصوص على تعيينه تغني عن مشاورةٍ وانتظارٍ وتريّثٍ، بخلاف غيره فإنّه لا تجوز مبايعتُه إلّا بعد المشاورة والانتظار والتّريّث(٣).

وقد وردت عدّة روايات تفيد أنّ المهاجرين احتجّوا على الأنصار بحديث "قُرَيْشٌ وُلَاةُ هَذَا الْأَمْرِ"(٤)، ولكن يبدو أنّ الحديث لم يخطر على بالهم آنذاك، لأنّه كان سيقطع الأمر لصالح المهاجرين دون استمرار الحوار(٥).

وأمّا ما يُنسب إلى سعد بن عبادة ﷺ بأنّه لمّا طُلبت منه البيعة لأبي بكر ﷺ قال للمهاجرين: "لا والله، حتّى أرميَكم بما في كِنانتي، وأخضِب سنان رمحي، وأضرب بسيفي، وأقاتلكم بأهل بيتي ومن أطاعني، ولو اجتمع معكم الجنُّ والأنسُ ما بايعتُكم حتّى أُعرض على ربّي، وأعلم ما حسابي"، وأنّه كان "لا يصلّي بصلاتهم، ولا يجمع معهم، ولا يَحجّ، ولا يُفيض معهم بإفاضتهم"(٦)، فهو خبرٌ مفترى من قبل لوط بن يحيى الأزديّ الكوفيّ

---

(١) أحمد بن حنبل: المسند، ج٣٥، ص٤٨٩، ح٢١٦١٦. وصحّح المحقّقون إسناده.

(٢) أحمد بن حنبل: المسند، ج١، ص٤٥١، ح٣٩١؛ ابن حبّان: الصّحيح، ج٢، ص١٤٨، ح٤١٣. وصحّح المحقّقون إسناده.

(٣) ابن تيمية: منهاج السُّنّة، ج٥، ص٤٦٩، ٤٧٠.

(٤) أحمد بن حنبل: المسند، ج١، ص١٩٩، ح١٨.

(٥) أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الرّاشدة، مكتبة العبيكان، الرّياض، الطّبعة الأولى، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م، ص٤٩.

(٦) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٢٤٤.

الشّهير بكنيته أبي مخنف، وهو أخباريّ تالف[١]، وشيعيّ محترق[٢]، ولا يعتمد عليه في مثل هذا الموطن.

والظّاهر أنّ سعد بن عبادة ﷺ لمّا رأى الأنصار قد أعدّته للخلافة يوم السّقيفة، ثمّ رأى إجماع الصّحابة ﷺ على أبي بكر ﷺ وانصرافهم عن البيعة له استوحش نفسه بين النّاس[٣]، "فبقيَ في نفسه ما يبقى في نفوس البشر"[٤]، وكان رجلاً عزيز النّفس، فخرج من المدينة ولم يرجع إليها حتّى مات[٥]، "ولكنْ هو مع هذا لم يعارض، ولم يدفع حقًّا، ولا أعان على باطلٍ"[٦]، فتخلّفه عن البيعة لا يقتضي رفضه لها ولا مخالفته فيها[٧].

وقد بايع الحباب بن المنذر ﷺ الّذي كان متحمّسًا لإمارة قومه للصدّيق ﷺ، ولكنّه في فورة ثورته وغضبه كان يحمل الاعتذار لسادة المهاجرين فيقول: "فَإِنَّا وَاللَّهِ مَا نَنْفَسُ عَلَيْكُمْ هَذَا الْأَمْرَ، وَلَكِنَّا نَخَافُ أَنْ يَلِيَهَا أَقْوَامٌ قَتَلْنَا آبَاءَهُمْ وَإِخْوَتَهُمْ"[٨].

ويؤيّد هذا نصّ الصّحيح؛ فقد قال خطيب الأنصار لأبي بكر ورفاقه: "وَقَدْ دَفَّتْ دَافَّةٌ مِنْ قَوْمِكُمْ، فَإِذَا هُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يَخْتَزِلُونَا مِنْ أَصْلِنَا، وَأَنْ يَحْضُنُونَا مِنَ الأَمْرِ"[٩].

ويتحصّل من أقوال جمهور الأنصار في بدء اجتماع السّقيفة أنّهم نظروا إلى الخلافة من زاوية محدودة بظروف المجتمع المدنيّ والعلاقة التّاريخيّة بين المهاجرين والأنصار، أمّا المهاجرون فنظروا نظرة واسعة على مستوى الدّولة كلّها وما يترتّب على

---

(١) الذّهبي: ميزان الاعتدال في نقد الرّجال، تحقيق/ علي محمّد البجّاوي، دار المعرفة، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٣م، ج٣، ص٤١٩.

(٢) ابن عَدِيّ: الكامل في ضعفاء الرّجال، تحقيق/ عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمّد معوّض، دار الكتب العلميّة، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م، ج٧، ص٢٤١.

(٣) محمّد الطّاهر بن عاشور: نقدٌ علميٌّ لكتاب الإسلام وأصول الحكم، المطبعة السّلفيّة، القاهرة، ١٣٤٤هـ، ص٣١.

(٤) ابن تيمية: منهاج السُّنّة النّبويّة، ج١، ص٥٣٦.

(٥) محمّد الطّاهر بن عاشور: نقدٌ علميٌّ لكتاب الإسلام وأصول الحكم، ص٣١.

(٦) ابن تيمية: منهاج السُّنّة النّبويّة، ج١، ص٥٣٦.

(٧) محمّد الطّاهر بن عاشور: نقد علميٌّ لكتاب الإسلام وأصول الحكم، ص٣١.

(٨) ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٣، ص١٨٢. وهو مرسل صحيح. ابن حجر: فتح الباري، ج١٢، ص١٥٣.

(٩) البخاري: الصّحيح، (كتاب الحدود، باب رجم الحُبْلى من الزّنا إذا أحصنت)، ج٦، ص٢٥٠٦، ح٦٤٤٢.



خروج السُّلطة عن قريش من عواقب كبيرة؛ لأنّ العرب يمكن أن ترضى بقيادة قريش لمكانتها فيهم، أمّا لو تولّاها الأنصار فقد تقع انشقاقات خطيرة تؤدّي إلى تفكّك الدّولة الإسلاميّة(١)، كما يدلّ عدول الخزرج عن فكرتهم إلى اتّباعهم للحقّ ومراعاتهم للمصلحة الإسلاميّة، ولم يكن تنازلهم بسبب عدم رغبة الأوس في تولّيهم الخلافة(٢).

وهكذا تمّت مبايعة أبي بكر الصّدّيق ﷺ خليفة لرسول الله ﷺ من غالبيّة أهل الحَلّ والعَقد وعامّة المسلمين من المهاجرين والأنصار، ولم يتخلّف عنها إلّا عليّ بن أبي طالب والزّبير بن العوّام رضي الله عنهما في ثلّة آخرين، و"بويع أبو بكر بيعة العامّة في يوم الثّلاثاء من غد وفاة رسول الله ﷺ"(٣).

وكان أبو بكرٍ وعمر وسائر الصّحابة معذورين في تقديمهم البيعة على دفن رسول الله ﷺ؛ لأنّهم رأوْا المبادرة بها من أعظم مصالح المسلمين، وخافوا من تأخيرها حصول خلافٍ ونزاعٍ تترتّبُ عليه مفاسدُ عظيمةٌ، وحتّى لا يقع نزاعٌ في مدفن النّبيّ ﷺ أو كفنه أو غُسله أو الصّلاة عليه أو غيرِ ذلك وليس لهم من يفصل الأمور(٤).

ويتحصّل من الرّوايات الصّحيحة لمؤتمر السّقيفة أنّ الاجتماع لم يدم طويلاً، ولم تجْر فيه "منازعة طويلة، وخطوب عظيمة"(٥) بين المهاجرين والأنصار، كما صوّرته بعض الرّوايات الشّيعيّة الّتي تناقلها المؤلّفون المعاصرون فشوّهوا الصّورة الوضّاءة لذلك الاجتماع التّاريخيّ الرّفيع والّذي قرّر مصير الخلافة والدّولة الإسلاميّة بحزم وترفّع وإحساس كبير بالمسؤوليّة يستعلي على التّفاهات والأهواء(٦).

---

(١) أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الرّاشدة، ص٤٩.

(٢) عصر الخلافة الرّاشدة، ص٥٠. والقول بعدم رغبة الأوس في تولي الخزرج للخلافة هو زعم أبي مخنف.

(٣) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٠٠. وينظر البخاري: الصّحيح، (كتاب الأحكام، باب الاستخلاف)، ج٦، ص٢٦٣٩، ح٦٧٩٣.

(٤) النّوويّ: شرح النّوويّ على صحيح مسلم، دار إحياء التّراث العربي، بيروت، الطّبعة الثّانية، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م، ج١٢، ص٧٧، ٧٨.

(٥) المسعودي: التّنبيه والإشراف، تحقيق/ عبد الله إسماعيل الصّاوي، المكتبة التّاريخيّة، القاهرة، ١٣٥٧هـ/١٩٣٨م، ص٢٤٧.

(٦) أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الرّاشدة، ص٥١.

المتغيّبون عن بيعة الصّدّيق ﷺ في السّقيفة:

عرفت بيعة أبي بكر ﷺ في السّقيفة بالبيعة الخاصّة، وكانت يوم وفاة النّبيّ ﷺ[1]، وخرج الصّدّيق في اليوم التّالي (الثّلاثاء) إلى المسجد فبايعه النّاس "البيعة العامّة"[2].

وقد نصّت رواية الصّحيح على تخلّف عليٍّ والزّبير رضي الله عنهما في جماعة آخرين عن مجلس شورى المهاجرين الّذين اجتمعوا للتّشاور في ولاية أمر الأمّة، وكذلك عن اجتماع سقيفة بني ساعدة الّذي جمع المهاجرين بالأنصار[3]، وهذا قاطع في عدم حضور عليٍّ والزّبير بيعة أبي بكر ﷺ في مؤتمر السّقيفة.

وتتضارب أقوال الرّواة بعد ذلك في مبايعة عليّ ﷺ للصّدّيق في أوّل خلافته، أو بعد ستّة أشهر، بعد وفاة السّيّدة فاطمة رضي الله عنها.

وقد حدّثت السّيّدة عائشة رضي الله عنها: "أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ النَّبِيِّ ﷺ أَرْسَلَتْ إِلَى أَبِي بَكْرٍ تَسْأَلُهُ مِيرَاثَهَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْهِ بِالْمَدِينَةِ، وَفَدَكٍ، وَمَا بَقِيَ مِنْ خُمُسِ خَيْبَرَ[4]، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: "لَا نُورَثُ، مَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ"[5]، إِنَّمَا يَأْكُلُ آلُ

---

(١) أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الرّاشدة، ص٥٢.

(٢) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٠٠؛ البخاري: الصّحيح، (كتاب الأحكام، باب الاستخلاف)، ج٦، ص٢٦٣٩، ح٦٧٩٣.

(٣) البخاري: الصّحيح، (كتاب الحدود، باب رجم الحُبْلى من الزّنا إذا أحصنت)، ج٦، ص٢٥٠٥، ح٦٤٤٢.

(٤) روى أبو داود بإسناد حسن أنّ عمر بن الخطّاب ﷺ كان يقول: "كانت لرسول الله ﷺ ثلاثُ صفايا: بنو النّضير، وخيبرُ، وفدكُ، فأمّا بنو النّضير فكانت حُبُسًا لنوائبه، وأمّا فدكُ فكانت حُبُسًا لأبناء السّبيل، وأمّا خيبرُ فجزّأها رسول الله ﷺ، ثلاثة أجزاء، جزأين بين المسلمين، وجزءًا نفقةً لأهله، فما فضُل عن نفقة أهله جعله بين فقراء المهاجرين". سنن أبي داود، (كتاب الخراج والإمارة والفيء، باب في صفايا رسول الله ﷺ من الأموال)، ج٤، ص٥٨٧، ح٢٩٦٧.

(٥) زعم ابن المطّهر الحِلّي الرّافضيّ أنّ أبا بكر ﷺ انفرد بهذه الرّواية ليمنع فاطمة رضي الله عنها ميراثها، وكذب في ذلك، فقد رواها أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعليّ، والعبّاس، وطلحة، والزّبير، وعبد الرّحمن، وسعد، وأبو هريرة، وأزواج النّبيّ ﷺ. التّرمذي: السّنن، (كتاب السّير، باب ما جاء تركة رسول الله ﷺ)، ج٤، ص١٥٧، ح١٦٠٨؛ ابن تيمية: منهاج السُّنّة، ج٤، ص١٩٥. ولو كان الأمر كما زعم الرّافضيّ لتركه أبو بكر لأجل ميراث ابنته عائشة رضي الله عنها. ابن تيمية: منهاج السُّنّة، ج٤، ص١٩٨.

مُحَمَّدٍ ﷺ فِي هَذَا المَالِ"[١]، وَإِنِّي وَاللَّهِ لَا أُغَيِّرُ شَيْئًا مِنْ صَدَقَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَنْ حَالِهَا الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَأَعْمَلَنَّ فِيهَا بِمَا عَمِلَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَأَبَى أَبُو بَكْرٍ أَنْ يَدْفَعَ إِلَى فَاطِمَةَ مِنْهَا شَيْئًا، فَوَجَدَتْ فَاطِمَةُ عَلَى أَبِي بَكْرٍ فِي ذَلِكَ، فَهَجَرَتْهُ فَلَمْ تُكَلِّمْهُ حَتَّى تُوُفِّيَتْ، وَعَاشَتْ بَعْدَ النَّبِيِّ ﷺ سِتَّةَ أَشْهُرٍ، فَلَمَّا تُوُفِّيَتْ دَفَنَهَا زَوْجُهَا عَلِيٌّ لَيْلاً، وَلَمْ يُؤْذِنْ بِهَا أَبَا بَكْرٍ وَصَلَّى عَلَيْهَا، وَكَانَ لِعَلِيٍّ مِنَ النَّاسِ وَجْهٌ حَيَاةَ فَاطِمَةَ[٢]، فَلَمَّا تُوُفِّيَتِ اسْتَنْكَرَ عَلِيٌّ وُجُوهَ النَّاسِ[٣]، فَالْتَمَسَ مُصَالَحَةَ أَبِي بَكْرٍ وَمُبَايَعَتَهُ، وَلَمْ يَكُنْ يُبَايِعُ تِلْكَ الأَشْهُرَ، فَأَرْسَلَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ: أَنِ ائْتِنَا وَلَا يَأْتِنَا أَحَدٌ مَعَكَ، كَرَاهِيَةً لِمَحْضَرِ عُمَرَ[٤]، فَقَالَ عُمَرُ: لَا وَاللَّهِ لَا تَدْخُلُ عَلَيْهِمْ وَحْدَكَ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَمَا عَسَيْتَهُمْ أَنْ يَفْعَلُوا بِي، وَاللَّهِ لَآتِيَنَّهُمْ، فَدَخَلَ عَلَيْهِمْ أَبُو بَكْرٍ، فَتَشَهَّدَ عَلِيٌّ، فَقَالَ: إِنَّا قَدْ عَرَفْنَا فَضْلَكَ وَمَا أَعْطَاكَ اللَّهُ، وَلَمْ نَنْفَسْ عَلَيْكَ خَيْرًا سَاقَهُ اللَّهُ إِلَيْكَ، وَلَكِنَّكَ اسْتَبْدَدْتَ عَلَيْنَا بِالْأَمْرِ، وَكُنَّا نَرَى لِقَرَابَتِنَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ نَصِيبًا، حَتَّى فَاضَتْ عَيْنَا أَبِي بَكْرٍ، فَلَمَّا تَكَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ قَالَ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَرَابَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَحَبُّ إِلَيَّ أَنْ أَصِلَ مِنْ قَرَابَتِي، وَأَمَّا الَّذي شَجَرَ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ مِنْ هَذِهِ الأَمْوَالِ، فَلَمْ آلُ فِيهَا عَنِ الخَيْرِ، وَلَمْ أَتْرُكْ أَمْرًا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَصْنَعُهُ فِيهَا إِلَّا صَنَعْتُهُ، فَقَالَ عَلِيٌّ لِأَبِي بَكْرٍ: مَوْعِدُكَ العَشِيَّةَ[٥] لِلْبَيْعَةِ، فَلَمَّا صَلَّى أَبُو بَكْرٍ الظُّهْرَ رَقِيَ عَلَى

---

(١) أي يأكل آل محمّد ﷺ بعض هذا المال، وبقيّته لمصالح المسلمين. ابن حجر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج١٢، ص٧.

(٢) أي كان النّاس يحترمونه إكرامًا لفاطمة رضي الله عنها، فلمّا ماتت واستمرّ على عدم الحضور عند أبي بكر قصّر النّاس عن ذلك الاحترام لإرادة دخوله فيما دخل فيه النّاس. ابن حجر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج٧، ص٤٩٤.

(٣) كأنّهم كانوا يعذرونه في التّخلف عن أبي بكر رضي الله عنه مدّة حياة فاطمة رضي الله عنها لشغله بها، وتمريضها، وتسليتها عمّا هي فيه من الحزن على أبيها ﷺ، ولأنّها لمّا غضبت من ردّ أبي بكرٍ عليها فيما سألته من الميراث رأى عليٌّ رضي الله عنه أن يوافقها في الانقطاع عنه. ابن حجر: فتح الباري، ج٧، ص٤٩٤.

(٤) يرجع السّبب في ذلك إلى ما ألفوه من قوّة عمر رضي الله عنه وصلابته في القول والفعل، وكان أبو بكر رضي الله عنه رقيقًا ليّنًا، فكأنّهم خشوْا من حضور عمر رضي الله عنه كثرة المعاتبة الّتي قد تُفضي إلى خلاف ما قصدوه من المصافاة. ابن حجر: فتح الباري، ج٧، ص٤٩٤.

(٥) موعدك العشيّة: أي بعد الزّوال. ابن حجر: فتح الباري، ج٧، ص٤٩٥.

المِنْبَرِ، فَتَشَهَّدَ، وَذَكَرَ شَأْنَ عَلِيٍّ وَتَخَلُّفَهُ عَنِ البَيْعَةِ، وَعُذْرَهُ بِالّذي اعْتَذَرَ إِلَيْهِ، ثُمَّ اسْتَغْفَرَ وَتَشَهَّدَ عَلِيٌّ، فَعَظَّمَ حَقَّ أَبِي بَكْرٍ، وَحَدَّثَ: أَنَّهُ لَمْ يَحْمِلْهُ عَلَى الّذِي صَنَعَ نَفَاسَةً عَلَى أَبِي بَكْرٍ، وَلَا إِنْكَارًا لِلَّذِي فَضَّلَهُ اللَّهُ بِهِ، وَلَكِنَّا نَرَى لَنَا فِي هَذَا الأَمْرِ نَصِيبًا، فَاسْتَبَدَّ عَلَيْنَا، فَوَجَدْنَا فِي أَنْفُسِنَا، فَسُرَّ بِذَلِكَ المُسْلِمُونَ، وَقَالُوا: أَصَبْتَ، وَكَانَ المُسْلِمُونَ إِلَى عَلِيٍّ قَرِيبًا[1]، حِينَ رَاجَعَ الأَمْرَ المَعْرُوفَ"[2].

وقد استدلّ بعض شرّاح الصّحيحين بهذا الحديث على تأخّر مبايعة عليٍّ ﷺ للصّدّيق ﷺ ستّة أشهر[3].

لكنْ توجد أحاديثُ صحيحةٌ صريحة تعارض هذا القول؛ فقد صحّ أنّ عليًّا ﷺ صلّى العصر خلف أبي بكر ﷺ بعد وفاة رسول الله ﷺ بليالٍ، ثمّ انصرفا يتماشيان معًا بعد الصّلاة، فوجد أبو بكر الحسن بن عليّ ﵄ يلعب مع غلمانٍ، فاحتمله على رقبته وهو يقول: "بِأَبِي شِبْهُ النَّبِيِّ، لَيْسَ شَبِيهًا بِعَلِيٍّ"، وعليٌّ يضحك[4].

وتنصّ روايةٌ لأبي سعيد الخدْريّ ﷺ على أنّ الخليفة أبا بكر الصّدّيق ﷺ صعِد المنبر - بعد مبايعة السّقيفة - "فَنَظَرَ فِي وُجُوهِ الْقَوْمِ فَلَمْ يَرَ الزُّبَيْرَ، فَدَعَا بِهِ فَجَاءَ فقال: قُلْتَ ابْنُ عَمَّةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَحَوَارِيُّهُ، أَرَدْتَ أَنْ تَشُقَّ عَصَا الْمُسْلِمِينَ؟ فَقَالَ: لَا تَثْرِيبَ يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَامَ فَبَايَعَهُ، ثُمَّ نَظَرَ فِي وُجُوهِ الْقَوْمِ فَلَمْ يَرَ عَلِيًّا، فَدَعَا بِهِ فَجَاءَ، فَقَالَ: قُلْتَ

---

(١) أي وُدّهم له. ابن حجر: فتح الباري، ج٧، ص٤٩٥.

(٢) البخاري: الصّحيح، (كتاب المغازي، باب غزوة خيبر)، ج٤، ص١٥٤٩، ح٣٩٩٨؛ مسلم: الصّحيح، (كتاب الجهاد والسّير، باب قول رسول الله ﷺ: لا نورث ما تركنا صدقة)، ج٣، ص١٣٨٠، ١٣٨١، ح١٧٥٩.

(٣) النّووي: شرح صحيح مسلم، ج١٢، ص٧٧، ٧٨؛ البدر العيني: عمدة القاري شرح صحيح البخاري، ج١٧، ص٢٥٩؛ القسطلاني: إرشاد السّاري إلى شرح صحيح البخاري، المطبعة الأميريّة الكبرى، القاهرة، الطّبعة السّابعة، ١٣٢٣هـ، ج٦، ص٣٧٦؛ السّيوطي: التّوشيح شرح الجامع الصّحيح، مكتبة الرّشد، الرّياض، الطّبعة الأولى، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ج٦، ص٢٦٣٤.

(٤) أحمد بن حنبل: المسند، ج١، ص٢١٣، ح٤٠؛ فضائل الصّحابة، ج٢، ص٩٦٢، ح١٣٥١. وصحّح المحققون إسناده. وأخرجه البخاري دون تحديد الوقت. صحيح البخاريّ، (كتاب المناقب، باب صفة النّبيّ ﷺ)، ج٣، ص١٣٠٢، ح٣٣٤٩.

ابْنُ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَخَتَنُهُ عَلَى ابْنَتِهِ، أَرَدْتَ أَنْ تَشُقَّ عَصَا الْمُسْلِمِينَ؟ قَالَ: لَا تَثْرِيب يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَبَايَعَهُ"(١).

وقد جمع الحافظان ابن كثير وابن حجر (ت: ٨٥٢هـ/١٤٤٨م) بين الأحاديث الصّحيحة وانتهيا إلى أنّ عليًّا ﷺ بايع أوّل الأمر مع النّاس، ثمّ بايعه بعد وفاة فاطمة ﵂ تأكيدًا للأولى وإزالة لما حدث من جفوة بسبب الاختلاف حول الميراث(٢).

ويرى الإمام البيهقيّ (ت:٤٥٨هـ/١٠٦٦م) أنّ النّصّ الّذي يتضمّن تخلّف عليّ ﷺ عن مبايعة الصّدّيق أبي بكرٍ ﷺ ستّة أشهرٍ ليس من قول عائشة ﵂، إنّما هو من قول الزّهريّ، فأدرجه بعضُ الرّواة في الحديث في قصّة فاطمة ﵂، وحفظه مَعْمَرُ بن راشدٍ فرواه مفصَّلاً، وجعله من قول الزّهريّ منقطعًا من الحديث(٣)، ورجّح أنّ الزّهريّ أراد قعودَه عنها بعد البيعة، ثمّ نهوضَه إليها ثانيًا، وقيامه بواجباتها(٤).

---

(١) هذه رواية البيهقيّ من طريق محمّد بن إسحاق بن خزيمة، وعلّق عليها الحافظ ابن كثير فقال: "هذا إسناد صحيح محفوظ". البداية والنّهاية، ج٥، ص٢٧٠. وروى البيهقيّ عن أبي عليٍّ الحافظ أنّه قال: "سَمِعْتُ مُحَمَّدَ بْنَ إِسْحَاقَ بْنِ خُزَيْمَةَ يَقُولُ: جَاءَنِي مُسْلِمُ بْنُ الْحَجَّاجِ فَسَأَلَنِي عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ، فَكَتَبْتُهُ لَهُ فِي رُقْعَةٍ وَقَرَأْتُهُ عَلَيْهِ، فقال: وَهَذَا حَدِيثٌ يَسْوَى بَدَنَةً، بَلْ يَسْوَى بَدْرَة". السنن الكبرى، تحقيق/ محمّد عبد القادر عطا، دار الكتب العلميّة، بيروت، الطّبعة الثّالثة، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ج٨، ص٢٤٦، ح١٦٥٣٩. وقد رواه عبد الله بن أحمد بن حنبل عن أبي نضرة عن أبي سعيد الخدْريّ بسند صحيح. كتاب السُّنّة، ج٢، ص٥٥٤، ح١٢٩٢. ورواه الإمام الحاكم، وصحّحه على شرط الشّيخين، وسكت عنه الذّهبيّ. المستدرك على الصّحيحين، ج٣، ص٨٠، ح٤٤٥٧. ورواه البيهقيّ من طريق شيخه الحاكم في الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرّشاد على مذهب السّلف وأصحاب الحديث، تحقيق/ أحمد عصام الكاتب، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤٠١هـ، ص٣٥٠. وصحّح الصّالحيّ إسناد البيهقيّ بطريقيه عن شيخه الحاكم، وعن ابن خزيمة. سبل الهُدى والرّشاد في سيرة خير العباد، ج١٢، ص٣١٦. وأشار الحافظ ابن حجر لحديث أبي سعيد الخدريّ، وذكر أنّ ابن حبّان وغيره ممّن صحّحوا الحديث. فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج٧، ص٤٩٥.

(٢) البداية والنّهاية، ج٥، ص٢٧٠؛ فتح الباري، ج٧، ص٤٩٥. وينظر أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الرّاشدة، ص٥٤.

(٣) السّنن الكبرى، ج٦، ص٤٨٩.

(٤) البيهقي: الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرّشاد على مذهب السّلف وأصحاب الحديث، ص٣٥٢.

ويعجبني ما ذهب إليه البيهقيّ؛ لأنّ نصّ رواية الإمام البخاريّ عن عائشة رضي الله عنها لا يمنع قيام عليٍّ رضي الله عنه بمبايعة أبي بكر الصّدّيق رضي الله عنه في البيعة العامّة؛ ففي الرّواية: "وَلَمْ يَكُنْ يُبَايِعُ تِلْكَ الْأَشْهُرَ"، بلفظ المضارع الّذي يتكرّر باستمرار، ممّا يدلّ على أنّ المقصود منه الحضور عند الخليفة أبي بكر؛ لأنّ المبايعة لا تُطلب أكثر من مرّة، ويتّضح المعنى من ختام الرّواية: "وَكَانَ الْمُسْلِمُونَ إِلَى عَلِيٍّ قَرِيبًا، حِينَ رَاجَعَ الأَمْرَ المَعْرُوفَ"[(١)]، فهذه الجملة تفيد بأنّ عليًّا رضي الله عنه رجع إلى أمر فعله مع الصّدّيق رضي الله عنه قبل ذلك. وفي رواية معمر عند الإمام مسلم (ت: ٢٦١هـ/٨٧٥م): "حِينَ قَارَبَ الْأَمْرَ الْمَعْرُوفَ"[(٢)]، وهذا أدلّ على أنّ الّذي رجع إليه عليٌّ رضي الله عنه وقاربه لم يكن في أصل البيعة بالخلافة، بل الحضور عند أبي بكر والقرب منه.

ولذا قال ابن حجر: "فيحمل قول الزّهريّ "لَمْ يُبَايِعْهُ عَلِيٌّ فِي تِلْكَ الْأَيَّامِ" على إرادة الملازمة له والحضور عنده وما أشبه ذلك، فإنّ في انقطاع مثلِه عن مثله ما يوهم من لا يعرف باطن الأمر أنّه بسبب عدم الرّضا بخلافته، فأطلق من أطلق ذلك، وبسبب ذلك أظهر عليٌّ المبايعة الّتي بعد موت فاطمة رضي الله عنها لإزالة هذه الشّبهة"[(٣)].

وربما تكون البيعة الثّانية لم تحدث أصلاً؛ لأنّ في رواية معمر: "فَلَمَّا رَأَى عَلِيٌّ انْصِرَافَ وُجُوهِ النَّاسِ عَنْهُ، أَسْرَعَ إِلَى مُصَالَحَةِ أَبِي بَكْرٍ"[(٤)]، وليس فيها ذكر للبيعة.

ولأجل اختصاص علي رضي الله عنه بأمر فاطمة رضي الله عنها فلم يذكر شيء في رواية الصّحيحين عن الزّبير بن العوّام رضي الله عنه وهل بايع ثانية أم لا، وكذلك لم يذكر شيءٌ فيمن تخلّف من بني هاشم عن بيعة السّقيفة.

---

(١) البخاري: الصّحيح، (كتاب المغازي، باب غزوة خيبر)، جـ٤، ص١٥٤٩، ح٣٩٩٨.

(٢) أحمد بن حنبل: فضائل الصّحابة، جـ١، ص٣٦٢، ح٥٣١؛ الصّحيح، (كتاب الجهاد والسّير، باب قول النّبيّ ﷺ: لا نورث ما تركنا صدقة)، جـ٣، ص١٣٨١، ح١٧٥٩.

(٣) ابن حجر: فتح الباري، جـ٧، ص٤٩٥.

(٤) عبد الرزّاق: المصنّف، (كتاب المغازي، باب خصومة عليٍّ والعبّاس)، جـ٥، ص٤٧٢، ٤٧٣، ح٩٧٧٤؛ أبو عوانة: مستخرج أبي عوانة، تحقيق/ أيمن عارف الدّمشقي، دار المعرفة، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، جـ٤، ص٢٥١؛ المروزي: مسند أبي بكر الصّدّيق، تحقيق/ شعيب الأرناؤوط، المكتب الإسلامي، بيروت، ص٨٨. ولفظ أبي عوانة والمروزي: "فَلَمَّا رَأَى عَلِيٌّ انْصِرَافَ وُجُوهِ النَّاسِ عَنْهُ ضَرَعَ إِلَى مُصَالَحَةِ أَبِي بَكْرٍ".

وفي انعزال عليّ ﷺ عن أبي بكر ﷺ ستة أشهر -وهو المنافس للصّدّيق في الخلافة كما تدّعي الرّافضة- أبلغ ردّ على عدل الصّدّيق وعدم ظلمه لمن ينازعه في الخلافة(١).

وبعد هذه الجولة مع روايات المحدّثين وأقوال العلماء يظهر للمتأمّل أنّ النّبيّ ﷺ لم ينصّ على الخلافة عينًا لأحد من النّاس، لا لأبي بكر ﷺ، كما تقوله طائفة من أهل السُّنّة، ولا لعليٍّ ﷺ كما زعمته طائفة من الرّافضة، ولكن أشار إشارة قويّة يفهمها كلّ ذي لبّ وعقل إلى الصّدّيق ﷺ(٢).

ولم يحدّد القرآن الكريم نظامًا معيّنًا لكيفيّة اختيار الخلفاء، ولم يشر الرّسول ﷺ إلى مثل ذلك(٣)، غير أنّ اختيار أبي بكر ﷺ للخلافة يوضّح استعلاء قيم الإيمان وخضوع مقاييس الشّخصيّة لها(٤)، لأنّ أبا بكر الصّدّيق ﷺ من بني تَيْم، وهم من أضعف عشائر قريش، وأقلّها عددًا(٥)، ولم يكن لأبي بكر ﷺ بعد وفاة النّبيّ ﷺ مالٌ يستعطف به النّاس، ولا كان له قبيلة عظيمة ينصرونه، ولا موالٍ، ولا دعا النّاس إلى بيعته، لا برغبة، ولا برهبة(٦).

ويتبيّن لنا أنّ مسألة الإمامة ليست من أشرف مسائل المسلمين، ولا أهمّ المطالب في الدّين كما تزعم الرّافضة؛ لأنّها لو كانت كذلك لكان ذكرُها في كتاب الله أعظمَ من غيرها، وبيانُ الرّسول ﷺ لها أولى من بيان غيرها، والقرآنُ مملوءٌ بذكر توحيد الله تعالى، وذكر أسمائه، وصفاته، وآياته، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، والقصص، والأمر، والنّهي، والحدود، والفرائض، بخلاف الإمامة، ولا يكون القرآن مملوءًا بغير الأهمّ الأشرف(٧).

---

(١) ابن تيمية: منهاج السُّنّة، ج٦، ص١٧٧.

(٢) ابن كثير: البداية والنّهاية، ج٥، ص٢٧٠.

(٣) محمود شاكر: التّاريخ الإسلامي، (الخلفاء الرّاشدون)، ص٥٧، ٥٨.

(٤) أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الرّاشدة، ص٥٣.

(٥) القاضي عبد الجبّار: تثبيت دلائل النّبوّة، ج٢، ص٥٦١؛ ابن تيمية: منهاج السُّنّة النّبويّة، ج٧، ص٤٥٧.

(٦) ابن تيمية: منهاج السُّنّة النّبويّة، ج٨، ص١٤٤.

(٧) منهاج السُّنّة النّبويّة، ج١، ص٩٨.

الفصل الثّالث

منهج أبي بكر الصّدّيق في الحكم

لم تكن الخلافة عند الصّدّيق ﷺ مغنمًا يستغلّه في الإكثار من الثّروة، ولا جاهًا يستطيل به على النّاس، بل كان ﷺ يكره الإمارة، ولولا المسئوليّة ما تولّاها، ولذلك قال في البيعة العامّة: "وَاللَّهِ مَا كُنْتُ حَرِيصًا عَلَى الْإِمَارَةِ يَوْمًا وَلَا لَيْلَةً قَطُّ، وَلَا كُنْتُ فِيهَا رَاغِبًا، وَلَا سَأَلْتُهَا اللَّهَ ﷻ فِي سِرٍّ وَلَا عَلَانِيَةٍ، وَلَكِنِّي أَشْفَقْتُ مِنَ الْفِتْنَةِ، وَمَا لِي فِي الْإِمَارَةِ مِنْ رَاحَةٍ، وَلَكِنْ قُلِّدْتُ أَمْرًا عَظِيمًا مَا لِي بِهِ مِنْ طَاقَةٍ وَلَا يَدَ إِلَّا بِتَقْوِيَةِ اللَّهِ ﷻ، وَلَوَدِدْتُ أَنَّ أَقْوَى النَّاسِ عَلَيْهَا مَكَانِي الْيَوْمَ"(١).

ولهذا حدّد الصّدّيق ﷺ منهجه الّذي سيسير عليه منذ البداية، ووضع الدّستور الّذي يحدّد العلاقة بينه وبين الرّعيّة.

🕮 إعلان أبي بكر ﷺ لمنهجه:

لمّا بويع أبو بكر الصّدّيق ﷺ البيعة العامّة في المسجد النّبويّ يوم الثّلاثاء بعد بيعة السّقيفة الّتي تمّت يوم الاثنين، خطب النّاس فحمد الله وأثنى عليه، ثمّ قال: "أَمَّا بَعْدُ، أَيُّهَا النَّاسُ، فَإِنِّي قَدْ وُلِّيتُ عَلَيْكُمْ وَلَسْتُ بِخَيْرِكُمْ، فَإِنْ أَحْسَنْتُ فَأَعِينُونِي، وَإِنْ أَسَأْتُ فَقَوِّمُونِي، الصِّدْقُ أَمَانَةٌ، وَالْكَذِبُ خِيَانَةٌ، وَالضَّعِيفُ فِيكُمْ قَوِيٌّ عِنْدِي حَتَّى أُرِيحَ عَلَيْهِ حَقَّهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، وَالْقَوِيُّ فِيكُمْ ضَعِيفٌ عِنْدِي حَتَّى آخُذَ الْحَقَّ مِنْهُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، لَا يَدَعُ قَوْمٌ الْجِهَادَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا ضَرَبَهُمُ اللَّهُ بِالذُّلِّ، وَلَا تَشِيعُ الْفَاحِشَةُ فِي قَوْمٍ قَطُّ إِلَّا عَمَّهُمُ اللَّهُ بِالْبَلَاءِ، أَطِيعُونِي مَا أَطَعْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، فَإِذَا عَصَيْتُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَلَا طَاعَةَ لِي عَلَيْكُمْ، قُومُوا إِلَى صَلَاتِكُمْ يَرْحَمْكُمُ اللَّهُ"(٢).

---

(١) الحاكم: المستدرك على الصّحيحين، ج٣، ص٧٠، ح٤٤٢٢. وقد صحّحه الحاكم على شرط الشّيخين، وأقرّه الذّهبيّ. ورواه البيهقيّ في الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرّشاد على مذهب السّلف وأصحاب الحديث، ص٣٥٠، ٣٥١.

(٢) معمر بن راشد: الجامع، (منشور كملحق لمصنّف عبد الرّزّاق)، ج١١، ص٣٣٦، ح٢٠٧٠٢؛ ابن هشام: السّيرة النّبويّة، ج٢، ص٦٦١؛ الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٢٣٧. وقد صحّح ابن كثير إسناد هذه الخطبة. البداية والنّهاية، ج٥، ص٢٦٩.



ويزاد على هذه الخطبة من رواية أخرى أنّه قال: "وَاعْلَمُنَّ أَيُّهَا النَّاسُ أَنَّ أَكْيَسَ الْكَيْسِ التُّقَى، وَأَنَّ أَعْجَزَ الْعَجْزِ الْفُجُورُ، يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّمَا أَنَا مُتَّبِعٌ، وَلَسْتُ بِمُبْتَدِعٍ"(١).

وتعدّ هذه الخطبة من أكبر فضائل الصّدّيق، وأدلّها على أنّه لم يكن يريد علوًّا في الأرض ولا فسادًا، وأنّه ليس ظالمًا، ولا طالبًا رياسة(٢)، ومع كونه أكملهم علمًا وأقدرهم على إصلاح أحوالهم، فقد ذكر أنّه والرّعيّة شركاء يتعاونون على مصلحة الدّين والدّنيا، كأمير القافلة الّذي يسير بهم في الطّريق: إن سلك بهم الطّريق اتّبعوه، وإن أخطأ عن الطّريق نبّهوه وأرشدوه، وإن خرج عليهم صائل يصول عليهم تعاونوا على دفعه(٣).

وقد تعرّض الصّدّيق ﷺ للاختبار العمليّ فيما قطعه على نفسه من مبدأ خلافته إلى منتهاها، فأصرّ إصرارًا شديدًا على تنفيذ منهجه على أتمّ صورة إلى أن لقي الله، ويتّبيّن ذلك من خلال العرض الآتي:

أوّلاً: التّمسّك بسنن النّبيّ ﷺ:

يتّضح من سيرة أبي بكر ﷺ أنّه كان حريصًا أشدّ الحرص أثناء خلافته على اتّباع سنن النّبيّ ﷺ، وظهر ذلك في سياسته منذ اليوم الأوّل لخلافته وحتّى لقي الله، وها هي بعض النّماذج الّتي توضّح ذلك.

(١) بعث أسامة بن زيد رضي الله عنهما:

كان رسول الله ﷺ قدّ جهّز جيشًا - قبيل وفاته - بقيادة أسامة بن زيد رضي الله عنهما، وأمره أن يوطئ الخيلَ تخوم البلقاء الأردنيّة(٤)، والدّاروم(٥) الفلسطينيّة(٦)، حيث موضع

---

(١) أبو عبيد القاسم بن سلّام: الأموال، تحقيق/ خليل هرّاس، دار الفكر، بيروت، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ص١٢.

(٢) ابن تيمية: منهاج السُّنّة النّبويّة، جـ٥، ص٤٦٢.

(٣) منهاج السُّنّة النّبويّة، جـ٥، ص٤٦٣.

(٤) البلقاء: إقليم بالأردنّ، وهو الّذي تتوسّطه العاصمة الأردنيّة عمّان. عاتق غيث البلادي الحربي: معجم المعالم الجغرافية في السّيرة النّبويّة، دار مكّة، مكّة المكرّمة، الطّبعة الأولى، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، ص٤٩.

(٥) الدّاروم: كانت تقع على الطّريق بين غزّة ومصر، وهي قريبة من غزّة، ولا توجد الدّاروم اليوم في فلسطين ولا في الأردنّ. عاتق غيث البلادي: معجم المعالم الجغرافية، ص١٢٥.

(٦) ابن هشام: السّيرة النّبويّة، جـ٢، ص٦٠٦.

مقتل أبيه(١)، فطعن بعضُ النّاس في إمارته، فقال النّبيّ ﷺ: "إِنْ تَطْعُنُوا فِي إِمَارَتِهِ، فَقَدْ كُنْتُمْ تَطْعُنُونَ فِي إِمَارَةِ أَبِيهِ مِنْ قَبْلُ، وَأَيْمُ اللَّهِ إِنْ كَانَ لَخَلِيقًا لِلإِمَارَةِ، وَإِنْ كَانَ لَمِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ، وَإِنَّ هَذَا لَمِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ بَعْدَهُ"(٢)، فتجهّز النّاس عند ذلك، وأوعب مع أسامة المهاجرون الأوّلون(٣).

ومرض رسول الله ﷺ بعد البدء في تجهيز هذا الجيش واشتدّ عليه وجعه، في الوقت الّذي عسكر أسامة ﷺ بالجُرْف(٤)، في ثلاثة آلاف(٥)، فأوصى النّبيّ ﷺ بإنفاذ البعث(٦).

وقد تغيّرت الأحوال عقب وفاة رسول ﷺ واستخلاف أبي بكر ﷺ، حيث "كَفَرَ مَنْ كَفَرَ مِنَ العَرَبِ"(٧)، حتّى قالت عائشة ﵂: "قُبِضَ النَّبِيُّ ﷺ فَارْتَدَّتِ الْعَرَبُ، وَاشْرَأَبَّ النِّفَاقُ بِالْمَدِينَةِ، فَلَوْ نَزَلَ بِالْجِبَالِ الرَّوَاسِي مَا نَزَلَ بِأَبِي لَهَاضَهَا"(٨)، وصار المسلمون "كَالْغَنَمِ فِي اللَّيْلَةِ الْمَطِيرَةِ الشَّاتِيَةِ، لِفَقْدِ نَبِيِّهِمْ ﷺ وَقِلَّتِهِمْ، وَكَثْرَةِ عَدُوِّهِم"(٩).

---

(١) ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٢، ص١٩٠.

(٢) البخاري: الصّحيح، (كتاب المغازي، باب غزوة زيد بن حارثة)، ج٣، ص١٣٦٥، ح٣٥٢٤؛ مسلم: الصّحيح، (كتاب فضائل الصّحابة، باب فضائل زيد وأسامة)، ج٤، ص١٨٨٤، ح٢٤٢٦.

(٣) ابن هشام: السّيرة النّبويّة، ج٢، ص٦٠٦، ٦٤٢.

(٤) ابن هشام: السّيرة النّبويّة، ج٢، ص٦٥٠.

(٥) الواقدي: المغازي، تحقيق/ مارسدن جونس، دار الأعلمي، بيروت، الطّبعة الثّالثة، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م، ج٣، ص١١٢٢.

(٦) رواه ابن إسحاق بإسناد مرسل. ابن هشام: السّيرة النّبويّة، ج٢، ص٣٥٣. ورواه موسى بن عقبة بإسناد صحيح عن عبد الله بن عمر. ابن قاضي شهبة: أحاديث منتخبة من مغازي موسى بن عقبة، مؤسّسة الرّيّان، دار ابن حزم، الطّبعة الأولى، ١٩٩١م، ص٨٢.

(٧) البخاري: الصّحيح، (كتاب الاعتصام بالكتاب والسُّنّة، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ)، ج٦، ص٢٦٥٧، ح٦٨٥٥؛ مسلم: الصّحيح، (كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال النّاس حتّى يقولوا: لا إله إلّا الله محمّد رسول الله)، ج١، ص١٥، ح٢٠.

(٨) ابن أبي شيبة: المصنّف في الأحاديث والآثار، ج٧، ص٤٣٤؛ ح٣٧٠٥٥؛ أحمد بن حنبل: فضائل الصّحابة، ج١، ص١١٨، ١١٩، ح٦٨. وإسناد الأثر صحيح.

(٩) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٢٤٥. من طريق الأخباريّ المجروح سيف بن عمر التّميميّ. وانظر ابن كثير: البداية والنّهاية، ج٦، ص٣٣٥.

ودخل أسامة وجيشه المدينة عند وفاة النّبيّ ﷺ، فلمّا بويع أبو بكر ﷺ أمر بخروج البعث[١]، فعرض عليه أسامة ﷺ البقاء في المدينة حتّى تستقرّ الأمور، فرفض الصّدّيق ﷺ وقال: "مَا كُنْتُ لِأَسْتَفْتِحَ بِشَيْءٍ أَوْلَى مِنْ إِنْفَاذِ أَمْرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ وَلَأَنْ تَخَطَّفَنِيَ الطَّيْرُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ ذَلِكَ"[٢].

ولمّا راجع بعض الصّحابة[٣] أبا بكر ﷺ في قراره بحجّة انتقاض العرب عليه، وأنّه يفرّق النّاس عنه، أصرّ على أن تستمرّ الحملة العسكريّة في تحرّكها إلى الشّام مهما كانت الظّروف والأحوال والنّتائج، وقال: "وَالَّذِي نَفْسُ أَبِي بَكْرٍ بِيَدِهِ، لَوْ ظَنَنْتُ أَنَّ السِّبَاعَ أَكَلَتْنِي بِهَذِهِ الْقَرْيَةِ لَأنفذتُ هَذَا الْبَعْثَ الَّذِي أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِإِنْفَاذِهِ"[٤]. وكان ذلك من كمال معرفة الصّدّيق ﷺ، وإيمانه ويقينه وتدبيره ورأيه[٥].

وأحسّ الخليفة أبو بكر ﷺ أنّه بحاجة إلى وجود عمر بن الخطّاب ﷺ بالمدينة ليستفيد من رأيه وخبرته في مواجهة المرتدّين فاستأذن أسامة ﷺ في بقائه، فأذن له[٦]، وكان عمر ذا رأي ناصحًا للإسلام[٧].

وفي هذا الموقف احترامٌ شديدٌ من الصّدّيق ﷺ لتنفيذ البعث على صورته الّتي انفصل عليها من المدينة في حياة النّبيّ ﷺ، كما أنّه يحترم أمراءه، ولا يتدخّل في ما يخصّهم بالأمر والنّهي مع استطاعته ذلك.

---

(١) ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٢، ص١٩١.

(٢) رواه عروة بن الزّبير مرسلاً. خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٠٠.

(٣) كان أشدّ الصّحابة على الصّدّيق في أمر بعث أسامة عمرُ بن الخطّاب، وأبو عبيدة بن الجرّاح، وسالم مولى أبي حذيفة. الكلاعي: الاكتفاء بما تضمّنه من مغازي رسول الله ﷺ والثّلاثة الخلفاء، دار الكتب العلميّة، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، ج٢، ص٨٩.

(٤) من رواية منقطعة لإمام المغازي محمّد بن إسحاق. خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٠٠، ١٠١.

(٥) ابن تيمية: منهاج السُّنّة، ج٥، ص٤٨٩.

(٦) موسى بن عقبة: مغازي سيّدنا محمّد ﷺ، رواية/ إسماعيل بن إبراهيم بن عقبة المِطْرَقِيّ، تحقيق/ محمّد محمّد الطّبرانيّ، الهيئة العامة للعناية بطبع ونشر القرآن الكريم والسُّنّة النّبويّة وعلومها، الكويت، الطّبعة الأولى، ١٤٤٤هـ/٢٠٢٣م، ج٢، ص٢٥٧؛ خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٠٠.

(٧) ابن تيمية: منهاج السُّنّة، ج٥، ص٤٨٨.

ويُروى أنّ أبا بكر الصّدّيق ﷺ أسرع لحسم تردّد المسلمين في الخروج للغزو عقب مصابهم بوفاة النّبيّ ﷺ مباشرة، فخرج إلى معسكرهم، فأشخصهم وشيّعهم وهو ماشٍ وأسامةُ راكبٌ، وعبد الرّحمن بن عوفٍ ﷺ يقودُ دابّة أبي بكر، فاعترض أسامة ﷺ على مشي خليفة رسول الله ﷺ وقال: "وَاللَّهِ لَتَرْكَبَنَّ أَوْ لَأَنْزِلَنَّ"! ولكنّ الخليفة الصّدّيق ﷺ أصرّ على المشي وقال لأسامة: "وَاللَّهِ لَا تَنْزِلُ، وَوَالله لَا أَرْكَبُ! وَمَا عَلَيَّ أَنْ أُغَبِّرَ قَدَمَيَّ فِي سَبِيلِ اللَّهِ سَاعَةً"[(١)].

وأمر الخليفةُ الصّدّيقُ أسامةَ ﷺ أن يصنع ما أمره به النّبيّ ﷺ، وأن يبدأ ببلاد قضاعة، ثمّ يأتي آبِلَ[(٢)]، ولا يُقصّرنّ في شيء من أمر رسول الله ﷺ[(٣)].

ومضى أسامة ﷺ حتّى بثّ الخيول في قبائل قضاعة، وأغار على آبِلَ، فسَلِم وغنم، وعاد إلى المدينة بعد أربعين يومًا[(٤)]، ولم يُصب من المسلمين أحد[(٥)].

وأثبتت الأيّام والأحداث صواب رأي الصّدّيق؛ فقد كان إنفاذ جيش أسامة أعظمَ الأمور نفعًا للمسلمين داخل الجزيرة العربيّة وخارجها؛ لأنّ العرب قالت: "لو لم يكن بهم قوّةٌ لما أرسلوا هذا الجيش، فكفّوا عن كثيرٍ ممّا كانوا يريدون أن يفعلوه"[(٦)]، وكان له أثرٌ بالغ في رفع معنويّات المسلمين وإضعاف معنويّات المنافقين والمرتدّين[(٧)].

---

(١) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٢٤٦. من طريق سيف بن عمر.

(٢) آبِل: موضع بالأردنّ من مشارف الشّام. ياقوت: معجم البلدان، دار صادر، بيروت، الطّبعة الثّانية، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م، ج١، ص٥٠.

(٣) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٢٤٦. من طريق سيف.

(٤) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٠١؛ الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٢٤٦. ويقال إنّ جيش أسامة غاب عن المدينة سبعين يومًا، ولكنّ الطّبريّ يقلّل من صحّته. تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٢٥٣. وقول الطّبريّ جيّد؛ لأنّ أسامة وأصحابه كانوا في خوف شديد من هجوم الأعراب المرتدّين على المدينة، وهذا يدفعهم للنّشاط في أداء مهمّتهم وإنجازها في أسرع وقت.

(٥) ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٢، ص١٩١.

(٦) ابن الأثير: الكامل في التّاريخ، تحقيق/ عمر عبد السّلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م، ج٢، ص١٩٦.

(٧) محمود شاكر: التّاريخ الإسلامي، (الخلفاء الرّاشدون)، ص٦٤.

وقد نقلت المخابرات البيزنطيّة نبأ وفاة النّبيّ ﷺ على هِرَقل وإغارة أسامة في ناحية أرضه خبرًا واحدًا، فقالت الرّوم: "ما بالى هؤلاءِ بموت صاحبهم أن أغاروا على أرضنا"[١].

وغدا الرّوم في خوف من المسلمين على حدودهم، فأرسلوا جيشًا للمرابطة بالبَلْقاء، فلم يزل مقيمًا حتّى قدمت البعوث إلى الشّام في خلافة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما[٢].

وكان من فوائد هذا الجيش في حروب الرّدّة أن أمست جبهة الشّمال أضعف الجبهات، ولعلّ من آثار هذا أنّ كَسْر الرّوم على جبهة الشّام في وقت الفتوحات كان أهون على المسلمين من كسر جبهة العدوّ في العراق، وكلّ ذلك يؤكّد أنّ أبا بكر رضي الله عنه كان في الأزمات أثقب الصّحابة نظرًا، وأعمقهم فهمًا[٣].

وصدقت عائشة رضي الله عنها عندما وصفت الخلاف الّذي حدث بين أبي بكر رضي الله عنه والمسلمين فقالت: "فَوَاللَّهِ مَا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ نُقْطَةٍ إِلَّا طَارَ أَبِي بِعَلْيَائِهَا وَغَنَائِهَا"[٤].

(٢) ميراث السّيّدة فاطمة رضي الله عنها:

لم يكن موقف أبي بكر رضي الله عنه من بعث جيش أسامة رضي الله عنه هو الوحيد الّذي اختلف فيه مع بعض الصّحابة، فقد جاءته فاطمة رضي الله عنها تطلب ميراثها من رسول الله ﷺ كما مرّ، ولكنّه أبى أن يدفع إليها شيئًا، محتجًّا بقول النّبيّ ﷺ "لَا نُورَثُ، مَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ، إِنَّمَا يَأْكُلُ آلُ مُحَمَّدٍ ﷺ فِي هَذَا المَالِ"، وَإِنِّي وَاللَّهِ لَا أُغَيِّرُ شَيْئًا مِنْ صَدَقَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَنْ حَالِهَا الَّتِي كَانَ عَلَيْهَا فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَأَعْمَلَنَّ فِيهَا بِمَا عَمِلَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، "فَوَجَدَتْ فَاطِمَةُ عَلَى أَبِي بَكْرٍ فِي ذَلِكَ، فَهَجَرَتْهُ فَلَمْ تُكَلِّمْهُ حَتَّى تُوُفِّيَتْ"[٥].

---

(١) ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٤، ص٦٧.

(٢) الواقدي: المغازي، ج٣، ص١١٢٤؛ ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٢، ص١٩٢.

(٣) علي العتّوم: حركة الرّدّة، مكتبة الرسالة الحديثة، عمّان، الأردنّ، الطّبعة الثّانية، ١٩٩٧م، ص١٦٨؛ علي محمّد محمّد الصّلّابيّ: أبو بكر الصّدّيق، ص١٨٨.

(٤) ابن أبي شيبة: المصنّف في الأحاديث والآثار، ج٧، ص٤٣٤، ح٣٧٠٥٥؛ أحمد بن حنبل: فضائل الصّحابة، ج١، ص١١٨، ١١٩، ح٦٨. وإسناد الأثر صحيح.

(٥) البخاري: الصّحيح، (كتاب المغازي، باب غزوة خيبر)، ج٤، ص١٥٣٦، ح٣٩٩٨؛ مسلم: الصّحيح، (كتاب الجهاد والسّير، باب قول النّبيّ ﷺ: لا نورث ما تركنا صدقة)، ج٣، ص١٣٨٠، ١٣٨١، ح١٧٥٩.

ولم تؤثّر قرابة السّيّدة فاطمة رضي الله عنها وغضبُها على أبي بكر الصّدّيق رضي الله عنه في زحزحته عن الحقّ الّذي رآه واقتنع به، وقال: "وَاللَّهِ لَا أَدَعُ أَمْرًا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَصْنَعُهُ فِيهِ إِلَّا صَنَعْتُهُ"(١)، وعلّل تمسّكه برأيه باتّباعه لرسول الله ﷺ بقوله: "فَإِنِّي أَخْشَى إِنْ تَرَكْتُ شَيْئًا مِنْ أَمْرِهِ أَنْ أَزِيغَ"(٢).

ولو كان لفاطمة رضي الله عنها حقٌّ في ذلك لما منعه عنها أبو بكر رضي الله عنه وهو الّذي أعطى الأحمر والأسود حقوقهم، ولم يأخذ شيئًا لنفسه، ولا لولده، ولا لعشيرته، ولو كان الأمر كما زعمت الشّيعة لردّه عليٌّ رضي الله عنه في خلافته على أولادها(٣).

ومن نعمة الله - تعالى - على المسلمين أنّ بقاء أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه بعد الخلفاء الثّلاثة خليفة وإمامًا وسلطانًا ومعه مائة ألف سيف تطيعه، فما سار في تركات رسول الله ﷺ إلّا سيرة أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم(٤)، ولو كان ذلك ظلمًا لفاطمة رضي الله عنها لكانت إزالته سهلة عليه(٥).

ولا يضير فاطمة رضي الله عنها أنّها لم تعلم هدي رسول الله ﷺ في تلك الأموال؛ "وقد سأل موسى أخاه هارون -عليهما السّلام- وأخذ برأسه يجرّه إليه، ثمّ رجع إليه حين عرف الجواب عند حاجته إليه، فغيرُ منكرٍ أن تعرف فاطمة رضي الله عنها وأهلُ رسول الله ﷺ ما احتاجوا إليه من أبي بكر رضي الله عنه"(٦).

---

(١) البخاري: الصّحيح، (كتاب الفرائض، باب قول النّبيّ ﷺ: لا نورث ما تركنا صدقة)، ج٦، ص٢٤٧٤، ح٦٣٤٦.

(٢) البخاري: الصّحيح، (كتاب الخمس، باب فرض الخمس)، ج٣، ص١١٢٦، ح٢٩٢٦؛ مسلم: الصّحيح، (كتاب الجهاد والسّير، باب قوله ﷺ: لا نورث)، ج٣، ص١٣٨١، ح١٧٥٩.

(٣) ابن قتيبة: تأويل مختلف الحديث، تحقيق/ محمّد زهري النّجّار، دار الجيل، بيروت، مكتبة الكلّيّات الأزهريّة، القاهرة، ١٣٩٣هـ، ص٤٣٢.

(٤) القاضي عبد الجبّار: تثبيت دلائل النّبوّة، ج١، ص٢٧٥، ٢٧٦.

(٥) ابن تيمية: منهاج السُّنّة، ج٦، ص٣٤٧.

(٦) القاضي عبد الجبّار: تثبيت دلائل النّبوّة، ج٢، ص٥٦٩.

(٣) جمع القرآن الكريم:

استُشهد كثير من حفّاظ القرآن الكريم تحت راية خالد بن الوليد ﷺ في حرب مسيلمة الكذّاب والمرتدّين[١] باليمامة[٢]، فأشار الفاروق عمر ﷺ على الخليفة أبي بكر الصّدّيق ﷺ بجمع القرآن؛ لئلّا يضيع شيءٌ من سُوره وآياته مع استشهاد مزيد من حفظة القرآن الكريم، فأبدى الصّدّيق ﷺ خوفه من الإقدام على مثل هذا الأمر الّذي لم يحدث في حياة النّبيّ ﷺ.

ويُحدّثنا كاتب الوحي زيد بن ثابت الأنصاريّ ﷺ عن جمع القرآن في عهد أبي بكر فيقول: "أَرْسَلَ إِلَيَّ أَبُو بَكْرٍ مَقْتَلَ أَهْلِ اليَمَامَةِ وَعِنْدَهُ عُمَرُ، فَقَالَ: إِنَّ عُمَرَ أَتَانِي، فَقَالَ: إِنَّ القَتْلَ قَدْ اسْتَحَرَّ يَوْمَ اليَمَامَةِ بِالنَّاسِ، وَإِنِّي أَخْشَى أَنْ يَسْتَحِرَّ القَتْلُ بِالقُرَّاءِ فِي المَوَاطِنِ، فَيَذْهَبَ كَثِيرٌ مِنَ القُرْآنِ إِلَّا أَنْ تَجْمَعُوهُ، وَإِنِّي لَأَرَى أَنْ تَجْمَعَ القُرْآنَ، قَالَ أَبُو بَكْرٍ: قُلْتُ لِعُمَرَ: كَيْفَ أَفْعَلُ شَيْئًا لَمْ يَفْعَلْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟ فَقَالَ عُمَرُ: هُوَ وَاللَّهِ خَيْرٌ، فَلَمْ يَزَلْ عُمَرُ يُرَاجِعُنِي فِيهِ حَتَّى شَرَحَ اللَّهُ لِذَلِكَ صَدْرِي، وَرَأَيْتُ الّذي رَأَى عُمَرُ، قَالَ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ: وَعُمَرُ عِنْدَهُ جَالِسٌ لَا يَتَكَلَّمُ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّكَ رَجُلٌ شَابٌّ[٣] عَاقِلٌ، وَلَا نَتَّهِمُكَ، كُنْتَ تَكْتُبُ الوَحْيَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَتَتَبَّعِ القُرْآنَ فَاجْمَعْهُ، فَوَاللَّهِ لَوْ كَلَّفَنِي نَقْلَ جَبَلٍ مِنَ الجِبَالِ مَا كَانَ أَثْقَلَ عَلَيَّ مِمَّا أَمَرَنِي بِهِ مِنْ جَمْعِ القُرْآنِ، قُلْتُ: كَيْفَ تَفْعَلَانِ شَيْئًا لَمْ يَفْعَلْهُ النّبيّ ﷺ؟ فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: هُوَ وَاللَّهِ خَيْرٌ، فَلَمْ أَزَلْ أُرَاجِعُهُ حَتَّى شَرَحَ اللَّهُ صَدْرِي لِلَّذِي شَرَحَ اللَّهُ لَهُ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، فَقُمْتُ فَتَتَبَّعْتُ القُرْآنَ أَجْمَعُهُ مِنَ الرِّقَاعِ، وَالأَكْتَافِ،

---

(١) سيأتي الحديث عن حروب الرّدّة في الفصل القادم.

(٢) اليمامة: كانت قديمًا تسمّى "جَوّ"، و"العَروض"، وقاعدتها "حَجْر"، وكانت تقع بين البحرين والأحقاف، وهي معدودة من إقليم نجد، وتقع مدينة "الرّياض" العاصمة في القلب من اليمامة في العصر الحاضر. ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٥، ص٤٤١، ٤٤٢؛ توفيق برّو: تاريخ العرب القديم، دار الفكر، بيروت، الطّبعة الثّانية، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، ص٢٧.

(٣) كان زيد بن ثابت ﷺ ابن أحدَ عشرَ عامًا عند قدوم النّبيّ ﷺ المدينة، وخاطبه أبو بكر ﷺ بهذا الخطاب بعد موقعة اليمامة في السّنة الثّانيةَ عشرةَ من الهجرة، فيكون عندئذ في الثّالثة والعشرين أو قريبًا منها. البدر العيني: عمدة القاري، ج١٨، ص٢٨١.

وَالعُسُبِ[1]، وَصُدُورِ الرِّجَالِ، حَتَّى وَجَدْتُ مِنْ سُورَةِ التَّوْبَةِ آيَتَيْنِ مَعَ خُزَيْمَةَ الأَنْصَارِيِّ لَمْ أَجِدْهُمَا مَعَ أَحَدٍ غَيْرِهِ[2]، ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٢٨ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ۝١٢٩﴾[3]، وَكَانَتِ الصُّحُفُ الّتِي جُمِعَ فِيهَا القُرْآنُ عِنْدَ أَبِي بَكْرٍ حَتَّى تَوَفَّاهُ اللَّهُ، ثُمَّ عِنْدَ عُمَرَ حَتَّى تَوَفَّاهُ اللَّهُ، ثُمَّ عِنْدَ حَفْصَةَ بِنْتِ عُمَرَ"[4].

---

(١) العُسُب: جريد النّخل. ابن منظور: لسان العرب، ج١، ص٥٩٩.

(٢) لم يقبل زيد بن ثابت ﷺ شيئًا من القرآن دون شهادة رجلين إلّا من خزيمة بن ثابت الأنصاريّ ﷺ فقط؛ وذلك "أَنَّ النّبيّ ﷺ ابْتَاعَ فَرَسًا مِنْ أَعْرَابِيٍّ، فَاسْتَتْبَعَهُ النَّبِيُّ ﷺ لِيَقْضِيَهُ ثَمَنَ فَرَسِهِ، فَأَسْرَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَشْيَ وَأَبْطَأَ الأَعْرَابِيُّ، فَطَفِقَ رِجَالٌ يَعْتَرِضُونَ الأَعْرَابِيَّ، فَيُسَاوِمُونَهُ بِالْفَرَسِ وَلَا يَشْعُرُونَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ابْتَاعَهُ، فَنَادَى الأَعْرَابِيُّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ مُبْتَاعًا هَذَا الْفَرَسِ وَإِلّا بِعْتُهُ؟ فَقَامَ النَّبِيُّ ﷺ حِينَ سَمِعَ نِدَاءَ الأَعْرَابِيِّ، فَقَالَ: "أَوْ لَيْسَ قَدِ ابْتَعْتُهُ مِنْكَ؟" فَقَالَ الأَعْرَابِيُّ: لَا، وَاللَّهِ مَا بِعْتُكَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: "بَلَى، قَدِ ابْتَعْتُهُ مِنْكَ"، فَطَفِقَ الأَعْرَابِيُّ، يَقُولُ هَلُمَّ شَهِيدًا، فَقَالَ خُزَيْمَةُ بْنُ ثَابِتٍ: أَنَا أَشْهَدُ أَنَّكَ قَدْ بَايَعْتَهُ، فَأَقْبَلَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى خُزَيْمَةَ فَقَالَ: "بِمَ تَشْهَدُ؟"، فَقَالَ: بِتَصْدِيقِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَجَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ شَهَادَةَ خُزَيْمَةَ بِشَهَادَةِ رَجُلَيْنِ". أحمد بن حنبل: المسند، ج٣٦، ص٢٠٥، ٢٠٦، ح٢١٨٨٣؛ أبو داود: السّنن، (كتاب الأقضية، باب إذا علم الحاكم صدق الشّاهد الواحد يجوز له أن يحكم به)، ج٥، ص٤٦٠، ح٣٦٠٧، (كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن)، ج٣، ص٣٠٨، ح٣٦٠٧. وصحّح المحقّقون إسناده.

(٣) سورة التوبة: الآيتان ١٢٨، ١٢٩. وفي رواية عن زيد بن ثابت ﷺ أنّه قال: "لَمَّا كُتِبَتِ الْمَصَاحِفُ فَقَدْتُ آيَةً كُنْتُ أَسْمَعُهَا مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَوَجَدْتُهَا عِنْدَ خُزَيْمَةَ الأَنْصَارِيِّ، ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ۝٢٣﴾. (سورة الأحزاب: ٢٣)، فَكَانَ خُزَيْمَةُ يُدْعَى ذَا الشَّهَادَتَيْنِ"، أَجَازَ رَسُولُ اللهِ ﷺ شَهَادَتَهُ بِشَهَادَةِ رَجُلَيْنِ". عبد الرزّاق: المصنّف، ج٨، ص٣٦٧، ح١٥٥٦٨؛ أحمد بن حنبل: المسند، ج٣٥، ص٥١٠، ح٢١٦٥٢؛ البغوي: شرح السُّنّة، تحقيق/ شعيب الأرناؤوط، ومحمد زهير الشّاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، الطّبعة الثّانية، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ج١٤، ص١٨٥. والحديث إسناده صحيح.

(٤) البخاري: الصّحيح، (كتاب التفسير، باب قوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، ج٤، ص١٧٢٠، ح٤٤٠٢، (كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن)، ج٤، ص١٩٠٧، ح٤٧٠١. (كتاب الأحكام، باب يستحب للكاتب أن يكون أمينًا عاقلاً)، ج٦، ص٢٦٢٩، ح٦٧٦٨.



وقد جمع الصّحابة القرآن الّذي أنزله الله ﷻ على رسوله ﷺ في موضعٍ واحدٍ، باتّفاق من جميعهم، من غير أن زادوا فيه، أو نقصوا منه شيئًا، وكتبوه كما سمعوا من رسول الله ﷺ، من غير أن قدّموا شيئًا أو أخّروا، أو وضعوا له ترتيبًا لم يأخذوه من رسول الله ﷺ، وكان رسول الله ﷺ يلقّن أصحابه، ويعلّمهم ما ينزل عليه من القرآن على التّرتيب الّذي هو الآن في مصاحفنا، بتوقيف جبريل عليه السلام إيّاه على ذلك، وإعلامِه عند نزول كلّ آيةٍ أنّ هذه الآية تكتب عُقَيْبَ آية كذا في السّور الّتي يذكر فيها كذا(١).

وبهذا فإنّ سعي الصّحابة رضي الله عنهم كان في جمع القرآن في موضعٍ واحدٍ، لا في ترتيبه، لأنّ القرآن مكتوبٌ في اللّوح المحفوظ على التّرتيب الّذي هو في مصاحفنا، أنزله الله - تعالى - جملةً واحدةً في شهر رمضان ليلة القدر إلى السّماء الدّنيا، كما قال الله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾(٢)، وقال ﷻ: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ١﴾(٣).

وقد كان جمع القرآن في الوقت المناسب تمامًا؛ "لأنّ الدّين كمُل، واستقرّ بموته ﷺ، فلم يَبق فيه نسخٌ، ولهذا جُمع القرآنُ بعد موته لكماله، واستقراره بموته"(٤).

وكان اختيار زيد بن ثابت رضي الله عنه لهذه المهمّة الثّقيلة؛ لأنّه اجتمع فيه من المواهب ذات الأثر في جمع القرآن ما لم يجتمع في غيره، إذ كان من حفّاظ القرآن، ومن كتّاب الوحي لرسول الله ﷺ، وشهد العرضة الأخيرة للقرآن في ختام حياة النّبيّ ﷺ، وكان فوق ذلك معروفًا بخصوبة عقله، وشدّة ورعه، وعظم أمانته، وكمال خُلقه، واستقامة دينه(٥).

ويدلّ على كمال إتقان زيد بن ثابت رضي الله عنه وقوّة ذاكرته وشدّة حفظه أنّه تعلّم السُّريانيّة في سبعةَ عشرَ يومًا(٦).

---

(١) البغوي: شرح السُّنّة، ج٤، ص٥٢١، ٥٢٢.

(٢) سورة البقرة: من الآية ١٨٥.

(٣) سورة القدر: الآية ١. وينظر البغوي: شرح السُّنّة، ج٤، ص٥٢٢.

(٤) ابن تيمية: منهاج السُّنّة، ج١، ص٨٣.

(٥) محمّد عبد العظيم الزّرقاني: مناهل العرفان، دار الفكر، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٩٩٦م، ج١، ص١٧٤.

(٦) ابن أبي داود: كتاب المصاحف، تحقيق/ محمّد عبده، دار الفاروق الحديثة، القاهرة، الطّبعة الأولى، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ص٣٤.

وكان علماء الصّحابة ﷺ يعرفون قدر زيد ﷺ، وعندما توفّي قال فيه أبو هريرة ﷺ: "الْيَوْمَ مَاتَ حَبْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ فِي ابْنِ عَبَّاسٍ مِنْهُ خَلَفًا"(١).

ولم يترك الصّدّيق والفاروق زيد بن ثابت ﷺ لتحمّل المسئوليّة وحده، بل باشراه وتابعاه وأعاناه، فقال أبو بكر لعمرَ وزيد ﷺ: "اقْعُدُوا عَلَى بَابِ الْمَسْجِدِ فَمَنْ جَاءَكُمَا بِشَاهِدَيْنِ(٢) عَلَى شَيْءٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَاكْتُبَاهُ"(٣).

وبهذا يكون العمل الحضاريّ العظيم الّذي حفظ الله به كتابه قد تمّ على يد الصّدّيق بالرّغم من تحرّجه في أوّل الأمر من أن يفعل شيئًا لم يفعله النّبيّ ﷺ، وأظهر لنا أنّ الاتّباع لا يعني إلغاء الاجتهاد فيما لا نصّ فيه، وفيما تقتضيه المصالح المتجدّدة للأمّة(٤).

(٤) مقاتلة مانعي الزّكاة:

لمّا قُبض رسولُ الله ﷺ وارتدّ من ارتدّ من العرب، وقال بعضهم: نصلّي ولا نزكّي، أتى عمرُ أبا بكر رضي الله عنهما ناصحًا، وطلب منه أن يتألّف النّاس ويرفق بهم لأنّهم بمنزلة الوحش، فقال أبو بكر ﷺ: "رَجَوْتُ نَصْرَكَ، وَجِئْتَنِي بِخِذْلَانِكَ، جَبَّارٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، خَوَّارٌ فِي الْإِسْلَامِ، مَاذَا عَسَيْت أَنْ أَتَأَلَّفَهُمْ، بِشَعْرٍ مُفْتَعَلٍ، أَوْ بِسِحْرٍ مُفْتَرًى، هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ، مَضَى النّبيّ ﷺ، وَانْقَطَعَ الْوَحْيُ، وَاللَّهِ لَأُجَاهِدَنَّهُمْ مَا اسْتَمْسَكَ السَّيْفُ فِي يَدِي"(٥).

---

(١) ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٢، ص٣٦٢. وصحّح ابن حجر إسناده. الإصابة، ج٤، ص١٢٧.

(٢) اختلفوا في الشّاهدين، فقيل: المراد بهما الحفظ والكتابة، ورجّحه ابن حجر، وقيل يشهدان على أنّ ذلك المكتوب كتب بين يدي رسول الله ﷺ، أو المراد أنّهما يشهدان على أنّ ذلك من الوجوه الّتي نزل بها القرآن، وكان غرضهم أن لا يكتب إلّا من عين ما كتب بين يدي النّبيّ ﷺ لا من مجرّد الحفظ. ابن حجر: فتح الباري، ج٩، ص١٤، ١٥.

(٣) ابن أبي داود: المصاحف، ص٥١. ورجال الأثر ثقات مع انقطاعه. ابن حجر: فتح الباري، ج٩، ص١٤.

(٤) حمدي شاهين: الدّولة الإسلاميّة في عصر الخلفاء الرّاشدين، دار القاهرة، الطّبعة الأولى، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م، ص٤٧.

(٥) البيهقي: دلائل النّبوّة ومعرفة أحوال صاحب الشّريعة، تحقيق/ عبد المعطي قلعجي، دار الكتب العلميّة، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ج٢، ص٤٧٦؛ ابن كثير: مسند عمر بن الخطّاب، تحقيق/ عبد المعطي قلعجي، دار الوفاء، المنصورة، الطّبعة الأولى، ١٤١١هـ/١٩٩١م، ج٢، ص٦٧٣. وعلّق بقوله: "إسناده غريب من هذا الوجه، لكن له شواهد كثيرة من وجوه أُخر".



وحاول الفاروق عمر ﷺ جاهدًا أن يقنع الصّدّيق ﷺ بترك جمع الزّكاة من قبائل العرب عامئذ؛ لأنّهم شحّوا بأموالهم، وبيّن له أنّ التّشدّد فيها لن يؤدّي إلّا إلى تفريق العرب عنه، غير أنّ الصّدّيق ﷺ أصرّ على مقاتلتهم، وذلك في الوقت الّذي قدم فيه الأعرابيّان عيينةُ بنُ حصن الفزاريّ والأقرعُ بنُ حابس التّميميّ في رجال من أشراف العرب فدخلوا على رجال من المهاجرين فأخبروهم بارتداد قبائل العرب عن الإسلام وامتناعهم عن دفع شيء من أموالهم إلى الخليفة الصّدّيق، وطلبوا جُعلاً ليكفّوا الأعراب عن مهاجمة المدينة في غيبة جيش أسامة ﷺ، فرفض الصّدّيق ﷺ دفع رشوة لأحد على الإسلام، وأعلن أنّه يتأسّى بالنّبيّ ﷺ في مجاهدة عدوّه[(١)].

وثبت أنّ الفاروق عمر قال لأبي بكر الصّدّيق رضي الله عنهما: كيف تقاتل النّاس؟ وقد قال رسول الله ﷺ: "أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلّا اللَّهُ، فَمَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ عَصَمَ مِنِّي مَالَهُ وَنَفْسَهُ، إِلَّا بِحَقِّهِ وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ"، فَقَالَ: "وَاللَّهِ لَأُقَاتِلَنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ، فَإِنَّ الزَّكَاةَ حَقُّ المَالِ، وَاللَّهِ لَوْ مَنَعُونِي عِقَالاً[(٢)] كَانُوا يُؤَدُّونَهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَقَاتَلْتُهُمْ عَلَى مَنْعِهِ"، قال عمر: "فَوَاللَّهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ رَأَيْتُ اللَّهَ قَدْ شَرَحَ صَدْرَ أَبِي بَكْرٍ لِلْقِتَالِ، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ الحَقُّ"[(٣)].

وهذا الحديث الّذي احتجّ به الصّدّيق ﷺ يبيّن فقهه في مقاتلة المرتدّين، وهو صريح في القتال عن أداء الزّكاة، وهو مطابق للقرآن، كما في قوله تعالى: ﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُواْ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍۚ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ

---

(١) الكلاعي: الاكتفاء بما تضمّنه من مغازي رسول الله ﷺ والثّلاثة الخلفاء، ج٢، ص٩٠.

(٢) العقال: الحبل الّذي يعقل به البعير الّذي كان يؤخذ في الصّدقة، وفي أكثر الرّوايات "عَنَاقا"، وفي أخرى جديًا، والعناق: هي الأنثى من أولاد المعز. مجد الدّين بن الأثير: النّهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق/ طاهر أحمد الزّاوي، ومحمود محمد الطّناحي، المكتبة العلميّة، بيروت، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، ج٣، ص٢٨٠، ٣١١.

(٣) البخاري: الصّحيح، (كتاب الاعتصام بالكتاب والسُّنّة، باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ)، ج٦، ص٢٦٥٧، ح٦٨٥٥؛ مسلم: الصّحيح، (كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال النّاس حتى يقولوا: لا إله إلّا الله محمّد رسول الله)، ج١، ص٥١، ح٢٠.

وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٥﴾[1]، فعلّق تخلية السّبيل على الإيمان وإقام الصّلاة وإيتاء الزّكاة[2].

والمقصود بالنّاس في هذا الحديث هم كفّار العرب عبدة الأوثان خاصّة[3]؛ فقد "أمرَ رسولُ الله ﷺ أن نقاتل العرب على الإسلام، ولا نقبلُ منهم غيرَه، وأمر أن يُقاتلَ أهلُ الكتاب على الإسلام، فإن أبوْا فالجزية"[4].

وأمّا قول بعض الأجانب الّذين لا يفهمون العربيّة: "يتحتّم على المسلم أن يعلن غير المسلمين بالعداوة حيث وجدهم، لأنّ محاربة غير المسلمين واجب دينيّ"[5]، فهو غلط محض؛ لأنّه لو كان صحيحًا ما بقي أحدٌ من اليهود والنّصارى والمشركين على دينه في ديار الإسلام إبّان عصور انتصارات المسلمين العظيمة[6].

ولم تكن مقاتلة الصّدّيق لمانعي الزّكاة على امتناعهم عن طاعته ودفع الزّكاة إليه خاصّة، بل قاتلهم على امتناعهم عن طاعة رسول الله ﷺ، والإقرار بما جاء به[7]، فإنّهم لو أعطَوْها بأنفسهم لمستحقّيها، ولم يؤدّوها إليه لم يقاتلهم، فإنّه لم يقاتل أحدًا على طاعته، ولا ألزم أحدًا بمبايعته، ولهذا لمّا تخلّف عن بيعته سعد بن عبادة لم يكرهه على ذلك[8].

ثانياً: عدم تميز الصّدّيق على رعيّته وشفقته عليهم:

لم يختصّ الصّدّيق ﷺ نفسه بعد الخلافة بشيء يميّزه على المسلمين، ولذلك عزم على ممارسة أعماله الّتي كان يزاولها قبل الخلافة إضافة إلى أعباء الولاية العامّة، وأصبح

---

(١) سورة التوبة: الآية ٥.

(٢) ابن تيمية: منهاج السُّنّة، جـ٨، ص٣٢٨.

(٣) القاسم بن سلّام: الأموال، ص٣٤، ٣٩.

(٤) السّرخسي: شرح السّير الكبير للإمام محمد بن الحسن الشّيباني، دار الكتب العلميّة، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، جـ٥، ص١٥، ١٦.

(٥) كارل بروكلمان: تاريخ الشّعوب الإسلاميّة، ترجمة/ نبيه أمين فارس، ومنير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، الطّبعة الخامسة، ١٩٦٨م، ص٧٨.

(٦) شوقي أبو خليل: كارل بروكلمان في الميزان، دار الفكر، دمشق، الطّبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م، ص٧٨.

(٧) ابن تيمية: منهاج السُّنّة، جـ٤، ص٥٠١.

(٨) منهاج السُّنّة، جـ٤، ص٤٩٥.



غاديًا إلى السّوق وعلى رقبته أثوابٌ يتّجر بها، فلقيه عمرُ وأبو عبيدة، فسألاه عن وجهته؟ فأخبرهما أنّه يريد السّوق ليتكسّب لنفسه وعياله، فطالباه بالرّجوع[١]؛ لأنّ مزاولته للبيع والشّراء ستعطّله عن النّظر في أمور الرّعيّة، "وجَعَلُوا لَهُ أَلْفَيْ دِرْهَمٍ، فقَالَ: زِيدُونِي، إِنَّكُمْ قَدْ مَنَعْتُمُونِي مِنَ التِّجَارَةِ وَلِي عِيَالٌ، فَزَادُوهُ خَمْسَ مِائَةِ دِرْهَمٍ، وَجَعَلُوا لَهُ شَاةً كُلَّ يَوْمٍ يُطْعِمُهَا الْمُسْلِمِينَ، فَقَالَ: طَيِّبُوا لِأَهْلِي رَأْسَهَا وَأَكَارِعَهَا، فَفَعَلُوا[٢].

وثبت في الصّحيح عن عائشة رضي الله عنها أنّها قالت: "لَمَّا اسْتُخْلِفَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ، قَالَ: لَقَدْ عَلِمَ قَوْمِي أَنَّ حِرْفَتِي لَمْ تَكُنْ تَعْجِزُ عَنْ مَئُونَةِ أَهْلِي، وَشُغِلْتُ بِأَمْرِ الْمُسْلِمِينَ، فَسَيَأْكُلُ آلُ أَبِي بَكْرٍ مِنْ هَذَا المَالِ، وَيَحْتَرِفُ لِلْمُسْلِمِينَ فِيهِ"[٣].

وقد أضافت بعض الرّوايات أنّ المسلمين عرضوا على أبي بكر الصّدّيق رضي الله عنه نفقته على أهله كما كان ينفق قبل أن يُستخلف، وإذا أخلق برديه أن يضعهما ويأخذ مثلهما، ويأخذ ظهرًا يركبه إذا سافر، مقابل أن يتفرّغ لأمور المسلمين، فرضي بذلك[٤].

وكان الخليفة أبو بكر الصّدّيق رضي الله عنه رءوفًا بالرّعيّة، حتّى قال فيه عبد الله بن جعفر ابن أبي طالب رضي الله عنهما: "وَلِيَنَا أَبُو بَكْرٍ، فَكَانَ خَيْرَ خَلِيفَةٍ، أَرْحَمَهُ بِنَا، وَأَحْنَاهُ عَلَيْنَا"[٥].

ولمّا احتضر الخليفة أبو بكر الصّدّيق رضي الله عنه قال: "يَا عَائِشَةُ انْظُرِي اللِّقْحَةَ[٦] الَّتِي كُنَّا نَشْرَبُ مِنْ لَبَنِهَا، وَالْجِفْنَةَ الَّتِي كُنَّا نَصْطَبِحُ فِيهَا، وَالْقَطِيفَةَ الَّتِي كُنَّا نَلْبَسُهَا، فَإِنَّا كُنَّا نَنْتَفِعُ بِذَلِكَ حِينَ كُنَّا فِي أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ، فَإِذَا مِتُّ فَارْدُدِيهِ إِلَى عُمَرَ، فَلَمَّا مَاتَ أَبُو بَكْرٍ رضي الله عنه

---

(١) ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٣، ص١٨٤.

(٢) أحمد بن حنبل: فضائل الصّحابة، ج١، ص١٩٨، ١٩٩، ح١٤٧. وقد حسّن المحقق وصيّ الله إسناد الأثر.

(٣) البخاري: الصّحيح، (كتاب البيوع، باب كسب الرّجل وعمله بيده)، ج٢، ص٧٢٩، ح١٩٦٤.

(٤) ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٣، ص١٨٤.

(٥) أحمد بن حنبل: فضائل الصّحابة، ج١، ص٥٦٦، ح٦٩٩؛ البغوي: معجم الصّحابة، تحقيق/ محمّد الأمين محمّد الجكني، دار البيان، الكويت، الطّبعة الأولى، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ج٣، ص٤٥١. واستدركه الحاكم على الشّيخين، وصحّح إسناده، وأقرّه الذّهبيّ. المستدرك على الصّحيحين، ج٣، ص٨٤، ح٤٤٦٨. وجوّد الحافظ ابن حجر إسناد البغوي. الإصابة في تمييز الصّحابة، ج٤، ص١٤٩.

(٦) اللّقحة: بكسر اللّام وفتحها، وهي النّاقة القريبة العهد بالنّتاج. ابن الأثير: النّهاية في غريب الحديث والأثر، ج٤، ص٢٦٢.

أَرْسَلْت بِهِ إِلَى الفاروق عُمَرَ ﷺ، فقال: رَضِيَ اللهُ عَنْكَ يَا أَبَا بَكْرٍ، لَقَدْ أَتْعَبْتَ مَنْ جَاءَ بَعْدَكَ"(١).

وقد لخّص عمرو بن العاص ﷺ نظرة أبي بكر الصّدّيق ﷺ للأموال فقال: "لَئِنْ كَانَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ يَحِلُّ لَهُمَا هَذَا الْمَالُ الّذي أَصَبْنَاهُ بَعْدَهُمَا فَتَرَكَاهُ فَقَدْ غُبِنَا، وَنَقَصَ رَأْيُهُمَا، وَمَا كَانَا مَغْبُونَيْنِ، وَلَا نَاقِصِي رَأْيٍ، وَلَئِنْ كَانَ يَحْرُمُ عَلَيْهِمَا فَتَرَكَاهُ لَقَدْ هَلَكْنَا، وَمَا كَانَ الْوَهْنُ إِلَّا مِنْ قِبَلِنَا"(٢).

ولهذا كان أبو بكر الصّديق ﷺ أزهد الأمّة بعد رسول الله ﷺ؛ لأنّه كان له المال الكثير في أوّل الإسلام والتّجارة الواسعة، فأنفقه كلّه في سبيل الله، وكان حاله في الخلافة ما ذُكر، ثمّ ردّ ما تركه لبيت المال(٣).

ثالثاً: تسوية أبي بكر بين الرّعيّة في العطاء:

بالرّغم من المكانة الكبيرة الّتي اختُصّ بها السّابقون الأوّلون من المهاجرين والأنصار على غيرهم من المسلمين فإنّ الصّدّيق ﷺ نظر لعموم الأمّة في توزيع العطاء نظرة سواء، فكان يسوّي في قسمته بين السّابقين الأوّلين والمتأخّرين في الإسلام، وبين الحرّ والعبد، والذّكر والأنثى، ولمّا أشير عليه بتفضيل أهل السّبق على قدر منازلهم، رفض ذلك وقال: "إِنَّمَا أَسْلَمُوا لِلَّهِ، وَوَجَبَ أَجْرُهُمْ عَلَيْهِ يُوَفِّيهِمْ ذَلِكَ فِي الْآخِرَةِ، وإِنَّمَا هَذِهِ الدُّنْيَا بَلَاغٌ"(٤)، "وَهَذَا مَعَاشٌ، فَالْأُسْوَةُ فِيهِ خَيْرٌ مِنَ الْأَثَرَةِ"(٥).

---

(١) رواه الطّبرانيّ عن الحسن بن عليّ رضي الله عنهما. المعجم الكبير، تحقيق/ حمدي عبد المجيد السّلفي، مكتبة الزّهراء، الموصل، الطّبعة الثّانية، ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م، جـ١، ص٦٠، ح٣٨. وقال الهيثميّ: "رواه الطّبرانيّ، ورجاله ثقات". مجمع الزّوائد ومنبع الفوائد، تحقيق/ حسام الدّين القدسيّ، مكتبة القدسيّ، القاهرة، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م، جـ٥، ص٢٣١، ح٩١٧٠.

(٢) ابن زنجويه: الأموال، تحقيق/ شاكر ذيب فياض، مركز الملك فيصل للبحوث والدّراسات الإسلاميّة، الطّبعة الأولى، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، جـ٢، ص٦٠٣. وقال الهيثميّ: "رواه الطّبرانيّ، ورجاله رجال الصّحيح". مجمع الزّوائد، جـ٥، ص٢٣٢، ح٩١٧٣.

(٣) ابن تيمية: منهاج السُّنّة، جـ٧، ص٤٨٠.

(٤) أحمد بن حنبل: الزّهد، دار الكتب العلميّة، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ص٩١؛ البغوي: شرح السُّنّة، جـ١١، ص١٤١.

(٥) أبو يوسف: الخراج، تحقيق/ طه عبد الرءوف سعد، وسعد حسن محمد، المكتبة الأزهريّة للتّراث، القاهرة، بدون تاريخ طبع، ص٥٣.

الفصل الرّابع

حروب الرِّدّة

يطلق مصطلح "الرّدّة" في أغلب الدّراسات على جميع الحركات الّتي واجهها الخليفة أبو بكر الصّدّيق ﷺ عقب تولّيه الخلافة، سواء كان أتباعُها رافضين للإسلام كديانة، أو منكرين لبعض أركانه، أو متمرّدين على سلطة الدّولة الإسلاميّة.

ولم تكن هذه الحركات كلّها وليدة عهد الصّدّيق ﷺ، بل إنّ حركات المتنبّئين قد ظهرت في حياة النّبيّ ﷺ، فادّعى عَبْهَلَةُ بنُ كعب الشّهير بالأسود العنسيّ ومُسَيْلِمَةُ الكذّاب الحنفيّ وطليحة بن خويلد الأسديّ النّبوّةَ في العهد النّبويّ(١).

وقد أراد هؤلاء المتنبّؤون أن يقيموا دولاً وكيانات لأنفسهم، وتخيّلوا أنّ ادّعاء النّبوّة هو الّذي يمكّنهم من تحقيق طموحاتهم.

ولمّا صدمت جموع الأعراب بوفاة النّبيّ ﷺ ولمّا يدخل الإيمان في قلوبهم ويتعرّفوا على حقيقة الإسلام نكص كثيرٌ منهم على أعقابهم، فرجع بعضهم إلى عبادة الأوثان، وانضوى بعضهم في حركات المتنبّئين، وتحلّل آخرون من فرضيّة الزّكاة الّتي رأوها ثقلاً على عواتقهم، كما حنّ صنف آخر إلى حياة الجاهليّة الّتي لا تلزم أصحابها بالبعد عن الموبقات والالتزام بالأخلاق.

🕮 أسباب حروب الرِّدّة:

لم تكن الدّوافع والأسباب موحّدة عند المرتدّين، بل كان للرّدّة عدّة عوامل يمكن إجمالها في الآتي:

🕮 العامل الدِّيني:

كان إسلام غالبيّة الأعراب ضعيفًا، فلم يتغلغل الإيمان في قلوبهم؛ لتأخّر إسلامهم، وقصر المدّة الّتي تمّ فيها تبليغ الدّعوة إليهم، بل ربما استسلم بعضهم لسلطان الدّولة الإسلاميّة ولم يعتنقوا الإسلام كدين(٢)، وقد وصفهم القرآن بضعف الدّين في قوله تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي

---

(١) ابن عبد البرّ: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ج٣، ص١٢٦٦.

(٢) أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الرّاشدة، ص٣٩٢.

قُلُوبِكُمۡۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٤﴾[١]، وقال عنهم أيضًا: ﴿ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٩٧﴾[٢]، فهم أشدُّ جحودًا لتوحيد الله، وأشدّ نفاقًا، وأقلُّ علمًا بحقوق الله من أهل الحضر؛ بسبب جفائهم، وقسوة قلوبهم، وقلّة مشاهدتهم لأهل الخير[٣].

🕮 العامل السّياسيّ:

كانت العرب في الجاهليّة قد أَلِفت النّزعة القبليّة الّتي تجعل من القبيلة وحدة سياسيّة واجتماعيّة توجّه حياة أبنائها وتحدّد مصيرهم، وبالرّغم من دخول العرب في دين الله أفواجًا في حياة النّبيّ ﷺ، فقد ظلّت القبائل البدويّة تعيش في مضاربها، ولا تشعر بالسُّلطة المركزيّة في المدينة إلّا في أضيق الحدود الّتي تتمثّل في وجود أحد الدّعاة الّذي يكلّفه النّبيّ ﷺ بتعليم النّاس أحكام الإسلام، أو عامل الصّدقات الّذي يأتيهم من الحول إلى الحول ليجمع زكواتهم فينفق منها في فقرائهم، ثمّ يحمل ما زاد منها إلى المدينة، ولم يطل عهدهم بتلك المظاهر الّتي لم يألفوها؛ إذ سرعان ما قُبض النّبيّ ﷺ، فعادت النّزعة الاستقلاليّة تلحّ على أبناء القبائل العربيّة[٤].

ولهذا فقد نظر المرتدّون إلى الزّكاة على أنّها إتاوة فُرضت عليهم لإذلالهم من قبل قبيلة أخرى بالرّغم من أنّها لا تساوي شيئًا بجوار الحقوق الماليّة الّتي كانوا يدفعونها طواعية لشيوخ القبائل وزعمائها، وهؤلاء بدورهم قاموا بدور كبير في استرجاع مكاسبهم السّياسيّة وحقوقهم الماليّة.

ويتّضح هذا من حديث دار بين الأعرابيّ قُرَّةَ بن هبيرة القُشيريّ العامريّ والصّحابيّ عمرو بن العاص الّذي أرسله النّبيّ ﷺ إلى عُمان، فقد نزل عمروٌ ﷺ على قرّة

---

(١) سورة الحجرات: الآية ١٤.

(٢) سورة التّوبة: الآية ٩٧.

(٣) الطّبري جامع البيان في تأويل آي القرآن، تحقيق/ أحمد محمّد شاكر، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، جـ١٤، ص٤٢٩.

(٤) حمدي شاهين: الدّولة الإسلاميّة في عصر الخلفاء الرّاشدين، ص٥٦.



منصرفه من عُمان - عقب وفاه النّبيّ ﷺ - فاستقبله وأكرم مثواه، ثمّ نصحه بإعفاء العرب من الإتاوة؛ حتّى لا تخرج عن سلطانهم، وتسمع لهم وتطيع، فاستنكر عَمْرٌو ﷺ كلام قرّة، وسأله عن حقيقة إسلامه، فهدّده بجموع قومه الّذين تحلّقوا حوله، ولكنّ عمرًا ﷺ لم يعبأ بهم، وقال له: "أَتُوَعِّدُنَا بِالْعَرَبِ وَتُخَوِّفُنَا بِهَا! مَوْعِدُكَ حِفْشُ[1] أُمِّكَ، فَوَاللَّهِ لَأُوطِئَنَّ عَلَيْكَ الْخَيْلَ"، وقدم على المسلمين، فأخبرهم[2].

📖 **العامل القبليّ**:

لا يخفى أنّ العصبيّة القبليّة هي أبرز ما يميّز تاريخ العرب في الجاهليّة، والمستقرئ للسّيرة النّبويّة يرى أنّ القبائل المناوئة لبني هاشم لم ينصبوا العداوة للنّبيّ ﷺ إلّا لكونه من منافسيهم، وكان هذا الأمر مسيطرًا على عقليّة أبرز زعمائهم أبي جهل المخزوميّ، الّذي كان يعتبر نبوّة سيّدنا محمّد ﷺ سيادة لبني هاشم على غيرهم[3].ولمّا دخل النّاس في دين الله أفواجًا، واتّسعت رقعة الدّولة الإسلاميّة الّتي تدين بنبوّة محمّد ﷺ نظر الأعراب إلى هذا الوضع على أنّه سيطرة لقريش على غيرها من القبائل، حتّى رُوي أنّ طلحةَ النَّمِرِيَّ قال لمُسَيْلِمَةَ الكذّاب عندما عاينه وسمع كلامه: "أَشْهَدُ أنّك كذّاب، وأَنَّ مُحَمَّدًا صَادِقٌ، وَلَكِنْ كذَّاب رَبِيعَةَ أحبُّ إِلَيْنَا مِنْ صَادَقِ مُضَرَ"[4].

وقد تحدّث أحد شعراء الرّدّة عن إنكار قومه لإمارة قريش فقال[5]:

أَطَعْنَا رَسُولَ اللَّهِ مَا كَانَ بَيْنَنَا ** فَيَا لِعِبَادِ اللَّهِ مَا لأَبِي بَكْرِ
أَيَمْلِكُنَا بَكْرٌ إِذَا كَانَ بَعْدَهُ ** فَذَاكَ وَبَيْتِ اللَّهِ قَاصِمَةُ الظَّهْرِ

---

(١) الحِفش: البيت الصّغير من بيوت الأعراب، والدّرج الّذي يوضع فيه البخور. ابن منظور: لسان العرب، ج٦، ص٢٨٧.

(٢) ابن سعد: الطّبقات الكبير، تحقيق/ علي محمّد عمر، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطّبعة الأولى، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م، ج٦، ص٢٠٢. والأثر رواه ابن سعد من طريق شيخه محمّد بن عمر الواقديّ. وعند الطّبريّ من طريق سيف بن عمر التّميميّ. تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٢٦٣.

(٣) محمّد عبد العال محمّد حسن: مواقف غير المسلمين في مساندة النّبيّ ﷺ وأصحابه خلال العهد النّبويّ، بحث منشور في مجلّة كلّيّة الآداب، جامعة سوهاج، العدد ٣٥، أكتوبر ٢٠١٣م، ص٢٤٨- ٢٥١.

(٤) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٢٧٧. من طريق سيف.

(٥) ابن شبّة: تاريخ المدينة، ج١، ص٢٩٥. وانظر ابن سعد: الطّبقات الكبير، ج٦، ص٢٥٠.

وبالجملة فقد كانت العصبيّة القبليّة لا تزال عميقة بين القبائل الّتي ترى أنّها أضخم عَددًا وعُددًا من قريش، وبالتّالي فهي أولى بالزّعامة، ولذا لم تكن ترضى بالخضوع لحكم قريش[1].

🕮 التّدخّل الخارجيّ:

لم يتّخذ الفرس موقفًا حياديًّا ممّا حدث في بلاد العرب بعد وفاة النّبيّ ﷺ، وإنّما تدخّلوا تدخّلاً سافرًا فيما دار بين العرب على سواحل الخليج شرقًا، فقد ارتدّت بعض بطون بكر بن وائل بالبحرين[2]، وخرج وفد منهم إلى كسرى يسألونه أن يولّي عليهم رجلاً من قِبله، ويعينهم على محاربة بني عبد القيس[3] الّذين ثبتوا على إسلامهم، فأمّر عليهم المنذر بن النّعمان بن المنذر المعروف بالغَرور، وضمّ إليه سبعة آلاف فارس، فاجتمع البكريّون والفرس على محاربة المسلمين بالبحرين[4]، وكان هذا هو السّبب الّذي عجّل بدخول المسلمين بلاد العراق.

ولهذا وجد الخليفة أبو بكر الصّدّيق ﷺ نفسه مسئولاً عن أمن الدّولة الإسلاميّة وسلامة المجتمع، وحرمة العقيدة، فوجب عليه معاقبة المعاندين، والمتمرّدين، والمفترين الكذّابين.

---

(١) أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الرّاشدة، ص٣٩٢.

(٢) البحرين: اسم للبلدان الواقعة على ساحل الخليج بين البصرة وعُمان، ويتلفّظ بها باليـاء والنّـون في جميع الأحوال على المشهور. ياقوت: معجم البلدان، ج١، ص٣٤٦، ٣٤٧.

(٣) عبد القيس: قبيلة ربعيّة عظيمة، تنسب إلى عبد القيس بن أفصى بن دُعمِي بن أسد بن ربيعة بن نِزار بن معدّ بن عدنان. ابن الأثير: اللّباب في تهذيب الأنساب، دار صادر، بيروت، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، ج٢، ص٣١٤.

(٤) الواقدي: الرّدّة، (منسوب إليه)، تحقيق/ يحيى الجبوري، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، ص١٤٨؛ ابن أعثم: الفتوح، تحقيق/ علي شيري، دار الأضواء، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤١١هـ/١٩٩١م، ج١، ص٣٨.



🕮 أوّل صدام مع المرتدّين في عهد الصّدّيق:

يروي الإخباريّ سيف بن عمر التّميميّ أنّ أتباع طليحة بن خويلد الأسديّ وحلفاءه من الأعراب، لم يمهلوا الصّدّيق ﷺ حتّى يعود جيش أسامة، فقصدوا المدينة النّبويّة، ولمّا وجدوا أنّ هذه الجموع لا يمكن لها الإقامة في مكان واحد افترقوا إلى فرقتين؛ فأقامت فرقة منهم بالأبرق(١)، وسار الباقون حتّى عسكروا بذي القَصّة(٢).

ويقصّ علينا سيفٌ خبر معركة كبيرة بين المسلمين بقيادة أبي بكر الصّدّيق ﷺ وبين المرتدّين خارج المدينة، تراجع فيها المسلمون في البداية، ثمّ كرّ الصّدّيق ﷺ بجنوده عليهم وبيّتهم عند طلوع الفجر، فما طلعت الشّمس حتّى حُسمت المعركة، وغنم المسلمون عامّة ظهرهم، واتّبع أبو بكر ﷺ المرتدّين، حتّى نزل ذا القَصَّة، ووضع بها مسلحة بقيادة النّعمان بن مقرِّن ﷺ، ورجع الصّدّيق إلى المدينة(٣).

لكنّ سيفًا التّميميّ لا يتابع على ذلك، فيذكر غيرُه أنّ أبا بكر ﷺ أمر بالجهاز، وتقدّم إلى ذي القَصّة فيّ قلّة من النّاس(٤) لتوجيه الزّحوف إلى أهل الرّدّة، وكان خارجة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزاريّ قد خرج في خيل من غَطَفَانَ(٥)، ليخذّل النّاس عن

---

(١) الأبرق: هو أبرق الرّبذة، كان من منازل بني ذُبيان في نجد، وتبعد الرّبذة عن المدينة مائة كيلو متر في طريق الرّياض. ياقوت: معجم البلدان، ج١، ص٦٨؛ محمّد محمّد حسن شُرّاب: المعالم الأثيرة في السُّنّة والسّيرة، دار القلم، دمشق، الدّار الشّاميّة، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤١١هـ، ص١٢٥.

(٢) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٢٥٤. وذو القصّة: موضع قريب من المدينة في طريق الرّبذة يقال له بقعاء، وهو الّذي خرج إليه الصّدّيق لتوجيه الجيوش لمحاربة المرتدّين. ياقوت: معجم البلدان، ج١، ص٤٧١؛ عاتق غيث البلادي الحربي: معجم المعالم الجغرافية في السّيرة النّبويّة، ص٢٥٥.

(٣) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٢٥٥، ٢٥٦.

(٤) كان الصّدّيق ﷺ في مائة من المهاجرين، أو من المهاجرين والأنصار. الكلاعي: الاكتفاء، ج٢، ص٩٥.

(٥) غطَفَان: بطن عظيم من العدنانيّة، كثير الشّعوب والأفخاذ، وهم بنو غطفان بن قيس عيلان بن مضر ابن نزار بن معدّ بن عدنان، وينقسم الغطفانيون إلى ثلاثة أفخاذ عظيمة: أشجع بن ريث بن غطفان، وعبس، وذبيان ابنا بغيض بن ريث بن غطفان، وفزارة من بني ذبيان. عمر رضا كحالة: معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، الطّبعة السّابعة، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م، ج٣، ص٨٨٨، ٩١٨.

الخروج، أو يصيب غِرّة منهم، فلمّا رأى قلّة المسلمين هاجمهم وهم غافلون، فتحيّزوا منه، ولاذ أبو بكر الصّدّيق ﷺ بشجرة لئلّا يعرف، وبرز طلحة بن عبيد الله ﷺ على مكان مرتفع، ونادى بأعلى صوته يثبّت المسلمين، ويخبرهم بقدوم الأمداد، فتراجع النّاس، وتلاحق المسلمون، فانكشف المرتدّون، واتّبعهم طلحة بن عبيد الله ﷺ، فأدرك رجلاً منهم فقتله، ولاذ الباقون بالفرار، فأعجزوا المسلمين(١)، وأقام أبو بكر ﷺ بذي القَصّة ينتظر النّاس، وبعث إلى الثّابتين على الإسلام حول المدينة من أسلمَ، وغِفار، ومُزينة، وأشجعَ، وجهينة، وكعب، يأمرهم بجهاد أهل الرّدّة، والخفوف إليهم، فسارعوا إليه حتّى شحنت منهم المدينة(٢).

ويتّفق ابن شهاب الزّهريّ (ت: ١٢٤هـ/٧٤٢م) وأبو مَعْشر السّنديّ (١٧٠هـ/٧٨٧م) على تأريخ خروج أبي بكر ﷺ إلى ذي القَصّة بعد رجوع جيش أسامة ﷺ(٣).

📖 **المواجهة الشّاملة للمرتدّين**:

لقد واجه الصّدّيق ﷺ موقفًا حرجًا عقب وفاة النّبيّ ﷺ، فقد ارتدّ كثير من قبائل العرب عن الإسلام كلّيًّا أو جزئيًّا، وتمسّك بالإسلام مَنْ بين المسجدين، وأسلمُ، وغِفارٌ، وجُهَينةُ، ومُزَينةُ، وكعبٌ، وثقيفٌ، وعبدُ القيس، وكِنانةُ، وطيّئ، وهُذَيل، والدِّيَل، وبَجِيلة، وخثعم، ودَوْس، وتَجيب، وهمْدان، وأهل السَّراة، والأبناء، ومَذْحِج إلّا بني زُبيد(٤).

---

(١) الطّبري من طريق أبي معشر. تاريخ الأمم والملوك، جـ٢، ص٢٥٣؛ البلاذري: فتوح البلدان، تحقيق/ طه عبد الرّءوف سعد، وعمرو أحمد عطوة، دار ابن خلدون، الإسكندريّة، مصر، بدون تاريخ طبع، ص١٢٠، ١٢١؛ المقدسي: البدء والتّاريخ، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٠م، مج٢، جـ٥، ص١٥٦، ١٥٧؛ ابن حُبيش: الغزوات، (الجزء الأوّل وهو الخاص بأخبار الرّدّة)، تحقيق/ أحمد غنيم، مطبعة حسّان، الطّبعة الأولى، القاهرة، دار الكتب، جـ١، ص٢٨، ٢٩، ٤٠؛ الكلاعي: الاكتفاء بما تضمّنه من مغازي رسول الله ﷺ والثّلاثة الخلفاء، جـ٢، ص٩٥، ٩٦.

(٢) ابن حبيش: الغزوات، جـ١، ص٣٩؛ الكلاعي: الاكتفاء بما تضمّنه من مغازي رسول الله ﷺ والثّلاثة الخلفاء ، جـ٢، ص٩٦. كلاهما من طريق الواقدي.

(٣) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٠١؛ الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٢، ص٢٥٣. ويعتمد خليفة قول ابن شهاب الزّهريّ.

(٤) ابن حبيش: الغزوات، جـ١، ص٢٥- ٢٨؛ الكلاعي: الاكتفاء، جـ٢، ص٩٠، ٩١.



وقد كان للثّابتين على الإسلام من أبناء القبائل العربيّة دورٌ كبيرٌ في مواجهة المرتدّين من أقوامهم، بداية من الوعظ والتّحذير بالكلمة من سوء المصير الّذي ينتظرهم إلى الجهاد بالسّيف، ولم تكن نتائج هؤلاء الدّاعين إلى الإسلام واحدة، فمنهم من استضعفهم قومُهم فسخروا منهم وأخرجوهم، بل وقتلوهم في بعض الأحيان، ومنهم من نجح في تثبيت من همّ بالرّدّة من أقوامهم، فلقد اختفى أمير مكّة عَتّابُ بنُ أسيد بن أبي العاص بن أميّة الأمويّ ﷺ عندما شعر بهَمّ بعض القرشيّين بالرّدّة عن الإسلام، فوقف سهيل بن عمرو العامريّ ﷺ موقفًا مشرّفًا كان له أثره في تثبيت النّاس على الإسلام، وقام فيهم خطيبًا[1] بمثل خطبة أبي بكر بالمدينة "كأنّه كان يسمعها"[2]، وزاد قائلاً: "يَا أَهْلَ مَكَّةَ، لَا تَكُونُوا آخِرَ مَنْ أَسْلَمَ وَأَوَّلَ مَنِ ارْتَدَّ، وَاللَّهِ لَيُتِمَّنَّ اللَّهُ هَذَا الْأَمْرَ كَمَا ذَكَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ"[3].

وقال سهيلٌ ﷺ أيضًا: "إِنَّ ذَلِكَ لَمْ يَزِدْ الإِسْلَامَ إِلَّا قُوَّةً، فَمَنْ رَابَنَا ضَرَبْنَا عُنُقَهُ"، فكفّ النّاسُ عمّا همّوا به، وظهر عتّابُ بن أسيد ﷺ بعد اختفائه[4].

وهمّتْ قبيلة طيّئ بالرّدّة، فقام سيّدهم عديّ بن حاتم ﷺ فخاطبهم قائلاً: "إِنَّكُمْ إِنْ أَقَمْتُمْ عَلَى دِينِ الْإِسْلَامِ أَصَبْتُمُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ، وَإِنْ رَجَعْتُمْ عَنْهُ خَسِرْتُمُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ، وَاسْتَغْنَى اللَّهُ عَنْكُمْ"، وطالبهم بدفع صدقاتهم إلى الخليفة، واستنفرهم إلى قتال أهل الرّدّة، كما أكّد زيدُ الخيل الطّائيّ على كلام عديّ ﷺ، فثبتتْ قبائلُ طيّئ على الإسلام، وقامت بجمع صدقاتها، وخفّت إلى الجهاد[5]، كما وقفت بعض التّجمّعات الّتي ثبتت على الإسلام في مجالدة أقوامهم المرتدّين حتّى أنجدهم الخليفة أبو بكر ﷺ بالجيوش[6].

---

(١) ذكر الإمام الشّافعيّ هذا الموقف لسهيل بن عمرو ﷺ. أحمد بن حنبل: العلل ومعرفة الرّجال، رواية/ عبد الله بن أحمد، تحقيق/ وصيّ الله محمد عبّاس، دار الخاني، الرّياض، الطّبعة الثّانية، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، ج٣، ص٤٢٢.

(٢) ابن حبيش: الغزوات، ج١، ص٢٦؛ الكلاعي: الاكتفاء بما تضمّنه من مغازي رسول الله ﷺ والثّلاثة الخلفاء، ج٢، ص٨٧.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التّاريخ، ج٢، ص١٨٦.

(٤) ابن هشام: السّيرة النّبويّة، ج٢، ص٦٦٦؛ ابن كثير: البداية والنّهاية، ج٥، ص٣٠٠.

(٥) الواقدي: الرّدّة، ص٦٣- ٦٥؛ ابن كثير: البداية والنّهاية، ج٥، ص٣٠٠.

(٦) علي محمّد محمّد الصّلاّبيّ: أبو بكر الصّدّيق، ص٢٠١.

ولمّا رجع جيش أسامة ﷺ استخلف الصّدّيقُ عبدَ الله بن مسعود ﷺ على حرس أنقاب المدينة، وخرج لقتال المرتدّين حتّى ضرب معسكره بذي القَصَّة[1]، وهمّ بالمسير بنفسه، فطالبه الصّحابة ﷺ أن يبعث رجلاً يثق به، ويرجع إلى المدينة، وألحّوا عليه في ذلك، فعقد لخالد بن الوليد ﷺ على عامّة النّاس[2].

وزعم سيفٌ التّميميّ أنّ الخليفة أبا بكر ﷺ قسّم الجيش الإسلاميّ من ذي القصّة إلى أحدَ عشرَ لواءً، وجعل على كلّ لواء أميرًا، وأمر قائدَ كلّ جند باستنفار من مرّ به من المسلمين من أهل البلاد الّتي يمرّ بها[3]، لكنّ قوله مخالفٌ لجمهور أهل الأخبار الّذين يجمعون على تولية خالد بن الوليد ﷺ على عامّة الجيش الّذي اجتمع للصّدّيق ﷺ بذي القصّة[4]، في نحو ثلاثة آلاف[5].

ولم يأمر الخليفة الصّدّيق ﷺ الأمير خالد بن الوليد ﷺ بالهجوم على المرتدّين فجأة وأخذِهم على غِرّة، وإنّما كتب للمرتدّين يدعوهم للعودة إلى الإسلام[6]، وكلّف جنده أن يمسكوا عن الغارة "إنْ سَمِعُوا أَذَانًا، أَوْ رَأَوْا صَلاةً"[7]، وعهد إليهم أن يقاتلوا النّاس على أركان الإسلام الخمسة[8].

وهذا عرض سريع لأهمّ الجيوش الإسلاميّة الّتي سيّرها الصّدّيق لمقاتلة المرتدّين وما دار بين الفريقين من مواجهات:

---

(١) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٠١.

(٢) تاريخ خليفة، ص١٠٢.

(٣) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٢٥٧.

(٤) روى الإمام أحمد بن حنبل بسنده إلى وحشيّ بن حرب الحبشيّ ﷺ أنّ أبا بكر عقد لخالد بن الوليد على قتال أهل الرّدّة. المسند، ج١، ص٢١٦. وينظر الواقدي: الرّدّة، ص٦٩، ٧٠؛ ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٣، ص٤٦٦؛ خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٠٢؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص١٢١؛ الكلاعي: الاكتفاء، ج٢، ص٩٧.

(٥) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٠٢.

(٦) الواقدي: الرّدّة، ص٧١؛ الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٢٥٧، ٢٥٨.

(٧) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٠٤.

(٨) الكلاعي: الاكتفاء، ج٢، ص٩٧.

🕮 القضاء على ردّة طليحة الأسديّ:

كان طليحة بن خويلدٍ الأسديّ قد قدم مع وفد قومه - بني أسد - على النّبيّ ﷺ في أوّل عام الوفود سنة تسع من الهجرة[(١)]، ولمّا دخلوا على رسول الله ﷺ تكلّموا فقالوا: "يَا رَسُولَ اللَّهِ قَاتَلَتْكَ مُضَرُ كُلُّهَا وَلَمْ نُقَاتِلْكَ، وَلَسْنَا بِأَقَلِّهِمْ عَدَدًا، وَلَا أَكَلِّهِمْ شَوْكَةً، وَصَلْنَا رَحِمَكَ"، فقال النّبيّ ﷺ: "إِنَّ فِقْهَهُمْ لَقَلِيلٌ، وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَيَنْطِقُ عَلَى لِسَانِهِمْ"، فأنزل الله ﷻ قوله: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم ۖ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٧﴾﴾[(٢)].

ولمّا بَعث النّبيّ ﷺ المصدّقين في قبائل العرب استعمل حامية بن سبيع الأسديّ على صدقات قومه[(٣)]، ولم يلبث طليحةُ أن ادّعى النّبوّة ببلاد نجد في حياة النّبيّ ﷺ[(٤)]، فاتّبعه العوام، وكان أوّل ما صدر عنه، واستغوى النّاس به، أنّه كان مع نفرٍ من قومه في سفر، فأعوزهم الماءُ وغلب العطش عليهم، فقال: "ارْكَبُوا أَعْلَالاً - اسم فرسه - واضْرِبُوا أَمْيالاً، تَجِدُوا بِلَالاً"، ففعلوا، فوجدوا الماء، فكان ذلك سبب وقوع الأعراب في الفتنة[(٥)].

وقد اشتدّ أمر المتنبّئ طليحة بن خويلد وقويت شوكتُه عقب وفاة النّبيّ ﷺ[(٦)]، واجتمع عليه الأعراب بنجد، وتمادى في سَجْع الأكاذيب، وأمر النّاس بترك السّجود في

---

(١) ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج١، ص٢٩٢.

(٢) سورة الحجرات: الآية ١٧. النّسائي: السّنن الكبرى، (كتاب التّفسير، باب قوله: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾، ج٦، ص٤٦٧، ح١١٥١٩؛ أبو يعلى: المسند، تحقيق/ حسين سليم أسد الدّاراني، دار المأمون، دمشق، الطّبعة الأولى، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، ج٤، ص٢٥٠، ح٢٣٦٣. وعلق المحقّق على الحديث بقوله: "رجاله رجال الصّحيح". وخلاصة القول أنّ الحديث يرتقي بمجموع طرقه إلى درجة الحسن. سليم عيد الهلالي، ومحمد موسى آل نصر: الاستيعاب في بيان الأسباب، دار ابن الجوزي، السّعودية، الطّبعة الأولى، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، ج٣، ص٢٨٧.

(٣) الكلاعي: الاكتفاء، ج٢، ص٩١. ويقال استعمل عليهم الأبّاء بن قيس الأسديّ. تاريخ خليفة، ص٩٨.

(٤) ابن عبد البرّ: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ج٣، ص١٢٦٦.

(٥) ابن حبّان: الثّقات، دائرة المعارف العثمانيّة، الهند، الطّبعة الأولى، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م، ج٢، ص١٦٦؛ الدّيار بكري: تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ طبع، ج٢، ص١٦٠.

(٦) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٢٦٢.

الصّلاة[١]، لذلك وجّه إليه الصّدّيق ﷺ سيّد الأمراء وبطل الشّجعان خالد بن الوليد ﷺ[٢]، وقال عندما عقد له على قتال أهل الرّدّة: إِنِّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: "نِعْمَ عَبْدُ اللَّهِ وَأَخُو الْعَشِيرَةِ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ، وَسَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللَّهِ، سَلَّهُ اللَّهُ ﷻ عَلَى الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ"[٣]. ولمّا عزم الصّدّيق ﷺ على مفارقة خالد في ذي القَصَّة أظهر أنّه سيلقاه من ناحية خيبر بمن معه من الأمراء، وذلك لتسير كلمتُه في النّاس، ويُخيف الأعراب[٤].

توجّه خالدٌ ﷺ بجيشه إلى طليحة بن خويلد في الوقت الّذي اجتمع عليه المرتدّون من بني أسد وغطفان ببزاخة[٥]، ورأى الصّدّيق أنّ انفضاض بعض القبائل الّتي استغواها المتنبّئ طليحة الأسديّ يضعف من قوّته ويفتّ في عضده، ولذلك أرسل عديّ بن حاتم الطّائيّ ﷺ إلى قومه ليدركهم قبل أن يلحقوا بطليحة فيكون دمارهم، "فَلَمْ يَزَلْ عَدِيٌّ يَفْتِلُ لَهُمْ فِي الذِّرْوَةِ وَالْغَارِبِ"[٦]، حتّى لانُوا له، ورجعوا معه بعدما همّوا بالرّدّة[٧].

وقدّم سيفُ الله خالدٌ ﷺ ثابتَ بنَ أَقْرَمَ البلويّ[٨]، وعُكّاشَةَ بنَ مِحْصَنٍ رضي الله عنهما[٩]، فلقيهما حِبال بن خويلد الأسديّ فقتلاه، فتلقَّاهما طليحةُ وأخوه سلمةُ فيمن معهما، فحمل طليحة على عُكّاشة فقتله، وقتل سلمةُ ثابتَ بن أقرم[١٠].

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التّاريخ، ج٢، ص٢٠٢.

(٢) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٠٢؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص١٢١.

(٣) أحمد بن حنبل: المسند، ج١، ص٢١٦، ح٤٣. وصحّح المحقّقون هذا الحديث بشواهده.

(٤) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٠٢؛ ابن حبيش: الغزوات، ج١، ص٣١.

(٥) البلاذري: فتوح البلدان، ص١٢١؛ الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٢٦٠.

(٦) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٢٦٠؛ ابن كثير: البداية والنّهاية، ج٦، ص٣٤٩.

(٧) ابن حبيش: الغزوات، ج١، ص٤٧.

(٨) ثابت بن أقرم: حليف للأنصار، شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ. ابن عبد البرّ: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ج١، ص١٩٩.

(٩) عكّاشة بن محصن: حليف بني عبد شمس بن عبد مناف، وهو من بني أسد بن خزيمة، شهد المشاهد كلّها مع رسول الله ﷺ. ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٣، ص٩٢.

(١٠) ابن خياط: تاريخ خليفة، ص٢٠٢، ٢٠٣؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص١٢١. وعند يحي بن سعيد الأمويّ أنّهما تبعا طليحة بعد فراره فقتلهما. ابن حبيش: الغزوات، ج١، ص٥٥.



والتقى المسلمون بجموع طليحة فاقتتلوا قتالاً شديدًا[١]، حتّى أُشير على خالد ﷺ بالتّحيّز إلى جبلي طيّئ، فرفض إلّا الاقتحام قائلاً: "بَلْ إِلَى اللهِ الْمَلْجَأُ"، وصمد إلى حامل راية طليحة فقتله، وضرَّس في القتال حتّى قطع سيفين، وجعل يتقدّم ويقحم فرسه في المرتدّين، حتّى لامه جندُه لمكانه من الإمارة، فاعتذر لهم بخوفه من الهزيمة، وأنّه لا يستطيع الصّبر على الأعداء[٢]، وترادّ النّاس بعدما انكسروا أوّل المعركة لشدّة الأعراب[٣].

وكان عيينةُ بن حِصْن الفزاريّ قد انضمّ لطليحة الأسديّ في سبعمائة من قومه[٤]، فلمّا اشتدّت الحرب ضجر من القتال، وجعل يتردّد على طليحة الكذّاب الّذي قعد يتنبّأ لهم، ويسأله عن جبريل! فلمّا جاءه المرّة الثّالثة، أخبره طليحة أنّ جبريل قال له: "إِنَّ لَكَ رَحًا كَرَحَاهُ، وَحَدِيثًا لَا تَنْسَاهُ"، فقال عُيينة الفزاريّ: "قَدْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّهُ سَيَكُونُ حَدِيثٌ لَا تَنْسَاهُ"، ثمّ خرج عيينة إلى قومه فأخبرهم بكذب طليحة، وأمرهم بالانصراف، فانهزم المرتدّون، وظهر المسلمون[٥].

وتعجّب طليحة بن خويلد الأسديّ من انهزام أعرابه الأشدّاء؟ فقال له أحدهم: "نَحْنُ قَوْمٌ نُقَاتِلُ نُرِيدُ الْبَقَاءَ، وَهَؤُلَاءِ يُقَاتِلُونَ وَيُحِبُّونَ الْفَنَاءَ"، فقالت لهم "النّوّار" امرأة طليحة: "أَمَا إِنَّهُ لَوْ كَانَتْ لَكُمْ نِيَّةٌ صَادِقَةٌ لَمَا انْهَزَمْتُمْ عَنْ نَبِيِّكُمْ"، فقال لها رجلٌ آخر: "لَوْ كَانَ زَوْجُكِ هَذَا نَبِيًّا لَمَا خَذَلَهُ رَبُّهُ"[٦].

وهرع بعض المرتدّين إلى متنبّيهم طليحة يسألونه عمّا يفعلون؟ فما كان منه إلّا أن ركب فرسًا كان قد أعدّها لنفسه، وأركب زوجه "النّوّار" على بعير له، ثمّ انطلق بها تجاه الشّام

---

(١) البلاذري: فتوح البلدان، ص١٢١.

(٢) ابن حبيش: الغزوات، جـ١، ص٥١- ٥٣؛ الكلاعي: الاكتفاء بما تضمّنه من مغازي رسول الله ﷺ والثّلاثة الخلفاء، جـ٢، ص١٠٢، ١٠٣.

(٣) ابن حبيش: الغزوات، جـ١، ص٥٢.

(٤) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٠٣.

(٥) البلاذري: فتوح البلدان، ص١٢١. ورواه الطّبري من طريق ابن إسحاق. تاريخ الأمم والملوك، جـ٢، ص٢٦١، ٢٦٢.

(٦) الواقدي: الرّدّة، ص٩٢؛ ابن أعثم: الفتوح، جـ١، ص٤١، ١٥.

وهو يقول لأتباعه: "من استطاع منكم أن يفعل مثل ما فعلت وينجو بأهله فليفعل"(١)، فانفضّت جموعهم عند ذلك، وهاموا على وجوههم(٢).

وأقام خالد بن الوليد ﷺ شهرًا بنواحي بزاخة يقاتل المرتدّين وينكّل بهم(٣)، حتّى أشار بعض الصّحابة على أبي بكر الصّدّيق ﷺ بعزله، فرفض أن يَشيم(٤) سيفًا سلّه الله على الكافرين(٥)، وكان حامية بن سبيع بن الحسحاس الأسديّ - الّذي استعمله النّبيّ ﷺ على صدقات قومه - من بين الهالكين على الرّدّة(٦).

ولمّا قدم وفد بزاخة - أسد وغطَفان - على الصّدّيق، خيّرهم بين الحرب المجلية والسِّلم المخزية، فقالوا: "مَا السِّلْمُ المُخْزِيَةُ؟ قَالَ: تُؤَدُّونَ الْحَلْقَةَ وَالْكُرَاعَ(٧)، وَتُتْرَكُونَ أَقْوَامًا"(٨)، "تَتْبَعُونَ أَذْنَابَ الْإِبِلِ، حَتَّى يُرِيَ اللَّهُ خَلِيفَةَ نَبِيِّهِ ﷺ وَالمُهَاجِرِينَ أَمْرًا يَعْذِرُونَكُمْ بِهِ"(٩)، فأجاب خارجة بن حصن الفزاريّ بموافقتهم، فجُرّدوا من الأسلحة والكُراع، حتّى ردّها عليهم الفاروق عمر ﷺ عندما تولّى الخلافة(١٠).

ووقع الأعرابيّ عيينة بن حصن الفزاريّ في الأسر، وسيق إلى المدينة موثقًا، فتلقّاه الغلمان يَنْخُسُونه بالجريد، ويقولون: "أَيْ عَدُوَّ اللَّهِ، أَكَفَرْتَ بَعْدَ إِيمَانِكَ! فَيَقُولُ: وَاللَّهِ مَا

---

(١) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٢٦٢؛ ابن حبيش: الغزوات، ج١، ص٥٣- ٥٥. من رواية ابن إسحاق، ومحمّد بن إبراهيم بن طلحة.

(٢) ابن أبي شيبة: المصنّف في الأحاديث والآثار، ج٧، ص١٥.

(٣) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٢٦٥.

(٤) يشيم السّيف: يغمده. ابن منظور: لسان العرب، ج١٢، ص٣٣٠.

(٥) البلاذري: فتوح البلدان، ص١٢٣.

(٦) الكلاعي: الاكتفاء بما تضمّنه من مغازي رسول الله ﷺ والثّلاثة الخلفاء، ج٢، ص١٠٥.

(٧) الكُراع: اسم يجمع أنواع الخيل. ابن منظور: لسان العرب، ج٨، ص٣٠٧.

(٨) أبو عبيد القاسم بن سلّام: الأموال، ص٢٥٤، ٢٥٥، ح٥١٠؛ ابن أبي شيبة: المصنّف، ج٦، ص٤٣٧، ح٣٢٧٣١؛ أحمد بن حنبل: فضائل الصّحابة، ج٢، ص١١٣٠، ح١٦٩٨. وصحّح وصيّ الله إسناد الأثر في تحقيقه فضائل الصّحابة.

(٩) البخاري: الصّحيح، (كتاب الأحكام، باب الاستخلاف)، ج٦، ص٢٦٣٩، ح٦٧٩٥.

(١٠) الكلاعي: الاكتفاء بما تضمّنه من مغازي رسول الله ﷺ والثّلاثة الخلفاء، ج٢، ص١٠٨، ١٠٩.

كُنْتُ آمَنْتُ بِاللَّهِ قَطُّ"(١)، وجئ به إلى أبي بكر ﷺ، فأعلن توبة نصوحًا، واعتذر عمّا كان منه، فحقن الصّدّيق دمه، وخلّى سبيله(٢).

وقد أسلم طليحة في خلافة الصّدّيق، لكنّه استحيا أن يواجهه مدّة حياته، وأتى الفاروقَ حين استخلف، فذكّره بقتله عكّاشة وثابتًا، وأقسم بالله أنّه لا يحبّه أبدًا، فأجابه بأنّهما رجلان أكرمهما الله بيده، ولم يهنه بأيديهما، فبايعه عمر، ثمّ رجع إلى دار قومه، فأقام بها حتّى خرج إلى العراق، وقد كان إسلامه صحيحًا، ولم يُطعن عليه فيه(٣).

وكان قرّة بن هبيرة القشيريّ يتربّص ببني عامر، فلمّا أوقع المسلمون بطليحة رجعوا إلى الإسلام، ووقع قرّة في الأسر، وسيق إلى أبي بكر ﷺ فعفا عنه لإعلانه بالإسلام، وخروجه في مائة من قومه لحماية عمرو بن العاص ﷺ عند عودته من عُمان(٤).

🕮 ردّة بني تميم وسجاح بنت الحارث:

كان بنو تميم قد دخلوا في الإسلام عام الوفود(٥)، ففرّق النّبيّ ﷺ في عشائرهم أربعة عمّال(٦)، فلمّا بلغتهم وفاة النّبيّ ﷺ اختلفت آراؤهم في دفع الصّدقات، فمنهم من أدّاها، ومنهم من تردّد فيها، وكان مالكُ بن نُوَيْرة اليَرْبُوعِيّ على رأس الممتنعين عن أدائها(٧).

وتشاغل مسلمو تميم بالمرتابين والمرتدّين، حتّى أقبلت عليهم المتنبّئة سجاح بنت الحارث(٨)، من الجزيرة الفراتيّة في أتباعها، وهي عازمة على غزو المدينة النّبويّة، فاستجاب

---

(١) الواقدي: الرّدّة، ص٩٥؛ الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٢٦٣. وابن حبيش: الغزوات، ج١، ص٦٥. من طريق الواقدي.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان، ص١٢١.

(٣) ابن سعد: الطّبقات الكبير، ج٦، ص١٥٦.

(٤) الكلاعي: الاكتفاء بما تضمّنه من مغازي رسول الله ﷺ والثّلاثة الخلفاء، ج٢، ص١٠٥- ١٠٧.

(٥) الواقدي: الرّدّة، ص٤٩.

(٦) ابن حبيش: الغزوات، ج١، ص٣٣؛ الكلاعي: الاكتفاء، ج٢، ص٩٢.

(٧) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٢٦٨.

(٨) سجاح: هي سجاح بنت الحارث بن عقفان، إحدى نساء بني يربوع بن حنظلة التّميميّين، وكانت تسمّى "بنت صادر"، وتكنى بأمّ صادر. البلاذري: أنساب الأشراف، ج١٢، ص١٩٩؛ فتوح البلدان، ص١٢٤؛ الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٢٦٩.

لها مالك بن نويرة وعُطَارد بن حاجب، في جماعة من سادات بني تميم، لكنّهم اختلفوا في العشيرة الّتي يبدأون بها، فقطعت المتنبّئة الخلاف بقولها: "أَعِدُّوا الرِّكَابْ، وَاسْتَعِدُّوا لِلنِّهَابْ، ثُمَّ أَغِيرُوا عَلَى الرِّبَابْ، فَلَيْسَ دُونَهُمْ حِجَابْ"، ولكنّ الرّباب قاومتْ المرتدّين مقاومة شديدة[1]، فاضطرّت سجاح لمصالحتهم بشرط أن يطلقوا لها الأسرى[2].

أدرك رؤساء أهل الجزيرة أنّ التّميميّين لن ينصروهم، وصارحوا نبيّتهم في ذلك، فأشارت عليهم بقصد اليمامة، لأخذها من مسيلمة الكذّاب، ولكنّ الرّؤساء هابوه لاستفحال أمره، فسجعت لهم قائلة: "عَلَيْكُمْ بِالْيَمَامَهْ، وَدُفُّوا دَفِيفَ الْحَمَامَهْ، فَإِنَّهَا غَزْوَةٌ صَرَّامَهْ، لَا يَلْحَقُكُمْ بَعْدَهَا مَلَامَهْ"، فأجابوها، وتوجّهوا لحرب بني حنيفة[3].

وسمع الكذّاب مسيلمة الحنفيّ بمسيرها إليه فخافها على بلاده، وأهدى لها، وبعث إليها يستأمنها ليأتيها، فأذنت له، فركب إليها في أربعين من قومه، واجتمع بها في خيمة، فلمّا خلا بها عرض عليها نصف الأرض الّذي كان لقريش فقبلت ذلك، وتجاريا في الأسجاع فشهدت له بالنّبوّة، ثمّ أغراها بالزّواج منه قائلاً: "هَلْ لَكِ أَنْ أَتَزَوَّجَكِ وَآكُلَ بِقَوْمِي وَقَوْمِكِ الْعَرَبَ"[4]؟ فوافقته، وجعلت دينها ودينه واحدًا[5]، وأقامت عنده ثلاثة أيّام، ولكنّها لم تطلب منه صداقًا، فلمّا رجعت إلى أتباعها قبّحوا لها الزّواج دون صداق، فبعثت إليه تسأله صداقًا، فأجاب طلبها، وأعطاها صداقًا يتناسب مع عقول أتباعها، حيث أمر مؤذّنها أن ينادي في أصحابه: "أَنَّ مُسَيْلِمَةَ رَسُولَ اللَّهِ قَدْ وَضَعَ عَنْكُمْ صَلَاتَيْنِ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ مُحَمَّدٌ: صَلَاةَ الْفَجْرِ وَصَلَاةَ الْعِشَاءِ الْآخِرَةِ"[6].

(١) تنصّ رواية البلاذري بأنّ عشيرة الرّباب هزمت سجاح وجموعها. فتوح البلدان، ص١٢٥. وسجع سجاح في فتوح البلدان: "إنّ ربّ السّحاب يأمركم أن تغزوا الرّباب".

(٢) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٢٦٨، ٢٦٩.

(٣) تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٢٦٨، ٢٦٩.

(٤) تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٢٧٠. وفي الكتاب المنسوب للواقدي أنّ سجاح هي الّتي طلبت الزّواج من مسيلمة. الرّدّة، ص١١١.

(٥) البلاذري: فتوح البلدان، ص١٢٥.

(٦) الواقدي: الرّدّة، ص١١١؛ الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٢٧١.



ويبدو أنّ بعض التّميميّين قد استاءوا من صنيع سجاح، وشعروا بانحطاط سمعتهم بين القبائل، حتّى قال شاعرهم عُطَارِدِ بن حاجب[1]:

أَمْسَــتْ نَبِيَّتُنَــا أُنْــثَى نَطُــوفُ بِهَــا ** وَأَصْـبَحَتْ أَنْبِيَــاءُ النَّــاسِ ذُكْرَانَــا

ولمّا سمعت سجاح بدنوّ خالد ﷺ من اليمامة كرّت راجعة إلى بلاد الجزيرة بعدما قبضت من مسيلمة نصف خراج أرضه، وأقامت في أخوالها بني تَغْلِب إلى زمان معاوية ﷺ فأجلاهم منها عام الجماعة، وأسكنهم الكوفة، فانتقلت معهم، وحسن إسلامها[2].

🕮 القضاء على ردّة بني تميم:

رجع كثيرٌ من مرتدّة تميم إلى الإسلام بعد رحيل سجاح إلى بلادها، وجمعوا زكواتهم فاستقبلوا بها خالد بن الوليد ﷺ ولم يبق إلّا مالك بن نويرة في جمع من أتباعه بمكان يقال له البُطاح، فلمّا وصل إليه خالدٌ ﷺ بثّ السّرايا لدعوة النّاس إلى الإسلام ومعاودة الطّاعة، فاستقبله أمراء بني تميم بالسّمع والطّاعة، وبذلوا الزّكوات، ولم يتخلّف منهم إلّا مالكُ بن نويرة، فوقع أسيرًا مع جماعة من أتباعه، ولكن السّريّة اختلفت في أمرهم، فشهد أبو قتادة الحارث بن ربعيّ الأنصاريّ ﷺ أنّهم أقاموا الصّلاة، وخالفه آخرون فأنكروا أذانهم وصلاتهم، فأمر خالدٌ ﷺ بإنظارهم حتّى يتّضح أمرهم[3].

وتختلف الرّوايات التّاريخيّة في سبب مقتل مالك، فتزعم إحداها أنّ الأسارى حُبسوا في ليلة باردة، فلمّا اشتدّ بردها في عمق اللّيل نادى منادي خالد: "أَدْفِئُوا أَسْرَاكُمْ". وكان كلام خالد ﷺ في لغة القائمين عليهم يعني القتل، فأجهز ضرارُ بن الأَزْوَر الأسديّ ﷺ على مالك بن نويرة، وفرغ أصحابُه من الباقين، وسمع خالدٌ ﷺ الواعية فخرج وقد فرغوا منهم، فقال: "إِذَا أَرَادَ اللَّهُ أَمْرًا أَصَابَهُ"[4].

---

(١) ابن قتيبة: المعارف، تحقيق/ ثروت عكّاشة، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، الطّبعة الثّانية، ١٩٩٢م، ص٤٠٥؛ الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٢٧١؛ ابن حبيش: الغزوات، ج١، ص٩٠.

(٢) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٢٧١. وذكر ابن حبيش رجوع سجاح إلى الإسلام من كتاب الواقديّ عن شيوخه. الغزوات، ج١، ص٨٩.

(٣) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٢٧٢.

(٤) تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٢٧٣.

وجاء في رواية أخرى أنّ خالدًا ﷺ استدعى مالكًا فأنّبه على متابعة سجاح، ومنعِه الزّكاة، فقال مالك: "مَا أَخَالُ صَاحِبَكُمْ إِلّا وَقَدْ كَانَ يَقُولُ كَذَا وَكَذَا"، فقال خالدٌ ﷺ: "أَوَ مَا تَعُدُّهُ لَكَ صَاحِبًا"! ثمّ أمر بقتله[١]؛ "لأنّه رآه مرتدًّا"[٢].

وفي رواية عن أبي قتادة الأنصاريّ ﷺ أنّ خالد بن الوليد ﷺ بعثه في سريّة فلقيهم رجل من بني حنظلة التّميميّين، فسألوه عن الممتنعين عن الصّدقة حتّى وقْتهم ذلك، فأخبرهم بمكانهم، فأتوْهم سراعًا عند مطلع الشّمس، فثاروا إلى السّلاح، وقالوا إنّا مسلمون، فأمروهم بوضع السّلاح والاستسلام، ففعلوا، فقبضوا عليهم، وهم اثنا عشر رجلاً، فيهم مالك بن نويرة، وجاءوا بهم إلى خالد ﷺ، فشهد أبو قتادة ﷺ وبعض الجند أنّهم مسلمون، وحلف آخرون أنّهم ما أسلموا، وأنّ قتلهم وسبيهم حلال، فأخذ خالد برأيهم، وأمر بقتلهم[٣].

وقدم أبو قتادة الأنصاريّ ﷺ على أبي بكر الصّدّيق ﷺ فأخبره بمقتل مالك، فجزع لذلك جزعًا شديدًا[٤]، وغضب الفاروق عمر ﷺ وطالب الصّدّيق بعزله؛ وقال: "إِنَّ فِي سَيْفِهِ رَهَقًا"، ولكنّ الخليفة ﷺ لم يعبأ بإكثار عمر عليه، ولم يتأثّر بمراثي متمّم بن نويرة التّميميّ الّذي قدم المدينة وطفق يشهّر بقتل الأمير خالد ﷺ لأخيه مالك، ثمّ أصدر الخليفةُ الصّدّيقُ ﷺ في ذلك أمرًا واضحًا في الرّدّ على الفاروق عمر ﷺ فقال: "لَمْ أَكُنْ لأُشِيمَ سَيْفًا سَلَّهُ اللَّهُ عَلَى الْكَافِرِينَ"[٥].

وقد اختلفت آراء الأقدمين ومذاهب الحديثين حول مقتل مالك بن نويرة التّميميّ، وهل قتل مسلمًا مظلومًا، أم كافرًا مستحقًّا للقتل؟ وبالنّظر فيما تناقلتْه الرّواة، فإنّ القول بمقتل مالك خطأً على يد جند خالد بن الوليد ﷺ لا يعدو أن يكون إسطارة

(١) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٢٧٣، ٢٧٤. من طريق ابن إسحاق بسند ضعيف.

(٢) ابن تيمية: منهاج السُّنّة، ج٥، ص٥٢٠.

(٣) أورده ابن حبيش من كتاب يعقوب بن محمّد الزّهريّ (المفقود) بسنده إلى ابن شهاب الزّهريّ. الغزوات، ج١، ص٧٤، ٧٥.

(٤) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٠٥.

(٥) ابن سعد: الطّبقات الكبير، ج٦، ص١٦٧، عن الواقدي.



من اختلاق الإخباريّ سيف بن عمر التّميميّ، الّذي عمل على تبرئة خالد ﷺ من القتل العمد، وتبرئة ابن عمّه مالك بن نويرة من الرّدّة والكفر[١].

وقد استدعى الخليفة الصّدّيق ﷺ الأميرَ المجاهد سيف الله خالد بن الوليد وعاتبه في أمر مالك، فشرح له موقفه، وذكر أنّه سمع منه كلامًا استحلّ به قتله[٢]، واعتذر للخليفة الصّدّيق، فعذره وقبل منه، ثمّ أصدر الخليفة حكمه في القضيّة بأنّ خالدًا تأوّل فأخطأ، وأمر بدفع دية مالك بن نويرة[٣].

وكان حكم أبي بكر الصّدّيق ﷺ في تأوّل خالد بن الوليد ﷺ قتل مالكٍ نظير حكم رسول الله ﷺ في خالد عندما تأوّل قتل بني جَذِيمة[٤]، وعندها سكت الفاروق ﷺ عن الكلام[٥]، ولم يختلف الرّواة في هذا الحكم عن الصّدّيق ﷺ، ولا نقلوا تعليقًا للفاروق عمرَ ﷺ ولا لغيره من الصّحابة على الحكم أو اعتراضًا منهم على الإطلاق، لا في حياة الصّدّيق أبي بكر ﷺ ولا بعد مماته.

والنّاظر في أخبار ردّة مالك بن نويرة بموضوعيّة يدرك إلقاءه لنفسه في المهالك؛ لأنّه السّببُ الرّئيسُ في ردّة قومه، حيث كان عاملاً للنّبيّ ﷺ على الصّدقة[٦]، فلمّا توفّي رسول الله ﷺ حبس مالكُ صدقة قومه، وفرّقها فيهم[٧]، وصارحهم بأنّهم أحقّ بأموالهم، وإن

---

(١) محمّد عبد العال محمّد حسن: مختلقات سيف بن عمر التّميميّ في تاريخ قومه، (دراسة في المتـون)، مجلّة كلّيّة اللّغة العربيّة بأسيوط، جامعـة الأزهـر، العـدد الثّـامن والثّلاثـون، ١٤٤٠ه/٢٠١٩م، ج٢، ص١٨٢٥.

(٢) الكلاعي: الاكتفاء، ج٢، ص١١١.

(٣) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٠٥.

(٤) ابن تيمية: منهاج السُّنّة، ج٥، ص٥١٨، ٥١٩. وكان خبر خالد بن الوليد ﷺ مع بني جَذِيمة عقب فتح مكّة. ينظر ابن هشام: السّيرة النّبويّة، ج٢، ص٤٢٨، ٤٢٩؛ ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٢، ص١٤٧، ١٤٨؛ البخاري: الصّحيح، (كتاب المغازي، باب بعث النبي ﷺ خالد بن الوليد إلى بني جذيمة)، ج٤، ص١٥٧٧، ح٤٠٨٤.

(٥) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٢٧٣، ٢٧٤.

(٦) ابن هشام: السّيرة النّبويّة، ج٢، ص٦٠٠.

(٧) الكلاعي: الاكتفاء، ج٢، ص٩٢.

اجتمع النّاس على خليفة فسيرضى منهم بالطّاعة دون الأموال(١)، فلمّا اقترب خالدٌ ﷺ من البُطاح خرج من امتنع بالصّدقة من عمّال بني تميم فاستقبلوا بها خالدًا ﷺ قبل دخوله أرضَهم، ولم يبق إلّا مالكٌ(٢)، فلا هو خرج بالصّدقة، ولا أرسل للأمير يضمن له جمعها وأداءها، وهذا يرجّح رواية اعتراضه على دفع الزّكاة في محاورته لسيف الله خالد ﷺ، ويؤيّد ذلك قول محمّد بن سلّام الجُمحيّ، (ت: ٢٣١هـ/٨٤٦م): "والمجتمعُ عليه أَنّ خالدًا حاوره وراده، وأنّ مالكًا سمح بالصّلاة والتوى بالزّكاة"(٣).

والظّاهر أنّ القول بمقتل أتباع مالك بن نويرة معه من زيادات الرّواة الّذين اخترعوا قصّة قتلهم خطأً؛ لأنّه لم يرد عن الخليفة الصّدّيق ﷺ إلّا دفعه دية مالك فقط، كما ردّ السّبي والمال(٤).

🕮 فتنة مسيلمة الكذّاب وردّة بني حنيفة:

قدم مُسَيْلِمَةُ الكذّاب(٥) في وفد بني حنيفة على رسول الله ﷺ عام الوفود في بشرٍ كثيرٍ، فطفق يقول: "إِنْ جَعَلَ لِي مُحَمَّدٌ الأَمْرَ مِنْ بَعْدِهِ تَبِعْتُهُ"، فأقبل إليه النّبيّ ﷺ ومعه خطيبُه ثابت بنُ قيس بن شَمّاسٍ الأنصاريّ ﷺ، وفي يد النّبيّ ﷺ قطعةُ جريدٍ، فوقف على مسيلمة وهو في أتباعه فقال له: "لَوْ سَأَلْتَنِي هَذِهِ القِطْعَةَ مَا أَعْطَيْتُكَهَا، وَلَنْ تَعْدُوَ أَمْرَ اللَّهِ فِيكَ، وَلَئِنْ أَدْبَرْتَ لَيَعْقِرَنَّكَ اللَّهُ، وَإِنِّي لَأَرَاكَ الّذي أُرِيتُ فِيهِ مَا رَأَيْتُ، وَهَذَا ثَابِتٌ يُجِيبُكَ عَنِّي"، ثمّ انصرف عنه(٦).

---

(١) ابن حبيش: الغزوات، جـ١، ص٧٦.

(٢) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٢، ص٢٧٢.

(٣) طبقات فحول الشّعراء، تحقيق/ محمود محمّد شاكر، دار المدني، جدّة، بدون تاريخ طبع، جـ١، ص٢٠٧.

(٤) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٠٥.

(٥) هو مُسَيْلَمَةُ بن ثُمامَة بن كَبير بن حبيب الحنفيّ الشّهير في التّاريخ الإسلاميّ بالكذّاب. السّهيلي: الرّوض الأُنف، تحقيق/ عمر عبد السّلام السّلامي، دار إحياء التّراث العربي، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، جـ٧، ص٤٦٨؛ المقريزي: إمتاع الأسماع، جـ٢، ص٩٩.

(٦) البخاري: الصّحيح، (كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام)، جـ٣، ص١٣٢٥، ح٣٤٢٤؛ مسلم: الصّحيح، (كتاب الرؤيا، باب رؤيا النّبيّ ﷺ)، جـ٤، ص١٧٨٠، ح٢٢٧٣؛ ابن حبّان: الصّحيح، جـ١٥، ص٣١، ح٦٦٥٤.

وكان رسول الله ﷺ قد حدّث أصحابه فقال: "بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ أُتِيتُ بِخَزَائِنِ الْأَرْضِ، فَوُضِعَ فِي كَفِّي سِوَارَانِ مِنْ ذَهَبٍ، فَكَبُرَا عَلَيَّ، فَأَوْحَى اللَّهُ إِلَيَّ أَنِ انْفُخْهُمَا، فَنَفَخْتُهُمَا فَذَهَبَا، فَأَوَّلْتُهُمَا الكَذَّابَيْنِ اللَّذَيْنِ أَنَا بَيْنَهُمَا، صَاحِبَ صَنْعَاءَ، وَصَاحِبَ اليَمَامَةِ"(١).

ولمّا رجع وفد بني حنيفة إلى اليمامة ادّعى مسيلمة النّبوّة، وطفق يتنبّأ لقومه(٢)، ويسجع لهم، فكان ممّا زعم أنّه وحيٌ يأتيه: "يَا ضِفْدَعُ بَنَتَ الضِّفْدَعِينْ، نُقِّي مَا تَنُقِّينْ، أَعْلَاكِ فِي الْمَاءْ، وَأَسْفَلُكِ فِي الطِّينْ، لَا الشَّارِبَ تَمْنَعِينْ، وَلَا الْمَاءَ تُكَدِّرِينْ"(٣).

---

(١) البخاري: الصّحيح، (كتاب المغازي، باب وفد بني حنيفة وحديث ثُمامة بن أُثال)، ج٤، ص١٥٩١، ح٤١١٦. وقد علّق الحافظ ابن حجر على هذا الحديث بقوله: "وسياق هذه القصّة يخالف ما ذكره ابن إسحاق أنّهُ قدم مع وفد قومه، وأنّهم تركوه في رحالهم يحفظُها لهم، وذكروه لرسول الله ﷺ، وأخذوا منه جائزته، وأنّه قال لهم: "إِنَّهُ لَيْسَ بِشَرِّكُمْ"، وأنّ مسيلمة لمّا ادّعى أنّه أُشرك في النّبوّة مع رسول الله ﷺ احتجّ بهذه المقالة، وهذا مع شذوذه ضعيف السّند لانقطاعه، وأمرُ مسيلمة كان عند قومه أكثر من ذلك، فقد كان يقال له رحمان اليمامة لعظم قدره فيهم، وكيف يلتئم هذا الخبر الضّعيف مع قوله في هذا الحديث الصّحيح: أنّ النّبيّ ﷺ اجتمع به وخاطبه وصرّح له بحضرة قومه أنه لو سأله القطعة الجريدة ما أعطاه، ويحتمل أن يكون مسيلمة قدم مرّتين الأولى كان تابعًا، وكان رئيس بني حنيفة غيرُه، ولهذا أقام في حفظ رحالهم، ومرّةً متبوعًا، وفيها خاطبه النّبيّ ﷺ، أو القصّة واحدةٌ وكانت إقامته في رحالهم باختياره أنفةً منه واستكبارًا أن يحضر مجلس النّبيّ ﷺ، وعامله النّبيّ ﷺ معاملة الكرم على عادته في الاستئلاف، فقال لقومه: "إِنَّهُ لَيْسَ بِشَرِّكُمْ"، أي بمكانٍ، لكونه كان يحفظ رحالهم، وأراد استئلافه بالإحسان بالقول والفعل، فلمّا لم يَفِد في مسيلمة توجّه بنفسه إليهم ليقيم عليهم الحجّة ويُعذِر إليه بالإنذار". فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج٨، ص٨٩، ٩٠.

(٢) ذكر الجاحظ أنّ مسيلمة الكذّاب كان يطوف بأسواق العراق قبل تنبّيه يلتمس تعلّم الحيل واختيارات النّجوم والمتنبّئين، وأنّه أحكم حيل السّدنة والحوّاء وأصحاب الزّجْر والخطّ ومذهبَ الكاهن والعيّاف والسّاحر وصاحب الجنّ الّذي يزعم أنّ معه تابعَه، ثمّ استخدم هذه الأمور في التّلبيس على الأعراب، وذكر الجاحظ أمثلة لحيله الّتي كان يفعلها لقومه فتنطلي عليهم. الحيوان، تحقيق/ محمد عبد السّلام هارون، دار الجيل، بيروت، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، ج٤، ص٣٦٩- ٣٧٤.

(٣) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٢٧٦؛ ابن كثير: البداية والنّهاية، ج٦، ص٣٥٩. ونقله الكلاعي من كتاب وثيمة المعنون بـ"الردة"، وهو مفقود. الاكتفاء بما تضمّنه من مغازي رسول الله ﷺ والثّلاثة الخلفاء، ج٢، ص١٤١.

وبالرّغم من وضوح كذب هذا الهُراء وركاكته الّتي لا تخفى على الجهلاء، فقد "أصفقتْ معه حنيفة على ذلك"[(١)]، وتعصّب له الأعراب، فعندما علم به الأعرابيّ طلحةُ النَّمِريّ جاء إلى اليمامة، فقال: "أَيْنَ مُسيلِمةُ؟ قالوا: مَهْ رسولُ الله، فقال: لَا، حَتَّى أَرَاهُ، فَلَمَّا جَاءَ قَالَ: أَنْتَ مُسَيْلِمَةُ؟ قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: مَنْ يَأْتِيكَ؟ قَالَ: رَحْمَن، قَالَ: أَفِي نُورٍ أَمْ فِي ظُلْمَةٍ؟ قَالَ: فِي ظُلْمَةٍ، فَقَالَ: أَشْهَدُ أَنَّكَ كَذَّابٌ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا صَادِقٌ، وَلَكِنْ كَذَّابُ رَبِيعَةَ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ صَادَقِ مُضَرَ"، واتّبعه هذا الأعرابيُّ الجِلْف حتّى قتل معه يوم عَقْرَبَاءَ[(٢)].

وطلب الأعراب من مسيلمة مجاراة النّبيّ ﷺ في معجزاته، فتمضمض يومًا في بئر فغارت، ومسح على رأس صبيّ فقَرِع، ودعا لآخر فعمي، ودعا لآخر فمات من يومه، ومسح ضرع ناقة لتدرّ فيبست أخلافها وانقطع درّها[(٣)].

وكان الرَّجّال بن عُنْفُوَة الحنفيّ قد وفد على النّبيّ ﷺ مع قومه، فأظهر الإسلام[(٤)]، وجعل في أيّام مقام الوفد بالمدينة يختلف إلى الصّحابيّ المقرئ أبيّ بن كعب ﷺ ليتعلّم منه القرآن وشرائع الإسلام[(٥)]، ولازم قراءة القرآن وفعل الخير والخشوع، حتّى ظنّه الصّحابة أفضل مَنْ وفد عليهم؛ لما رأوا من حرصه على الخير[(٦)].

وبالرّغم من معرفة النّبيّ ﷺ لنفاق الرّجّال فإنّه لم يعيّنه صراحة للصّحابة، ولم يبده لهم، وإنّما أخفاه في نفر آخرين[(٧)].

---

(١) الكلاعي: الاكتفاء بما تضمّنه من مغازي رسول الله ﷺ والثّلاثة الخلفاء، ج٢، ص١١٣.

(٢) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٢٧٧. من رواية سيف.

(٣) ابن قتيبة: المعارف، ص٤٥٤؛ الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٢٧٦، ٢٧٧؛ ابن حبيش: الغزوات، ج١، ص٨٧؛ ابن الجوزي: كشف المشكِل من حديث الصّحيحين، ج٣، ص٣٢٠، ٣٢١.

(٤) ابن أبي حاتم: الجرح والتّعديل، دار إحياء التّراث، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٢٧١هـ/١٩٥٢م، ج٣، ص٥١٩.

(٥) ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج١، ص٣١٦؛ الكلاعي: الاكتفاء، ج٢، ص١١٣.

(٦) ابن حجر: الإصابة في تمييز الصّحابة، ج٢، ص٤٤٦.

(٧) لم يكن رسول الله ﷺ يحبّ الكشف عن أسماء المنافقين، بل كان يسترهم، غير أنّه أطلع حذيفة بن اليمان العبسيّ ﷺ على أسمائهم، واختصّه بذلك دون غيره، فكان صاحب سرّ رسول الله ﷺ في شأنهم. ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصّحابة، تحقيق/ علي محمّد معوّض، وعادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلميّة، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م، ج١، ص٧٠٦.



ويرفع الرّواةُ في شأن الرّجّال بن عنفوة الحنفيّ حديثًا إلى رسول الله ﷺ يلمّح فيه بسوء منقلب الرَّجّال، فيروون عن أبي هريرة ﷺ أنّه قال: جلست مع النّبيّ ﷺ في رهط معنا الرّجّال بن عنُفُوة، فقال: "إِنَّ فِيكُمْ لَرَجُلاً ضَرْسُهُ فِي النَّارِ أَعْظَمُ مِنْ أُحُدٍ"(١)، "وَإِنَّ مَعَهُ لَقَفَا غَادِرٍ"(٢)، ويحدّث أبو هريرة ﷺ بأنّ الرّهط الّذين أشار إليهم رسول الله ﷺ قد ماتوا على هدىً، وبقي هو والرّجّال، فلم يزل متخوّفًا من قول رسول الله ﷺ حتّى خرج الرّجّال مع مسيلِمة، فشهد له بالنّبوّة، فكانت فتنة الرّجّال أعظم من فتنة مسيلمة الكذّاب(٣)، ولمّا بلغ أبا هريرة ﷺ مقتل الرّجال مع مسيلمة خرّ ساجدًا(٤).

وأرى أنّ الرّجال لم يعتنق الإسلام أصلاً؛ وإنّما تظاهر به بالاتّفاق مع مسيلمة الحنفيّ الكذّاب، خاصّة وأنّ كثيرًا من بني حنيفة كانوا يؤمنون بمسيلمة نبيًّا في الجاهليّة، ويطلقون عليه "رحمان اليمامة"(٥)، وقد تعلّم الرّجال سورًا من القرآن على يد أبيّ بن كعب، وأظهر صلاحًا لينطلي كذبه وخداعه على النّاس، كما بالغ في إظهاره للصّلاح زيادة في النّفاق، وحتّى تحين الفرصة للدّور الّذي سيقوم به في تأييد دعوى مسيلمة(٦).

(١) رواه الحميدي بسند ضعيف، فالراوي عن أبي هريرة ﷺ رجلٌ من بني حنيفة مجهول. مسند الحميدي، تحقيق/ حسين سليم أسد، دار السّقّا، دمشق، الطّبعة الأولى، ١٩٩٦م، ج٢، ص٢٩٧، ح١٢١١. وقد أورده البوصيري من طريق الحميدي وقال: "هذا إسناد ضعيف". إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة، دار الوطن، الرّياض، الطّبعة الأولى، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ج٤، ص٢٣٣.

(٢) رواه سيف بن عمر التّميميّ في الفتوح. ابن عبد البرّ: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ج١، ص٣٨٩. وعند الطّبرانيّ أنّ النّبيّ ﷺ تحدّث عن نفر فيهم الرّجّال، وهم: أبو هريرة الدّوسيّ، وأبو أروى الدّوسيّ، والطّفيل بن عمرو الدّوسيّ، ورجّال بن عنفوة، فقال: "أحد هؤلاء النّفر في النّار". المعجم الكبير، ج٤، ص٢٨٣، ح٤٤٣٤. وقد ضعّفه الهيثميّ؛ لأنّه من طريق الواقديّ. مجمع الزّوائد، ج٨، ص٢٩٠، ح١٤٠٧٥.

(٣) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٢٧٨؛ ابن كثير: البداية والنّهاية، ج٦، ص٣٥٦.

(٤) ابن حجر: الإصابة في تمييز الصّحابة، ج٢، ص٥٣٩.

(٥) الجاحظ: كتاب الحيوان، ج٤، ص٣٧١؛ جواد علي: المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، دار السّاقي، الطّبعة الرّابعة، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، ج١١، ص٨٥.

(٦) محمّد عبد العال محمّد حسن: الرّدّة في العهد النّبويّ، بحث منشور في مجلّة كلّيّة اللّغة العربيّة بأسيوط، جامعة الأزهر، العدد ٣٥، ١٤٣٧هـ/٢٠١٦م، ص٢١٨٩.

وتجرّأ مسيلمة الحنفيّ الكذّاب في آخر السّنة العاشرة من الهجرة، فزعم أنّه أُشرك مع رسول الله ﷺ في النّبوّة، وكتب إليه يفتري قائلاً: "مِنْ مُسَيْلِمَةَ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ، أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي قَدْ أُشْرِكْتُ مَعَكَ فِي الْأَمْرِ، وَإِنَّ لَنَا نِصْفَ الْأَرْضِ، وَلِقُرَيْشٍ نِصْفَهَا، وَلَكِنَّ قُرَيْشًا قَوْمٌ يَعْتَدُونَ"(١).

وقد ردّ عليه رسولُ الله ﷺ برسالة قال فيها: "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى مُسَيْلِمَةَ الْكَذَّابِ، أَمَّا بَعْدُ، فَالسَّلامُ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى، فَإِنَّ الأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ، وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ"(٢).

وكان مسيلمة الكذّاب قد بعث برسالته إلى الرّسول ﷺ مع رجلين من أتباعه، فلمّا اطّلع عليها رسول الله ﷺ سأل المبعوثَين عن عقيدتهما في مسيلمة وقولهما في كتابه؟ فقالا: "نَشْهَدُ أَنَّ مُسَيْلِمَةَ رَسُولُ اللَّهِ"، فقال رسول الله ﷺ: "آمَنْتُ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ، وَلَوْ كُنْتُ قَاتِلاً رَسُولاً لَقَتَلْتُكُمَا"(٣). وعلّق عبدُ الله بنُ مسعودٍ ﷺ - راوي الحديث - فقال: "فَمَضَتِ السُّنَّةُ بِأَنَّ الرُّسُلَ لَا تُقْتَلُ"(٤).

وأمّا رسالة رسول الله ﷺ فقد حملها الصّحابيّ حبيب بن زيد الأنصاريّ ﷺ(٥) إلى مسيلمة، فلمّا سلّمه الرّسالة جعل الكذّاب يقول له: "أتشهد أنّ محمّدًا رسول الله؟ فيقول:

(١) ابن هشام: السّيرة النّبويّة، ج٢، ص٦٠٠؛ الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٢٠٣. والأثر صحيح، لكنّه مرسل عن عروة بن الزّبير، وله شواهد بأسانيد يقوّي بعضها بعضًا. ينظر ابن حجر: المطالب العالية بزوائد المسانيد الثّمانية، ج٩، ص٥٩٧، ٥٩٨.

(٢) ابن هشام: السّيرة النّبويّة، ج٢، ص٦٠٠، ٦٠١. وقال الهيثميّ: "رواه الطّبرانيّ من طريق ابن إسحاق عن شيخ من أشجع، ولم يسمّه"، وصرّح به في رواية أبي داود. مجمع الزّوائد، ج٥، ص٣١٥. ولذا فهو صحيح بطرقه وشاهده، كما خرّجه محقّقو مسند الإمام أحمد. ج٢٥، ص٣٦٦، ٣٦٧.

(٣) أحمد بن حنبل: المسند، ج٦، ص٣٠٦، ح٣٧٦١. وصحّح محقّقو المسند هذا الحديث بطرقه. وفي رواية نعيم بن مسعود الأشجعيّ: "أَمَا وَاللَّهِ لَوْلَا أَنَّ الرُّسُلَ لَا تُقْتَلُ لَضَرَبْتُ أَعْنَاقَكُمَا". ابن هشام: السّيرة النّبويّة، ج٢، ص٦٠٠؛ أحمد بن حنبل: المسند، ج٢٥، ص٣٦٦، ح١٥٩٨٩. والحديث صحيح بطرقه وشاهده كما قرّر محقّقو المسند.

(٤) أحمد بن حنبل: المسند، ج٦، ص٣٠٦، ح٣٧٦١. والحديث صحيح بطرقه.

(٥) أمّه نُسَيبة بنت كعب المازنيّة المعروفة بأمّ عُمارة. ابن الأثير: أسد الغابة، ج١، ص٦٧٥.

نعم، فيقول له: أو تشهد أنّي رسول الله؟ فيقول: أنا أصمّ لا أسمع، فعل ذلك مرارًا، وكان في كلّ مرّة لا يجيبه فيها إلى طلبه يقتطع من جسمه عضوًا، ويبقى حبيبٌ صابرًا محتسبًا إلى أن قطّعه إرباً إربًا، فاستشهد حبيبٌ ﷺ بين يدي الكذّاب(١).

وتطبق غالبيّة المصادر على بعث النّبيّ ﷺ نهارَ بن عُنْفُوَةَ الملقب بالرَّجّال إلى مسيلمة الكذّاب ليخذّل عنه النّاس، ويُظهر لهم كذبه، فلمّا أتى اليمامة انقلب على وجهه، وأخذ يشهد لمسيلمة أمام النّاس أنّ رسول الله ﷺ أشركه معه في النّبوّة، فكان هذا الشّقيّ أشدّ فتنة على النّاس من مسيلمة(٢).

ويبعد أن يرسل النّبيّ ﷺ الرّجّال بن عنفوة لهذه المهمّة الدّعويّة وهو يعلم نفاقه، ولهذا فإنّ الرّواية الّتي تنصّ على إرسال الخليفة الصّدّيق ﷺ للرّجّال إلى أهل اليمامة(٣) هي الأولى بالقبول(٤)، بل إنّ المقريزيّ (ت٨٤٥هـ/١٤٤١م) يصرّح بأنّ الرّجّال أتى الصّدّيق ﷺ فأرسله إلى أهل اليمامة يدعوهم إلى الله ويثبّتهم على الإسلام(٥)، وذكرت بعض المصادر أنّه رجع إلى اليمامة مرتدًّا، ولم تقل أرسله رسول الله ﷺ ولا الصّدّيق(٦).

🕮 القضاء على فتنة مسيلمة وردّة بني حنيفة:

لم تكن حنيفة كلّها متابعة لمسيلمة، وإنّما ثبت فيها عدد من ذوي العقول على الإسلام بزعامة ثُمَامَةَ بن أُثالٍ الّذي تمكّن من الصّمود في وجه المرتدّين بمساعدة أمداد

---

(١) البلاذري: فتوح البلدان، ص١١٨؛ ابن عبد البرّ: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ج١، ص٣٢٠.

(٢) ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج١، ص٣١٦، ٣١٧؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص١١٣؛ الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٢٧٦؛ ابن حبّان: الثّقات، ج٢، ص١٧٢؛ ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر في أحوال العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السّلطان الأكبر، ج٢، ص٥٠١.

(٣) يرويها ابن جرير الطّبريّ بإسناده إلى أبي هريرة ﷺ من طريق سيف بن عمر التّميميّ. تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٢٧٨.

(٤) محمّد عبد العال محمّد حسن: الرّدّة في العهد النّبويّ، ص٢١٩.

(٥) إمتاع الأسماع بما للنّبيّ ﷺ من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع، ج٢، ص٢٧٨.

(٦) ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصّحابة، ج٢، ص٣٥٦؛ الصّفدي: الوافي بالوفيات، تحقيق/ أحمد الأرناؤوط، وتركي مصطفى، دار إحياء التّراث العربي، بيروت، ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م، ج١٤، ص٧٤.

بني تميم قبل أن تستغويهم سجاح بنت الحارث التّميميّة وتضعف مقاومته، فعندئذٍ أقام ينتظر جيوش الخلافة(١).

وصدرت أوامر الخليفة الصّدّيق ﷺ لسيف الله المسلول خالد بن الوليد ﷺ بالتّوجّه إلى اليمامة والصّمود لمسيلمة الكذّاب(٢)، فلمّا علمت بنو حنيفة بقرب خالد خافت جماعة منهم لقاءه، ولجئوا إلى ثمامة بن أُثال الحنفيّ ﷺ، فخرج بهم في جوف اللّيل، ولحقوا بخالد بن الوليد ﷺ فأمّنهم(٣).

ولمّا شارف خالد بن الوليد ﷺ اليمامة أسر مُجّاعَة بن مُرَارة الحنفيّ في نحو عشرين رجلاً من قومه، فلمّا أصرّوا على القول بنبوّة مسيلمة الكذّاب أمر خالدٌ ﷺ بضرب أعناقهم إلّا مُجّاعة، فإنّه استبقاه واستوثق منه بالحديد(٤)، وكان مُجّاعَة بن مرارة سيّدًا في بني حنيفة، شريفًا مطاعًا، فكان خالد بن الوليد ﷺ كلّما نزل منزلاً واستقرّ به، دعا مُجّاعة بن مرارة فأكل معه وحدّثه(٥).

ولمّا سمع مسيلمة الكذّاب بقدوم سيف الله خالد بن الوليد ﷺ عبّأ جيشه، فجعل المُحَكِّمَ بنَ الطّفيل على ميمنته، والرّجّال بن عُنفوة المنافق على ميسرته، وعسكر بحشوده في مكان يقال له "عَقْرَبَاءُ" في طرف اليمامة(٦)، في مثل عدد المسلمين(٧)، أكثر من عشرة آلاف(٨).

---

(١) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٢٦٨. من طريق سيف.

(٢) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٠٧. ورواه المقدسي بإسناد صحيح. الأحاديث المختارة، ج١، ص١٣٢.

(٣) الواقدي: الرّدّة، ص١١٦، ١١٧.

(٤) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٠٧؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص١١٣؛ الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٢٧٨.

(٥) الكلاعي: الاكتفاء، ج٢، ص١١٩.

(٦) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٢٧٨.

(٧) الكلاعي: الاكتفاء، ج٢، ص١٢٨.

(٨) ابن حبيش: الغزوات، ج١، ص١٠٠. من كتاب يعقوب بن محمّد الزّهريّ.



ولمّا اصطدم الفريقان انهزم المسلمون مرّتين[1]؛ لحشو صفوفهم بالأعراب[2]، ثمّ اقتتلوا قتالاً شديدًا فانكشف المسلمون[3]، مرّة ثالثة[4]، حتّى بلغوا الرِّحال[5]، ودخلت بنو حنيفة خيمة خالد بن الوليد ﷺ، وهمّوا بقتل زوجته "أمّ تميم"[6]، فأجارها مُجّاعة الحنفيّ الّذي كان محبوسًا في خيمة خالد[7].

وعمل خالد بن الوليد ﷺ عندئذ على إحماء النّاس للقتال، فميّز المهاجرين من الأنصار من الأعراب، وجعل كلّ بني أبٍ على رايتهم، يقاتلون تحتها، حتّى يعرف النّاس من أين يُؤْتَون[8].

وقد أثمرت هذه الخطّة الّتي وضعها القائد العبقريّ، فتلاوم المهاجرون والأنصار، وكانوا قريبًا من ألفين وخمسمائة، فأقبلوا على الكافرين مستقتلين وتنادوا: "يَا أَصْحَابَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ"[9]، وحرّض زيد بن الخطّاب العدويّ ﷺ المسلمين على القتال، ثمّ أقسم بالله "لَا

(١) ابن أبي شيبة: المصنّف في الأحاديث والآثار، ج٦، ص٥٤٦، ح٣٣٧٢١. بإسناد صحيح. وروى المقدسيّ عن وحشي الحبشيّ بإسناد صحيح أيضًا أنّ جيش المسلمين انهزم أمام حنيفة ثلاث مرار. الأحاديث المختارة، ج١، ص١٣٢.

(٢) الكلاعي: الاكتفاء، ج٢، ص١٢٥.

(٣) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٠٧. وثبت عند البخاري أنّ المسلمين انكشفوا يوم اليمامة. صحيح البخاري، (كتاب الجهاد والسّير، باب التّحنّط عند القتال)، ج٣، ص١٠٤٦، ح٢٦٩٠.

(٤) المقدسي: الأحاديث المختارة، ج١، ص١٣٢، ح٤٥. عن وحشيّ الحبشيّ بإسناد صحيح.

(٥) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٠٨.

(٦) أم تميم: هي أرملة مالك بن نويرة التّميميّ، وقد تزوّجها خالد بن الوليد بعد مقتل مالك. الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٢٧٣؛ ابن حبّان: الثّقات، ج٢، ص١٦٩.

(٧) ابن حبيش: الغزوات، ج١، ص١١٠؛ الكلاعي: الاكتفاء، ج٢، ص١٢٢. كلاهما من الرّدّة للواقديّ.

(٨) الكلاعي: الاكتفاء، ج٢، ص١٢٥؛ ابن كثير: البداية والنّهاية، ج٦، ص٣٥٧.

(٩) ثبت هذا الشّعار عن أمّ المؤمنين عائشة بإسناد حسن. أبو داود: مسند عائشة، تحقيق/ عبد الغفور عبد الحقّ حسين، مكتبة الأقصى، الكويت، الطّبعة الأولى، ١٤٠٥هـ، ص٨٥، ح٧٩. ورواه ابن أبي شيبة عن التّابعيّ عروة بن الزبير مرسلاً بإسناد صحيح. المصنّف، ج٦، ص٥٤٧، ح٣٣٧٢٤. وزعم سيف التّميميّ أنّ شعار المسلمين يوم اليمامة كان "يا محمداه". وإسناده ضعيف جدًّا، ففيه رجل مجهول إضافة لسيف. الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٢٨١.

أتكلَّم حَتَّى يَهْزِمَهُمُ اللَّهُ، أَوْ أَلْقَى اللَّهَ فأكلِّمه بحجَّتي"(١)، وغضب ثابت بن قيس بن شمّاس - حامل لواء الأنصار - وسالم مولى أبي حذيفة(٢) - حامل لواء المهاجرين - من انكشاف المسلمين، وحفر كلٌّ واحد منهما لنفسه حفرة في الأرض، وتبرّأ ثابتٌ ﷺ إلى الله ممّا جاء به المشركون، واعتذر من صنيع المسلمين، وطفق يلوم المسلمين بعدما انهزموا أمام بني حنيفة للمرّة الثّالثة(٣)، ويقول: "بِئْسَ مَا عَوَّدْتُمْ أَقْرَانَكُمْ"، ثمّ تحنّط(٤)، ولبس أكفانه، وثبت يقاتل المشركين حتّى قتل(٥).

ونادى أبو حذيفةَ بنُ عتبةَ بنِ ربيعةَ ﷺ: "يَا أَهْلَ الْقُرْآنِ زيِّنوا الْقُرْآنَ بِالْفِعَالِ"(٦)، فالتفّ المهاجرون حول سالم مولى أبي حذيفة ﷺ، وصارحوه بخوفهم على لوائهم(٧): فقال لهم: "بِئْسَ حَامِلُ الْقُرْآنِ أَنَا إِذًا"، وثبت يومئذ ثباتًا عظيمًا، فقاتل حتّى قطعت يمينُه، فأخذ

---

(١) ابن كثير: البداية والنّهاية، ج٦، ص٣٥٧.

(٢) أخذ سالم مولى أبي حذيفة راية المهاجرين عقب مقتل عبد الله بن حفص بن غانم القرشي. الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٢٨٠؛ ابن حجر: الإصابة في تمييز الصّحابة، ج٤، ص٥٤.

(٣) الطّبراني: المعجم الكبير، ج٢، ص٧٠، ح١٣١٩. من حديث يرتقي إلى درجة الصّحيح لغيره، كما في تخريج المطالب العالية لابن حجر. ج١٦، ص٥٠٩.

(٤) البخاري: الصّحيح، (كتاب الجهاد والسّير، باب التّحنّط عند القتال)، ج٣، ص١٠٤٦، ح٢٦٩٠.

(٥) الطّبراني: المعجم الكبير، ج٢، ص٦٥، ح١٣٠٧. وقال الهيثميّ: "رجاله رجال الصّحيح". مجمع الزّوائد، ج٩، ص٣٢٣، ح١٥٧٨٥. ولمّا استشهد ثابت بن قيس سرقَ رجلٌ درعه، وأكبّ عليها بُرمة، وجعل على البُرمة رحْلاً، فرأى رجلٌ من المسلمين ثابتًا في منامه، فأخبره بأمر الدّرع ومكانها، وأوصاه إذا رجع إلى المدينة أن يخبر الخليفة الصّدّيق بدينْه، وأن يُعتق غلامًا له سمّاه، فوجدوا الدّرع كما قال ثابت، وأنفذ أبو بكر ﷺ وصيّته، ولا يعلم ذلك عن غيره. الحاكم: المستدرك على الصّحيحين، ج٣، ص٢٦٠، ٢٦١، ح٥٠٣٥، ٥٠٣٦. وقد صحّح الحاكم خبر الدّرع والوصيّة من حديث أنس بن مالك ﷺ على شرط مسلم، وأقرّه الذّهبيّ. والأثر يرتقي إلى درجة الصّحيح لغيره كما قال محقّق المطالب العالية بزوائد المسانيد الثّمانية لابن حجر، ج١٦، ص٥٠٩.

(٦) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٢٨٠. من طريق سيف التّميميّ.

(٧) اللّواء: يطلق اللّواء على الرّاية، وهي علم الجيش، وهما مترادفان عند أهل اللّغة، لكن اللّواء الأعظم أو الرّاية العظمى عند المؤرّخين تكون مع الأمير أو بين يدي الأمير، بخلاف غيرها، فتكون لكلّ قبيلة أو فرقة راية خاصّة.

اللّواء بيساره، فقطعت يسارُه، فاعتنق اللّواء بعضديه وهو يحرّض المسلمين على القتال، فلمّا صُرع أوصى أصحابه أن يضجعوه بجانب مولاه أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة الّذي سبقه إلى الشّهادة[1].

وخرج وحشيّ بن حرب الحبشيّ ﷺ مع المسلمين لقتال مسيلمة فضارب بسيفه في بني حنيفة حتّى غري قائم سيفه من دمائهم[2].

وكان تراجع المسلمين قد اشتدّ على سيف الله المسلول خالد بن الوليد ﷺ، فنظر إلى السّماء، ثمّ إلى الأرض - وكان إذا حزبه أمرٌ نظر إلى الأرض ساعةً، ثمّ نظر إلى السّماء ساعةً، ثمّ يفْرُقُ له رأيُه - ثمّ رفع رأسه، وأمر البراء بن مالك - أخو أنس - أن يحمل على المرتدّين، فركب البراء ﷺ فرسًا له، وحضّ المسلمين على القتال، ثمّ هجم على المشركين، وتبعه النّاس[3]، ووقف مُحَكِّم اليمامة للمبارزة فأسرع إليه البراءُ فصرعَه، وأخذ سيفه فضربه به حتّى انقطع، فرمى به، وعاد إلى سيفه[4].

وحمل سيف الله خالد بن الوليد ﷺ على مرتدّة بني حنيفة حتّى جاوزهم، وهو يرجو أن يصل إلى مسيلمة الكذّاب[5]، وقاتل يومئذ أشدّ القتال، وكان المشركون يتّقون مكانه[6]،

---

(١) ابن المبارك: الجهاد، تحقيق/ نزيه حمّاد، الدار التّونسيّة، تونس، ١٩٧٢م، ص٩٨، ح١١٨؛ البغوي: معجم الصّحابة، جـ٣، ص١٤٤، ح١٠٥٣. والأثر مرسل؛ لأنّ راويه حنظلة بن أبي سفيان لم يـدرك الحادثـة. البخاري: التّاريخ الكبير، دائرة المعارف العثمانيّة، حيدر آباد، الهند، بدون تاريخ طبع، جـ١، ص٢٨٣؛ ابن حبّان: الثّقات، جـ٦، ص٢٢٦.

(٢) رواه المقدسي عن وحشيّ بن حرب الحبشيّ. الأحاديث المختارة، جـ١، ص١٣٣، ح٤٦. وصحّح الدّكتور عبد الملك دهيش إسناده.

(٣) ابن المبارك: الجهاد، ص١٣٤، ح١٦٢؛ ابن أبي شـيبة: المصـنّف في الأحاديـث والآثـار، جـ٦، ص٥٤٧، ح٣٣٧٢٦. والأثر إسناده صحيح.

(٤) ابن أبي شيبة: المصنّف، جـ٦، ص٥٤٦، ح٣٣٧٢١؛ خليفة بن خياط: تـاريخ خليفـة، ص١٠٨. والأثـر بإسناد صحيح

(٥) ابن كثير: البداية والنّهاية، جـ٦، ص٣٥٧.

(٦) ابن حبيش: الغزوات، جـ١، ص٥٣. من كتاب االرّدّة للواقديّ.

ثمّ رجع فوقف بين الصّفين[1]، كما بارز عبد الله بن عمر بن الخطّاب رضي الله عنهما رجلاً فقتله، وأخذ سلبه[2].

وصبر المهاجرون والأنصار يومئذٍ صبرًا عظيمًا، وما زالوا يتقدّمون إلى نحور عدوّهم حتّى تلاحق بهم النّاس، فدفعوا بني حنيفة دفعة واحدة، حتّى أقحموهم في الحديقة[3]، فتحصّنوا بها وفيهم مسيلمة، وأحاط بهم الصّحابة رضي الله عنهم، وكان الكفّار قد أرادوا هزيمة الأعراب كما بدؤوا بهم في المرّات السّابقة فثبتوا لهم[4].

وبرز البراءُ بنُ مالكٍ رضي الله عنه فطلب من الجند أن يلقوه على المحصورين في الحديقة، فاحتملوه فوق الحَجَف[5]، ورفعوها بالرّماح حتّى ألقَوْه عليهم من فوق سورها، فلم يزل يقاتلُهُم حتّى فتح الباب[6]، ودخل المسلمون الحديقة من حيطانها وأبوابها يقتلون من فيها من مرتدّة اليمامة، حتّى خلصُوا إلى مسيلمة، وإذا هو واقفٌ في ثُلْمة جدار كأنّه جمل أورق، وهو لا يعقل من الغيظ، فتقدّم إليه وحشيُّ بن حرب الحبشيّ - قاتل حمزة - فرماهُ بحربته فأصابه، وخرجت من الجانب الآخر، وسارع إليه أبو دُجانة سماك بن خرشة الأنصاريّ رضي الله عنه

---

(١) ابن كثير: البداية والنّهاية، ج٦، ص٣٥٧.

(٢) سعيد بن منصور: السنن، تحقيق/ حبيب الرّحمن الأعظميّ، الدّار السّلفيّة، الهند، الطّبعة الأولى، ١٤٠٣هـ/١٩٨٢م، ج٢، ص٣٠١؛ ابن المنذر: الأوسط من السّنن والإجماع والاختلاف، دار الفلاح، الطّبعة الأولى، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م، ج٦، ص١٢٣. والأثر من طريق حجّاج بن أرطأة، وهو صدوق كثير الخطأ والتّدليس، وقد عنعنه. ينظر ابن حجر: تقريب التّهذيب، المكتبة التّوفيقيّة، القاهرة، ٢٠٠٣م، ج١، ص١٣٥.

(٣) الكلاعي: الاكتفاء بما تضمّنه من مغازي رسول الله ﷺ والثّلاثة الخلفاء، ج٢، ص١٢٦. وقد عرفت الحديقة بعد هذا اليوم بحديقة الموت. ابن سعد: الطّبقات الكبير، ج٦، ص١٤٧؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص٩٤.

(٤) الكلاعي: الاكتفاء بما تضمّنه من مغازي رسول الله ﷺ والثّلاثة الخلفاء، ج٢، ص١٢٩.

(٥) الحَجَفُ: جمع حَجَفة، وهي ترسٌ من الجلود مقوّرة. ابن منظور: لسان العرب، ج٩، ص٣٩.

(٦) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٠٩. وذكر ابن حجر أنّ بقيّ بن مخلد رواه في مسنده. الإصابة في تمييز الصّحابة، ج١، ص٤١٣.



فضربه بالسّيف فسقط[1]، وكان أبو دجانة ﷺ قد رمى بنفسه في الحديقة فانكسرت رجلُه، فلم يزل يقاتل عليها حتّى استشهد يومئذ[2].

وكان لعبّاد بن بشر الأنصاريّ ﷺ دورٌ كبير في رفع معنويّات قومه بعد انكشافهم، وقد تقدّمهم مع البراء وأبي دجانة رضي الله عنهما وهم يدفعون الكفّار في حديقة الموت، ولم يزل يجالدهم بسيفه بداخلها حتّى لقي الشّهادة[3]، وبلغ عدد شهداء المسلمين ألفًا ومائتي رجل[4]، فيهم جماعة من حملة القرآن[5].

ورأى مُجّاعة بن مرارة الحنفيّ ما أصاب المسلمين فخدعهم، وادّعى أنّ أكثر أهل اليمامة لم يخرجوا للقتال، فصالحه خالدٌ ﷺ على نصف الصّفراء والبيضاء والحلْقة والكُراع وربع السّبي - يريد الخدم - فلمّا فرغ من الصّلح فتحت الحصون، وليس فيها إلّا النّساء والصّبيان[6]، وطلب خالدٌ من مُجّاعة - بعدما تمّ الصّلح - أن يزوّجه ابنته، فزوّجه منها[7]، وأرسل الخليفة الصّدّيق ﷺ إلى خالد بن الوليد إن أظفره الله أن يقتل جميع البالغين من بني

---

(١) ابن كثير: البداية والنّهاية، جـ٦، ص٣٥٧. وثبت في صحيح البخاريّ أنّ وحشيّ بن حرب قذف حربته نحو مسيلمة، ووثب إليه رجل من الأنصار فضربه بالسّيف على هامته، وسمع عبد الله بن عمر بن الخطّاب رضي الله عنهما جارية من فوق بيت تقول: قتله العبد الأسود. البخاري: (كتاب المغازي، باب قتل حمزة بن عبد المطّلب)، جـ٤، ص١٤٩٤، ح٣٨٤٤. وتختلف الرّوايات كثيرًا في تعيين قاتل مسيلمة. البلاذري: فتوح البلدان، ص١١٤؛ ابن حجر: فتح الباري، جـ٧، ص٣٧٠.

(٢) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١١١.

(٣) ابن حبيش: الغزوات، جـ١، ص١١٢، ١١٣، ١١٦؛ الكلاعي: الاكتفاء، جـ٢، ص١٢٦، ١٢٧.

(٤) ورد هذا العدد في كتاب أبي بكر لخالد بعد الوقعة. الكلاعي: الاكتفاء، جـ٢، ص١٤٢.

(٥) ذكر الواقديّ أنّه استشهد من حملة القرآن سبعمائة رجل. الرّدّة، ص١٤٦؛ الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٢، ص٢٨٤. وروى خليفة بن خياط عن سعيد بن المسّيب أنّهم كانوا خمسين رجلاً أو ثلاثين. تاريخ خليفة، ص١١١.

(٦) القاسم بن سلّام: الأموال، ص٢٥٦؛ خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١١٠؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص١١٥، ١١٦.

(٧) الكلاعي: الاكتفاء، جـ٢، ص١٣٧.

حنيفة، فأتاه رسوله بعدما صالحهم[١]، وأتمّ خالدٌ ﷺ عقده معهم، ووفّى لهم، وأسلم أهل اليمامة فأخذت منهم الصّدقة[٢].

ولمّا علم الخليفة الصّدّيق ﷺ بما حدث كتب يلوم خالدًا ﷺ ويقرّعه بسبب مصالحته لمُجّاعة وزواجه بابنته، فبعث خالدٌ إليه كتابًا مع أبي بَرْزة الأسلميّ ﷺ يدافع فيه عن موقفه بالحجّة الواضحة والمنطق القويّ، فلمّا قرأه الصّدّيق ﷺ رقّ له، وقام أبو برزة فعذر خالدًا عنده فقبل منه[٣].

وكان البراء بن مالك الأنصاريّ ﷺ قد أصيب في مقاتلته بني حنيفة على باب الحديقة ببضع وثمانين جراحةً من بين رمية بسهمٍ وضربة بسيف، فحمل إلى رحله يُداوى، فأقام عليه خالدٌ شهرًا[٤].

🕮 ردّة البحرين:

كانت قبائل عبد القيس، وبكر بن وائل، وتميم تقيم ببادية البحرين الّتي يحكمها المنذر بن ساوَى[٥] من قبل الفرس[٦]، فأرسل النّبيّ ﷺ العلاء بن الحضرميّ ﷺ[٧] إلى المنذر بن ساوَى قبل فتح مكة، فأسلم[٨]، وتبعته القبائل العربيّة، وبعض العجم[٩]، وأقام

---

(١) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١١٠.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان، ص١١٦.

(٣) الكلاعي: الاكتفاء بما تضمّنه من مغازي رسول الله ﷺ والثّلاثة الخلفاء، ج٢، ص١٣٧، ١٣٨.

(٤) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٠٩.

(٥) ساوَى: بالسّين االمهملة وفتح الواو الممالة. ابن حجر: فتح الباري، ج١، ص١٥٥. ويختلف النسّابة في القبيلة الّتي ينتسب إليها المنذر بن ساوى بين عبد القيس وتميم، ويرجّح ابن حجر كونه تميميّا، ويخطّئ القول بغير ذلك. الإصابة في تمييز الصّحابة، ج٦، ص١٩٦.

(٦) كان المنذر تابعًا للفرس قبل إسلامه. البلاذري: فتوح البلدان، ص١٠٤.

(٧) يرجع أصل العلاء إلى حضرموت اليمنيّة، إلّا أنّ أباه عبد الله بن ضمار كان قد سكن مكّة، وحالف حرب بن أميّة. ابن حجر: الإصابة في تمييز الصّحابة، ج٤، ص٥٤١.

(٨) ابن هشام: السّيرة النّبويّة، ج٢، ص٥٧٦؛ ابن كثير: البداية والنّهاية، ج٥، ص٥٨.

(٩) البلاذري: فتوح البلدان ص١٠٤.

المنذر الإسلام والعدل في قومه، ولكنّه تُوفّي بعد رسول الله ﷺ بمدّة قصيرة، فارتدّ غالبيّة أهل البحرين(١).

وكان الجارودُ بنُ المُعَلَّى العبديّ قد قدم على رسول الله ﷺ وتفقّه في الدّين، ثمّ ردّهُ النّبيّ ﷺ إلى قومه عبد القيس، فأقام بينهم، فلمّا مات النّبيّ ﷺ قام فيهم حتّى ثبّتهم على الإسلام(٢)، وكانت حجّتهم: "لَوْ كَانَ مُحَمَّدٌ نَبِيًّا لَمْ يَمُتْ"، فجمعهم الجارود ﷺ، وسألهم عن مصير الأنبياء السّابقين، فأخبروه بموتهم، فقال: "إِنَّ مُحَمَّدًا ﷺ قَدْ مَاتَ كَمَا مَاتُوا، وَأَنَا أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ"، فرجعوا إلى الإسلام(٣).

وهذا موقفٌ يُذكر للجارود ﷺ، فقد ثبّت الله به قومه على إسلامهم، ويتبيّن منه مَزِيّة التّفقّه في الدّين، وأثر ذلك في توجيه الاعتقاد والسّلوك، وخاصّة عند حدوث الفتن(٤).

وكان المُثنّى بن حارثة الشّيبانيّ البكريّ الرّبعيّ ﷺ قد اتّخذ موقفًا معاديًا لأبناء عمومته من بكر بن وائل عندما أعلنوا ردّتهم، فكتب إليهم يلومهم على فعلهم، وينهاهم عن حربهم لإخوتهم بني عبد القيس، ويهدّدهم بالمهاجرين والأنصار، ولكنّهم تمادوا في غيّهم، ولم يقبلوا من المُثنّى ﷺ ما أشار به عليهم، واعتبروا كلامه من الحسد لهم(٥).

وسدرت بنو بكر بن وائل في ردّتهم، وأرسلوا إلى كسرى يسألونه أن يولّي عليهم رجلاً من قبله، ويعينهم على محاربة بني عبد القيس الّذين ثبتوا على إسلامهم، فأمّر عليهم المنذر بن النّعمان بن المنذر الشّهير بالغَرور، وضمّ إليه نحو سبعة آلاف فارس، فاجتمع المرتدّون والفرس على محاربة المسلمين بالبحرين(٦).

---

(١) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١١٦؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص١٠٩.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان، ص١٠٩؛ الكلاعي: الاكتفاء بما تضمّنه من مغازي رسول الله ﷺ والثّلاثة الخلفاء، ج٢، ص١٤٩.

(٣) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٢٨٥. من طريق سيف. وابن حبيش من طريق الواقديّ. الغزوات، ج١، ص١٨٠، ١٨٧.

(٤) عبد العزيز عبدالله الحميدي: التّاريخ الإسلاميّ مواقف وعبر، دار الدّعوة، الطّبعة الأولى، جدّة، ١٤١٨هـ/١٩٩٨م، ج٩، ص٩٧.

(٥) الواقدي: الرّدّة، ص١٤٩- ١٥١؛ ابن أعثم: الفتوح، ج١، ص٣٩.

(٦) الواقدي: الرّدّة، ص١٤٧، ١٤٨؛ ابن أعثم: الفتوح، ج١، ص٣٧، ٣٨.

وتزعّم الحُطَمُ بنُ ضُبَيْعَةَ القيسيّ البكريّ[1] مرتدّة البحرين، وقاتل المسلمين فنصر الله جند الإسلام، ثمّ عاودوا الكرّة، فانهزم المسلمون، وانحازوا إلى بلدة "جُواثا"[2]، فضرب الكفّار عليهم الحصار، وضيّقوا عليهم، ومنعوا عنهم الأقوات حتّى جاع المسلمون جوعًا شديدًا، فقال شاعرهم[3]:

أَلَا أَبْلِغْ أَبَا بَكْرٍ رَسُولًا ** وَفِتْيَانَ الْمَدِينَةِ أَجْمَعِينَا
فَهَلْ لَكُمُ إِلَى قَوْمٍ كِرَامٍ ** قُعُودٍ فِي جُوَاثَا مُحْصَرِينَا
كَأَنَّ دِمَاءَهُمْ فِي كُلِّ فَجٍّ ** شُعَاعُ الشَّمْسِ يَغْشَى النَّاظِرِينَا
تَوَكَّلْنَا عَلَى الرَّحْمَنِ إِنَّا ** وَجَدْنَا النَّصْرَ لِلْمُتَوَكِّلِينَا

وقد سارع الخليفة أبو بكر الصّدّيق ﷺ بإرسال العلاء بن الحضرميّ ﷺ لنجدة المحاصرين، فاستنهض الثّابتين على الإسلام في طريقه إليهم[4]، وسار حتّى نزل بجوارهم، وخندق المسلمون والمشركون، فكانوا يتراوحون القتال، ثمّ يرجعون إلى خندقهم، وظلّ الأمر على ذلك حتّى سمع العلاء بن الحضرميّ ﷺ أصواتًا عالية ذات ليلة في جيش المرتدّين، فانتدب رجلاً من أصحابه لكشف خبرهم، فوجدهم سُكارى لا يعقلون من الشّراب، فهجم العلاء وأصحابُه من فورهم على الكافرين، فأعملوا فيهم السّيف، واستولوْا على أموالهم وأثقالهم، وقتلوا الحُطَم زعيمهم[5]، وفرّت فلول المرتدّة إلى جزيرة "دارين" فتوجّه إليهم العلاء، وانقضّ عليهم بجنده فأهلكوهم، ثمّ رجعوا إلى البحرين، وعزّ الإسلام وأهلُه في تلك البلاد، وذلّ الشّرك وأهله[6].

---

(١) الحطم: هو شريح بن ضبيعة البكريّ الشّهير بالحطم، أحد بني قيس بن ثعلبة. البلاذري: فتوح البلدان، ص١٠٩.

(٢) جواثا: حصن لعبد القيس في أرض هجر. ياقوت: معجم البلدان، ج٢، ص١٧٤.

(٣) الواقدي: الرّدّة، ص١٥٢، ١٥٤؛ الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٢٨٦؛ الكلاعي: الاكتفاء بما تضمّنه من مغازي رسول الله ﷺ والثّلاثة الخلفاء، ج٢، ص٢٥٠.

(٤) الواقدي: الرّدّة، ص١٥٥- ١٥٩؛ الكلاعي: الاكتفاء، ج٢، ص١٤٩.

(٥) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١١٦؛ الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٢٨٨.

(٦) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٢٨٩، ٢٩٠.

📖 **ردّة عُمان**:

كان رسول الله ﷺ قد ذكر أهل عُمانَ بخير قبل إسلامهم، وأثنى على أخلاقهم، وحدّث أبو بَرْزَةَ الأسلميّ ﵁ بذلك فقال: "بَعَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَجُلاً إِلَى حَيٍّ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ، فَسَبُّوهُ وَضَرَبُوهُ، فَجَاءَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: لَوْ أَنَّ أَهْلَ عُمَانَ أَتَيْتَ، مَا سَبُّوكَ وَلَا ضَرَبُوكَ"[1].

ولمّا فتح رسول الله ﷺ مكّة بعث عمرو بن العاص السّهميّ ﵁ آخر سنة ٨هـ/٦٢٩م لدعوة ملكي عُمان، عَبّادٍ[2] وجَيْفرٍ ابني الجلَندى (الجُلَنْدَاء)[3] الأزديّ إلى الإسلام، فلمّا اطّلعا على كتاب النّبيّ ﷺ أسلما، وتبعهما النّاس من قبائل الأزد وغيرهم، وأقام عمرو بن العاص ﵁ لجمع زكوات أهل عُمان، فلمّا توفّي رسول الله ﷺ تنبّأ ذو التّاج لقيط بن مالك الأزديّ، وتبعه قومه، وغلب على عُمان، وأزاح ملكيها جَيْفَرًا وعَبّادًا إلى نواحي الجبال والبحر، فكتب جيفرٌ إلى الخليفة أبي بكر الصّدّيق ﵁ بالخبر، فوجّه إليهم حذيفة بن محصن الغلفانيّ، وعرْفجة بن هرثمة البارقيّ الأزديّ، وعكرمة بن أبي جهل، فنصرهم الله على المرتّدين، وقتل المتنبّئ الكذّاب ذو التّاج[4].

---

(١) مسلم: الصّحيح، (كتاب فضائل الصّحابة، باب فضل أهل عُمان)، جـ٤، ص١٩٧١، ح٢٥٤٤.

(٢) وقد ورد اسم عبّاد بن الجلندى باسم "عبد". ابن سعد: الطّبقات الكبير، جـ١، ص٢٢٦؛ ابن حبيب: المُحبّر، تحقيق/ إيلزة ليختن شتيتر، دار الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، ص٧٧؛ البلاذري: أنساب الأشراف، جـ١٠، ص٢٧٨.

(٣) الجُلَنْدَى بالقصر أو الجُلَنْدَاء بالمدّ: بضمّ أوّله، وفتح اللّام، وسكون النّون، وفتح الدّال. ابن حجر: الإصابة في تمييز الصّحابة، جـ١، ص٦٣٧؛ نزهة الألباب في الألقاب، تحقيق/ عبد العزيز محمّد صالح السّديري، مكتبة الرّشد، الرّياض، الطّبعة الأولى، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م، جـ١، ص١٧٥. وينظر ابن دريد: جمهرة اللّغة، دار العلم للملايين، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٩٨٧م، جـ١، ص٣٥٤. وقد رُوي بهذا الضّبط عند الطّبرانيّ عن ابن عبّاس بإسناد أزديّ، وهم أدرى باسم ملكهم. المعجم الأوسط، تحقيق/ طارق عبد الله محمّد، وعبد المحسن الحسيني، دار الحرمين، القاهرة، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م، جـ٧، ص٤٧، ح٦٨٠٨؛ المعجم الكبير، جـ١٢، ص٢٢١، ح١٢٩٤٧. ومعنى الجُلَنْدَى: القَوِيّ المتحمِّل، من الجلادة. الزّبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، دار الفكر، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤١٤هـ، جـ٤، ص٣٩٦، ٣٩٧.

(٤) البلاذري: فتوح البلدان، ص١٠٢؛ الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٢، ص٢٩١، ٢٩٢.

🕮 فتنة الأسود العنسيّ وردّة اليمن:

كانت اليمن تابعة للإمبراطوريّة الفارسيّة منذ وفاة سيف بن ذي يَزَنَ الحميريّ الّذي تمكّن من طرد الأحباش بمعاونة الفرس، لأنّه لمّا هلك سيفٌ أصبح قائد الحامية الفارسيّة أميرًا على اليمن، وتزوّج الفرس من أهل اليمن وسُمّي أولادهم بالأبناء(١).

ولمّا بَعث النّبيُّ ﷺ بكتبه إلى الملوك والأمراء يدعوهم إلى الإسلام عقب صلح الحديبية في أواخر السّنة الهجريّة السّادسة وأوائل السّابعة(٢)، أرسل كتابًا إلى ملك الفرس كسرى أَبْرَوِيزَ بن هُرْمُز يدعوه إلى الإسلام مع عبد الله بن حُذافة السّهميّ ﷺ، فلمّا قرأه حرّقه(٣)، "فَدَعَا عَلَيْهِمْ النَّبِيُّ ﷺ أَنْ يُمَزَّقُوا كُلَّ مُمَزَّقٍ"(٤).

وكتب كسرى إلى باذام(٥) عامله على اليمن أن يبعث رجلين من قبله ليستكشفا له أمر النّبيّ ﷺ، فقدما المدينة بكتاب من باذام، فلمّا دفعاه إلى رسول الله ﷺ تبسّم ودعاهما إلى الإسلام، وأمرهما أن يأتياه من الغد، فلمّا دخلا عليه أخبرهما أنّ الله ﷻ قتل كسرى(٦)، وعندما رجعا إلى باذام بالخبر، وجاءه مقتل كسرى أبرويز على يد ولده شِيرَوَيْهِ أسلم هو والأبناء(٧).

واستعمل النّبيّ ﷺ باذام على اليمن كلّها، فلم يزل منفردًا بعملها حتّى مات، فأمّر النّبيّ ﷺ شهر بن باذام على صنعاء، وفرّق جماعة من أصحابه على بقيّة بلاد اليمن، وبعث معاذ بن جبل ﷺ معلّمًا، فكان يتنقّل في أعمال اليمن وحضرموت كيف يشاء(٨).

---

(١) أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الرّاشدة، ص٣٩٦.

(٢) ابن حجر: فتح الباري، ج١، ص٣٨.

(٣) البخاري: الصّحيح، (كتاب المغازي، باب كتاب النّبيّ ﷺ إلى كسرى وقيصر)، ج٤، ص١٦١٠، ح٤١٦٢.

(٤) ألحق الزُّهريّ هذه الجملة برواية البخاري، وهو يحسبها من مراسيل سعيد بن المسيّب.

(٥) يرد في بعض المصادر باسم "باذان".

(٦) رواه ابن أبي شيبة مرسلاً عن التابعي عبد الله بن شدّاد. مصنّف ابن أبي شيبة، ج٧، ص٣٤٦، ٣٤٧، ح٣٦٦٢٦؛ ابن الجوزي: الوفا بأحوال المصطفى، تحقيق/ مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلميّة، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٩٨٨م، ص٧٥٠.

(٧) ابن هشام: السّيرة النّبويّة، ج١، ص٦٩؛ الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص١٣٤.

(٨) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٢٤٧.

وظلّت بلاد اليمن في سلام وإسلام حتّى أواخر العام العاشر الهجريّ، حيث ظهر فيها رجلٌ كاهنٌ مشعوذٌ يعرف بالأسود العنسيّ، وادّعى النّبوّة، فتبعته قبيلته "عَنْسٌ" أوّل النّاس، وافتتن به قومٌ من العوام والأعراب(١).

وأشاع الأسود العنسيّ الكذّاب جوًّا من العصبيّة القبليّة فساق بها أتباعه لطرد عمّال النّبيّ ﷺ، وتقدّم بهم نحو صنعاء، فتلقّاه شهر بن باذام في أهل صنعاء، وتقابل الجمعان خارج المدينة، فتقاتلوا قتالاً شديدًا قتل فيه شهرٌ، وانهزم أهل صنعاء، فغلب الأسود العنسيّ عليها، واستذلّ الأبناء، وتزوّج المرزبانة "آذاد"، امرأة شهر(٢)، وقسرها على ذلك، فأبغضته أشدّ البغض(٣)، وتسلّط على المستمسكين بالإسلام، فأبشع في تعذيبهم، حتّى قطّع رجلاً يدعى النّعمان عضوًا عضوًا(٤).

ولكنّ الله ﷻ أظهر عجز الأسود العنسيّ وكذبه أمام جموع أتباعه بآية بيّنة؛ فقد استدعى الكذّابُ التّابعيَّ الشّهير أبا مسلم الخَوْلانيّ، وطلب منه أن يشهد له بالرّساله مرارًا، فلم يزده أبو مسلم على قوله لا أسمع، وعندما سأله عن النّبيّ ﷺ شهد له بالرّسالة، وجعل يكرّر قوله عليه كلّما سأله، فاستشاط الأسْود غضبًا، وأمر به فأُلقي في نار عظيمة، فلم تضرّه، ولكنّ الضّالين الّذين استغواهم العنسيّ الكذّاب ومالئوه على أكاذيبه وافتراءاته لم تكن لهم عقول يفقهون بها، وتعامَوا عن الحقيقة البيّنة، فأشاروا على متنبّيهم بإخراج أبي مسلم لئلّا يُفسد عليه أتباعه فيعودوا إلى الإسلام، فأمر أبا مسلم بالرّحيل، فأتى المدينة وقد قبض النّبيّ ﷺ واستُخلف أبو بكر ﷺ، فأناخ راحلته بباب المسجد النّبويّ، وقام يصلّي إلى سارية فيه، فبصُر به عمر بن الخطّاب ﷺ، فقام إليه، وسأله عن بلده، فلمّا علم أنّه من اليمن سأله عن الرّجل الّذي أحرقه العنسيّ الكذّاب بالنّار؟ فورّى أبو مسلم، وقال: ذاك عبد الله بن ثُوَب، ولكنّ التّورية لم تنطل على الفاروق ﷺ فقال له: أنشدك الله أنت هو؟

---

(١) البلاذري: فتوح البلدان، ص١٣٠.

(٢) الفسوي: المعرفة والتّاريخ، (نصوص من الجزء الأوّل المفقود)، ج٣، ص٢٦٢؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص١٣٠؛ الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٢٤٧، ١٤٨.

(٣) الكلاعي: الاكتفاء بما تضمّنه من مغازي رسول الله ﷺ والثّلاثة الخلفاء، ج٢، ص١٥٦.

(٤) ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٥، ص٥٣٥.

فاعترف له، فاعتنقه عمر ﷺ وبكى، ثمّ ذهب به إلى الخليفة الصّدّيق ﷺ، فأجلسه فيما بينه وبين أبي بكر، وقال: "الحمد لله الّذي لم يمتني حتّى أراني في أمّة محمّد ﷺ من فُعل به ما فُعل بإبراهيم خليل الله"[1].

وبلغ النّبيَّ ﷺ أمرُ الأسود الكذّاب، فبعث إلى الثّابتين على الإسلام من الأبناء وعرب اليمن يأمرهم بالتّصدّي له والقضاء عليه[2]، فاتّفق قيس بن هبيرة المَكْشُوح المراديّ وفَرْوَةُ بْنُ مُسَيْكٍ المُراديّ والأبناءُ على قتال العنسيّ والتّخلّص منه[3].

ووجد زعماء اليمن من الأبناء والعرب في دعوة النّبيّ ﷺ فرصة للتّماسك والتّوحّد تحت راية واحدة للقضاء على الأسود العنسيّ، ولم يكد زعماء الأبناء كفيروز بن عبد الله الدّيلميّ، وداذويه، وخرّزاذ، وجشيش (جشنس)[4] الدّيْلَميّ - ابن عمّ آذاد - يجتمعون مع قيس بن هبيرة المراديّ على التّخلّص من الأسود العنسيّ حتّى جاءتهم كتب نفرٍ من كبار زعماء الهَمْدانيّين والحميريّين يبذلون لهم العون والقيام في حرب العنسيّ الكذّاب[5].

وقد قامت المرزبانة - أرملة شهر بن باذام - بدور عظيم في التّدبير لقتل العنسيّ، فدلّت زعماء قومها على الطّريق الوحيد الّذي يمكن أن يدخلوا منه لاغتيال الأسود من خلف البيت، وزاد من صعوبة مهمّتها أنّه بدأ يكتشف تدبير هؤلاء القادة عليه، ولكنّ آذاد تابعت عليه الشّراب حتّى غطّ في النّوم[6]، ودخل عليه زعماء الأبناء وقيس بن هبيرة المكشوح فقتلوه[7].

(١) ابن عبد البرّ: الاستيعاب، ج٤، ص١٧٥٨. وإسناد الأثر حسن متّصل. عبد السّلام محسن آل عيسى: دراسة نقديّة في المرويّات الواردة في سيرة عمر بن الخطّاب وسياسته الإداريّة، عمادة البحث العلمي، الجامعة الإسلاميّة، المدينة المنوّرة، الطّبعة الأولى، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ج٢، ص٦٠٤.

(٢) الكلاعي: الاكتفاء بما تضمّنه من مغازي رسول الله ﷺ والثّلاثة الخلفاء، ج٢، ص١٥٦.

(٣) البلاذري: فتوح البلدان، ص١٣٠، ١٣١.

(٤) في رواية الفسويّ: "جرجست". المعرفة والتّاريخ، (نصوص من الجزء الأوّل المفقود)، ج٣، ص٢٦٢.

(٥) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٢٤٩.

(٦) البلاذري: فتوح البلدان، ص١٣١؛ الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٢٤٩.

(٧) يروي خليفة بن خياط أنّ الرّواية اليمنيّة الّتي ينقلها الأبناءُ عن الآباءِ تجمع على أنّ فيروز الدّيلميّ هو الّذي حطّم عنق العنسيّ وقتله. تاريخ خليفة، ص١١٧.



ولمّا سمع أصحاب الأسود العنسيّ الضّجّة همّوا بالدّخول فمنعتهم آذاد؛ بحجّة تنزّل الوحي على نبيّهم، ثمّ أُلقيتْ رأسُ العنسيّ على أصحابه فانتابتهم الرّهبة وعمّهم الخوف، ففرّوا هاربين، ولم تجاوز فتنة العنسيّ الأربعة أشهر(١).

ويُروى أنّ خبر مقتل الأسود أتى النّبيَّ ﷺ بالوحي من ليلته، فخرج على أصحابه فقال: "قُتِلَ الْعَنْسِيُّ الْبَارِحَةَ، قَتَلَهُ رَجُلٌ مُبَارَكٌ مِنْ أَهْلِ بَيْتٍ مُبَارَكِينَ"، فقيل: ومن هو؟ قال: "فَيْرُوزُ، فَازَ فَيْرُوزُ"(٢).

وترك الأبناء أمر صنعاء لقيس بن هبيرة المكشوح المُراديّ فكان أميرها(٣)، لكنّه ما لبث حتّى عمل على التّخلّص من زعماء الأبناء وطردهم من صنعاء(٤)، فأثار أهل اليمن عليهم بالعصبيّة العربيّة، واجتمعت عليه فلول الأسود العنسيّ، وطابقوه على إخراجهم، ولكنّ أنصار فيروز تمكّنوا من إحباط محاولة قيس، واستعادوا الأبناء المرحّلين، وتمكّن فيروز وأعوانُه من هزيمة قيس ورجاله، فتذبذبوا بين صنعاء ونجران(٥).

وظلّ فيروز ومناصروه بين رباط وجهاد حتّى أرسل الخليفة الصّدّيق ﷺ إليهم الجيوش والأمداد بقيادة عكرمة بن أبي جهل، والمهاجر بن أبي أميّة المخزوميّ، وجرير بن عبد الله البجليّ ﷺ، فالتقت جيوش الخلافة مع جموع اليمنيّين والمرتدّين الّذين يقودهم

---

(١) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٢٤٩- ٢٥٢؛ الكلاعي: الاكتفاء بما تضمّنه من مغازي رسول الله ﷺ والثّلاثة الخلفاء، ج٢، ص١٥٦- ١٥٧.

(٢) رواه الطّبريّ عن عبد الله بن عمر من طريق سيف بن عمر التّميميّ المتّهم في الرّواية. تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٢٥١، ورواه ابن منده وابن عساكر عن أبي هريرة من طريق آخر. ابن منده: معرفة الصّحابة، تحقيق/ عامر حسن صبري، مطبوعات جامعة الإمارات، الطّبعة الأولى، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، ص٥٤٥؛ ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج٤٩، ص١٦.

(٣) الكلاعي: الاكتفاء بما تضمّنه من مغازي رسول الله ﷺ والثّلاثة الخلفاء، ج٢، ص١٥٧.

(٤) تذكر بعض المصادر أنّه فعل ذلك خوفًا من قبيلة الأسود العنسيّ، ولذلك عمل على اغتيال زعماء الأبناء، فلم يتمكّن إلّا من قتل داذويه، وهرب قيس بجشيش. ابن سعد: الطّبقات الكبير، ج٦، ص٢٦٤؛ ابن حبيب: أسماء المغتالين من الأشراف في الجاهليّة والإسلام، تحقيق/ سيّد كسروي حسن، دار الكتب العلميّة، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، ص٩٣.

(٥) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٢٩٦، ٢٩٧.

قيس بن هبيرة المكشوح وعمرو بنُ مَعْدِيكَرِبٍ الزُّبيديّ فهزموهم شرّ هزيمة، واقتادوا قيسًا وعمرًا إلى أبي بكر ﷺ، وانتهت ردّة اليمن(١).

وقد أجلب الإخباريّ سيف بن عمر التّميميّ الكذوب بخيله ورَجِله على قيس بن هبيرة المَكْشُوح المراديّ، ووصمه بالرّدّة مرّتين، خلال العهد النّبويّ، وخلافة أبي بكر الصّدّيق، وليس الأمر كما زعم الكذوب، بل إنّ قيسًا صحابيٌّ جليلٌ مفترى عليه، وسيكون له مواقف مشهودة في الجهاد في سبيل الله وفتوح البلدان في الشّام والعراق وفارس، وسنرى أنّه يُؤمّر على الجيوش والفرق العسكريّة الكبيرة في عهد الصّدّيق والفاروق رضي الله عنهما، مع أنّهم كانوا في ذلك الزّمان لا يؤمّرون إلّا الصّحابة، كما نصّ على ذلك الحافظ ابن حجر في "الإصابة" أكثر من ثلاثين مرّة(٢).

🕮 القضاء على ردّة حضرموت وكندة:

كان رسول الله ﷺ قد استعمل زياد بن لَبِيدٍ البَيَاضِيّ الأنصاريّ ﷺ على قبائل حَضْرَمَوْت(٣)، وكِنْدَة، فلمّا استخلف أبو بكر ﷺ أقرّه على عمله، وكان زيادُ بن لَبيد رجلاً حازمًا صليبًا، فاشتدّ في مطالبة النّاس بالصّدقة، حتّى أخذ قلوصًا - ناقة فتيّة - من رجل كنديّ، فسأله أن يردّها عليه ويأخذ غيرها فرفض، وكلّمه زعيم كندة الأشعث بن قيس الكنديّ فلم يجبه، وأصرّ على أخذها، فانتقضت عليه قبائل كندة، ولم يبق معه إلّا السَّكُون(٤)، وأمسك الأشعث بن قيس عن البيعة ودفعِ الصّدقات، ولم ينطق بالرّدّة، وأظهر أنّه يتربّص اجتماع النّاس فيكون كأحدهم(٥).

---

(١) ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٢، ص٢٩٧- ٢٩٩.

(٢) محمّد عبد العال محمّد حسن: قيس بن هبيرة المكشوح المراديّ صحابيّ جليلٌ مفترى عليه، مجلّة كلّيّة اللّغة العربيّة بأسيوط، جامعة الأزهر، العدد الواحد والأربعون، ١٤٤٣هـ/٢٠٢٢م، ج١، ص٨٥١، وما بعدها.

(٣) حضرموت: ناحية واسعة شرقي عدن بقرب البحر، وحولها رمال كثيرة تعرف بالأحقاف. ياقوت: معجم البلدان، ج٢، ص٢٧٠.

(٤) البلاذري: فتوح البلدان، ص١٢٥، ١٢٦.

(٥) ابن سعد: الطّبقات الكبير، ج٦، ص٢٣٣.



وكان رسولُ الله ﷺ قد نهى معاذ بن جبل ﷺ عندما بعثه إلى اليمن عن أخذ كرائم الأمول فقال له: "إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ، فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ، فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ فِي فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ، فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ"[١].

لكن يبدو أنّ بعض العشائر الكِنْديّة كبني وَلِيعَة قد استغلّوا وصيّة النّبيّ ﷺ في الصّدقات لإضعاف العمّال والولاة، بل إنّهم أظهروا العصيان منذ العهد النّبويّ؛ فقد روى أبو ذرّ الغِفاريّ ﷺ أنّ رسول الله ﷺ قال: "لَيَنْتَهِيَنَّ بَنُو وَلِيعَةَ، أَوْ لَأَبْعَثَنَّ إِلَيْهِمْ رَجُلًا كَنَفْسِي، يُمْضِي فِيهِمْ أَمْرِي، يَقْتُلُ الْمُقَاتِلَةَ، وَيَسْبِي الذُّرِّيَّةَ"[٢].

وصحّ عن عمرو بن عَبَسَة السُّلَميّ ﷺ أنّ النّبيّ ﷺ لعن رؤساء بني وَلِيعَة فقال: "لَعَنَ اللهُ الْمُلُوكَ الْأَرْبَعَةَ: جَمْدًا، وَمِخْوَسًا، وَمِشْرَحًا، وَأَبْضَعَةَ، وَأُخْتَهُمُ الْعَمَرَّدَةَ"[٣].

وقد استمرّ بنو وليعة الكنديّون في عنادهم وسدروا في غيّهم فجمعوا الرّجال لقتال الوالي زياد بن لبيد، فلمّا علم بهم بيّتهم، وأعمل فيهم السّيف، حتّى قتل أشرافَهم الّذين يُعرفون بالملوك الأربعة، وأقبل بالأسرى والأموال، فمرّ بالأشعث بن قيس وقومه فصرخت النّساء والصّبيان، فحمي الأشعث وجماعةٌ من قومه للأسرى، وتعرّضوا لزياد، فأصيب جماعة من المسلمين، ثمّ هُزم الأشعثُ وأتباعه، فاجتمعت كندة وعظماؤها إليه[٤].

---

(١) البخاري: الصّحيح، (كتاب الزّكاة، باب أخذ الصّدقة من الأغنياء وتردّ في الفقراء حيث كانوا)، ج٢، ص٥٤٤، ح١٤٢٥؛ (كتاب المغازي: باب بعث أبي موسى الأشعريّ ومعاذ بن جبل إلى اليمن قبل حجّة الوداع)، ج٤، ص١٥٨٠، ح٤٠٩٠؛ مسلم: الصّحيح، (كتاب الإيمان، باب الدّعاء إلى الشّهادتين وشرائع الإسلام)، ج١، ص٥٠، ح١٩.

(٢) ابن أبي شيبة: المصنّف في الأحاديث والآثار، ج٦، ص٣٧٤، ح٣٢١٣٧؛ النّسائي: السّنن الكبرى، (كتاب خصائص عليّ، باب ذكر قوله ﷺ: عليٌّ كنفسي)، ج٥، ص١٢٧، ح٨٤٥٧. والحديث رجاله ثقات.

(٣) أحمد بن حنبل: المسند، ج٣٢، ص١٩٠، ١٩١، ح١٩٤٤٦؛ فضائل الصّحابة، ج٢، ص١١٠٩، ١١١٠، ح١٦٥٠. وإسناده صحيح.

(٤) البلاذري: فتوح البلدان، ص١٢٦.

ولمّا علم الخليفة أبو بكر ﷺ بخبر الأشعث الكنديّ حاول استصلاحه، فلمّا يئس منه أمدّ عامله زياد بن لبيد الأنصاريّ بالمهاجر بن أبي أميّة المخزوميّ ﷺ، فأوقعا بالأشعث وقومه، فلجئوا إلى حصن النّجير، فحصرهم المسلمون حتّى جهدوا[١]، فطلب الأشعث الأمان من زياد بن لبيد الأنصاريّ (اليمنيّ)[٢]، واتّفق معه على فتح الأبواب مقابل الأمان على نفسه وولده وماله، حتّى يقدم على أبي بكر[٣]، وغدر الأشعث بالمحاصرين، فلم يأخذ لهم أمانًا[٤]، ودخل المسلمون الحصن، فأمر زياد بن لبيد بقتل أشراف المقاتلة[٥]، وبعث بالأشعث إلى أبي بكر فمنّ عليه وحقن دمه[٦]، فحسنت توبته.

والظّاهر من أخبار الحرب بين زياد بن لبيد الأنصاريّ والأشعث بن قيس الكنديّ أنّها لم تكن على الرّدّة بقدر ما كانت على العصبيّة القبليّة من قبل الأشعث ومتابعيه، وهذا يفسّر عدم حرمان الأشعث بن قيس من الإمارة خلال عصر الرّاشدين[٧]؛ "لأنّهم كانوا في الفتوح لا يؤمّرون إلّا الصّحابة"[٨].

كانت هذه الجولة مع أهمّ حركات الرّدّة وأخطرها، وهناك حركات أخرى استطاع المسلمون أن يقضوا عليها بسهولة، ثمّ انتهى الأمر بالقضاء على كافّة حركات الرّدّة وإسلام

---

(١) البلاذري: فتوح البلدان، ص١٢٦.

(٢) صارح الأشعث بن قيس الكنديّ زياد بن لبيد الأنصاريّ بأنّ المهاجر بن أبي أمية القرشيّ المخزوميّ سيقتله إن ولي أمره، فقبل زياد بن لبيد عرض الأمان حتّى لا تتفاقم الأمور. ابن سعد: الطّبقات الكبير، ج٦، ص٢٣٤.

(٣) ابن سعد: الطّبقات الكبير، ج٦، ص٢٣٤.

(٤) يروى أنّ الأشعث الكنديّ صالح زياد بن لبيد على سبعين رجلاً من المحاصرين، ثمّ نزل معهم فكانوا واحدًا وسبعين، فطلب من زياد بن لبيد إرساله إلى أبي بكر ليرى فيه رأيه. ابن سعد: الطّبقات الكبير، ج٦، ص٢٣٤. والأثبت ما ذُكر في المتن، كما قال الواقديّ.

(٥) ابن سعد: الطّبقات الكبير، ج٦، ص٢٣٤.

(٦) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١١٦.

(٧) البلاذري: فتوح البلدان، ص٣٢٢؛ الدّينوري: الأخبار الطّوال، تحقيق/ عبد المنعم عامر، مكتبة المثنّى، بغداد، بدون تاريخ طبع، ص١٣٥.

(٨) ابن حجر: الإصابة، ج١، ص١٥٩. وذكر ابن حجر أن ابن أبي شيبة رواه في مصنّفه بإسناد لا بأس به.



الجزيرة العربيّة كلّها، وتوحُّدها تحت راية الخلافة في أوّل عهد الخليفة الصّدّيق، وكان لسيف الله خالد بن الوليد ﷺ الدّور الأكبر في مواجهة المرتدّين حتّى قال الإمام الشّافعيّ (ت: ٢٠٤هـ/٨٢٠م): "وعَلى يَدَيْهِ كَانَ فَتْحُ عَامَّة الرِّدَّة"[١].

📖 أكاذيب سيف التّميميّ في أخبار ردّة اليمن:

زعم الأخباريّ سيفُ التّميميّ الكذّاب أنّ رسول الله ﷺ استعمل الطّاهر بن أبي هالة التّميميّ -ابن السّيّدة خديجة- على بعض بلاد اليمن[٢]، "عكٍّ والأشعريّين"[٣]، وأضاف بأنّ هاتين القبيلتين كانتا أوّل منتقض بعد النّبيّ ﷺ، وأنّ الطّاهر التّميميّ سار إليهم، ثمّ كتب إلى أبي بكر الصّدّيق بأمرهم وبمسيره إليهم، ولمّا التقاهم الطّاهر ومن معه "اقتتلوا، فهزمهم الله، وقتلوهم كلّ قتلة، وأنتنت السّبل لقتلهم، وكان مقتلهم فتحًا عظيمًا"[٤].

وكان سيف بن عمر التّميميّ قد اختلق ثلاثة أبناء للسيّدة خديجة بنت خويلد[٥] من زوجها أبي هالة التّميميّ[٦]، وهم الحارث، والزّبير، والطّاهر، وجعلهم من أوائل المسلمين، وممّن أيّدوا النّبيّ ﷺ منذ بداية دعوته، ولم يكن هؤلاء الثّلاثة في الصّحابة، ولا في بني آدمَ أصلاً.

---

(١) أحمد بن حنبل: العلل ومعرفة الرّجال، ج٣، ص٤٢١.

(٢) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٢٤٧؛ ابن عبد البرّ: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ج٢، ص٧٧٥؛ ابن حجر: الإصابة في تمييز الصّحابة، ج٣، ص٤١٨.

(٣) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٢٤٧.

(٤) تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٢٩٤.

(٥) كانت خديجة رضي الله عنها قد تزوّجت مرّتين قبل النّبيّ ﷺ، فتزوّجت من عتيق بن عائذ المخزوميّ القرشيّ، وأنجبت منه بنتًا تسمّى هندًا، كما تزوّجت من أبي هالة التّميميّ، فولدت له ذكرين. ابن سعد: الطّبقات الكبير، ج٦، ص٦٨؛ الفسوي: المعرفة والتّاريخ، ج٣، ص٢٦٨؛ الطّبراني: المعجم الكبير، ج٢٢، ص١٥٤، ص٤٤٨.

(٦) أبو هالة التّميميّ: مختلف في اسمه، معروف بكنيته، لكن ثبت تاريخيًّا أنّه قدم مكّة هو وأخواه عوف، وأنيس، فحالفوا بني عبد الدّار بن قُصَيّ، وأقاموا بمكّة، فتزوّج أبو هالة خديجة، فولدت له هندًا، وهالة، رجلين، فمات هالة، وأدرك هند الإسلام، فأسلم. ابن سعد: الطّبقات الكبير، ج٦، ص٦٨؛ الطّبراني: المعجم الكبير، ج٢٢، ص١٥٤، ص٤٤٨.

وأنت خبيرٌ بأنّ الباحث المبتدئ في السّيرة النّبويّة يدرك أنّه من المستحيل أن تخفى أسماء ثلاثة من أوائل المسلمين المكّيّين على مؤلّفي السّير والمغازي الأوائل، بل إنّ أهل الحديث يتّفقون مع أهل السّير في القول بأنّ خديجة ﵂ لم تنجب من أبي هالة التّميميّ إلّا ولدين ذكرين هما: هند، وهالة(١).

وإذا طرحنا رواية سيف فإنّ المؤرّخين يتّفقون على أنّ خديجة ﵂ لم يكن لها من أبي هالة في عصر الرّسول ﷺ إلّا هند، وليس غيره من الذّكور(٢).

ولهذا نرى أنّ سيفًا انتهز زواج خديجة ﵂ من رجل تميميّ فأضاف له ثلاثة أولاد منها ليجعل لقبيلته مكانًا بين السّابقين إلى الإسلام، وعلى هذا فإنّ الطّاهر وأخويه شخصيّات أسطوريّة ليس لها أصلٌ من الواقع أو التّاريخ الحقيقيّ، وجميع الأخبار المتعلّقة بهم لا أساس لها من الصّحة، وينبغي أن تُمحى من التّاريخ(٣).

وقد ثبت أنّ الأشعريّين الذّين أدرجهم سيفُ الكذوب في المرتدّين قد ثبتوا على الإسلام فلم يرتدّ منهم أحد(٤)، ولو قُتِل العكّيّون كلّ قتلة لما كان لهم الدّور الأكبر في فتح مصر كما سيأتي في الفتوحات؛ فقد عقد الفاروق عمرُ بن الخطّاب ﵁ لعمرو بن العاص ﵁ عندما سيّره لفتح مصر "على أربعة آلاف رجل كلّهم من عكّ"(٥)، ممّا يدلّ على أنّ ادّعاء

---

(١) ابن سعد: الطّبقات الكبير، ج٦، ص٦٨؛ الطّبراني: المعجم الكبير، ج٢٢، ص١٥٤، ص٤٤٨؛ الحاكم: المستدرك على الصّحيحين، ج٣، ص٧٤٢؛ الدّمياطي: نساء رسول الله ﷺ وأولاده ومن سالفه من قريش وحلفائهم وغيرهم، تحقيق/ فهمي سعد، عالم الكتب، بيروت، الطّبعة الثّانية، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، ص٣٣.

(٢) ابن هشام: السّيرة النّبويّة، ج٢، ص٦٤٣؛ ابن سعد: الطّبقات الكبير، ج٦، ص٦٨؛ ابن قتيبة: المعارف، ص١٣٣؛ البلاذري: أنساب الأشراف، ج١٣، ص٦٦؛ الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٢١١؛ ابن دريد: الاشتقاق، تحقيق/ عبد السّلام هارون، دار الجيل، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٩٩١م، ص٢٠٨.

(٣) محمّد عبد العال محمّد حسن: مختلقات سيف بن عمر التّميميّ في تاريخ قومه، مجلّة كلّيّة اللّغة العربيّة بأسيوط، جامعة الأزهر، العدد الثّامن والثّلاثون، ١٤٤٠هـ/٢٠١٩م، ج٢، ص١٨٠١- ١٨٠٣.

(٤) ابن حبيش: الغزوات، ج١، ص٢٦؛ الكلاعي: الاكتفاء، ج٢، ص٩١.

(٥) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، تحقيق/ محمد الحجيري، دار الفكر، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، ص٦٤- ٦٦؛ اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت، بدون تاريخ طبع، ج٢، ص١٤٨؛ ياقوت: معجم البلدان، ج٤، ص٢٦٢.

سيف بانحياز سائر أمراء اليمن إلى الطّاهر بن أبي هالة بعد قضائه على ردّة عكّ والأشعريّين[١]، إنّما هو اختلاق منه بدافع العصبيّة القبليّة[٢].

وقد أساء سيفُ الكذوب إلى التّاريخ الإسلاميّ باختلاقه واقعةً حربيّة من حروب الرّدّة، تظهر عدم تمكّن الإسلام في القبائل العربيّة اليمنيّة، واختلق لها قتلى كثيرين أنتنت جيفُهم السّبل، ممّا يبرهن على انتشار الإسلام بحدّ السّيف كما يدّعي المفترون، مع أنّ أهل اليمن سوف يشكّلون الكثرة العدديّة في جيوش المجاهدين الفاتحين للبلاد الشّاميّة والمصريّة، وذلك في الوقت الّذي سيرفض فيه الخليفة الصّدّيق أبو بكر ﷺ الاستعانة بالمرتدّين في الغزو والفتوح.

🕮 أهم نتائج حروب الرّدّة:

* لقد ازداد المؤمنون إيمانًا مع إيمانهم بوقوع دلائل نبوّة رسول الله ﷺ في الرّدّة كما أخبرهم بذلك في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوۡمَةَ لَآئِمٖۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۝٥٤﴾[٣]، وكان هذا تأييدًا لإمامة أبي بكر الصّدّيق ﷺ، وأنّها حقٌّ وهدىً وصوابٌ ورشادٌ ودينٌ لله، وقد وصفه الله ومن معه بأنّهم يحبّون الله، وأنّ الله يحبُّهم، وأنّهم يخضعون ويذلّون للمؤمنين، وأنّهم يستعلون ويشتدّون على الكافرين، وأنّهم يجاهدون في سبيل الله، ولا يخافون أحدًا غير الله، ولا يهابون في الله مخلوقًا، وأنّ هذا فضلٌ من الله ساقه إليهم وخصّهم به، وهذه صفاتُ أعلى المؤمنين درجة عند الله، وهذا كافٍ في الرّدّ على الرّوافض الّذين يزعمون أنّ الصّحابة ارتدّوا بعد رسول الله ﷺ، وغيّروا وبدّلوا، ولو كان الأمر كما زعموا لأتى الله بمن يقهرُهم ويغلبُهم؛ لأنّه أخبر أنّ ذلك واقعٌ منهم وليس بعدهم، ولا من غيرهم[٤].

---

(١) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٢٤٨.

(٢) محمّد عبد العال محمّد حسن: مختلقات سيف بن عمر التّميميّ في تاريخ قومه (دراسة في المتون)، مجلّة كلّيّة اللّغة العربيّة بأسيوط، جامعة الأزهر، عدد ٣٨، ١٤٤٠هـ/٢٠١٩م، ج٢، ص١٨٢١، ١٨٢٢.

(٣) سورة المائدة: الآية ٥٤.

(٤) القاضي عبد الجبّار: تثبيت دلائل النّبوّة، ج٢، ص٤١٧، ٤١٨.

* تعرّف الأعراب على الدّين الصّحيح، وتيقّنوا بأنّه دين الله ﷻ الّذي لا يرتبط بحياة أيّ شخص سواء كان نبيًّا أو وليًّا.

* إعادة وحدة الدّولة الإسلاميّة، وتجريد البدو من سلاحهم في عهد الصّدّيق.

* أكسبت حروب الرّدّة المسلمين المزيد من الخبرات القتاليّة والمعرفة بجغرافيّة جزيرتهم(١).

* كانت حروب الرّدّة أوّل تدريب عسكريّ عمليّ على الأرض لكافّة المسلمين في الجزيرة العربيّة، على مستوى الجيوش الكبيرة والقيادات، ويمكن وصف هذه الحروب بمثابة جسر عبر المسلمون عليه إلى خارج الجزيرة بهدف الفتوح وإعلاء كلمة الله.

* كان لحروب الرّدّة قيمة فنيّة لا تقدّر، حيث أعطت المسلمين الثّقة بالنّفس، وبالنّظام الّذي اختاروه، وبالقدرة على الانتصار، في مواجهة قوى كبرى تتمتّع بقدرات ماديّة وكثرة عدديّة(٢).

---

(١) أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الرّاشدة، ص٤١٢.

(٢) محمّد سهيل طقوش: تاريخ الخلفاء الرّاشدين، دار النّفائس، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ص٩٠.

الفصل الخامس
فتوح العراق في عهد أبي بكر الصّدّيق

عندما تمكّن الخليفة أبو بكر الصّدّيق ﷺ من القضاء على حركة الرّدّة الّتي كادت أن تعصف بالدّولة الإسلاميّة إثر وفاة رسول الله ﷺ شرع في تعبئة الجيوش، لمواصلة حركة الجهاد الّتي بدأها النّبيّ ﷺ، وكانت الوجهة الإسلاميّة تتّجه إلى بلاد الشّام ومنازلة الرّوم، ولكنّ مناصرة الفرس المجوس للمرتدّين في بلاد البحرين ومطاردة المسلمين لهم سحبت الثّابتين على الإسلام في تلك النّواحي للاشتباك مع الفرس في أطراف بلاد العراق الجنوبيّة.

🕮 التّمهيد لفتح العراق:

كان الشّيبانيّون يقيمون في أطراف سواد العراق، فلمّا هُزمت جنودُ الفرس وجموعُ المرتدّين في البحرين، وتصدّي لهم المُثنّى بن حارثة الشّيبانيّ ﷺ، تعدّت الفرس على قومه المقيمين في سواد العراق، وآذتهم إيذاءً شديدًا[1]، لكن زعيمهم المُثنّى الّذي يتّصف بالشّجاعة والشّهامة[2]، لم يترك قومه عرضة لأذى الفرس، فجمع أصحابه، وجعل يغير على أطراف بلاد الفرس، بناحية الكوفة[3] وسوادها، ويهاجم حامياتها العسكريّة[4]، ويأخذ من الدَّهّاقين[5] ما يقدر عليه، ولم يستطع الفرس أن يضعوا حدًّا لغاراته؛ لأنّهم كانوا إذا خرجوا لتعقّبه يفرّ في الصّحراء، فلا يقدرون على اتّباعه[6].

---

(١) الواقدي: الرّدّة، ص٢١٦، ٢١٧؛ ابن أعثم: الفتوح، ج١، ص٧١.

(٢) ابن عبد البرّ: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ج٤، ص١٤٥٦.

(٣) هذه التّسمية باعتبار ما سيكون؛ لأنّ الكوفة مصّرت في عهد الخليفة عمر بن الخطّاب ﷺ، وإنّما يغيرون على الحيرة.

(٤) الواقدي: فتوح الإسلام لبلاد العجم وخراسان، مطبعة المحروسة، القاهرة، ١٣٠٩هـ/ ١٨٩١م، ص٣؛ ابن أعثم: الفتوح، ج١، ص٧٣.

(٥) الدّهقان: لفظ فارسيّ معرّب، يطلق على التّاجر، وزعيم فلاحي العجم، ورئيس الإقليم. الفيروزآبادي: القاموس المحيط، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، بدون تاريخ طبع، ص١٥٤٦.

(٦) الدّينوري: الأخبار الطّوال، ص١١١.

ولمّا وصلت أخبار غارات المثنّى بن حارثة والشّيبانيّين ووقائعهم بالفرس إلى المدينة النّبويّة، تساءل الخليفة أبو بكر[(١)] أو الفاروق عمر رضي الله عنهما[(٢)]: "مَنْ هَذَا الّذي تأْتِينَا وَقَائِعُهُ قَبْلَ مَعْرِفَةِ نَسَبِهِ؟ فأجابه قيس بن عاصم التّميميّ[(٣)] بقوله: "هَذَا رَجُلٌ غَيْرُ خَامِلِ الذِّكْرِ، وَلَا مَجْهُولُ النَّسَبِ، وَلَا قَلِيلُ الْعَدَدِ وَالْمَدَدِ، وَلَا ذَليلُ العِمَاد[(٤)]، هَذَا المُثنّى بْنُ حَارِثَةَ الشَّيْبَانِيُّ".

ولم يلبث المُثنّى رضي الله عنه طويلاً حتّى قدم على الخليفة أبي بكر رضي الله عنه، وطلب منه أن يؤمّره على من أسلم من قومه؛ ليقاتل بهم أهل فارس[(٥)]، ويكفيه أهل تلك النّاحية[(٦)]، فاستجاب له الصّدّيق رضي الله عنه، وأعطاه عهدًا بالإمارة على قومه، فرجع حتّى نزل خفّان[(٧)]، فنظّم أتباعه في كتائب متعدّدة، وجعل يقاتل الفرس من ناحية الحيرة وما يليها، ويغير على أطرافها، ويتوغّل في السّواد، فغنم من تلك النّواحي غنائم كثيرة[(٨)]، كما أكثر من الإغارة

---

(١) البلاذري فتوح البلدان، ص٢٦٣؛ ابن أعثم الكوفي: الفتوح، مج١، ٢ ص٧٣؛ ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصّحابة، ج٥ ص٥٥؛ ابن حجر: الإصابة في تمييز الصّحابة، ج٥ ص٧٦٦.

(٢) الأزدي: فتوح الشّام، طبعة كلكتا، الهند، ١٨٥٤م، ص٤٥؛ ابن عبد البرّ: الاستيعاب، ج٤ ص١٤٥٧؛ الكلاعي: الاكتفاء بما تضمّنه من مغازي رسول الله ﷺ والثّلاثة الخلفاء، ج٢، ص٣٧١. والرّاجح أنّ القول لعمر؛ لأنّ أبا بكر رضي الله عنه كان يعرف نسب المُثنّى، وأنّه شيخ قبيلة بني شيبان وصاحب حربهم، وذلك أنّه لقيهم في مكّة مع النّبيّ ﷺ في موسم الحجّ الّذي تعرّف فيه على الأنصار، ويبدو أنّ من نسب القول للصّدّيق اعتمد على أنّه خليفة المسلمين، وأنّه المَعْنيّ بهذه الأمور.

(٣) قيس بن عاصم التّميميّ: من أشراف تميم في الجاهليّة، وكان قد حرّم على نفسه الخمر، وقدم المدينة مع وفد بني تميم سنة ٩هـ/٦٣٠م، فأسلم، وقال النّبيّ ﷺ في حقّه: "هذا سيّد أهل الوبر"، وكان عاقلاً مشهورًا بالحلم، مات نحو سنة ٢٠هـ/٦٤١م. ابن عبد البرّ: الاستيعاب، ج٣، ص١٢٩٤؛ ابن حجر: الإصابة، ج٥، ص٤٨٣.

(٤) أي ليس بضعيف. الأزدي: فتوح الشّام، ص٤٥.

(٥) الأزدي: فتوح الشّام، ص٤٥؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٦٣؛ قدامة بن جعفر: الخراج وصناعة الكتابة، تحقيق/ محمّد حسين الزّبيديّ، دار الرّشيد، العراق، الطّبعة الأولى، بدون تاريخ طبع، ص٣٥٣.

(٦) الأزدي: فتوح الشّام، ص٤٥؛ الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٠٨.

(٧) خفّان: موضع قرب الكوفة، يقع في شمال القادسيّة. ياقوت: معجم البلدان، ج٢، ص٣٧٩.

(٨) الواقدي: الرّدّة، ص١٧؛ ابن أعثم: الفتوح، ج١، ص٧١؛ الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٠٨.



على مدينة فارسيّة من مدن السّواد تسمّى "دهشتاباذ أردشير" حتّى خرّبها، فلمّا قدم المسلمون إلى العراق سمّوها الخريبة(١).

ولم يكتف المُثنّى ﷺ بالغارات الّتي يقودها بنفسه، بل دعا ابن عمّ له يسمّى سُوَيْدَ بن قُطْبَةَ(٢) بن قتادة السَّدُوسِيّ الذُّهليّ، فجهّز له جيشًا، ووجّهه نحو الأُبُلّة - الميناء الرّئيسيّ للعراق على الخليج - فجعل يقاتل الفرس من تلك النّاحية(٣).

وظلّ المُثنّى ﷺ يقاتل الفرس، ويغير على سواد العراق عامًا كاملاً، أو نحوًا منه، فلمّا توغّل في الأراضي العراقيّة خشي من تكاثر الفرس، وتجمّعهم ضدّه، فبعث أخاه مسعود بن حارثة إلى الصّدّيق ﷺ ليوقفه على حقيقة الأمر على الجبهة الفارسيّة، ويسأله المدد(٤)، فأدرك الخليفة خطورة الموقف إذا اجتمع الفرس على المُثنّى ومن معه وهزموهم، أو أجلوهم عن الأراضي الّتي دخلوها، كما أيقن أنّ فتح هذه البلاد الّتي تسيطر عليها الإمبراطوريّة الفارسيّة لا يتمّ إلّا بقوّة كبيرة؛ لذلك كتب إلى سيف الله خالد بن الوليد الّذي فرغ من حروب الرّدّة يأمره بالتّحرّك إلى العراق، وولّاه إمارة المسلمين بتلك الجبهة لقتال الفرس(٥).

🕮 فتوح بلاد العراق:

أصدر الخليفة أبو بكر ﷺ أمره لقائده المظفّر خالد بن الوليد ﷺ بالتّحرّك إلى أرض العراق عقب انتهائه من حروب الرّدّة(٦)، وذلك بداية سنة ١٢هـ/٦٣٣م، وكتب إليه أن يأذن لمن شاء بالرّجوع، ولا يكره أحدًا على القتال معه، وأن يستنفر من قاتل أهل الرّدّة،

---

(١) ياقوت: معجم البلدان، جـ٤، ص٤٦١. والخريبة: تصغير خربة، وهي موضع بالبصرة، يقع على طرف البرّ منها. ياقوت: معجم البلدان، جـ٢، ص٣٦٣.

(٢) قائد هذه الغارات عند الطّبريّ هو قطبة بن قتادة السّدوسيّ وليس ولده. تاريخ الأمم والملوك، جـ٢، ص٣٠٧.

(٣) الواقدي: الرّدّة، ٢١٧؛ ابن أعثم: الفتوح، جـ١، ص٧١.

(٤) الأزدي: فتوح الشّام، ص٤٥، ٤٦.

(٥) الدّينوري: الأخبار الطوال، ص١١١؛ ابن أعثم: الفتوح، جـ١، ص٧٢.

(٦) الأزدي: فتوح الشّام، ص٤٦، ٤٧.

ومن ثبت على الإسلام بعد رسول الله ﷺ، ولا يأخذ معه أحدًا من المرتدّين حتّى يرى رأيه؛ ولذلك لم يشهد الفتوحات الإسلاميّة أحدٌ ممّن سبقت له الرّدّة خلال عهد الصّدّيق ﷺ[1].

ويزعم سيف التّميميّ أنّ الصّدّيق ﷺ أمّر عياض بن غَنْم ﷺ[2] على جيش آخر، ليفتح بلاد العراق من أعلاها في الوقت الّذي يأتيها خالدٌ ﷺ من أسفلها، ويكون أسبقُهما إلى الحيرة - قاعدة البلاد - هو الأمير عليها[3]. لكنّ سيفًا لم يتابع على هذا القول، وقد نقل ابن حجر أقوال أهل الأخبار في أعمال عياض، وليس فيها مزاعم سيف.

وقد تزامن تحرّك خالد بن الوليد ﷺ نحو العراق مع كتابة الصّدّيق ﷺ إلى المُثنّى بتأمير خالد على العراق، ومسيره إليه، ويأمره باستقباله بمن معه من قومه، وأن ينضمّ إليه، ويساعده، ويوازره، ولا يخالف رأيه ما أقام معه، فإن غادر العراق، فالمُثنّى على ما كان عليه من الإمارة[4]، فسار خالد ﷺ إلى أرض العراق حتّى نزل النِّبَاج[5]، وكان المُثنّى ﷺ معسكرًا بخَفَّان في انتظاره، فكتب إليه خالد ليأتيه، فأسرع إليه من فوره[6].

وزعم الدّينوريّ (ت: ٢٨٢هـ/٨٩٥م)[7] أنّ المُثنّى ﷺ كره ورود خالد عليه؛ لأنّه ظنّ أنّ الخليفة أبا بكر ﷺ سيولّيه الأمر، وتابعه عليها بعض المُحدَثين[8].

---

(١) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٠٩.

(٢) هو عياض بن غنم بن زهير الفهريّ القرشيّ، أسلم قبل الحديبية وشهدها، وفتح الجزيرة الفراتيّة وصالحه أهلها، وكان بالشّام مع أبي عبيدة بن الجرّاح ﷺ، فلما تُوفّي استخلفه على حمص فأقره عمر، ومات سنة ٢٠هـ/٦٤١م. ابن الأثير: أسد الغابة، ج٤، ص٣١٥؛ ابن حجر: الإصابة، ج٤، ص٧٥٧.

(٣) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٠٩.

(٤) الأزدي: فتوح الشّام، ص٥١؛ ابن أعثم: الفتوح، مج ١، ٢، ص٧٦.

(٥) النِّباج: موضع بين البصرة واليمامة، يبعد عن البصرة ١٧٧ كم. ياقوت: معجم البلدان، ج٥، ص٢٥٥.

(٦) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٠٨.

(٧) الأخبار الطّوال، ص١١٢.

(٨) جواد علي: المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ج٢، ص٢٢٣؛ أغا إبراهيم أكرم: خالد بن الوليد، تعريب/ إسماعيل كشميري، المجلس الأعلى للشّئون الإسلاميّة، القاهرة، ١٣٩٣هـ/١٩٨٤م، ص٢٠٦؛ هشام جعيط: الكوفة: نشأة المدينة العربيّة الإسلاميّة، مؤسسة الكويت للتّقدّم العلميّ، الكويت، الطّبعة الأولى، ١٩٨٦م، ص٣٠.



وهذا غير صحيح؛ لأنّ تصرّف المُثنّى ﷺ قولاً وفعلاً لا يشير من قريب أو بعيد إلى ذلك؛ فعندما وصلته رسالة الصّدّيق ﷺ قام من فوره، وجمع إليه رجاله، وقال لهم: "لقد كرّمنا الصّدّيق غاية التّكريم، كما بشّرنا بمجيء خالد"[١]، ثمّ سار المثنّى ﷺ مسرعًا لا يلوي على شيء حتّى لقيه بالنِّباج[٢]، بل تصف رواية الطّبريّ[٣] سرعة استجابته لخالد بأنّه: "انقضّ إليه جوادًا حتّى لحق به"، ممّا يدلّ على شدّة فرح المُثنّى الشّيبانيّ ﷺ بقدوم خالد عليه؛ لأنّ المرء لا يسير في سرعة الجواد إلى من يكرهه.

وقد دفع هذا الموقف أحد المستشرقين[٤] إلى أن يعترف للمثنّى ﷺ بإخلاصه البعيد عن الأثرة والأنانيّة للقضيّة الّتي يحارب من أجلها، بالإضافة إلى شخصيّته العسكريّة البارزة، وبراعته في الحروب.

ولمّا التقى القائدان العظيمان - خالدٌ والمثنّى - تبادلا التّقدير والاحترام، ونعت سيفُ الله خالدٌ المُثنّى الشّيبانيَّ "بفارس العرب وخليل كلّ مسلم"، فعندها لم يبق من الصّحابة ﷺ رجلٌ إلّا سلّم على المُثنّى، وعظّم من حقّه[٥].

وهذا يدلّ على تقدير المسلمين جميعًا لفارس بني شيبان الّذي تجرّأ على غزو الفرس قبلهم، وشجّعهم على فتح بلاد العراق، والتّخلّص من الأكاسرة وطغيانهم.

وبانضمام المُثنّى وقوّاته إلى خالد بن الوليد في معسكره بالنِّباج بلغ عدد الجيش الإسلاميّ نحو ثمانيةَ عشرَ ألفًا، وذلك أنّه قدم من اليمامة بألفين، وانضمّ إليه ثمانية آلاف في طريقه، بين اليمامة والعراق، فقدم في عشرة آلاف، بالإضافة إلى ثمانية آلاف كانوا تحت قيادة المُثنّى الشّيبانيّ[٦].

---

(١) ابن أعثم: الفتوح، مج ١، ٢، ص٧٦.

(٢) الأزدي: فتوح الشّام، ص٥١.

(٣) تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٠٨. من رواية سيف.

(٤) جون باجوت جلوب: الفتوحات العربيّة الكبرى، تعريب/ خيري حمّاد، الدّار القوميّة، القاهرة، ١٩٦٣م، ص٢٥٩.

(٥) الأزدي: فتوح الشّام، ص٥١.

(٦) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٠٩. من رواية سيف بن عمر.

وقد بدأ سيف الله خالد بن الوليد ﷺ مهمّته على أرض العراق بدعوة أهل فارس إلى الإسلام، فكتب إليهم: "بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ إِلَى رُسْتُمَ وَمِهْرَانَ وَمَلَأِ فَارِسَ، سَلَامٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى، فَإِنِّي أَحْمَدُ إِلَيْكُمُ اللَّهَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، أَمَّا بَعْدُ، فَإِنِّي أَعْرِضُ عَلَيْكُمُ الْإِسْلَامَ، فَإِنْ أَقْرَرْتُمْ بِهِ فَلَكُمْ مَا لِأَهْلِ الْإِسْلَامِ، وَعَلَيْكُمْ مَا عَلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ، وَإِنْ أَبَيْتُمْ فَإِنِّي أَعْرِضُ عَلَيْكُمُ الْجِزْيَةَ، فَإِنْ أَقْرَرْتُمْ بِالْجِزْيَةِ فَلَكُمْ مَا لِأَهْلِ الْجِزْيَةِ، وَعَلَيْكُمْ مَا عَلَى أَهْلِ الْجِزْيَةِ، وَإِنْ أَبَيْتُمْ، فَإِنَّ عِنْدِي رِجَالًا يُحِبُّونَ الْقِتَالَ كَمَا تُحِبُّ فَارِسُ الْخَمْرَ"(١).

🕮 موقعة كاظمة وفتح الأُبُلّة:

سار خالد بن الوليد ﷺ نحو العراق في المحرّم سنة ١٢هـ/٦٣٣م، وكان قطبة بن قتادة السّدوسيّ يُغير على نواحي الأُبُلّة في جند من قومه فحمل عليهم خالدٌ ﷺ في خيله فأخبروه أنّهم مسلمون فتركهم، فساروا معه نحو الأبُلّة(٢).

وكان الأعاجم قد جمعوا لابن قتادة السّدوسيّ وعزموا على ملاقاته، فلمّا علموا بمجيء خالد ﷺ نكصوا عنه، وهابوه، فأظهر خالدٌ الرّحيل عن الأبلّة نهارًا إلى ناحية الكوفة، ثمّ عاد في ظلمة اللّيل فانضمّ إلى ابن قتادة وجنده، وسارع الأعاجم بالهجوم عند الصّباح، ولكنّهم رأوا عدّة عظيمة، فهابوا المسلمين(٣).

وكان القائد الفارسيّ "هُرْمُز" يحكم الأُبُلّة من قبل الفرس، ولم يكن أحدٌ أعدى للعرب منه، حتّى ضربوا به المثل فقالوا: "أكفر من هرمز"(٤)، وقد التقى المسلمين بجمع

---

(١) ابن أبي شيبة: المصنّف في الأحاديث والآثار، ج٦، ص٥٤٨، ح٣٣٧٣٣؛ الطّبراني: المعجم الكبير، ج٤، ص١٠٥، ح٣٨٠٦. وقال الهيثميّ: "رواه الطّبرانيّ، وإسناده حسن أو صحيح". مجمع الزّوائد ومنبع الفوائد، ج٥، ص٣١٠، ح٩٥٩٥.

(٢) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١١٧؛ الطّبراني: المعجم الكبير، ج١٩، ص٢٠. وقال الهيثميّ: "رواه الطّبرانيّ في الكبير، وفي إسناده رجل مجهول". مجمع الزّوائد ومنبع الفوائد، ج١، ص٢٧. وكذلك رواية خليفة بن خياط فيها مجهول.

(٣) الأزدي: فتوح الشّام، ص٤٩، ٥٠.

(٤) الطّبراني: المعجم الكبير، ج٤، ص١٠٤، ٢١٣. وإسناد الطّبرانيّ ضعيف.



عظيم في كاظمة (بالكويت حاليًا)، لكن نهاية المعركة كانت في بدايتها؛ وذلك عندما تمكّن خالدٌ ﷺ من قتل هرمز عن طريق المبارزة[1].

وكانت المعارك الحربيّة في صدر الإسلام تبدأ بالمبارزات غالبًا؛ لإظهار المهارة الفرديّة، والقوّة البدنيّة، وتقوية قلوب الأتباع، وتشجيع الأبطال على التّباري في إظهار قوّتهم أمام أعدائهم.

وتضيف رواية الإخباريّ سيف التّميميّ أنّ القائد الفارسيّ طلب مبارزة خالد بن الوليد ﷺ وهو يضمر اغتياله بمجموعة من الفرسان، إلّا أنّ خالدًا ذبحه كما يذبح الكبش بعدما حمى القعقاع بن عمرو التّميميّ[2] ظهره، فانهزم الفرس عند رؤيتهم لهذا المشهد

---

(١) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٠٩. ورواية سيف تجعل "هرمز" طالبًا للمبارزة، لكن رواية المحدّثين تخالف رواية سيف حيث تجعل خالدًا ﷺ هو الّذي يدعو إلى المبارزة، وليس العكس. الطّبراني: المعجم الكبير، ج٤، ص١٠٤، ح٣٨٠٣؛ الحاكم: المستدرك، ج٣، ص٣٣٨، ح٥٢٩٨. وسكت عنه الحاكم والذّهبي. وعلّق الهيثميّ بقوله: "رواه الطّبرانيّ، وفيه من لم أعرفه". مجمع الزّوائد، ج٥، ص٣٣١، ٣٣٢، ح٩٧٠١.

(٢) يرى مرتضى العسكريّ الشّيعيّ العراقيّ ومتابعه حسن فرحان المالكيّ أنّ القعقاع بن عمرو التّميميّ شخصيّة أسطوريّة من خيال سيف بن عمر التّميميّ وليس له أساس في الحقيقة، وكذلك عاصم بن عمرو التّميميّ، بل إنّ العسكريّ يتّهم سيفًا باختلاق أكثرَ من مائة وخمسين صحابيًا. (مرتضى العسكريّ: خمسون ومائة صحابيّ مختلق، دار الزهراء، بيروت، الطّبعة السّادسة، ١٤١٢هـ/١٩٩١م، ج١، ص٩١؛ حسن فرحان المالكي: نحو إنقاذ التّاريخ الإسلامي، قراءة نقدية لنماذج من الأعمال والدّراسات الجامعيّة، مركز الدّراسات التّاريخيّة، عمّان، الأردنّ، الطّبعة الثّالثة، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ص٧٣، ٧٤). والحقّ أنّ القعقاع شخصيّة حقيقية، لكنّه ليس صحابيًا كما ذكر سيف، وإنّما هو تابعيّ، وله ذكر في المصادر الموثوقة. (ابن أبي الدّنيا: مكارم الأخلاق، تحقيق/ مجدي السّيّد إبراهيم، مكتبة القرآن، القاهرة، ص١٠٩؛ ابن أبي شيبة: جزء فيه مسائل أبي جعفر محمد بن عثمان بن أبي شيبة عن شيوخه، تحقيق/ عامر حسن صبري، دار البشائر الإسلاميّة، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، ص١٢٥؛ والكلاعي من طريق المدائني. الاكتفاء بما تضمّنه من مغازي رسول الله ﷺ والثّلاثة الخلفاء، ج٢، ص٤٧٧). لكن لا خلاف عند المحقّقين في مبالغات سيف الشّديدة في أخبار القعقاع خاصّة وبني تميم عامّة. ينظر: محمّد عبد العال محمّد حسن: مختلقات سيف بن عمر التّميميّ في تاريخ قومه، مجلّة كلّيّة اللّغة العربيّة بأسيوط، جامعة الأزهر، العدد ٣٨، ج٢، ص١٨٠٨- ١٨١٠.

الرّهيب الرّعيب، وفرّوا هاربين، فتبعهم المسلمون[1]، وحملوا على الأعاجم فهزموهم هزيمة قبيحة، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وغرق من الفرس بشر كثير[2].

وأمر خالد ﷺ بجمع ما خلّفه الفرس، فكانت فيه كميّات كبيرة من السّلاسل الّتي اقترن الفرس بها قبل المعركة، فسمّيت لذلك ذات السّلاسل[3].

ويظهر من رواية الإخباريّ سيف التّميميّ لهذه الموقعة أنّه يرفع قعقاعه التّميميّ على خالد بن الوليد ﷺ درجات عالية، حيث ينسب له بطولة خارقة عندما أنام مجموعة من أبطال الفرس المنتخبين بدفعة واحدة، وذلك في الوقت الّذي لم يقتل فيه خالدٌ ﷺ إلّا رجلاً واحدًا فقط، كما جعل القعقاع أكثر عبقريّة في التّكتيك الحربيّ من سيف الله المسلول خالد بن الوليد ﷺ[4].

وكان سيفُ التّميميّ قد هيّأ السّامع لقبول تلك البطولة الخارقة لابن عمّه القعقاع التّميميّ، فزعم أنّ الصّدّيق ﷺ كان يعلم الغيب، وأنّه لمّا وجّه خالدًا ﷺ إلى العراق طلب منه المدد فأمدّه بالقعقاع وحده، وكتب إليه: "لَا يُهْزَمُ جَيْشٌ فِيهِ مِثْلُ هَذَا"[5].

ولا ندري بأيّ الطّرق أو الوسائل أعلم سيفُ الصّدّيقَ ﷺ بمثل هذا الخبر الّذي لا يتأتّى إلّا من دلائل النّبوّة![6].

ويذكر الحافظ ابن حجر أنّ أهل الأخبار يخالفون سيفًا في توقيت إمداد خالدٍ بالقعقاع، فيذكرون أنّ خالدًا استمدّ أبا بكر ﷺ لمّا حاصر الحيرة، فأمدّه بالقعقاع[7]، ممّا يدلّ على اختراع سيف لتلك الرّواية المزعومة.

---

(١) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٠٩، ٣١٠.

(٢) الأزدي: فتوح الشّام، ص٥٠.

(٣) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣١٠.

(٤) محمّد عبد العال محمّد حسن: مختلقات سيف بن عمر التّميميّ في تاريخ قومه، مجلّة كلّيّة اللّغة العربيّة بأسيوط، العدد ٣٨، ج٢، ص١٨٣١.

(٥) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٠٩.

(٦) محمّد عبد العال محمّد حسن: سيف بن عمر التّميمي ومرويّاته في ميزان النّقد الموضوعيّ، مؤتمر "التّاريخ بين التّصحيح والتّحريف"، كلّيّة اللّغة العربيّة بأسيوط، ٢٠١٩م، ج١، ص٤٨٧.

(٧) الإصابة في تمييز الصّحابة، ج٥، ص٣٤٣، ٣٤٤.

ولمّا انتهت الوقعة وبلغ الصّدّيق ﷺ قتلُ خالد هرمزَ عن طريق المبارزة نفّل سيفَ الله سَلَب هرمز، فبلغت قَلَنْسُوَتُهُ مائة ألف درهم[١].

ولم يزد سيفٌ شيئًا على رواية غيره في شأن تنفيل الصّدّيق خالدًا ﷺ قلنسوة هرمز، وبلوغ قيمتها مائة ألف[٢]، ولكنّه نقّل صاحبه من المجموعة الّتي أنامها على حدّ زعمه، وساق خبرًا أظهر فيه حسدَ سيف الله خالد بن الوليد ﷺ للقعقاع، فروى عن زياد بن حنظلة التّميميّ[٣] أنّه أتى المدينة عقب مقتل هرمز، فأرسل إليه الصّدّيق ﷺ فقال له: "أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الشَّأْنِ ذَيْت وذَيْت[٤]، وأنّ خالدًا لقي هرمز فاستلحم، وأنّ القعقاع استلحم فقتلهم وتنفّل؟"[٥]، وزاد سيفٌ أنّ أبا بكر ﷺ قال له: "أَيْنَ أَنْتَ يَا زِيَادُ؟ أَمَا إِنَّ خَالِدًا سَيَتَغَيَّرُ لَهُ وَيَتَنَكَّرُ، ثُمَّ يُرَاجِعُ وَيَعْرِفُ الحَقَّ، فَاسْتَنْكَرَهُ القَعْقَاعُ بَعْدَ ذَلِكَ، وَوَقَعَ بَيْنَهُمَا مَا يَقَعُ بَيْنَ النَّاسِ"[٦].

وكلّ هذا خبثٌ ومكرٌ واختلاق نسجه خيال الرّاوية الكذوب سيف بن عمر التّميميّ الّذي انفرد بذكر هذا الخبر، وليس ببعيد على "متّهم بالزّندقة وقلّة الدّين"[٧] أن يفتري هذا الخبر وأمثاله.

ولمّا عزم خالدٌ ﷺ على مغادرة الأبلّة والتّحرّك لمواصلة فتح سواد العراق استخلف عليها قطبة بن قتادة السّدوسيّ[٨].

---

(١) الطّبراني: المعجم الكبير، ج٤، ص٢١٤، ح٤١٦٨؛ البيهقي: السّنن الكبرى، ج٦، ص٣١١.

(٢) الكلاعي: الاكتفاء بما تضمّنه من مغازي رسول الله ﷺ والثّلاثة الخلفاء، ج٢، ص٣٧٥.

(٣) يدرج مرتضى العسكريّ زياد بن حنظلة التّميميّ في أسماء الصّحابة المختلقين. خمسون ومائة صحابيّ مختلق، ج١، ص٢٧١.

(٤) ذيت وذيت: بمعني كيت وكيت، كناية عن الخبر. ابن منظور: لسان العرب، ج٤، ص٥٢٣.

(٥) الكلاعي: الاكتفاء بما تضمّنه من مغازي رسول الله ﷺ والثّلاثة الخلفاء، ج٢، ص٣٧٦.

(٦) الاكتفاء، ج٢، ص٣٧٦.

(٧) روى ابن حبّان اتّهامه بالوضع والزّندقة عن الإمام النّاقد محمّد بن عبد الله بن نمير الكوفيّ، وهو من شيوخ الإمام أحمد ويحي بن معين. ينظر ابن حبّان: المجروحين من المحَدّثين والضّعفاء والمتروكين، تحقيق/ محمود إبراهيم زايد، دار الوعي، حلب، الطّبعة الأولى، ١٣٩٦ﻫ/١٩٧٦م، ج١، ص٣٤٥.

(٨) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١١٨.

📖 موقعة الولَجة:

يذكر الطّبريّ موقعتي "الثّنيّ"، و"الوَلَجة"[(١)]، ضمن المعارك الّتي خاضها خالد ﷺ في طريقه لفتح الحيرة سنة ١٢هـ/٦٣٣م، وشهدها معه عاصم بن عمرو التّميميّ - أخو القعقاع - في قومه بني تميم، ويجزم مرتضى العسكريّ بأنّهما ممّا تفرّد به سيف التّميميّ، ليزيد في مآثر خالد بن الوليد والعدنانيّة عمومًا[(٢)].

وقد تسرّع العسكريّ في حكمه، فعلى الرّغم من عدم وجود ذكر للثّنيّ والولجة من غير طريق سيف، إلّا أنّ بعض الأسماء الّتي أنكرها لها ذكرٌ في أحداث لاحقة عليها، فإذا كان قائد موقعة الولجة هو "الأَنْدَرْ زَغْر" الّذي هام على وجهه فمات عطشًا بعد هزيمة جيشه أمام خالد بن الوليد، كما في رواية سيف[(٣)]، فإنّنا نجد ابن الأندر زغر يصالح المسلمين في بداية عهد عمر ﷺ على نفس المناطق الّتي قاتلهم عليها أبوه من قبل، وذلك من طرق موثوقة في الفتوح[(٤)].

وذكر سيفٌ أنّ خالدًا ﷺ بارز رجلاً فارسيًّا يومئذ، وكان الفارسيّ يعدل ألف رجل فقتله خالد، فلمّا فرغ اتّكأ عليه، ودعا بغدائه[(٥)].

وقد تندّر العسكريّ الشّيعيّ بهذا الخبر، وزعم أنّه من مخترعات سيف الّتي تفرّد بها، وأنّه ممّا يعجب الأسطوريّين - محبّي الأساطير - والمنقبيّين الرّاغبين في تكثير مناقب السّلف الصّالح[(٦)].

والحقّ أنّ للرّواية طريقًا آخرَ غير الإخباريّ سيف التّميميّ؛ فقد ذكر الإمام المجتهد أبو يوسف القاضي (ت: ١٨٢هـ/٧٩٨م) في موضع وقعة الولجة وزمانها أنّ سيف الله

---

(١) الولجة: تلي كسكر من ناحية البرّ جنوب العراق. ياقوت: معجم البلدان، ج٥، ص٣٨٣.

(٢) خمسون ومائة صحابيّ مختلق، ج١، ص١٠٤، ١٠٥.

(٣) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣١٢.

(٤) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٢٤؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٤٧، ٢٤٨؛ الكلاعي: الاكتفاء بما تضمّنه من مغازي رسول الله ﷺ والثّلاثة الخلفاء، ج٢، ص٤٠٦.

(٥) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣١٣.

(٦) خمسون ومائة صحابيّ مختلق، ج١، ص١٠٥.

خالد بن الوليد ﷺ نزل على حصن حصين بالنّجف فيه مقاتلةٌ للفرس، فحاصرهم وافتتح الحصن، واستنزل المقاتلة، فضرب عنق رئيسهم، واتّكأ على جيفته، ودعا بطعامه، فلمّا فرغ من طعامه ضرب أعناقهم، وسبى نساءهم وذراريَهم، وأخذ ما في الحصن من المتاع والسّلاح والدّوابّ[١].

وأمّا المكذوب المختلق في رواية الإخباريّ سيف التّميميّ لوقعة الولجة فهو إدراجه لنصارى قبائل بكر بن وائل الرّبعيّة مع جيش الفرس، وزعمه أنّ خالد بن الوليد ﷺ أوقع بهم يومئذ[٢]، والصّحيح الثّابت أنّ الولجة كانت مع مقاتلة الفرس الأعاجم فقط، ولم يكن فيها أحدٌ من عرب العراق كما في رواية الإمام أبي يوسف.

🕮 موقعة أُلّيْس والرّدّ على افتراءات سيف التّميميّ:

واصل خالد بن الوليد ﷺ فتوحاته فمرّ بزَنْدَوَرْد[٣] فافتتحها، وأمّن أهلها، وأتى هُرْمُزْجَرْد[٤] فافتتحها، وأمّن أهلها، وصالحوه، ثمّ توجه إلى ناحية أُلَّيْس[٥]، فخرج له القائد جابان - أحد عظماء الفرس - فبعث إليه المُثنّى بن حارثة الشّيبانيّ ﷺ، فقاتله فهزمه بعد قتال شديد على جانب نهر، وقَتَلَ من أصحابه "العجم" مقتلة عظيمة، وقد سمّي ذلك النّهر

---

(١) الخراج، تحقيق/ طه عبد الرّءوف سعد، وسعد حسن محمّد، المكتبة الأزهريّة للتّراث، القاهرة، بدون تاريخ طبع، ص١٥٦.

(٢) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣١٣.

(٣) زندورد: مدينة عراقية كانت قرب واسط مما يلي البصرة، خربت بعمارة واسط. ياقوت: معجم البلدان، ج٣، ص١٥٤.

(٤) هرمزجرد: ناحية، كانت بأطراف العراق، غزاها المسلمون أيام الفتوح في عهد الصّدّيق. ياقوت: معجم البلدان، ج٥، ص٤٠٢.

(٥) أُلّيْس: ذكر ياقوت أنّه لفظ مصغّر بوزن فليس، وقيل بوزن سكيت، وهي قرية من قرى الأنبار، على صلب نهر الفرات، (غربي بغداد بنحو ٥٥كم)، وضبطه البكريّ بضمّ أوّله وتشديد ثانيه، وأكّد صفيّ الدّين بن عبد الحقّ على تشديد لامه. الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣١٣؛ ياقوت: معجم البلدان، ج١، ص٢٤٨؛ البكري: معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، عالم الكتب، بيروت، الطّبعة الثّالثة، ١٤٠٣هـ، ج١، ص١٨٩؛ ابن عبد الحقّ: مراصد الاطّلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، دار الجيل، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤١٢هـ، ج١، ص١١٣.

"نهر الدّم"[١]، وجاء خالدٌ عقب المعركة فصالح أهل أُلّيس "العرب" على أن يكونوا عيونًا للمسلمين على الفرس وأدلّاء وأعوانًا[٢].

وقد زعم سيفُ الكذوب أنّ الفرس والعرب جمعوا لخالد ﷺ بقيادة جابان الفارسيّ، وقاتلوا المسلمين قتالاً شديدًا، حتّى غضب خالد وقال: "اللّهمّ إنّ لك عليّ إن منحتنا أكتافهم ألّا أستبقيَ منهم أحدًا قدَرْنا عليه حتّى أُجريَ نهرهم بدمائهم"! فلمّا انهزموا نادى خالد جنده: "الأسرَ الأسرَ! لا تقتلوا إلّا من امتنع"، فظلّ الفرسان يطلبون المنهزمين ثلاثة أيّام ويقبلون بهم يساقون سوْقًا حتّى تضرب أعناقُهم في النّهر، وأضاف سيفُ الكذّاب أنّ خالدًا ﷺ ظلّ يمارس هذا التّصرّف الطّائش حتّى أتاه البطل المنقذ القعقاع بن عمرو التّميميّ وقال له: "لو أنّك قتلت أهل الأرض لم تجْر دماؤهم"، وعلّمه كيف يبرّ يمينه بقوله: "أرسل عليها الماء تبرّ يمينُك، وقد كان صدّ الماء عن النّهر فأعاده، فجرى دمًا عبيطًا فسُمّي نهرَ الدّم لذلك الشّأن إلى اليوم"[٣].

ونظرًا لتصديق جموع المؤرّخين وهواة الكتابة في التّاريخ قديمًا[٤] وحديثًا[٥]، لهذه الخرافة الغريبة، وإشاعتهم لها، واتّهام بعض متعصّبة النّصارى المعاصرين لخالد ﷺ بأنّه السّلفُ والمرجعُ للحركات المتشدّدة الّتي تنتسب للإسلام وتقتل نصارى العرب المسالمين في بلاد الشّام والعراق وغيرهما فإنّنا بحاجة إلى وقفة مع كلّ جزئيّة من أخبار وقعة ألّيس، وذلك في الآتي:

---

(١) الأزدي: فتوح الشّام، ص٥٣، ٥٤. ورواه الطّبريّ من طريق أبي مخنف. تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٠٨. وكان هذا النّهر المذكور يسمّى في زمان الأزدي بذلك الاسم "نهر الدّم".

(٢) ابن سعد: الطّبقات الكبير، ج٩، ص٤٠٠؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٦٤؛ قدامة بن جعفر: الخراج وصناعة الكتابة، ص٣٥٤.

(٣) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣١٣، ٣١٤.

(٤) ابن الجوزي: المنتظم في أخبار الملوك والأمم، دار الكتب العلميّة، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، ج٤، ص١٠٣؛ ابن الأثير: الكامل في التّاريخ، ج٢، ص٢٣٧، ٢٣٨؛ ابن كثير: البداية والنّهاية، ج٦، ص٣٨١؛ ابن خلدون: العبر، ج٢، ص٥٠٩.

(٥) محمّد رضا: أبو بكر الصديق أوّل الخلفاء، دار الكتاب العربي، الطّبعة الأولى، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م، ص٦٦؛ محمّد سهيل طقوش: تاريخ الخلفاء الرّاشدين، ص١٣٦.

أوّلاً: زعم الأخباريّ سيف بن عمر التّميميّ الكذوب أنّ نصارى بكر بن وائل غضبوا لإخوانهم الّذين أوقع بهم خالد بن الوليد ﷺ في الوَلَجَة، ولذلك كاتبوا الفرس، وكاتبتهم الفرس، فاجتمع على خالد نصارى العرب، من بني عجل، وتيم اللّات، وضبيعة، وعرب الضّاحية من أهل الحيرة(١).

وقد سبق القول بأنّ معركة الولجة كانت بين جيش المسلمين وجيش الفرس المجوس، ولم يكن فيها أحدٌ من النّصارى(٢).

ثانياً: كذَب سيفٌ في تسميته للقبائل النّصرانيّة الّتي أجمعت لحرب المسلمين في تلك المعركة؛ لأنّ بني عجل بزعامة شيخهم مذعور بن عديّ العجليّ كانوا ينافسون المثنّى بن حارثة ﷺ في الجهاد في سبيل الله(٣).

وذكر سيفٌ نفسُه مذعور بن عديّ العجليّ في الصّحابة، ونصّ على أنّ خالدًا ﷺ وجّهه أمامه لقيادة قومه "بني عجل" للجهاد والفتوح في العراق فور انتهائه من اليمامة(٤).

كما أنّ قبيلة بني تيم اللّات بن ثعلبة هم أصهار المثنّى بن حارثة الشّيبانيّ ﷺ(٥)، وقد أسلموا قبل بدء فتوح العراق(٦)، ورافقوا المثنّى(٧)، ولم يخالفوه في شيء حتّى توفّاه الله، بل ظلّوا على الوفاء للقيادة الشّيبانيّة بعد وفاته(٨).

---

(١) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣١٣.

(٢) أبو يوسف: الخراج، ص١٥٦.

(٣) البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٤٠؛ الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٠٨.

(٤) ابن حجر: الإصابة في تمييز الصّحابة، ج٦، ص٥١.

(٥) ابن أبي شيبة: المصنّف، ج٦، ص٥٥٠؛ البلاذري: الفتوح، ص٢٧٩؛ الطّبري التّاريخ، ج٢، ص٤١٣.

(٦) أنتوني نتنج البريطاني: العرب انتصاراتهم وأمجاد الإسلام، ترجمة/ راشد البرّاويّ، مكتبة الأنجلو المصريّة، ١٩٧٤م، ص٥٤؛ نبيل لوقا بباوي: انتشار الإسلام بحدّ السّيف بين الحقيقة والافتراء، دار بباوي للنّشر، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص١٢٠.

(٧) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٦٣، الكلاعي: الاكتفاء، ج٢، ص٤٠٥.

(٨) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٤٢٤؛ الكلاعي: الاكتفاء، ج٢، ص٤٧٧؛ محمّد عبد العال محمّد حسن: بنو شيبان ودورهم السّياسيّ والحضاريّ في العراق والجزيرة الفراتيّة خلال القرون الثّلاثة الأولى من الهجرة، رسالة دكتوراه، كلّيّة اللّغة العربيّة بأسيوط، جامعة الأزهر، ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م، ص٦٢.

وكان بنو ضبيعة حلفاء لبني عمّهم ذُهْل بن ثعلبة(١) الّذين كانوا يغيرون على الفرس في نواحي البصرة قبل مسير خالد بن الوليد ﷺ لفتح العراق(٢)، ولو ذُبح رجالُ ضبيعة لما كانت لهم خُطّة كبيرة في مدينة الكوفة الإسلاميّة، كما ذكر سيف نفسه(٣).

ولم يكن بين نصارى الحيرة وبين خالد ﷺ ثأرٌ قديمٌ قطّ، بل كان ظهور المسلمين أحبّ إليهم من الفرس عبدة النّيران، ولذلك نرى خالدًا ﷺ يمشي في شوارع الحيرة بعد فتحها ومصالحة أهلها دون درع(٤)، ولو كان له ثأرٌ معهم ما فعل ذلك.

وهذا الّذي ذكرتُه قد أكّده المستشرق النّصرانيّ أنتوني نتنج البريطانيّ (ت: ١٩٩٩م)، فذكر أنّ قبائل بكر بن وائل النّصرانيّة دخلت في الإسلام قبل وصول خالد بن الوليد إلى العراق، وقال: "فبرغم أنّ فريقًا من بكر بن وائل كان قد تنصّر، إلّا أنّهم كانوا في حالة من التّمرّد السّافر على الفرس منذ إلغاء الأسرة الحاكمة اللّخميّة في العراق، فسارعوا الآن إلى الدّخول في دين الغزاة"(٥).

وقد سبقه المستشرق الهولنديّ النّصرانيّ المتعصّب فان فلوتن (ت: ١٩٠٣م) فذكر "أنّ أهل سورية ومصر، الّذين أثقل الرّومان كاهلهم بالضّرائب الفادحة قبل الفتح العربيّ لم يقاوموا الفاتحين من العرب مقاومة تذكر، وكذلك كان الحال في سواد العراق"(٦).

ثالثاً: يتّفق أهل الأخبار جميعًا على القول بغياب خالد بن الوليد ﷺ عن هذه المعركة(٧)، ولم يخالفهم في ذلك إلّا سيف الكذوب المتّهم بالوضع والزّندقة.

---

(١) البغدادي: خِزانة الأدب، دار الكتب العلميّة، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٩٩٨م، ج٧، ص٢٨٠.

(٢) الواقدي: الرّدّة، ٢١٧؛ ابن أعثم: الفتوح، ج١، ص٧١.

(٣) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٤٨١.

(٤) الأزدي: فتوح الشّام، ص٥٥، ٥٦.

(٥) أنتوني نتنج: العرب انتصاراتهم وأمجاد الإسلام، ص٥٤.

(٦) فان فلوتن: السّيادة العربيّة والشّيعة والإسرائيليّات في عهد بني أميّة، ترجمة/ حسن إبراهيم حسن، محمّد زكي إبراهيم، مطبعة السّعادة، القاهرة، الطّبعة الأولى، ١٣٥٢هـ/١٩٣٤م، ص٣.

(٧) الأزدي: فتوح الشّام، ص٥٣، ٥٤؛ ابن سعد: الطّبقات الكبير، ج٩، ص٤٠٠؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٦٤؛ الطّبري من طريق أبي مخنف. تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٠٨؛ قدامة بن جعفر: الخراج وصناعة الكتابة، ص٣٥٤.

رابعاً: أنّ القعقاع بن عمرو التّميميّ - الّذي أراد سيفُ أن يجعل منه حكيمًا عبقريًّا ينقذ خالدًا من تصرّفاته الطّائشة الهوجاء - لم يشهد المعركة أصلاً؛ وجميع أهل الأخبار متّفقون على أنّ أوّل مشاهد القعقاع في العراق فتح الحيرة، ولم يشهد شيئًا قبلها(١).

وقد اعتاد سيفُ الكذوب على اختلاق الأخبار الّتي ترفع مكانة ابن عمّه القعقاع، وتحطّ من قدر سيف الله خالد ﷺ.

خامساً: لقد انفرد سيف بن عمر التّميميّ الكذوب بذكر قصّة إبادة الأسرى المزعومة، وليس سيفُ بالحجّة إذا خالف أهل العلم، كما قرّره الحافظ أبو بكر الخطيب البغداديّ (ت: ٤٦٣هـ/١٠٧٢م)(٢)، و"يعلم كلّ لبيب أنّ المتأخّرين من أهل الحديث عيالٌ على أبي بكر الخطيب"(٣).

سادساً: أنّ النّاظر في أعداد القتلى الّتي ذكرها سيف التّميميّ الخبيث يراها لا تتناسب مع طبيعة العمران في بلاد العراق آنذاك؛ ولو افترضنا جدلاً أنّ القبائل الأربعة الّتي سمّاها سيفُ قد شاركت في المعركة فإنّها لا تستطيع جمع خمسة آلاف على أكثر تقدير، وقد كانت قوّة بني شيبان الّتي هزمت الفرس في موقعة ذي قار الشّهيرة وهاجمتهم في فتوح الإسلام لا تتعدّى الألف مقاتل!(٤)، أو يزيدون قليلاً(٥)، ويشتهر في الأخبار وأيّام العرب أنّ شيبان كانت أكثر عددًا وأقوى شوكة من أمثال قبيلة عجل، وتيم اللّات، وضبيعة، وعرب ضواحي الحيرة، ثمّ إنّ دولة الفرس العظيمة الّتي حكمت شطر الدّنيا آنذاك كانت تواجه المسلمين قبل القادسيّة بالعشرة آلاف والاثني عشر ألفًا، فهل يعقل أنّ يجمع الأعراب هذه الآلاف المؤلّفة حتّى يقتل خالدٌ من الأسرى فقط سبعين ألفًا! كما أنتج ذلك خيال سيف التّميميّ.

---

(١) ابن حجر: الإصابة في تمييز الصّحابة، جـ٥، ص٣٤٣، ٣٤٤.

(٢) الخطيب البغدادي: مُوَضِّح أوهام الجمع والتّفريق، جـ١، ص٢٦٣.

(٣) ابن نقطة: إكمال الإكمال لابن ماكولا، تحقيق/ عبد القيّوم عبد ربّ النّبيّ، جامعة أمّ القرى، مكّة المكرّمة، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م، جـ١، ص١٠٣.

(٤) ابن حبيب: المحبّر، ص٢٥٠، ٣٠٤.

(٥) القاضي عبد الجبّار: تثبيت دلائل النّبوّة، جـ٢، ص٥٠٢؛ البيهقي: دلائل النّبوّة، جـ٢، ص٤٢٤؛ السّهيلي: الرّوض الأنف، جـ٤، ص٣٦؛ ابن كثير: البداية والنّهاية، جـ٣، ص١٧٥.

سابعاً: لقد لقّب النّبيّ ﷺ خالدًا ﷺ بلقب "سيف الله"[1]، تشريفًا له، ومن المحال أن يصف الوحي بهذا اللّقب رجلاً طائشًا سفّاكًا للدّماء بتلك الصّورة الوحشيّة الغريبة![2].

ثامناً: لقد حلّق سيفُ الكذوب بخياله بعيدًا وهو يحكي أخبار وقعة أُلّيس حتّى قال: "كانت على النّهر أرحاءُ، فطحنت بالماء - وهو أحمر - قوتَ العسكر، ثمانيةَ عشرَ ألفًا، أو يزيدون، ثلاثة أيّام"[3].

ويدرك عوام القرّاء - ناهيك عن المثقّفين - أنّ النّهير المتفرّع من الفرات والّذي جرت عليه موقعة أُلّيس بين المسلمين والفرس يستحيل عقلاً أن تقام عليه الأرحاء العظيمة وأن تكون مياهه من السّرعة وقوّة الاندفاع الّتي تحرّك الأرحاء فتطحن تلك الكمّيّات العظيمة!

ولا أدري كيف انطلت هذه الخرافة الشّنيعة على رائد علم الاجتماع المؤرّخ العلّامة ابن خلدون (ت: ٨٠٦هـ/١٤٠٦م) الّذي ذكر ضمن أسباب شيوع الكذب في الأخبار "الجهل بطبائع الأحوال في العمران؛ فإنّ كلّ حادث من الحوادث ذاتًا كان أو فعلاً لا بدّ له من طبيعة تخصّه في ذاته وفيما يعرض له من أحواله، فإذا كان السّامع عارفًا بطبائع الحوادث والأحوال في الوجود ومقتضياتها أعانه ذلك في تمحيص الخبر على تمييز الصّدق من الكذب، وهذا أبلغ في التّمحيص من كلّ وجه يعرض"[4]. وقد قدّم ابن خلدون هذا السّبب على غيره!

تاسعاً: روى إمام المغازي محمّد بن إسحاق عن التّابعيّ المحدّث الثّقة الفقيه صالح بن كَيْسان المدنيّ (ت: ١٤٠هـ/٧٥٧م) أنّ خالد بن الوليد ﷺ لمّا سار إلى العراق "نزل بقرْياتٍ من السّواد، يقال لها: بَانِقْيَا، وَبَارُوسْمَا، وأُلّيْسَ، فصالحه أهلُها، وكان الّذي صالحه عليها ابنُ صَلُوبَا، وذلك في سنةِ اثنتيْ عشَرَةَ، فقبل منهم خالد الجزية"[5].

---

(١) أحمد بن حنبل: المسند، ج١، ص٢١٦، ح٤٣. وصحّحه محقّقو المسند بشواهده.

(٢) محمّد عبد العال محمّد حسن: مختلقات سيف بن عمر التّميميّ في تاريخ قومه، مجلّة كلّيّة اللّغة العربيّة بأسيوط، العدد ٣٨، ج٢، ص١٨٣٧.

(٣) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣١٤.

(٤) العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج١، ص٤٧.

(٥) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٠٧.

وإذا ثبت فتحُ أُلّيس صلحًا دلّ ذلك على مسالمة أهلها للمسلمين وعدم محاربتهم لهم، وإلّا عدّت في الأراضي المفتوحة عنوة.

عاشراً: لم يسمّ النّهيرُ الّذي جرت عليه المعركة بنهر الدّم لأجل ما سال عليه من دماء أسرى نصارى عرب العراق، وإنّما سمّي بذلك لما سال عليه من دماء المقاتلة من المسلمين والفرس الأعاجم على السّواء(١)، وليس للنّصارى ولا لأهالي البلاد المفتوحة شأن بذلك، بل كانت قلوبهم، ومعونتهم مع المسلمين في مواقع كثيرة.

وقد أجاد مرتضى العسكريّ الشّيعيّ هاهنا - على الرّغم من هدفه السّيئ - في كشف أكاذيب سيف حول تضخيم أعداد القتلى في المعارك الإسلاميّة، وإتاحته لغير المسلمين التّقوّل بأنّ "الإسلام انتشر بحدّ السّيف، وإراقة الدّماء لا بمساعدة الشّعوب على حكّامهم كما هو الواقع"(٢).

ويغفر الله لأستاذنا الدّكتور عبد الرّازق الطّنطاويّ القرموط، فقد صحّح رواية الإخباريّ سيف التّميميّ، ظنًّا منه أنّها لثقات المؤرّخين كالطّبريّ وغيره، وطفق يدافع عن صنيع خالد المزعوم ويصوّب رأيه، كما راح يقارن بين سيف الله ومجرمي الحرب الأوربّيّين في العصر الحديث(٣).

والحقّ أنّ خالدًا ﷺ براءٌ من أكاذيب سيف التّميميّ المتّهم بالوضع والزّندقة.

وقد شوّه سيفٌ بأكاذيبه صورة الفتوحات الإسلاميّة الرّائعة الّتي حرّرت الشّعوب المغلوبة من المستعبدين ونشرت دين الله في أرضه، وأتاح لغير المسلمين التّقوّل بأنّ الإسلام انتشر بحَدّ السّيف، وإراقة الدّماء، والأعمال الوحشيّة(٤).

ومن أعجب العجب أن ينتصر الدّكتور الطّبيب المثقّف/ راغب السّرجانيّ للرّواية السّيفيّة الموضوعة في معركة أُلّيس ويأبى الرّجوع إلى الحقّ بعد تنبيهه مرارًا من متابعيه!

---

(١) الأزدي: فتوح الشّام، ص٥٣، ٥٤؛ الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٠٨. من رواية أبي مخنف.

(٢) خمسون ومائة صحابيّ مختلق، ج١، ص١٠٤.

(٣) في تاريخ الخلفاء الرّاشدين، دار الكتب المصريّة، القاهرة، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م، ج١، ص١١٩- ١٢١.

(٤) محمّد عبد العال محمّد حسن: مختلقات سيف بن عمر التّميميّ في تاريخ قومه، مجلّة كلّيّة اللّغة العربيّة بأسيوط، العدد ٣٨، ج٢، ص١٨٣٦.

حقيقة أمر أمغيشيا:

ذكر سيفُ الكذوب أنّ خالد بن الوليد ﷺ توجّه بعد وقعة أُلّيس إلى أَمْغِيشيَا، ولكنّه وجد أهلها قد جلوْا عنها، وتفرّقوا في السّواد، فما كان منه إلّا أنْ أمر بهدمها، وهدم كلّ شيء كان في حيّزها، على الرّغم من كونها مصرًا كبيرًا كالحيرة(١).

وليس لأمغيشيا المتخيّلة ذكرٌ في المصادر من غير طريق سيف المتّهم بالوضع والزّندقة، ولذا فلا شكّ أنّها من مختلقاته، وقد أثبت سيفٌ بأكاذيبه فظاظة للجيوش الإسلاميّة دوّنت في كتب التّاريخ، "والجيوش الإسلاميّة براءٌ من ذلك، ولم يصدر منها نظير ذلك في عصر الفتوحات الأولى البتّة"(٢).

وإنّ سيفًا الكذوب ليتحمّل المسئوليّة كاملة في اختلاق أعداد القتلى الهائلة الّتي انفرد بها في سائر فتوح العراق، والّتي زاد فيها على غيره أكثر من مليون قتيل(٣)، ليظهر قوّة بني تميم، ويفخر بهم على غيرهم من قبائل العرب.

وينبغي على هُواة التّاريخ(٤) أن ينتهوا عن استخلاص العبر والدّروس والمواعظ من أمثال هذه الرّوايات الموضوعات والمختلقات التّميميّات، ونحوها من الأباطيل والأسمار؛ فإنّ تاريخنا الإسلاميّ المجيد بعيد كلّ البعد عن هذه الخرافات.

فتح الحيرة (عاصمة العراق):

تابع خالدٌ ﷺ سيره نحو الحيرة حتّى بلغ مجتمع الأنهار فاستقبله صاحب مسالح كسرى فيما بينه وبين العرب، فقاتلهم قتالاً شديدًا، وخرج عليه "الأزاذبة" حاكم الحيرة، فوجه إليه المُثنّى بن حارثة الشّيبانيّ، فالتقاه وأصحابه، وصمدوا يقاتلون المُثنّى، ولكنّهم

---

(١) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣١٥.

(٢) مرتضى العسكري: خمسون ومائة صحابيّ مختلق، ج١، ص٢٢.

(٣) مرتضى العسكري: عبد الله بن سبأ وأساطير أخرى، دار الزّهراء، بيروت، الطّبعة الخامسة، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ج٢، ص٩٦، ٩٧.

(٤) عبد العزيز عبد الله الحميدي: التّاريخ الإسلامي مواقف وعبر، ج٩، ص١٤٠- ١٤٤؛ أحمد عادل كمال: الطّريق إلى المدائن، الشّركة الدّوليّة للطّباعة، القاهرة، ٢٠٠٤م، ص١٨٧- ١٩٣؛ علي محمّد محمّد الصّلّابي: أبو بكر الصّدّيق، ص٢٩٩- ٣٠١.



فرّوا منهزمين بمجرّد رؤيتهم لخالد وجنوده(١)، وانسحب "الأزاذبة" تاركاً إقليم الحيرة يواجه مصيره، خاصة بعد أن علم بمقتل الملك الفارسيّ "أردشير"، ولكنّ أهل الحيرة كانوا قد تحصّنوا في حصونهم الأربعة الّتي تعرف بالقصور(٢)، فأمر خالد بن الوليد ﷺ بمحاصرتهم، وعيّن لكلّ حصن قائدًا لفتحه(٣).

دعا المثنّى الشّيبانيّ وبقيّةُ القادة أهلَ الحيرة إلى الإسلام أو الجزية أو الحرب، وأجّلوهم يومًا للاختيار، فأبى أهل الحيرة، واستماتوا في الدّفاع عن مدينتهم، فناوشهم المسلمون(٤)، وأجالوا خيولهم في عرصاتهم(٥)، فافتتحوا الدّور والأديرة، فألحّ القسّيسون والرّهبان على أهل القصور في الاستجابة لنداء المسلمين، فوافقوهم، ونزل وفدٌ من أشراف أهل الحيرة لمفاوضة خالد ﷺ، فصالحهم على أداء الجزية(٦)، فكانت أوّل جزية حملت من أرض المشرق، وأوّل مال قدم به من المشرق على أبي بكر الصّدّيق ﷺ(٧).

وكتب سيف الله خالد ﷺ لأهل الحيرة: "صالحناكم على ألّا تبغونا غائلة، وأن تكونوا لنا عونًا على أهل فارس، فأقرّوا بذلك، وفعلوا، وكان ظهورُ المسلمين أحبَّ إليهم من الفرس"(٨).

وبموجب الصّلح الّذي تمّ بين خالد ﷺ وأشراف الحيرة، ودفعهم للجزية، دخلت الحيرة تحت سلطان المسلمين، وذلك في ربيع الأوّل سنة ١٢هـ/ مايو٦٣٣م(٩)، فاتّخذها خالدٌ

---

(١) الأزدي: فتوح الشّام، ص٥٤.

(٢) تسمّى حصون الحيرة قصورًا؛ لأنّه كان في كل حصن قصر كبير. الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣١٥.

(٣) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣١٥.

(٤) تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣١٦.

(٥) البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٦٦.

(٦) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣١٧، ٣١٨. وقد نقل الكلاعي مصالحة خالد لأهل الحيرة من طريق ابن إسحاق وابن الكلبيّ وغيرهما. الاكتفاء، ج٢، ص٣٨٦.

(٧) أبو يوسف: الخراج، ص١٥٨. وينظر ابن سعد: الطّبقات الكبير، ج٩، ص٤٠٠.

(٨) الأزدي: فتوح الشّام، ص٥٥.

(٩) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣١٥.

قاعدة له[١]، وقام بنشر العدل في أرجائها، وأمّن أهل الذّمّة وخالطهم، حتّى كان ينزل بينهم دون سلاح، وحدّث شاهد عيان: أنّه "رأى خالد بن الوليد وهو بالحيرة آمنًا ما يخاف واحدًا، وهو متوشّح ثوبًا قد شدّ طرفيه في عنقه"[٢].

وكان خالدٌ ﷺ غاية في العدل مع رعيّته؛ فكان يقول: "لَا تَرْزَأْ مُعَاهِدًا إِبْرَةً فَمَا فَوْقَهَا"[٣]، ولمّا تناول أبو عبيدة بن الجرّاح ﷺ رجلاً من أهل الأرض بشيء فنهاه خالد ﷺ، فقيل له: "أَغْضَبْتَ الْأَمِيرَ، فَأَتَاهُ فَقَالَ: إِنِّي لَمْ أُرِدْ أَنْ أُغْضِبَكَ، وَلَكِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: "إِنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا لِلنَّاسِ فِي الدُّنْيَا"[٤].

ولهذا لم يأخذ المسلمون أهل العراق والفلّاحين بجرائم الفرس، فقد أرسل سيفُ الله خالدٌ ﷺ وهو بالحيرة بشير بن سعد أبا النّعمان بن بشير الأنصاريّ ﷺ في نحو مائتين من الجند لمصالحة أهل بَانِقْيَا[٥]، فوافق ذلك نزول جيش من الفرس على أرضهم بقيادة "فرّخبنداذ بن هرمز"، فالتقى الفرسُ المسلمينَ ورشقوهم بالنُّشّاب، وحمل عليهم المسلمون فقتلوا قائدهم فرّخبنداذ، ولكنّ الجراحات فشتْ في المسلمين لقلّة عددهم، وأصيب قائدُهم بشير بن سعد بنُشّابة فرجعوا إلى خالد وأخبروه الخبر، ومات بشير ﷺ من جراحته بعد ذلك، فأرسل خالدٌ ﷺ جيشًا من ألف رجل لمعاقبة أهل بانقيا، ولكنّ رئيسهم بُصْبُهرى بن صلوبا خرج إلى المسلمين فاعتذر إليهم من ذلك القتال، وأخبرهم أنّ الفرس نزلوا أرضه وقُراه على كره منه، وعرض عليهم الصّلح، فقبلوا عذره وصالحوه[٦].

---

(١) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٢١.

(٢) الأزدي: فتوح الشّام، ص٥٦.

(٣) القاسم بن سلّام: الأموال، ص١٩٨.

(٤) أحمد بن حنبل: المسند، ج٢٨، ص٢٠، ح١٦٨١٩؛ الطّبراني: المعجم الكبير، ج٤، ص١٩٥، ح٤١٢١. وقال الهيثميّ: "رواه أحمد والطّبرانيّ، ورجاله رجال الصّحيح، خلا خالد بن حكيم، وهو ثقة". مجمع الزّوائد، ج٥، ص٢٣٤، ح٩١٨٧. وقال البوصيري: "رواه أبو داود الطّيالسيّ والحميدي وأبو بكر بن أبي شيبة وأحمد بن حنبل بسند واحدٍ رواته ثقاتٌ". إتحاف الخيرة المهرة، ج٨، ص١٧٥، ح٧٧٢٣.

(٥) بانقيا: ناحية من نواحي الكوفة. ياقوت: معجم البلدان، ج١، ص٣٣١.

(٦) الأزدي: فتوح الشّام، ص٥٦؛ ابن سعد: الطّبقات الكبير، ج٦، ص٢٩٦؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٦٦.

وسيكون لسياسة خالد بن الوليد ﷺ ورجاله في التّسامح مع أهل البلاد المفتوحة ومعاملتهم بالعدل، وتنقية بلادهم من الظّلم، ونشر أخلاق الإسلام بينهم أثرٌ كبير في دخولهم في دين الله أفواجًا، وكرههم للمحتلّ الفارسيّ الغاشم الّذي كان يحتقرهم ويتعالى عليهم ويسومهم سوء العذاب، وإنّ "هرمز" الّذي ضربوا به المثل في الكفر والخبث مثالٌ واضح على ذلك.

📖 **خبر شرب خالد بن الوليد السُّمّ بالحيرة**:

لقد أظهر الله ﷻ كرامة لوليّه خالد بن الوليد ﷺ عند فتح الحيرة[1]، فرُوي أنّ ناسًا من أهل الحيرة حذّروا خالدًا ﷺ من القتل غيلة عن طريق السّمّ، "فَقَالُوا لَهُ: احْذَرِ السُّمَّ لَا يَسْقِيَكَهُ الْأَعَاجِمُ، فَقَالَ: إِيتُونِي بِهِ، فَأُتِيَ مِنْهُ بِشَيْءٍ، فَأَخَذَهُ بِيَدِهِ، ثُمَّ اقْتَحَمَهُ، وَقَالَ: بِسْمِ اللَّهِ، فَلَمْ يَضُرَّهُ شَيْئًا"[2].

وقد ثبت عن التّابعيّ قيس بن أبي حازم أنّه قال: "رَأَيْتُ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ أُتِيَ بِسُمٍّ، فَقَالَ: مَا هَذَا؟ قَالُوا: سُمٌّ، فَقَالَ: بِسْمِ اللهِ، وازْدَرَدَهُ"[3].

وقد علّق الحافظ الذّهبيّ (ت: ٧٤٨هـ/١٤٤٨م) على صنيع سيّدنا خالد ﷺ فقال: "هذه - والله - الكرامة، وهذه الشّجاعة"[4].

---

(١) اللّالكائي: كرامات الأولياء، (من كتاب شرح أصول اعتقاد أهل السُّنّة والجماعة للالكائي)، تحقيق/ أحمد سعد حمدان الغامدي، دار طيبة، السّعودية، الطّبعة الثّامنة، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م، ج٩، ص٥٢، ح٩٤؛ ابن حجر: فتح الباري، ج١٠، ص٢٤٨.

(٢) ابن سعد: الطّبقات الكبير، ج٥، ص٤٠؛ ابن أبي شيبة: المصنّف في الأحاديث والآثار، ج٦، ص٥٤٨، ح٣٣٧٣٠؛ أحمد بن حنبل: فضائل الصّحابة، ج٢، ص٨١٥، ح١٤٧٨؛ أبو يعلى: المسند، ج١٣، ص١٤١، ح٧١٨٦؛ البغوي: معجم الصّحابة، ج٢، ص٢٢٦. وعلّق الهيثميّ على هذا الأثر بقوله: "رواه أبو يعلى، والطّبرانيّ بنحوه، وأحد إسنادي الطّبرانيّ رجاله رجال الصّحيح، وهو متّصل، ورجالهما ثقات، إلّا أنّ أبا السّفر وأبا بردة بن أبي موسى لم يسمعا من خالد". مجمع الزّوائد، ج٩، ص٣٥٠، ح١٥٨٨٤.

(٣) أحمد بن حنبل: فضائل الصّحابة، ج٢، ص٨١٦، ح١٤٨٢؛ الطّبراني: المعجم الكبير، ج٤، ص١٠٦، ح٣٨٠٩. وهذا الأثر صحيح الإسناد.

(٤) سير أعلام النّبلاء، تحقيق/ شعيب الأرناؤوط، وآخرين، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، الطّبعة الثّالثة، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ج١، ص٣٧٦.

وكان خالد ﷺ مجابَ الدّعوة، وصحّ أنّه "أُتِيَ بِرَجُلٍ مَعَهُ زِقُّ خَمْرٍ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ اجْعَلْهُ عَسَلاً، فَصَارَ عَسَلاً"[1]. وفي رواية أنّ خالدًا قال للرّجل: "جَعَلَهُ اللَّهُ خَلاًّ"، فصار خلاًّ[2].

ولذا فإنّ قصْر ابن تيمية (ت: ٧٢٨هـ/١٣٢٨م) لفضائل خالد بن الوليد ﷺ على القتال فقط، وجزمه بأنّه "لَمْ يَتَقَدَّمْ بِسَابِقَةٍ، وَلَا كَثْرَةِ عِلْمٍ، وَلَا عَظِيمِ زُهْدٍ، وَإِنَّمَا تَقَدَّمَ بِالْقِتَالِ"[3]، ليس صوابًا من جميع جوانبه، فأيّ يقين بالله مثلُ هذا، وأيّ زهدٍ أعظم من بيعهِ نفسَه لله، وتعرّضه للقتل والشّهادة في كلّ مغازيه، وحبسِه سلاحَه وأعتادَه في سبيل الله؟ وعندما طالبه بعض الصّحابة بزكاة أمواله قال فيه النّبيّ ﷺ: "فَإِنَّكُمْ تَظْلِمُونَ خَالِدًا، قَدِ احْتَبَسَ أَدْرَاعَهُ وَأَعْتُدَهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ"[4].

🕮 فتح الأنبار:

سار سيف الله خالدٌ ﷺ بعد فتح الحيرة إلى مدينة الأنبار[5]، فتحصّن منه الفرس داخل أسوارها بقيادة "شيرزاد" صاحب ساباط[6]، ومعهم أعراب يدينون بالمجوسيّة مثلهم[7]، فضرب عليهم خالد ﷺ الحصار، وأتاه عندئذ من دلّه على سوق بغداد العتيق،

---

(١) ابن أبي الدّنيا: مجابو الدّعوة، تحقيق/ زياد حمدان، مؤسّسة الكتب الثّقافيّة، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، ص٤٩، ح٥٣؛ اللّالكائي: كرامات الأولياء، ج٩، ص١٥٢، ١٥٣، ح٩٥. وصحّح ابن حجر إسناد الأثر. الإصابة في تمييز الصّحابة، ج٢، ص٢١٨.

(٢) اللّالكائي: كرامات الأولياء، ج٩، ص١٥٣، ح٩٧. وصحّح الذّهبيّ وابن حجر إسناد الأثر. تاريخ الإسلام، تحقيق/ عمر عبد السّلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطّبعة الثّانية، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، ج٢٧، ص٦١؛ الإصابة، ج٢، ص٢١٨.

(٣) ابن تيمية: منهاج السُّنّة، ج٤، ص٤٨٠.

(٤) البخاري: الصّحيح، (كتاب الزكاة، باب قوله تعالى: ﴿وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، ج٢، ص٥٣٤، ح١٣٩٩؛ مسلم: الصّحيح، (كتاب الزكاة، باب في تقديم الزكاة ومنعها)، ج٢، ص٦٧٦، ح٩٨٣.

(٥) الأنبار: مدينة على الفرات تبعد عن بغداد عشرة فراسخ ناحية الغرب، (حوالي ٦٨ كم). والأنابير بالفارسيّة الأهراء، وسمّيت بذلك؛ لأنّ أهراء الملك كانت فيها، ومنها كان يرزق رجاله. البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٦٨؛ ياقوت: معجم البلدان، ج١، ص٢٥٧.

(٦) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٢٣.

(٧) ابن كثير: البداية والنّهاية، ج٦، ص٣٨٤.



فأرسل المثنّى ﷺ في كتيبة من الفرسان للإغارة عليها، {وضرب اقتصاد العدوّ الفارسيّ}، فأسرع المثنّى إلى السّوق وانقضّ عليها بخيّالته، فملئوا أيديهم من الذّهب والفضّة وما خفّ حمله من المتاع، ثمّ عادوا مسرعين إلى خالد وهو يحاصر الأنبار، فشدّدوا عليها الحصار وحرّقوا في نواحيها، فرضخ المحاصَرون عندئذ للمسلمين[1]، وصالحوا خالدًا ﷺ[2].

وقد زعم سيفُ التّميميّ أنّ خالد بن الوليد ﷺ قدم الأنبار على مقدّمة الجيش، "فأطاف بالخندق، وأنشب القتال، وكان قليل الصّبر عنه إذا رآه أو سمع به، وتقدّم إلى رماته، فأوصاهم وقال: إنّي أرى أقوامًا لا علم لهم بالحرب، فارموا عيونهم ولا تَوَخّوا غيرها، فرموا رشقًا واحدًا، ففقئت ألفُ عين يومئذ، فسمّيت تلك الوقعة ذاتَ العيون، وتصايح القوم: ذهبت عيون أهل الأنبار، فراسل شيرزاد خالدًا في الصّلح على أمر لم يرضه خالدٌ، فردّ رسله، وأتى خالدٌ أضيق مكان في الخندق فنحر رذايا[3] الجيش، ثمّ رمى فيه فأفعمه، ثمّ اقتحموا الخندق، والرّذايا جسورهم، فاجتمع المسلمون والمشركون في الخندق، وأرَزَ القوم إلى حصنهم، وراسل شيرزاد في الصّلح على مراد خالد، فقبل منه خالد على أن يخلّيه ويلحقه بمأمنه في جريدة خيل، ليس معهم من المتاع والمال شيء"[4].

ويساورني الشّكّ كثيرًا فيما ذكره سيفٌ هاهنا؛ لانفراده به، وخلوّ مصادر تاريخ الإسلام من الإشارة إليه من قريب أو بعيد مع أهمّيّته، وعدم ذكر أهل الأخبار لاسم "ذات العيون"، في معارك الإسلام من غير طريق سيف! ومع كثرة العُميان والعُوران الّذين خلّفتهم الوقعة، وقدّرهم سيفٌ بألف رجل، فلا يوجد في المصادر إشارة واحدة إلى رجل أصيبت عينه في فتح الأنبار! كما تخلو كتب الفقه من ذكر هذه الوقعة مع كثرة الإبل الّتي نُحرت في مكايدة العدوّ، وتناول الفقهاء لما هو دون ذلك بكثير.

---

(١) البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٦٧، ٢٦٨.

(٢) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١١٨؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٦٨.

(٣) رذايا الجيش: الإبل الضّعاف الهزيلة، أو الّتي أثقلها المرض. ابن منظور: لسان العرب، ج١٤، ص٣٢٠.

(٤) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٢٣؛ ابن الجوزي: المنتظم، ج٤، ص١٠٦؛ ابن الأثير: الكامل، ج٢، ص٢٤١، ٢٤٢؛ الكلاعي: الاكتفاء، ج٢، ص٤٩٠؛ ابن كثير: البداية والنّهاية، ج٦، ص٣٨٤؛ ابن خلدون: العبر، ج٢، ص٥١١. كلّهم من طريق سيف.

فتح عين التّمر:

توجّه خالد ﷺ بعد مصالحته أهل الأنبار إلى عين التّمر[١]، وبها مهران بن بهرام جوبين الفارسيّ في جمع عظيم من العجم[٢]، وقائدٌ من العرب[٣]، يقال له هلال بن عقبة النّمِريّ[٤]، قد حشد قبائل النَّمِر وتغْلِب وإياد ومن حالفهم[٥]، فدعاهم خالدٌ ﷺ إلى الإسلام فأبوا عليه، وأصرّوا على صدّه ومقاتلته[٦].

وقد طلب زعيم قبائل العرب يومئذ من مهران الفارسيّ أن يدعه وقتال خالد، معلّلاً ذلك بأنّ "العرب أعلم بقتال العرب"، فتركه مهران، واتّقى به قتال المسلمين قائلاً: "دونكم وإيّاهم، وإن احتجتم إلينا أعنَّاكم"، فلام العجمُ أميرهم على تقديم حليفه العربيّ، فصرّح لهم بأنّ انتصاره إنّما هو لأسياده الفرس، وإلّا فسيُضعف قوّة قومه، ويبقى الفرس أقوياء، فاعترفوا له بفضل الرّأي عليهم، ولمّا تواجه العرب والعرب انقضّ خالدٌ على النّمريّ العربيّ فأخذه أسيرًا، فانهزم جيشه دون قتال، وأكثر المسلمون فيهم الأسر، وبلغت مهرانَ هزيمةُ حلفائه ومسيرُ خالد إلى حصن عين التّمر، فهرب منه وتركه، فاقتحمته فلول العرب والعجم، واعتصموا به[٧].

وقصد خالدٌ حصن عين التّمر فحاصره وقاتل المتحصّنين قتالاً شديدًا فأظفره الله عليهم[٨]، وأجبرهم على النّزول، وأمر بقتل العميل العربيّ أمامهم، ثمّ ألحق به المقاتلة[٩].

---

(١) عين التّمر: بلدة على طرف البرّيّة، قريبة من الأنبار غربي الكوفة، مشهورة بكثرة تمرها. ياقوت: معجم البلدان، ج٤، ص١٧٦.

(٢) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٢٤.

(٣) أبو يوسف: الخراج، ص١٥٩.

(٤) البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٧٠.

(٥) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٢٤.

(٦) ابن سعد: الطّبقات الكبير، ج٩، ص٤٠٠.

(٧) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٢٤.

(٨) ابن سعد: الطّبقات الكبير، ج٩، ص٤٠٠.

(٩) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٢٤. وينظر البلاذري، فقد ذكر أنّ الحصن فتح عنوة أيضًا. فتوح البلدان، ص٢٦٨.



وقد سبى خالد بن الوليد ﷺ نساء المقاتلة وذراريّهم يومئذ، وبعث بهم إلى أبي بكر الصّدّيق ﷺ(١)، فكانوا أوّل ما سُبيّ بالعراق(٢)، وكان منهم: يسار جدّ محمّد بن إسحاق إمام السّير والمغازي(٣)، وسيرين والد التّابعيّ المحدّث محمّد بن سيرين(٤)، وحُمران بن أبان مولى عثمان بن عفّان ﷺ(٥).

وأخذ سيف الله خالد ﷺ يوم عين التّمر ما في الحصن من المتاع والسّلاح والدّواب، ثمّ خرّب الحصن، وفرض الجزية على أهل عين التّمر(٦).

🕮 فتح دُومة الجندل:

كان الصّدّيق ﷺ يتابع أخبار الفتوح، حتّى كأنّه يشهدها مع المجاهدين في جبهات القتال، ولذا نراه يكتب إلى خالد ﷺ وهو بعين التّمر يأمره بالمسير إلى دومة(٧) الجندل، والقضاء على ملكها أكيدر بن عبد الملك(٨)، فيتحرّك سيف الله المسلول بجنده مسرعًا من عين التّمر إلى أكيدر، فيقتله، ويفتح دومة(٩)، ويقال إنّ خالدًا ﷺ خرج لفتح دومة من

---

(١) ابن سعد: الطّبقات الكبير، ج٩، ص٤٠٠.

(٢) الأزدي: فتوح الشّام، ص٦٠.

(٣) ابن سعد: الطّبقات الكبير، ج٧، ص٥٥٢.

(٤) الطّبقات الكبير، ج٩، ص١٢٠.

(٥) الطّبقات الكبير، ج٩، ص١٤٩.

(٦) أبو يوسف: الخراج، ص١٥٩.

(٧) دومة: هي دومة الجندل، قرية من الجوف شمال السّعودية، تقع شمال تيماء على مسافة ٤٥٠ كيلو مترًا، وفي دومة ثلاث لغات، بضمّ الدّال، وفتحها، ودوماء بالمد. ياقوت: معجم البلدان، ج٢، ص٤٨٧؛ ابن الجوزي: كشف المشكِل من حديث الصّحيحين، ج١، ص١٨٩؛ محمّد محمّد حسن شُرّاب: المعالم الأثيرة في السُّنّة والسّيرة، ص١١٧.

(٨) كان خالد بن الوليد ﷺ قد أسر أكيدر دومة الجندل في غزوة تبوك، وأتى به إلى رسول الله ﷺ فمنّ عليه، وكتب له كتاب عهد، ولكنّه خان العهد بعد ذلك. ابن هشام: السّيرة النّبويّة، ج٢، ص٥٢٦. وقد حكى بعضهم إسلام أكيدر دومة، لكن المحفوظ غيره. ابن الجوزي: كشف المشكل من حديث الصّحيحين، ج١، ص١٨٨.

(٩) البلاذري: فتوح البلدان، ص٨٧. من رواية عوانة بن الحكم.

الحيرة، وذلك في طريقه إلى الشّام لإنجاد جيوش المسلمين بأمر الصّدّيق(١)، والصّحيح أنّه توجّه إليها من عين التّمر(٢).

وقد زعم سيفٌ أنّ الصّدّيق ﷺ كلّف عياض بن غنم الفهريّ القرشيّ ﷺ بفتح العراق من أعلاها (النّاحية الشّماليّة) في الوقت الّذي كلّف فيه خالد بن الوليد ﷺ بفتح العراق من أسفلها (النّاحية الجنوبيّة)، وادّعى سيفٌ أنّ عياضًا لم يستطع فتح شيء، حتّى أنجده خالدٌ ﷺ بعد فتح الحيرة، فقتل أكيدر وفتح دومة(٣).

والحقّ أنّ عياض بن غنم ﷺ لم يشهد شيئًا من فتوح العراق في عهد أبي بكر الصّدّيق ﷺ، وإنّما كان مع المسلمين في بلاد الشّام، وليس له ذكر في العراق إلّا أنّه جاء في ألف رجل لإمداد المسلمين عقب القادسيّة بأمر من الفاروق عمر ﷺ، وشهد عياض وجنده عبور دجلة وفتح المدائن(٤).

ولسنا بحاجة إلى استخلاص العبر والدّروس من ثبات عياض ﷺ وصبره في موقعة حربيّة لم يشهدها، ولم يكن له أيّ دور فيها(٥)، وفي الصّحيح غُنْيةٌ عن الأساطير.

🕮 حقيقة وقعة الفِراض وحجّة خالد بن الوليد من شمال العراق:

زعم سيفٌ أنّ خالدًا ﷺ لما بسط راية الإسلام على العراق، وأخضع قبائل العرب قصد تُخوم الشّام والعراق والجزيرة الّتي يقال لها الفِرَاض، وغدا مجاورًا للرّوم، فاشتدّ غيظهم من جراءة خالد، واستعانوا بمن يليهم من مسالح الفرس، كما استمدّوا العرب من تَغْلِبَ وإيادٍ والنَّمِر فأمدّوهم، وأسرع الحلفاء الثّلاثة إلى مهاجمة المسلمين منتصف ذي

---

(١) يورد البلاذري هذه الرّواية من طريق محمّد بن عمر الواقديّ. فتوح البلدان، ص٨٧.

(٢) هذا رأي البلاذريّ. فتوح البلدان، ص٢٧٢.

(٣) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٢٤، ٣٢٥.

(٤) الطّبري من رواية محمد بن إسحاق إمام المغازي. تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٤٣١، ٤٣٢.

(٥) محمّد الصّادق إبراهيم عرجون: خالد بن الوليد، الدّار السّعودية، الطّبعة الثّالثة، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ص٢٢٩- ٢٣١؛ عبد العزيز عبد الله الحميدي: التاريخ الإسلامي مواقف وعبر، ج٩، ص١٦٤؛ علي محمّد محمّد الصّلّابي: الانشراح ورفع الضّيق بسيرة أبي بكر الصّدّيق، ص٣٠٨- ٣١٠؛ أحمد عادل كمال: الطّريق إلى المدائن، ص٢٣٤- ٢٣٦.

القعدة سنة ١٢هـ/٦٣٤م، فدارت بين الطّرفين وقعة شديدة، نصر الله فيها المسلمين، وقتلوا من عدوّهم مائة ألف قتيل[١].

ويتغنّى بعض هواة الكتابة في التّاريخ الإسلاميّ بهذه الوقعة، فيرونها نصرًا حاسمًا يعقد بنواصي المسلمين، ونذيرًا من الله تعالى للرّوم[٢]، وأنّها من أيّام الإسلام الفاصلة الّتي لم تنل من الشّهرة ما نالته المعارك الكبرى[٣]، ويدّعي أحد التّجاريّين[٤] أنّ المسلمين قتلوا من عدوّهم في "الفراض" مائة ألف باتّفاق جميع المؤرّخين.

والحقّ أنّ سيفًا الكذوب هو الّذي انفرد بذكر هذه الوقعة، ولم يذكرها غيره من المؤرّخين الموثوقين أو المجروحين، ولذلك لم تنل شهرة المعارك الكبرى الّتي يتّفق عليها الرّواةُ وأهلُ الأخبار، والأولى بها أن تكون من مختلقات سيف.

ويتخيّل سيفٌ أنّ خالدًا ﷺ سرّح جيشه إلى الحيرة لخمس بقين من ذي القعدة سنة ١٢هـ/٦٣٤م، وأنّه انطلق في جماعة من أصحابه متخفّيًا شطر المسجد الحرام، في رحلة عجيبة شاقّة حتّى انتهى إلى مكّة، فأدرك الحجّ ذلك العام، ثمّ عاد محلّقًا، فأدرك ساقة الجيش قبل أن يصلوا إلى الحيرة، ولم يعلم به إلّا من أفضى إليه من السّاقة، كما لم يعلم به الصّدّيق ﷺ إلّا بعد رجوع أهل الحجّ من الموسم[٥].

ولو حدثت هذه الحجّة لما خفيت على رواة تاريخ الإسلام جميعًا، وكُشفت لسيف التّميميّ الكذّاب خاصّة!

🕮 مسير خالد إلى الشّام وعودة المُثنّى لقيادة الجبهة العراقيّة:

في الوقت الّذي تمكّن فيه سيفُ الله خالدُ بن الوليد ﷺ من هزيمة الفرس في بلاد العراق وجعل نهر دجلة حاجزًا بينه وبينهم تحرّج موقف المسلمين في بلاد الشّام،

(١) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٢٨.

(٢) محمّد الصّادق إبراهيم عرجون: خالد بن الوليد، ص٢٣٢.

(٣) عبد العزيز عبد الله الحميدي: التّاريخ الإسلامي، مواقف وعبر، ج٩، ص١٧٣؛ علي محمّد محمّد الصّلّابي: الانشراح ورفع الضّيق بسيرة أبي بكر الصّدّيق، ص٣١٢.

(٤) أحمد عادل كمال: الطّريق إلى المدائن، ص٢٥٠.

(٥) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٢٨، ٣٢٩.

وباتوا لا يقدرون من الرّوم على شيء(١)؛ لاجتماعهم على حربهم، فلمّا بلغ الصّدّيقَ ذلك(٢)، كتب إلى خالد بن الوليد ﷺ بالتّوجّه إلى الشّام مددًا لأبي عبيدة بن الجرّاح والمسلمين(٣)، وأمره أن يخلّف في العراق أهله الّذين قدم عليهم، ويمضي متخفّفًا في أهل القوّة الّذين قدموا معه العراق من اليمامة، والّذين صحبوه في الطّريق، وقدموا عليه من الحجاز(٤)، فتحرّك خالدٌ ﷺ إلى الشّام في ربيع الأوّل سنة ١٣هـ/٦٣٤م(٥)، وشيّعه المُثنّى ﷺ إلى قُراقِر(٦)، وهناك أمره بالرّجوع، وعدم التّقصير في محاربة الفرس(٧).

وقد عزّ على الإخباريّ سيف بن عمر التّميميّ أن يحرز سيف الله خالدٌ ﷺ كلّ هذا الفخر دون ظهور لقومه التّميميّين، ولذا ادّعى أنّه لمّا جاء أمرُ الخليفة الصّدّيق ﷺ لخالد بن الوليد بالمسير إلى الشّام اتّهم الفاروقَ عمرَ ﷺ بالسّعي عليه، وتناوله بلسانه! لكن لمّا كان القعقاعُ التّميميُّ حاضرًا عنده، فقد أنقذ خالدًا ﷺ من وساوس الشّيطان - كما أنقذه من التّصرّفات الطّائشة في أُلّيس قبل ذلك - وردّه إلى الصّواب قائلاً له: "ارفع لسانك عن عمر، والله ما كذب الصّدّيق، ولا صدقت على أخيك، قال: صدقني والله، قبّح الله الغضب والظّنون، وبالله يا قعقاع لقد أغريتني بحسن الظّن، فقال القعقاع: الحمد لله الّذي خلّصك، وأبقى فيك الخير، ونفى عنك الشّرّ"(٨).

---

(١) ابن عساكر: تاريخ دمشق، تحقيق/ عمرو غرامة العمروي، دار الفكر، بيروت، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، ج٢، ص١٦٣.

(٢) الأزدي: فتوح الشّام، ص٥٧.

(٣) أبو يوسف: الخراج، ص١٥٩.

(٤) الأزدي: فتوح الشّام، ص٥٧، ٥٨؛ الكلاعي: الاكتفاء بما تضمّنه من مغازي رسول الله ﷺ والثّلاثة الخلفاء، ج٢، ص١٩٣.

(٥) البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٧٢.

(٦) قراقر: واد لقبيلة بني كلب ببادية السّماوة من ناحية العراق، نزله خالد بن الوليد ﷺ عند مسيره إلى الشّام. والسّماوة: مفازة بين الكوفة والشّام، وقيل بين الموصل والشّام. ياقوت: معجم البلدان، ج٤، ص٣١٧.

(٧) الأزدي: فتوح الشّام، ص٦٠، ٦١؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٧١.

(٨) ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج٢، ص٨٤، ٨٥.



وإن كان من تعليق فأقول: قبّح الله كذّابًا زنديقًا يفتري هذا وأمثاله على خالد ﷺ الّذي مدحه رسول الله ﷺ بقوله: "نِعْمَ عَبْدُ اللهِ وَأَخُو الْعَشِيرَةِ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ، وَسَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللهِ، سَلَّهُ اللهُ - عَزَّ وَجَلَّ - عَلَى الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ"(١).

وإنّ المطالع للتّاريخ الصّحيح لسيف الله خالد بن الوليد ﷺ يدرك أنّه كان من أكثر القادة العسكريّين إخلاصًا رئيسًا ومرءوسًا، ومن أنقاهم سيرة وسريرة.

وبرحيل القائد العظيم خالد ﷺ إلى الشّام ينتهي دوره في العراق، ثمّ لا يعود إليها بعد ذلك، ثمّ تبدأ فيها الفتوح العظام في عهد الفاروق عمر ﷺ.

🕮 عودة الإمارة للمثنّى وموقعة بابل:

عاد المُثنّى بن حارثة الشّيبانيّ ﷺ إلى الحيرة بعد توديعه خالد بن الوليد ﷺ، فعمل من فوره على سدّ الخلل الّذي نتج عن غياب القائد الكبير سيف الله المسلول ونصف الجيش، فوضع أخاه المُعَنَّى بن حارثة مكانه في الثّغر المواجه للمدائن، ووضع أخاه مسعودًا في ثغر آخر على الشّريط المحاذي لنهر دجلة شرقًا، وسدّ أماكن الأمراء الّذين خرجوا مع خالد برجال أمثالهم من أهل القوّة والشّجاعة(٢).

لكن لم يكد المُثنّى الشّيبانيّ يستقرّ في الحيرة، حتّى أخبرته مسالحه المواجهة للعدوّ، بأنّ الفرس قد وجّهوا إليه جيشًا من عشرة آلاف جنديّ بقيادة هُرمز جاذويه، فخرج المُثنّى من الحيرة نحو عدوّه، وضمّ إليه المسالح، وعبّأ جيشه، فجعل على ميمنته أخاه المُعنّى، وعلى ميسرته أخاه مسعودًا، وأقام ببابل(٣) ينتظر قدوم الفرس عليه(٤).

---

(١) أحمد بن حنبل: المسند، ج١، ص٢١٦، ح٤٣. وصحّحه المحقّقون بشواهده.

(٢) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٤٣.

(٣) بابل: مدينة العراق العظيمة ذات التّاريخ المجيد، المشهورة بحدائقها- حدائق بابل المعلّقة- وكانت إحدى عجائب الدّنيا القديمة السّبع، وقد اندثرت بابل، ولكن آثارها لا زالت باقية يؤمّها السّيّاح، وتقع آثار بابل بين النّهرين، وهي إلى الفرات أقرب، في جنوب بغداد، وإلى الشّرق من كربلاء، بجوار مدينة الحِلّة، والطّريق الغربيّة بين بغداد والبصرة تمر بآثارها. ياقوت: معجم البلدان، ج١، ص٣٠٩؛ عاتق البلادي: معجم المعالم الجغرافيّة في السّيرة النّبويّة، ص٣٩.

(٤) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٤٤؛ الكلاعي: الاكتفاء بما تضمّنه من مغازي رسول الله ﷺ والثّلاثة الخلفاء، ج٤، ص١١٢.

ولمّا التقى المسلمون والفرس ببابل اقتتلوا قتالاً شديدًا، وواجه المسلمون صعوبة في مواجهة الفيل الّذي فرّق بين الصّفوف، ولكن المُثنّى سرعان ما أنقذ الموقف، فخرج إلى الفيل مع جماعة من جنده الأشدّاء فقتلوه، فانهزم الفرس، وتعقّبهم المسلمون إلى المدائن يقتلونهم، وأقام أهل الثّغور في مسالحهم[١].

وقد سجّل الشّاعر التّميميّ الفرزدق (ت: ١١٠هـ/٧٢٨م) خبر هذه الوقعة ودور المثنّى الشّيبانيّ في عَقْر فيل الفرس بقوله[٢]:

وَبَيْــتُ المُثَــنَّى عَاقِــرِ الفِيــلِ عَنْــوَةً ** بِبابِــلَ إِذْ في فَــارِسٍ مُلْــكُ بَابِــلِ

وقد صادف انتصار المُثنّى في بابل موت ملك الفرس "شهر براز"[٣]، وكان من نتائج الفتن الّتي حدثت على عرش الأكاسرة بعد موته، أن صُرف الفرس عن بذل جهود جديدة لاسترداد ما فتحه المسلمون[٤].

📖 **توجّه المُثنّى إلى المدينة لطلب المدد من الخليفة:**

كان المُثنّى ﷺ قائدًا واقعيًّا، فأدرك أنّ ما لديه من المقاتلين لا يكفي للاحتفاظ بما فتحه خالد ﷺ من بقاع واسعة[٥]، لذلك طلب المدد من المدينة، ولكن خبر الخليفة أبي بكر ﷺ أبطأ عليه؛ لانشغاله بأمر الجبهة الشّاميّة، فتوجّه المُثنّى إلى الخليفة؛ ليوقفه على ما يحدث في الجبهة العراقيّة؛ وليستأذنه في الاستعانة بمن ظهرت توبته وندمه من أهل الرّدّة ممّن يستطيع الغزو، وليخبره أنّه لم يخلّف أحدًا أنشط إلى قتال فارس وحربها ومعونة المهاجرين منهم، ولكنّه قدم المدينة وأبو بكر ﷺ في مرضه الّذي مات فيه، وقد عقد للفاروق عمر ﷺ بالخلافة، فأوصاه بدعوة النّاس للخروج مع المُثنّى[٦].

---

(١) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٤٤.

(٢) الفرزدق: ديوان الفرزدق، دار بيروت للطّباعة والنّشر، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، ج٢، ص١١٢.

(٣) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٤٤.

(٤) تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٤٥.

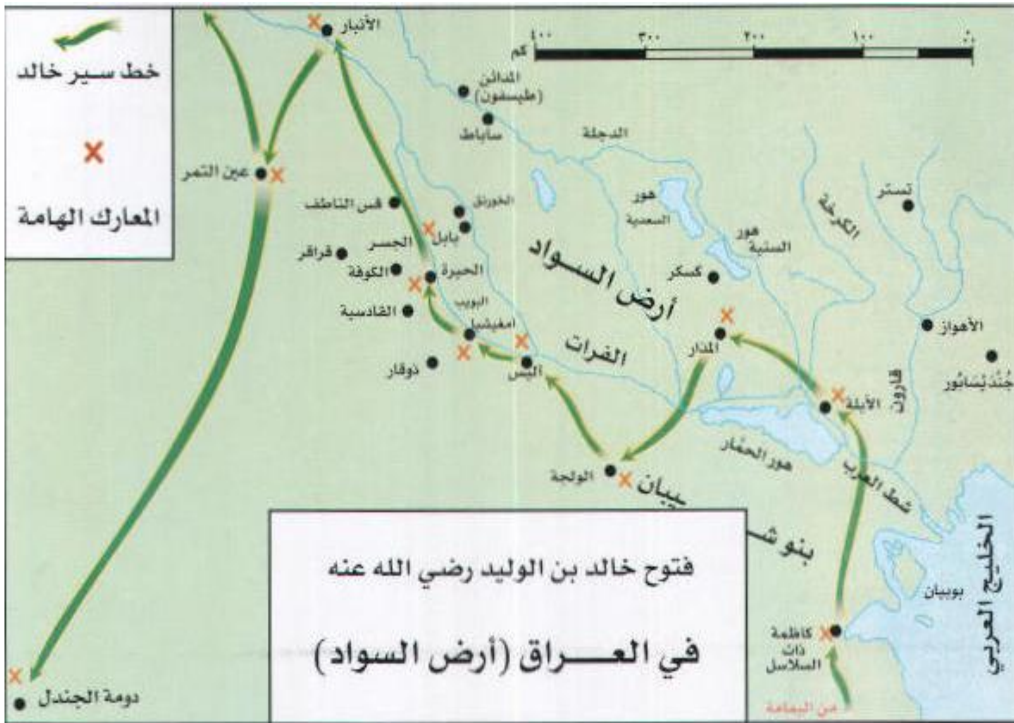
(٥) سيديو: تاريخ العرب العام، تعريب/ عادل زعيتر، مكتبة ومطبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة، الطّبعة الثّانية، ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م، ص ١٣٨.

(٦) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص ٣٤٥.

🕮 ملاحظتان على الفتوح العراقيّة في عهد الصّدّيق:

١- لم يُشرك الصّدّيق ﷺ المرتدّين في الفتوح، بل جرّدهم من السّلاح، لأنّه لم يأمنهم لحداثة عهدهم بالرّدّة، وعقوبةً لهم بإظهار الاستغناء عنهم، ولأنّه لم يشأ أن يكونوا طلائع الفتح الإسلاميّ فلا يقدّمون لسكّان المناطق المفتوحة المثل الصّالح للجنديّ المسلم.

٢- لم تستقرّ قدم الفاتحين في المناطق المفتوحة عهدئذ، فقد كان الدّهاقينُ العجمُ يثيرون النّاس على الفاتحين كلّما قويت الدّولة الفارسيّة، ولذلك أعيد فتح الحيرة ثلاث مرّات، وهذا يفسّر أسباب تغيّر شروط الصّلح مرّات عديدة في مناطق السّواد[1].



خريطة رقم (١) لتوضيح مواقع المعارك الّتي حدثت في العراق خلال عهد الصّدّيق. نقلا عن الدّكتور شوقي أبو خليل: أطلس التاريخ العربي الإسلامي، دار الفكر، دمشق، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٥م، ص٤٣.

---

(١) شكري فيصل: حركة الفتح الإسلامي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٢م، ص٦٢- ٦٩؛ أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الرّاشدة، ص٣٥٦.

الفصل السّادس

فتوح الشّام في عهد الصّدّيق

بدأت دعوة أهل الشّام إلى الإسلام في حياة النّبيّ ﷺ؛ فإنّه لمّا صالح قريشًا عام الحديبية راسل ملوك الأرض يدعوهم إلى الإسلام، وكلّف دِحْيَةَ بن خليفة الكلبيّ بحمل كتابه إلى قيصر ملك الرّوم بواسطة عظيم بُصْرَى[1]، كما بعث الحارثَ بن عميرٍ الأزديّ بكتاب إلى ملك بُصْرَى، فلمّا نزل مؤتة[2] عرض له شُرَحْبِيل بن عمرو الغسّانيّ[3] فقتله صبرًا، فاشتدّ ذلك على رسول الله ﷺ[4]، فسيّر إليهم جيش مؤتة سنة ثمان[5]، ثمّ غزاهم غزوة تبوك في السّنة الهجرية التّاسعة[6] عندما بلغه استعدادُهم لغزو المدينة[7]، كما جهّز جيشًا بقيادة أسامة بن زيد رضي الله عنهما، وكلّفه بالمسير إلى موضع مقتل أبيه، ولكنّ الوفاة أدركت النّبيّ ﷺ قبل مسير جيش أسامة ﵁، فأنفذه أبو بكر ﵁ في مستهلّ خلافته.

ولقد اختلف المؤرّخون في ترتيب وقائع فتوح الشّام وتسلسلها مع اتّفاقهم على حدوثها ونتائجها، حتّى دهش ابن جرير الطّبريّ من ذلك الاختلاف واستنكره، وعلّله بقرب الوقائع بعضها من بعض[8]، ولئن كان قرب الوقائع من بعضها يسبّب شيئًا من اللّبس

---

(١) البخاري: الصّحيح، (كتاب الجهاد والسّير، باب دعوة اليهود والنّصارى)، ج٣، ص١٠٧٤، ح٢٧٨٢؛ مسلم: الصّحيح، (كتاب الجهاد والسّير، باب كتاب النّبيّ ﷺ إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام)، ج٣، ص١٣٩٣، ح١٧٧٣.

(٢) مُؤْتَة: بلدة أردنيّة، تقع جنوب الكرك، في منتصف المسافة بين معان وعمّان، (على بعد ١٠٠ كيلو متر جنوب العاصمة عَمّان تقريبًا). عاتق غيث البلادي الحربي: معجم المعالم الجغرافية في السّيرة النّبويّة، ص٣٠٤.

(٣) شرحبيل الغسّاني: أحد أمراء ملك الرّوم على بلاد الشّام.

(٤) الواقدي: المغازي، ج٢، ص٧٥٥، ٧٥٦؛ ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٢، ص١٢٨.

(٥) ابن هشام: السّيرة النّبويّة، ج٢، ص٣٧٣.

(٦) ابن هشام: السّيرة النّبويّة، ج٢، ص٥١٥؛ ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٢، ص١٦٥.

(٧) البخاري: الصّحيح، (كتاب النّكاح، باب موعظة الرّجل ابنته لحال زوجها)، ج٥، ص١٩٩١، ح٤٨٩٥؛ الواقدي: المغازي، ج٣، ص٩٨٩، ٩٩٠.

(٨) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٥٩.



في ترتيبها، فإنّ تأخّر تدوين التّاريخ الإسلاميّ بشكل عام عن زمن حدوث تلك المعارك قد أسهم في ذلك أيضًا، وخاصّة أنّ بعض الأحداث قد وقعت في زمن واحد، فحكى الرّواة بعضها قبل بعض، كما أنّ بعض البلدان قد فتحت مرّتين، فاقتصر بعض الرّواة على أحد الفتحين، واختلف لذلك ترتيب ما فتح بينهما من حيث التّقديم والتّأخير[١].

📖 التّعبئة العامّة لمنازلة الرّوم وفتح الشّام:

عندما فرغ الخليفة الصّدّيق ﷺ من حروب الرّدّة عزم على توجيه الجيوش إلى الشّام[٢]، وعقد لذلك مجلسًا شوريًّا مع وجوه المهاجرين والأنصار بشأن استنفار المسلمين لجهاد الرّوم، فتنوّعت آراؤهم في كيفيّة غزوهم مع الإجماع على جهادهم، فأصدر الصّدّيق أمره بإعلان النّفير العام لجهاد الرّوم[٣].

وقد استنفر الصّدّيق ﷺ جميع العرب الّذين ثبتوا على الإسلام لجهاد الرّوم، فتقاطروا على المدينة من كلّ أوْب[٤]، فضرب لهم معسكرين بالجُرْف - خارج المدينة - وكلّف أمين الأمّة أبا عبيدة بن الجرّاح ﷺ بإمامتهم في الصّلاة، فلم ينقطع توافدهم طوال شهر المحرّم سنة ١٣هـ/٦٣٤م[٥].

واهتمّ الخليفة الصّدّيق ﷺ باستنفار أهل اليمن - ذوي الكثرة العدديّة - فبعث إليهم أنس بن مالك الأنصاريّ ﷺ يدعوهم إلى الجهاد في سبيل الله واللّحوق بإخوانهم الّذين سبقوهم إليه، فأجابوه خفافًا وثقالاً بأعداد هائلة، وأقبلوا بنسائهم وأولادهم، رغبة في الجهاد في سبيل الله[٦].

---

(١) عبد الوهاب النّجّار: الخلفاء الرّاشدون، دار القلم، بيروت، الطّبعة الرّابعة، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م، ص٢١٠؛ حمدي شاهين: الدّولة الإسلاميّة في عهد الخلفاء الرّاشدين، ص١٠١.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان، ص١٣٢.

(٣) ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج٢، ص٦٣، ٦٤؛ الكلاعي: الاكتفاء بما تضمّنه من مغازي رسول الله ﷺ والثّلاثة الخلفاء، ج٢، ص١٧٠.

(٤) البلاذري: فتوح البلدان، ص١٣٢.

(٥) فتوح البلدان، ص١٣٣.

(٦) الأزدي: فتوح الشّام، ص٨، ٩؛ ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج٢، ص٦٥، ٦٦.

وكان الزّعيم القبليّ ذو الكَلاع الحميريّ أسرعَ أهل اليمن استجابة لداعي الجهاد؛ فإنّه لمّا سمع النّداء دعا بفرسه وسلاحه ونهض يستنفر قومه من ساعته، فالتفّتْ عليه جموعٌ كثيرة، ولم يلبث طويلاً حتّى قدم المدينة النّبويّة[1].

وتدلّ أقوالُ أهل اليمن وأفعالُهم عند مقابلتهم للخليفة الصّدّيق ومخالطتهم للصّحابة ﷺ على رغبتهم الأكيدة في نصرة الإسلام وإخلاص الجهاد في سبيل الله، فعندما دخلوا المدينة وسمعوا القرآن، أجهشوا بالبكاء، فبكى أبو بكر ﷺ وقال: "هَكَذَا كُنَّا، ثُمَّ قَسَتِ الْقُلُوبُ"[2].

وكان الزّعيم اليمنيّ ذو الكلاع قد أقبل في هيئة الملوك العظماء، يحيط به ألف عبد من الفرسان، فلمّا رأى زهد الصّدّيق وتواضعه وما هو عليه من الوقار والهيبة تأثّر به، وتزيّا بزيِّه، حتّى رُئِي في سوق من أسواق المدينة، على كتفيه جلد شاة، ففزعت عشيرته، وقالوا له: "فضحتنا بين المهاجرين والأنصار! قال: فأردتم أن أكون جبّارًا في الجاهليّة، جبّارًا في الإسلام؟ لاها الله {لا والله} لا تكون طاعة الرّبّ إلّا بالتّواضع والزّهد في هذه الدّنيا"، وصنعت ملوك اليمن صنيع ذي الكَلاع في التّواضع وترْك الحُلل والّتيجان[3].

وجاء قيس بن هبيرة المكْشُوح المراديّ ﷺ في جمع كثير، فلمّا رأى المعسكر قد ضاق عن تحمّل الإبل والخيول، أتى الصّدّيق واستعجله ببعث الجنود، فأجابه الخليفة بأنّه ما كان ينتظر إلّا قدومه[4]، فقسّم الصّدّيق الجنود عند ذلك إلى أربعة جيوش، وعيّن لكلّ جيش قائدًا[5]، وذلك في مستهلّ شهر صفر سنة ١٣هـ/٦٣٤م[6]، على الشّكل التّالي:

---

(١) ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج١٧، ص٣٨٧.

(٢) ابن أبي شيبة: المصنّف في الأحاديث والآثار، ج٧، ص٢٢٤.

(٣) المسعودي: مروج الذّهب ومعادن الجوهر، تحقيق/ محمد محيي الدّين عبد الحميد، دار الفكر، بيروت، ١٣٨٦هـ/١٩٦٦م، ج١، ص٥١٦.

(٤) الأزدي: فتوح الشّام، ص٧؛ الكلاعي: الاكتفاء بما تضمّنه من مغازي رسول الله ﷺ والثّلاثة الخلفاء، ج٢، ص١٧٢، ١٧٣.

(٥) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص٢٩١؛ الفسوي: المعرفة والتّاريخ، (نصوص من الجزء الأوّل المفقود)، ج٣، ص٢٦٢؛ الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٣١.

(٦) البلاذري: فتوح البلدان، ص١٣٣.



📖 **الجيش الأوّل**:

عقد الخليفة أبو بكر الصّدّيق ﷺ ليزيدَ بن أبي سفيان بن حرب الأمويّ ﷺ على هذا الجيش[١]، فـ"كان أمير ربع من تلك الأرباع"[٢]، وأمره بالتّوجّه إلى دمشق[٣].

ودعا الصّدّيقُ ﷺ ربيعة بن عامر القرشيّ العامريّ فعقد له، وأمره أن يكون مع يزيدَ ولا يخالفه، ونصح يزيدَ ﷺ أن يجعله على مقدّمته إن أراد[٤]، ثمّ شيّعه الصّدّيق ﷺ ماشيًا[٥]، وقال له: "إِنَّكَ سَتَجِدُ قَوْمًا زَعَمُوا أَنَّهُمْ حَبَّسُوا أَنْفُسَهُمْ للهِ، فَذَرْهُمْ وَمَا زَعَمُوا أَنَّهُمْ حَبَّسُوا أَنْفُسَهُمْ لَهُ، وَسَتَجِدُ قَوْمًا فَحَصُوا عَنْ أَوْسَاطِ رُؤُوسِهِمْ مِنَ الشَّعَرِ، فَاضْرِبْ مَا فَحَصُوا عَنْهُ بِالسَّيْفِ، وَإِنِّي مُوصِيكَ بِعَشْرٍ: لَا تَقْتُلَنَّ امْرَأَةً، وَلَا صَبِيًّا، وَلَا كَبِيرًا هَرِمًا، وَلَا تَقْطَعَنَّ شَجَرًا مُثْمِرًا، وَلَا تُخَرِّبَنَ عَامِرًا، وَلَا تَعْقِرَنَّ شَاةً، وَلَا بَعِيرًا، إِلّا لِمَأْكُلَةٍ، وَلَا تَحْرِقَنَّ نَحْلاً، وَلَا تُغَرِّقَنَّهُ، وَلَا تَغْلُلْ، وَلَا تَجْبُنْ"[٦].

📖 **الجيش الثّاني**:

أمّر الخليفة أبو بكر ﷺ شُرَحْبيل بن حسنة ﷺ - حليف بني جُمح القرشيّين - على الجيش الثّاني، وسيّره بعد ثلاثة أيّام من مسير يزيد بن أبي سفيان ﷺ[٧]، وحدّد له فتح بلاد الأُردنّ[٨].

---

(١) الأزدي: فتوح الشّام، ص٨؛ الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٣١.

(٢) الإمام مالك: الموطّأ، تحقيق/ محمّد مصطفى الأعظمي، أبو ظبي، الطّبعة الأولى، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، ج٣، ص٦٣٥.

(٣) البلاذري: فتوح البلدان، ص١٣٤؛ الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٣٥.

(٤) الأزدي: فتوح الشّام، ص٨؛ الكلاعي: الاكتفاء بما تضمّنه من مغازي رسول الله ﷺ والثّلاثة الخلفاء، ج٢، ص١٧٣.

(٥) أبو يوسف: الخراج، ص١٧؛ الأزدي: فتوح الشّام، ص٨.

(٦) الإمام مالك: الموطّأ، ج٣، ص٦٣٥؛ سعيد بن منصور: السّنن، تحقيق/ حبيب الرّحمن الأعظمي، الدّار السّلفية، الهند، الطّبعة الأولى، ١٤٠٣هـ/١٩٨٢م، ج٢، ص١٨١، ١٨٢، ح٢٣٨٣.

(٧) الأزدي: فتوح الشّام، ص١١؛ الكلاعي: الاكتفاء بما تضمّنه من مغازي رسول الله ﷺ والثّلاثة الخلفاء، ج٢، ص١٧٤.

(٨) البلاذري: فتوح البلدان، ص١٣٤؛ الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٣٥.

الجيش الثّالث:

عقد الخليفة الصّدّيق ﷺ لأبي عبيدة بن الجرّاح ﷺ على الجيش الثّالث الّذي ضمّ كثيرًا من أشراف العرب، وساداتهم، وصلحاء المسلمين[1]، ووجّهه ناحية حمص[2]، وكان قيس بن هبيرة المكشوح المراديّ مع أبي عبيدة ﷺ، فأوصى به الصّدّيق أبا عبيدة قبل سفره، ونصحه بأخذ رأيه ومشورته، كما أوصى قيسًا بطاعة أبي عبيدة، وبذلِ جهده في قتال المشركين، فوعده بذلك، فلمّا بلغ أبا بكر ﷺ مبارزة قيس البطرقين بالجابية وقتله إيّاهما قال: "صدق قيسٌ وبرّ، ووفّى"[3].

وقد اختار خالد بن سعيد بن العاص ﷺ الخروج مع أبي عبيدة ﷺ، فلِيمَ على عدم خروجه مع ابن عمّه يزيد بن أبي سفيان ﷺ، فأجابهم بأنّ أبا عبيدة ﷺ كان أخاه في دينه ووليّه وناصره على ابن عمّه على عهد الرّسول ﷺ وهو أشدّ استئناسًا وطمأنينة به، وخرج في إخوته ومواليه[4]، فودّعه أبو بكر ﷺ والمسلمون في مشهد مهيب[5].

الجيش الرّابع:

عزم الخليفة الصّدّيق ﷺ على توجيه جيش لفتح فلسطين[6]، فوقع اختياره على عمرو بن العاص ﷺ لتولّي قيادته[7].

وكان العقد لكلّ أمير في بدء الأمر على ثلاثة آلاف رجل، ولم تزل أعدادهم في زيادة لمتابعة الصّدّيق إليهم بالأمداد، حتّى صار مع كل أمير سبعة آلاف ونصف[8].

---

(١) الأزدي: فتوح الشّام، ص١٢؛ الكلاعي: الاكتفاء بما تضمّنه من مغازي رسول الله ﷺ والثّلاثة الخلفاء، ج٢، ص١٧٥.

(٢) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٣٥؛ ابن كثير: البداية والنّهاية، ج٧، ص٦.

(٣) الأزدي: فتوح الشّام، ص٢١، ٢٢.

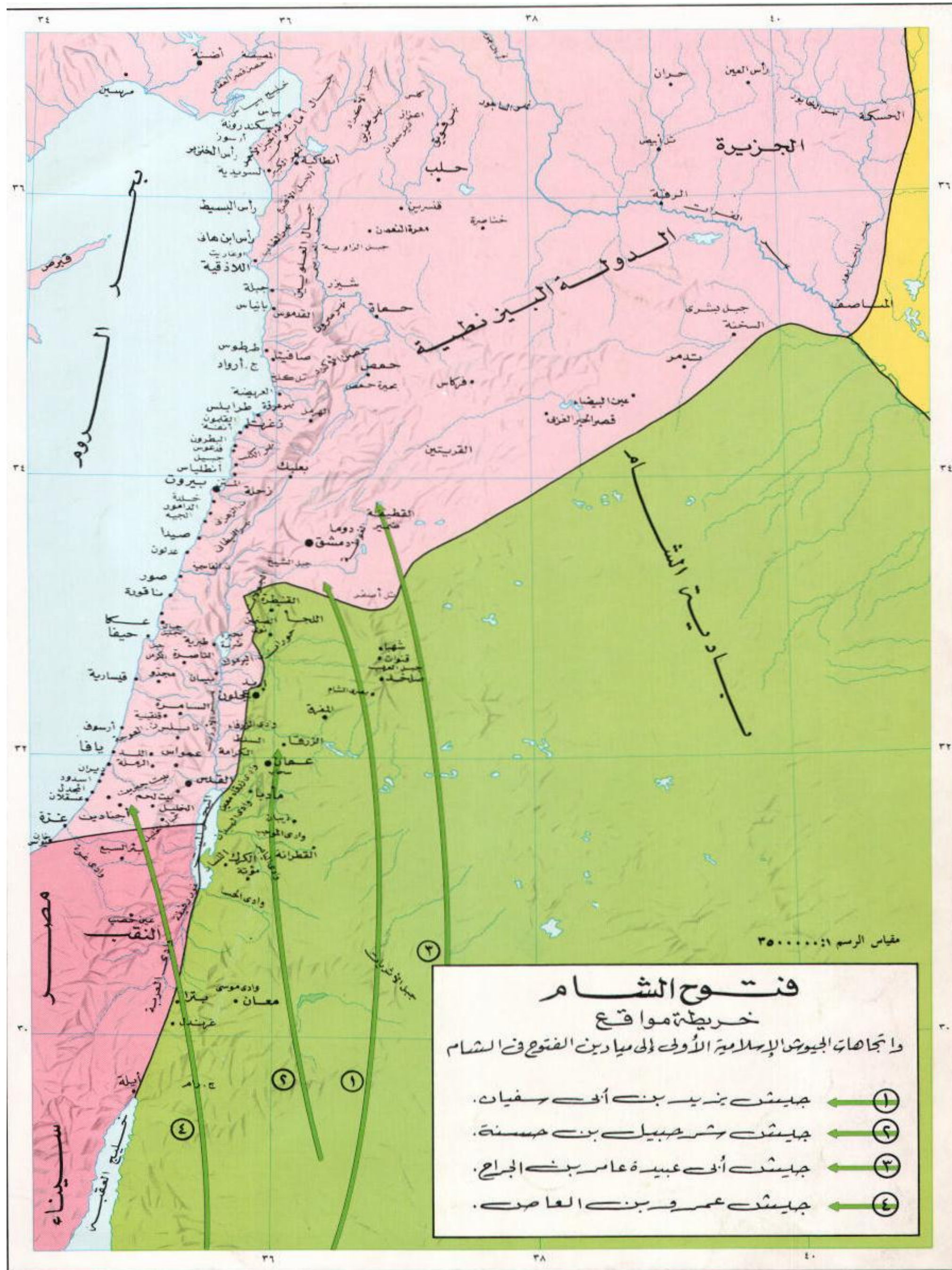
(٤) الأزدي: فتوح الشّام، ص١٧؛ الكلاعي: الاكتفاء، ج٢، ص١٧٧.

(٥) الأزدي: فتوح الشّام، ص١٨؛ الكلاعي: الاكتفاء، ج٢، ص١٧٨.

(٦) البلاذري: فتوح البلدان، ص١٣٤.

(٧) الأزدي: فتوح الشّام، ص٤٠- ٤٢؛ خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١١٩.

(٨) يرى البلاذري أنّ الصّدّيق ﷺ أرسل ثلاثة جيوش فقط، ولا يذكر جيش أبي عبيدة ﷺ. فتوح البلدان، ص١٣٣. ورواية الإمام مالك بن أنس أنّ الجيوش أربعة. الموطأ، ج٣، ص٦٣٥.



خريطة رقم (٢) تبيّن خطوط سير الجيوش الأربعة إلى بلاد الشّام، كما حدّدها الخليفة أبو بكر الصّدّيق ﷺ. نقلاً عن الدكتور حسين مؤنس: أطلس تاريخ الإسلام، الزّهراء للإعلام العربيّ، القاهرة، الطبعة الأولى، ١٩٧٤م، ص١١٠.

📖 المناوشات الأولى مع الرّوم:

زحفت الجيوش الأربعة حسب خطوط السّير المحدّدة لها، فلم تجد كيدًا حتّى نزلت بلاد الشّام(١)، وكان الخليفة الصّدّيق ﷺ قد أوصى أمراء الجيوش أن ينقادوا لمن يقع القتال في عمله، فلمّا وصل عمرو بن العاص ﷺ فلسطين تلقّاه بطريق غزّة بقرية يقال لها الدّاثن(٢)، ودعا عمرًا لمقابلته، فلمّا دخل عليه رحّب به، ودعاه عمروٌ ﷺ إلى الدّخول في الإسلام، أو الإذعان بالجزية، فأبى عليه، وضنّ بدينه(٣)، فاقتتلوا بها قتالاً شديدًا، ثمّ انهزم الرّوم، وانفضّت جموعهم(٤).

وكان يزيدُ بن أبي سفيان ﷺ قد توجّه في طلب بطريق غزّة، فبلغه أنّ بالعربة(٥) جمعًا للرّوم، فوجّه إليهم فرقة من جيشه فأوقعت بالقوّات الرّوميّة وقتلت قائدها(٦).

📖 موقعة إجنادين:

غضبت الرّوم ونصارى العرب من انتصارات المسلمين بفلسطين فاجتمعوا على البطريق "يناق"، وأقبلوا إلى أَجْنَادِين(٧)، وكان عمرو بن العاص ﷺ بالعربات من غور فلسطين، فسارت الجيوش الإسلاميّة في الشّام لإمداده(٨)، فبلغ عدد الجند عشرين ألفًا(٩).

---

(١) البلاذري: فتوح البلدان، ص١٣٤، ١٣٥.

(٢) داثن: ناحية قرب غزّة بأعمال فلسطين. ياقوت: معجم البلدان، ج٢، ص٤١٧.

(٣) ابن سعد: الطّبقات الكبير، ج٥، ص٦٣؛ ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج٤٦، ص١٥٥.

(٤) الأزدي: فتوح الشّام، ص٤٤؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص١٣٤.

(٥) إحدى قرى غزّة.

(٦) الأزدي: فتوح الشّام، ص٤٤؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص١٣٤.

(٧) ابن المبارك: الجهاد، ص٩٤. وأجنادين: بفتح الهمزة وكسرها، وفتح الدّال وكسرها، بلفظ التّثنية والجمع، وهو بلد بفلسطين بين الرّملة وبيت جبرين كما حدّدها الطّبري. تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٤٦. وانظر ياقوت: معجم البلدان، ج١، ص١٠٣.

(٨) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٤٦. ويذكر الواقديّ والبلاذريّ أنّ الجيوش كانت تجتمع على إمارة عمرو بن العاص ﷺ في الحرب أوّل أيّام أبي بكر. ابن سعد: الطّبقات الكبير، ج٥، ص٦٢؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص١٤٠.

(٩) ابن سعد: الطّبقات الكبير، ج٥، ص٦٣.



وكانت أجنادين أوّل حرب تجتمع فيها ألوية المسلمين في خلافة الصّدّيق ﷺ بقيادة عمرو بن العاص ﷺ[1]، وذلك في آخر جمادى الأولى سنة ١٣هـ/٦٣٤م[2].

وقد خاف بعض المسلمين من كثرة عدد الرّوم يومئذ، وأشاروا على قادتهم أن يتأخّروا إلى نواظير الشّام[3]، ويطلبوا المدد من الخليفة أبي بكر ﷺ، إلّا أنّ هشام بن العاص بن وائل السّهميّ ﷺ رفض هذا العرض، وخطب في المسلمين: "إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ إِنَّمَا النَّصْرُ مِنْ عِنْدِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ، فَقَاتِلُوا الْقَوْمَ، وَإِنْ كُنْتُمْ تَنْتَظِرُونَ نَصْرًا مِنْ عِنْدِ أَبِي بَكْرٍ، رَكِبْتُ رَاحِلَتِي حَتَّى أَلْحَقَ بِهِ"، فاتّفق الجند قاطبة على الصّمود لمواجهة الرّوم[4].

بدأت معركة أجنادين بالمبارزات الفرديّة، فخرج بطريق معلّم يدعو إلى البراز، فبرز إليه عبد الله بن الزّبير بن عبد المطّلب الهاشميّ، وكان من الأبطال الشّجعان، فاختلف مع الرّوميّ ضربات حتّى تمكّن منه، فكان البطريق أوّل قتيل من الرّوم يومئذ، ولم يعرض عبد الله لسَلَبه، ثمّ برز آخر يدعو إلى البراز، فبرز إليه عبد الله فتشاولا بالرّمحين ساعة، ثمّ صارا إلى السّيفين، فحمل عليه عبد الله فضربه - وهو دارع - على عاتقه فأثبته، وقطع سيفُه الدّرع، وأسرع في منكبه، ثمّ ولّى الرّوميّ منهزمًا، فعزم عليه عمرو بن العاص ﷺ أن لا يبارز، فاعتذر عبد الله بأنّه لا يستطيع الصّبر على المبارزة[5].

وعندما التحمت الحرب اقتتل الفريقان قتالاً شديدًا، فقُتل من المسلمين بشرٌ كثيرٌ[6]، واستشهد البطل المبارز عبد الله بن الزّبير الهاشميّ - وقائم السّيف في يده - بعدما قتل من الرّوم عشرة كلّهم بطارقة أبطال[7].

---

(١) البلاذري: فتوح البلدان، ص١٦٢. وهو قول الواقديّ. الحاكم: المستدرك على الصّحيحين، ج٣، ص٢٦٨. وعند الأزدي أنّ القيادة كانت لخالد بن الوليد. فتوح الشّام، ص٧٤.

(٢) هذا تأريخ الأزديّ والواقديّ. الأزدي: فتوح الشّام، ص٢٤٩؛ الحاكم: المستدرك على الصّحيحين، ج٣، ص٢٦٨. وذكر البلاذري أنّه قول الكلبيّ. أنساب الأشراف، ج١٠، ص٢٨٢.

(٣) نواظير الشّام: أي أطراف الشّام.

(٤) ابن المبارك: الجهاد، ص٩٤.

(٥) ابن سعد: الطّبقات الكبير، ج٦، ص٤٧١.

(٦) ابن المبارك: الجهاد، ص٩٤.

(٧) ابن سعد: الطّبقات الكبير، ج٦، ص٤٧٢؛ ابن كثير: البداية والنّهاية، ج٧، ص٤١.

وقد صابر المسلمون في هذا اليوم حتّى انهزمت الرّوم وانتهَوا إلى موضعٍ لا يعبره إلّا إنسانٌ، فعبروه وقاتلوا عليه، وتقدّم هشام بن العاص فقاتل عليه حتّى قتل، ووقع على الثُّلْمَةِ، فسدّها، فهاب المسلمون أن يوطئوا الخيل جثّته، حتّى تقدّمهم أخوه عمرو بن العاص ﷺ، ونادى عليهم باتّباعه، فمرّوا على جثّة هشام ﷺ بخيولهم حتّى قطّعوها، فلمّا انتهت الموقعة بنصر المسلمين كرّ إليه أخوه عمروٌ، فجمع لحمه وأعضاءه وعظامه وواراه[١].

وأمكن الله المسلمين من يناق - بطريق الشّام - فقطعوا رأسه، وأرسله عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة رضي الله عنهما إلى الخليفة الصّدّيق ﷺ مع عقبة بن عامر الجهنيّ ﷺ، فلمّا دخل عليه بالرّأس أنكر ذلك، ولمّا أخبره عقبة أنّ الرّوم يفعلون ذلك اشتدّ غضبه، وقال: "فَاسْتِنَانٌ بِفَارِسَ وَالرُّومِ؟ لَا تُحْمَلْ إِلَيَّ رَأْسٌ، فَإِنَّمَا يَكْفِي الْكِتَابُ وَالْخَبَرُ"[٢].

📖 ردّ فعل الرّوم وتحرّج موقف المسلمين:

ارتاع الرّوم من نكباتهم أمام جيوش المسلمين، وانتشارهم في نواحي بلاد الشّام، فاجتمع هرقل[٣] مع مستشاريه وكبار قادته، وأشراف الرّوم، وأعلمهم أنّ العرب الحفاة العراة الجياع لم يطمعوا فيهم إلّا بعدما بدّلوا وغيّروا في أمر دينهم[٤]، وأمرهم بالاستعداد لهم والخروج إليهم ومقاتلتهم، وأمّر عليهم الأمراء، ووعدهم بإمدادهم بالرّجال والخيول، ثمّ توجّه إلى دمشق فاستنفر أهلها لمواجهة العرب، وفعل مثل ذلك في حمص، وأتى أنطاكية فأقام بها، وبعث إلى الرّوم فحشرهم، فأتاه منهم ما لا يحصى، وقد أعظموا دخول العرب عليهم، وخافوا أن يسلبوا ملكهم[٥].

---

(١) ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٤، ص١٩٤؛ ابن عبد البرّ: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ج٤، ص١٥٤٠. وروى ابن المبارك أنّه استشهد يوم أجنادين في خلافة أبي بكر. الجهاد، ص٩٤.

(٢) النّسائي: السّنن الكبرى، (كتاب السّير، باب حمل الرّؤوس)، ج٥، ص٢٠٤، ح٨٦٧٣؛ البيهقي: السّنن الكبرى، ج٩، ص٢٢٣، ح١٨٣٥١. وإسناد الأثر صحيح. ابن حجر: التّلخيص الحبير في تخريج أحاديث الرّافعيّ الكبير، تحقيق/ السّيد عبد الله هاشم اليماني المدني، المدينة المنوّرة، ١٩٦٤م، ج٤، ص٢٨٨.

(٣) كان بفلسطين آنذاك.

(٤) الأزدي: فتوح الشّام، ص٢٢، ٢٣.

(٥) فتوح الشّام، ص٢٣.

واستقرّت الخطّة العسكريّة للرّوم على تشكيل أربعة جيوش كبيرة لضرب الجيوش الإسلاميّة منفردة؛ وحتّى يَضعف كلُّ جيش إسلاميّ عن مقاومة الجموع البيزنطيّة الغفيرة الّتي تواجهه(١).

وقد أدرك القادة المسلمون عندئذ صعوبة مواجهة جموع الرّوم الغفيرة، وراسل بعضهم بعضًا في السّبيل لمواجهة الرّوم، فاقترح عليهم عمرو بن العاص ﷺ تجميع الجيوش الإسلاميّة، حتّى لا يُقضى عليها واحدًا تلو الآخر، وكاتبوا الخليفة بأمرهم، فأجابهم بمثل جواب عمرو بن العاص، ليتصادموا مع الرّوم في معركة شاملة فاصلة(٢).

وسارع الخليفة الصدّيق ﷺ بندب النّاس لإنجاد المجاهدين في بلاد الشّام، فسيّر إليهم ألفًا مع هاشم بن عتبة بن أبي وقّاص(٣)، وأتبعه بنحو سبعمائة رجل - فيهم المؤذّن بلالُ بنُ رباح الحبشيّ ﷺ - مع سعيد بن عامر بن حُذَيم الجُمحيّ(٤).

وحضر في تلك الأثناء ألفان من قبيلة هَمْدَان(٥)، وفي بعضهم جهلٌ وجفاءٌ فتأذّى منهم أهل المدينة، وشكوهم إلى الخليفة أبي بكر ﷺ، فناشدهم الخليفة بالكفّ عنهم، وطالبهم بتحمّل أفعالهم ما لم تبلغ الحدّ، وعلّل ذلك بأنّ الله ﷻ سيهلك بهم وبأشباههم جموع الرّوم، فلبّى المسلمون رغبة الخليفة، واحتملوا الأعراب حتّى ارتحلوا إلى الشّام(٦).

ولم يَقْدَمْ على الصّدّيق ﷺ أحدٌ في تلك الأيّام يريد الجهاد إلّا وجّهه إلى الشّام لتقوية جيوش المسلمين أمام الرّوم(٧).

---

(١) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٣٤؛ ابن الأثير: الكامل في التّاريخ، ج٢، ص٢٥١.

(٢) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٣٩.

(٣) الأزدي: فتوح الشّام، ص٢٧، ٢٨؛ الكلاعي: الاكتفاء بما تضمّنه من مغازي رسول الله ﷺ والثّلاثة الخلفاء، ج٢، ص١٨٣.

(٤) الأزدي: فتوح الشّام، ص٢٩، ٣٠؛ الكلاعي: الاكتفاء، ج٢، ص١٨٤.

(٥) هَمْدَان: بطن من كهلان من القحطانيّة، لهم أفخاذ متّسعة، كانت ديارهم شرقي اليمن، ولمّا جاء الإسلام خرج كثير منهم إلى البلاد المفتوحة، وبقي من بقي باليمن، ومن بلادهم: نجران، وشروم، والخنق، ومن جبالهم: شبام. عمر رضا كحالة: معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، ج٣، ص١٢٢٥.

(٦) الأزدي: فتوح الشّام، ص٣١- ٣٣؛ الكلاعي: الاكتفاء، ج٢، ص١٨٥، ١٨٦.

(٧) الأزدي: فتوح الشّام، ص٣٣- ٣٥؛ الكلاعي: الاكتفاء، ج٢، ص١٨٦- ١٨٨.

موقعة اليرموك:

كان رأي قادة الجبهة الشّاميّة قد استقرّ على الانسحاب من المواقع المتقدّمة في بلاد الشّام والتّجمّع في اليرموك[(١)] متساندين، كما أمر الخليفة أبو بكر ﷺ، فلمّا علم هرقل باجتماعهم أمر قوّاده أن يجمعوا جيوشهم في مكان واسع الطّعن ضيّق المهرب، فنزلوا الوَاقُوصَةَ[(٢)] على ضِفّة اليرموك[(٣)]، في جموع كثيرة من الرّوم والشّوام وأهل الجزيرة وأرمينية[(٤)]، واحتشدوا فيها مستعلين[(٥)]، بقيادة تيودريك أخي هرقل[(٦)].

ونتيجة للخطّة الرّوميّة الجديدة فقد انتقل المسلمون من مكانهم فنزلوا تجاههم على الطّريق الوحيد لهم، وقال عمرو بن العاص ﷺ مستبشرًا: "حُصِرَتْ وَاللَّهِ الرُّومُ، وَقَلَّمَا جَاءَ مَحْصُورٌ بِخَيْرٍ!"، ولكنّ المسلمين أقاموا نحو ثلاثة أشهر لا يخلصون إلى الرّوم، ولا يقدرون منهم على شيء[(٧)].

---

(١) اليرموك: نهر من أنهار الشّام، ينبع من مرتفعات حوران، وطوله ٥٧ كيلو مترًا، منها ١٧ مترًا في فلسطين، والباقي في الحدّ الفاصل بين سورية والأردنّ، وهو من أكبر روافد نهر الأردنّ، ويلتقي مع الأردنّ في جنوبي بحيرة طبرية. محمّد محمّد حسن شُرّاب: المعالم الأثيرة في السُّنّة والسّيرة، ص٢٩٧.

(٢) الواقوصة: يقع سهل الواقوصة في استدارة النّهر قبل التقائه بالأردنّ. والواقوصة قرية من أعمال درعا السّوريّة، تقع غربها بمسافة ٦٣ كيلو مترًا. محمّد محمّد حسن شرّاب: المعالم الأثيرة في السُّنّة والسّيرة، ص٢٩٧.

(٣) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٣٤. ويرى مرتضى العسكريّ أنّ "الواقوصة" من مختلقات الإخباريّ سيف التّميميّ، لكن العلماء الثّقات كمحمّد بن الحسن الشّيبانيّ والمدائنيّ والأزديّ وغيرهم قد ذكروها في كتبهم. الأزدي: فتوح الشّام، ص١٠٧؛ السّرخسي: شرح السّير الكبير للإمام محمّد بن الحسن الشّيباني، ج١، ص٣٩؛ ابن النّديم: الفهرست، تحقيق/ إبراهيم رمضان، دار المعرفة، بيروت، الطّبعة الثّانية، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، ص١٥٠؛ محمّد عبد العال محمّد حسن: مختلقات سيف بن عمر التّميميّ في تاريخ قومه، مجلّة كلّيّة اللّغة العربيّة بأسيوط، عدد ٣٨، ج٢، ص١٨٨٧، ١٨٨٨.

(٤) البلاذري: فتوح البلدان، ص١٥٩.

(٥) مسكويه: تجارب الأمم وتعاقب الهمم، تحقيق/ أبي القاسم إمامي، سروش، طهران، الطّبعة الثّانية، ٢٠٠٠م، ج١، ص٢٩٤.

(٦) أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص٣٧١.

(٧) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٣٤.

أدرك الصّدّيق ﷺ أنّ الجبهة الشّاميّة في حاجة إلى قائد عبقريّ سبق له الصّدام مع الجيوش الكبرى وخبر خططها وتمرّس بقتالها ومواجهتها، فوجد أنّ سيف الله المسلول خالد بن الوليد ﷺ هو أكفأ قادة المسلمين لتلك المهمّة، وكتب إليه باستخلاف المُثنّى الشّيبانيّ ﷺ على العراق[1]، والعجل في التّوجّه إلى الشّام لإنجاد إخوانه[2].

وسابق الخليفة أبو بكر الصّدّيق ﷺ خالدَ بن الوليد إلى الشّام برسالة إلى أمين الأمّة أبي عبيدة بن الجرّاح ﷺ يخبره فيها بتولية خالد عليه، ويأمره فيها بالسّمع والطّاعة له، بسبب خبرته الحربيّة، وليس لأفضليّته عليه[3]، كما وصلته رسالة خالد ﷺ يخبره بأنّه ما سأل الإمارة على الشّام ولا أرادها، ويصارحه بأنّه لن يغيّر شيئًا من حاله، أو يخالف رأيه، أو يقطع أمرًا دونه؛ لفضله وسيادته في المسلمين، فلمّا قرأ أبو عبيدة الرّسالتين دعا للخليفة، وحيّا خالدًا بالسّلام[4].

وتتكشّف من تعامل هؤلاء السّادة الكبار معاني الأخوّة المنبثقة عن التّوحيد الصّحيح والمحفوفة بالأخلاق الحميدة الّتي غرسها فيهم النّبيّ ﷺ؛ فإنّ خالدًا ﷺ لم تتغيّر نفسه أو يشعر بعلوٍّ على إخوانه بسبب فتوحاته في العراق وثقة الخليفة به، بل يعترف بالفضل لأهله، ويعلن طاعته لأبي عبيدة بن الجرّاح الّذي ولي الأمر من بعده، وفي مقابل ذلك نجد أبا عبيدة ﷺ يبارك هذا الأمر ويحيّ خالدًا، وهذا يدلّ على تجرّد خالد وأبي عبيدة من حظوظ النّفس وإيثارهما لمصلحة الأمّة، وإرادتهما وجه الله في أعمالهم[5].

سارع خالد بن الوليد ﷺ لتنفيذ أمر الخليفة، فتحرّك من العراق بثلاثة آلاف[6]، ولكنّه رفض السّير إلى الشّام في الطّرق المعتادة، وأصرّ على اقتحام طريق المفازة القاحلة بين

---

(١) الأزدي: فتوح الشّام، ص٥٧، ٥٨؛ الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٤٣.

(٢) الفسوي: المعرفة والتّاريخ، (نصوص من الجزء الأوّل المفقود)، ج٣، ص٢٩١، ٢٩٢.

(٣) الأزدي: فتوح الشام، ص٧٤؛ الكلاعي: الاكتفاء بما تضمّنه من مغازي رسول الله ﷺ والثّلاثة الخلفاء، ج٢، ص١٩٧.

(٤) الأزدي: فتوح الشّام، ص٦٢؛ الكلاعي: الاكتفاء، ج٢، ص١٩٦، ١٩٧.

(٥) عبد العزيز عبد الله الحميدي: التّاريخ الإسلامي مواقف وعبر، ج٩، ص٢٣١.

(٦) السّرخسي: شرح السّير الكبير للإمام محمد بن الحسن الشّيباني، ج١، ص٣٦.

العراق والشّام، والّتي تخلو من الماء والكلأ طوال خمسة أيّام بلياليها[١]، ولم يعبأ القائد الجسور بترهيب الأدلّاء له من مخاطر الطّريق، فاعتمد على الله ﷻ، وأخذ بنصيحة الدّليل الخبير رافع بن عُمَيرة الطّائيّ[٢]، وعمد إلى مجموعة من الإبل السِّمان، فأعطشها أيّامًا، ثمّ أوردها الماء حتّى امتلأت أجوافها، ثمّ قطع مشافرها حتّى لا تجترّ، فكان كلّما نزل مكانًا للرّاحة ينحر عشرًا من تلك الإبل، غير أنّ الدّليل الطّائيّ رَمِدَتْ عيناه في الطّريق، فأشرف خالدٌ وجيشه على الهلاك في اليوم الخامس، ولكنّ الله ﷻ لطف بجند المسلمين، وهدى رافعًا إلى بئر قديمة مطمورة فحفرها الجند وشربوا منها[٣].

وتابع سيفُ الله خالد ﷺ سيره ففتح في طريقه بُصرى[٤]، وبعض الواحات الّتي مرّ بها[٥]، وشقّ الأرض حتّى طلع على المسلمين، "فتسامع بخالد أعراب العرب الّذين كانوا في مملكة الرّوم ففزعوا له؛ لأنّه كان مشهورًا بالجلادة"[٦]، ثمّ انضمّ لجند المسلمين بالشّام، فبلغ مجموع عددهم نحوًا من أربعين ألفًا[٧].

---

(١) تقدّر تلك المفازة بحوالي ٨٠٠ كيلو متر عبر الصّحراء. جمال الدّين محفوظ: فنّ الحرب عند العرب في الجاهليّة والإسلام، ص٨٤.

(٢) ورد ذكره في الصّحابة. ابن حجر: الإصابة في تمييز الصّحابة، ج٢، ص٣٦٧.

(٣) الأزدي: فتوح الشّام، ص٦٣، ٦٤؛ ابن حبيب: المحبّر، ص١٩٠؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص١٣٥، ١٣٦؛ الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٤٢. وقد ذكر ابن سعد هذه القصّة مختصرة في ترجمته لرافع بن عميرة الطّائي. الطّبقات الكبير، ج٨، ص١٨٩.

(٤) الأزدي: فتوح الشّام، ص٦٩- ٧١؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص١٣٧؛ الفسوي: المعرفة والتّاريخ، ج٣، ص٢٩٣. ونظرًا لاستقرار الفتح ببصرى فقد اعتبرها بعض المؤرّخين أوّل مدينة فتحت من الشّام. وكانت بُصرى مدينة حوران، وقد احتلت درعا السّوريّة محلّها حتّى ظنّها بعض النّاس أنّها هي. ودرعا على أكيال من حدود الأردنّ الشّماليّة. ياقوت: معجم البلدان، ج١، ص٤٤١؛ عاتق غيث البلادي الحربي: معجم المعالم الجغرافية في السّيرة النّبويّة، ص٤٣، ٤٤.

(٥) أبو يوسف: الخراج، ص١٦٠؛ أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الرّاشدة، ص٣٧١.

(٦) السّرخسي: شرح السّير الكبير للإمام محمد بن الحسن الشّيباني، ج١، ص٣٦.

(٧) تختلف الروايات في عدّ جنود المسلمين باليرموك بين أربعة وعشرين ألفًا وستّة وأربعين. الأزدي: فتوح الشام، ص١٨٥؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص١٥٩؛ ابن الأثير: الكامل في التّاريخ، ج٢، ص٢٥٥. وذلك لأنّ الأمداد كانت تأتيهم تباعًا.

🕮 استعدادات الرّوم:

اجتمع الرّوم للمسلمين في بلاد الشّام عن آخرهم[١]، فقام قائد الحرب الرّوميّ[٢] بتنظيم جيشه لملاقاة المسلمين بنظام الكراديس[٣] والفرق، كعادة البيزنطيّين آنذاك، ووضع الرّماة في المقدّمة، والخيّالة في الجناحين، وقد شكّلت كراديس المشاة قلب الجيش الّذي رتّب في عشرين صفًّا[٤]، فظهروا بأعداد هائلة كأنّهم اللّيل[٥]، وكان العربيّ المسْتَرْوِم جبلةُ بن الأيْهَم الغسّانيّ في مستعربة الشّام على مقدّمة جيش الرّوم[٦].

وحضر القساوسة والرّهبان لتحريض الجند[٧]، فطفق معاذ بن جبل ﷺ كلّما سمع أصواتهم يدعو الله قائلاً: "اللّهُمَّ زلزل أقدامهم، وأرعب قلوبهم، وأنزل علينا السّكينة، وألزمنا كلمة التّقوى، وحبّب إلينا اللّقاء، ورضّنا بالقضاء"[٨]، ونهض يمشي بين الصّفوف يقصّ على النّاس ويحرّضهم، ويركّز على حفّاظ القرآن خاصّة[٩].

وقد آتى تحميسُ القساوسة والرّهبان ثماره عند كثير من جنود البيزنطيّين، حتّى وضع ثلاثون ألفًا منهم أرجلهم في القيود، لئلّا يفرّوا عند احتدام القتال[١٠].

---

(١) السّرخسي: شرح السير الكبير للإمام محمد بن الحسن الشّيباني، ج١، ص٣٧.

(٢) يشير الطّبري إلى أنّ قائد الروم العام هو "تذارق"، وأنّ قائد الحرب هو الفيقار "سقلار"، ويجعل باهان على الميمنة. تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٣٤. وتشير أكثر المصادر العربيّة بأنّ قائد الرّوم هو باهان. أحمد عادل كمال: الطّريق إلى دمشق، الشّركة الدّوليّة للطّباعة، القاهرة، ٢٠٠٦م، ص٣٦٤.

(٣) الكُردُوس: الفرقة أو الكتيبة من الخيل العظيمة. ابن منظور: لسان العرب، ج٦، ص١٩٥.

(٤) الأزدي: فتوح الشّام، ص١٧١، ١٩٤.

(٥) الأزدي: فتوح الشّام، ص١٩٤. ويختلف الرّواة في عدد جنود الرّوم في اليرموك ما بين مكثّر ومقلّـل، فمنهم من يهبط بالعدد إلى مائة ألف، ومنهم من يبالغ ويرتفع إلى أربعمائة ألف. أحمد عادل كمال: الطّريق إلى دمشق، ص٣٦٤، ٣٦٥. والأقرب من الأقوال أنّ عددهم كان قريبًا من مائتي ألف.

(٦) البلاذري: فتوح البلدان، ص١٥٩.

(٧) الأزدي: فتوح الشّام، ص١٦٧؛ ابن كثير: البداية والنّهاية، ج٧، ص١٢.

(٨) الأزدي: فتوح الشّام، ص١٩٩؛ ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج٢، ص١٥١.

(٩) الأزدي: فتوح الشّام، ص١٩٥، ١٩٦.

(١٠) الأزدي: فتوح الشّام، ص١٩٨؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص١٥٩.

🕮 تعبئة جيش المسلمين:

صفّ خالدٌ ﷺ جيشه في ثلاثة صفوف، وجعل معاذ بن جبل الأنصاريّ ﷺ على الميمنة، وقبّاث بن أشْيَم الكنانيّ على الميسرة، وهاشم بن عتبة بن أبي وقّاص الزّهريّ على الرّجّالة، وكان كلّ واحد من أمراء الجيوش الأربعة على ربع[١].

وكان أبو سفيان بن حرب بن أميّة ﷺ قد استأذن خليفة المسلمين في جهاد الرّوم بالشّام، ورغب أن يجاهد بنفسه وماله، ويفيد المسلمين برأيه وينصح لهم، فأذن له الخليفة ودعا له بخير، فخرج أبو سفيان ﷺ إلى الشّام في جمع عظيم من المطّوّعين، فأحسن صحبتهم حتّى نزلوا على جماعة المسلمين[٢].

ولمّا اجتمع خالد بن الوليد ﷺ بأمراء المسلمين في خباء لإبرام أمر الحرب بينهم، أقبل إليهم أبو سفيان بن حرب ﷺ يتوكّأُ على عصاهُ، وهو يريد أن يفيدهم برأيه في الحرب، وكان مشهورًا بالرّأي والمكيدة، فسلّم عليهم، فردّوا عليه السّلام، وقالوا: "لَا تَقْرَبْنَا"، فتحسّر أبو سفيان، وقال: "ما كنتُ أرى أن أعيش حتّى أكون بحضرة قومٍ من قريشٍ يبرمون أمر حربهم وأنا بينهم ولا يُحضروني أمرهم"! فقال بعضهم: "هل لكم في رأي شيخكم، فإنّ له رأيًا في الحرب"، فأذنوا له، وطلبوا مشورته، فقال: "إنّي أرى أن ترتحلوا حتّى تجعلوا ذلك التّلّ خلف ظهوركم، ثمّ تؤمّروا عكرمة بن أبي جهلٍ على خيلٍ، وتجعلوا معه كلّ نابضٍ بوِتْرٍ - أي رامٍ عن قوس - فإنّ لي به خبرًا - أي علمًا بأنّه يَصلُح لذلك - فإذا نادى بلالٌ النّداء الأوّل لصلاة الغداة فليخرج عكرمة، وتلك الرّماة معه، فليصِفّ أولئك الرّماة عند صدور خيولهم، فإن هاجهم هيجٌ من اللّيل كانوا مستعدّين بإذن الله تعالى"[٣].

قبل القادة رأي أبي سفيان بن حرب ﷺ ونصيحته، وعملوا بها، وحدث ما توقّعه شيخ قريش، حيث أقبلت خيلٌ عظيمةٌ من الرّوم تريد بيات المسلمين فسمعوا رُغاء الإبل، فلم يشكّوا أنّ العرب قد هربتْ وأقبلوا متفرّقين، وسابق بعضهم بعضًا من غير تعبيةٍ،

---

(١) الأزدي: فتوح الشّام، ص١٩٤، ١٩٥؛ ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج٢، ص١٤٨.

(٢) الأزدي: فتوح الشّام، ص١٩٧. ويجعل الأزديّ خروج أبي سفيان واليرموك في عهد الفاروق.

(٣) السّرخسي: شرح السّير الكبير للإمام محمد بن الحسن الشّيباني، ج١، ص٣٧، ٣٨. ويذكر في هذا المصدر أنّ أبا سفيان خرج إلى الشّام في عهد الفاروق، والخلاف معروف في تأريخ اليرموك.



فوجدوا خيل عكرمة والرّماة مستعدّين لم تعلم الرّوم بهم، وحمل عكرمة ﷺ ورجاله في وجوههم، فلم يزل الله ينصرهم بقتلهم، حتّى إذا كادت الشّمس تطلُعُ ولّوا هاربين إلى عسكرهم[١].

وسار سيف الله خالد ﷺ بين الصّفوف يحمّس الجند، فكان يقف على كلّ راية، يعظهم، ويحضّهم، ويرغّبهم، حتّى مرّ على الجيش كلّه[٢]، ونهض القادة والعلماء فألهبوا مشاعر النّاس بالمواعظ الإيمانيّة[٣]، وطاف القرّاء بسورة الجهاد - الأنفال - بين الجنود، وجعل أبو سفيان بن حرب ﷺ يقف على كل كُردُوس ويقول: "الله الله! إنّكم ذادةُ - حماة - العرب، وأنصارُ الإسلام، وإنّهم ذادة الرّوم، وأنصارُ الشّرك! اللّهمّ إنّ هذا يومٌ من أيّامك، اللّهمّ أنزل نصرك على عبادك"![٤].

🕮 التقاء قادة الطّرفين قبل القتال:

ولمّا تصافّ الجمعان أرسل المسلمون وفدًا فيه أبو عبيدة بن الجرّاح، ويزيدُ بنُ أبي سفيان، والحارثُ بن هشام، وأبو جندلِ بنُ سهيل ﷺ، لدعوة الرّوم إلى الإسلام وإقامة الحجّة عليهم، فدخلوا على قائد الرّوم، وجلس معهم حيث أرادوا بعيدًا عن فُرُش الحرير، ولم يجبهم الرّوم إلى ما أرادوا، فعادوا إلى معسكرهم، وقد أقاموا الحجّة عليهم[٥].

وطلب القائد العام لجيش الرّوم مقابلة قائد المسلمين فأجابه سيف الله خالد بن الوليد ﷺ، وبرز إليه بين الصّفّين، فقال له الرّوميّ باستعلاء: "إنّا قد علمنا أنّ ما أخرجكم من بلادكم الجَهْدَ والجوعَ، فهلمّوا إلى أن أعطيَ كلّ رجل منكم عشرة دنانيرَ وكسوةً وطعامًا وترجعون إلى بلادكم، فإذا كان من العام المقبل بعثنا لكم بمثلها". فأجابه خالدٌ:

---

(١) السّرخسي: شرح السّير الكبير للإمام محمّد بن الحسن الشّيباني، جا، ص٣٨، ٣٩.

(٢) الأزدي: فتوح الشام، ص١٧٠.

(٣) ابن كثير: البداية والنّهاية، ج٧، ص١٢، وما بعدها.

(٤) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٣٦. وأورده ابن حجر عن إسحاق بن راهويه بإسناد ضعيف فيه رجل مبهم. المطالب العالية بزوائد المسانيد الثّمانية، ج١٦، ص٤٢٤، ٤٢٥، ح٤٠٤٧. وقد روى ابن أبي شيبة الجزء الأخير عن سعيد بن المسيّب، ولكنّه لم يسمّ من حدّثه به. المصنّف، ج٧، ص٨.

(٥) ابن كثير: البداية والنّهاية، ج٧، ص١٣.

"إنّه لم يخرجْنا من بلادنا ما ذكرت، غير أنّا قومٌ نشربُ الدّماء، وأنّه بلغنا أنّه لا دمَ أطيبُ من دم الرّوم، فجئنا لذلك". فوقع الرّعب في صفوف الرّوم، وقالوا: "هذا والله ما كنّا نُحدّث به عن العرب"[1].

وفي ردّ سيف الله خالد ﷺ أبلغ دليل على أكاذيب المستشرقين الّذين يزعمون أنّ الفتوحات الإسلاميّة كانت بغرض الأموال والثّروات.

🕮 نشوب الحرب بين الطّرفين:

بدأت الحرب بين الطّرفين بالمبارزة، حيث خرج بطريق من شجعان الرّوم وطلب المبارزة، فأراد نفرٌ من فرسان المسلمين أن يبارزوه، ولكنّ خالدًا ﷺ منعهم من ذلك، خوفًا من عجزهم عن الرّوميّ، وتأثير ذلك على معنويّات المسلمين، فلمّا فطن قيس بن هبيرة المكشوح لذلك خرج لمبارزة الرّوميّ، وكان قيسٌ أحد أشدّاء المسلمين وأبطالهم، فدنا من البطريق، وضربه ضربة شديدة على رأسه فقطع ما عليه من السّلاح، وفلق هامته، فسقط بين يدي فرسه قتيلاً، وكبّر المسلمون[2].

وكان عمرو بن معديكرب الزّبيديّ من أبطال العرب وأشراف اليمن، وقد شهد اليرموك وقاتل قتالاً شديدًا، ودعا إلى المبارزة، فخرج له علجٌ روميٌّ فقتله، ثمّ خرج إليه آخر فقتله، ثمّ خرج آخر فقتله[3]. كما كان مالك بن الحارث النّخعيّ الشّهير بالأشتر من أشدّاء النّاس وجلدائهم، فقتل ثلاثة من أبطال الرّوم مبارزة يومئذ[4].

وقد أثّرت هذه المبارزات في المسلمين، فارتفعت معنويّاتهم، وتقدّمت عدّة كتائب لمهاجمة الرّوم، وفي مقدّمتهم خالد بن الوليد وقيس بن هبيرة المراديّ، فكشفوا خيل الرّوم حتّى ألحقوهم بالصّفوف، ثمّ رجعوا إلى جماعة المسلمين[5].

---

(١) ابن كثير: البداية والنّهاية، جـ٧، ص١٣.

(٢) الأزدي: فتوح الشّام، ص١٧١، ١٧٢.

(٣) ابن حجر: الإصابة في تمييز الصّحابة، جـ٤، ص٥٧٠. وقد نقل الحافظ ابن حجر هذا الخبر من مغازي محمّد بن عائذ.

(٤) الأزدي: فتوح الشّام، ص١٧٢.

(٥) فتوح الشّام، ص١٧٢.



أدرك خالدٌ ﷺ أعداد الرّوم الغفيرة الّتي اصطدم بها، وتوقّع اغترارهم بأعدادهم واستهانتهم بالمسلمين، ولذلك وضع خطّته العسكريّة على أساس أن يثبت المسلمون أمام هجمات الرّوم حتّى تتضعضع هجماتُهم وتتصدّع صفوفُهم، وأخذ في حسبانه إمكان عجز المسلمين عن الصّمود، ولكنّه توقّع اختلال نظام صفوف الرّوم على أيّ حال، وعندئذ يكون الوقت مناسبًا للقيام بهجوم مضاد(١).

ولهذا وقف سيف الله خالد بن الوليد ﷺ في جماعة من الخيّالة وراء الميمنة، وأوقف قيس بن هبيرة المُراديّ ﷺ بخيل وراء الميسرة، وقام أبو عبيدة بن الجرّاح ﷺ في خيل خلف القلب(٢).

وأسرع أبو سفيان بن حرب ﷺ عندئذ إلى نساء المسلمين خلف الصّفوف وأمر بالحجارة فألقيت بين أيديهنّ، وعهد إليهنّ ألّا يرجع أحدٌ من المسلمين إلّا رمينه بالحجارة وقلن: "من يرجوكم بعد الفرار عن الإسلام وأهله وعن النّساء بأرض العدوّ، فالله الله"، ثمّ رجع فنادى بين صفوف المقاتلين: "يا معشر أهل الإسلام، حضر ما ترون، فهذا رسولُ الله والجنّةُ أمامكم، والشّيطانُ والنّارُ خلفكم"، ثمّ أخذ مكانه بين المجاهدين(٣).

وحدث ما توقّعه القائد العبقريّ سيف الله خالدٌ ﷺ، فأقبلت الرّوم ولهم زجلٌ كالرّعد، فيقال إنّ خالدًا ﷺ أصدر أمره إلى نساء المسلمين بألّا يفرّ رجلٌ من المسلمين إليهنّ إلّا قتلنه(٤).

وقد زحفت صفوف الرّوم كقطع اللّيل المظلم يتبع آخرُها أوّلَها، فحملت ميسرتُهم على ميمنة المسلمين، فقاتلوا الرّوم قتالاً عظيمًا، ولكنّهم لم يستطيعوا مواصلة الثّبات أمام الجموع الّتي ركبتهم أمثال الجبال، فزالوا من الميمنة إلى القلب، وولّى بعضهم الأدبار حتّى

---

(١) ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج٢، ص١٥٠، ١٥١؛ محمّد سهيل طقوش: تاريخ الخلفاء الرّاشدين، ص٢٥٦، ٢٥٧؛ أحمد عادل كمال: الطّريق إلى دمشق، ص٤٢٤.

(٢) الأزدي: فتوح الشّام، ص١٩٨؛ ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج٢، ص١٥٠؛ الكلاعي: الاكتفاء بما تضمّنه من مغازي رسول الله ﷺ والثّلاثة الخلفاء، ج٢، ص٢٨٣.

(٣) ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج٢، ص١٥٠.

(٤) الأزدي: فتوح الشّام، ص١٩٨؛ ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج٢، ص١٥٠.

اصطدموا بالنّساء خلف المعسكر، فاستقبلت النّساءُ منهزمة الجيش من سَرعان النّاس يضربنهم بالخشب والحجارة، فتراجعوا إلى مواقفهم، وثبتوا لمقاتلة الرّوم، وأقامت النّساء في مواقفهنّ[1].

وقد نزلت بعض النّساء يومئذ ساحة الوغى، وقاتلن قتالاً شديدًا، حتّى قتلت الصّحابيّة أسماء بنت يزيدَ بن السَّكَن الأنصاريّة - ابنة عمّ معاذ بن جبل - تسعةً من الرّوم بعمود فسطاط[2].

وكان أهل الرّايات والحفاظ قد ثبتوا للرّوم يومئذ مع القائدين الكبيرين عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة رضي الله عنهما ثباتًا عظيمًا[3]، ولم تكن الرّاية في بداية المعركة مع عمرو بن العاص، لكنّه لمّا رأى صاحبها ينكشف بها أخذها منه، وجعل يتقدّم وهو يصيح: "إليّ يا معاشر المسلمين، فجعل يطعن بها قدمًا وهو يقول: اصنعوا كما أصنع، حتّى إنّه ليرفعها وكأنّ عليها ألسنة المطر من العلق"[4]. أي الدّم.

واستحرّ القتل يومئذ في أزد اليمن، وكانوا قد ثبتوا للقتال مع شيخهم أبي هريرة رضي الله عنه وأطافوا به[5]، فلمّا تراجع النّاس صارت الرّوم تجول في مجال واحد، كما تدور الرّحى، وما رأى النّاسُ يومًا "أَكْثَرَ قِحْفًا سَاقِطًا، وَمِعْصَمًا نَادِرًا، وَكَفًّا طَائِرَةً، مِنْ ذَلِكَ الْمَوْطِنِ"[6].

وحملت ميمنة الرّوم حملة شديدة على ميسرة المسلمين فزالت عن مصافّها، وانهزم النّاس ممّا يلي القلب، فركبت الرّوم أكتافهم حتّى دخلوا معهم العسكر[7]، لكن ثبت

---

(١) الأزدي: فتوح الشّام، ص١٩٨- ٢٠٠؛ ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج٢، ص١٥١، ١٥٢.

(٢) الطّبراني: المعجم الكبير، ج٢٤، ص١٥٧، ح٤٠٣. ورجال الأثر ثقات. الهيثمي: مجمع الزّوائد ومنبع الفوائد، ج٦، ص٢١٣.

(٣) الأزدي: فتوح الشّام، ص٢٠٦؛ ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج٢، ص١٥٤؛ الكلاعي: الاكتفاء بما تضمّنه من مغازي رسول الله ﷺ والثّلاثة الخلفاء، ج٢، ص٢٨٧.

(٤) ابن سعد: الطّبقات الكبير، ج٥، ص٦٥؛ ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج٤٦، ص١٥٦، ١٥٧.

(٥) الأزدي: فتوح الشّام، ص١٩٩- ٢٠٢.

(٦) الأزدي: فتوح الشّام، ص٢٠٢؛ ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج٢، ص١٥٣.

(٧) الأزدي: فتوح الشّام، ص٢٠٦؛ ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج٢، ص١٥٤؛ الكلاعي: الاكتفاء بما تضمّنه من مغازي رسول الله ﷺ والثّلاثة الخلفاء، ج٢، ص٢٨٧.



قبّاثُ بن أشيم الكنانيّ براية الميسرة، وقاتل يومئذ قتالاً شديدًا حتّى كسر ثلاثة أرماح وقطع سيفين[١].

وكان الزّبير بن العوّام ﷺ قد شهد اليرموك، فلمّا حملت عليهم الرّوم قال له أصحاب رسول الله ﷺ: "أَلَا تَشُدُّ فَنَشُدَّ مَعَكَ؟ قال: إِنِّي إِنْ شَدَدْتُ كَذَبْتُمْ. قَالَوا: لَا نَفْعَلُ، فَحَمَلَ عَلَيْهِمْ حَتَّى شَقَّ صُفُوفَهُمْ، فَجَاوَزَهُمْ وَمَا مَعَهُ أَحَدٌ، ثُمَّ رَجَعَ مُقْبِلًا، فَأَخَذُوا بِلِجَامِهِ، فَضَرَبُوهُ ضَرْبَتَيْنِ عَلَى عَاتِقِهِ، بَيْنَهُمَا ضَرْبَةٌ ضُرِبَهَا يَوْمَ بَدْرٍ". وقال عروة بن الزّبير معلّقًا: "كُنْتُ أُدْخِلُ أَصَابِعِي فِي تِلْكَ الضَّرَبَاتِ أَلْعَبُ وَأَنَا صَغِيرٌ"[٢].

ولمّا بلغت منهزمة الميسرة مواقف النّساء خلف الجيش صمدن إليهم بالعمد والحجارة، وصحن في وجوههم: "أين عزّ الإسلام والأمهات والأزواج"؟ فاستحيا الرّجال من كلام النّساء، وانعطفوا إلى إخوانهم الثّابتين للقتال[٣]، ونزلت الصّحابيّة المجاهدة هندُ بنت عتبة بن ربيعة - أمّ معاوية بن أبي سفيان- تحمّس المجاهدين، وتصيح فيهم: "عضّدوا الغلفان بسيوفكم"[٤]. وشمّرت نساء خالد وأصحابه يومئذ، وكنّ يحملن الماء للمجاهدين، ويرتجزن بتحميسهم على القتال[٥].

وقد ثبت يزيد بن أبي سفيان بن حرب ﵄ ثباتًا عظيمًا يومئذ، وهو على ربع النّاس، وكان أبو سفيان ﷺ قد وصّاه بتقوى الله والصّبر على قتال الرّوم، فكان يومئذ من أعظم النّاس غَناء[٦].

ولمّا أبصر سيف الله خالد بن الوليد ﷺ وهو يراقب جولات القتال أنّ ميسرة الرّوم قد اخترقت معسكر المسلمين حتّى جاؤوا من وراء الميمنة في نحو عشرين ألفًا وكادوا

---

(١) الأزدي: فتوح الشّام، ص٢٠٤.

(٢) البخاري: الصّحيح، (كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب الزّبير بن العوّام)، ج٣، ص١٣٦٣، ح٣٥١٦؛ (كتاب المغازي، باب قتل أبي جهل)، ج٤، ص١٤٦١، ح٣٧٥٦.

(٣) الأزدي: فتوح الشّام، ص٢٠٣؛ ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج٢، ص١٥٤.

(٤) البلاذري: فتوح البلدان، ص١٥٩. والمقصود من قولها: قطّعوا الروم الّذين لا يختتنون.

(٥) السّرخسي: شرح السّير الكبير للإمام محمد بن الحسن الشّيباني، ج١، ص١٣٠.

(٦) الأزدي: فتوح الشّام، ص٢٠٥؛ ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج٢، ص١٥٥، ١٥٦.

أن يلتفّوا على الثّابتين للقتال حمل عليهم حملة قويّة من وراء الميمنة، فقتل من الرّوم نحو عشرة آلاف[١]، واعترضهم قيس بن هبيرة المكشوح المراديّ ﷺ في خيله من وراء الميسرة[٢]، واضطربت ميمنة المسلمين حتّى اختلطت بالقلب، فركب الرّوم بعضهم بعضًا أمام خالد بن الوليد وقيس بن هبيرة رضي الله عنهما، واشتدّ المسلمون لشدّة خالد، فانتصفوا من ميسرة الرّوم، وقتلوا قائدها[٣].

واستقتل عكرمةُ بن أبي جهل ﷺ يومئذٍ، وصمد للرّوم[٤]، ثمّ نزل فترجّل، فقاتل قتالاً شديدًا حتّى قتل، فوجد به بضعٌ وسبعون من بينِ طعنةٍ وضربةٍ ورميةٍ[٥]، و"كان عكرمةُ ﷺ محمودَ البلاء في الإسلام، محمود الإسلام حين دخل فيه"[٦].

ويُروى أنّ الحارث بن هشامٍ المخزوميّ ﷺ دعا بشراب يوم اليرموك، فرأى عكرمة ينظر إليه فآثره به، فوجد عكرمةُ عيّاش بن أبي ربيعة ينظر إليه فدفعه إليه، فمات الثّلاثة وما ذاقوه[٧].

وكان سعيد بن زيد بن عمرو بن نُفيل العدويّ ﷺ - أحد العشرة المبشّرين - على رأس القلب، فلمّا اشتدّت الحرب لاذ النّاس إليه، فجثا على ركبتيه، فلمّا دنا منه الرّوم وثب في وجوههم كالأسد، وقاتل راجلاً كما يقاتل الرّجل الشّجاع شديد البأس فارسًا[٨].

واستبسل شجعان العرب في القتال، فحمي مالك الأشتر النّخعيّ فقاتل الرّوم قتالاً شديدًا وخاض في صفوفهم حتّى قتل ثلاثةَ عشرَ رجلاً من بطارقتهم[٩].

---

(١) الأزدي: فتوح الشّام، ص٢٠٢؛ ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج٢، ص١٥٣.

(٢) الأزدي: فتوح الشّام، ص٢٠٦؛ الكلاعي: الاكتفاء، ج٢، ص٢٨٧.

(٣) الأزدي: فتوح الشّام، ص٢٠٦، ٢٠٧؛ ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج٢، ص١٥٣، ١٥٤.

(٤) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٣٨.

(٥) ابن أبي شيبة: المصنّف، ج٧، ص٨. بإسناد مرسل؛ لأنّ أبا إسحاق راوي الخبر لم يدرك اليرموك.

(٦) أحمد بن حنبل: العلل ومعرفة الرّجال، ج٣، ص٤٢١.

(٧) الطّبراني: المعجم الكبير، ج٣، ص٢٥٩. وقال الهيثميّ: "رواه الطّبرانيّ، وحبيب لم يدرك اليرموك، وفي إسناده من لم أعرفه". مجمع الزّوائد، ج٦، ص٢١٣.

(٨) الأزدي: فتوح الشّام، ص٢٠٥.

(٩) فتوح الشّام، ص٢١٠.

وفي الوقت الّذي احتدم فيه القتال بين المسلمين والرّوم بعد تراجع المتحيّزين إلى مواقعهم خمدت الأصواتُ كلُّها إلّا صوتَ أبي سفيان بن حرب ﷺ، فكان يقول وهو تحت راية ولده يزيد بن أبي سفيان رضي الله عنهما: "يَا نَصْرَ اللَّهِ اقْتَرِبْ، يَا نَصْرَ اللَّهِ اقْتَرِبْ"(١)، "الثباتَ الثباتَ يا معشر المسلمين"(٢).

وعندما رجعت راجعة الميمنة والميسرة حمل المسلمون على الرّوم حملة واحدة، وتعالت أصواتهم بالتّكبير(٣)، وقاتلوا الرّوم أشدّ قتال وأبرحه(٤)، وتابع سيف الله خالدٌ ﷺ حملته على الرّوم وهو في ألف رجل فاعترض سوادًا عظيمًا من الرّوم فأزالهم، وصبر لهم صبرًا عظيمًا حتّى فضّ الله جمعهم(٥)، وقُتل القائد الرّوميّ "باهان"(٦).

وواصل سيف الله خالد بن الوليد ﷺ والمسلمون الشّدَّة على الرّوم فولّى فرسانهم الأدبار، فأفرجوا لهم الطّريق، ولم يحرجوهم، فهاموا على وجوههم في البلاد، وتركوا مشاتهم، فأقبل عليهم خالدٌ ﷺ والمسلمون فاقتحموا في خندقهم، فركبهم المسلمون، فعمدوا إلى وادي الواقوصة فهوى فيه الجند المقترنون بالسّلاسل(٧)، وأسرع خالد ﷺ في تتبّع الرّوم ومطاردتهم(٨).

---

(١) ابن سعد: الطّبقات الكبير، ج٦، ص١١؛ الفسوي: المعرفة والتّاريخ، (نصوص من الجزء الأوّل المفقود)، ج٣، ص٣٠٠؛ ابن أبي خيثمة: التّاريخ الكبير، ج٢، ص١٢١. وإسناده صحيح. ابن حجر: الإصابة في تمييز الصّحابة، ج٣، ص٤١٤.

(٢)ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج٢، ص١٥٧؛ ابن كثير: البداية والنّهاية، ج٧، ص١٨.

(٣) ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج٢، ص١٥٧.

(٤) البلاذري: فتوح البلدان، ص١٥٩.

(٥) ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج٢، ص١٥٣، ١٥٤.

(٦) الأزدي: فتوح الشّام، ص٢١٣.

(٧) الأزدي: فتوح الشّام، ص٢٠٧. وروى خليفة بن خياط والبخاري بإسناد حسن عن الصّحابيّ أبي واقد اللّيثي ﷺ أنّه رأى الرّجل من العدوّ يوم اليرموك يسقط فيموت. خليفة بن خياط: مسند خليفة، تحقيق/ أكرم ضياء العمري، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ص٧٧؛ البخاري: التّاريخ الكبير، ج١، ص٤٠٤. وينظر ابن حجر: الإصابة في تمييز الصّحابة، ج٧، ص٣٧١.

(٨) الأزدي: فتوح الشّام، ص٢٠٨.

كما قام فارس العرب عمرو بن معديكرب الزّبيديّ بتتبّع فالّة الرّوم ومطاردتهم مع خالد بن الوليد ﷺ وشجعان المسلمين، ثمّ رجع عمرو، فانصرف إلى خباء عظيم فنزل به، وأُتي بجفان الطّعام، فدعا إليها من حوله[1].

وقام مالك الأشتر النّخعيّ بدور كبير في مطاردة الرّوم مع خالد بن الوليد ﷺ، وكان الرّوم قد اجتمعوا عند عقبة ومنعوا المسلمين من تتبّعهم، فهاجمهم الأشتر وقتل أحد عظمائهم فانهزموا وخلّوا العقبة[2].

ورُوي أنّ سيف الله خالد بن الوليد ﷺ فقد قَلَنْسُوَةً له يوم اليرموك، فقال لجنده: "اطْلُبُوهَا فَلَمْ يَجِدُوها، فَقَالَ: اطْلُبُوهَا، فَوَجَدُوهَا، فَإِذَا هِي قَلَنْسُوَةٌ خَلَقَةٌ، فَقَالَ خَالِدٌ: اعْتَمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَحَلَقَ رَأْسَهُ، فَابْتَدَرَ النَّاسُ جَوَانِبَ شَعْرِهِ، فَسَبَقْتُهُمْ إِلَى نَاصِيَتِهِ فَجَعَلْتُهَا فِي هَذِهِ الْقَلَنْسُوَةِ، فَلَمْ أَشْهَدْ قِتَالاً وَهِيَ مَعِي إِلّا رُزِقْتُ النَّصْرَ"[3]. وفي رواية: "فَمَا وُجِّهْتُ فِي وَجْهٍ إِلّا فُتِحَ لِي"[4].

ومن الثّابت المشهور أنّ خالد بن الوليد ﷺ لم يُهزم في جاهليّة ولا في إسلام، لا خلاف بين أهل العلم بالأخبار في ذلك.

وقد أصاب هرقل همًّا وحزنًا، لما أصاب جيشه في اليرموك، وانطلق إلى مدينة أنطاكيا وودّع سوريا الوداع الأخير[5]، وفُتحت الطّريق أمام المسلمين للانسياح في بلاد

---

(١) ابن حجر: الإصابة في تمييز الصّحابة، جـ٤، ص٥٧٠.

(٢) الأزدي: فتوح الشّام، ص٢١٠، ٢١١.

(٣) الطّبراني: المعجم الكبير، جـ٤، ص١٠٤، ح٣٨٠٤. واستدركه الحاكم على الصّحيحين، وسكت عنه، وقال الذّهبي: "منقطع". المستدرك على الصّحيحين، جـ٣، ص٣٣٨، ح٥٢٩٩. وقال الهيثميّ: "رواه الطّبرانيّ وأبو يعلى بنحوه، ورجالهما رجال الصّحيح، وجعفر سمع من جماعة من الصّحابة، فلا أدري سمع من خالد أم لا". مجمع الزّوائد، جـ٩، ص٣٤٩، ح١٥٨٨٢.

(٤) أبو يعلى: المسند، جـ١٣، ص١٣٨، ح٧١٨٣. وقال الدّكتور حسين سليم أسد: "رجاله ثقات غير أنّه منقطع". وقال البوصيري: "رواه أبو يعلى بسند صحيح". إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة، جـ٧، ص٢٧١، ح٦٨٣٢.

(٥) الأزدي: فتوح الشّام، ص٢١٢، ٢١٣؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص١٦١.

الشّام، وتوفي أبو بكر ﷺ في أعقاب اليرموك، وتولّى الخلافة عمر ﷺ، بيد أنّ رواية أخرى تجعل اليرموك عقب فتح دمشق، وفي عهد الفاروق عمر ﷺ(١).

📖 **تحقيق تأريخ موقعة اليرموك**:

لقد ارتبط اختلاف الرّواة وأهل الأخبار في تأريخ موقعة اليرموك بين عهدي أبي بكر الصّدّيق وعمر الفاروق رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا بالاختلاف في تعيين قائد المعركة يومئذ، وهل هو سيف الله خالد بن الوليد أم أمين الأمّة أبو عبيدة بن الجرّاح رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، ولهذا رأيت أن أعرض بعض تلك الرّوايات ليكون القارئ على بيّنة من الأمر(٢).

أوّلاً: ثبت عن قيس بن أبي حازم(٣) أنّه قال: "أمّنا خالد بن الوليد يوم اليرموك، في ثوب واحدٍ، قد خالف بين طرَفيه، وخلفه أصحاب محمّد ﷺ"(٤).

وهذا الأثر الصّحيح عن شاهد العيان التّابعيّ قيس بن أبي حازم يدلّ على أنّ سيف الله خالد بن الوليد ﷺ هو الأمير الّذي يصلّي الجند بصلاته، وإلّا لصلّى الصّحابة خاصّة خلف أبي عبيدة ﷺ.

ثانياً: صرّح التّابعيّ عروة بن الزّبير (ت: ٩٣هـ/٧١٢م) أنّ أخاه عبد الله ﷺ شهد موقعة اليرموك وهو ابن عشر سنين(٥).

---

(١) أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الرّاشدة، ص٣٧١.

(٢) محمّد عبد العال محمّد حسن: مختلقات سيف بن عمر التّميميّ في تاريخ قومه، مجلّة كلّيّة اللّغة العربيّة بأسيوط، عدد ٣٨، ج٢، ص١٨٨٨- ١٨٩١.

(٣) قيس: هو قيس بن أبي حازم البجليّ الأحمسيّ، من قدماء التّابعين، ومن أكثرهم رواية عن الصّحابة، شهد فتوح العراق مع خالد بن الوليد، وشهد معه اليرموك بالشّام، وعاش حتّى جاوز المائة، وتوفّي سنة ٩٨هـ/٧١٦. ابن سعد: الطّبقات الكبير، ج٨، ص١٨٨؛ ابن حجر: الإصابة في تمييز الصّحابة، ج٥، ص٣٩٩- ٤٠١.

(٤) ابن سعد: الطّبقات الكبير، ج٥، ص٤٠؛ الطّحاوي: شرح معاني الآثار، تحقيق/ محمّد زهري التّجّار، ومحمّد سيّد جاد الحق، عالم الكتب، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، ج١، ص٣٨٣، ح٢٢٥٩. وصحّحه ابن حجر. الإصابة في تمييز الصّحابة، ج٥، ص٤٠٠.

(٥) البخاري: الصّحيح، (كتاب المغازي، باب قتل أبي جهل)، ج٤، ص١٤٦١، ح٣٧٥٦؛ أبو إسحاق الفزاري: السّير، تحقيق/ فاروق محمود حمادة، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٩٨٧م، ص٢١٧.

وعقّب الحافظ ابن حجر على هذا الأثر فقال: "ووقعة اليرموك كانت أوّل خلافة عمرَ بين المسلمين والرّوم بالشّام سنة ثلاثةَ عشرَ، وقيل: سنة خمسةَ عشرَ، ويؤيّد الأوّل قوله في الحديث الّذي بعده إن سنّ عبد الله بن الزّبير كان عشر سنين"(١).

وتحديد عروة لسنّ أخيه عبد الله بعشر سنين، "بحسَب إلغاء الكسر، وإلّا فسنُّه يومئذٍ كان على الصّحيح مقدار اثنتي عشرة سنة"(٢)، ولا داعي للتكلّف الّذي لجأ إليه الحافظ الذّهبيّ، وتحويله الوقعة إلى اليمامة، اعتمادًا على لفظ السّنّ المذكور(٣)، فقد ثبت عن عبد الله بن الزّبير ﷺ أنّه كان مع أبيه يوم اليرموك، فلمّا انهزم المشركون حمل فجعل يجهز على جرحاهم(٤).

ثالثاً: صحّ عن الزّهريّ أنّه قال: "لمّا استُخلف عمرُ نزع خالدًا، فأمّر أبا عبيدة بن الجرّاح، وبعث إليه بعهده وهو بالشّام يوم اليرموك، فمكث العهدُ مع أبي عبيدة شهرين لا يُعَرِّفُه إلى خالدٍ حياءً منه، فقال خالدٌ ﷺ: "أخرجْ أيّها الرّجل عهدك نسمعْ لك ونطيعْ"(٥).

رابعاً: ذهب موسى بن عقبة مولى آل الزّبير (ت: ١٤١هـ/٧٥٨م) وهو "ثقة فقيه إمام في المغازي"(٦) إلى أنّ قيادة المسلمين في يوم اليرموك كانت لخالد بن الوليد ﷺ(٧).

خامساً: ذكر الإخباريّ الصّدوق عليّ بن محمّد المدائنيّ (ت: ٢٢٥هـ/ ٨٤٠م) أنّ خبر عزل الفاروق عمرَ لخالد بن الوليد رضي الله عنهما عن القيادة العامّة بالشّام أتى المسلمين وهم يقاتلون الرّوم باليرموك في شهر رجب(٨).

---

(١) فتح الباري، ج٧، ص٢٩٩، ٣٠٠.

(٢) ابن حجر: فتح الباري، ج٧، ص٣٠٠.

(٣) الذهبي: سير أعلام النّبلاء، ج١، ص٦٣.

(٤) أبو إسحاق الفزاري: السّير، ص٢١٧؛ البيهقي: السّنن الكبرى، ج٩، ص١٥٨، ح١٨١٦٧؛ ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج٢٨، ص١٤٥.

(٥) عبد الرّزاق: المصنّف، ج٥، ص٤٨٣، ح٩٧٧٨. والإسناد صحيح إلى الزّهريّ.

(٦) ابن حجر: تقريب التّهذيب، ج٢، ص١٥١.

(٧) أبو إسحاق الفزاري: السّير، ص١٤٩.

(٨) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٥٥.



سادساً: ثبت عن إمام الجرح والتّعديل يحيى بن معين (ت: ٢٣٣هـ/٨٤٨م) أنّه قال: "قُتل الفضل بن عبّاس يوم اليرموك في عهد أبي بكر الصّدّيق ﷺ"(١).

وبهذا يتبيّن لنا خطأ ابن عساكر (ت: ٥٧١هـ/١١٧٦م) عندما زعم أنّ تأريخ اليرموك بسنة ١٥هـ/٦٣٦م في خلافة عمر ﷺ هو المحفوظ، وأنّ سيف بن عمر التّميميّ هو الّذي انفرد بتأريخها قبل فتح دمشق في أوّل خلافة عمر سنة ١٣هـ/٦٣٤م، وجزم بأنّه "لم يتابع على ذلك"(٢).

وهذه الأدلّة الّتي سقناها تقوّي القول بأنّ وقعة اليرموك كانت بقيادة خالد بن الوليد ﷺ في نهاية عهد الصّدّيق وأوّل خلافة الفاروق.

🕮 أثر العصبيّة القبليّة على رواية أحداث اليرموك:

لا يخفى أنّ تاريخنا الإسلاميّ قد تعرّض لكثير من التّحريف والتّزوير على يد الرّواة المتعصّبين لقبائلهم وعشائرهم، وخاصّة إذا كانوا من المجروحين والمتّهمين، ولذا نرى سيفًا التّميميّ العراقيّ يحمل ابن عمّه القعقاع وجماعة من قبيلة بني تميم فيشهدهم معركة اليرموك، مع أنّه لا يوجد دليل وثيق على شهوده فتوح الشّام أصلاً، ولكنّ سيفًا يتمادى في غيّه فيمسك بيد القعقاع ويجعله أوّل من أنشب القتال في اليرموك، ويدّعي أنّه كان على إحدى مجنّبتيّ القلب، وعكرمة بن أبي جهل ﷺ على المجنّبة الأخرى، ويزعم أنّ خالدًا أمرهما ببدء القتال معًا، فأنشباه، والتحم النّاس في القتال بعدهما(٣).

ولقد اعتدنا من سيف مزاحمته لأبطال الإسلام وكبار القادة بابن عمّه القعقاع التّميميّ في مواطن كثيرة، وتبيّن لنا كذبه في غالبيّة المفاخر والفعال العظام الأوائل الّتي ألصقها بقومه عامّة وبالقعقاع خاصّة.

---

(١) تاريخ ابن معين، رواية الدّوري، تحقيق/ أحمد محمّد نور سيف، مركز البحث العلميّ وإحياء التّراث الإسلامي، مكّة المكرّمة، الطّبعة الأولى، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، ج٣، ص٢٧؛ الحاكم: المستدرك على الصّحيحين، ج٣، ص٣٠٨.

(٢) تاريخ دمشق، ج٢، ص١٤٢. وينظر العيني: نخب الأفكار في تنقيح مباني الأخبار في شرح معاني الآثار، ج٦، ص١٣٠، ١٣١.

(٣) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٣٧.

ويطلّ علينا هاهنا راوية متّهمٌ آخر هو المؤرّخ الشّيعيّ أحمد بن أعثم الكوفيّ الأزديّ اليمنيّ (ت: ٣١٤هـ/٩٢٦م) فيدّعي أنّ أوّل من أنشب حرب اليرموك كان غلامًا من قبيله الأزد(١).

ولقد كذّب أستاذنا الدّكتور محمد جبر أبو سعدة رواية المؤرّخ ابن أعثم الكوفيّ الّتي تجعل أوّليّة إنشاب حرب اليرموك على يد غلام أزديّ يمنيّ، بحجّة تعصّب ابن أعثم للأزد واليمنيّة(٢)؛ لأنّه مؤرّخ شيعيّ، واضح المذهب، يكشف عن رأيه بقوّة، ويعلن عنه في كتابه إعلانًا لا خفاء بعده، ثمّ إنّه انتهز كتابه "الفتوح" ليتغنّى بأمجاد عشيرته الأزد خاصّة، واليمن عامّة(٣).

وإذا نظرنا في الرّوايات الّتي بين أيدينا يمكننا القول بأنّ عكرمة بن أبي جهل ﷺ هو الّذي بدأ الصّدام الجماعيّ بين المسلمين والرّوم(٤)، وذلك لثبوت الخبر فيه من رواية الإمام المجتهد محمّد بن الحسن الشّيبانيّ صاحب أبي حنيفة (ت: ١٨٩هـ/٨٠٤م)، وهو معاصر لسيف التّميميّ، وخبير بتاريخ الكوفيّين، ويتنزّه عن التّحيّز لقبيلة على أخرى، وبروايته نجزم بكذب سيف في ذكره أوّليّة القعقاع التّميميّ(٥).

وأمّا إن قصدنا الأوّليّة الّتي كانت تبدأ بالمبارزة في التقاء الجيوش غالبًا فينحصر الأمر بين قيس بن هبيرة المكشوح المراديّ اليمنيّ(٦)، وخاله عمرو بن معدِيكرب اليمنيّ(٧).

---

(١) الفتوح، مج١، ص٢٠٠.

(٢) محمّد جبر أبو سعدة: ابن أعثم الكوفيّ ومنهجه التّاريخيّ في كتاب الفتوح، القاهرة، الطّبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م، ص١٠٥.

(٣) ابن أعثم الكوفيّ ومنهجه التّاريخيّ في كتاب الفتوح، ص٨٨.

(٤) السّرخسي: شرح السّير الكبير لمحمّد بن الحسن الشّيباني، جا، ص٣٨، ٣٩.

(٥) محمّد عبد العال محمّد حسن: مختلقات سيف بن عمر التّميميّ في تاريخ قومه، مجلّة كلّيّة اللّغة العربيّة بأسيوط، عدد ٣٨، ج٢، ص١٨٩١- ١٨٩٢.

(٦) الأزدي: فتوح الشّام، ص١٧١، ١٧٢.

(٧) ابن حجر: الإصابة، ج٤، ص٥٧٠.



📖 **وفاة الصّدّيق**:

وبعد رحلة مباركة مع الدّعوة إلى الإسلام، والجهاد في سبيل الله، والقيام بأعباء الدّولة الإسلاميّة وتوطيد أركانها توفّي أبو بكر الصّدّيق ﷺ في يوم الاثنين ٢١ جمادى الآخرة سنة ١٣هـ/ ٢٢ أغسطس ٦٣٤م[١]، عن ثلاثة وستّين عامًا[٢]، بلا خلاف في سنّه[٣]، وكانت خلافته سنتين، وثلاثة أشهر، وعشرين يومًا[٤]، أو عشرة أيّام[٥].

(١) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٤٧. ويجعل ابن حجر وفاة الصّدّيق ﷺ في جمادى الأولى، ويرى في التّواريخ وهما. الإصابة في تمييز الصّحابة، ج٤، ص١٥٠.

(٢) رواه مسلم عن أنس بن مالك ﷺ. صحيح مسلم، (كتاب الفضائل، باب كم سنّ النّبيّ ﷺ يوم قُبض)، ج٤، ص١٨٢٥، ح٢٣٤٨.

(٣) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٢١.

(٤) تاريخ خليفة، ص١٢٢.

(٥) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٤٨.

الباب الثّاني

خلافة الفاروق عمر

(١٣ - ٢٣هـ/٦٣٤ - ٦٤٤م)

الفصل الأوّل

سيرة عمر قبل الخلافة

🕮 نسب عمر وكنيته ومولده وصفته:

هو أبو حفص، عمرُ، بن الخطّاب، بن نُفيل، بن عبد العُزّى، العدويّ، القرشيّ، وأمّه حَنْتَمَةُ، بنت هاشم، بن المغيرة، المخزوميّ[1].

ولد عمر بن الخطّاب بعد عام الفيل بثلاثَ عشرةَ سنة، وكان جسيمًا[2]، أصلعَ، أبيضَ، أَعْسَرَ يَسَرَ[3]، طُوالاً، مشرِفًا على النّاس كأنّه على دابّةٍ[4]، قويًّا شديدًا، لا واهنًا ولا ضعيفًا[5]، وكان يصارع النّاس في سوق عُكّاظ[6].

🕮 حياة عمر قبل الإسلام:

كان عمر بن الخطّاب يرعى الإبل لأبيه وهو صغير، وقد تحدّث عن ذلك في خلافته، فعندما مرّ بشعاب ضَجْنَانَ وهو قافل من الحجّ وقف فقال للنّاس: "لقد رأيتُني في هذا المكان وأنا في إبل الخطّاب بهذا الوادي في مَدْرَعَة صوف، وكان الخطّاب فظًّا غليظًا، يُتعبُني إذا عملت، ويضربُني إذا قصّرت، وقد أمسيتُ وليس بيني وبين الله أحدٌ، ثمّ أصبحتُ اليومَ يضرب النّاس بجنباتي ليس فوقي منهم أحدٌ، ثمّ تمثّل قائلاً[7]:

---

(١) ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٣، ص٢٦٥.

(٢) رواه ابن أبي الدّنيا عن أبي رجاء العطارديّ بسند صحيح. ابن حجر: الإصابة، ج٤، ص٤٨٤.

(٣) أعسر يسر: هو الّذي يعمل بيديه جميعًا. ابن منظور: لسان العرب، ج٤، ص٥٦٥.

(٤) رواه الحاكم من مشاهدة زرّ بن حبيش. المستدرك على الصّحيحين، ج٣، ص٨٧. وصحّحه الحاكم، وأقرّه الذّهبيّ. وهو صحيح كما قالا. ورواه الفسويّ في المعرفة والتّاريخ، (نصوص من الجزء الأوّل المفقود)، ج٣، ص٣٠٨. وجوّد ابن حجر إسناده. الإصابة، ج٤، ص٤٨٤.

(٥) ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٣، ص٣٢٤، ٣٢٥، ٣٤٤.

(٦) الطّبقات الكبرى، ج٣، ص٢٩٠، ٣٢٥.

(٧) البلاذري: أنساب الأشراف، ج١٠، ص٢٩٩؛ ابن شبّة: تاريخ المدينة، ج٢، ص٢٢١. والأثر حسن لغيره. عبد السّلام محسن آل عيسى: دراسة نقدية في المرويّات الواردة في سيرة عمر بن الخطّاب وسياسته الإداريّة، ج١، ص١١٨.

لَا شَيْءَ مِمَّا تَرَى تَبْقَى بَشَاشَتُهُ ** يَبْقَى الإِلَهُ وَيُودِي الْمَالُ وَالْوَلَدُ
لَمْ تُغْنِ عَنْ هُرْمُزٍ يَوْمًا خَزَائِنُهُ ** وَالْخُلْدَ قَدْ حَاوَلَتْ عَادٌ فَمَا خَلَدُوا
وَلَا سُلَيْمَانُ إِذْ تَجْرِي الرِّيَاحُ بِهِ ** وَالإِنْسُ وَالْجِنّ فِيمَا بَيْنَهَا تَرِدُ
أَيْنَ الْمُلُوكُ الّتِي كَانَتْ لِعِزّتِهَا ** مِنْ كُلّ أَوْبٍ إِلَيْهَا وَافِدٌ يَفِدُ
حَوْضٌ هُنَالِكَ مَوْرُودٌ بِلَا كَذِبٍ ** لَا بُدَّ مِنْ وِرْدِهِ يَوْمًا كَمَا وَرَدُوا

وقد اشتغل عمر بن الخطّاب في الجاهليّة بالتّجارة وربح منها ثروة كبيرة، حتّى إنّه لمّا هاجر إلى المدينة مع عيّاش بن أبي ربيعة المخزوميّ وأتى أبو جهل وأخوه الحارث بن هشام لخداع عيّاش وإعادته إلى مكّة قال له عمر: "والله إنّك لتعلم أنّي لمن أكثر قريش مالاً، فلك نصف مالي، ولا تذهب معهما"(١).

وكان عمر يسافر للتّجارة إلى الشّام والعراق ويشارك النّاس في تجارة البزّ(٢)، وقد واصل نشاطه التّجاريّ في الإسلام، فكثيرًا ما حدّث بأنّه انشغل بالصّفق في الأسواق بعد هجرته إلى المدينة(٣).

وكانت لعمر بن الخطّاب السّفارة في الجاهليّة، وذلك أنّ قريشًا كانوا إذا وقع بينهم وبين غيرهم حربٌ بعثوه سفيرًا، وإن نافرهم منافرٌ أو فاخرهم مفاخرٌ رضوا به، وبعثوه منافرًا ومفاخرًا، وكان جديرًا للقيام بهذه المهمّة؛ لما له من مكانة عالية ومنزلة رفيعة في قريش، ولمكانة أبيه وجدّه من قبله، ولما تميّز به من صفات خَلقيّة قويّة، وما اتّصف به من رجاحة العقل وصواب الرّأي(٤)، وكان عمر أحد سبعةَ عشرَ رجلاً يعرفون القراءة والكتابة في مكّة(٥).

(١) ابن هشام: السّيرة النّبويّة، ج١، ص٤٧٥. وإسناده صحيح.

(٢) عبد السّلام محسن آل عيسى: دراسة نقديّة في المرويّات الواردة في سيرة عمر بن الخطّاب، ج١، ص١٢٠- ١٢٢. ولئن كانت هذه المرويّات ضعيفة، فإنّ مثلها لا يحتاج إلى كبير توثيق.

(٣) البخاري: الصّحيح، (كتاب البيوع، باب الخروج في التّجارة)، ج٢، ص٧٢٧، ح١٩٥٦.

(٤) قوّى الدّكتور عبد السّلام محسن آل عيسى أخبار قيام عمر بالسّفارة بهذه الأسباب مع ضعف أسانيدها. دراسة نقديّة في المرويّات الواردة في سيرة عمر بن الخطّاب، ج١، ص١٢٣- ١٢٤.

(٥) البلاذري: فتوح البلدان، ص٤٨٧.

🕮 إشاعة وأد عمر بن الخطّاب ابنته في الجاهليّة:

لا جدال في قيام أناس من العرب بوأد بناتِهم في الجاهليّة؛ فقد ثبت ذلك عنهم في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ۝٩﴾[1]، ولا يضير أحدًا من الصّحابة ﷺ قيامه بوأد البنات في الجاهليّة؛ لأنّ الإسلام يجُبّ ما قبله من الشّرك فما دونه، ولكنّ الرّواية الّتي تنصّ على قيام عمر ﷺ بوأد ابنته ودفنها حيّة وهي تنفض عنه التّراب لا تعدو أن تكون إشاعة مكذوبة ساعد السّهو والغلط على شيوعها.

والثّابت عن عمر ﷺ أنّه سُئل عن قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ﴾، فقال: "جَاءَ قَيْسُ بْنُ عَاصِمٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي وَأَدْتُ بَنَاتٍ لِي فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَقَالَ: "أَعْتِقْ عَنْ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ رَقَبَةً"، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي صَاحِبُ إِبِلٍ، قَالَ: "فَانْحَرْ عَنْ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ بَدَنَةً"[2].

ولو وأد عمر بن الخطّاب ﷺ ابنته في الجاهليّة لروى صنيع نفسه قبل ذكره خبر قيس بن عاصم التّميميّ.

وقد وقع في بعض كتب الشّافعيّة أنّ السّائل للنّبيّ ﷺ هو عمر بن الخطّاب ﷺ، ونصّهم: "رُوى عن عمر أنّه سأل النّبيّ ﷺ فقال: إنّي وأدتُ في الجاهليّة، فقال ﷺ أعتق لكلّ موءودة رقبة"[3].

---

(١) سورة التكوير: الآيتان ٨، ٩.

(٢) البزّار: البحر الزّخّار، (مسند البزّار)، تحقيق/ محفوظ الرّحمن زين الله، وآخرين، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنوّرة، الطّبعة الأولى، ١٩٨٨- ٢٠٠٩م، جا، ص٣٥٥، ح٢٣٨؛ الطّبراني: المعجم الكبير، ج١٨، ص٣٣٧، ح٨٦٣. وقال الهيثمي: "رواه البزّار والطّبرانيّ، ورجال البزّار رجال الصّحيح غير حسين ابن مهدي الأيليّ وهو ثقة". مجمع الزّوائد، ج٧، ص١٣٤، ح١١٤٦٩.

(٣) الماوردي: الحاوي الكبير في فقه مذهب الإمام الشّافعي، (شرح مختصر المزني)، تحقيق/ علي محمّد معوّض، وعادل أحمد عبد الموجود، دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م، ج١٣، ص٦٧؛ الرّوياني الشّافعي: بحر المذهب، تحقيق/ طارق فتحي السّيّد، دار الكتب العلميّة، بيروت، الطّبعة الأولى، ٢٠٠٩م، ج١٤، ص٢٤٥؛ العمراني: البيان في مذهب الإمام الشّافعيّ، تحقيق/ قاسم محمّد النّوري، دار المنهاج، جدّة، الطّبعة الأولى، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ج١١، ص٦٢٣؛ النّووي: المجموع شرح المهذّب، المكتبة السّلفيّة، المدينة المنوّرة، ج١٩، ص١٨٧.

وهذه الرّواية محرّفة عن رواية قيس بن عاصم التّميميّ الّذي وأد عددًا من البنات، وأمره النّبيّ ﷺ أن يُعتق عن كلّ موءودة منهنّ رقبة أو بدنة، كما يتّضح من دليل مذهب الشّافعيّة عند إمامهم الحافظ البيهقيّ(١).

ويدلّ على بطلان وأد عمر ؓ ابنته عدّة وجوه، منها:

أوّلاً: يذكر أهلُ الأخبار أنّ عمر ؓ تزوّج زينب بنت مظعون الجُمَحِيّة القرشيّة في الجاهليّة فولدت له حفصة، وعبد الله، وعبد الرّحمن الأكبر(٢)، وكان ميلاد حفصة أيّام بناء قريشٍ البيت الحرام، وذلك قبل البعثة بخمس سنين(٣). وعلى هذا فإنّ حفصة هي أكبر بنات عمر ؓ، ولو وأد عمر في الجاهليّة لما أبقى على حفصة.

ثانياً: ثبت عن أسماءَ بنت أبي بكرٍ الصّدّيق ؓ أنّها قالت: "رَأَيْتُ زَيْدَ بْنَ عَمْرِو بْنِ نُفَيْلٍ قَائِمًا مُسْنِدًا ظَهْرَهُ إِلَى الكَعْبَةِ يَقُولُ: يَا مَعَاشِرَ قُرَيْشٍ، وَاللَّهِ مَا مِنْكُمْ عَلَى دِينِ إِبْرَاهِيمَ غَيْرِي، وَكَانَ يُحْيِي المَوْءُودَةَ، يَقُولُ لِلرَّجُلِ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَقْتُلَ ابْنَتَهُ، لَا تَقْتُلْهَا، أَنَا أَكْفِيكَهَا مَئُونَتَهَا، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا تَرَعْرَعَتْ قَالَ لِأَبِيهَا: إِنْ شِئْتَ دَفَعْتُهَا إِلَيْكَ، وَإِنْ شِئْتَ كَفَيْتُكَ مَئُونَتَهَا"(٤).

ولا يخفى أنّ زيد بن عمرو بن نفيل العدويّ هو ابن عمّ عمر بن الخطّاب بن نفيل، ولا يعقل أنّ يحيي زيدٌ الموءودات في قريش كلّها ويترك بنات عشيرته!

ثالثاً: لم يرد شيء عن وأد عمر بن الخطّاب ابنته في كتب التّاريخ، أو الحديث، أو الأدب، وغيرها، إلّا ما وقع في بعض كتب الفقه على سبيل السّهو أو الخطأ.

---

(١) السّنن الكبرى، (كتاب الدّيّات، باب ما جاء في الكفّارة في الجنين وغير ذلك)، ج٨، ص٢٠٢، ح١٦٤٢٤.

(٢) مصعب الزّبيريّ: نسب قريش، تحقيق/ ليفي بروفنسال، دار المعارف، القاهرة، الطّبعة الثّالثة، ص٣٤٨؛ البلاذري: أنساب الأشراف، ج١٠، ص٢٩٤؛ الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٥٦٤؛ ابن كثير: البداية والنّهاية، ج٧، ص١٥٦.

(٣) ابن سعد: الطّبقات الكبير، ج١٠، ص٨٠؛ الحاكم: المستدرك، ج٤، ص١٦.

(٤) البخاري: الصّحيح، (كتاب فضائل الصّحابة، باب حديث زيد بن عمرو بن نفيل)، ج٣، ص١٣٩٢، ح٣٦١٦؛ النّسائي: السّنن الكبرى، (كتاب مناقب الصّحابة، باب زيد بن عمرو بن نفيل)، ج٥، ص٥٤، ح٨١٨٧.



رابعاً: أنّ الخطّاب بن نفيل العدويّ - والد عمر - كان فظًّا غليظًا يُتعبُ ولده عمر إذا عمل، ويضربُه إذا قصّر[1]، ومع ذلك فلم يقتل الخطّابُ بناتِه، وأخبار السّيّدة فاطمة بنت الخطّاب مع زوجها سعيد بن زيد بن عمر بن نفيل العدويّ مشهورة في السّيرة النّبويّة خلال العهد المكّي.

خامساً: يُحكى أنّ عمر ﷺ كان جالسًا مع بعض أصحابه، فضحك قليلاً، ثمّ بكى، فلمّا سُئل عن السّبب قال: كنّا في الجاهليّة نصنع صنمًا من العجوة، فنعبده، ثمّ نأكله، وهذا سبب ضحكي، أمّا بكائي، فلأنّه كانت لي ابنة، فأردت وأدها، فأخذتها معي، وحفرت لها حفرة، فصارت تنفض التّراب عن لحيتي، فدفنتها حيّة![2].

وعندي أنّ القصّاص قد ركّبوا الرّواية المجهولة الصّحابيّ[3] مع رواية الفقهاء المغلوطة عن الفاروق، وأنتجوا منهما هذه الحكاية السّخيفة، وألصقوها بعمرَ ﷺ.

📖 **إسلام عمر**:

اختلفت الرّوايات في إسلام عمر بن الخطّاب ﷺ بين السّنة الخامسة من البعثة[4]، والسّنة السّادسة[5]، ورجّح الحافظ ابن كثير تأخّر إسلامه إلى نحو السّنة التّاسعة من البعثة؛ لأنّ ولده عبد الله بن عمر رضي الله عنهما روى قصّة إسلامه مشاهدة، وكان عبد الله يوم أحد ابن أربعَ عشرةَ سنة[6].

---

(١) البلاذري: أنساب الأشراف، ج١٠، ص٢٩٩؛ ابن شبّة: تاريخ المدينة، ج٢، ص٢٢١.

(٢) أوردها عبّاس محمود العقاد، ولم يسمّ مصدره، وقد جزم بكذبها واختلاقها. عبقريّة عمر، نهضة مصر، القاهرة، الطّبعة العاشرة، ٢٠٠٦م، ص١٩٣، ١٩٤.

(٣) الدّارمي: سنن الدّارمي، دار المغني، السّعوديّة، الطّبعة الأولى، (كتاب علامات النّبوّة وفضائل سيّد الأوّلين والآخرين، باب ما كان عليه النّاس قبل مبعث النّبيّ من الضّلالة)، ج١، ص١٥٣، ح٢؛ السّمرقندي: بحر العلوم (تفسير السّمرقندي)، تحقيق/ محمود مطرجي، دار الفكر، بيروت، ج١، ص٥٠٦؛ القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، تحقيق/ أحمد البردوني، دار الكتب المصريّة، القاهرة، الطّبعة الثّانية، ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م، ج٧، ص٩٧.

(٤) ابن هشام: السّيرة النّبويّة، ج١، ص٣٤٢.

(٥) ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٣، ص٢٦٩، ٢٧٠.

(٦) البداية والنّهاية، ج٣، ص١٠٣.

ولا مانع أن يروي عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قصّة إسلام أبيه وهو في الخامسة من عمره أو نحوها، فقد أمّ عمرو بن سلمة رضي الله عنه النّاس على عهد النّبيّ ﷺ وهو ابن ستٍّ أو سبع سنين[1]، وروى النّبيّ ﷺ حادثة شقّ الصّدر هو وأخوه السّعديّ في سنّ صغيرة دون ذلك[2].

وأما الرّوايات الّتي تذكر إسلامه بعد تسعة وثلاثين رجلاً، أو بعد أربعين، أو خمسة وأربعين[3]، فلا يعوّل عليها؛ "فإنّ المهاجرين إلى الحبشة كانوا فوق الثّمانين، اللّهمّ إلّا أن يقال: إنّه كان تمام الأربعين بعد خروج المهاجرين"[4].

وأمّا كيفيّة إسلام عمر فقد وردت فيها روايات عديدة مختلفة من طرق ضعيفة الإسناد، وهي بمجموعها تفيد أنّ إسلام عمر رضي الله عنه كان بسبب سماعه للقرآن وتأثّره به[5].

وقد فرح النّبيّ ﷺ والمسلمون بإسلام عمر رضي الله عنه فرحًا شديدًا، لأنّه كان عزًّا ورفعة ومنعة للمسلمين؛ لقوّته البدنيّة، ومنزلته العالية، وشخصيّته المهيبة، ومحالفة عشيرته لقبائل الأحلاف المعادية لبني هاشم والمطيّبين.

ولم يفتأ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يتحدّث بنعمة إسلام عمر رضي الله عنه فيقول: "مَا زِلْنَا أَعِزَّةً مُنْذُ أَسْلَمَ عُمَرُ"[6]، "إِنَّ إِسْلَامَ عُمَرَ كَانَ فَتْحًا، وَإِنَّ هِجْرَتَهُ كَانَتْ نَصْرًا، وَإِنَ إِمَارَتَهُ كانت رَحْمَةً، وَاللَّهِ مَا اسْتَطَعْنَا أَنْ نُصَلِّيَ عِنْدَ الْكَعْبَةِ ظَاهِرِينَ حَتَّى أَسْلَمَ عُمَرُ"[7].

---

(١) البخاري: الصّحيح، (كتاب المغازي، باب من شهد الفتح)، ج٤، ص١٥٦٤، ح٤٠٥١.

(٢) ابن هشام: السّيرة النّبويّة، ج١، ص١٦٤، ١٦٥.

(٣) عبد السّلام محسن آل عيسى: دراسة نقديّة في المرويّات الواردة في سيرة عمر بن الخطّاب، ج١، ص١٤٣، ١٤٤.

(٤) ابن كثير: البداية والنّهاية، ج٣، ص١٠٠.

(٥) عبد السّلام محسن آل عيسى: دراسة نقديّة في المرويّات الواردة في سيرة عمر بن الخطّاب، ج١، ص١٢٨.

(٦) البخاري: الصّحيح، (كتاب فضائل الصّحابة، باب مناقب عمر بن الخطّاب)، ج٣، ص١٣٤٨، ح٣٤٨١.

(٧) الطّبراني: المعجم الكبير، ج٩، ص١٦٢، ح٨٨٠٦. وعلّق عليه الهيثميّ فقال: "رواه الطّبرانيّ، ورجاله رجال الصّحيح إلّا أنّ القاسم لم يدرك جدّه ابن مسعود". مجمع الزّوائد، ج٩، ص٦٣، ح١٤٤١١. لكنّ الحاكم وصل الرّواية وصحّح إسنادها، وأقرّه الذّهبيّ. المستدرك، ج٣، ص٩٠، ح٤٤٨٧.



ولمّا أسلم عمر ﷺ أتى النّبيّ ﷺ فقال: "يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَا أَدَعُ مَجْلِسًا جَلَسْتُهُ فِي الْكُفْرِ إِلّا أَعْلَنْتُ فِيهِ الإِسْلامَ، فَأَتَى الْمَسْجِدَ وَفِيهِ بُطُونُ قُرَيْشٍ، مُتَحَلِّقَةٌ، فَجَعَلَ يُعْلِنُ الإِسْلامَ، وَيَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، فَثَارَ الْمُشْرِكُونَ، فَجَعَلُوا يَضْرِبُونَهُ وَيَضْرِبُهُمْ، فَلَمَّا تَكَاثَرُوا عَلَيْهِ خَلَّصَهُ الْعَاصُ بْنُ وَائِلٍ السَّهْمِيُّ"(١).

ويُروى أنّه لمّا أصبح عمر بعد إسلامه أتى باب أبي جهل بن هشام - وَكَانَ مِنْ أَخْوَالِ أُمِّ عُمَرَ حَنْتَمَةَ بِنْتِ هِشَامِ بْنِ الْمُغِيرَةِ - فضَرَب عَلَيْهِ بَابَهُ، فَخَرَجَ إِلَيه فَقَالَ: مَرْحَبًا وَأَهْلًا يَا ابْنَ أُخْتِي، مَا جَاءَ بِكَ؟ قَالَ: جِئْتُ أُخْبِرُكَ أَنِّي قَدْ آمَنْتُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَصَدَّقْتُهُ بِمَا جَاءَ بِهِ، فَضَرَبَ بِالْبَابِ فِي وَجْهِ عُمَرَ، وَقَالَ: "قَبَّحَكَ اللَّهُ وَقَبَّحَ مَا جِئْتَ بِهِ"(٢).

🕮 تديّن عمر وقوّة إيمانه:

لقد كان عمر ﷺ من صحابة رسول الله ﷺ المقرّبين، وممّن شهد لهم النّبيّ ﷺ بكمال الإيمان وصدق اليقين(٣)، وتدلّ على ذلك جملة من الأحاديث الصّحيحة، منها: أنّ النّبيّ ﷺ أدركه في ركب وهو يحلف بأبيه، فقال: "إِنَّ اللَّهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ"، فقال عمر ﷺ بعد ذلك: فَوَاللَّهِ مَا حَلَفْتُ بِهَا مُنْذُ سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ ذَاكِرًا وَلَا آثِرًا(٤).

ويدلّ على كمال دين الفاروق عمر ﷺ ما حدّث به أبو سعيدٍ الخدْريّ ﷺ أنّه سمع رسول الله ﷺ يقول: "بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُ النَّاسَ عُرِضُوا عَلَيَّ، وَعَلَيْهِمْ قُمُصٌ، فَمِنْهَا مَا يَبْلُغُ الثَّدْيَ، وَمِنْهَا مَا يَبْلُغُ دُونَ ذَلِكَ، وَعُرِضَ عَلَيَّ عُمَرُ وَعَلَيْهِ قَمِيصٌ يَجُرُّهُ"، قَالُوا: فَمَا أَوَّلْتَهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: "الدِّينَ"(٥).

(١) الطّبراني: المعجم الأوسط، ج٢، ص٧٤، ح١٢٩٣. وقال الهيثمي: "رجاله ثقات". مجمع الزّوائد ومنبع الفوائد، ج٩، ص٦٥، ح١٤٤١٥.

(٢) أحمد بن حنبل: فضائل الصّحابة، ج١، ص٣٤٨، ٣٤٩، ح٣٧٥. ورجال إسناده ثقات، لكنّه منقطع.

(٣) عبد السّلام محسن آل عيسى: دراسة نقديّة في المرويّات الواردة في سيرة عمر، ج١، ص١٦٦.

(٤) البخاري: الصّحيح، (كتاب الأيمان والنّذور، باب لا تحلفوا بآبائكم)، ج٦، ص٢٤٤٩، ح٦٢٧١؛ مسلم: الصّحيح، (كتاب الأيمان، باب النهي عن الحلف بغير الله تعالى)، ج٣، ص١٢٦٦، ح١٦٤٦. وآثرًا: أي ناقلاً وحاكيًا.

(٥) البخاري: الصّحيح، (كتاب الإيمان، باب تفاضل أهل الإيمان في الأعمال)، ج١، ص١٧، ح٢٣؛ مسلم: الصّحيح، (كتاب الفضائل، باب فضائل عمر بن الخطّاب)، ج٤، ص١٨٥٩، ح٢٣٩٠.

ويوضّح هذا المعنى حديث أنس ﷺ أنّ النّبيّ ﷺ قال: "أَرْحَمُ أُمَّتِي بِأُمَّتِي أَبُو بَكْرٍ، وَأَشَدُّهُمْ فِي دِينِ اللهِ عُمَرُ"(١). وحدّث عقبة بن عامر ﷺ أنّ رسول الله ﷺ قال: "لَوْ كَانَ بَعْدِي نَبِيٌّ لَكَانَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ"(٢).

وقد شهد حذيفة بن اليمان - صاحب سرّ رسول الله ﷺ - ببراءة عمر ﷺ من النّفاق، وذلك أنّه مرّ على حذيفة ﷺ وهو جالسٌ في المسجد، فدعاه للصّلاة على رجل قد مات، فلمّا فرغ من صلاته رأى حذيفةَ جالسًا مكانه فعرَف سبب امتناعه، فقال: "يَا حُذَيْفَةُ أُنْشِدُكَ بِاللَّهِ أَمِنَ الْقَوْمِ أَنَا؟ قال: اللَّهُمَّ لَا، وَلَنْ أُبَرِّيَ أَحَدًا بَعْدَكَ"، فجادتْ عينا عمر ﷺ بالدّموع(٣).

ولمّا حدّثت أُمّ سلمةَ ﷺ عبدَ الرّحمن بن عوفٍ ﷺ أنّها سمعت النّبيّ ﷺ يقول: "إِنَّ مِنْ أَصْحَابِي مَنْ لَا يَرَانِي بَعْدَ أَنْ أُفَارِقَهُ"، وبلغ ذلك عمر ﷺ أتاها فقال لها: "بِاللهِ مِنْهُمْ أَنَا"؟ قَالَتْ: لَا، وَلَنْ أُبْلِيَ(٤) أَحَدًا بَعْدَكَ"(٥).

وكان عليّ بن أبي طالب وعبد الله بن مسعود وأمّ المؤمنين عائشة ﷺ يقولون: "إِذَا ذُكِرَ الصَّالِحُونَ فَحَيَّهَلاً بِعُمَرَ"(٦).

---

(١) أحمد بن حنبل: المسند، ج٢١، ص٤٠٥، ٤٠٦، ح١٣٩٩٠؛ ابن ماجة: السّنن، تحقيق/ شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، (باب فضائل زيد بن ثابت)، ج١، ص١٠٧، ح١٥٤. وصحّح المحقّقون إسناده.

(٢) التّرمذي: السّنن، (كتاب المناقب، مناقب عمر)، ج٥، ص٦١٩، ح٣٦٨٦. وقال: "حسن غريب".

(٣) وكيع بن الجرّاح: الزّهد، تحقيق/ عبد الرّحمن عبد الجبّار الفريوائي، مكتبة الدّار، المدينة المنوّرة، الطّبعة الأولى، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، ص٧٩١، ح٤٧٧. وإسناد الأثر صحيح. عبد السّلام محسن آل عيسى: دراسة نقديّة في المرويّات الواردة في سيرة عمر بن الخطّاب، ج١، ص٤٢٠.

(٤) في رواية ابن أبي شيبة: "ولن أخبر"، وفي رواية أبي يعلى: "وَلَنْ أُبَرِّئَ أَحَدًا بَعْدَكَ". مصنّف ابن أبي شيبة، ج٧، ص٤٨١، ح٣٧٣٩٠. مسند أبي يعلى، ج١٢، ص٤٣٦، ح٧٠٠٣.

(٥) أحمد بن حنبل: المسند، ج٤٤، ص٩٢، ٩٣، ح٢٦٤٨٩. وصحّح المحقّقون إسناده.

(٦) رواه أحمد بن حنبل عن عائشة بإسناد صحيح. المسند، ج٤٢، ص٧٧، ح٢٥١٥٢. ورواه ابن أبي شيبة وأحمد بن حنبل عن ابن مسعود بإسناد صحيح. المصنّف، ج٦، ص٣٥٤، ح٣١٩٧٥؛ فضائل الصّحابة، ج١، ص٣٢٢، ح٣٤٠. ورواه الطّبرانيّ عن عليّ بن أبي طالب. المعجم الأوسط، ج٥، ص٣٥٩، ح٥٥٤٥. وحسّن الهيثمي إسناده. مجمع الزّوائد، ج٩، ص٦٧، ح١٤٤٢٧.

📖 **هيبة عمر**:

لقد أعطى الله ﷻ الفاروق عمر بن الخطّاب ﷺ هيبة جعلت النّاس يهابونه رجالاً ونساءً، وليس هذا فحسْب، بل كانت الشّياطين إذا رأت عمر ﷺ فرقت منه وهربت، فقد "استأذن عمرُ بنُ الخطّاب ﷺ على رسول الله ﷺ وعِنده نسوةٌ من قريشٍ يكلّمْنه ويستكثرْنه، عاليةً أصواتُهُنّ على صوته، فلمّا استأذن عمر قمن فبادرن الحجاب، فأذن له رسول الله ﷺ فدخل عمر ورسول الله ﷺ يضحك، فقال عمر: أضحك الله سنّك يا رسول الله، فقال النّبيّ ﷺ: "عَجِبْتُ مِنْ هَؤُلَاءِ اللَّاتِي كُنَّ عِنْدِي، فَلَمَّا سَمِعْنَ صَوْتَكَ ابْتَدَرْنَ الحِجَابَ"، فَقَالَ عُمَرُ: فَأَنْتَ أحقُّ أَنْ يَهَبْنَ يَا رَسُولَ اللَّهِ، ثُمّ قَالَ: يَا عَدُوّاتِ أنفُسِهنّ أتَهَبْنني وَلَا تَهَبْنَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ؟ فَقُلْنَ: نَعَمْ، أَنْتَ أفظُّ وَأَغْلَظُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "إِيهًا يَا ابْنَ الخَطَّابِ، وَالّذي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا لَقِيَكَ الشَّيْطَانُ سَالِكًا فَجًّا قَطُّ، إِلَّا سَلَكَ فَجًّا غَيْرَ فَجِّكَ"[(١)].

وقد شاهدت عائشة ﵂ ذات يوم جاريةً حبشيّةً تَزْفِنُ[(٢)] وَالصِّبْيَانُ حَوْلَهَا، فلمّا طلع عمر ﷺ تفرّقوا، ورجعت عائشة، فقال النّبيّ ﷺ: "إِنِّي لَأَنْظُرُ إِلَى شَيَاطِينِ الْإِنْسِ وَالجِنِّ قَدْ فَرُّوا مِنْ عُمَرَ"[(٣)].

وحدث عند عودة رسول الله ﷺ من إحدى الغزوات أن جاءته جاريةٌ سوداءُ، فقالت: "يا رسول الله، إنّي كنت نذَرت إن ردّك الله صالحًا أن أضرب بين يديك بالدّفّ، وأتغنّى"، فقال لها النّبيّ ﷺ: "إن كُنْتِ نَذَرْتِ فَاضْرِبِي، وَإِلّا فَلَا"، فجعلت تضرب، فدخل أبو بكر وعليٌّ وعثمان ﷺ الواحد تلو الآخر وهي تضرب، ثمّ دخل عمر، فألقت الدّفّ، وقعدت عليه، فقال رسول الله ﷺ: "إِنَّ الشَّيْطَانَ لَيَخَافُ مِنْكَ يا عُمَرُ، إِنِّي كُنْتُ جَالِسًا وَهِيَ تَضْرِبُ،

---

(١) البخاري: الصّحيح، (كتاب فضائل الصّحابة، باب مناقب عمر بن الخطّاب)، ج٣، ص١٣٤٧، ح٣٤٨٠؛ مسلم: الصّحيح، (كتاب فضائل الصّحابة، باب من فضائل عمر بن الخطّاب)، ج٤، ص١٨٦٣، ح٢٣٩٦.

(٢) تزفن: ترقص وتلعب. ابن منظور: لسان العرب، ج١٣، ص١٩٧.

(٣) التّرمذي: السّنن، (كتاب المناقب، باب مناقب أبي حفص عمر)، ج٥، ص٦٢١، ح٣٦٩١. وقال التّرمذيّ: "هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه".

فَدَخَلَ أبو بَكْرٍ وَهِيَ تَضْرِبُ، ثُمَّ دخل عَلِيٌّ وَهِيَ تَضْرِبُ، ثُمَّ دخل عُثْمَانُ وَهِيَ تَضْرِبُ، فَلَمّا دَخَلْتَ أَنْتَ يَا عُمَرُ أَلْقَتْ الدُّفَّ"(١).

📖 غَيْرَة عمر:

كان عمر ﷺ من أشدّ النّاس غَيرة، فقد حدّث أبو هريرة ﷺ فقال: "بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ جُلُوسٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "بَيْنَمَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُنِي فِي الجَنَّةِ، فَإِذَا امْرَأَةٌ تَتَوَضَّأُ إِلَى جَانِبِ قَصْرٍ، فَقُلْتُ: لِمَنْ هَذَا؟ قَالُوا: هَذَا لِعُمَرَ، فَذَكَرْتُ غَيْرَتَكَ، فَوَلَّيْتُ مُدْبِرًا"، فَبَكَى عُمَرُ ﷺ وَهُوَ فِي المَجْلِسِ، ثُمَّ قَالَ: أَوَعَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَغَارُ؟"(٢).

📖 علم عمر وفطنته وفراسته:

كان عمر بن الخطّاب ﷺ من أعلم أصحاب رسول الله ﷺ، وقد حدّث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنّه سمع رسول الله ﷺ يقول: "بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ، أُتِيتُ بِقَدَحِ لَبَنٍ، فَشَرِبْتُ حَتَّى إِنِّي لأَرَى الرِّيَّ يَخْرُجُ فِي أَظْفَارِي، ثُمَّ أَعْطَيْتُ فَضْلِي عُمَرَ بْنَ الخَطَّابِ"، قَالُوا: فَمَا أَوَّلْتَهُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: "العِلْمَ"(٣).

وكان عمر بن الخطّاب ﷺ يرى الرّأي فينزل القرآن العظيم موافقًا لرأيه، وذلك في نحو عشرين موضعًا(٤)، منها ما حدّث به أنس بن مالك ﷺ أنّ عمر بن الخطّاب ﷺ قال: "وافقتُ ربّي في ثلاثٍ: فقلت يا رسول الله، لو اتّخذنا من مقام إبراهيم مصلّى، فنزلت: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبۡرَٰهِـۧمَ مُصَلًّىۖ﴾(٥)، وآيةُ الحجاب، قلت: يا رسول الله، لو أمرت نساءك أن يحتجبن، فإنّه يكلّمُهُنّ البرُّ والفاجرُ، فنزلت آية الحجاب، واجتمع نساءُ النّبيّ ﷺ في

---

(١) التّرمذي: السّنن، (كتاب المناقب، باب في مناقب عمر بن الخطّاب ﷺ)، ج٥، ص٦٢٠، ٦٢١، ح٣٦٩٠. وقال التّرمذيّ: "حديث حسن صحيح غريب من حديث بريدة، وفي الباب عن عمر وعائشة".

(٢) البخاري: الصّحيح، (كتاب النّكاح، باب الغيرة)، ج٥، ص٢٠٠٤، ح٤٩٢٩؛ مسلم: الصّحيح، (كتاب فضائل الصّحابة، باب من فضائل عمر بن الخطّاب)، ج٤، ص١٨٦٣، ح٢٣٩٥.

(٣) البخاري: الصّحيح، (كتاب العلم، باب فضل العلم)، ج١، ص٤٣، ح٨٢؛ مسلم: الصّحيح، (كتاب فضائل الصّحابة، باب من فضائل عمر بن الخطّاب)، ج٤، ص١٨٥٩، ح٢٣٩١.

(٤) السّيوطي: تاريخ الخلفاء، ص١١٠.

(٥) سورة البقرة: من الآية ١٢٥.



الغيْرة عليه، فقلت لهنّ: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾[1]، فنزلت هذه الآية[2].

ومن موافقات عمر بن الخطّاب ﷺ للقرآن: رأيُه في قتل أُسارى بدر[3]، وموقفه من الصّلاة على ابن أبيّ المنافق، فإنّه لمّا تُوفّي عبد الله بن أُبيٍّ، جاء ابنُه عبدُ الله بنُ عبد الله إلى رسول الله ﷺ، فسأله أن يُعطيَه قميصه يُكفّن فيه أباه، فأعطاه، ثمّ سأله أن يصلّيَ عليه، فقام رسول الله ﷺ ليصلّي عليه، فقام عمر ﷺ فأخذ بثوب رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله تُصلّي عليه، وقد نهاك ربّك أن تصلّي عليه؟[4]، فقال رسول الله ﷺ: "إِنَّمَا خَيَّرَنِي اللَّهُ فَقَالَ: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ﴾[5]، وَسَأَزِيدُهُ عَلَى السَّبْعِينَ"، فقال: إِنَّهُ مُنَافِقٌ، فَصَلّى عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾[6].

وفي رواية لعبد الله بن عبّاسٍ عن عمر ﷺ أنّه لمّا مات عبد الله بنُ أُبيٍّ ابن سلول، دُعي له النّبيُّ ﷺ ليصلّي عليه، فلمّا قام وثب عمر إليه، فقال: يا رسول الله، أتصلّي على ابن أُبيٍّ، وأخذ يعدّد له أقواله، فتبسّم رسول الله ﷺ وقال: "أَخِّرْ عَنِّي يَا عُمَرُ"، فلمّا أكثر عليه،

---

(١) سورة التحريم: من الآية ٥.

(٢) أحمد بن حنبل: فضائل الصّحابة، جا، ص٣٨٦، ح٤٣٥؛ البخاري: الصّحيح، (أبواب القبلة، باب ما جاء في القبلة)، جا، ص١٥٧، ح٣٩٣.

(٣) مسلم: الصّحيح، (كتاب فضائل الصّحابة، باب من فضائل عمر)، جـ٤، ص١٨٦٥، ح٢٣٩٩.

(٤) يظهر أنّ عمر فهم النّهي من عدم غفران الله ﷻ للمنافقين، ولهذا اعترض رسولَ الله ﷺ، ثمّ نزلت آية النّهي فحسمت الأمر، ويرى الطّحاويّ في هذه الرّواية وهمًا من بعض الرّواة؛ لاستحالة أن ينهى الله ﷻ نبيّه عن شيء ويفعله. شرح مشكل الآثار، تحقيق/ شعيب الأرناؤوط، مؤسّسة الرّسالة، الطّبعة الأولى، ١٤١٥هـ/١٤٩٤م، جا، ص٧٢. ونصّ الرّواية يدلّ على أنّ القول من فهم عمر بن الخطّاب، وأنّ النّهي لم ينزل بعد.

(٥) سورة التّوبة: من الآية ٨٠.

(٦) سورة التّوبة: من الآية ٨٤. والحديث رواه الشّيخان. البخاري: الصّحيح، (كتاب التّفسير، باب سورة براءة)، جـ٤، ص١٧١٥، ح٤٣٩٣؛ مسلم: الصّحيح، (كتاب فضائل الصّحابة، باب من فضائل عمر)، جـ٤، ص١٨٦٥، ح٢٤٠٠.

قال: "إِنِّي خُيِّرْتُ فَاخْتَرْتُ، لَوْ أَعْلَمُ أَنِّي إِنْ زِدْتُ عَلَى السَّبْعِينَ يُغْفَرُ لَهُ لَزِدْتُ عَلَيْهَا"، وصلّى عليه رسول الله ﷺ ثمّ انصرف، فلم يمكث إلّا يسيرًا، حتّى نزل قوله تعالى: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَفَرُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُواْ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ۝٨٤﴾(١)، فَعَجِبَ عُمَرُ بَعْدُ مِنْ جُرْأَتِهِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَئِذٍ"(٢).

ولمّا نزل تحريم الخمر قال عمر: "اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيَانًا شِفَاءً، فنزلت الآية الّتي في البقرة: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾(٣)، فدُعي عمر فقرئت عليه، فقال: اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيَانًا شِفَاءً، فنزلت الآية الّتي في النّساء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقْرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَٰرَىٰ﴾(٤)، فكان منادي رسول الله ﷺ إذا أقيمت الصّلاة ينادي: "أَلَا لَا يَقْرَبَنَّ الصَّلاةَ سَكْرَانُ"، فدُعي عمر فقرِئت عليه، فقال: اللَّهُمَّ بَيِّنْ لَنَا فِي الْخَمْرِ بَيَانًا شِفَاءً، فنزلت هذه الآية: ﴿فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ۝٩١﴾(٥)، فقال عمر: انتهينا"(٦).

ولهذا وغيره كان الفاروق عمر بن الخطّاب رضي الله عنه ملهمًا، وقال عنه رسول الله ﷺ: "إِنَّهُ قَدْ كَانَ فِيمَا مَضَى قَبْلَكُمْ مِنَ الأُمَمِ مُحَدَّثُونَ، وَإِنَّهُ إِنْ كَانَ فِي أُمَّتِي هَذِهِ مِنْهُمْ فَإِنَّهُ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ"(٧).

---

(١) سورة التّوبة: الآية ٨٤.

(٢) البخاري: الصّحيح، (كتاب الجنائز، باب ما يكره من الصّلاة على المنافقين)، جا، ص٤٥٩، ح١٣٠٠.

(٣) سورة البقرة: من الآية ٢١٩.

(٤) سورة النّساء: من الآية ٤٣.

(٥) سورة المائدة: من الآية ٩١.

(٦) أحمد بن حنبل: المسند، جا، ص٤٤٢، ٤٤٣، ح٣٧٨؛ أبو داود: السّنن، (كتاب الأشربة، باب في تحريم الخمر)، ج٥، ص٥١٤، ح٣٦٧٠؛ التّرمذي: السّنن، (كتاب تفسير القرآن، باب ومن سورة المائدة)، ج٥، ص٢٥٣، ح٣٠٤٩. وعلّق ابن كثير على هذا الحديث بقوله: "قال عليّ بن المديني: هذا إسناد صالح، وصحّحه التّرمذيّ". تفسير القرآن العظيم، جا، ص٥٧٨.

(٧) البخاري: الصّحيح، (كتاب فضائل الصّحابة، باب مناقب عمر بن الخطّاب)، ج٣، ص١٣٤٩، ح٣٤٨٦؛ مسلم: الصّحيح، (كتاب فضائل الصّحابة، باب من فضائل عمر)، ج٤، ص١٨٦٤، ح٢٣٩٨.

الفصل الثّاني

استخلاف عمر ﷺ ومنهجه في الحكم

استخلاف الصّدّيق للفاروق:

لمّا اشتدّ المرض بالخليفة الصّدّيق ﷺ وأحسّ بدنوّ أجله، فاتح الصّحابة ﷺ في أمر الخلافة من بعده، وأخبرهم أنّ الله ﷻ قد أطلق أيمانَهم من بيعته، وطالبهم أن يؤمّرُوا عليهم من أحبّوا في حياته، لئلّا يقع اختلاف من بعده، فتشاور الصّحابة فيما بينهم، فلم يصلوا إلى شيء، ورجعوا إليه فطالبوه باختيار من يرضاه لهم، وأعطوه عهد الله أن لا يختلفوا عليه[1].

وكان الخليفة أبو بكر الصّدّيق ﷺ لا يعدل بعمر بن الخطّاب ﷺ أحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ، ولكنّه لم يتعجّل باستخلاف الفاروق من بعده، وإنّما أخذ رأي سادات الصّحابة فيه، فدعا عبد الرّحمن بن عوفٍ ﷺ، وسأله عن رأيه فيه، فقال: "هُوَ وَاللَّهِ أَفْضَلُ مِنْ رَأْيِكَ فِيهِ مِنْ رَجُلٍ، وَلَكِنْ فِيهِ غِلْظَةٌ"، فقال الصّدّيق أبو بكر ﷺ: "ذَلِكَ لأَنَّهُ يَرَانِي رَقِيقًا، وَلَوْ أُفْضِيَ الأَمْرُ إِلَيْهِ لَتَرَكَ كَثِيرًا مِمَّا هُوَ عَلَيْهِ، وقَدْ رَمَقْتُهُ، فَرَأَيْتُنِي إِذَا غَضِبْتُ عَلَى الرَّجُلِ فِي الشَّيْءِ أَرَانِي الرِّضَا عَنْهُ، وَإِذَا لِنْتُ لَهُ أَرَانِي الشِّدَّةَ عَلَيْهِ"، ثمّ دعا عثمان بن عفّان ﷺ فسأله عن رأيه، فقال: "اللَّهُمَّ عِلْمِي بِهِ أَنَّ سَرِيرَتَهُ خَيْرٌ مِنْ عَلَانِيَتِهِ، وَأَنْ لَيْسَ فِينَا مِثْلُهُ"[2].

كما استشار أبو بكر الصّدّيق ﷺ جماعة آخرين من أعيان المهاجرين والأنصار، كسعيد بن زيد العدويّ، وأسيد بن حضير الأوسيّ[3].

ولمّا اطمأنّ الخليفة أبو بكر الصّدّيق ﷺ على اختياره استدعى عثمان ﷺ لكتابة العهد، فلمّا انتهى إلى الاسم أغمي عليه، فأتمّ عثمان العهد لعمر ﷺ، فلمّا أفاق الصّدّيق

---

(١) ابن شبّة: تاريخ المدينة، ج١، ص٣٥٢؛ ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق، ج٤٤، ص٢٤٨.

(٢) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٥٢.

(٣) القاضي عبد الجبّار: تثبيت دلائل النّبوّة، ج١، ص٢٧٤؛ أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الرّاشدة، ص٥٥.

ورأى العهد قد كتب لعمر دعا لعثمان، وشكر له صنيعه، وزاده بقوله: "لَوْ كَتَبْتَ نَفْسَكَ لَكُنْتَ لِذلِكَ أَهْلاً"(١).

ولمّا كُتب العهد للفاروق ﷺ خرج مولى لأبي بكر ﷺ يقال له شديدٌ بصحيفة فقرأها على النّاس، وفيها يقول أبو بكر الصّدّيق ﷺ: "اسْمَعُوا وَأَطِيعُوا لِمَنْ فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ، فَوَاللّه مَا أَلَوْتُكُمْ"(٢).

ولمّا تمّ الأمر لعمر ﷺ دخل بعض المهاجرين(٣) على أبي بكر ﷺ فقالوا: "أَتُخَلِّفُ عَلَيْنَا فَظًّا غَلِيظًا، لَوْ قَدْ مَلَكَنَا كَانَ أَفَظَّ وَأَغْلَظَ؟ فَمَاذَا تَقُولُ لِرَبِّكَ إِذَا لَقِيتَهُ وَقَدِ اسْتَخْلَفْتَ عَلَيْنَا عُمَرَ؟ قَالَ: أَتُخَوِّفُونِي بِرَبِّي؟ أَقُولُ: اللَّهُمَّ أَمَّرْتُ عَلَيْهِمْ خَيْرَ أَهْلِكَ"(٤).

ولم يكن الفاروق عمر ﷺ بالطّامع في الخلافة، أو السّاعي لها، بل كان يخاف من تحمّل مسئوليّة الأمّة، ولمّا دخل على أبي بكر ﷺ وأعلمه بما عزم عليه، أبى أن يقبل حتّى تهدّده أبو بكر بالسّيف ودعا به(٥)، ثمّ أشرف على النّاس فقال: "إِنِّي وَاللَّهِ مَا آلَوْتُ مِنْ جَهْدِ

---

(١) الآجرّي: الشّريعة، تحقيق/ عبد الله عمر سليمان الدّميجي، دار الوطن، السّعوديّة، الطّبعة الثّانية، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، جـ٤، ص١٧٣٨، ٣٩؛ اللّالكائي: شرح اعتقاد أصول أهل السُّنّة والجماعة من الكتاب والسُّنّة وإجماع الصّحابة، تحقيق/ أحمد سعد حمدان، دار طيبة، الرّياض، ١٤٠٢هـ، جـ٧، ص١٣٢٤. وقال الحِنَّائي: "حديث حسن صحيح". فوائد الحنّائي، تحقيق/ خالد محمّد أبو النّجا، أضواء السّلف، الطّبعة الأولى، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م، جـ٢، ص١٣١٦. وصحّحه ابن الجوزي: صفة الصّفوة، تحقيق/ محمود فاخوري، دار المعرفة، بيروت، الطّبعة الثّانية، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، جـ١، ص٣٠٦. وقد صحّح ابن كثير إسناده أيضًا. المتّقي الهندي: كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، تحقيق/ بكري حيّاني، مؤسّسة الرّسالة، الطّبعة الخامسة، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، جـ٥، ص٢٧١.

(٢) أحمد بن حنبل: المسند، جـ١، ص٣٦٩، ح٢٥٩. وصحّح المحقّقون إسناده.

(٣) ذكرت رواية ابن سعد أنّهما عليٌّ وطلحة ﷺ. الطّبقات الكبرى، جـ٣، ص٢٧٤.

(٤) أبو يوسف: الخراج، ص٢١؛ ابن حجر: المطالب العالية، جـ١٥، ص٧٥٧، ح٣٨٨٩. وقد وثّق الحافظ ابن حجر رجال هذا الأثر، وصحّح إسناده. وقد سئل الزّهريّ عن أهل الله الّذين ذكرهم أبو بكر فقال: هم أهل مكّة. الفاكهي: أخبار مكة، تحقيق/ عبد الملك دهيش، دار خضر، بيروت، الطّبعة الثّانية، ١٤١٤هـ، جـ٢، ص١٥٢.

(٥) العسكريّ: الأوائل، دار البشير، طنطا، مصر، الطّبعة الأولى، ١٤٠٨هـ، ص١٤٩. ونقله الكلاعيّ عن أبي الحسن عليّ بن محمد المدائني. الاكتفاء، جـ٢، ص٢١٢.

الرَّأْيِ، وَلَا وَلَّيْتُ ذَا قَرَابَةٍ، وَإِنِّي قَدِ اسْتَخْلَفْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ، فَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا"، فأجابوه بالسّمع والطّاعة[1]، ومدحوا رأيه، حتّى قال عبد الله بن مسعود ﷺ: "أَفْرَسُ النَّاسِ ثَلَاثَةٌ: الْعَزِيزُ حِينَ قَالَ لِامْرَأَتِهِ: ﴿أَكْرِمِي مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾[2]، وَالَّتِي قَالَتْ: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْأَمِينُ ٢٦﴾[3]، وَأَبُو بَكْرٍ حِينَ تَفَرَّسَ فِي عُمَرَ ﷺ"[4].

وقد ادّعى الدّكتور أكرم ضياء العمريّ أنّ ما فعله أبو بكر ﷺ كان مجرد ترشيح لعمر بعد تفويض الأمّة له[5]. وهذا مخالف للأخبار الصّحيحة في ذلك؛ لأنّ الصّحابة ﷺ فوّضوا أبا بكر باستخلاف خليفة بعده، فلمّا استخلف الفاروق اعترض عليه عليّ بن أبي طالب وطلحة بن عبيد الله فلم يسمع لهما.

ويقرّر بعض العلماء أنّ الإمامة تنعقد وتتمّ برجل واحد من أهل الحلّ والعقد، كما في عهد أبي بكر لعمر رضي الله عنهما[6]، لكن الإمامة الفعليّة إنّما تكون بمبايعة أهل القدرة له؛ لأنّ الفاروق عمر ﷺ لمّا عهد إليه الصّدّيقُ أبو بكر ﷺ، إنّما صار إمامًا لمّا بايعوه وأطاعوه، ولو قدّر أنّهم لم ينفذوا عهد أبي بكر ولم يبايعوه لم يصر إمامًا، سواء كان ذلك جائزًا أو غير جائز[7].

وقد أجمع المسلمون على خلافة عمر ﷺ، ولم يختلف فيها اثنان منذ فارق الصّدّيق الحياة، وحتّى لحق به الفاروق[8].

---

(١) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٥٢.

(٢) سورة يوسف: من الآية ٢١.

(٣) سورة القصص: من الآية ٢٦.

(٤) ابن أبي شيبة: المصنّف في الأحاديث والآثار، ج٧، ص٤٣٤، ح٣٧٠٥٨. واستدركه الحاكم، وصحّحه على شرط الشّيخين، وأقرّه الذّهبيّ. المستدرك على الصّحيحين، ج٢، ص٣٧٦، ح٣٣٢٠.

(٥) أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الراشدة، ص٥٦.

(٦) الباقِلّاني: تمهيد الأوائل وتلخيص الدّلائل، ص٤٦٧، ٤٦٨.

(٧) ابن تيمية: منهاج السُّنّة النّبويّة، ج١، ص٥٣٠.

(٨) ابن أبي شيبة: المصنّف في الأحاديث والآثار، ج٧، ص١٠٠، ح٣٤٤٩٤؛ الحاكم: المستدرك على الصّحيحين، ج٣، ص٩٨، ح٤٥١٥.

📖 **إعلان الفاروق عمر لمنهجه في الحكم**:

لقد أعلن الفاروق عمر ﷺ منهجه عقب تولّيه الخلافة، فجلس على المنبر دون مِرْقَاة[1] أبي بكر ﷺ[2]، وأقسم أنّه سيحمل العرب على الطّريق[3]، وأنّه سيحمل أعباء الخلافة فيما حضره من أمرها، وسيولّي على الأمصار أفضل الأمراء وأكفأهم، مع مداومة مراقبتهم[4].

ولمّا كان النّاس يخافون من شدّة الخليفة الفاروق وبطشه، فقد سارع في تجلية الأمر لهم فدعا الله ﷻ على المنبر في أوّل يوم فقال: "اللَّهُمَّ إِنِّي شَدِيدٌ فَلَيِّنِّي، وَإِنِّي ضَعِيفٌ فَقَوِّنِي، وَإِنِّي بَخِيلٌ فَسَخِّنِي"[5].

ويبدو أنّ الفاروق ﷺ احتاج إلى معاودة إيضاح هذا الأمر للنّاس مرّة أخرى، فخطبهم بعد يومين، وأعلمهم أنّ تلك الشّدّة قد أُضعفت، ولكنّها تكون على أهل الظّلم والتّعدّي، فأمّا أهل السّلامة والدّين والفضل فإنّه أَلينُ لهم من بعضهم لبعض، وأكّد على شدّته على أهل الظّلم والعدوان بقوله: "ولستُ أدعُ أحدًا يظلمُ أحدًا ويتعدّى عليه، حتّى أضعَ خدّه على الأرض وأضعَ قدمي على الخدّ الآخر حتّى يذعنَ بالحقّ"، وتعهّد للمسلمين بأنّه لن يخبّئ عليهم شيئًا من الخراج، ولن يخرجه إلّا بحقّه، ولن يلقيهم في المهالك[6].

وكان عمر ﷺ يأخذ مقدار الكفاية من مال المسلمين، ويساويهم فيما سوى ذلك، وقد صرّح لهم بأنّه لا يستحلّ من مال الله - تعالى - إلّا قوت أهله، وحُلَّةً بالشّتاء، وحُلَّةً بالصّيف، وظَهْرًا يحُجّ عليه ويعتمر، وأنّه يجعل قُوته قُوتَ أهل رجل من قريشٍ، لا وَكْسَ ولا شَطَطَ، ثمّ هو شريك المسلمين بعد[7].

---

(١) مرقاة: درجة. ابن منظور: لسان العرب، ج١، ص٥٧٦.

(٢) ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج٤٤، ص٢٦٣، ٢٦٤.

(٣) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٥٥.

(٤) ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٣، ص٢٧٥.

(٥) الطّبقات الكبرى، ج٣، ص٢٧٥.

(٦) رواه القاضي أبو يوسف من طريق محمّد بن إسحاق بسند فيه مجهول. الخراج، ص١٣٠.

(٧) السّرخسي: شرح السّير الكبير للإمام محمّد بن الحسن الشّيباني، ج٣، ص١١٨، ١١٩.

🕮 لقب أمير المؤمنين:

تختلف الرّوايات في مُقترِح هذا اللّقب، فيقال: إنّه لمّا مات أبو بكر ﷺ وكان يدعى خليفة رسول الله ﷺ قال المسلمون: من جاء بعد عمر قيل له: خليفة خليفة رسول الله ﷺ فيطول هذا، ولكن أجمعوا على اسم تدعون به الخليفة، يُدْعى به من بعده من الخلفاء، فقال بعض الصّحابة: نحن المؤمنون وعمر أميرنا، فدعي عمر أمير المؤمنين، فهو أوّل من سمّي بذلك[1].

ويُروى أنّ عمر ﷺ هو الّذي استطال اللّقب فقال للمسلمين: "بَلْ أَنْتُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَنَا أَمِيرُكُمْ، فَسُمِّيَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ"[2].

وثبت أنّ الفاروق عمر ﷺ كتب إلى عامله على العراق أن يبعث إليه برجلين جَلْدَيْنِ نبيلينِ، ليسألهما عن العراق وأهله، فبعث إليه لَبِيدَ بن ربيعة، وعديّ بن حاتم، فلمّا قدما المدينة دخلا المسجد فوجدا عمرو بن العاص ﷺ، فقالا له: "اسْتَأْذِنْ لَنَا عَلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ"، فقال: "أَنْتُمَا وَاللَّهِ أَصَبْتُمَا اسْمَهُ، وَإِنَّهُ الأَمِيرُ، وَنَحْنُ الْمُؤْمِنُونَ"، ودخل على عمر ﷺ فقال: "السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ"، وأخبره بقول لَبِيد وَعَدِيّ، فجرى الكتاب من ذلك اليوم[3].

ويُروى أنّ المغيرة بن شعبة الثّقفيّ ﷺ هو أوّل من حيّا عمر ﷺ بلقب أمير المؤمنين[4]، وهو الّذي رجّحه ابن كثير[5].

ولا يصحّ في أوّليّة اقتراح لقب أمير المؤمنين إلّا حديث البخاريّ السّابق، وما عداه من روايات فهي ضعيفة[6]، ولا تنهض للاعتراض، إلّا أن يكون المغيرة عاملاً لأمير

---

(١) ابن سعد: الطّبقات الكبرى، جـ٣، ص٢٨١.

(٢) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٢، ص٥٦٩.

(٣) البخاري: الأدب المفرد، تحقيق/ سمير أمين الزّهيري، مكتبة المعارف، الرّياض، الطّبعة الأولى، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، (باب التّسليم على الأمير)، ص٥٧٠. والأثر صحيح الإسناد.

(٤) ابن شبّة: تاريخ المدينة، جـ١، ص٣٥٩.

(٥) البداية والنّهاية، جـ٧، ص١٥٤.

(٦) عبد السّلام محسن آل عيسى: دراسة نقديّة في المرويّات الواردة في شخصيّة عمر، جـ١، ص٨٠- ٨٣.

المؤمنين عمر ﷺ على العراق آنذاك، وأنّه أوعز إلى المرْسولين بهذا اللّقب، فتكون له أوّليّة الاقتراح، ولعمرو بن العاص ﷺ أوّليّة التّحيّة، ثمّ يخاطبُ الخليفةُ عموم المسلمين باللّقب الجديد فيستحسنونه.

الفصل الثّالث

إتمام فتـح العـراق في عهد الفاروق

يمكن القول بأنّ الفتوحات الّتي تمّت في العراق على عهد الخليفة أبي بكر الصّدّيق ﷺ بقيادة المُثنّى بن حارثة الشّيبانيّ وخالد بن الوليد ﷺ، إنّما هي بمثابة التّمهيد أو المرحلة الأولى لفتح العراق، فلمّا تولّى الفاروق عمر ﷺ الخلافة استهلّ عهده بإتمام تلك الفتوحات.

🕮 تأمير أبي عبيد الثّقفيّ على حرب العراق:

كان الخليفة عمر ﷺ حريصًا على عقيدة الأمّة الإسلاميّة، ويخشى من افتتان ضعاف الإيمان بتتابع انتصارات خالد والمثنّى ﷺ، وكان يقول: "لَأَعْزِلَنَّ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ، وَالْمُثَنَّى مُثَنَّى بَنِي شَيْبَانَ؛ حَتَّى يَعْلَمَا أَنَّ اللَّهَ إِنَّمَا كَانَ يَنْصُرُ عِبَادَهُ، وَلَيْسَ إِيَّاهُمَا كَانَ يَنْصُرُ"(١)، ولذا عزل المُثنّى بن حارثة الشّيبانيّ عن إمارة العراق(٢)، وولّى أبا عبيد بن مسعود الثّقفيّ(٣) مكانه(٤)؛ لأنّه أوّل من لبّى النّداء واستجاب لجهاد الفرس(٥)، وكتب الخليفة عمر إلى المثنّى يأمره بتلقّيه والسّمع والطّاعة له، وبعث سُليط بن قيس بن عمرو الأنصاريّ النّجّاريّ الخزرجيّ ﷺ مع أبي عبيد، وقال له: "لولا عجلة فيك لولّيتك، ولكن الحرب زَبُون(٦) لا يصلح لها إلّا الرّجل المكيث"(٧).

---

(١) ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٣، ص٢٨٤. والأثر يرتقي لدرجة الحسن لغيره. عبد السّلام محسن آل عيسى: دراسة نقديّة في المرويّات الواردة في سيرة عمر بن الخطّاب وسياسته الإداريّة، ج٢، ص٧٣٢.

(٢) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٢٢.

(٣) أبو عبيد: هو أبو عبيد بن مسعود بن عمرو بن عمير بن عوف الثّقفيّ، والد المختار الكذّاب، ووالد صفيّة امرأة عبد الله بن عمر بن الخطّاب، أسلم في عهد النّبيّ ﷺ. ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصّحابة، ج٦، ص٢٠١؛ ابن حجر: الإصابة في تمييز الصّحابة، ج٧، ص٢٢٣.

(٤) البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٧٢.

(٥) ابن الأثير: الكامل في التّاريخ، ج٢، ص٤٣٣.

(٦) زبون: أي تصدم النّاس وتدفعهم. ابن منظور: لسان العرب، ج١٣، ص١٩٤.

(٧) البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٧٢.

وأذن الفاروق عمر ﷺ لأهل الرّدّة في الغزو والجهاد، فكان أبو عبيد لا يمرّ بقوم من العرب إلّا رغّبهم في الجهاد والغنيمة، فيتبعه بعضُهم[١]، وامتثل المثنّى ﷺ أمر الخليفة، ولم يغضب من تأمير غيره عليه، بل سما بتفكيره فوق هذا الاعتبار، وسما بإيمانه على هوى نفسه وشهوتها[٢].

📖 وقعة النّمارق:

تولّت الملكة الفارسيّة "بوران" عرش فارس آنذاك، وعهدت إلى القائد رُسْتُم بن هُرْمُز بالدّفاع عن الأراضي الفارسيّة، وطرد العرب منها[٣]، فكان أوّل عمل قام به رستم أن كتب إلى الدّهّاقين ليثوروا على المسلمين، فكان القائد الفارسيّ جابان أوّل من ثار على المسلمين، ونزل النّمارق[٤]، وتبعه الدّهّاقينُ فتوالوا على الخروج، حتّى خرج أهل الرّساتيق من أعلى الفرات إلى أسفله[٥].

وإزاء هذه التّطورات ضمّ المُثنّى الشّيبانيّ ﷺ مسالحه وخرج من الحيرة فنزل خفّان؛ لئلّا يؤتى من خلفه بشيء يكرهه، أو يؤخذ على غِرّة، ولمّا قدم أبو عبيد واستراح النّاس وركائبهم، عبّأ جيشه، فجعل المُثنّى بن حارثة على فرقة الفرسان، ثمّ تحرّك حتّى نزل على جابان بالنّمارق، فاقتتل الفريقان قتالاً شديدًا، أسفر عن هزيمة الفرس وفضّ جموعهم، وفرار الكثير منهم، وأسر قائدهم جابان[٦]، على يدّ مطر بن فضّة التّيميّ الرّبعيّ، وهو لا يعرفه، فخدعه جابان حتّى أمّنه، وأدخله على أبي عبيد[٧]، فلمّا خرج عرفه قوم مطر، وطالبوا أبا عبيد بقتله! فرفض ذلك[٨]، ولمّا أكثر الشّيبانيّون في لومه، قال: "إنّي

---

(١) البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٧٢.

(٢) محمّد حسين هيكل: الفاروق عمر، مكتبة النّهضة المصريّة، القاهرة، ١٩٦٣م، جا، ص١٢٧.

(٣) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٦٢.

(٤) النّمارق: موضع قرب الكوفة. ياقوت: معجم البلدان، ج٥، ص٣٠٤.

(٥) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٦٣.

(٦) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٢٤.

(٧) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٦٣؛ الكلاعي: الاكتفاء بما تضمّنه من مغازي رسول الله والثّلاثة الخلفاء، ج٢، ص٤٠٥.

(٨) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٦٤.

أخاف الله أن أقتله؛ وقد آمنه رجل مسلم، والمسلمون في التّوادّ والتّناصر كالجسد؛ ما لزم بعضهم فقد لزمهم كلّهم"(١)، فتركوه عندئذٍ(٢)، وفدى جابان نفسه، فأطلق سراحه(٣).

ولا شكّ أنّ هذه الأخلاق العالية سيكون لها أثرٌ كبيرٌ في اجتذاب النّاس إلى الإسلام، فحينما يتسامع النّاس أنّ المسلمين أطلقوا أحد قادة الفرس الّذين كانوا أسرع النّاس في عدائهم لمجرد أنّه اتّفق مع أحد المسلمين على الفداء فإنّهم ينجذبون إلى هذا الدّين الّذي أخرج هؤلاء الرّجال(٤).

🕮 معركة كسكر:

وجّه رستم جيشًا من خمسة آلاف جنديّ بقيادة "نَرْسِي"، فتحرّك نحو العراق حتّى عسكر بكَسْكَر(٥)، فأسرع إليه أبو عبيد، وأغار على كسكر، واشتبك في قتال شديد مع الفرس فانهزم نَرْسي(٦)، وفرّ هاربًا(٧)، وغلب المسلمون على عسكره وأرضه، ووجدوا في خزائنه شيئًا عظيمًا، ولم يكونوا بشيء أفرح منهم بشجر النّرسيان؛ لأنّ نَرْسي كان يحميه ويمالئُه عليه ملوكهم، فاقتسموه فجعلوا يطعمونه الفلّاحين(٨).

وفي هذا الخبر إشارة إلى نوع من الأخلاق الرّفيعة لدى المسلمين الأوائل حيث رفعوا من شأن الفلّاحين المحرومين، فأطعموهم من طعام ملوكهم الّذي كان محرّمًا عليهم، فكأنّهم بهذا يقولون لهم: تعالوا إلى هذا الدّين العظيم الّذي يرفع من شأنكم ويردّ عليكم كرامتكم الإنسانيّة(٩).

---

(١) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٦٤.

(٢) الواقدي: فتوح الإسلام لبلاد العجم وخراسان، ص٧.

(٣) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٢٤.

(٤) عبد العزيز عبد الله الحميدي: التّاريخ الإسلامي مواقف وعبر، ج١٠، ص٣٣٤.

(٥) كسكر: من أرض واسط. ياقوت: معجم البلدان، ج٣، ص٢٢٦.

(٦) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٢٤؛ الكلاعي من رواية المدائني. الاكتفاء بما تضمّنه من مغازي رسول الله والثّلاثة الخلفاء، ج٢، ص٤٠٤.

(٧) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٦٤.

(٨) تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٦٤.

(٩) عبد العزيز عبد الله الحميدي: التّاريخ الإسلامي مواقف وعبر، ج١٠، ص٣٣٥.

📖 وقعة باروسما واستعادة سواد العراق:

كان رستم قد وجّه جيشًا بقيادة "الجالينوس" من خمسة آلاف بالتّزامن مع جيش نرسي، وأمرهما بالتّعاون، إلّا أنّ أبا عبيد الثّقفيّ عاجل جيش نرسي وهزمه، وجاء الجالينوس فنزل بارُوسْما[١] فتوجّه إليه أبو عبيد[٢]، وقاتله فانهزم الفرس، وهرب الجالينوس، فدخل أبو عبيد باروسما، فصالحه ابن "الأَنْدَرزَغَر" عن كلّ رأس بأربعة دراهم[٣]، وهيّئوا له طعامًا فأتوه به، فرفض أن يأكل حتّى يؤتى المسلمون مثله، "فلمّا راح المسلمون سألهم عن طعامهم فأخبروه، فإذا الّذي أكلوا مثل طعامه"[٤].

وقد استغلّ أبو عبيد بن مسعود الثّقفيّ هزيمة الفرس في باروسما، فبعث قوّاده لإخضاع الدّهّاقين الّذين ثاروا بالمسلمين، وتجمّعوا لحربهم في نواحي السّواد، فهزموا من كان قد تجمّع لهم[٥].

وكان للمُثنّى بن حارثة الشّيبانيّ ﷺ دورٌ مهمٌ في التّخطيط للمعارك الّتي دارت بين المسلمين والفرس بقيادة أبي عبيد الثّقفيّ؛ فمع كونه قائدًا لمقدّمة الجيش، فهو الّذي أشار على أبي عبيد أن يتحرّك بسرعة إلى لقاء نرسي في كسكر قبل أن يصله مدد الجالينوس فيدعّم مركزه ويعزّز موقفه، وبذلك وضع القائد العبقريّ المُثنّى الشّيبانيّ مبدأً عسكريًّا مهمًّا، هو عدم القتال على جبهتين في وقت واحد، فقد انتصر المسلمون على جيش نرسي، ثمّ انتصروا على جيش الجالينوس، كلّ على حدة، وفي معركتين متتاليتين، ولا شكّ أنّ النّصر كان ميسورًا على هذه الصّورة؛ لأنّه في حالة تجمّع الجيشين قد يصعب مواجهتهما معًا، والانتصار عليهما[٦].

---

(١) باروسما: ناحية من سواد بغداد. ياقوت: معجم البلدان، ج١، ص٣٢٠.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٧٢.

(٣) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٢٤.

(٤) الكلاعي من رواية المدائني. الاكتفاء بما تضمّنه من مغازي رسول الله والثّلاثة الخلفاء، ج٢، ص٤٠٦.

(٥) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٢٤؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٧٢؛ الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٦٤.

(٦) محمّد فرج: شخصيّات عسكريّة إسلاميّة، دار الفكر العربي، القاهرة، بدون تاريخ طبع، ص٢١٥.

🕮 موقعة الجسر سنة (١٣هـ/٦٣٤م):

تألّم القائد الفارسيّ رستم من رجوع الجالينوس بفلوله إلى المدائن واشتدّ حنقه على العرب، فجهّز جيشًا كبيرًا بقيادة بهمن جاذويه(١)، الّذي كان أشدّ قوّاد الفرس على العرب، وزوّده ببعض الفيلة، وردّ معه الجالينوس، وأمره بقتله إن عاد للهرب مرّة ثانية، ودفع إليه راية كسرى، فأقبل حتّى نزل بقُسّ النّاطف(٢)، وأقبل أبو عبيد، فنزل المروحة، والفرات فاصل بين المعسكرين(٣).

وتعجّل الفرس لقاء المسلمين، فبعث بهمن جاذويه إلى أبي عبيد الثّقفيّ يخيّره بين العبور إلى المعسكر الفارسيّ، أو عبور الفرس إلى معسكره(٤)، بشرط ألّا يتعرّض أحد الطّرفين للآخر أثناء العبور، فطالب المسلمون قائدهم أبا عبيد بعدم العبور، ولكنّه خالف رأي الجماعة، وفيهم سُليط الأنصاريّ، وأصرّ على العبور؛ بحجّة ألّا يكون الفرس أجرأ على الموت من المسلمين(٥)، ولمّا بيّن له المُثنّى الشّيبانيّ مخاطر هذا التّصرّف من النّاحية العسكريّة اتّهمه بالجُبن(٦).

وإزاء إصرار خبير الحروب العراقيّة المُثنّى بن حارثة الشّيبانيّ على عدم العبور إلى الفرس؛ لجأ القائد المتهوّر أبو عبيد الثّقفيّ إلى تعديل تعبئته، فنزع المُثنّى وقومه من المقدّمة، وأمّر عليها ابن عمّه أبا مِحْجَن بن حبيب الثّقفي، ووقف أبو عبيد بنفسه في

---

(١) بهمن جاذويه: هو القائد الفارسيّ مردانشاه، لقّبَه أنو شروان ببهمن تبرّكًا به، كما سُمّي ذا الحاجب أيضًا؛ لأنّه كان يعصب حاجبيه ليرفعهما عن عينه كبرًا. الدّينوري: الأخبار الطّوال، ص١١٣؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٧٢.

(٢) يطلق على هذه الموقعة قسّ النّاطف أو الجسر أو المروحة، فالجسر إذا لم يضف إلى شيء، فإنّما يراد به الجسر الّذي كانت فيه الوقعة بين المسلمين والفرس قرب الحيرة، ويطلق عليها قسّ النّاطف؛ لأنّه على شاطئ الفرات الشّرقيّ، حيث كان معسكر الفرس، والمروحة على الشّاطئ الغربيّ الّذي عسكر فيه أبو عبيد والمسلمون. ياقوت: معجم البلدان، ج٢، ص١١١، ١١٢، ١٤٠.

(٣) البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٧٣؛ ابن الأثير: الكامل في التّاريخ، ج٢، ص٢٧٧.

(٤) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٢٤.

(٥) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٦٦.

(٦) الدّينوري: الأخبار الطّوال، ص١١٣.

القلب[1]، ثمّ عبر إليهم[2]، ولكنّه أدرك خطورة الموقف بعد عبوره للضِّفّة الأخرى، فعهد باللّواء من بعده إلى جماعة من قومه إن استشهد هو، فإن قتلوا فالقيادة للمُثنّى[3].

ولمّا التقى الجمعان، وقعت معركة رهيبة بين المسلمين من جانب والفرس وفيولهم من جانب آخر، وتقدّم أبو عبيد في جماعة من شجعان المسلمين، فدخلوا مع الفيلة في مصارعة شديدة، ولكنّه سقط شهيدًا تحت أقدام الفيل الأبيض - مقدّم الأفيال - فخشعت أنفسُ بعض من رأى هذا المشهد الرّهيب[4]، وفشت الجراحات في المسلمين[5].

وتتابع الثّقفيّون الّذين عيّنهم أبو عبيد لأخذ اللّواء، فاستشهدوا جميعًا، الواحد تلو الآخر، ثمّ أخذ اللّواءَ المُثنّى بنُ حارثة الشّيبانيّ ﷺ[6]، وتعصّب أحد الثّقفيّين لقومه بعد أن استحرّ فيهم القتل، وأسرع إلى الجسر فقطعه، ونادى في النّاس: "موتوا على ما مات عليه أمراؤكم أو تظفروا"[7].

وقف المُثنّى باللّواء في حال لا يحسد عليها، فالعدوّ من خلف أصحابه يحصد رقابهم، والماء من أمامهم يُغرقون فيه أنفسهم، ولكنّ القائد الشّجاع أسرع في إنقاذ ما يمكن إنقاذه، فاشتبك مع الفرس ساعة حتّى لا يجهزوا على المسلمين من خلفهم[8]، ثمّ عقد الجسر؛ ليعبروا عليه[9]، ووقف مع جماعة من الفرسان الأشدّاء[10] يحمي ظهر الجيش

---

(١) الدّينوري: الأخبار الطّوال، ص١١٣.

(٢) ابن أبي شيبة: المصنّف، ج٦، ص٥٤٩. بإسناد صحيح.

(٣) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٦٧. سمّاهم خليفة في تاريخه، ص١٢٤، ١٢٥.

(٤) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٦٧، ص٣٦٧، ٣٦٨.

(٥) البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٧٣.

(٦) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٦٨.

(٧) تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٦٨. ويروي ابن أبي شيبة عن قيس بن أبي حازم أنّ الفرس قطعوا الجسر خلف أبي عبيد. المصنّف، ج٦، ص٥٤٩. بإسناد صحيح.

(٨) البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٧٣.

(٩) خليفة بن خياط: التّاريخ، ص١٢٥.

(١٠) قاتل عروة بن زيد الخيل الطّائيّ يوم الجسر قتالاً شديدًا عدل بقتال جماعة. البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٧٣.



الإسلاميّ وهو ينادي النّاس: "إِنَّا دُونَكُمْ، فَاعْبُرُوا عَلَى هَيِّنَتِكُمْ، وَلَا تَدْهَشُوا، فَإِنَّا لَنْ نُزَايِلَ حَتَّى نَرَاكُمْ مِنْ ذَلِكَ الجَانِبِ، وَلَا تُغْرِقُوا أَنْفُسَكُمْ"[1]، ثمّ عبر الحُماة الّذين كانوا مع المُثنّى ﷺ في آثار النّاس[2]، وظلّ المُثنّى يقاتل وهو جريح من ورائهم حتّى عبروا الجسر، ثمّ تبعهم في آخرهم، وقطع الجسر[3]؛ لئلّا يلحق الفرس بهم.

ولا يفتأ التّاريخ يذكر هذا الموقف للمُثنّى ﷺ بالإجلال والتّقدير؛ لأنّ قادة الدّنيا يخصّصون عددًا من الجنود لحمايتهم، أمّا المُثنّى فقد تولّى مع مساعديه من الأبطال حماية جيشه كلّه، فكان آخر من عبر الجسر[4]، وإنّ انسحابه في ذلك اليوم لا يقلّ شأنًا عن انسحاب خالد بن الوليد ﷺ يوم مؤتَة؛ وذلك لتمكّن المثنّى ﷺ من إخراج جيشه من بين السّيف والنّهر وهو يقاتل عدوّه ويحمي جيشه[5].

وقد انصرف أهل المدينة من الجسر حتّى لحق بعضهم بأهلهم، واستحيا آخرون من الهزيمة، فنزلوا البوادي[6]، وبقي المُثنّى ﷺ يقود قلّة من المقاتلين، وهو جريح؛ لإصابته برمح أثناء الوقعة[7]، وبذلك تشتّت شمل الجيش الإسلاميّ الّذي كان يبلغ تسعة آلاف مقاتل، فقد هلك منهم أربعة آلاف بين قتيل وغريق، وهرب ألفان، وبقى المُثنّى ﷺ ومعه ثلاثة آلاف فقط[8]، ويؤيّد ذلك قول الفاروق ﷺ: "ولم تكن وقعة أوعب في هُلك المهاجرين والأنصار من وقعة اليمامة، في خلافة أبي بكر، وجسر أبي عبيد"[9].

---

(١) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٦٨.

(٢) تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٦٦.

(٣) ابن العبري: تاريخ مختصر الدّول، دار الكتب العلميّة، الطّبعة الأولى، بيروت، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، ص٨٩.

(٤) عبد العزيز عبد الله الحميدي: التّاريخ الإسلامي مواقف وعبر، ج١٠، ص٣٤٣.

(٥) محمّد عبد العال محمّد حسن: بنو شيبان ودورهم السّياسيّ والحضاريّ في العراق والجزيرة الفراتيّة خلال القرون الثّلاثة الأولى من الهجرة، ص٦٢.

(٦) وقد تأثّر الفاروق عمر ﷺ للمستحين من دخول المدينة، ولم يعتبرهم من الفرّار، وقال: "أنا فئتكم". ابن أبي شيبة: المصنّف، ج٦، ص٥٤٩.

(٧) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص ٣٦٨.

(٨) مسكويه: تجارب الأمم وتعاقب الهمم، ج١، ص٣١٥.

(٩) ابن حبيش: الغزوات، ج١، ص١٠٧.

ومع عظم ما حدث للمسلمين وفداحته يوم الجسر، فقد أوجعوا عدوّهم[(١)]، ولم يتمكّن الفرس من الحصول على أسير واحد من المسلمين مع انحصارهم في مكان ضيّق بين عدوّهم وماء الفرات! الأمر الّذي يثير الإعجاب بهذه البطولة من جميع أفراد ذلك الجيش[(٢)].

ولم يغب عن المُثنّى ﷺ أنّ ذا الحاجب قد يتعقّبه؛ لذلك انحدر مسرعًا بجنوده إلى الحيرة، وتابع انحداره إلى الجنوب[(٣)]، ثمّ توغّل في الصّحراء، وظلّ ينتظر وصول الأمداد من الخليفة عمر ﷺ[(٤)]، ولكنّ ذا الحاجب عاد بجنوده إلى المدائن، ولم يتعقّب المسلمين، لحدوث فتنة في البلاط الفارسيّ[(٥)]، وخوفه من الاستدراج داخل الصّحراء[(٦)]، خاصّة وأنّ طبيعة الجند الفارسيّ لا تساعدهم على تعقّب المسلمين؛ لأنّه لم يكن في إمكانهم التّحرّك في الصّحراء على الإطلاق[(٧)].

ولقد دلّ انسحاب المُثنّى الشّيبانيّ ﷺ داخل الصّحراء على عبقريّته الحربيّة، وكفاءته العالية، وقدرته على مواجهة الأحداث وتقدير المواقف؛ لأنّ المُثنّى وجنوده يتفوّقون على الفرس في الكرّ والفرّ والهجوم والإدبار، كما تمنحهم الصّحراء طريقًا مفتوحًا مع مقرّ الخلافة[(٨)].

ولمّا وصلت أنباء الجسر إلى عمر ﷺ اغتمّ لذلك[(٩)]، وقال: "يرحمُ اللَّه أبا عبيدٍ لو انحاز إليّ كنت له فئةً"[(١٠)]، ممّا يدلّ على أنّه لا بأس بالانهزام إذا أُتي المسلمين من العدوّ ما

(١) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٦٦.

(٢) أحمد عادل كمال: الطّريق إلى المدائن، ص٣٣٦.

(٣) البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٧٣؛ الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٦٦.

(٤) الدّينوري: الأخبار الطّوال، ص١١٣، ١١٤.

(٥) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٦٩.

(٦) أحمد عادل كمال: الطّريق إلى المدائن، ص٣٣٥.

(٧) أنتوني نتنج: العرب، انتصاراتهم وأمجاد الإسلام، ص٥٣.

(٨) محمّد فرج: شخصيّات عسكريّة إسلاميّة، ص٢٢٢.

(٩) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص١٤٢.

(١٠) ابن أبي شيبة: المصنّف في الأحاديث والآثار، ج٦، ص٥٤٩، ح٣٣٧٤٠. والأثر من مراسيل ابن سيرين.



لا يُطيقهم[١]. وقد بادر الفاروق ﷺ بالسّؤال عن حال المُثنّى؟ فأُخبر بأنّه جريح[٢]، وهذا يدلّ على عظم مكانته عند الخليفة، ونكايته في المشركين.

📖 **موقعة البُوَيب** (١٣هـ/٦٣٤م):

استنفر الخليفة عمر ﷺ العرب للخروج إلى العراق بعد وقعة الجسر، فاثّاقلوا عن الخروج للقتال، حتّى همّ أن يغزو الفرس بنفسه[٣]، خاصّة وأنّه أمر المُثنّى ﷺ بالإقامة في مكانه، ووعده بسرعة وصول الأمداد إليه[٤].

وقد اضطرّ عمر ﷺ إلى إكراه بعض القبائل الّتي تريد الغزو والجهاد في بلاد الشّام إلى التّوجّه للجبهة العراقيّة[٥]، فكانت قبيلة بجيلة[٦] أوّل القبائل الّتي أكرهها الخليفة على التّوجّه إلى العراق، ولكنّه أرضاهم بجزء من الغنيمة[٧]، ولم يأت الفاروقَ ﷺ أحدٌ من قبائل العرب في تلك الأيّام، إلّا وجّهه إلى المُثنّى[٨].

وبلغ الفرسَ توافدُ الأمداد على المُثنّى ﷺ فأعدّوا جيشًا بقيادة مهران الهَمَذانيّ، فأقبل في اثني عشرَ ألفَ مقاتل[٩]، مزوّدين بالخيول[١٠]، والفيول[١١].

---

(١) السّرخسي: شرح السّير الكبير للإمام محمد بن الحسن الشّيبانيّ، ج١، ص٩٠.

(٢) ابن أعثم: الفتوح، مج١، ص١٣٦.

(٣) البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٧٤.

(٤) الدينوري: الأخبار الطوال، ص١١٤.

(٥) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٦٩؛ شكري فيصل: المجتمعات الإسلاميّة في القرن الأوّل الهجري، دار العلم للملايين، بيروت، الطّبعة الثّالثة، ١٩٧٣م، ص٩٢.

(٦) بجيلة: بطن عظيم ينتسبون إلى أمّهم بجيلة، وهم بنو أنمار بن أراش بن كهلان، من القحطانيّة. ابن الأثير: اللّباب في تهذيب الأنساب، ج١، ص١٢١؛ عمر رضا كحالة: معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، ج١، ص٦٣.

(٧) البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٧٤.

(٨) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٦٩- ٣٧٢.

(٩) الدّينوري: الأخبار الطّوال، ص١١٤؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٧٤.

(١٠) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٦٩.

(١١) تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٧٢.

علم المُثنّى بتحرّك الفرس من المدائن إلى الحيرة، فسار نحو البُويْب[١]، وكتب إلى الأمداد الّذين وجّههم إليه الخليفة أن يعجّلوا اللّحاق به؛ بسبب مداهمة الفرس له[٢]، فاجتمعت جنود المسلمين حول المُثنّى بالبويب[٣].

وجاء مهران بجنوده فعسكر مقابل المسلمين من وراء النّهر[٤]، وكتب إلى المُثنّى يخيّره في عبور النّهر، فلم يكن بالّذي يقع في مثل خطأ أبي عبيد الّذي حدث من قبل، فطلب من الفرس العبور، فنزلوا في جانب المسلمين[٥].

وقد أشار المُثنّى الشّيبانيّ ﷺ على رجاله بالإفطار؛ ليتقوّوا بالطّعام على قتال عدوّهم، ثمّ عبّأ المُثنّى جيشه، وجعل أخاه المُعنّى بن حارثة على الخيل، وأخاه الآخر مسعود ابن حارثة على المشاة[٦].

وتعبّى الفرس بعد عبورهم النّهر، وأقبلوا إلى المسلمين في ثلاثة صفوف تصحبهم الأفيال، وبدءوا بالهجوم على جانب من جيش المسلمين[٧]، ثمّ التحم الفريقان، فاشتدّت بينهما الحرب، واستحرّ لهيبها، وطال وقتها، وكثرت الجراح في المسلمين[٨]، حتّى مالت كفّة النّصر لصالح الفرس، وانكشف المسلمون أمام الفرس، فتألّم المُثنّى الشّيبانيّ ﷺ من تراجع جيشه، ولكنّه وقف في ساحة القتال ينادي على النّاس بأعلى صوته! فعادوا للقتال، والتفّوا حوله[٩].

---

(١) البُويب: نهر كان في موضع الكوفة، يأخذ من الفرات. ياقوت: معجم البلدان، ج١، ص٥١٢.

(٢) الكلاعي: الاكتفاء بما تضمّنه من مغازي رسول الله والثّلاثة الخلفاء، ج٢، ص٤١٨.

(٣) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٧١.

(٤) تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٧٠.

(٥) تشير رواية صحيحة الإسناد بأنّ بعض الجند طلب من جرير بن عبد الله البجليّ أن يعبر بهم إلى الفرس فرفض طلبهم، وحذّرهم من مصير أبي عبيد. ابن أبي شيبة: المصنّف في الأحاديث والآثار، ج٦، ص٥٤٩.

(٦) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٧٠.

(٧) تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٧٢.

(٨) ابن أبي شيبة: المصنّف في الأحاديث والآثار، ج٦، ص٥٤٩. وإسناده صحيح.

(٩) الدّينوري: الأخبار الطّوال، ص١١٤.



أدرك المُثنّى ﷺ خطورة امتداد وقت المعركة على قوّاته، فعزم على قتل قائد الفرس، وشقّ الصّفوف إليه في كتيبة من الأبطال، ولم يرجع عن مهران حتّى قتله(١)، وصُرع مسعودُ ابن حارثة يومئذ وبعضُ قوّاد المسلمين(٢)، فلمّا رأى مسعودٌ تضعضع قومه، جعل يحضّضهم على القتال وهو صريع! ويقول: "يا معشر بكر بن وائل، ارفعوا رايتكم، رفعكم الله، لا يهولنّكم مصرعي"(٣)، ورأى المُثنّى مصرع أخيه فلم يشغله عمّا هو فيه، ونادى المسلمين: "لا يرعْكم مصرعُ أخي؛ فإنّ مصارع خياركم هكذا"(٤).

سمع المسلمون كلام المُثنّى وأخيه مسعود، ورأوا منهما قوّة الإيمان، وصدق الجهاد في سبيل الله، فحملوا على الفرس حملة رجل واحد، فهزموهم، واتّبعوهم يقتلونهم(٥)، وأسرع المُثنّى ﷺ إلى الجسر فقطعه أمام الفارّين، فافترقوا بشاطئ الفرات، ولكن فرسان المسلمين أحاطوا بهم حتّى قتلوهم، ومال المُثنّى على الّذين أرادوا أن يستقتلوا من منهزمة يوم الجسر، فانتدبهم لتتبّع الفرس، وحملهم على الخيل، فلم يبق في العسكر أحدٌ منهم إلّا خرج، فانطلقوا في طلبهم، ومعهم قبيلة بجيلة(٦).

وكان لمعركة البويب أثرٌ كبيرٌ على المسلمين والفرس، فقد أعادت للمسلمين هيبتهم، ومكّنتهم من الغارة على السّواد إلى حدود نهر دجلة، أمّا الفرس فقد انهارت معنويّاتهم، فتراجعت مسالحهم حتّى تركوا ما وراء دجلة كلّه(٧)، وراحوا يتحدّثون عن قرب دخول المسلمين مدائنهم، وسقوط عاصمتهم(٨)، ممّا دفع القيادة الفارسيّة إلى القيام بعمل عسكريّ كبير؛ لتستعيد هيبتها، وتستردّ أرض السّواد من أيدي المسلمين.

---

(١) ابن الكلبي: نسب مَعَدّ واليمن الكبير، تحقيق/ ناجي حسن، عالم الكتب، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ج١، ص٣٠؛ ابن العبري: تاريخ مختصر الدّول، ص٩٠.

(٢) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٧٢.

(٣) تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٧٣.

(٤) البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٧٥.

(٥) فتوح البلدان، ص٢٧٥.

(٦) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٧٢- ٣٧٥.

(٧) الدّينوري: الأخبار الطّوال، ص١١٥؛ الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٧٥.

(٨) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٧٨.

موقعة القادسيّة(١):

لم يكن أهل فارس بالّذين يسكتون على ما حلّ بالعراق، ويقفون متفرّجين حتّى يداهم المسلمون مدائنهم؛ لذلك هاجوا على رُسْتُمَ والفَيْرُزان - اللّذين يتحكّمان في البلاد - واجتمعوا على يزْدَجِرْد بن شهريار بن كسرى، وهو ابن إحدى وعشرين سنة، وملّكوه عليهم، وعاهدوه على الطّاعة[٢]، فنادى بالنّفير في أنحاء بلاده لمواجهة المسلمين وطردهم، فأتته جموعٌ كثيرة، فولّى عليهم القائد رُسْتُم بن هُرمُز الّذي كان محنّكًا مجرّبًا[٣].

موقف القيادة الإسلاميّة من تحرّكات الفرس:

بلغ خبرُ الفرس إلى المُثنّى والمسلمين، فكتبوا إلى عمر ﷺ يعلمونه بتحرّك أهل السّواد للثّورة عليهم[٤]، وكثرة من تجمّع لهم من أهل فارس، ويسألونه المدد[٥]، ولكنّ الأحداث تطوّرت بسرعة قبل وصول الكتاب إلى عمر ﷺ، فثار أهل السّواد جميعًا، من كان له عهد منهم، ومن لم يكن[٦]، وتعجّل رستم، فزحف بجموعه نحو المسلمين[٧].

أدرك المُثنّى الشّيبانيّ ﷺ أنّ مواجهته لجموع رستم بجيشه الصّغير سوف تؤدّي إلى كارثة محقّقة، فخرج بالنّاس حتّى عسكر بذي قار، وأنزل النّاس بالطّفّ - برّ السّواد - ففرّقهم فيه من أوّله إلى آخره[٨]، وعادت مسالح الفرس وثغورهم كما كانت، غير أنّهم كانوا هائبين للمسلمين الّذين أضرّوا بهم عن طريق الكرّ والفرّ؛ وظلّ أمراء المسلمين

---

(١) اختلف المؤرّخون في تأريخ وقعة القادسيّة، فأرّخها سيف بن عمر التّميميّ بالمحرّم سنة ١٤هـ/٦٣٥م. وجعلها ابن إسحاق في آخر سنة ١٥هـ/٦٣٦م. الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٤١١، ٤٢٨. ورجّح خليفة بن خياط آخر شوّال سنة ١٥هـ/٦٣٦م. تاريخ خليفة، ص١٣٢. بينما أخّرها الواقديّ إلى أواخر سنة ١٦هـ/٦٣٧م. البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٧٧.

(٢) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٧٨، ٣٧٩.

(٣) الدّينوري: الأخبار الطّوال، ص١١٩.

(٤) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٧٩.

(٥) البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٧٦.

(٦) ابن الأثير: الكامل في التّاريخ، ج٢، ص٢٨٥.

(٧) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٨٢.

(٨) تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٧٩، ٣٨٢.



يكفكفون جندهم بكتاب الخليفة عمر ﷺ وأمداد المسلمين؛ كي لا يشتبكوا معهم في حرب عامّة[1].

لم يكن الفاروق عمر ﷺ بذلك الخليفة المستضعف الّذي يرضى بخروج جيشه من العراق، وتوقّف عمليّات الجهاد، فلئن كانت ريح الفرس قد تحرّكت نحو العراق، فلسوف يقابلها إعصار الخليفة من المدينة؛ لأنّه لمّا وصله كتاب المُثنّى ﷺ عزم على الدّخول مع الفرس في حرب حاسمة، وأقسم أن يضرب ملوك العجم بملوك العرب[2].

ولخطورة الموقف آنذاك فقد أمر عمر ﷺ بالتّجنيد الإجباريّ لأوّل مرّة في تاريخ الحروب الإسلاميّة[3]، وكتب إلى المُثنّى الشّيبانيّ ومن معه: "لَا تَدَعُوا فِي رَبِيعَةَ وَلَا مُضَرَ وَلَا حُلَفَائِهِمْ أَحَدًا مِنْ أَهْلِ النَّجَدَاتِ وَلَا فَارِسًا إِلَّا اجْتَلَبْتُمُوهُ، فَإِنْ جَاءَ طَائِعًا وَإِلَّا حَشَرْتُمُوهُ، احْمِلُوا الْعَرَبَ عَلَى الْجِدِّ إذ جَدّ الْعَجَم، فلتلقوْا جَدّهُم بجَدِّكم"[4].

🕮 اختيار سعد بن أبي وقّاص لإمارة العراق ووفاة المُثنّى:

عندما جاءَت أمداد العرب إلى الخليفة عمر ﷺ أراد أن يغزو بنفسه، وعسكر لذلك، فأشار عليه جماعة من كبار الصّحابة بالمقام وتوجيه الجيوش والبعوث، فأجابهم، واختار سعد بن أبي وقّاص ﷺ لقيادة الجيش؛ لكونه من كبار الصّحابة المشهورين بالشّجاعة والرّماية[5]، وسيّره من المدينة إلى العراق ومعه أربعة آلاف مقاتل[6]، ثمّ أتبعه بأربعة آلافٍ أُخَرَ، وكان مع المُثنّى ثمانية آلاف مقاتل، ثمّ توالت الأمداد على سعد ﷺ وتلاحق به النّاس، حتّى بلغت جموع المسلمين بضعًا وثلاثين ألفًا[7].

(١) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٨٢.

(٢) تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ٣٨٥.

(٣) محمّد أحمد باشميل: القادسية ومعارك العراق، مكتبة دار التّراث، القاهرة، بدون تاريخ طبع، ص٤٦١.

(٤) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٧٩.

(٥) البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٧٦.

(٦) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٨٣.

(٧) تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٨٤. وعند خليفة بن خياط نحو خمسةَ عشرَ ألفًا. تاريخ خليفة، ص١٣١، ١٣٢.

ولم يبق بين سعد ﷺ وبين أن يجتمع بالمُثنّى إلّا اليسير، وكلّ منهما مشتاقٌ إلى لقاء صاحبه، حتّى انتقض بالمُثنّى ﷺ الجُرح الّذي أصابه يوم الجسر، فمات منه[1]، بعدما ترك وصيّة عسكريّة لسعد ﷺ[2]، تعتبر عصارة تجاربه وخبرته في حرب الفرس[3]، وأشار عليه فيها أن يحارب العدوّ بين القادسيّة والعذيب[4]، وأمر بتعجيل إرسالها إليه، فخرج بها أخوه المُعنّى وسلمى بنت خصَفة - زوج المُثنّى - وفيها يوصي سعدًا ﷺ ألّا يقاتل أهل فارس في عقر دارهم، وإنّما يقاتلهم على حدود أرض العرب؛ لكونهم أعرف بقتال الصّحراء من الفرس، ولينحازوا إلى فئة، إن حلّت بهم الهزيمة، فلمّا انتهت وصيّة المُثنّى إلى سعد ترحّم عليه، وأمّر أخاه المُعنّى بن حارثة على عمله، وأوصى بأهل بيته خيرًا[5]، ثمّ وصلت تعليمات الخليفة عمر ﷺ موافقة تمامًا لوصيّة المُثنّى[6].

وكان المُثنّى بن حارثة ﷺ قد أوصى بزوجه - سلمى بنت خَصَفَة التّيميّة البكريّة - إلى سعد ﷺ، فلمّا قدمت عليه خطبها، ثمّ تزوّجها[7]، بعدما انتهت عدّتُها[8].

وباستشهاد المُثنّى ﷺ فقدَ المسلمون قائدًا عسكريًّا كبيرًا، عرف بالشّجاعة والبطولة، وحسن الرّأي والإمارة، وأبلى في حروب العراق بلاءً لم يبلغه أحد[9].

وقد جمع المُثنّى الشّيبانيّ مواهب القادة العسكريّين البارزة، كما جمع الخُلق والعقل اللّذين يجعلان منه رجلاً جديرًا بالشّهرة والتّكريم عند كلّ أمّة من الأمم، وفي كلّ عصر من العصور[10].

---

(١) ابن كثير: البداية والنّهاية، ج٧، ص٤٣.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٧٦.

(٣) محمود شيت خطّاب: قادة فتح العراق والجزيرة، دار القلم، القاهرة، بدون تاريخ طبع، ص٤٠.

(٤) البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٧٦.

(٥) ابن الأثير: الكامل في التّاريخ، ج٢، ص٢٩٠.

(٦) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٨٦.

(٧) الدّينوري: الأخبار الطّوال، ص١١٩.

(٨) عبد العزيز عبد الله الحميدي: التّاريخ الإسلامي مواقف وعبر، ج١٠، ص٣٧٠.

(٩) ابن عبد البرّ: الاستيعاب، ج٤، ص١٤٥٦؛ ابن حجر: الإصابة، ج٥، ص٥٦٩.

(١٠) جون باجوت جلوب: الفتوحات العربيّة الكبرى، ص ١٥٩.



وإنّ المطالع لدور القائد العبقريّ المُثنّى بن حارثة الشّيبانيّ ﷺ في فتوح العراق يرى أنّه كان من أكثر المسلمين إخلاصًا، فعلى الرّغم من أسبقيّته في قيادة الجبهة العراقيّة، إلّا أنّه لم يتأثّر بتأمير غيره عليه، وعمل بكلّ إخلاص تحت راية خالد بن الوليد وأبي عبيد بن مسعود، وكان في طريقه للتّسليم لسعد بن أبي وقّاص ﷺ بالقيادة، والعمل تحت رايته، ولكنّه لقي الشّهادة قبل أن يلقاه[1].

وكان المُثنّى بن حارثة ﷺ نظير خالد بن الوليد ﷺ في يُمن النّقيبة والجراءة على الأعداء[2]، وكلاهما لم تذكر له هزيمة في جاهليّة ولا في إسلام، وإنّ انسحاب خالد في مؤْتة يقابله انسحاب المُثنّى يوم الجسر، وكلا الرّجلين أخلص لله في حروبه رئيسًا ومرؤوسًا، وقد قرنهما الفاروق عمر ﷺ في العزل عندما تولّى الخلافة، واعتذر للنّاس قائلاً: "إنّي لم أعزلهما عن ريبة؛ ولكنّ النّاس عظّموهما، فخشيت أن يوكلوا إليهما"[3].

🕮 مسير رُسْتُم إلى العراق:

زحف رستم بجيشه الهائل، مائة ألف أو يزيدون[4]، نحو العراق فاستولى على البلاد الّتي افتتحها المسلمون صلحًا وعَنْوة[5]، فلمّا علم سعد بن أبي وقّاص ﷺ بمسيره أرسل عمرو بن معدِيكرب الزُّبيديّ، وطليحة بن خويلد الأسديّ ليستكشفا خبر الفرس مع عشرة رجال، فلم يسيروا إلّا قليلاً حتّى رأوْا سرح العدوّ منتشرًا على الطّفوف، فرجعوا إلّا طليحة، فإنّه ظلّ سائرًا حتّى دخل جيش العدوّ وعلم ما فيه، ونذر به الفرس فلحقه فارس

---

(١) محمّد عبد العال محمّد حسن: بنو شيبان ودورهم السّياسيّ والحضاريّ في العراق والجزيرة الفراتيّة خلال القرون الثّلاثة الأولى من الهجرة، رسالة دكتوراة، ص٧٧.

(٢) السّلاوي: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق/ جعفر النّاصري، دار الكتاب، المغرب، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، جـ١، ص٨١.

(٣) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٢، ص٤٤٥.

(٤) يروي سيف بن عمر التّميميّ عن رجاله أنّ الفرس خرجوا إلى المسلمين في مائة وعشرين ألفًا، كلّهم متبوع. الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٢، ص٣٩٤. وينصّ البلاذري على أنّهم كانوا زهاء مائة وعشرين ألفًا. فتوح البلدان، ص٢٧٦.

(٥) المطهّر بن طاهر المقدسي: البدء والتّاريخ، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٠م، مج٢، جـ٥، ص١٧١.

منهم فقتله، ثمّ لحقه آخر فقتله أيضًا، وتمكّن من أخذ الثّالث أسيرًا، ورجع به إلى سعد فأسلم، وأخبره خبر الفرس[١].

وأقام رستم أربعة أشهر بين الحيرة والسّيْلَحين[٢]، لا يقدم على المسلمين[٣]، الّذين ينتظرونه على حافّة الصّحراء في قلّة من العلف والطّعام؛ وذلك ليضجروا ويتركوا بلاد العراق من غير حرب[٤]، ولكنّ المسلمين كانوا إذا احتاجوا إلى العلف والطّعام أخرجوا خيولاً في البرّ، فأغارت على أسفل الفرات، ثمّ عادت إلى معسكرهم عند القادسيّة، كما كان الخليفة عمر ﷺ يبعث إليهم الغنم والجُزر من المدينة[٥].

📖 **دعوة المسلمين لملك الفرس**:

كتب الفاروق عمر ﷺ إلى سعد ﷺ بأن يرسل إلى ملك الفرس رجالاً يدعونه إلى الإسلام، فوجّه إليه عمرو بن معدِيكرب الزُّبيديّ، والأشعث بن قيس الكِنْديّ في جماعة آخرين[٦]، ليكون الوفد "توهينًا لهم، وفلجًا[٧] عليهم"[٨].

تحرّك وفد المسلمين فمرّوا على رستم، فجرى بينه وبينهم كلامٌ كثير، حتّى قالوا: "إنّ نبيّنا قد وعدنا أن نغلب على أرضكم"، فدعا لهم رستم بزبيل[٩] من تراب، فبادر عمرو بن معدِيكرب الزُّبيديّ فبسط رداءه، وأخذ منه، ثمّ انصرف به متفائلاً أن يغلبوا الفرس على أرضهم، وتصير للمسلمين، ثمّ أتوا الملك ودعوه إلى الإسلام فغضب، وأمرهم بالانصراف،

---

(١) الدّينوري: الأخبار الطّوال، ص١١٩، ١٢٠؛ الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٩٧- ٣٩٩.

(٢) السّيلحين: قريبة من الحيرة وهي ضاربة في البرّ نحو القادسيّة غربًا. ياقوت: معجم البلدان، ج٣، ص٢٩٨.

(٣) البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٧٦.

(٤) الدّينوري: الأخبار الطّوال، ص١١٩.

(٥) البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٧٦.

(٦) فتوح البلدان، ص٢٧٨.

(٧) الفلج: الفوز والظّفر. ابن منظور: لسان العرب، ج٢، ص٣٤٧.

(٨) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٨٩.

(٩) زَبِيل: القُفَّةُ أو الوعاء الّذي يحمل فيه، وهو بفتح الزّاي، فإذا كسر شدّد فقيل: زِبِّيلٌ، أَوْ زِنْبِيلٌ. ابن منظور: لسان العرب، ج١١، ص٣٠٠، ٣٠١.

وقال: "لَوْلَا أَنَّكم رُسُلٌ لَقَتَلْتُكُمْ"[١]، ارجعوا إلى صاحبكم فأعلموه أنّي مرسلٌ إليه رُسْتُمَ حتّى يدفنه ويدفنكم معه في خندق القادسيّة، ثمّ أُورِدُه بلادكم حتّى أُشغلكم بأنفسكم[٢]، وكتب إلى رستم يعنّفه على إنفاذهم إليه[٣].

وكعادة الأخباريّ الكذوب سيف بن عمر التّميميّ في تعصّبه لقومه وتحريفه للتّاريخ، فقد سحب هذا الموقف من عمرو بن معدِيكرب الزّبيديّ، وأسنده لابن عمّه عاصم بن عمرو التّميميّ[٤].

🕮 مفاوضة رستم للمسلمين:

اثّاقل القائد الفارسيّ رُستم بن هرمز عن المسير إلى المسلمين ومواجهتهم[٥]، حتّى غضب الملك الفارسيّ كسرى يزدجرد وأمره بالتّوجّه فورًا لملاقاتهم، فتحرّك إلى القادسيّة، ونزل على العتيق - جسر القادسيّة - أمام عسكر المسلمين، يحول بينهم النّهر[٦]، وأرسل إلى سعد بن أبي وقّاص ﷺ أن ابعث إلينا رجلاً نكلّمه، فيُروى أنّه أرسل إليه رِبْعِيّ بن عامر، فأظهر كثيرًا من التّهاون بالفرس حتّى سأله رستم عن سبب مجيء المسلمين إلى العراق فقال: "الله ابتعثنا، والله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدّنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبل منّا ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه، وتركناه وأرضه يليها دوننا، ومن أبى قاتلناه أبدًا، حتّى نفضي إلى موعود الله. قال: وما موعود الله؟ قال: الجنّة لمن مات على قتال من أبى، والظّفر لمن بقي"[٧].

---

(١) البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٧٨.

(٢) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٩١، ٣٩٢.

(٣) البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٧٨.

(٤) محمّد عبد العال محمّد حسن: مختلقات سيف بن عمر التّميميّ في تاريخ قومه، مجلّة كلّيّة اللّغة العربيّة بأسيوط، العدد ٣٨، ج٢، ص١٨٤٥- ١٨٤٧.

(٥) البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٧٦.

(٦) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٤٢٩.

(٧) تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٤٠١. وقد تفرّد الأخباريّ سيف التّميميّ بذكر هذا الخبر، وهو ينسب ربعيّ بن عامر إلى بني تميم أيضًا. الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٥٣٥.

لكن الثّابتُ من الأخبار أنّ سعد بن أبي وقّاص ﷺ أرسل إليه المغيرة بن شعبة الثّقفيّ ﷺ[1]، فتوجّه إليه على فرس مهزول، وبيده سيف معلوب ملفوف بالخرق[2]، فلمّا أتاه جلس معه على السّرير، فنخر رستم وجنده حين جلس معه، فقال المغيرة: "وَاللهِ مَا زَادَنِي مَجْلِسُ هَذَا رِفْعَةً، وَلَا نَقَصَ صَاحِبَكُمْ"[3].

وسأل رستمُ المغيرة ﷺ عن سبب مجيء المسلمين إلى العراق في غير عدد ولا عدّة، فقال: "كُنَّا قَوْمًا فِي شَقَاءٍ وَضَلَالَةٍ فَبَعَثَ اللَّهُ فِينَا نَبِيَّنَا، فَهَدَانَا اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ، وَرَزَقَنَا عَلَى يَدَيْهِ، فَكَانَ فِيمَا رَزَقَنَا حَبَّةٌ - زَعَمُوا أَنَّهَا - تَنْبُتُ بِهَذِهِ الأَرْضِ، فَلَمَّا أَكَلْنَا مِنْهَا وَأَطْعَمْنَا مِنْهَا أَهْلِينَا قَالُوا: لَا خَيْرَ لَنَا حَتَّى تَنْزِلُوا هَذِهِ الْبِلَادَ فَنَأْكُلُ هَذِهِ الْحَبَّةَ"، فَقَالَ رُسْتُمُ: إِذًا نَقْتُلُكُمْ، قَالَ: إِنْ قَتَلْتُمُونَا دَخَلْنَا الْجَنَّةَ، وَإِنْ قَتَلْنَاكُمْ دَخَلْتُمُ النَّارَ، وَإِلَّا أَعْطَيْتُمُ الْجِزْيَةَ"، فصاح الفرس ونخروا، وأنهوا الحديث عن الصّلح[4].

وبلغ الغضب من رستم منتهاه، فأقسم بالشّمس والقمر لا يرتفع الضّحى حتّى يقتل المسلمين أجمعين، فحوقل المغيرة وانصرف[5]، وأرسل رستم إلى سعد يخيّره في العبور إلى الفرس أو الابتعاد عن قنطرة العتيق ليعبر الفرس إلى المسلمين، فرفض سعد ﷺ التّخلّي عنها، فبات الفرس يسكّرون العتيق بأمتعتهم حتّى الصّباح[6].

---

(١) البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٧٧.

(٢) فتوح البلدان، ص٢٧٨. وينظر الطّبري من رواية ابن إسحاق. تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٤٢٩.

(٣) أبو يوسف: الخراج، ص٤٠؛ ابن أبي شيبة: المصنّف، ج٦، ص٥٥١. والأثر صحيح الإسناد، رجاله ثقات.
وفي رواية سيف بن عمر التّميميّ: أنّه لمّا جلس معه، وثب عليه الحرس فترتروه وأنزلوه ومغثوه، فقال: "كانت تبلغُنا عنكم الأحلامُ، ولا أرى قومًا أسفه منكم! إنّا معشرَ العرب سواءٌ، لا يستعبدُ بعضُنا بعضًا إلّا أن يكون محاربًا لصاحبه، فظننت أنّكم تواسون قومكم كما نتواسى، وكان أحسنَ من الّذي صنعتم أن تُخبروني أنّ بعضكم أربابُ بعض، وأنّ هذا الأمر لا يستقيم فيكم فلا نصنعه، ولم آتكم، ولكن دعوتموني، اليوم علمتُ أنّ أمركم مضمحلٌّ، وأنّكم مغلوبون، وأنّ ملكًا لا يقوم على هذه السّيرة، ولا على هذه العقول". الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٤٠٢، ٤٠٣.

(٤) أبو يوسف: الخراج، ص٤٠؛ ابن أبي شيبة: المصنّف، ج٦، ص٥٥١. وإسناده صحيح.

(٥) البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٧٨.

(٦) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٤٠٦. وفي رواية أنّ المغيرة هو الّذي خيّر رستم فتسرّع واختار العبور. أبو يوسف: الخراج، ص٤٠؛ ابن أبي شيبة: المصنّف، ج٦، ص٥٥١.

وكان زَهرةُ بن الحَوِيّة التّميميّ - قائد مقدّمة المسلمين - يقف "مسلحة" للجيش الإسلاميّ عند قنطرة العتيق بين معسكر المسلمين من ناحية ومعسكر الفرس من ناحية أخرى، فجرت بينه وبين قادة الفرس عدّة مراسلات ومحاورات، كان الفرس يرغّبون المسلمين من خلالها في الصّلح والرّجوع عنهم مقابل بعض الغنائم والأموال، فيردّ زَهرةُ ﷺ بأنّهم جاءوا يريدون الآخرة ونشر الإسلام، ولا يطلبون الدّنيا(١).

📖 الاستعداد للمعركة:

تمادى الفرس في غيّهم، وعبروا نهر العتيق بالقادسيّة، وعبّأ رستم جيشه العرمرم، ووزّع فيوله على القلب والميمنة والميسرة(٢).

وكان المسلمون على أُهْبَة الاستعداد، فقد عبّأ سعد ﷺ جيشه مبكّرًا، وأمّر الأمراء، وعرّف على كلّ عشرة عرِّيفًا، وجعل على الرّايات رجالاً من أهل السّابقة، ورتّب المقدّمة، والسّاقة، والمُجنّبات، والطّلائع، فجعل زَهْرة بن الحَوِيَّة السّعديّ التّميميّ على المقدّمة(٣)، وشُرَحْبِيلَ بن السِّمْطِ الكنديّ على الميمنة، وهاشم بن عتبة بن أبي وقّاص الزّهريّ على الميسرة، وقيس بن هبيرة المكشوح المراديّ على الخيل، والمغيرة بن شعبة على الرّجّالة(٤).

ولمّا كان سعد ﷺ مريضًا، وبه دماملُ لا يستطيع الرّكوب ولا الجلوس، فقد أكبّ على صدره وتحته وسادة، وأشرف على الميدان من قصر قُدَيْس الّذي كان في القادسيّة(٥)، واستخلف على النّاس حليفه خالد بن عُرْفُطة العُذْريّ ﷺ(٦)، وبقي سعدٌ فوق القصر(٧)،

---

(١) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٤٠٠، ٤٠١؛ ابن الأثير: الكامل في التّاريخ، ج٢، ص٢٩٧. من طريق سيف. وينظر الكلاعي: الاكتفاء، ج٢، ص٤٦٤. من رواية المدائني وغيره.

(٢) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٤٠٠. وروى خليفة بن خياط من غير وجه أنّ الفرس جلبوا معهم سبعين فيلاً. تاريخ خليفة، ص١٣١.

(٣) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٨٥.

(٤) الكلاعي من رواية المدائني. الاكتفاء، ج٢، ص٤٦٦. وفي رواية ابن إسحاق أنّه جعل جرير بن عبد الله البجليّ على الميمنة، وقيس بن هبيرة على الميسرة. الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٤٣٠.

(٥) تاريخ الطّبري، ج٢، ص٤٠٧. وعند القاسم بن سلّام أنّه اشتكى قرحة برجله. الأموال، ص١٠٦.

(٦) البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٧٩.

(٧) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٤٠٨.

وأصبح مشرفًا على ساحة المعركة، ولم يكن القصر محصّنًا، وهذا يدلّ على شجاعة سعد ﷺ وجراءته؛ لأنّه لو أعراه الصّفّ فواق ناقة لأخذ برُمَّته[١].

🕮 رفع الرّوح المعنويّة بين أفراد الجيش الإسلاميّ:

جمع سعد ﷺ وجهاء المسلمين وقادتهم في بداية اليوم الأوّل من المعركة وهم شعراء العرب، وخطباؤهم، وذوو رأيهم، ونَجَدَتُهم، وسادتُهم، فأمرهم أن يسيروا في النّاس فيذكّروهم ويحرّضوهم على القتال، فساروا فيهم، فرفعوا معنويّاتهم، وألهبوا حماسهم[٢].

🕮 يوم أرْماث:

يطلق سيف بن عمر التّميميّ اسم "أرماث"[٣] على اليوم الأوّل من أيّام القادسيّة الأربعة، إلّا أنّ مرتضى العسكريّ الشّيعيّ العراقيّ (ت: ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م) يرى أنّه قد وقعت في القادسيّة حربٌ ضروسٌ بين المسلمين والفرس، وأنّ سيفًا التّميميّ أوردها في أحاديثه على شكل أساطير، سمّى اليوم الأوّل منها بيوم أرماث، والثّاني يوم أغواث، والثّالث يوم عَمَاس، واختلق بطولات فذّة لأبطال أساطير من قبيلته تميم، كالقعقاع، وعاصم[٤].

وجزم العسكريّ بأنّ الأيّام الثّلاثة الّتي ذكرها سيفُ التّميميّ في القادسيّة من مختلقاته، ولم يُثبتْ إلّا يوم القادسيّة، وليلة الهرير، على الصّورة الّتي ورد ذكرها في فتوح البلاذريّ[٥]، وجزم بأنّ الأيّام الثّلاثة أرماث، وأغواث، وعَمَاس، أضيفت إلى أيّام التّاريخ الإسلاميّ[٦]، وليس لها واقع حقيقيّ، لتفرّد سيف بن عمر التّميميّ بذكرها دون غيره من رواة الأخبار[٧].

---

(١) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٤٣٣.

(٢) تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٤٠٨، ٤٠٩.

(٣) أرماث: لم يعرف ياقوت الحموي أسماء أيام موقعة القادسية الّتي يقال لها، أرماث، أغواث، عَمَاس، ما إذا كانت أسماء مواضع أم هي من الرّمث، والغوث، والعمس. معجم البلدان، ج١، ص٢٢٥.

(٤) عبد الله بن سبأ وأساطير أخرى، دار الزهراء، بيروت، الطّبعة السّادسة، ١٤١٢هـ/١٩٩١م، ج١، ص٢٥٧.

(٥) خمسون ومائة صحابيّ مختلق، ج١، ص١٣٢، ١٣٣.

(٦) خمسون ومائة صحابيّ مختلق، ج١، ص١٣٤.

(٧) خمسون ومائة صحابيّ مختلق، ج١، ص١٣٣.

والصّحيح أنّ سيفًا لم ينفرد بذكر أيّام القادسيّة، بل نجد ذكرها مجملة دون مسمّيات عند غير واحد من مؤرّخي أهل السُّنّة الثّقات[1]، وبمغايرة طفيفة في الأسماء عند بعض مؤرّخي الشّيعة[2]، ممّا يدلّ على أنّ تلك الأيّام كانت مشهورة عند أهل الأخبار، وإن اختلفت مسمّياتها[3].

وكانت بداية الصّدام من ناحية الفرس، حيث أمر رستم قائدًا كبيرًا من رجال الفرس يقال له "هرمز" بالهجوم على المسلمين فتقدّم في كتيبته، فأسرع إليه أبطال المسلمين، وشدّ عليه غالب بن عبد الله الأسديّ وزَهرةُ بن الحَويّة التّميميّ، فسبق إليه غالب في خيل فقتله[4].

وجعل عمرو بن معدِيكرب الزُّبيديّ يمرّ أمام الصّفوف، ويحرّض الجند على القتال، ويهوّن عليهم أمر الفرس[5]، وبينا هو أمام صفوف بجيلة، خرج رجلٌ من عظماء الفرس ينادي: "مُرْدٌ ومُرْدٌ"، أي رجل لرجل، وكان عمروٌ بحِياله فخرج إليه فبارزه فاعتنقه، ثمّ جلد به الأرض، وقتله ذبحًا[6].

وواصل عمروٌ جولاته أمام الصّفوف لتحريض النّاس على القتال، وبينا هو يقول: "إِنَّمَا الْفَارِسِيُّ تَيْسٌ بَعْدَ أَنْ يُلْقِيَ نَيْزَكَهُ"[7]، قصده رجلٌ فارسيٌّ كانت لا تقع له نُشّابة، ورماهُ

---

(١) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٣٢؛ الكلاعي من طريق المدائني. الاكتفاء، ج٢، ص٤٧٧.

(٢) ابن أعثم: الفتوح، مج١، ص١٦٠؛ الأصفهاني: الأغاني، ج١٩، ص٦، ٧.

(٣) محمّد عبد العال محمّد حسن: مختلقات سيف بن عمر التّميميّ في تاريخ قومه، مجلّة كلّيّة اللّغة بأسيوط، العدد٢٨، ج٢، ص١٨٤٨- ١٨٤٩.

(٤) من رواية المدائني. الكلاعي: الاكتفاء، ج٢، ص٤٧٠. وتشير رواية سيف إلى أنّ بدء المعركة كان من جانب المسلمين، وأنّ غالبًا الأسديّ خرج يتحدّى الفرس ويطلب المبارزة، فخرج إليه هرمز فقتله غالب. الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٤١٠. ورواية المدائني أولى بالقبول؛ لأنّ سيفًا مهّد بغالب لابن عمّه عاصم بن عمرو التّميميّ بعده.

(٥) ابن أبي شيبة: المصنّف، ج٦، ص٥٥٠. وإسناده صحيح.

(٦) البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٧٨؛ الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٤١١.

(٧) النّيزك: الرّمح القصير، تصغير رمح بالفارسية. ابن الأثير: النّهاية في غريب الحديث والأثر، ج٥، ص١٤١.

فأصاب فرسه، فحمل عليه عمرٌو فاعتنقه، ودقّ صلبه فصرعه، وذبحه كما تذبح الشّاة، وأخذ سلَبَه، سوارين من ذهبٍ، ومِنْطَقَةً، وَقَبَاءَ دِيبَاجٍ[1].

وكان عمرو بن معدِيكرب عظيم الْغَنَاءِ عن المسلمين في القادسيّة، شديد النّكاية في المجوس[2]، فعل بهم أيّامئذٍ الأفاعيل[3].

وكان لأبطال المسلمين أثرٌ ظاهر في النّكاية بالعدوّ حيث قتلوا بالمبارزة عددًا من أبطال الفرس، وأسروا آخرين، ولم يقتل من المسلمين أحدٌ، فزاد ذلك في حماسهم[4].

ولمّا رأى رستم تفوّق المسلمين في المطاردة والمبارزة أمر جانبًا من قوّاته بالهجوم العام على جانب جيش المسلمين الّذي فيه قبيلة بجيلة[5]، بستةَ عشرَ فيلاً[6]؛ لقطع حرب المبارزة والمطاردة الّتي فشلوا فيها، وفرّت خيل بجيلة ومن معهم أمام الأفيال، فكادت بجيلة أن تؤكل، وثبت المشاة من أهل المواقف لهجوم الفرس[7].

وأبصر سعدٌ ﷺ الموقف الّذي وقعت فيه بجيلة فأرسل إلى بني أسد[8] ليذَبِّبُوا عنها، فقام زعيمهم طليحة بن خويلد فاستصرخهم، وألهب مشاعرهم، وطالبهم بأن يفعلوا فعل

---

(١) أبو يوسف: الخراج، ص٤٢؛ سعيد بن منصور: السّنن، ج٢، ص٣٠١، ٣٠٢، ح٢٦٩١؛ ابن أبي شيبة: المصنّف، ج٦، ص٥٥٠، ح٣٣٧٤٣. وصحّح ابن حجر إسناده. الإصابة، ج٤، ص٥٧٠.

(٢) ابن سعد: الطّبقات الكبير، ج٦، ص٢٧١. ويصدّق هذا محاورته لعمر ﷺ بعد القادسيّة في شأن الحرب والسّلاح. البلاذري: فتوح البلدان، ص٣٠٠. والرّواية عن الشّعبيّ.

(٣) ابن سعد: الطّبقات الكبير، ج٦، ص٢٧٠.

(٤) عبد العزيز عبد الله الحميدي: التّاريخ الإسلامي مواقف وعبر، ج١٠، ص٤٤٥.

(٥) تذكر المصادر في سبب هجمة الفرس الشّديدة على بجيلة أنّ رجلاً ثقفيًّا ارتدّ ولحق بالفرس وقتئذ فأخبرهم أنّ بأس النّاس مع بجيلة بسبب كثرة عددهم. أبو يوسف: الخراج، ص٤٢؛ ابن أبي شيبة: المصنّف، ج٦، ص٥٥٠. وإسناده صحيح. وينظر ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج٤٦، ص٣٧٩.

(٦) أبو يوسف: الخراج، ص٤٢؛ ابن سعد: الطّبقات الكبير، ج٦، ص٢٩٤؛ ابن أبي شيبة: المصنّف، ج٦، ص٥٥٠. وإسناده صحيح.

(٧) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٤١١.

(٨) روى ابن أبي شيبة عن سماك بن حرب أنّه أدرك ألفين من بني أسد ممن شهدوا القادسيّة، وهذا يدلّ على أنّ عددهم كان كبيرًا. مصنّف ابن أبي شيبة، ج٦، ص٥٥٥.

الأسد الّذي سمّوا به، وأن يكونوا عند ظنّ سعد الّذي لم يجد أحدًا أحقّ بإغاثة بجيلة منهم، فكان لكلامه مفعولٌ عجيب في نفوس قومه، ونزل أبطال بني أسد إلى المعركة كاللّيوث، وشدُّوا على الفرس، فما زالوا يطعنونهم ويضربونهم حتّى حبسوا الفيلة عن بجيلة، ورمت الفرس بني أسد بجَدّهم، فاجتمعت حلبتهم وفيلتهم عليهم، فثبتوا لهم[١].

ورأى الأشعث بن قيس الكنديّ ما يفعله الأسديّون فاستنهض قومه للقتال حتّى يبلوا بلاء يناظر ما فعلته بنو أسد، وليخفّف الضّغط الفارسيّ على الأسديّين الّذين اجتمع عليهم الفرس[٢]، فنهض قومه معه حتّى أزالوا الّذين بإزائهم.

وقد أخرج رستم كتيبة في ذلك اليوم بقيادة الجالينوس، فتلقّاه طليحة الأسديّ، فضربه بسيف على رأسه، فهشم البيضة الّتي عليه، وندرت عن رأسه، وجرح، فولّى الفرس منهزمين إلى رستم، فعظّموا أمر العرب ليعذرهم، وأخذ طليحة البيضة فنفّلها، فكانت قيمتها أربعمائة مثقال[٣].

ولمّا اشتدّت الحرب على بني أسد صرخ زَهرةُ بن الحَويّة التّميميّ في قومه: "قد صبر إخوانكم من بني أسد، وأحسنوا، فذودوا عنهم الفيلة وحماتها، فحمل زَهرة في بني تميم، وجريرٌ في بجيلة، فكشفوا المشركين عن بني أسد، وقد استشهد منهم خمسون رجلاً، وتحاجزوا قريبًا من العصر، فجمعوا بين الصّلاتين، ثمّ عاودوا القتال مطاردة ومشاولة حتّى غابت الشّمس"[٤].

وقد أخذ سيفُ التّميميّ الأسيّديّ هذه البطولة من قائد المقدّمة زَهْرة بن الحويّة التّميميّ السّعديّ، ودفعها لابن عمّه القريب عاصم بن عمرو التّميميّ الأسيّديّ، كما ضخّم من موقف قومه في الدّفاع عن بني أسد، حيث قتل من الأسديّين خمسمائة رجل[٥]، بينما

---

(١) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٤١٢، ص٤١١.

(٢) من رواية أبي الحسن المدائني. الكلاعي: الاكتفاء بما تضمّنه من مغازي رسول الله والثّلاثة الخلفاء، ج٢، ص٤٧٦.

(٣) من رواية المدائني. الكلاعي: الاكتفاء، ج٢، ص٤٧٤.

(٤) من رواية للمدائني. الكلاعي: الاكتفاء، ج٢، ص٤٧٧.

(٥) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٤١٢.

رواية أبي الحسن عليّ بن محمّد المدائنيّ تصرّح بأنّ شهداء بني أسد في تلك الجولة لم يجاوزوا الخمسين رجلاً[(١)].

وقد التقى حنظلة بن الرّبيع التّميميّ الكاتب ﷺ ذا الحاجب الفارسيّ - صاحب وقعة الجسر - في هذا اليوم "أرماث" فاختلفا طعنتين، فصارا جميعًا إلى الأرض، فضرب حنظلةُ ذا الحاجب على رأسه فصرعه، فحامت عنه الأساورة، حتّى ركب، وحامى القعقاعُ ابن عمرو التّميميّ وذريحُ التّيميّ الرّبعيّ عن حنظلة الكاتب حتّى ركب[(٢)].

ويزعم سيفٌ أنّ القعقاع لم يشهد يوم "أرماث"، وقد قدّم الكلاعيّ رواية المدائنيّ، واعتمدها في هذه المبارزة، ومرّض رواية سيف بقوله: "ويقال: إنّ القعقاع لم يشهد يوم أرماث هذا، وإنّما قدم من الشّام بعد انقضائه، فشهد سائر الأيّام وأبلى فيها"[(٣)].

وكانت امرأة المُثنّى الّتي تزوّجها سعد ﷺ تنظر إلى شدّة الحرب وجولات المتقاتلين يوم أرماث، فلمّا جال المسلمون صاحت: "وامثنّياه، ولا مُثنّى للخيل اليوم"[(٤)]، "القومُ أقرانٌ ولَا مُثنّى لهم"[(٥)]، فلطمها سعدٌ، فقالت: "جُبْنًا وَغَيْرَةً"[(٦)]، فقال سعدٌ وهو عليل: "إن لم تعذريني فلن يعذرني النّاس، فسكتت عند ذلك، ولم يكن سعدٌ ﷺ بالضّعيف ولا بالجبان، وإنّما أقعدته الإصابة عن مقارعة الرّجال"[(٧)].

واقتتل الفريقان يومئذ حتّى غربت الشّمس، ثمّ حتّى ذهبت هدأة من اللّيل، وقد تعادلت الكفّتان، ثمّ رجع هؤلاء وهؤلاء[(٨)]، فدعيت تلك اللّيلة بـ "ليلة الهدأة"[(٩)].

---

(١) الكلاعي: الاكتفاء بما تضمّنه من مغازي رسول الله ﷺ والثّلاثة الخلفاء، ج٢، ص٤٧٧.

(٢) الاكتفاء، ج٢، ص٤٧٧.

(٣) الاكتفاء، ج٢، ص٤٧٧.

(٤) ابن أبي شيبة: المصنّف، ج٦، ص٥٥٠. وإسناده صحيح. وينظر البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٧٩. والطّبري من رواية ابن إسحاق. تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٤٣٠.

(٥) ابن قتيبة: المعارف، ص١٠٠.

(٦) ابن أبي شيبة: المصنّف، ج٦، ص٥٥٠. وإسناده صحيح.

(٧) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٤١٣.

(٨) تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٤١٢.

(٩) تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٤١٥.



وحدث أن خرج رجل من أهل الحيرة ليلاً فأخبر الفرسَ بأمر سعد ووجعه، وأنّه في قصر منفصل عن جيشه، وحثّهم على مهاجمته وأخْذِه، فوجّه إليه رستم خمسمائة فارس من أبطال الفرس، فارتفعوا عن المعسكرين ليلتفّوا خلف المسلمين ويأخذوا سعدًا، ولكنّ الله كفاه شرّهم، فجاء رجلٌ من العجم إلى المسلمين مستأمنًا، فأخبرهم الخبر، فانتُدب لهم حنظلة بن الرّبيع الأسيّدىّ التّميميّ ﷺ في خمسمائة من تحت اللّيل، فانتهى إلى سعد عند طلوع الفجر ولم تصل إليه كتيبة الفرس، وكان عبد الله بن سبرة الواقفيّ قد تلقّى الفرس في سَرعان النّاس، وقتل منهم أميرين كبيرين، وما زال يضرب فيهم ويقتل، فلمّا غشيهم حنظلة وأصحابه انهزموا، وأكثر المسلمون فيهم الجراحة، وتحوّل سعدٌ ﷺ عندئذ فنزل مع جماعة النّاس[١].

🕮 يوم أغْواث:

بدأ هذا اليوم بالمطاردة والمبارزة بعدما تصافّ الجمعان كما حدث في اليوم الأوّل، وتقدّم سعد بن عبيد الأنصاريّ الأوسيّ الشّهير بالقاري أمام النّاس يحضّ أصحابه على القتال، فبرز له شهريار السّجستانيّ، فقتل كلّ واحد منهما صاحبه[٢]، وقد اغتمّ الفاروق عمر ﷺ - بعد ذلك - لمصاب القاري، حتّى قال: "لقد كاد قتله ينغّص عليّ هذا الفتح"[٣].

وتجرّأ الفرس عندئذٍ فخرج رجل منهم للمبارزة، فبرز له زَهْرَة بن الحويّة فقتله، وحمل فوارسُ من المجوس على زَهرة فعقروا به فرسه، فقاتلهم راجلاً، وندر سيفه من يده، فأخذوه، فجعل يحثو في وجوههم التّراب حتّى أدركته خيل المسلمين، فكشفوهم عنه[٤].

---

(١) الكلاعي: الاكتفاء بما تضمّنه من مغازي رسول الله ﷺ والثّلاثة الخلفاء، ج٢، ص٤٦٦، ٤٦٧.

(٢) الاكتفاء، ج٢، ص٤٨٠. ونصّ البخاريّ على أنّه قام خطيبًا في القادسيّة فلُقِي فقتل. التّاريخ الأوسط، تحقيق/ محمود إبراهيم زايد، دار التّراث، القاهرة، الطّبعة الأولى، ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م، ج١، ص٥١.

(٣) البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٨٣.

(٤) أورد الكلاعيّ هذا الخبر من رواية المدائني. الاكتفاء، ج٢، ص٤٨٠. وأمّا رواية سيف فتجعل هذه المبارزة للأعرف بن الأعلم العقيليّ، وتزيد بأنّ الأعرف قتل رجلين مبارزة قبل إحاطة الفرس به وأخذ سيفه، وأنّه رجع إلى أصحابه دون إعانة من المسلمين. الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٤١٥. وربما تكون هذه غير تلك.

وبرز رجلٌ فارسيٌ آخرُ أمام صفوف بكر بن وائل فنادى من يبارز؟ فخرج له عِلباء بن جحش العجليّ فنفحه علباء في صدره فشقّ رئته، ونفحه الآخر فأصابه في بطنه، وانتثرت أمعاؤه، وسقطا معًا إلى الأرض، فمات المجوسيّ من ساعته، وعجز علباء عن القيام، وحاول أن يعيد أمعاءه إلى مكانها فلم يتأتّ له، ومرّ به رجل من المسلمين فطلب منه أن يعينه على بطنه، فأدخل له أمعاءه، وقام فزحف نحو صفّ العجم دون أن يلتفت إلى المسلمين وراءه، فأدركه الموت وهو يتقدّم نحو صفوف الفرس(١).

ويعطي سيفُ التّميميّ شرف هذا اليوم للقعقاع التّميميّ، وهو ينفرد بذكر غالبيّة أخباره في الفتوح، فيجعل مقدّمة المدد الشّاميّ - ألف مجاهد - بقيادته، ويسرع به إلى القادسيّة حتّى يصل إليها في ليلة أغواث، ويجعل القعقاع يفكّر في عملٍ يرفع به من معنويّات المسلمين فيقسّم جيشه عشرةً عشرةً، ويأمرهم بأن يقدموا أتباعًا، بعدما يسبقهم بالعشرة الأوائل، ثمّ يقف يراقبهم، وكلّما أبصر طائفة منهم يكبّر فيكبّر المسلمون، ويدّعي سيفٌ أنّ القعقاع تقدّم أمام الصّفوف طالبًا المبارزة، فخرج إليه بهمن جاذويه الشّهير بذي الحاجب، فتذكّر نكبة المسلمين يوم الجسر فأخذته الحميّة فصاح يا لثارات أبي عبيد وسُليط وأصحاب الجسر، ثمّ لم يمهل ذا الحاجب حتّى قتله أمام جنده(٢).

ويطلب القعقاعُ المبارزة مرّة أخرى فيخرج إليه رجلان أحدهما: البيْرَزَان، والآخر: البِنْدَوان، فينضمّ إليه الحارثُ بن ظبيان بن الحارث التّيميّ الرّبعيّ، فيبارز القعقاع بيرزان فيقتله، ويبارز ابن ظبيان بندوان - وهو من أبطال الفرس - فيقتله أيضًا، ويقع الفرس في الحيرة والاضطراب(٣).

وعندما يلتحم الفريقان يتّصل القتال حتّى المساء، فيحمل القعقاع يومئذ ثلاثين حملة، ويقتل في كلّ مرّة رجلاً من الفرس(٤)، ويواصل بطولاته، فيشير على قومه أن يلبسوا

---

(١) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٤١٤، ٤١٥. وتثبت رواية أهل الحديث هذه القصّة دون ذكر المبارزة. ابن المبارك: الجهاد، ص١٠٨، ح١٣١؛ ابن أبي شيبة: المصنّف، ج٦، ص٥٥٤، ح٣٣٧٦٢.

(٢) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٤١٣.

(٣) تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٤١٣.

(٤) تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٤١٥.



الإبل ويجلّلوها ويضعوا البراقع في وجوهها لتظهر في مظهر يخيف الخيول، فلمّا هجموا بها على خيول الفرس، فعلوا بهم يوم أغواث كما فعلوا بالمسلمين يوم أرماث، وركبتهم خيول المسلمين، فلمّا رأى ذلك النّاس استنُّوا بهم، فلقي الفرس من الإبل يوم أغواث أعظم ممّا لقي المسلمون من الفيلة يوم أرماث[(١)].

ولا نستطيع أن نصدّق كلّ هذه البطولات الهائلة الّتي خفيت على رواة الإسلام إلّا عن سيف التّميميّ، خاصّة وأنّ الرّوايات الموثّقة تخالف ادّعاءاته، حيث يجزم الحافظ المؤرّخ الثّقة خليفة بن خيّاط الذُّهْليّ (ت: ٢٤١هـ/٨٥٥م) بمقتل ذي الحاجب على يد الصّحابيّ الجليل حنظلة بن الرّبيع الأسيّديّ الكاتب يومئذ[(٢)]، ويذكر أنّ "البيرزان" كان حيًّا بعد القادسيّة، وأنّه صالح المسلمين على الأهواز سنة ١٦هـ/٦٣٧م[(٣)].

ويرى الدّكتور عمر عبد السّلام تدمري أن "البيرزان" هو "الفيرزان" في بعض المصادر، حيث تقلب الفاء باءً بالفارسيّة، كما يقال أصفهان، وأصبهان[(٤)]، ولئن كان هو هو، فسنرى سيفًا يقتله مرّة أخرى في مرحلة لاحقة[(٥)]، وهذا غلطٌ أيضًا، فقد أسلم الفيرزان مع الهرمزان، ولم يقتله المسلمون[(٦)].

وكانت الخنساء بنت عمرو بن الشّريد السّلميّة قد حرّضت أولادها الأربعة ليلة الهدأة على القتال، فكانت لهم مواقف فدائيّة في يوم أغواث، فاندفعوا إلى القتال بحماس منقطع النّظير، واستشهدوا جميعًا، فلمّا بلغها خبرُهم قالت: "الحمد لله الّذي شرّفني بقتلهم، وأرجو من ربّي أن يجمعني بهم في مستقرّ رحمته"[(٧)].

---

(١) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٤١٤.

(٢) تاريخ خليفة، ص١٣٢.

(٣) تاريخ خليفة، ص١٣٤.

(٤) ينظر هامش تاريخ الإسلام للذّهبي، ج٣، ص١٤٤، ج٣، ص١٥٧.

(٥) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٥٢٨. وينظر محمّد عبد العال محمّد حسن: مختلقات سيف بن عمر التّميميّ في تاريخ قومه، مجلّة كلّيّة اللّغة العربيّة بأسيوط، العدد ٣٨، ج٢، ص١٨٥٥.

(٦) ابن أبي شيبة: المصنّف، ج٧، ص٦٣٠.

(٧) أورده الكلاعي عن الزّبير بن بكّار. الاكتفاء، ج٢، ص٤٧٥، ٤٧٦. ورجّح الكلاعي صحّة الخبر.

كما حرّضت غير واحدة من النّساء في ليلة الهدأة أولادها على القتال والانغماس في المجوس[1]، فكان لصنيعهنّ أثرٌ كبير في شحذ همم المسلمين ورفع معنويّاتهم.

وكان أبو مِحْجَن بن حبيب الثّقفيّ محبوسًا في القصر لشربه الخمر، فلمّا رأى اشتداد الحرب وهو مقيّدٌ محبوس آلمه مكانُه الّذي هو فيه، فصعد حين أمسى إلى سعد يستقيله ويستعفيه، فزبره، وردّه، فنزل فأتى زبراء - أمّ ولد سعد - وسألها أن تخلّيَ عنه وتُعيره فرس سعد البلقاء، وعاهدها أن يرجع إلى مكانه ويضع رجله في القَيْد إن سلم من القتل، فرفضت عرضه، فرجع يرسف في قيوده وهو يتحسّر، فاستخارت ربّها في أمره، ثمّ أطلقته بعدما استحلفته، ولم تعره الفَرَس، ورجعت إلى بيتها[2].

وجد أبو محجن نفسه حرًّا طليقًا فاقتاد الفرس، فأخرجها من القصر، ووثب عليها، وخرج فجعل لا يحمل على ناحية من العدوّ إلّا هزمهم؛ فتعجّب النّاس من صنيعه، حتّى ظنّه بعضهم من الملائكة، وجعل سعدٌ يقول: "الصَّبْرُ صَبْرُ الْبَلْقَاءِ[3]، وَالطَّعْنُ طَعْنُ أَبِي مِحْجَنٍ، وَأَبُو مِحْجَنٍ فِي الْقَيْدِ"! فلمّا انتصف اللّيل حاجز أهل فارس، وتراجع المسلمون، وأقبل أبو محجن حتّى دخل من حيث خرج، وأعاد رجليه في القيد، وأُخبر سعدٌ ﷺ بخبر أبي محجن، فدعا به فأطلقه، فأقسم أبو محجن بالله ألّا يعود لشرب الخمر مرّة أخرى[4].

واستمرّ القتال يوم أغواث إلى منتصف اللّيل، فسمّيت تلك اللّيلة "ليلة السّواد"، وكانت النّساء والصّبيان يقومون بحفر القبور لدفن الشّهداء[5].

---

(١) أورد الكلاعي خبر امرأتين، إحداهما من قبيلة بني أسد المُضريّة، والأخرى من النّخع اليمنيّة. الاكتفاء، ج٢، ص٤٧٥. والقصّتان من طريق المدائني، ورجّح الكلاعيّ صحتهما.

(٢) تجعل بعض الرّوايات سلمى بنت خصفة مكان زبراء، وكونها زبراء أصحّ وأثبت. البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٧٩. وهو موافق لرواية ابن إسحاق. الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٤٣٠.

(٣) نبّه ابن حجر على أنّ الضّبر بالضّاد شدّة عدْو الفرس، ومن رسمه بالصّاد فقد صحّف. الإصابة في تمييز الصّحابة، ج٧، ص٣٠٠.

(٤) عبد الرزّاق: المصنّف، ج٩، ص٢٤٣، ح١٧٠٧٧؛ سعيد بن منصور: السّنن، ج٢، ص٢٣٥- ٢٣٧، ح٢٥٠٢؛ ابن أبي شيبة: المصنّف، ج٦، ص٥٥٠، ٣٣٧٤٦؛ الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٤١٦، ٤٣٠. وأورد ابن حجر هذا الأثر من طريق عبد الرزّاق وصحّح إسناده. الإصابة، ج٧، ص٣٠٠.

(٥) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٤١٧.

📖 **يوم عَمَاس**:

بدأ يوم عَمَاس بالمبارزات كاليومين السّابقين، فخرج رجل فارسيٌّ ذو هيئة عليه السّلاح أمام قبائل ربيعة فدعا إلى المبارزة، وقال: "مُرْدٌ، وَمُرْدٌ"، وكان شِبْرُ بن علقمة العبديّ رجلاً قصيرًا، فعزم على أصحابه أن يبارزوا العلج، فأبَوا عليه، فتقدّم إليه، فصاح الفارسيّ وهدر بصوت مرتفع، وكبّر شبرٌ وكبّر، فهوى عليه الفارسيّ فاحتمله فضرب به الأرض، ولكنّ فرس المجوسيّ مالت به، فأخذ شبرٌ خِنجره، فوثب على صدره فذبحه، وأخذ مِنْطَقَةً له، وسيفًا، ورايتين، ودرعًا، وسوارين، فقُوّم السَّلَب باثني عشر ألفًا، ثمّ أتى به سعدًا ﷺ، فأعلم النّاس بمقداره، ونفّله إيّاه كلّه[1].

وقد نجح المسلمون يوم عَمَاس في التّخلّص من الفيلة[2]، وكعادة سيف فإنّه نسب مفخرة التّخلّص من الفيل الأبيض (مقدّم الأفيال) إلى القعقاع بن عمرو وأخيه عاصم التّميميّين[3]، بينما يذكر الواقديّ (ت: ٢٠٧هـ/٨٢٣م) أنّ عمرو بن معدِيكرب الزّبيديّ هو الّذي أشار على المسلمين بقطع خراطيم الفيلة، وتمكّن من قتل مقدّم الأفيال[4].

وكلام الواقديّ أولى بالقبول؛ لأنّ عمرًا مشهودٌ له بالبطولة والغَناء في أيّام القادسيّة من ثقات المؤرّخين وأهل الحديث، بخلاف القعقاع الّذي يُتّهم سيفٌ باختراع أخباره، وليس للواقديّ نسبٌ مع عمرو بن معديكرب ولا ولاء، بل يروي سيفٌ نفسه أنّ عمرو ابن معدِيكرب استقتل يوم عَمَاس في مهاجمة أحد الأفيال وكاد أن يهلك[5].

---

(١) عبد الرزاق: المصنّف، ج٥، ص٢٣٥، ح٩٤٧٣؛ سعيد بن منصور: السّنن، ج٢، ص٣٠٢، ح٢٦٩٢؛ ابن أبي شيبة: المصنّف، ج٦، ص٥٥٣، ح٣٣٧٥٣؛ البخاري: التّاريخ الكبير، ج٤، ص٢٦٧؛ الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٤١٩؛ ابن المنذر: الأوسط في السّنن والإجماع والاختلاف، ج٦، ص١٢٩، ١٣٠. ورواية الطّبريّ هي الّتي حددت يوم المبارزة. والأثر صحيح إلى شبر، ولكنّ العلماء يختلفون في شبر، فيجعل ابن حجر له إدراكًا. الإصابة، ج٣، ص٣٠٣. ويورده ابن حبّان في الثّقات من التّابعين. الثّقات، ج٤، ص٣٧١. ولم يذكر فيه ابن أبي حاتم جرحًا ولا تعديلاً. الجرح والتّعديل، ج٤، ص٣٨٩.

(٢) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٤١٩.

(٣) تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٤٢٠.

(٤) ابن سعد: الطّبقات الكبير، ج٦، ص٢٧٠؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٧٩.

(٥) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٤١٩.

وقد شارك الرِّبّيل الأسديّ المكنى بأبي الموت[١] في طعن أحد الأفيال يومئذ، غير أنّ سائس الفيل ضرب الرِّبّيل على وجهه، فتركت فيه علامة مستديمة[٢].

📖 **ليلة القادسيّة (الهرير):**

تحدّث سعد ﷺ عن تلك اللّيلة فقال: "إنّ الحرب ركدتْ ليلة، فلم أسمع إلّا هماهم الرّجال، وهريرهم، ووقْعَ الحديد، فلمّا كان قبيل الفجر سمعت الانتماء من كلٍّ: أنا ابن معدِيكرب، أنا الجذاميّ، أنا المالكيّ من أسد، أنا الأشعريّ، ثمّ صار الانتماء قصره في جذيمة، فلمّا انجلت الحرب رأيت جماعة قتلى في رِبْضة[٣]، فقلت: من هؤلاء؟ قالوا: من جذيمة النّخع، أصيبوا من آخر اللّيل وهم ينتمون، فنفّلهم عمرُ خمسة وعشرين فرسًا، يعني بني جذيمة"[٤].

وهذا الخبر الّذي يسوقه المدائنيّ يكذّب ادّعاء سيف بأوّليّة القعقاع في إنشاب الحرب والانتماء تلك اللّيلة[٥]، وكلام المدائنيّ يدلّ على أنّ شرف ذلك اليوم لقبائل اليمن، ولا يتّهم المدائنيّ بالتّحيّز لها، لأنّه من موالي قريش، وهو عالم بالمغازي، وأيّام النّاس، وأخبار العرب وأنسابهم، صدوق فيما يرويه[٦].

بل يروي سيفٌ نفسه أنّ دريد بن كعب النّخعيّ اليمنيّ - حامل لواء النّخع - صاح في قومه: "إنّ المسلمين تهيّئوا للمزاحفة فاسبقوا المسلمين اللّيلة إلى الله والجهاد، فإنّه لا يسبق اللّيلة أحدٌ إلّا كان ثوابه على قدر سبقه، نافسوهم في الشّهادة، وطيبوا بالموت نفسًا، فإنّه أنجى من الموت إن كنتم تريدون الحياة، وإلّا فالآخرة ما أردتم"[٧].

---

(١) ابن أعثم: الفتوح، مج١، ص١٦١.

(٢) الكلاعي: الاكتفاء بما تضمّنه من مغازي رسول الله ﷺ والثّلاثة الخلفاء، ج٢، ص٥٠٠. والخبر من رواية عليّ بن محمّد المدائني.

(٣) رُبَضَة: بالكسر أو بوزن همزة: الجماعة الّذين يقتلون في بقعة واحدة. ابن منظور: لسان العرب، ج٧، ص١٤٩.

(٤) الكلاعي: الاكتفاء، ج٢، ص٥٠٠، ٥٠١. من رواية المدائني.

(٥) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٤٢٣.

(٦) الخطيب: تاريخ بغداد، ج١٣، ص٥١٦.

(٧) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٤٢٢.

وهذا يدلّ على سبقهم للنّاس يومئذ، لكنّ سيفًا لا يرضى لهم بهذا الفخر، فيذكر حملتهم بعد القعقاع وعاصم وسائر تميم وبني أسد[١].

🕮 يوم القادسيّة (اليوم الرّابع):

يسمّى هذا اليوم خاصّة بالقادسيّة[٢]، وقد واصل المسلمون فيه القتال، وحملوا على الفرس من كلّ وجه، واندفع عمرو بن معدِيكرب وطليحة بن خويلد في مجموعة من الأبطال نحو رستم[٣]، واشتدّ القتال، حتّى انفرج قلب الفرس حين قام قائم الظّهيرة، واشتدّ عليهم الحرّ، وسقفتهم الشّمس، فانتقضت تعبيتهم، وتنزّل نصر الله ﷻ على المؤمنين، فهبّت ريحٌ عاصف، فاقتلعت طيّارة رستم عن سريره، وألقتها في نهر العتيق، ومال الغبار على الفرس فعاقهم عن الدّفاع[٤].

ووصل أبطال المسلمين إلى عدوّ الله رستم، فقُتل على يد هلال بن عُلَّفَةَ التّيمِيّ الرّبعيّ على المشهور من أقوال المؤرّخين[٥].

وتعالت تكبيرات المسلمين بمقتل رستم، وتقهقر الفرس أمامهم منهزمين[٦]، ونادى الجالينوس على المجوس بعبور النّهر، والفرار من القتل والأسر، فهاموا إليه مدبرين[٧]، وتراكمت جثث قتلى الفرس في خندق القادسيّة حتّى امتلأ بها، ومشى عليها مقاتلة المسلمين وهم يعبرون الخندق مكبّرين[٨].

---

(١) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٤٢٢، ٤٢٣.

(٢) الكلاعي: الاكتفاء بما تضمّنه من مغازي رسول الله والثّلاثة الخلفاء، ج٢، ص٤٨٨.

(٣) البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٧٩.

(٤) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٤٢٤؛ الكلاعي: الاكتفاء، ج٢، ص٤٨٩.

(٥) تتّفق رواية سيف مع رواية ابن إسحاق في مقتل رستم على يد هلال بن علّفة. الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٤٢٤، ٤٢٥، ٤٣١. ويقدّم المدائني وخليفة بن خياط القول بمقتله على يد زَهرة بن الحَويّة. تاريخ خليفة، ص١٣٢. ويقال قتله غيرهما. البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٨٠. ويجزم البلاذري بأنّ قاتل القائد الفارسيّ رستم غير معلوم.

(٦) الدّينوري: الأخبار الطّوال، ص١٢٢.

(٧) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٤٢٤.

(٨) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٣٢.

وقد شهد عبد الله بن أمّ مكتوم القرشيّ العامريّ ﷺ معركة القادسيّة مع المسلمين، وكان يؤذّن لهم، فلمّا كان اليوم الرّابع قال: "ادْفَعُوا إِلَيَّ اللِّوَاءَ، فَإِنِّي أَعْمَى لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَفِرَّ، وَأَقِيمُونِي بَيْنَ الصَّفَّيْنِ"[1]، فرآه أنس بن مالك ﷺ يوم القادسيّة عليه درع حديد سابغ، ومعه لواءٌ أسودُ[2].

وكان رستم قد استخفّ بالمسلمين عندما عاين قلّة عددهم وضعفهم وقلّة آلتهم وسلاحهم، ثمّ نزعوا برادع جمالهم يستخفون بها، وقدّموا ابن أمّ مكتوم الأعمى برايتهم؛ ثقة منهم في تحقّق وعد الله لهم، "فصاروا عنده كالضُّحَكة، والطّمع فيهم أشدّ، واحتقاره لهم أكثر، فلمّا رأى صبرهم تحيّر"[3].

وقد أصيب عبد الله بن أمّ مكتوم ﷺ في ذلك اليوم[4]، ونتج عن إصابته "أنّ أقوامًا اختلفوا في الأذان فأقرع بينهم سعدٌ"[5]، وحدّث التّابعيّ أبو وائل شقيق بن سلمة الأسديّ - وهو شاهد عيان - أنّهم افتتحوا القادسيّة صدر النّهار فرجعوا وقد أصيب المؤذّن يومئذ، فاختلفوا في الأذان، فأقرع بينهم أميرهم سعد بن أبي وقّاص ﷺ، فخرجت القرعة لرجل منهم[6].

---

(١) ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٤، ص٢١٠.

(٢) ابن أبي شيبة: المصنّف في الأحاديث والآثار، ج٦، ص٥٥٥، ح٣٣٧٧١؛ الحارث بن أبي أسامة: مسند الحارث، (بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث)، انتقاء/ نور الدّين الهيثميّ، تحقيق/ حسين أحمد صالح الباكري، مركز خدمة السُّنّة والسّيرة، المدينة المنوّرة، الطّبعة الأولى، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م، ج٢، ص٦٨٢، ح٦٦١. ورجال إسناد الأثر ثقات. البوصيري: إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة، ج٥، ص١٠٤، ح٤٣١٠.

(٣) القاضي عبد الجبّار: تثبيت دلائل النّبوّة، ج٢، ص٣٢٦.

(٤) ذكر الزّبير بن بكّار أنّه استشهد في القادسيّة، وعند الواقديّ والبغويّ أنّه رجع إلى المدينة فمات بها. ابن حجر الإصابة في تمييز الصّحابة، ج٤، ص٤٩٥.

(٥) ذكره البخاريّ معلّقًا. الصّحيح، (كتاب الأذان، باب الاستهام في الأذان)، ج١، ص٢٢٣، ح٢٧٨٢. ووصله سعيد بن منصور والبيهقيّ إلى عبد الله بن شبرمة، وهو منقطع. ابن حجر: فتح الباري، ج٢، ص٩٦؛ العيني: عمدة القاري، ج٥، ص١٢٤.

(٦) نقله ابن حجر موصولاً من رواية سيف بن عمر وابن جرير الطّبري. فتح الباري، ج٢، ص٩٦.

📖 **مطاردة فلول الفرس**:

أمر سعد بن أبي وقّاص ﷺ زَهرةَ بن الحويّة التّميميّ بمطاردة فلول الفرس المنهزمين الّذين عبروا النّهر[1]، فأسرع زَهرةُ بثلاثمائة فارس في تعقّبهم على الخيول، وأدرك الجالينوس – قائد مقدّمة الفرس - وهو يسير في ساقة القوم يحميهم، فنازله زَهرةُ فقتله، وأخذ سَلَبه[2]، وتابع زَهرة ﷺ مطاردة الفرس حتّى المساء، ثمّ رجع إلى القادسيّة[3].

📖 **فتح المدائن الغربيّة (بهرسير)**:

فتحت القادسيّة الطّريق أمام المسلمين لدخول المدائن[4]، وإسقاط الإمبراطوريّة الفارسيّة[5]، ولكنّ سعدًا ﷺ أقام بالقادسيّة شهرين حتّى جاءه أمر الخليفة عمر ﷺ بالتّوجّه إليها[6]، فأرسل بعض الحملات الصّغيرة لتمهيد الطّريق، فانهزمت مسالح الفرس المتبقّية ولحقت بالمدائن[7].

وكان لقائد المقدّمة زهرة بن الحويّة ﷺ الدّور الأكبر في تطهير بلاد العراق من بقايا مسالح الفرس، ثمّ وجّهه سعد بن أبي وقّاص ﷺ على رأس المقدّمة إلى بَهُرَسِيرَ أو المدائن الغربيّة - غربي نهر دجلة - الّتي يقبع فيها يَزْدَجرد، فضرب زَهرةُ عليها الحصار، ثمّ أتاه سعدٌ ﷺ بالجيش[8]، فصابرهم الفرس طويلاً، حتّى أكل المسلمون الرّطب مرّتين[9]،

---

(١) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٣٢.

(٢) تتّفق رواية ابن إسحاق مع رواية سيف التّميميّ وابن الكلبيّ في قتل زَهرة بن الحويّة التّميميّ للجالينوس. البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٨٠؛ الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٤٢٦، ٤٣١.

(٣) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٣٢.

(٤) المدائن: عاصمة دولة الفرس، وتقع على جانبي نهر دجلة، وتتكوّن من سبع مدائن، هي: طيسفون، بهرسير، قصر كسرى (الإيوان)، الروميّة، ساباط، أسبانبر، السّلوقيّة. ياقوت: معجم البلدان، ج٥، ص٧٤، ٧٥.

(٥) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٤٦٠.

(٦) تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٤٥٤.

(٧) أبو يوسف: الخراج، ص٤١؛ ابن أبي شيبة: المصنّف، ج٦، ص٥٥٢.

(٨) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٤٥٨، ٤٥٩.

(٩) البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٥٨؛ الدّينوري: الأخبار الطّوال، ص١٢٦.

وضحّوا أضحيتين[(١)]، فلمّا يئسوا أخْلَوا المدينة وعبروا دجلة، ولم يدعوا جسرًا عليها إلّا دمّروه، ولا مركبًا إلّا ضمّوه[(٢)]، وولّى كسرى يزدجردُ خُرّزادَ بن هُرمز - أخا رستم المقتول بالقادسيّة - قيادة الحرب بالمدائن، ثمّ هرب إلى حلوان[(٣)].

وقد زعم الإخباريّ سيف بن عمر التّميميّ أنّ قائد المقدّمات زَهرة بن الحويّة التّميميّ استشهد في محاصرة المدائن الغربيّة، وذكر أنّه كان عليه درعٌ مفصومة، فنصحه أصحابه بسرد الفصم، حتّى لا تبقى فيها فتحة تصل منها السّهام، وصارحوه بخوفهم عليه منه، فقال: "إنّي لكريم على الله إن ترك سهم فارسَ الجند كلّه، ثمّ أتاني من هذا الفصم حتّى يثبت فيّ". وأضاف سيفٌ أنّ زَهرة كان أوّل رجل من المسلمين أصيب يومئذ بسهم، فثبت فيه من ذلك الفصم، ورفض نزع السّهم، وتقدّم نحو صفوف الفرس فقتل أحد أبطالهم، وأحاطوا به فقتلوه[(٤)].

وهذا افتراء وكذب صريح من سيف التّميميّ على ابن عمّه؛ لأنّ أهل العلم بالأخبار متّفقون على أنّ زَهرة بن الحويّة التّميميّ ﷺ لم يلق الشّهادة في هذا الموطن، وإنّما عاش حتّى كبر، وبقي ستّين عامًا بعد هذا اليوم، ثمّ قتل على يد الخوارج أيّام الحجّاج بن يوسف الثّقفيّ سنة ٧٧هـ/٦٩٦م[(٥)].

---

(١) الدّينوري: الأخبار الطّوال، ص١٢٦.

(٢) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٣٣.

(٣) الدّينوري: الأخبار الطّوال، ص١٢٦؛ الكلاعي: الاكتفاء بما تضمّنه من مغازي رسول الله والثّلاثة الخلفاء، ج٢، ص٥٢٠. من رواية المدائني.

(٤) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٤٥٨، ٤٥٩.

(٥) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص٢٧٥؛ البلاذري: أنساب الأشراف، ج٣، ص٣١؛ الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص٥٨٢، ٥٨٣؛ الدّارقطني: المؤتلف والمختلف، تحقيق/ موفّق عبد الله عبد القادر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، ج١، ص٤٦٢؛ ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، ص٢٢١؛ ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصّحابة، ج٢، ص٣٢١؛ ابن ناصر الدين: توضيح المشتبه في ضبط أسماء الرّواة وأنسابهم وألقابهم وكناهم، تحقيق/ محمّد نعيم العرقسوسي، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٩٩٣م، ج٢، ص٥٠٩؛ ابن حجر: الإصابة في تمييز الصّحابة، ج٢، ص٤٧٢.



وقد وقع بعض الكتّاب المعاصرين[1] في الغلط، وراحوا يستخلصون الدّروس والعبر والفوائد من هذا الخبر المختلق في استشهاد القائد زَهرة بن الحويّة التّميميّ على أسوار العاصمة الفارسيّة[2].

عبور دجلة وفتح المدائن الشّرقية:

سرّح سعدٌ ﷺ جنده خلف الفرس بقيادة حليفه خالد بن عُرْفُطَةَ ﷺ، ووجّه معه عياض بن غَنْمٍ الفهريّ ﷺ في أصحابه، وجعل ابن أخيه هاشم بن عتبة بن أبي وقّاص الزّهريّ ﷺ على المقدّمة، وجريرَ بن عبد الله البَجليّ ﷺ على الميمنة، وزَهرة بن الحويّة التّميميّ ﷺ على الميسرة، ثمّ اتّبعهم سعدٌ بمن معهُ، فلمّا وضعوا العسكر والأثقال على نهر دجلة طلبوا المخاضة، فلم يهتدوا لها، حتّى أتى سعدًا ﷺ علجٌ من أهل المدائن، فخرج بهم على مخاضةِ قُطْرَبُّلَ[3]، فكان أوّل من خاض المخاضة هاشم بن عتبة بن أبي وقّاص في رَجِلِه، فلمّا جاز اتّبعته خيلُه، ثمّ أجاز خالدُ بن عُرْفُطَةَ بخيله، ثمّ أجاز عياضُ بنُ غَنْمٍ بخيله، ثمّ تتابع النّاسُ فخاضوا حتّى أجازوا، ثمّ ساروا حتّى انتهوا إلى مُظْلِمِ ساباط[4]، فتردّد النّاس خشية أن يكون به كمين للفرس، وجَبُنوا عنه، فكان هاشمُ بنُ عتبة أوّل من دخلهُ بجيشه، فلمّا أجاز ألاحَ للنّاس بسيفه، فعرف النّاسُ أن ليس به شيءٌ يخافونه، فأجاز بهم خالدُ بنُ عرفطة[5].

وكان كسرى يزدجرد قد أرصد كتيبته الّتي تدعى "بوران" حول مُظْلِم ساباط لمنع المسلمين وصدّهم عن التّقدّم إلى المدائن الشّرقيّة، فتمكّن زَهرةُ بن الحويّة من فلّهم، فلمّا انتهى هاشم إلى مظلم ساباط وافق ذلك رجوع أسد كسرى الّذي يدعى "المُقَرّط"، وكان

---

(١) عبد العزيز عبد الله الحميدي: التّاريخ الإسلامي، دروس وعبر، جا١، ص١٦١، ١٦٢؛ علي محمّد محمّد الصّلّابي: عمر بن الخطّاب، دار الفجر، القاهرة، الطّبعة الأولى، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ص٥٢٢.

(٢) محمّد عبد العال محمّد حسن: مختلقات سيف بن عمر التّميميّ في تاريخ قومه، مجلّة كلّيّة اللّغة العربيّة بأسيوط، العدد ٣٨، ج٢، ص١٨٦٠، ١٨٦١.

(٣) قُطْرَبُّلُ: قرية من كور بغداد، تقع بين بغداد وعكبرا. ياقوت: معجم البلدان، ج٤، ص٣٧١.

(٤) مُظْلِم ساباط: موضع قرب المدائن. ياقوت: معجم البلدان، ج٥، ص١٥٢.

(٥) من رواية إمام المغازي محمّد بن إسحاق. الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٤٣١، ٤٣٢.

يزدجرد قد ألّفه وتخيّره من أُسود المُظلِم، فبادر المقرّط النّاس حتّى انتهى إليهم سعد وابن أخيه، فنظر هاشم المرقال إلى النّاس وقد أحجموا عن التّقدّم ووقفوا لأجل الأسد فنزل إليه فقتله، فقبّل سعدٌ رأسه، وقبّل هاشم قدميه(١).

ويخالف سيفٌ أهل العلم بالأخبار في عبور دجلة، فيجعل عاصمًا والقعقاع أوّل المقتحمين للنّهر، وأسرعَ النّاس عبورًا إلى الضِّفّة الأخرى، كما يزيد في ماء دجلة حتّى يجعله فيضانًا عظيمًا(٢).

وبذلك يطمس سيفٌ الكذوب الحقيقة التّاريخيّة للمسلمين عامّة، ولتميم خاصّة؛ لأنّه أضاع دورهم الحقيقيّ خلف قائدهم زَهرة بن الحويّة الّذي كان على رأس الميسرة في جيش العبور، لكنّ سيفًا أماته قبل أجله بستين عامًا(٣).

وكان خرّزاد بن هرمز قد علم بعبور المسلمين فأمر الفُرسان بسرعة التّوجّه إلى شاطئ دجلة، وعلى الفور أصدر أوامره برمي المسلمين بالنّشّاب، وأنزل جماعة من جنده في الماء لمقاتلة المسلمين ومنعِهم من الوصول إلى البرّ، ولكنّ محاولات خرّزاد باءت بالفشل، وكاثر المسلمون رجاله الّذين نزلوا الماء حتّى أخرجوهم، وقاتلوا جموع الفرس على الشّاطئ حتّى انهزموا ودخلوا المدائن(٤).

وقد هرب أهل المسالح عندما عبر المسلمون دجلة، وخرج أهل مدينة "الرّوميّة" بمقاتِلتهم وفيلتهم لمواجهة المسلمين، فقاتلهم المسلمون وهزموهم فتحصّنوا بمدينتهم، ودخل سعد المدائن العتيقة "الإيوان" الّتي تضمّ قصر كسرى الأبيض، فخرج أهلها إلى سعد فتلقّوه يسألونه الأمان على أن يعطوا الجزية، فقبل ذلك منهم، ونزل القصر الأبيض، وهو يقرأ: ﴿كَمْ تَرَكُواْ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٢٥ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٢٦ وَنَعْمَةٍ كَانُواْ فِيهَا

---

(١) الكلاعي: الاكتفاء بما تضمّنه من مغازي رسول الله والثّلاثة الخلفاء، ج٢، ص٥٠٩. من رواية أبي الحسن المدائني وغيره.

(٢) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٤٦٠، ٤٦١.

(٣) محمّد عبد العال محمّد حسن: مختلقات سيف بن عمر التّميميّ في تاريخ قومه، مجلّة كلّيّة اللّغة العربيّة بأسيوط، العدد ٣٨، ج٢، ص١٨٦٤.

(٤) الدّينوري: الأخبار الطّوال، ص١٢٦، ١٢٧.

فَكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾﴾[١]، وكتب سعدٌ إلى عمر ﷺ بالفتح، وبهرب يزدجرد بن كسرى[٢]، واستعمل على المدائن شرحبيل بن السّمط الكنديّ[٣].

وكان الصّحابة ﷺ موقنين بهذا الفتح العظيم مذ بشّرهم به النّبيّ ﷺ فقال: "لَتَفْتَحَنَّ عِصَابَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، أَوْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، كَنْزَ آلِ كِسْرَى الَّذِي فِي الأَبْيَضِ"[٤].

وتوجّه سعد ﷺ بعد فتح الإيوان إلى مدينة "الرّوميّة" فحاصرها تسعة أشهر حتّى فقد الفرس الطّعام، واضطرّوا لأكل الكلاب والسّنانير (القطط)[٥]، وأتى سعدًا رجلٌ فارسيٌّ يطلب الأمان، فلمّا أمّنه دلّه على قناة الماء الّتي تمدّ المدينة من نهر دجلة، فغوّرها المسلمون، فارتحل أهل الرّوميّة حين انقطع الماء عنهم من ليلتهم، وحملوا ما خفّ من أموالهم، فأخذوا طريق خراسان[٦]، وأدرك القائد خرّزاد أنّه لا جدوى من البقاء في المدائن "الرّوميّة"، فخرج بجنوده في جنح الظّلام، وتوجّه إلى جلولاء[٧]، وعسكر بها[٨].

ولمّا أُتي عمر ﷺ بأخماس فارس أمر بوضعها في المسجد وحراستها، وأقسم ألّا يَجِنّها سقفٌ حتّى يقسّمها بين النّاس، فلمّا أصبح النّاس ونظر عمر إلى الغنائم بكى؛ فأنكر عليه عبد الرّحمن بن عوف ﷺ بكاءه في موطن الشّكر، فأجابه عمر بأنّ الله ﷻ لم يعطِ قومًا هذا إلّا ألقى بينهم العداوة والبغضاء[٩].

---

(١) سورة الدّخان: الآيات ٢٥- ٢٨.

(٢) الكلاعي: الاكتفاء، ج٢، ص٥٢٠، ٥٢١. من رواية المدائني.

(٣) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٤٣٢.

(٤) أحمد بن حنبل: المسند، ج٣٤، ص٤١٥، ح٢٠٨٢١؛ مسلم: الصّحيح، (كتاب الفتن وأشراط السّاعة، باب لا تقوم السّاعة حتّى يمرّ الرّجل بقبر الرّجل فيتمنّى أن يكون مكانه)، ج٤، ص٢٢٣٧، ح٢٩١٩.

(٥) أبو يوسف: الخراج، ص٤١؛ ابن أبي شيبة: المصنّف، ج٦، ص٥٥٢. وإسناده صحيح. وتحديد المدينة بالرّوميّة من رواية المدائني. الكلاعي: الاكتفاء، ج٢، ص٥٢١.

(٦) الكلاعي: الاكتفاء، ج٢، ص٥٢٠، ٥٢١. من رواية المدائني.

(٧) جلولاء: بلدة عراقية في طريق خراسان. ياقوت: معجم البلدان، ج٢، ص١٥٦.

(٨) الدّينوري: الأخبار الطّوال، ص١٢٧.

(٩) أبو يوسف: الخراج، ص٥٨؛ معمر بن راشد: الجامع، ج١١، ص٩٩، ١٠٠؛ ابن أبي شيبة: المصنّف، ج٧، ص٩٣. والأثر صحيح الإسناد.

📖 **موقعة جلولاء**:

لم يكد خرّزاد يدخل جلولاء حتّى طلب المدد من يزدجرد الّذي يقيم بحلوان فأمدّه بجمع عظيم من المقاتلة[1]، فخندق الفرس على أنفسهم، وتعاهدوا على ألّا يفرّوا، وجعلت الأمداد تتوالى عليهم، فكتب سعدٌ إلى عمر ﷺ بالخبر، فأمره أن يوجّه إليهم جيشًا، فسيّر إليهم اثني عشر ألف مقاتل[2]، بقيادة ابن أخيه هاشم بن عتبة ﷺ[3]، ونزل المسلمون على عدوّهم، فوجدوهم قد أعدّوا عدّة عظيمة، وتحرّزوا بالخنادق، فقاتلوهم قتالاً شديدًا، وكتب هاشم إلى عمّه يطلب المدد[4].

وبينما المسلمون ينتظرون المدد أتى الفرسَ جمعٌ عظيم، فعاجلوهم القتال، فجال المسلمون، وانكشفوا، فناداهم هاشم: "يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ، أَيْن أَيْن، أَمَا رَأَيْتُمْ مَا خَلّفْتُمْ، وتأتون عُمَر مُنْهَزِمِينَ، فَعَطَفَ الْمُسْلِمُونَ"[5]، وعلى ميمنتهم حُجْرُ بن عديّ الكنديّ ﷺ، وعلى ميسرتهم عمرو بن معدِيكرب الزُّبيديّ، وعلى الخيل زَهرةُ بن الحَوِيّة التّميميّ، وعلى الرّجّالة طليحة بن خويلد الأسديّ[6].

واقتتل الفريقان قتالاً شديدًا، وكتائب الفرس تطلع عليهم واحدة تلو الأخرى، فأشار طليحة بن خويلد وعمرو بن معدِيكرب على فرسان المسلمين أن يلزموا الأرض ويقرنوا خيولهم، ففعلوا، وجثوا، وأشرعوا الرّماح، فرجعت الخيل عنهم، ورموهم بالنّشّاب، فتترّسوا، فمكثوا بذلك مليًّا، وأشفق المسلمون، فحضّهم طليحة، وزَهرة، وعمرو، فبينا هم على ذلك إذ سمعوا تكبيرًا للمسلمين وراءهم، فإذا قيس بن هبيرة المكشوح قد جاءهم في ألف وأربعمائة فارس وستمائة راجل، فانهزم الفرس قبل أن يصل إليهم قيسٌ، وبعث الله

---

(١) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٣٦؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٨٥؛ الدّينوري: الأخبار الطّوال، ص١٢٧.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٨٥. وعند المدائني أربعة آلاف. الكلاعي: الاكتفاء، ج٢، ص٥٢٧.

(٣) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٣٦، ١٣٧؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٨٥.

(٤) الدّينوري: الأخبار الطّوال، ص١٢٧، ١٢٨.

(٥) خليفة: تاريخ خليفة، ص١٣٧. وهذا القول لسعد عند المدائني. الكلاعي: الاكتفاء، ج٢، ص٥٢٨.

(٦) الدّينوري: الأخبار الطّوال، ص١٢٨؛ الكلاعي: الاكتفاء، ج٢، ص٥٢٨. رواية المدائني.



ريحًا مظلمة أعمت الفرس عن خندقهم فتهافت فيه فرسانهم، وركب المسلمون أكتافهم[١]، فهلكوا في حسك الحديد[٢]، وسمّيت الوقعة بجلولاء "لما تجلّلها من الشّر"[٣].

📖 فتح حُلْوان:

لمّا فرغ المسلمون من جلولاء الوقيعة ضمّ هاشم بن عتبة ﷺ خيلاً كثيفة إلى جرير بن عبد الله البجليّ ﷺ ورتّبه بجلولاء؛ ليكون بين المسلمين وبين عدوّهم، ثمّ بعث سعدٌ ﷺ بزهاء ثلاثة آلاف مقاتل إلى جرير، وأمره بالمسير إلى حلوان لتعقّب يزدجرد، فلمّا اقترب منها هرب الملك الفارسيّ إلى أصبهان، ففتح جريرٌ حلوان صلحًا، وكفّ عن أهلها، وأمّنهم على دمائهم، وسمح بالخروج لمن أحبّ منهم على أن لا يتعرّض له[٤].

وقد استأذن المسلمون الخليفة عمر ﷺ في اتّباع الفرس بعد حلوان فرفض قائلاً: "لَوَدِدْتُ أَنَّ بَيْنَ السَّوَادِ وَبَيْنَ الْجَبَلِ سَدًّا لَا يَخْلُصُونَ إِلَيْنَا وَلَا نَخْلُصُ إِلَيْهِمْ، حَسْبُنَا مِنَ الرِّيفِ السَّوَادُ، إِنِّي آثَرْتُ سَلَامَةَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى الْأَنْفَالِ"[٥]، قد جاءني ما بين العُذَيْب وحُلْوان، وفي ذلكم ما يكفيكم إن اتّقيتم وأصلحتم، وكتب لأمرائه: "اجْعَلُوا بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الْعَدُوِّ مَفَازَةً"[٦]، وذلك لأنّ المسلمين لم يكونوا قد أمنوا العراق بعدُ، فقد كان شمالُه لا يزال على الحرب، كما أنّ الوضع في الجنوب لا يزال مضطربًا[٧].

ويزعم سيفُ التّميميّ أنّ قائد الفرس في جلولاء هو "مهران"، ويجعل للقعقاع دورًا عظيمًا في فتح المدينة، ويتخيّل سيفُ أنّ مهران هرب إلى حلوان، وأنّ ابن عمّه القعقاع انطلق وراءه حتّى قتله[٨].

---

(١) الدّينوري: الأخبار الطّوال، ص١٢٨؛ الكلاعي: الاكتفاء بما تضمّنه من مغازي رسول الله والثّلاثة الخلفاء، ج٢، ص٥٢٨. من رواية المدائني.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٨٥؛ الكلاعي: الاكتفاء، ج٢، ص٥٢٨. من رواية المدائني.

(٣) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٣٧؛ الذّهبي: تاريخ الإسلام، ج٣، ص١٦١.

(٤) البلاذري: فتوح البلدان، ص٣٢١.

(٥) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٤٧٠.

(٦) ابن أبي شيبة: المصنّف، ج٦، ص٥٥٤.

(٧) محمّد حسين هيكل: الفاروق عمر، ج١، ص٢٠٩، ٢١٠.

(٨) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٤٦٨- ٤٧٠.

وكلّ هذه الإيرادات من أساطير سيف الّتي لا يتابع عليها، ولا يؤخذ بأقواله عند مخالفته لأهل العلم(١).

📖 تطهير العراق من بقايا الوجود الفارسيّ:

كان فتح حلوان خاتمة فتوح العراق، لكن الوضع العسكريّ تطلّب القيام بعمليّات تطهير شاملة لبقايا الوجود الفارسيّ، وإخضاع القرى، وبخاصّة في السّواد الشّرقيّ لدجلة، فتمّت هذه العمليّات بنجاح، ولم يبق من سواد دجلة ناحيةٌ إلّا غلب عليها المسلمون، وهكذا سيطر المسلمون على جنوبي العراق، ووسطه وتطلّعوا لاستئناف التّوسّع باتّجاه الشّرق والشّمال، وأقبل أمراء الثّغور عليهم لطلب الأمان مقابل دفع الجزية(٢)، وأقبل أشراف الفرس وعامّتهم على اعتناق الإسلام(٣).

📖 فتح تكريت ونينوى والموصل:

كانت جموع من الرّوم قد اتّحدت مع قبائل العرب، كإياد، وتَغْلِب، والنّمر، بتَكريت، فوجّه إليهم سعد بن أبي وقّاص ﷺ جيشًا بقيادة عبد الله بن المُعْتمّ العبسيّ ﷺ عن أمر عمر ﷺ، وضربوا الحصار على المدينة أربعين يومًا، ثمّ أحاط المسلمون بجموع الرّوم وحلفائهم، وهزموهم هزيمة قاسية بعدما استجابت طائفة من النّصارى العرب للدّخول في الإسلام(٤)، وهاجموا المشركين من خلفهم(٥). وأسرع المسلمون إلى محاصرة نِيْنَوَى والمَوْصِل بعد تَكريت فاضطرّتا إلى الاستسلام، ودخلهما المسلمون صلحًا، وذلك في أواخر عام ١٦هـ/ أواخر ٦٣٧م(٦).

---

(١) محمّد عبد العال محمّد حسن: مختلقات سيف بن عمر التّميميّ في تاريخ قومه، مجلّة كلّيّة اللّغة العربيّة بأسيوط، العدد ٣٨، ج٢، ص١٨٧٢- ١٨٧٦.

(٢) محمّد سهيل طقوش: تاريخ الخلفاء الرّاشدين، ص٢٠٩، ٢١٠.

(٣) أبو عبيد القاسم بن سلّام: الأموال، ص١١١؛ ابن زنجويه: الأموال، ج٢، ص٥٠٢.

(٤) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٤٧٤؛ محمّد سهيل طقوش: تاريخ الخلفاء الرّاشدين، ص٢١١.

(٥) تشير رواية ابن أبي شيبة إلى أنّ المسلمين صالحوا سكّان البلاد النّصارى على أن يبرزوا لهم سوقًا، ففعلوا، ووفّوا لهم. مصنّف ابن أبي شيبة، ج٦، ص٥٦٢.

(٦) محمّد سهيل طقوش: تاريخ الخلفاء الرّاشدين، ص٢١٢. ويؤرّخ البلاذري فتح نينوى والموصل بسنة ٢٠هـ. فتوح البلدان، ص٣٥١. وينص أبو زكريّا الموصليّ في تاريخ الموصل على فتح الموصل على يد عبد الله بن المعتمّ العبسي. ابن حجر: الإصابة، ج٤، ص٢٠٥.

🕮 فتح الأُبلّة والبصرة:

أرسل الفاروق عمر ﷺ عتبة بن غزوان المازنيّ ﷺ إلى البصرة سنة ١٤هـ/٦٣٥م لإعادة فتح الأبلّة[١]، وكانت بها حامية فارسيّة مهمّتها منع غارات المسلمين على مرفأ الأبلّة - ميناء كانت ترسو فيه سفن فارس والهند - فأتاها في نحو خمسمائة رجل، وعسكر في أقصى البرّ من أرض العرب، وأدنى أرض الرّيف من أرض العجم على مقربة من البصرة اليوم، وأقام عتبة بن غزوان ﷺ نحوًا من شهر، ثمّ خرج إليه أهل الأبُلّة فوقع القتال بين الفريقين، ولم يمض مقدار "جزر جزور" إلّا وانتصر المسلمون، وولّى الفرس منهزمين إلى داخل المدينة، واحتموا وراء أسوارها، لكنّهم أدركوا عدم جدوى الاستمرار في المقاومة، فانسحبوا من المدينة دون قتال، ودخل عتبة ﷺ الأبُلّة، وكتب إلى عمر ﷺ يخبره بالفتح[٢].

وقد وجد المسلمون سفينة في ميناء الأُبُلّة فيها جَوْزٌ فقالوا: ما رأينا حجارةً أشدّ استواءً من هذه، فأخذ عتبة بن غزوان ﷺ جَوْزَةً فكسرها فأكلها، فقال: هذا دسَمٌ، فجعل الجند يكسرون فيأكلون[٣].

وقام عتبة بن غزوان ﷺ بعد فتح الأبُلّة بتطهير المنطقة الواقعة أسفل دجلة والفرات من الحاميات العسكريّة الفارسيّة، فاشتبك معهم وهزمهم، ثمّ عاد إلى البصرة[٤].

🕮 تمصير البصرة:

تعدّ مدينة البصرة أقدم الأمصار الإسلاميّة في العراق؛ وذلك لأنّ العرب الفاتحين دخلوا العراق بنسائهم وأولادهم منذ بداية الفتوح[٥]، فلمّا استقرّ أمر العراق بعد

---

(١) تتّفق رواية المدائني وأبي مخنف والبلاذريّ على نزول عتبة بن غزوان البصرة وتمصيرها سنة ١٤هـ، ويخالفهم سيف فيمصّرها سنة ١٦هـ، ويلاحظ أنّ الطّبريّ لا يميل ها هنا إلى قول سيف. البلاذري: فتوح البلدان، ص٣٦٥، ٣٦٦؛ الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٤٣٨، ٤٣٩.

(٢) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٤٤٠، ٤٤١. والرّواية من طريق عمر بن شبّة البصريّ عن الشّعبيّ.

(٣) الطّبراني: الكبير، ج١٧، ص١١٣، ح٢٧٧. ورجاله رجال الصّحيح. الهيثمي: مجمع الزّوائد، ج٥، ص٣٣٦.

(٤) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٢٧، ١٢٨؛ محمّد سهيل طقوش: تاريخ الخلفاء الرّاشدين، ص٢١٣، ٢١٤.

(٥) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٧٤.

القادسيّة كلّف عمر ﷺ عتبة بن غزوان ﷺ بإقامة مدينة قريبة من ميناء الأُبُلّة ليجمع أصحابه في موضع واحد، قريب من الماء والمرعى، فاختار موضع البصرة، وكتب إلى الخليفة بصفة المكان، فاستحسنه، واطمأنّ إلى موقعه(١).

وبدأ المسلمون في تأسيس البصرة سنة ١٤هـ/٦٣٥م(٢)، لتكون معسكرًا للجند المسلمين(٣)، وجعل المسجد الجامع في وسط المدينة، وبجواره المباني الخاصّة بدوائر الحكومة والإدارة(٤)، ولمّا تكاثرت أعداد العرب المهاجرين إلى البصرة أمر عمر ﷺ بتوزيع الخطط عليهم، وتوطين كلّ قبيلة في مَحِلّة(٥).

وكان الفاتحون قد بدءوا إقامتهم بالبصرة في خيام وفساطيط وقباب(٦)، ثمّ استأذنوا الخليفة عمر ﷺ في البناء بالقصب(٧)، فكانوا إذا خرجوا للغزو نزعوا ذلك القصب وحزموه ووضعوه حتّى يرجعوا من الغزو، فإذا رجعوا أعادوا بناءه(٨)، وكانوا يغزون ونساؤهم معهم(٩)، ثمّ وقع حريق بالبصرة في عام ١٧هـ/٦٣٨م، فاستأذنوا الخليفة في بناء بيوت ثابتة، فأذن لهم عمر في البناء باللّبن من غير ارتفاع(١٠).

---

(١) البلاذري: فتوح البلدان، ص٣٦٥، ٣٦٦؛ الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٤٣٩.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان، ص٣٦٦؛ الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٤٣٨.

(٣) ماسينون: خطط الكوفة، تعريب/ تقي محمّد المصعبي، مطبعة العرفان، لبنان، الطّبعة الأولى، ١٣٥٨هـ/١٩٣٩م، ص١٠؛ آشتور: التّاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشّرق الأوسط في العصور الوسطى، تعريب/ عبد الهادي عبلة، دار قتيبة، دمشق، ١٩٨٥م، ص٢٦؛ شكري فيصل: المجتمعات الإسلاميّة في القرن الأوّل الهجري، ص٩٨.

(٤) محمّد سهيل طقوش: تاريخ الخلفاء الرّاشدين، ص٢١٥.

(٥) الدّينوري: الأخبار الطّوال، ص١١٨.

(٦) البلاذري: فتوح البلدان، ص٣٦١.

(٧) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٤٧٩.

(٨) البلاذري: فتوح البلدان، ص٣٦٦.

(٩) ياقوت: معجم البلدان، ج٤، ص٤٩١.

(١٠) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٤٧٩.



وقد نظّمت قبائل البصرة إلى خمسة أقسام إداريّة[1]؛ وذلك للمساعدة على سرعة استنفارها للحرب، وتسهيل توزيع العطاء والأرزاق عليهم[2].

📖 **تمصير الكوفة**:

كان المسلمون قد استقرّوا في المدائن - عاصمة الفرس - بعد فتحها، ولكنّهم اجتووها[3]؛ لكثرة البعوض بها[4]، ولأنّ الطّبيعة الجغرافيّة للمدينة لم تتناسب مع ما ألفه العرب من جوّ صحراويّ مفتوح، فشحب لونهم، فلمّا وقف الخليفة على ذلك كتب إلى سعد بن أبي وقّاص ﷺ يأمره أن يتّخذ للمسلمين دار هجرة يقيمون فيها، وأن يختار مكانًا مناسبًا، ليكون معسكرًا للجند المسلمين[5].

نزل سعد ﷺ الأنبار، وقرّر اتّخاذها مقرًّا، ولكنّ كثرة الذّباب فيها اضطرّته إلى النّزوح إلى كويفة عمر، فلم يجدها كما يرغب، وراسل الخليفة في ذلك، فأمره بتكليف سلمان الفارسيّ وحذيفة بن اليمان ﷺ ليرتادا منزلاً يلائم حياة العرب وإبلها، ولا يفصله عن الخلافة بحرٌ ولا جسرٌ، فنجح الرّائدان في اختيار مكان مناسب بين الحيرة والفرات، فنزله المسلمون في المحرّم سنة ١٧هـ/٦٣٨م[6].

وقد ابتنى أهل الكوفة بيوتهم أوّل الأمر أخصاصًا من قصب[7]، وكانوا إذا غزوا قلعوها وتصدّقوا بها، فإذا رجعوا أعادوا بناءها، وكانوا يأخذون معهم نساءهم وأولادهم[8]،

---

(١) علي حسني الخربوطلي: تاريخ العراق في ظلّ الحكم الأموي، دار المعارف، القاهرة، ١٩٥٩م، ص٢٩٠.

(٢) ماسينون: خطط الكوفة، ص٩.

(٣) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٣٨؛ ابن أبي شيبة: المصنّف في الأحاديث والآثار، ج٦، ص٥٥٢.

(٤) ابن أبي شيبة: المصنّف، ج٦، ص٥٥١.

(٥) ماسينون: خطط الكوفة، ص١٠؛ آشتور: التّاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشّرق الأوسط في العصور الوسطى، ص٢٦؛ شكري فيصل: المجتمعات الإسلاميّة في القرن الأوّل الهجري، ص٩٨.

(٦) ابن أبي شيبة: المصنّف في الأحاديث والآثار، ج٦، ص٥٥١؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص٣٩٦، اليعقوبي: البلدان، دار صادر، بيروت، طبعة ليدن، ١٨٩٢م، ص٢٣٥؛ الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٤٧٨.

(٧) تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٤٧٩.

(٨) ياقوت: معجم البلدان، ج١، ص٤٩١.

حتّى نشب حريق كبير بالكوفة، فأذن لهم الخليفة عمر ببناء دورهم باللّبن من غير ارتفاع[١]، كما حدث مع أهل البصرة.

وقد شُيّد المسجد الجامع بالكوفة في أوّل تخطيط المدينة، وبنيت أمامه ظلّة واسعة المساحة أقيمت على أعمدة، وشيّدت دار الإمارة بجوار المسجد، وسمّيت قصر سعد، وأقام الجند منازلهم حول فناء المسجد، فاختارت كلّ قبيلة مكانًا نزلت فيه وجعلت به خيامها، وكان من أهمّ مميّزات المدينة الجديدة اتّساع طرقها، حتّى لا تحجب الأبنية هواء البادية عن سكّانها[٢].

وقسّمت الكوفة بعد تمصيرها إلى سبعة أقسام قبليّة إداريّة[٣]، وظلّ التّقسيم على الأسباع إلى نهاية عصر الرّاشدين[٤].

---

(١) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٤٧٩.

(٢) اليعقوبي: البلدان، ص٣١١؛ محمّد سهيل طقوش: تاريخ الخلفاء الرّاشدين، ص٢١٦.

(٣) إحسان النّصّ: العصبيّة القبليّة وأثرها في الشّعر الأموي، دار اليقظة العربيّة، بيروت، ١٩٦٤م، ص٢٢٠.

(٤) ماسينون: خطط الكوفة، ص١١.

الفصل الرّابع

فتوح بلاد فارس (إيران)

تمهيـــــد:

لم يكن الخليفة عمر ﷺ قد خطّط وقتئذ لفتح بلاد فارس المعروفة بإيران اليوم، وكان هدف الغزوات والمعارك الّتي حدثت داخل الأراضي الفارسيّة هو كسر قوّة الفرس، والحفاظ على فتح العراق، لأنّ الأراضي العراقيّة تعدّ جزءًا من بلاد العرب الّتي سكنوا في أنحائها قبل البعثة النّبويّة، وكان أمير المؤمنين عمر ﷺ يقول: "وَدِدْتُ أنّ بيننا وبين فارس جبلاً من نار لا يصلون إلينا منه، ولا نصل إليهم"[١]، ولكنّ الفرس لم يركنوا إلى السّكينة والهدوء، بل كانوا يجهّزون الجيوش استعدادًا لمواصلة الحرب، كما كانوا يقومون بأعمال تمرّد في البلاد المفتوحة[٢].

📖 فتح إقليم الأهواز سنة ١٧هـ/٦٣٨م:

عندما فتح المسلمون حلوان وهرب منها كسرى يزدجرد، طلب منه "الهرمزان" أن يؤمّره على إقليم الأهواز[٣] ليمنع المسلمين من دخول تلك البلاد، وليجمع له الأموال والجنود من تلك النّواحي لحرب المسلمين، فأعجبه ذلك، وعقد له على الأهواز وفارس، ووجّه معه جيشًا كثيفًا[٤].

ولهذا سارع المسلمون بفتح هذا الإقليم، وكان ذلك على يد أبي موسى الأشعريّ ﷺ، فلمّا ولّاه عمر ﷺ البصرة سار بأهلها إلى الأهواز، فلم يزل يفتح بلدًا بلدًا، والأعاجم تهرب من بين يديه حتّى غلب على جميع أرضها إلّا السّوس، وتُسْتَر، ورَامَهُرْمُز[٥].

---

(١) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٤٩٨.

(٢) الكلاعي: الاكتفاء، ج٢، ص٥٤٤؛ محمّد سهيل طقوش: تاريخ الخلفاء الرّاشدين، ص٢١٦.

(٣) الأهواز: تقع منطقة الأهواز في أقصى الشّمال الشّرقيّ من الخليج العربي على الحدود العراقيّة الإيرانيّة، وكان اسمها خوزستان، جمع حوز أو هوز. ياقوت: معجم البلدان، ج٢، ص٤٠٤؛ يحيى شامي: موسوعة المدن العربيّة والإسلاميّة، دار الفكر العربي، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٩٩٣م، ص٢٥٨.

(٤) الدّينوري: الأخبار الطّوال، ص١٢٩.

(٥) البلاذري: فتوح البلدان، ص٣٩٦.

📖 **فتح رامهرمز**:

يتّفق المؤرّخون الثّقات على فتح رَامَهُرْمُز صلحًا على يد أبي موسى الأشعريّ[1]، ويخالفهم الأخباريّ سيفُ التّميميّ في ذلك فيذكر أنّ الفرس اجتمعوا فيها بقيادة الهُرمزان، فأمر الخليفة عمر ﷺ سعد بن أبي وقّاص ﷺ أن يجهّز إلى الأهواز جيشًا من أهل الكوفة بقيادة النّعمان بن مقرّن المُزَنيّ ﷺ على عجل، وأمر أبا موسى الأشعريّ أن يجهّز جيشًا من البصرة بقيادة سهل بن عَديّ، فخرج النّعمان بن مقرّن في أهل الكوفة، وسار نحو رَامَهُرْمُز، فلمّا سمع الهرمزان بمسيره إليه بادره الشَّدّة ورجا أن يقتطعه، والتقى النّعمان والهرمزان فاقتتلوا قتالاً شديدًا، تغلّب فيه المسلمون، فانسحب الهرمزان إلى تُسْتَر وأخلى رامهرمز، فدخلها النّعمان[2].

📖 **فتح تُسْتَر**:

وجّه الفاروق عمر ﷺ أبا موسى الأشعريّ ﷺ لفتح تُسْتَر[3]، فجعل على ميمنته البراء بن مالك ﷺ، وعلى ميسرته مَجْزأة بن ثور السّدوسيّ الذُّهْليّ ﷺ، وعلى الخيل أنس بن مالك ﷺ، فلمّا بلغها وجد الهرمزان قد تحصّن بها[4]، فضرب المسلمون الحصار على تستر سنة أو نحوها[5]، وقابلوا فيها جيش الأعداء في ثمانين معركة[6].

ولمّا اقترب نصر الله من المسلمين ساقه لهم على يد رجل فارسيّ، وكان الهرمزان قتل رجلاً من عظمائهم، فانطلق أخوه حتّى أتى أبا موسى ﷺ، وطلب منه أن يحقن دمه ودماء أهل بيته ويترك لهم مساكنهم وأموالهم، فأعطاه ذلك، فدلّ الفارسيُّ المسلمين على

(١) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٤٠؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص٣٩٦.

(٢) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٥٠٠.

(٣) ابن أبي شيبة: المصنّف في الأحاديث والآثار، ج٦، ص٥٦٣، ج٧، ص٣؛ خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٤٠. والخبر بإسناد صحيح.

(٤) البلاذري: فتوح البلدان، ص٣٩٩.

(٥) تصل بعض الرّوايات بمدّة الحصار إلى ثمانية عشر شهرًا، أو سنتين. خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٤٦.

(٦) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٥٠٠، ٥٠١.

مخرج ماء ضيّق لا ينفذون منه إلّا سباحة بمشقّة شديدة[1]، وأنفذ معه الأشرس بن عوف الشّيبانيّ ليتأكّد من صدقه[2]، فلمّا عاد ندب أبو موسى ﷺ النّاسَ لتلك المهمّة، فخرج لها جماعة من الأبطال، فيهم: مجزأة بن ثور، والبراء بن مالك رضي الله عنهما[3].

وقد تذكّر بعض المسلمين أنّ النّبيّ ﷺ قال: "كَمْ مِنْ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ذِي طِمْرَيْنِ لَا يُؤْبَهُ لَهُ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لَأَبَرَّهُ مِنْهُمُ الْبَرَاءُ بْنُ مَالِكٍ"[4]، فلمّا أوجع المشركون في المسلمين ألحّوا على البراء ﷺ ليُقسم على ربّه، فقال: "أَقْسَمْتُ عَلَيْكَ يَا رَبِّ لَمَا مَنَحْتَنَا أَكْتَافَهُمْ، وَأَلْحَقْتَنِي بِنَبِيِّكَ ﷺ، فَمُنِحُوا أَكْتَافَهُمْ، وَقُتِلَ الْبَرَاءُ شَهِيدًا"[5].

وكان المسلمون قد ناهضوا حصن تستر عند إضاءة الفجر واشتدّ عليهم القتال، فلم يقدروا على الصّلاة إلّا بعد ارتفاع النّهار، فكان أنس ﷺ يتحسّر على تلك الصّلاة فيقول: "لَمْ نُصَلِّ يَوْمَئِذٍ الْغَدَاة حَتَّى انْتَصَفَ النَّهَار، فَمَا يَسُرّنِي بِتِلْكَ الصَّلَاةِ الدُّنْيَا كُلُّهَا"[6].

ولجأ الهرمزان - قائد الفرس - إلى القلعة، فأحاط به المسلمون الّذين دخلوا من مخرج الماء، ولكنّهم لم يستطيعوا القبض عليه حتّى أمّنوه على أن ينزل على حكم عمر ﷺ، فأرسله أبو موسى مع أنس بن مالك ﷺ[7].

(١) ابن أبي شيبة: المصنّف في الأحاديث والآثار، ج٦، ص٥٦٣.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان، ص٣٩٩؛ الدّينوري: الأخبار الطّوال، ص١٣١.

(٣) ابن أبي شيبة: المصنّف، ج٦، ص٥٦٣.

(٤) التّرمذي: السّنن، (كتاب المناقب، باب مناقب البراء بن مالك)، ج٥، ص٦٩٢، ٦٥٣، ح٣٨٥٤. وقال التّرمذيّ: "حسن غريب".

(٥) رواه الحاكم عن أنس بن مالك ﷺ، وصحح إسناده على شرط الشّيخين، وأقرّه الذّهبيّ. المستدرك، ج٣، ص٣٣١، ح٥٢٧٤.

(٦) علّقه البخاريّ في الصّحيح، (أبواب صلاة الخوف، باب الصّلاة عند مناهضة الحصون ولقاء العدوّ)، ج١، ص٣٢٠. ووصله ابن سعد، وابن أبي شيبة، وخليفة بن خياط. الطّبقات الكبير، ج٥، ص٣٣٣؛ المصنّف في الأحاديث والآثار، ج٧، ص٥؛ تاريخ خليفة، ص١٤٦. وينظر ابن حجر: تغليق التّعليق على صحيح البخاري، تحقيق/ سعيد عبد الرّحمن موسى، المكتب الإسلاميّ، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤٠٥هـ، ج٢، ص٣٧٢.

(٧) ابن أبي شيبة: المصنّف، ج٦، ص٥٦٤. بإسناد صحيح.

وصل الهرمزان إلى المدينة النّبويّة في حراسة مشدّدة، وفي مُخَيَّلَته أنّ خليفة المسلمين عمر ﷺ مثل ملوك فارس، بين الحرّاس والحجّاب والكتّاب، وأبّهة الملك، ولكنّه دهش عندما رأى عمر ﷺ نائمًا في المسجد معه دِرّته[1]، فلمّا انتبه الخليفة ورأى الهرمزان أنّبه على كثرة انتقاضه، وجرت بينهما محاورة انتزع فيها الهرمزان الأمان من عمر ﷺ، ثمّ أسلم، ففرض له عمر ﷺ على ألفين[2]، وأنزله المدينة[3].

🕮 فتح السُّوس:

توجّه أبو موسى الأشعريّ ﷺ إلى السّوس فقاتل أهلها ثمّ حاصرهم حتّى نَفِدَ ما عندهم من الطّعام فضرعوا إلى الأمان، ورأى أبو موسى ﷺ في قلعتهم بيتًا عليه ستر فسأل عنه أهل البلاد، فأخبروه أنّ فيه جثّة دانيال النّبيّ ﷺ[4].

وقد ثبت بصحيح الرّوايات أنّ المسلمين أصابوا جسد "دانيال" النّبيّ في تابوت بالسّوس، "وكان أَهْلُ السُّوسِ إِذَا أَسَنُّوا أَخْرَجُوهُ فَاسْتَسْقَوْا بِهِ"، فلمّا بلغ خبرُه عمر ﷺ كتب

---

(١) وقد ثبت عن أنس بن مالك ﷺ بسند صحيح أنّ الهرمزان لمّا رأى الفاروق عمر ﷺ مضـطجعًا في مسجد رسول الله ﷺ ليس حولَه أحدٌ قال: "هَذَا وَاللَّهِ الْمَلِكُ الْهَنِيءُ". ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٣، ص٢٩٣؛ البلاذري: أنساب الأشراف، ج١٠، ص٣٤٦.

(٢) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٥٠٢.

(٣) يروي أنس بن مالك ﷺ أنّه لمّا دخل على أمير المؤمنين عمر ﷺ بأسرى تستر سكن الهرمزان ولم يتكلّم، فلمّا طلب منه عمر ﷺ الكلام قال: "أَكَلَامُ حَيٍّ أَمْ كَلَامُ مَيِّتٍ؟ قال: "تَكَلَّمْ فَلَا بَأْسَ"، فقال: إِنَّا وَإِيَّاكُمْ مَعْشَرَ الْعَرَبِ مَا خَلَّى اللَّهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ، فَإِنَّا كُنَّا نَقْتُلُكُمْ وَنُقْصِيكُمْ، وَلَمَّا أَنْ كَانَ اللَّهُ مَعَكُمْ لَمْ يَكُنْ لَنَا بِكُمْ يَدَانِ، فاستشار الخليفة أنس بن مالك ﷺ فقال: "تَرَكْتُ خَلْفِي شَوْكَةً شَدِيدَةً وَعَدَدًا كَثِيرًا، إِنْ قَتَلْتَهُ أَيِسَ الْقَوْمُ مِنَ الْحَيَاةِ، وَكَانَ أَشَدَّ لِشَوْكَتِهِمْ، وَإِنِ اسْتَحْيَيْتَهُ طَمِعَ الْقَوْمُ، فاستنكر الخليفة قول أنس ﷺ، ورفض أن يسْتَحْيِي قَاتِلَ الْبَرَاءِ بْنِ مَالِكٍ وَمَجْزَأَةَ بْنَ ثَوْرٍ ﷺ، فَلَمَّا خَشِي أنسٌ أَنْ يَبْسُطَ عَلَيْهِ قال: لَيْسَ إِلَى قَتْلِهِ سَبِيلٌ، فَقَالَ عُمَرُ: لِمَ؟ أَعْطَاكَ؟ أَصَبْتَ مِنْهُ؟ قال: مَا فَعَلْتُ، وَلَكِنَّكَ قُلْتَ لَهُ: تَكَلَّمْ فَلَا بَأْسَ، قال: "لَتَجِيئَنَّ بِمَنْ يَشْهَدُ أَوْ لَأَبْدَأَنَّ بِعُقُوبَتِكَ"، فشهد الزّبير ابن العوّام ﷺ لأنس، فترك عمر الهرمزان، وأسلم، ففرض له من العطاء. القاسم بن سلّام: الأموال، ص١٤٩، ١٥٠؛ ابن أبي شيبة: المصنّف، ج٧، ص٣؛ خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٤٧. والأثر بإسناد صحيح. ورواه ابن حبّان مختصرًا بإسناد قويّ. صحيح ابن حبّان، ج١١، ص٦٤.

(٤) البلاذري: فتوح البلدان، ص٣٩٧.

إلى المسلمين: "أَنْ تَغْسِلُوا دَانْيَالَ بِالسِّدْرِ وَمَاءِ الرَّيْحَانِ، وَأَنْ يُصَلَّى عَلَيْهِ؛ فَإِنَّهُ نَبِيٌّ دَعَا رَبَّهُ أَنْ لَا يَلِيهِ إِلَّا الْمُسْلِمُونَ"(١).

وفي رواية أخرى عن عمر بن الخطّاب ﷺ أنّه قال: "إِنَّ هَذَا نَبِيٌّ مِنَ الأَنْبِيَاءِ، وَالنَّارُ لَا تَأْكُلُ الأَنْبِيَاءَ، وَالأَرْضُ لَا تَأْكُلُ الأَنْبِيَاءَ"، وأمر أبا موسى الأشعريّ وأنس بن مالك رضي الله عنهما بدفنه في مكانٍ لا يعلمه أحدٌ غيرُهما، فدفناه(٢)، بعدما حفرا ثلاثةَ عشرَ قبرًا متفرّقة بالنّهار، ثمّ دفناه باللّيل، وقاما بتسوية القبور كلّها، لتعمية أثره على النّاس، حتّى لا ينبشوه(٣).

🕮 فتح نهاوند (فتح الفتوح):

لم يكن ضياع بلاد العراق وسائر مدن الأهواز وتتابع هزائم السّاسانيّين يسيرًا على أمراء الفرس وأعيانهم، ولذلك أثاروا ملكهم الهارب "يزدجرد" واستنهضوه للقتال من جديد فأجابهم، وأمّر عليهم ذا الحاجبين(٤)، ودعا إلى التّعبئة العامّة في أقاليم الدّولة

---

(١) ابن أبي شيبة: المصنّف، ج٧، ص٤، ح٣٣٨١٨. وإسناده صحيح، رجاله ثقات. وينظر ابن أبي داود: المصاحف، ص٣٦٤؛ ابن حزم: المحلّى، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ج٩، ص٤٥؛ عبد العزيز مرزوق الطّريفي: التّحجيل في تخريج ما لم يخرّج من الأحاديث والآثار في إرواء الغليل، مكتبة الرّشد، الطّبعة الأولى، الرّياض، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، ص١٩٤.

(٢) ابن أبي شيبة: المصنّف، ج٧، ص٤، ح٣٣٨١٩. وإسناده صحيح.

(٣) ابن إسحاق: السّير والمغازي، ص٦٦؛ ابن كثير: البداية والنّهاية، ج٢، ص٤٨. وقد صحّح ابن كثير إسناده إلى أبي العالية الّذي شهد الواقعة.

(٤) ابن أبي شيبة: المصنّف في الأحاديث والآثار، ج٦، ص٥٥٩؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص٣٢٣؛ الطّبري: تاريخ الأمم والملوك؛ ج٢، ص٥٣٣؛ الحاكم: المستدرك على الصّحيحين، ج٣، ص٣٣٢. ونصّ ابن حجر العسقلانيّ على أنّ ذا الحاجبين لقب خرّزاد بن هرمز. نزهة الألباب في الألقاب، ج١، ص٢٨٥. ويرد في بعض المصادر "ذو الجناحين". أبو يوسف: الخراج، ص٤٣؛ ابن أبي شيبة، ج٦، ص٥٥٩. وعند الدّينوريّ "مردان شاه بن هرمز". الأخبار الطّوال، ص١٣٤. وعند الطّبريّ من طريق سيف التّميميّ أنّه أمّر عليهم الفيرزان. تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٥٢٢. وعند ابن أعثم أنّ أمراء الفرس بنهاوند أربعة، منهم: "ذو الحاجب خرّزاد بن هرمز". الفتوح، ج٢، ص٢٩٠. وعند البلاذري: مردان شاه ذو الحاجب. فتوح البلدان، ص٣٢٢. وأقوال المؤرّخين كلّها متقاربة عدا ما ذهب إليه سيفُ المتّهم بالكذب والوضع والزّندقة.

الفارسيّة، وحشد أربعين ألف مقاتل(١)، أو يزيدون(٢)، وسيّرهم جميعًا إلى نَهاوند(٣)، وذلك سنة ٢١هـ/٦٤١م(٤).

بلغت التّطوّرات الجديدة أمير المؤمنين عمر ﷺ فاستشار أهل الرّأي، وفيهم الهرمزان(٥)، فأخبر الخليفة أنّ نِهاوند هي رأس فارس، حيث يجتمع بها "بَنْذَاذِقَانَ"(٦)، ومعه أساورة كسرى، وأهل أَصْفَهَانَ(٧)، ونصحه أن يبدأ بها؛ لأنّ قطع الرّأس {أَصْبَهَانَ} يسقط الجناحين، وهما: فارسُ، وَأَذَرْبِيجَانَ، فعزم عمر ﷺ على فتحها، واختار النّعمان بن مقرّن المزنيّ ﷺ لقيادة الجيش الّذي أعدّه لها(٨)، وكان النّعمان قد كتب إلى الفاروق يناشده بالله أن يعزله عن ولاية خراج كسكر ويبعثه مجاهدًا إلى جيش من جيوش المسلمين، فأعفاه الخليفة من عمل الأموال، ووجّهه غازيًا إلى نهاوند(٩).

---

(١) البخاري: الصّحيح، (كتاب الجزية والموادعة، باب الجزية والموادعة مع أهل الجزية والحرب)، جـ٣، ص١١٥٢، ح٢٩٨٩.

(٢) ويبدو أنّ رواة الأخبار لم يضبطوا العدد، فيذكر البلاذريّ أنّهم اجتمعوا في ستين ألفًا، أو مائة ألف. فتوح البلدان، ص٣٢٢.

(٣) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٤٧؛ الدّينوري: الأخبار الطّوال، ص١٣٣، ١٣٤.

(٤) هذا تأريخ ابن إسحاق وأبي معشر والواقديّ، أما سيف فيجعلها في سنة ١٨هـ. الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٢، ص٥١٨.

(٥) البخاري: الصّحيح، (كتاب الجزية، والموادعة، باب الجزية والموادعة مع أهل الجزية والحرب)، جـ٣، ص١١٥٢، ح٢٩٨٩.

(٦) هكذا عند ابن حبّان، وفي رواية مبارك بن فضالة: "بندار". الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٢، ص٥٢٠. ويبدو أنّ أحدهما محرّفٌ عن الآخر.

(٧) ابن حبان: الصّحيح، جـ١١، ص٦٤. وإسناده قويّ.

(٨) ابن أبي شيبة: المصنّف، جـ٦، ص٥٥٩، ٥٦٠، ح٣٣٧٩٣؛ الحاكم: المستدرك على الصّحيحين، جـ٣، ص٣٣٢، ح٥٢٧٩. وقال الهيثميّ: "رواه الطّبرانيّ، ورجاله رجال الصّحيح غير علقمة بن عبد الله المزنيّ، وهو ثقة". مجمع الزّوائد ومنبع الفوائد، جـ٦، ص٢١٧، ح١٠٣٧٩. ووثّق البوصيريّ رواته. إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة، جـ٥، ص٢٥٩، ح٤٦٣٠. وصحّح محقّق المطالب العالية لابن حجر إسناده، جـ١٨، ص٢٤.

(٩) ابن أبي شيبة: المصنّف، جـ٦، ص٥٥٢. والأثر بإسناد صحيح.



وبعث الخليفة ولده عبد الله بن عمر رضي الله عنهما في المهاجرين والأنصار، وأبا موسى الأشعريّ رضي الله عنه في أهل البصرة، وحذيفة بن اليمان رضي الله عنه في أهل الكوفة على أن يجتمعوا بنهاوند تحت قيادة النّعمان بن مقرّن رضي الله عنه[1].

وقد ضمّ هذا الجيش جماعة من الصّحابة وأبطال العرب منهم: الزّبير بن العوّام[2]، وجرير بن عبد الله البجليّ، والمغيرة بن شعبة الثّقفيّ، وقيس بن هبيرة المكشوح المراديّ، وطليحة بن خويلد الأسديّ[3]، والأشعث بن قيس الكنديّ، وعمرو بن معدِيكرب الزُّبيديّ[4]، وأوصى الخليفةُ النّعمانَ بن مقرّن أن يشاور عمرو بن معدِيكرب، وطليحة بن خويلد في أمر الحرب، ويجعلهما من خوّاصّه[5].

ونظرًا لصعوبة المعركة المنتظرة في نهاوند فقد عهد عمر رضي الله عنه بقيادة الجيش إلى حذيفة بن اليمان بعد النّعمان، ومن بعده لجرير بن عبد الله البجليّ[6]، فإن أصيب فالقيادة لقيس بن هبيرة المكشوح المراديّ[7].

وسار المسلمون إلى عدوّهم حتّى عسكروا بإحدى قرى أصبهان قبل نهاوند، وأقبل الفرس حتّى عسكروا قريبًا من المسلمين وخندقوا على أنفسهم[8].

---

(١) ابن حبّان: الصّحيح، ج١١، ص٦٥. وإسناده قويّ.

(٢) ابن أبي شيبة: المصنّف، ج٦، ص٥٥٩، ح٣٣٧٩٣؛ الحاكم: المستدرك على الصّحيحين، ج٣، ص٣٣٢. وإسناد الأثر صحيح.

(٣) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٥١٨. من رواية ابن إسحاق.

(٤) ابن أبي شيبة: المصنّف، ج٦، ص٥٥٩، ح٣٣٧٩٣؛ الحاكم: المستدرك، ج٣، ص٣٣٢. وإسناده صحيح.

(٥) ابن سعد: الطّبقات الكبير، ج٦، ص٢٧١؛ الدّينوري: الأخبار الطّوال، ص١٣٥. وفي رواية منقطعة لابن أبي شيبة أنّه أوصاه ألّا يولّيهما شيئًا من الإمارة. ابن أبي شيبة: المصنّف، ج٦، ص٥٦١.

(٦) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٤٨.

(٧) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٥١٩؛ الذّهبي: تاريخ الإسلام، ج٢، ص١٢٥؛ ابن كثير: البداية والنّهاية، ج٧، ص١٢٣. والخبر من رواية محمّد بن إسحاق. وفي رواية أنّه عهد بالقيادة بعد جرير إلى المغيرة بن شعبة، ومن بعده إلى الأشعث بن قيس. البلاذري: فتوح البلدان، ص٣٢٢؛ الدّينوري: الأخبار الطّوال، ص١٣٥.

(٨) الدّينوري: الأخبار الطّوال، ص١٣٥.

وطلب قائد الفرس رجلاً يكلّمه، فبعثوا إليه المغيرة بن شعبة ﷺ، فقعد الفارسيّ على سرير من ذهب في أبّهة الملك، وجعل المغيرة ﷺ يطعن برمحه في بُسُطهم يَخْرِقُها؛ ليتطيّروا حتّى قام بين يديه[1]، فطفق يذكّره بشقاء العرب، وجوعهم، وبُعد دارهم، فحمد المغيرة الله ﷻ وأثنى عليه، ثمّ قال: "والله ما أخطأتَ من صفتنا ونعتنا شيئًا، إن كنّا لأبعدَ النّاس دارًا، وأشدَّ النّاس جوعًا، وأعظمَ النّاس شقاءً، وأبعدَ النّاس من كلّ خير، حتّى بعث الله إلينا رسولاً، فوعدنا النّصر في الدُّنيا، والجنّة في الآخرة[2]، وأمرنا أن نقاتلكم حتّى تعبدوا الله وحده، أو تؤدّوا الجزية[3]، ووثب المغيرة ﷺ فقعد مع العِلج على سريره ليتطيّر، فقام إليه رجاله فجعلوا يطأونه بأرجلهم ويجرّونه بأيديهم، فأخبرهم أنّ المسلمين لا يفعلون هذا برسلهم، وأنّه إن عجَز أو استَحمق، فينبغي عليهم ألّا يؤاخذوه، لأنّه رسول[4].

وقد أقام الفرس في مكانهم، ولم يخرجوا لقتال المسلمين، فاستشار النّعمان ﷺ عمرًا وطليحة في الأمر، فأشار عليه عمرو بأن يشيع وفاة أمير المؤمنين، ثمّ يرتحل بجميع العسكر، وسيخرج الفرس وراءهم ويتعقّبونهم، فأخذ النّعمان ﷺ بهذا الرّأي، وارتحل بالمسلمين فتعقّبهم الفرس، فلمّا قاربوهم وقفوا لهم، فدارت بينهم معركة عنيفة حتّى حال بينهم اللّيل، وقد كثرت القتلى من الجانبين، فانصرف كلّ فريق إلى معسكرهم[5].

كان هذا اللّقاء يوم الأربعاء فانكشفت ميمنة المسلمين، وثبتت الميسرة والصّفّ، ثمّ التَقَوْا يوم الخميس فانكشفت الميسرة، وثبتت الميمنة والصّفّ، وكان اللّقاء الحاسم يوم الجمعة[6]، بعد زوال الشّمس، وحضور الصّلاة[7]، فتسلسل الأعاجم كلّ خمسة وستّة وسبعة

(١) ابن أبي شيبة: المصنّف، جـ٦، ص٥٥٩، ح٣٣٧٩٣؛ الحاكم: المستدرك على الصّحيحين، جـ٣، ص٣٣٢. وإسناده صحيح.

(٢) ابن حبّان: الصّحيح، جـ١١، ص٦٥، ٦٦. وإسناده قويّ.

(٣) البخاري: الصّحيح، (كتاب الجزية والموادعة، باب الجزية والموادعة مع أهل الجزية والحرب)، جـ٣، ص١١٥٢، ح٢٩٨٩.

(٤) ابن أبي شيبة: المصنّف، جـ٦، ص٥٥٩، ح٣٣٧٩٣؛ الحاكم: المستدرك، جـ٣، ص٣٣٢. وإسناده صحيح.

(٥) الدّينوري: الأخبار الطّوال، ص١٣٥، ١٣٦.

(٦) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٤٨.

(٧) ابن حبّان: الصّحيح، جـ١١، ص٦٨. وإسناده قويّ.



وعشرة في سلسلة، وألقَوْا حَسَك الحديد خلفهم، حتّى لا يفرّوا، واستقبلوا المسلمين بقطع غفيرة أمثال الجبال، ورشقوهم بوابل من السّهام حتّى أسرعوا فيهم[١].

ووقف النّعمان ﷺ يحضّ جنده على القتال، وأعلمهم أنّه سيهزّ لواءه ثلاث مرّات، ليقضي النّاس حاجتهم ويتوضّأوا عند الأولى، ويستعدّوا بأسلحتهم عند الثّانية، وليحملوا مع الهزّة الثّالثة، "ولا يلوينّ أحدٌ على أحدٍ، وإن قتل النّعمان فلا يلوِينّ عليه أحدٌ"، وأقسم على جميع المسلمين أن يؤمّنوا على دعوته، وقال: "اللّهمّ ارزقِ النّعمان اليوم الشّهادة في نصر وفتح عليهم"، فأمّن النّاس على دعائه[٢].

وحمل النّعمان ﷺ مع الهزّة الثّالثة وحمل النّاس معه مستقتلين، وما منهم من أحد إلّا يحبّ أن "يُقْتَلَ أَوْ يَظْفَرَ"، ودارت بين الفريقين معركة رهيبة، لم يسمع فيها إلّا وقعُ الحديد على الحديد، "وأُصيب في المسلمين مُصابةٌ عظيمةٌ"، ولكنّهم صبروا وصابروا حتّى يئس الأعاجم فانهزموا، وكان إذا وقع أحد المقترنين يأخذ مجموعته معه، فيقتلون جميعًا، ومن يفرّ أمام المسلمين يَعقِره حسك الحديد خلفهم، فلمّا رأى النّعمان ﷺ أنّ الله قد استجاب له ورأى الفتح جاءته نُشّابةٌ، فأصابت خاصرته فقتلته[٣]، فجاء أخوه سويد بن مقرّن[٤] فحمله إلى فُسطاطه، وخلع ثيابه فلبسها، وتقلّد سيفه، وركب فرسه، وأخذ اللّواء فتقدّم به، فلم يشكّ أكثر النّاس أنّه النّعمان[٥]، واتّبعوه يهزمون الأعداء ويقتلونهم[٦]، ووقع قائد الفرس من على بغلته فانشقّ بطنُه، ففتح الله على المسلمين، ولم يزل بالنّعمان ﷺ رمقٌ، فأتاه معقل بن يسار - راوي الخبر - فبشّره بالفتح، فحمد الله ﷻ، وفاضت نفسُه، فاجتمع النّاس على حذيفة بن اليمان ﷺ[٧].

---

(١) ابن أبي شيبة: المصنّف، ج٦، ص٥٥٩، ح٣٣٧٩٣؛ الحاكم: المستدرك، ج٣، ص٣٣٢. وإسناده صحيح.

(٢) المصدران السابقان .

(٣) ابن حبان: الصّحيح، ج١١، ص٦٨، ٦٩. وإسناده قويّ.

(٤) عند ابن حبان معقل بن مقرّن. ابن حبان: الصّحيح، ج١١، ص٦٨، ٦٩. وإسناده قويّ.

(٥) الدينوري: الأخبار الطوال، ص١٣٦.

(٦) ابن حبان: الصّحيح، ج١١، ص٦٨، ٦٩. وإسناده قويّ.

(٧) ابن أبي شيبة: المصنّف، ج٦، ص٥٥٩، ٥٦٠؛ الحاكم: المستدرك، ج٣، ص٣٣٢. وإسناده صحيح.

ولم يزل حذيفة بن اليمان ﷺ والمسلمون يحاصرون عساكر نهاوند الّذين تحصّنوا بالمدينة ويقاتلونهم حتّى استسلموا، وطلبوا الأمان، فصالحهم حذيفة بن اليمان ﷺ على الجزية والخراج(١)، ولم يكن للفرس بعد موقعة نهاوند اجتماع، ولذلك سمّيت فتح الفتوح(٢).

🕮 انسياح المسلمين في أقاليم بلاد فارس:

أصاب الفرسَ الهلعُ بهزيمة نهاوند، وازدادوا اضطرابًا، فانهارت معنويّاتهم، وخارت قواهم، فاغتنم الفاروق عمر ﷺ تلك الفرصة فجيّش الجيوش، وعقد الألوية للقوّاد، وأمرهم بالانسياح في بلاد فارس، والولايات التّابعة لها، وخاصّة بعدما تيقّن أنّ استتباب الفتح في بلاد فارس لن يتمّ إلّا بالقضاء على يزدجرد، الّذي لا يزال يبعث في كلّ عام حربًا على المسلمين(٣).

وكانت فلول الفرس قد فرّت إلى هَمَذان في الشّمال الشّرقيّ من نهاوند، واحتمت بتحصيناتها، فحاصرهم المسلمون، حتّى استسلموا مقابل تأمين المدينة وسكّانها، وذلك في أواخر عام ٢١هـ/٦٤٢م(٤)، ولمّا نقض أهلها الصّلح أمر عمر ﷺ نعيم بن مقرّن بالمسير إليهم، فعادوا إلى طلب الصّلح فأجابهم إليه(٥).

وتوجّه المجاهدون المسلمون إلى أصفهان - جنوب نهاوند - بقيادة عبد الله بن بُديل الخزاعيّ، فتمّ لهم فتحها في سنة ٢١هـ/٦٤٢م(٦).

---

(١) البلاذري: فتوح البلدان، ص٣٢٥؛ الدّينوري: الأخبار الطّوال، ص١٣٦، ١٣٧.

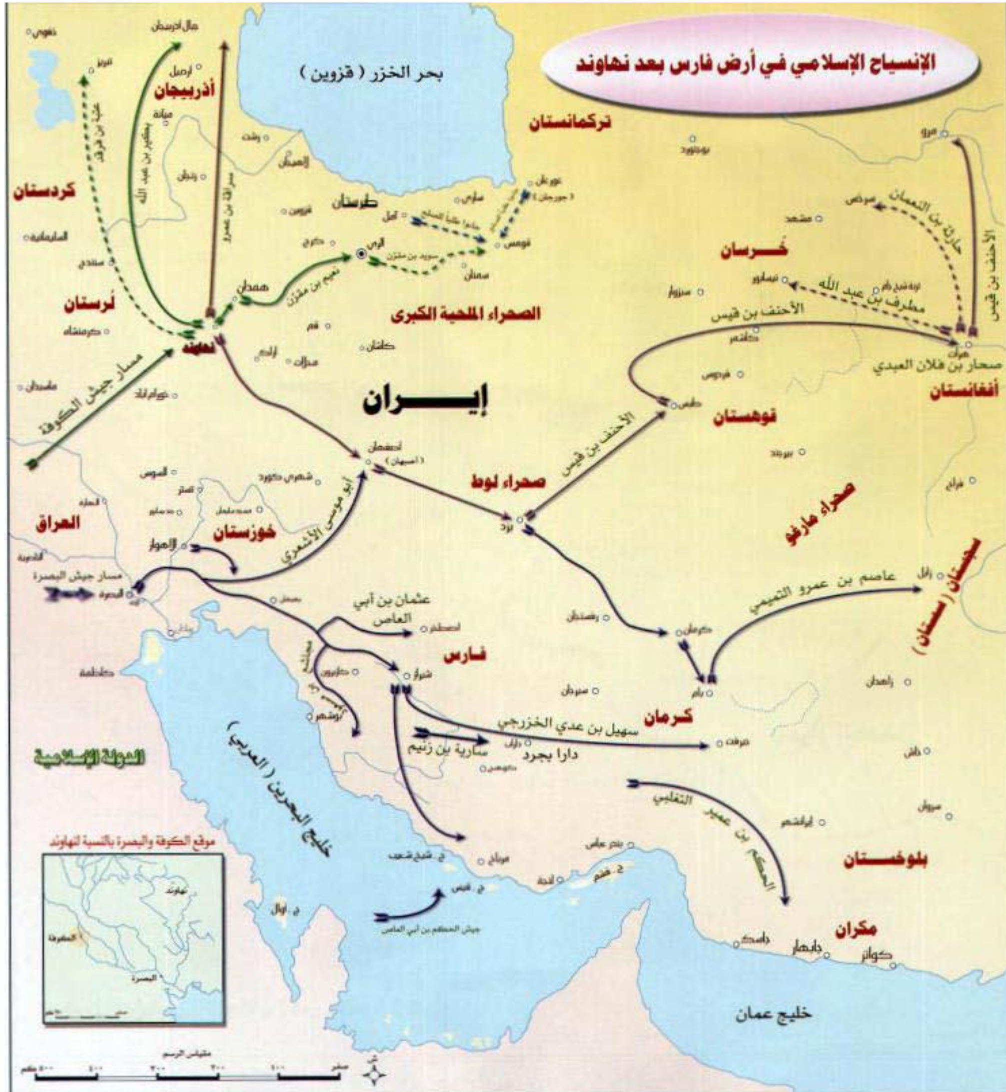
(٢) المطهّر بن طاهر المقدسي: البدء والتاريخ، مج٢، ج٥، ص١٨٢؛ ياقوت الحموي: معجم البلدان، ج٥، ص٣١٤.

(٣) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٥٣٠.

(٤) تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٥٢٨. وعند البلاذري أنّ المغيرة بن شعبة ﷺ وجه إليها جرير بن عبد الله البجليّ ﷺ فافتتحها سنة ٢٣هـ. فتوح البلدان، ص٣٢٨.

(٥) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٥٣٥، ٥٣٦.

(٦) تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٥٣١، ٥٣٢. ويقرّر البلاذريّ فتح أصبهان سنة ٢٣هـ. فتوح البلدان، ص٣٣١.



خريطة رقم (٣) لمعرفة مواقع أحداث فتوح البلاد الفارسيّة. نقلاً عن سامي عبد الله أحمد المغلوث: أطلس الخليفة عمر بن الخطّاب، ص١٢٧.

🕮 فتح الولايات الفارسيّة الشّماليّة:

كثّف المسلمون جهودهم لفتح الأقاليم الشّماليّة التّابعة للدّولة الفارسيّة خلال سنة ٢٢هـ/٦٤٣م، فافتتح نعيم بن مقرّن الرَّيّ(١)، ثمّ سيّر أخاه سويد بن مقرّن إلى قُومِس بأمر عمر ﷺ فافتتحها، بلا حرب، ولا مقاومة(٢).

وواصل سويد بن مقرّن فتوحاته فكاتب رزبان صول - ملك جُرْجَان - يدعوه للدّخول في طاعة المسلمين، وهدّده بالمسير إليه، فاستجاب له خلال سنة ٢٢هـ/٦٤٣م، وكتب سويدٌ لأهل جرجان كتابًا جاء فيه: "إنّ لكم الذّمّة، وعلينا المنعة، على أنّ عليكم من الجزاء في كلّ سنة على قدر طاقتكم، على كلّ حالم، ومن استعنّا به منكم، فله جزاؤه في معونته عوضًا من جزائه"(٣).

وعندما بلغت أنباء انتصارات المسلمين أهل طبرستان قام حاكمها بمراسلة الأمير سويد بن مقرّن في الصّلح والموادعة على غير نصر ولا معونة فأجابه، وذلك خلال سنة ٢٢هـ/٦٤٣م(٤).

وكانت الخطوة التّالية في فتوح هذا المحور الشّماليّ إلى بلاد أَذْرَبِيجان(٥)؛ لأنّها تجاور طبرستان من النّاحية الغربيّة، ويتاخم جنوبُها بلاد العراق العربيّ والجزيرة الفراتيّة(٦)، ولذا وجّه أمير المؤمنين عمر ﷺ حذيفة بن اليمان ﷺ على حربها، فلمّا وصل قصبتها أردبيل، تصدّى له حاكمها المرزبان، وجرى بينهما قتال شديد انتهى بعرض

---

(١) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٥٣٧. وفاتح الرّيّ عند البلاذريّ هو عروة بن زيد الخيل الطائيّ، وليس نعيمًا المزنيّ. ويبدو أنّ ذلك من كثرة انتقاضها على المسلمين ومعاودة فتحها. فتوح البلدان، ص٣٣٥، ٣٣٧. وقد زحفت العاصمة الإيرانيّة "طهران" على أطلال مدينة الرّيّ التّاريخيّة الآن.

(٢) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٥٣٨.

(٣) تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٥٣٨؛ الجرجاني: تاريخ جرجان، عالم الكتب، بيروت، الطّبعة الرّابعة، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ص٤٤، ٤٥.

(٤) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٥٣٨، ٥٣٩.

(٥) أَذَرْبِيجان: سمّيت بذلك لكثرة معابد النّار بها، ومعناها أرض النّار أو معابد النّار، ويغلب على أرضها الجبال. ياقوت: معجم البلدان، ج١، ص١٢٨؛ القزويني: آثار البلاد، دار صادر، بيروت، ص٢٨٤.

(٦) محمّد سهيل طقوش: تاريخ الخلفاء الرّاشدين، ص٢٢٧.

المرزبان الصّلح على حذيفة ﷺ مع المحافظة على بيوت النّار، وممارسة السّكان لشعائرهم الدّينيّة، وإظهار ما كانوا يظهرونه، فأجابه حذيفة، وذلك سنة ٢٢هـ/٦٤٣م[١].

وبفتح جُرْجان، وطَبَرستان، وأذربيجان يفرغ المسلمون من البلدان الفارسيّة الشّماليّة، ولا يفصلهم شيء عن شواطئ بحر قزوين[٢].

🕮 فتح إقليم فارس:

يطلق إقليم فارس على البلاد الفارسيّة الأصليّة الّتي أقام الفرس دولتهم عليها، دون الولايات الشّاسعة الّتي أخضعوها لحكمهم، وقد فتح المسلمون هذا الإقليم في آخر عهد عمر ﷺ سنة ٢٣هـ/٦٤٤م، لكنّ سيفًا التّميميّ زعم أنّ بدايات نزول المسلمين على أرض ذلك الإقليم كانت سنة ١٧هـ/٦٣٨م، وتخيّل أنّ العلاء بن الحضرميّ ﷺ - عامل البحرين - كان ينافس سعدًا ﷺ في أعمال الفتوح، فلمّا استعلى سعدٌ بالقادسيّة عبر العلاء الخليج إلى البرّ الفارسيّ دون إذن من الخليفة، فقصد إصْطَخَر - قاعدة الإقليم - وتغلّب على حامية السّواحل، وتابع زحفه باتّجاه المدينة، إلّا أنّه لم يؤمّن ظهره، فقطع الفرس عليه خطّ الرّجعة، ولم ينقذه سوى قرار أمير المؤمنين بإرسال مدد من حاميات البصرة، كما عزل العلاء بن الحضرميّ ﷺ جزاء مغامرته، وألزمه بأثقل الأشياء عليه، حيث وضعه تحت إمرة سعد وتصرّفه[٣].

ولا شكّ أنّ هذا القول من أكاذيب الإخباريّ سيف بن عمر التّميميّ، وعصبيّته ضدّ القبائل اليمنيّة، بل إنّ الطّبريّ الّذي لم يَنقُد سيفًا إلّا نادرًا نراه يصرّح هاهنا بكذبه في هذا الخبر[٤]؛ وذلك لأنّ العلاء بن الحضرميّ ﷺ لم يقم بهذه المجازفة قطّ، ولم يعص الخليفة على الإطلاق، ولم يحدث أن عاقبه أمير المؤمنين عمر ﷺ بعزله عن البحرين

---

(١) البلاذري: فتوح البلدان، ص٣٤٤، ٣٤٥؛ ياقوت: معجم البلدان، جا، ص١٢٩؛ محمّد سهيل طقوش: تاريخ الخلفاء الرّاشدين، ص٢٢٧.

(٢) محمّد سهيل طقوش: تاريخ الخلفاء الرّاشدين، ص٢٢٥.

(٣) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٤٩٧- ٤٩٩؛ الكلاعي: الاكتفاء بما تضمّنه من مغازي رسول الله والثّلاثة الخلفاء، ج٢، ص٥٤٧، ٥٤٨.

(٤) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٤٩٧.

ووضعه تحت إمرة منافسه سعد ﷺ! والثّابت أنّ عمر ﷺ عزل العلاء سنة ١٤هـ/٦٣٥م، وولّاه الأُبُلّة مكان عتبة بن غزوان ﷺ؛ بسبب تقصير الأخير في عمليّات الفتح صدر ولايته، ولكنّ العلاء مات في الطّريق قبل وصوله الأُبُلّة[١].

وقد انطلت كذبة سيف على بعض المؤرّخين الحديثين[٢]، فراحوا يبنون تغيّر الاستراتيجيّة العسكريّة لدى المسلمين والفرس خلال تلك السّنوات على تلك المغامرة المزعومة، وأنّ الفرس طمعوا لذلك في المسلمين، وتشجّعوا على مهاجمتهم.

والصّحيح أنّ المسلمين وصلوا إلى إقليم "فارس" عام ٢٣هـ/٦٤٤م[٣]، حيث أرسل الفاروق عمر ﷺ لفتحه ثلاثة ألوية من مدينة البصرة، فعقد لمجاشع بن مسعود السلميّ لفتح أَرْدَشِيرخُرَّة وسابور، وعثمان بن أبي العاص الأمويّ لفتح إصْطَخَر، وسارية بن زُنَيْم الكنانيّ إلى فَسَا ودَارَابْجِرْد[٤].

وبعد أن اجتازت الجيوش الثّلاثة أرجان دون مقاومة، توجّه كلّ أمير إلى وجهته المحدّدة، وفتحوا كامل الإقليم، ولم تواجههم أيّة معارك كبيرة؛ إنّما كانت عمليّات فتح أصل الإمبراطوريّة السّاسانيّة بمعارك صغيرة مقارنة بالبويب، والقادسيّة، وجلولاء، ونهاوند، وذلك بفعل قضاء المسلمين في تلك المعارك على القوّة الميدانيّة للإمبراطوريّة الفارسيّة المنهارة[٥].

وثبت عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما "أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ بَعَثَ جَيْشًا، وَأَمَّرَ عَلَيْهِمْ رَجُلاً يُدْعَى سَارِيَةَ[٦]، فَبَيْنَا عُمَرُ يَخْطُبُ النَّاسَ يَوْمًا، جَعَلَ يَصِيحُ وَهُوَ عَلَى الْمِنْبَرِ: يَا سَارِيَ

---

(١) ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٤، ص٣٦٢؛ خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٢٧؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص١٠٧، ١٠٨.

(٢) أكرم العمري: عصر الخلافة الرّاشدة، ص٣٦٢؛ عبد الشّافي محمّد عبد اللّطيف: بحوث في السّيرة النّبويّة والتّاريخ الإسلامي، دار السّلام، القاهرة، الطّبعة الثّانية، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، ص٢٢٠، ٢٢١؛ محمّد سهيل طقوش: تاريخ الخلفاء الرّاشدين، ص٢١٧.

(٣) أرّخ الواقديّ وسيْفُ التّميميّ فتح فارس في سنة ٢٣هـ. ابن حجر: الإصابة، ج٣، ص٥.

(٤) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٥٥١- ٥٥٤. وانظر البلاذري: فتوح البلدان، ص٤٠٦.

(٥) محمّد سهيل طقوش: تاريخ الخلفاء الرّاشدين، ص٢٢٧- ٢٣٠.

(٦) سارية بن زُنيم بن عبد الله الكنانيّ الدّئليّ، اختلف أهل الأخبار في صحبته، ورجّحها ابن حجر، وعلّل ذلك بأنّهم كانوا لا يؤمّرون إلّا الصّحابة. الإصابة في تمييز الصّحابة، ج٣، ص٤- ٦.



الْجَبَلَ، يَا سَارِيَ الْجَبَلَ، فَقَدِمَ رَسُولُ الْجَيْشِ فَسَأَلَهُ، فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، لَقِينَا عَدُوَّنَا فَهَزَمْنَاهُمْ، فَإِذَا بِصَايِحٍ يَصِيحُ: يَا سَارِيَ الْجَبَلَ، يَا سَارِيَ الْجَبَلَ، فَأَسْنَدْنَا ظُهُورَنَا بِالْجَبَلِ فَهَزَمَهُمُ اللَّهُ، فَقِيلَ لِعُمَرَ: إِنَّكَ كُنْتَ تَصِيحُ بِذَلِكَ"(١).

وقد عمل الرّاوية الكذوب سيف بن عمر التّميميّ على تشويه صورة أمير المؤمنين الفاروق عمر ﷺ عقب هذه الكرامة فأظهره في صورة من لا يغار على عرضه، ويدعو زوجه أمّ كلثوم بنت عليّ بن أبي طالب ﷺ إلى الاختلاط بالنّاس؛ فقد روى الخبيث أنّ سارية بن زنيم ﷺ بعث رسولاً من قبله إلى الفاروق ﷺ، فوافاه وهو يطعم النّاس، ثمّ انصرف معه إلى بيته، "فَلَمَّا جَلَسَ فِي الْبَيْتِ أُتِيَ بِغَدَائِهِ خُبْزٍ وَزَيْتٍ وَمِلْحٍ جَرِيشٍ، فَوُضِعَ وَقَالَ: أَلَا تَخْرُجِينَ يَا هَذِهِ فَتَأْكُلِينَ؟ قَالَتْ: إِنِّي لأَسْمَعُ حِسَّ رَجُلٍ، فَقَالَ: أَجَلْ، فَقَالَتْ: لَوْ أَرَدْتَ أَنْ أَبْرُزَ لِلرِّجَالِ اشْتَرَيْتَ لِي غَيْرَ هَذِهِ الْكِسْوَةِ، فَقَالَ: أَوَ مَا تَرْضِينَ أَنْ يُقَالَ: أُمُّ كُلْثُومٍ بِنْتُ عَلِيٍّ وَامْرَأَةُ عُمَرَ! فَقَالَتْ: مَا أَقَلَّ غَنَاءَ ذَلِكَ عَنِّي! ثُمَّ قَالَ لِلرَّجُلِ: ادْنُ فَكُلْ، فَلَوْ كَانَتْ رَاضِيَةً لَكَانَ أَطْيَبَ مِمَّا تَرَى"(٢).

ولم يتابع الخبيث على هذا الخبر المكذوب، ولا يعقل أن يطلب خليفة المسلمين الفاروق من زوجه "أمّ كلثوم" أن تجالس الرّجال وتواكلهم، وأنّ الّذي منعها من ذلك عدم لياقة ثيابها للجلوس مع الرّجال! وأنت عليمٌ بأنّ عمر ﷺ كان من أشدّ النّاس غَيرة(٣).

وقد استشنع عقل ابن الأثير (ت: ٦٣٠هـ/١٢٣٣م) نسبة مثل ذلك الخبر إلى الفاروق عمر ﷺ فحذفه من قصّة الرّسول والمؤاكلة(٤).

---

(١) أحمد بن حنبل: فضائل الصّحابة، ج١، ص٣٢٩- ٣٣١، ح٣٥٥؛ الآجُرّي: الشّريعة، ج٤، ص١٨٨٨، ١٨٨٩، ح١٣٦٠؛ السّلمي: الأربعون في التّصوف، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانيّة، الهند، الطّبعة الثّانية، ١٩٨١م، ص٣. وقال ابن كثير: "هذا إسناد جيّد حسن". البداية والنّهاية، ج٧، ص١٤٧. وحسّنه ابن حجر أيضًا. الإصابة في تمييز الصّحابة، ج٣، ص٥.

(٢) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٥٥٣، ٥٥٤.

(٣) محمّد عبد العال محمّد حسن: سيف بن عمر التّميميّ ومرويّاته في ميزان النّقد الموضوعيّ، مؤتمر التّاريخ بين التّصحيح والتّحريف، كلّيّة اللّغة العربيّة بأسيوط، ٢٠١٩م، ج١، ص٤٨٧.

(٤) الكامل في التّاريخ، ج٢، ص٤٢٢.

وأخبار الفاروق ﷺ مشهورة في مطالبته للنّبيّ ﷺ بحجب نسائه وعدم مجالستهنّ للرّجال، ونزول القرآن موافقًا لرأيه في ذلك[1]، كما تواترت الأخبار في شدّة غيرة الفاروق على حريمه.



خريطة رقم (٤) تبيّن موقع بلاد فارس الأصليّة. نقلاً عن سامي عبد الله أحمد المغلوث: أطلس الخليفة عمر بن الخطّاب، ص١٥٠.

🕮 فتح الولايات المجاورة لإقليم فارس:

لمّا كانت كَرْمان[2] تقع إلى الشّرق من إقليم فارس، وإلى الجنوب من صحراء خراسان وسجستان، ويحدّها من الجنوب بحر فارس، فقد وجّه الفاروق ﷺ جيشًا من البصرة لفتح هذا الإقليم، فتمّ فتحه سنة ٢٣هـ/٦٤٤م[3]، وكان عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي هو أمير الجيش الّذي فتح كِرمان، وقد فتح الطّبسين من كرمان، وهما بابا خراسان، ثمّ قدم على عمر ﷺ، وسأله أن يقطعه الطّبسين، ولكنّ الخليفة علم أنّهما

(١) محمّد عبد العال محمّد حسن: التّحقيقات العليّة في سيرة خير البريّة، ص٣٥٣.

(٢) كرمان: بفتح أوّله وكسره، والفتح أشهر. ياقوت: معجم البلدان، ج٤، ص٤٥٤.

(٣) البلاذري: فتوح البلدان، ص٤٠٩؛ الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٥٥٤.

رستاقان عظيمان، فلم يقطعه إيّاهما(١)، وكان يزدجرد بكرْمان، فلمّا هاجمها المسلمون خرج منها إلى خراسان(٢).

ولمّا حاول يزدجرد تعبئة أهالي سجستان(٣) لمقاومة الفتح الإسلاميّ، كان لزامًا على القيادة الإسلاميّة فتح هذا الإقليم، ولمّا عجزت جيوش سجستان عن صدّ المسلمين في أوّل حدودهم تراجعت إلى الدّاخل، وتحصّنت بالعاصمة زَرَنْج، ولم يزل المسلمون يحاصرونهم ويضيّقون عليهم بشنّ الغارات على الضّواحي، حتّى اضطرّ سكّان زرنج إلى طلب الصّلح، فصالحهم المسلمون على مدينتهم، وما احتازوا من الأرضين، وأن تكون مزارعهم حمىً لهم لا يمسّها المسلمون، وتمّ ذلك سنة ٢٣هـ/٦٤٤م(٤).

وتوجّه الحكم بن عمرو التّغلِبيّ إلى إقليم مُكْران(٥)، جنوب إقليم فارس، فاصطدم بحاكمها راسل، وانتصر عليه واستقرّ فيها(٦).

وسوف يواصل المسلمون فتوحاتهم نحو إقليم خراسان خلال عهد الخليفة اللّاحق عثمان بن عفّان ﷺ حتّى يتمّ القضاء على كسرى يزدجرد وتفتح كافّة الإمبراطوريّة الفارسيّة.

---

(١) الكلاعي: الاكتفاء بما تضمّنه من مغازي رسول الله ﷺ والثّلاثة الخلفاء، ج٢، ص٥٩٥. والخبر من رواية أبي الحسن المدائني.

(٢) محمّد سهيل طقوش: تاريخ الخلفاء الرّاشدين، ص٢٣٠.

(٣) يشغل إقليم سجستان حاليًا أجزاء من إيران وأفغانستان. محمّد سهيل طقوش: تاريخ الخلفاء الرّاشدين، ص٢٣٠.

(٤) البلاذري: فتوح البلدان، ص٤١٢؛ الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٥٥٤؛ محمّد سهيل طقوش: تاريخ الخلفاء الرّاشدين، ص٢٣٠.

(٥) مكران: ناحية واسعة جنوب بلاد فارس، يقع جزء منها حاليًا في دولة إيران، وأكثرها ضمن حدود باكستان. محمّد سهيل طقوش: تاريخ الخلفاء الرّاشدين، ص٢٣٠.

(٦) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٥٥٥؛ محمّد سهيل طقوش: تاريخ الخلفاء الرّاشدين، ص٢٣٠.

الفصل الخامس
فتوح البلاد الشّاميّة والجزيرة الفراتيّة

بدأ عمر ﷺ خلافته بعزل خالد بن الوليد ﷺ عن القيادة العامّة في الشّام وولّاها أبا عبيدة عامر بن الجرّاح ﷺ؛ لأنّ خالدًا يمتاز بطبيعته الّتي تدعو إلى الاستقلال والتّصرّف الحرّ، وهي تصادم رغبة الخليفة الجديد في الإشراف على الولاة والقادة، ولا يرضى عن مجازفة خالد بالمسلمين في المعارك، فكان لابدّ من عزله لتحقيق الانسجام بين الخليفة وقيادة الجيش، إضافة إلى حرص عمر الشّديد على عقيدة الجند بعدما أوشك بعضهم أن يفتتنوا بخالد ويعتقدوا أنّ النّصر لا يتحقّق إلّا بوجوده[١].

ولمّا علم خالد ﷺ بأمر عزله انطلق إلى أبي عبيدة ﷺ فاستغفر له، ولامه على إخفائه أمر العزل والتّولية واستمراره في الصّلاة خلفه، فكان ردّ أبي عبيدة أنّه ما كان ليكسر عليه حربه حتّى تنقضي، وأنّه لا يعمل للدّنيا، ولا سلطانها يريد، ولا يضرّه أن يلي عليه أخوه، في دينه ولا دنياه، ثمّ دفع إليه كتاب عمر ﷺ[٢].

🕮 موقعة فِحْلٍ - ذَات الرَّدَغَةِ:

وبعيدًا عن اختلاف المؤرّخين في تأريخها من حيث التّقديم والتّأخير، فيروي إمام المغازي محمّد بن إسحاق أنّ فلول الرّوم توجّهوا إلى فِحل[٣] الأردنيّة بعد "أجنادين"، وبثقوا في طريقهم أنهار بَيْسَانَ فصارت المنطقة وحلاً، ولم يعلم المسلمون بما فعلت الرّوم، فلمّا غشي الجندُ بيسان وحِلت خيولُهم، ولقُوا فيها عناءً، ثمّ سلّمهم اللَّهُ، وسمّيت بَيْسَانُ ذَاتَ الرَّدَغَةِ لما لقي المسلمون فيها، ولمّا فرغوا من بيسان نهضوا إلى الرّوم وهم بفِحْل[٤]، فكتب نصارى العرب الأردنيّون إلى المسلمين: "يا معشر المسلمين، أنتم أحبّ إلينا من الرّوم، وإن كانوا على ديننا، أنتم أوفى لنا، وأرأف بنا، وأكفّ عن ظلمنا، وأحسن ولاية علينا، ولكنّهم

---

(١) أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الرّاشدة، ص٣٧٢.

(٢) ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج٢، ص١٢٦؛ ابن كثير: البداية والنّهاية، ج٧، ص٢٨.

(٣) فِحْل: ضبطه ياقوت بكسر الفاء وسكون الحاء، وذكر أنّه اسم موضع بالشّام كانت فيه وقعة للمسلمين مع الرّوم، ويسمّى يوم الرّدغة، ويوم بيسان. معجم البلدان، ج٤، ص٢٣٧.

(٤) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٥٥. من رواية ابن إسحاق.



قد غلبونا على أمرنا وعلى منازلنا"، لكنّ كثرة عدد الرّوم وتتابع أمداد قيصر إليهم جعلتهم يتربّصون بالفريقين، ولا يستطيعون مصالحة المسلمين[١].

وكان المسلمون يحبّون معاجلة الرّوم؛ لأنّهم لم يكونوا مثلهم في الخصب وكفاية المؤن، وأمّا الرّوم فكانوا يحبّون مطاولة المسلمين؛ لما وجدوا من صبرهم وجدّهم، ونصر الله إيّاهم، ولذلك قاموا يفجّرون المياه بينهم وبينهم، ولكنّ المسلمين خاضوا في المياه، ومشوا في الوحل إليهم، فلمّا رأى الرّوم ذلك عسكروا للمسلمين ووطّنوا أنفسهم على القتال[٢]، فالتقى الفريقان في معركة شديدة، أبلى فيها خالد ﷺ بلاء حسنًا فهزمت الرّوم، وتمكّن المسلمون من دخول فِحْل، وذلك في ذي القعدة سنة ١٣هـ/٦٣٥م[٣]، وحاصر المسلمون سكّان فحل حتّى سألوا الأمان على أداء الجزية عن رؤوسهم والخراج عن أرضهم، فأمّنوهم على أنفسهم وأموالهم وأن لا تهدم حيطانهم[٤].

🕮 فتح الأُردنّ:

فتحت معركة فِحْل الطّريق أمام المسلمين للانسياح في الأراضي الأردنيّة، فقام شرحبيل بن حسنة ﷺ بفتح جميع الحصون والمدن الواقعة في إقليم الأُردنّ، مثل بَيْسان وطبريّة[٥]، وغلبَ الرّومَ على سواد بلاد الأردنّ، وأمّن السّكّان على أنفسهم وأموالهم وأولادهم وكنائسهم ومنازلهم[٦].

🕮 موقعة مرج الصُّفَر:

عندما توجّه المسلمون إلى دمشق نزل أبو عبيدة بباب الجابية، وعسكر خالد ﷺ بديْر مجاور للباب الشّرقيّ، عرف من يومئذ بديْر خالد، ونزل يزيد بن أبي سفيان ﷺ بباب

---

(١) الأزدي: فتوح الشّام، ص٩٧.

(٢) فتوح الشّام، ص٩٨.

(٣) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٥٥، ٣٥٦. من رواية ابن إسحاق.

(٤) البلاذري: فتوح البلدان، ص١٤٠.

(٥) يذكر خليفة بن خياط أنّ شرحبيل بن حسنة افتتح الأردنّ كلّها عنوة إلّا طبريّة، فإنّها فتحت صلحًا. تاريخ خليفة، ص١٢٩، ١٣٠.

(٦) البلاذري: فتوح البلدان، ص١٤٠.

آخر، وتوزّع بقيّة القادة على الأبواب الأخرى، وحصروا دمشق حصارًا شديدًا[١]، فكان المحاصَرون يرمون المسلمين بالنّشّاب من بعيد، ويلقون عليهم الحجارة إذا اقتربوا من أسوار المدينة[٢].

وبينما المسلمون يقاتلون الرّوم ويرجون فتح المدينة علم خالد بن الوليد ﷺ أنّ ملك الرّوم بعث جيشًا في خمسة آلاف رجل من أهل الشّدّة والقوّة لفكّ الحصار عن دمشق، فصحب الجيشَ الرّوميّ خلقٌ كثير من أهل حمص، وخرج إليهم أهل القوّة والشّدّة من دمشق فزاد الأعداء عن عشرة آلاف، وإزاء هذه التّطوّرات فكّ المسلمون الحصار عن دمشق، وقدّموا يزيد بن أبي سفيان ومعه النّساء والأثقال، ثمّ خرج خالدٌ وأبو عبيدة من وراء النّاس، فلمّا تصافّ الجمعان تقدّم خالدٌ أمام الصّفوف يحرّض النّاس على القتال، ويهوّن لهم شأن الرّوم، فحملت خيل الرّوم عندئذ على المسلمين، ودارت بين الطّرفين معركة شديدة نصر الله فيها المسلمين، وهربت فالّة الرّوم، فمنهم من دخل دمشق، ومنهم من أتى حمص، ومنهم من عاد أدراجه إلى قيصر، ورجع المسلمون لحصار دمشق[٣].

🕮 فتح دمشق:

كانت فلول الرّوم قد لحقت بمدينة دمشق السّوريّة بعد وقعة فِحْل، فتوجّه إليها المسلمون، وخرجت الرّوم لملاقاتهم، فاقتتل الفريقان قتالاً شديدًا فيما حول دمشق، ثمّ هزم الله الرّوم، وأصاب منهم المسلمون، ودخلت الرّوم دمشق فغلقوا أبوابها[٤].

وعاد المسلمون لحصار دمشق بعد هزيمتهم لجيش المرج الرّوميّ، وضيّقوا على أهلها فعجزوا عن قتالهم[٥]، فلمّا طال على صاحب دمشق انتظار مدد قيصر ورأى أنّ المسلمين لا يزدادون كلّ يوم إلّا قوّة وشدّة رضخ لمصالحة المسلمين، غير أنّ خالد بن الوليد ﷺ تمكّن وقتئذ من فتح الباب الشّرقيّ عنوة، فسارع صاحب دمشق لمصالحة أبي عبيدة ﷺ

---

(١) الأزدي: فتوح الشّام، ص٨١، ٨٢، ٨٤.

(٢) فتوح الشّام، ص٨٢.

(٣) فتوح الشّام، ص٨٢- ٨٤.

(٤) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٥٦. من طريق ابن إسحاق.

(٥) الأزدي: فتوح الشّام، ص٨٤؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص١٤٥، ١٤٦.



من ناحية باب الجابية[1]، وأقبل الرّوم على من يلي الأبواب الأخرى طالبين الصّلح، فدخل أصحاب تلك الأبواب صلحًا، وكان ذلك بعد ستّة أشهر من حصار المدينة، وأجرى أبو عبيدة الصّلح مع دمشق كلّها[2]، وذلك في شهر رجب سنة ١٤هـ/٦٣٥م[3].

وزعم سيف التّميميّ أنّ ابن عمّه القعقاع بن عمرو التّميميّ كان أوّل من تسلّق سور دمشق على الحبال الّتي أعدّها خالد بن الوليد ﷺ لتلك المهمّة[4].

وقد اعتاد سيفُ التّميميّ على مزاحمة سيف الله خالد بن الوليد ﷺ وأعماله بالقعقاع وبطولاته الأسطوريّة[5]، فتخيّل أنّ خالدًا ﷺ قام بفتْل كميّة من الحبال على هيئة السّلاليم، واحتفظ بها إلى أن واتته الفرصة لتسلّق السّور عندما اجتمع الدّماشقة للاحتفال بمولود لبطريق المدينة وتركوا أماكنهم على الأسوار، فلمّا أُخبر خالدٌ ﷺ بغفلة عدوّه نهد إلى السّور في جماعة من الأبطال، فسبقهم القعقاع في تسلّق السّور، وقام بدور كبير في ربط الحبال ومعاونة خالد ورجاله في تسلّق السّور[6].

والصّحيح أنّ خالد بن الوليد ﷺ كان يحاصر الباب الشّرقيّ لمدينة دمشق، وأنّه نزل على ديْر هناك، فسمّي لذلك "ديرَ خالد"[7]، وقد استمرّ في حصار المدينة حتّى جاءه نفرٌ من أهلها في إحدى اللّيالي، وأعلموه أنّها ليلة عيد، وأنّ الحرّاس مشغولون، وأشاروا عليه أن

---

(١) الأزدي: فتوح الشّام، ص٩٠- ٩١.

(٢) فتوح الشّام، ص٩١؛ الطّبري من رواية سيف التّميمي. تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٥٨. وتتّفق رواية أبي مخنف الشّيعيّ مع رواية سيف التّميميّ في دخول خالد بالقتال وأبي عبيدة بالصّلح. البلاذري: فتوح البلدان، ص١٤٧. ويجزم خليفة بن خياط بأنّ خالد بن الوليد فتح أحد أبواب دمشق عنوة، وأنّ أبا عبيدة بن الجرّاح أتمّ لهم الصّلح. تاريخ خليفة، ص١٢٦.

(٣) يتّفق محمّد بن إسحاق والأزديّ على هذا التّأريخ. فتوح الشّام، ص٢٤٩؛ الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٥٦.

(٤) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٥٨؛ ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج٢، ص١٣٠.

(٥) محمّد عبد العال محمّد حسن: مختلقات سيف بن عمر التّميميّ في تاريخ قومه، مجلّة كلّيّة اللّغة العربيّة بأسيوط، العدد ٣٨، ج٢، ص١٨٩٣.

(٦) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٣٥٨.

(٧) البلاذري: فتوح البلدان، ص١٢٣.

يلتمس سلّمًا للصّعود عليه، فأتاه أهل الدّيْر بسلّمين، فرقى خالدٌ ﷺ بجماعة من جنده على السّلّمين، وفتحوا الباب الّذي لم يكن عليه إلّا رجلٌ أو رجلان[1].

وقد تسلّم يزيد بن أبي سفيان ﷺ ولاية دمشق عقب فتحها، وقام بفتح مدن السّاحل، ففتح صيدا، وعِرْقة، وجبيل، وبيروت، وكان أخوه معاويةُ بن أبي سفيان ﭫ على مقدّمته[2]، ولم يبق من سواحل دمشق إلّا طَرَابُلُس[3].

📖 **فتح بعلبكّ وحمص وحَمَاة**:

توجّه أبو عبيدة ﷺ إلى حِمْص عن طريق بَعْلَبَكَّ[4]، فحاصرها حتّى طلب أهلها الأمان فأمّنهم وصالحهم[5]، وذلك سنة ١٤هـ/٦٣٥م[6]، ثمّ سار أبو عبيدة ومعه خالد بن الوليد ﷺ إلى حمص[7] فقاتلهم أهلها، ثمّ لجئوا إلى المدينة، فحاصرها المسلمون حصارًا شديدًا[8]، فما كان منهم إلّا مطالبتُهم للمسلمين بالتّوجّه إلى ملك الرّوم والقضاء عليه، ويدخلون في طاعتهم عند ذلك، فبثّ المسلمون خيولهم في نواحي أرضهم فأصابوا منهم غنائم كثيرة، وقطعوا عنهم المادّة والميرة، واشتدّ عليهم الحصار، وخشوا السّباء فأرسلوا يطلبون الصّلح، فصالحهم المسلمون، وكتبوا لهم أمانًا على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم[9]،

---

(١) البلاذري: فتوح البلدان، ص١٢٤.

(٢) فتوح البلدان، ص١٥١.

(٣) فتوح البلدان، ص١٥٢.

(٤) البلاذري: فتوح البلدان، ص١٥٥. وبَعْلَبَكُّ: مدينة قديمة من مدن لبنان، تقع على بعد خمسين كيلو مترًا شمال غرب دمشق، وقد سمّاها الإغريق قديمًا "هليوبولس"، أي مدينة الشّمس. ياقوت: معجم البلدان، جـ١، ص٤٥٣؛ عبد الحكيم العفيفي: موسوعة ألف مدينة إسلاميّة، أوراق شرقيّة للطّباعة والنّشر، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ص١١٥.

(٥) ابن الأثير: الكامل في التّاريخ، جـ٢، ص٣٢٢.

(٦) يؤرّخ ابن إسحاق وغيره فتح حمص وبعلبكّ في سنة ١٤هـ. خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٢٧.

(٧) حِمْص: مدينة قديمة عريقة في منتصف الطّريق بين دمشق وحلب. ياقوت: معجم البلدان، جـ٢، ص٣٠٢.

(٨) البلاذري: فتوح البلدان، ص١٥٤، ١٥٥.

(٩) الأزدي: فتوح الشّام، ص١٢٨.



وخلّف أبو عبيدة عبادة بن الصّامت الأنصاريّ ﷺ على حمص، وسار نحو حَمَاة[١] فتلقّاه أهلها مذعنين، فصالحهم على الجزية على رؤوسهم والخراج على أرضهم[٢].

📖 **فتح قِنّسْرِين**:

سار أبو عبيدة بن الجرّاح ﷺ إلى قِنّسْرِين[٣] وعلى مقدّمته خالد بن الوليد ﷺ، فقاتله أهل قنّسرين، ثمّ لجأوا إلى حصنهم وطلبوا الصّلح، فصالحهم أبو عبيدة على مثل صلح حمص، وغلب المسلمون على أرضها وقراها، ولمّا كان بنو تَنُوخ يسكنون قنّسرين منذ نزولهم الشّام فقد دعاهم أبو عبيدة إلى الإسلام فأسلم بعضهم[٤].

📖 **فتح حلب**:

كانت حَلَب[٥] من أعمال قنّسرين، فتوجّه إليها أبو عبيدة بن الجرّاح ﷺ وعلى مقدّمته عياض بن غَنْم القرشيّ الفهريّ ﷺ، فوجد أهلها قد تحصّنوا، فنزل عليها، فلم يلبث المحاصرون أن طلبوا الصّلح والأمان على أنفسهم وأموالهم وسور مدينتهم وكنائسهم ومنازلهم والحصن الّذي بها فأعطوا ذلك، واستثنى عليهم موضع المسجد[٦].

📖 **فتح أنطاكية**:

كانت مدينة أنْطَاكِيَة[٧] عاصمة الدّولة البيزنطيّة في بلاد الشّام، ومركز جيوشها، ومقرّ الإمبراطور البيزنطيّ هرقل ومأمنه، وقد لجأ إليها كثير من البيزنطيّين عند الفتح

---

(١) حَمَاة: مدينة في شمال سوريا، يتخلّلها نهر العاصي الشّهير، وفيها قسمان شهيران، شرقي يسمّى الضّاحية، وغربيّ يسمّى السّوق. عبد الحكيم العفيفي: موسوعة ألف مدينة إسلاميّة، ص٢٠٨.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان، ص١٥٥.

(٣) قِنّسْرين: مدينة شاميّة بسوريا، تقع في هضبة حلب الجنوبيّة، وتبعد عن حلب حوالي أربعين كيلو مترًا، وكانت قنّسرين كورة منها حلب في صدر الإسلام. ياقوت: معجم البلدان، ج٤، ص٤٠٤.

(٤) البلاذري: فتوح البلدان، ص١٦٩.

(٥) حلب: مدينة عريقة في شمال سوريا، تعدّ أهمّ المدن السّورية بعد العاصمة دمشق. عبد الحكيم العفيفي: موسوعة ألف مدينة إسلاميّة، ص٢٠٥.

(٦) البلاذري: فتوح البلدان، ص١٧١.

(٧) أنْطَاكِيَة: تقع الآن في جنوب تركيا بلواء الإسكندرونة، بينها وبين الحدود السّوريّة حوالي ثلاثين كيلو مترًا. عبد الحكيم العفيفي: موسوعة ألف مدينة إسلاميّة، ص٦٩.

الإسلاميّ لبلاد الشّام[1]، فتوجّه إليها أبو عبيدة بن الجرّاح ﷺ، وضرب عليها الحصار حتّى اضطرّ أهلها إلى طلب الصّلح، وأقرّوا بالجزية، فوافق أبو عبيدة على طلبهم، ودخل المسلمون المدينة، ونظرًا لأهمّيّة موقعها الحدوديّ فقد أمر الفاروقُ أبا عبيدة بترتيب مرابطة عليها من المقاتلين، وعدم قطع العطاء عنهم[2].

🕮 فتح اللّاذِقِيّة وأقاصي شمال الشّام:

لمّا استخلف أبو عبيدة عبادة بن الصّامت الأنصاريّ على حمص أتى اللّاذِقِيّة[3]، فقاتله أهلها، واعتصموا بأسوار المدينة وببابها العظيم، فلمّا رأى عبادة صعوبة مرامها، أمر جنده بحفر حفائر كالأسراب يستتر الرّجل وفرسه في الواحدة منها، فاجتهد المسلمون في حفرها حتّى فرغوا منها، ثمّ أظهروا القفول إلى حمص، فلمّا جنّ عليهم اللّيل عادوا إلى معسكرهم وحفائرهم دون علم أهل اللّاذقيّة، فلمّا أصبحوا فتحوا بابهم وأخرجوا سرحهم، فصبّحهم المسلمون، ودخلوا مدينتهم عنوة من بابها، وطلبوا الأمان على أن يتراجعوا إلى أرضهم، فقوطعوا على خراج يؤدّونه قلّوا أو كثروا، وتركت لهم كنيستهم، وأمر عبادة ببناء مسجدٍ جامعٍ باللّاذقيّة[4].

ولم يزل أبو عبيدة ﷺ يتابع الفتوح في أقاصي الشّمال لتأمين الفتوح الإسلاميّة في بلاد الشّام حتّى بلغ الفرات، ثمّ عاد منه إلى فلسطين[5].

🕮 فتح بيت المقدس:

كانت أوّل وقعة للمسلمين مع الرّوم ببلاد الشّام في عهد أبي بكر ﷺ على أرض فلسطين بقيادة عمرو بن العاص ﷺ[6]، ولمّا ظهر المسلمون على دمشق وجّه أبو عبيدة بن

---

(١) محمّد سهيل طقوش: تاريخ الخلفاء الرّاشدين، ص٢٦٥.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان، ص١٧٢، ١٧٣.

(٣) اللّاذقيّة: مركز محافظة اللّاذقيّة، وهي من أكبر المدن السّوريّة على ساحل البحر الأبيض المتوسّط. يحي شامي: موسوعة المدن العربيّة والإسلاميّة، ص٦٣.

(٤) البلاذري: فتوح البلدان، ص١٥٧.

(٥) فتوح البلدان، ص١٧٤.

(٦) فتوح البلدان، ص١٦٢.



الجرّاح ﷺ عمرو بن العاص ﷺ ليقيم بين الأردنّ وفلسطين ويبتعد عن المدائن والحصون، ويغير بخيله على الأطراف[1]، فعمل عمروٌ ﷺ على قطع الإمدادات عن مدينة بيت المقدس وحبسها حتّى يضطرّ أهلها إلى الاستسلام، ولذا فقد سيّر قوّاته إلى مدن السّاحل وغيرها من البقاع الفلسطينيّة، فتمّ فتح رَفَح، وغَزّة، وسَبَسْطِيّة، ونَابُلُس، واللُّدّ، وعَمَواس، وبيت جِبْرين (لغة في جبريل)، ويافّا، ثمّ ضرب الحصار على بيت المقدس[2].

ويزعم الأخباريّ سيف بن عمر التّميميّ أنّ القائد الرّوميّ "أرطبون" طلب مقابلة رجل من العرب إبّان حصار بيت المقدس فخرج إليه القائد عمرو بن العاص ﷺ بنفسه، فلمّا رأى الأرطبون الرّوميّ دهاءه وحسن ردّه، أوعز إلى البوّابين بقتله، ولكنّ عمرًا ﷺ علم بما يبيّته الأرطبون، فرجع إليه، وطلب منه أن يأذن له في إحضار العشرة الّذين يستشيرهم قائد المسلمين حتّى يسمع كلامهم، فطمع أرطبون في قتلهم، وأمر بعدم التّعرّض لعمرو، فلمّا نجا عزم على ألّا يعود لمثلها[3].

وقد روى الواقديّ[4] وابنُ الكلبيّ[5] هذه القصّة بين القائد عمرو بن العاص ﷺ وأمير غزّة، وأضاف الكلبيّ أنّ رجلاً من نصارى غسّان هو الّذي عرّف عمرًا ﷺ بأمر المكيدة عند خروجه، وأنّه عندما تمّ صلح غزّة مع المسلمين ودخل العلج على عمرو عرّفه بغدره ولم يؤاخذه عليه.

وكون القصّة مع بطريق غزّة في أوّل فتوح الشّام أقرب إلى المعقول وأولى بالقبول من رواية سيف التّميميّ الكذوب؛ لأنّه مشهور بكثرة تحريفه للأخبار التّاريخيّة، وقد كان عمرو بن العاص ﷺ من الشّهرة بمكان عند حصار بيت المقدس، بحيث لا يخفى شخصه على قادة الرّوم ورؤسائهم، بخلاف ذلك عند فتح غزّة؛ لأنّ أوّل صدام بين المسلمين والرّوم في بلاد الشّام كان على أرض غزّة.

---

(١) الأزدي: فتوح الشّام، ص٩٣.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان، ص١٦٢، ١٦٣.

(٣) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٤٤٧.

(٤) ابن سعد: الطّبقات الكبير، ج٥، ص٦٣، ٦٤.

(٥) ابن عبد ربّه: العقد الفريد، دار الكتب العلميّة، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤٠٤هـ، ج١، ص١١٢.

وليس للأرطبون هذا ذكرٌ في فتوح البلاد الشّاميّة أو الدّيار المصريّة إلّا من رواية الأخباريّ المجروح سيف بن عمر التّميميّ الكوفيّ، والرّاجح عندي أنّه بالغ في أخباره ليثبت لابن عمّه زياد بن حنظلة التّميميّ وقومه بطولاتٍ مزيّفةً على عادته في الاختلاق[١]، والعجيب أنّ سيف بن عمر يجعل زياد بن حنظلة التّميميّ حليفًا لبني عبد بن قصيّ القرشيّين[٢]، أو لبني عديّ القرشيّين[٣]، ويثبت له صحبة قديمة[٤]، ويجعله من المهاجرين الأوّلين[٥]، ثمّ لا يعرفه أحدٌ غيره[٦]، ولا يقف على ذكره أحدٌ من رواة السّير والمغازي الحجازيّين والعراقيّين والشّوام!

لكنْ المصادرُ الموثوقة تذكر "أُطْرُبُون" - الّذي يعني البطريق أو القائد – بأنّه بارز عبد الله بن سبرة الحرشيّ في إحدى الصّوائف فلقي حتفه على يد الحرشيّ[٧].

ونعود إلى بيت المقدس فنقول: لمّا فتح أبو عبيدة ﷺ قنّسرين ونواحيها قدم على عمرو بن العاص ﷺ وهو محاصر بيت المقدس[٨]، فبعث أبو عبيدة ﷺ لأهل إيليا - بيت المقدس - يعرض عليهم الأمان على أنفسهم وأموالهم فتثاقلوا وأبوا[٩]، فنزل عليهم وحاصرهم حصارًا شديدًا، وضيّق عليهم من كلّ جانب، فلمّا اشتدّ الأمر عليهم خرجوا

---

(١) ينظر ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج١٩، ص١٤٢- ١٤٥.

(٢) تاريخ دمشق، ج١٩، ص١٤٢.

(٣) ابن حجر: الإصابة في تمييز الصّحابة، ج٢، ص٤٨١.

(٤) ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج١٩، ص١٤٢.

(٥) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٥٣١؛ أبو الشّيخ الأصبهاني: طبقات المحدّثين بأصبهان، تحقيق/ عبد الغفور عبد الحقّ البلّوشيّ، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، الطّبعة الثّانية، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، ج١، ص٢٩١؛ أبو نعيم الأصبهاني: تاريخ أصبهان، تحقيق/ سيّد كسروي حسن، دار الكتب العلميّة، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، ج١، ص٤٢، ٤٣.

(٦) ذكر الإمام الدّارقطنيّ أنّ سيف بن عمر هو الّذي روى أخباره. المؤتلف والمختلف، ج١، ص٣٣٣.

(٧) أبو تمّام: الحماسة الصّغرى (الوحشيّات)، دار المعارف، القاهرة، ص٢٥، ٢٦؛ ابن قتيبة: عيون الأخبار، دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٤١٨هـ، ج١، ص٢٨٩؛ ابن حجر: الإصابة، ج٥، ص٩، ٦٩.

(٨) البلاذري: فتوح البلدان، ص١٦٣.

(٩) الأزدي: فتوح الشّام، ص٢١٩.

للقاء المسلمين، ولكنّهم انهزموا ودخلوا حصونهم، وكان سيف الله خالد بن الوليد ﷺ قد وَلِي قتالهم من جانب ويزيد بن أبي سفيان ﷺ من جانب آخر[1].

ولمّا قام أبو عبيدة بن الجرّاح ﷺ على حصار بيت المقدس بجيوش الشّام ورأى أهلُ المدينة أنّه غير مقلع عنهم ولا طاقة لهم به طلبوا مصالحته على أن يكون الصّلح بيد أمير المؤمنين عمر ﷺ، فقبل أبو عبيدة ﷺ ذلك، وأرسل إلى الخليفة يطلب منه المجيء إلى الشّام لمصالحة أهل بيت المقدس[2].

تحرّك الفاروق عمر ﷺ من المدينة على ناقة له، "ومعه أشراف النّاس، وبيوتات العرب، والمهاجرون والأنصار"[3]، وسار بهم حتّى نزل الجابية[4]، وخطب النّاس بها، ثم خرج من الجابية إلى إيلياء، فخرج إليه أبو عبيدة والمسلمون أجمعون يستقبلونه[5]، فلمّا قدم عليهم أُتي ببِرْذَونٍ[6] فركبه، فلمّا هزّه وهملج به كرهه، وعاد لناقته، فعرضت له مخاضةٌ فنزل عن ناقته، وخلع خُفّيهِ فوضعهما على عاتقه، فتعجّب أبو عبيدة ﷺ من صنيع عمر! وقال: "مَا يَسُرُّنِي أَنَّ أَهْلَ الْبَلَدِ اسْتَشْرَفُوكَ"، فصكّ عمر ﷺ في صدره، وقال له: "أَوَّهْ لَوْ يَقُلْ ذَا غَيْرُكَ أَبَا عُبَيْدَةَ جَعَلْتُهُ نَكَالاً لأُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، إِنَّا كُنَّا أَذَلَّ قَوْمٍ فَأَعَزَّنَا اللَّهُ بِالإِسْلَامِ فَمَهْمَا نَطْلُبُ الْعِزَّةَ بِغَيْرِ مَا أَعَزَّنَا اللَّهُ بِهِ أَذَلَّنَا اللَّهُ"[7].

---

(١) الأزدي: فتوح الشّام، ص٢٢١؛ الكلاعي: الاكتفاء بما تضمّنه من مغازي رسول الله والثّلاثة الخلفاء، ج٢، ص٣٠١.

(٢) الأزدي: فتوح الشّام، ص٢٢٣؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص١٦٣.

(٣) الأزدي: فتوح الشّام، ص٢٢٦؛ الكلاعي: الاكتفاء، ج٢، ص٣٠٤.

(٤) الجابية: قرية من أعمال دمشق، من ناحية الجولان، في شمال حوران. ياقوت: معجم البلدان، ج٢، ص٩١.

(٥) الأزدي: فتوح الشّام، ص٢٢٦- ٢٢٨؛ الكلاعي: الاكتفاء، ج٢، ص٣٠٤.

(٦) برذون: العظيم الخلقة من الخيل غير العربيّة، الجلد على المشي في الشّعاب، ويجلب من الرّوم غالبًا. الزّبيدي: تاج العروس، ج٣٤، ص٢٤٦، ٢٤٧.

(٧) ابن المبارك: الزّهد: تحقيق/ حبيب الرّحمن الأعظمي، دار الكتب العلميّة، بيروت، ص٢٠٧؛ أبو داود: الزّهد، ص٨٢، ح٦٦. واستدركه الحاكم على الشّيخين، وصحّحه على شرطهما، وأقرّه الذّهبيّ. المستدرك، ج١، ص١٣٠، ح٢٠٧. وتبعهما الألباني. سلسلة الأحاديث الصّحيحة، ج١، ص١١٧، ١١٨.

وقد عرض يزيد بن أبي سفيان الأمويّ ﷺ على أمير المؤمنين عمر بن الخطّاب ﷺ أن يلبس ثيابًا بيضًا، ويركب دابّة فارهة، ويطعم المسلمين من الطّعام الكثير الرّخيص، وعلّل ذلك بأنّه أبعد للخليفة في الصّوت، وأزين له في الأمر، وأعظم في الأعاجم، ولكنّ الفاروق ﷺ رفض ذلك قائلاً: "لا والله لا أدع الهيئة الّتي فارقت عليها صاحبيّ، ولا أتزيّن للنّاس بما أخاف أن يشينني عند ربّي، ولا أريد أن يعظم أمري عند النّاس ويصغر عند الله"[١]، ولم يزل عمر ﷺ على الأمر الأوّل الّذي كان عليه في حياة رسول الله ﷺ، وحياة أبي بكر ﷺ، حتى خرج من الدّنيا[٢].

ولمّا نزل عمر ﷺ بباب مدينة بيت المقدس واطمأنّ النّاس، بعث أبو عبيدة إلى أهل إيلياء، أن انزلوا إلى أمير المؤمنين، واستوثقوا لأنفسكم، فنزل إليه ابن الجعيد - وكان من المستعربة - في ناس من عظمائهم، فكتب لهم عمر ﷺ كتاب الأمان والصّلح[٣]، وشهد عليه خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعبد الرّحمن بن عوف، ومعاوية بن أبي سفيان، وهو كاتب الكتاب[٤]، فلمّا قبض المقادسة كتابهم وأمنوا، دخل النّاس بعضهم في بعض[٥]، والتقى عمر ﷺ بأمراء الأجناد، وزارهم في بيوتهم[٦]، وذلك سنة ١٦هـ/٦٣٧م[٧].

ويشيع القصّاص أنّ سكّان بيت المقدس وبطريقهم النّصرانيّ لم يسلّموا المدينة إلّا بنصٍّ دينيّ يتضمّن صفات الفاروق عمر ﷺ بصورة دقيقة[٨]، وأنّ كعب الأحبار الّذي كان

(١) الكلاعي: الاكتفاء بما تضمّنه من مغازي رسول الله والثّلاثة الخلفاء، ج٢، ص٣٠٥.

(٢) الأزدي: فتوح الشّام، ص٢٢٩؛ الكلاعي: الاكتفاء، ج٢، ص٣٠٦.

(٣) الأزدي: فتوح الشّام، ص٢٢٩؛ ابن أعثم: الفتوح، ج١، ص٢٢٧؛ الكلاعي: الاكتفاء، ج٢، ص٣٠٦.

(٤) ابن أعثم: الفتوح، ج١، ص٢٢٧؛ الكلاعي: الاكتفاء، ج٢، ص٣٠٦.

(٥) الأزدي: فتوح الشّام، ص٢٢٩.

(٦) الأزدي: فتوح الشّام، ص٢٣١؛ الكلاعي: الاكتفاء، ج٢، ص٣٠٦.

(٧) يؤرّخ أئمّة السّير كالوليد بن مسلم ومحمّد بن عائذ ويعقوب بن سفيان الفسويّ فتح بيت المقدس بسنة ١٦هـ، بينما يجعله سيف بن عمر التّميميّ في سنة ١٥هـ. ابن كثير: البداية والنّهاية، ج٧، ص٦٧. وهناك روايات أخرى تؤرّخ الفتح بسنة ١٧هـ. وينظر البلاذري: فتوح البلدان، ص١٦٣؛ الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٤٤٨- ٤٥٠؛ الكلاعي: الاكتفاء، ج٢، ص٣١٢.

(٨) الواقدي: فتوح الشّام، ج١، ص٣٢٢، وما بعدها.

يهوديًّا فأسلم يومئذ[١] كشف للخليفة عمر ﷺ عن بعض التّنبّؤات الإسرائيليّة بفتحها له منذ خمسمائة سنة[٢].

ولا يخفى أنّ المكانة العظيمة للمدينة المقدّسة عند أهل الكتاب والمسلمين قد سرحت بخيالات بعض الرّواة، فأفرزت مثل هذه المبالغات والأساطير[٣].

ومن ناحية أخرى يظهر لونٌ آخر من تزييف التّاريخ بدافعٍ من التّملّق للسّلطة الحاكمة الّتي كتب تاريخ صدر الإسلام في أيّامها[٤]، حيث تزعم إحدى الرّوايات المكذوبة أنّ الفاروق عمر ﷺ استخلف عليًّا ﷺ عند خروجه إلى الشّام فقال له: "أين تخرج بنفسك؟ إنّك تريد عدوّا كَلِبًا، فقال: إنّي أبادر بجهاد العدوّ موت العبّاس، إنّكم لو فقدتم العبّاس لانتقض بكم الشّرّ كما ينتقض الحبل"[٥].

وقد علّق الحافظ أبو القاسم بن عساكر على هذه الرّواية فقال: "مات العبّاس لستّ سنين خلت من إمارة عثمان، فانتقض والله بالنّاس الشّرّ"[٦]، وزاد المتّقي الهنديّ (ت: ٩٧٥هـ/١٥٦٧م) بأنّ لها حكم الرّفع[٧].

وليس الأمر كما قالا؛ لأنّ هذه الرّواية من طريق سيف بن عمر التّميميّ الكذّاب الّذي أذاع رواياته وكتبه في العصر العبّاسيّ الأوّل، ووضع كثيرًا من الأخبار في فضائل العبّاس ﷺ مجاملة للسّلطة الحاكمة[٨].

وقام عمر ﷺ خطيبًا في النّاس يومئذ، فحمد الله، وأثنى عليه بما هو أهله، وصلّى على النّبيّ ﷺ، ثمّ قال: "يا أهل الإسلام، إنّ الله قد صدقكم الوعد، ونصركم على الأعداء،

(١) وكان كعب رجلاً من العرب يمنيًا من حمير. الأزدي: فتوح الشّام، ص٢٣٣، ص٢٣٦.

(٢) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٤٥٠.

(٣) حمدي شاهين: الدّولة الإسلاميّة في عصر الخلفاء الرّاشدين، ص٢٠٤- ٢٠٧.

(٤) الدّولة الإسلاميّة في عصر الخلفاء الرّاشدين، ص٢٠٧.

(٥) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٤٤٩.

(٦) تاريخ دمشق، ج٢٦، ص٣٧٢.

(٧) كنز العمّال من سنن الأقوال والأفعال، ج١٣، ص٥١٧.

(٨) محمّد عبد العال محمّد حسن: سيف بن عمر التّميميّ ومرويّاته في ميزان النّقد الموضوعيّ، مؤتمر التّاريخ بين التّصحيح والتّحريف، كلّيّة اللّغة العربيّة بأسيوط، ٢٠١٩م، ج١، ص٤٧٧، ٤٧٨.

وأورثكم البلاد، ومكّن لكم في الأرض، فلا يكن جزاء ربّكم إلّا الشّكر، وإيّاكم والعملَ بالمعاصي، فإنّ العمل بالمعاصي كفرٌ للنّعم، وقلّ ما كفر قومٌ بما أنعم الله عليهم ثمّ لم يفزعوا إلى التّوبة إلّا سُلبوا عزّهم، وسلّط عليهم عدوُّهم"(١).

ولمّا حضرت الصّلاة طلب عمر ﷺ من بلال بن رباح ﷺ أن يؤذّن لهم، فقال: "يا أمير المؤمنين، أما والله ما أردتُّ أن أؤذّن لأحد بعد رسول الله ﷺ ولكن سأطيعك اليوم إذ أمرتني في هذه الصّلاة وحدها. فلمّا أذّن بلالٌ وسمعت الصّحابة صوته، ذكروا نبيّهم ﷺ فبكوا بكاءً شديدًا، ولم يكن يومئذ أحدٌ أطول بكاء من أبي عبيدة ومعاذ بن جبل، حتّى قال لهما عمر: حسبكما رحمكما الله"(٢).

ويدلّ التّاريخ المسطور في العهدة العمريّة الّتي صالح فيها الخليفة نصارى بيت المقدس، وأمّنهم على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم على أنّه ملحقٌ بها وليس أصليًّا فيها؛ لأنّ التّقويم الإسلاميّ بالهجرة النّبويّة لم يبدأ إلّا في سنة ١٦هـ/٦٣٧م(٣)، أو ما بعدها، فكيف ينصّ في العهدة على أنّها كتبت "سنة خمس عشرة"(٤).

ورُوي أنّ الفاروق استشار كعب الأحبار في الموضع الّذي يصلّي فيه ببيت المقدس وقال له: "أَيْنَ تُرَى أَنْ أُصَلِّيَ؟ فَقَالَ: إِنْ أَخَذْتَ عَنِّي صَلَّيْتَ خَلْفَ الصَّخْرَةِ، فَكَانَتِ الْقُدْسُ كُلُّهَا بَيْنَ يَدَيْكَ، فَقَالَ عُمَرُ: ضَاهَيْتَ الْيَهُودِيَّةَ، لَا، وَلَكِنْ أُصَلِّي حَيْثُ صَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ، فَتَقَدَّمَ إِلَى الْقِبْلَةِ فَصَلَّى، ثُمَّ جَاءَ فَبَسَطَ رِدَاءَهُ فَكَنَسَ الْكُنَاسَةَ فِي رِدَائِهِ، وَكَنَسَ النَّاسُ"(٥).

---

(١) الأزدي: فتوح الشّام، ص٢٣١؛ الكلاعي: الاكتفاء، ج٢، ص٣٠٦.

(٢) الأزدي: فتوح الشّام، ص٢٣١، ٢٣٢؛ الكلاعي: الاكتفاء، ج٢، ص٣٠٦.

(٣) ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٣، ص٢٨١؛ البلاذري: أنساب الأشراف، ج١٠، ص٣٢٢.

(٤) محمّد سهيل طقوش: تاريخ الخلفاء الرّاشدين، ص٢٧٧.

(٥) أحمد بن حنبل: المسند، ج١، ص٣٧٠، ح٢٦١. وضعّف المحقّقون إسناده لضعف أبي سنان عيسى بن سنان الحنفي القَسْمَلي. لكن اختاره الضّياء المقدسيّ، وقال: "أبو سنانٍ اسمه عيسى بنُ سنانٍ القَسْمَلِيُّ، وثّقه بعضهم، وضعّفه بعضهم، روى له أبو داودَ والتّرمذيّ وابنُ ماجهْ"، وحسّن الدّكتور عبد الملك دهيش إسناده. الأحاديث المختارة، ج١، ص٣٥٠، ٣٥١، ح٢٤١. وقد دافع ابن كثير عن هذا الأثر، وحسّن إسناده. مسند الفاروق، تحقيق/ عبد المعطي قلعجي، دار الوفاء، المنصورة، الطّبعة الأولى، ١٤١١هـ/١٩٩١م، ج١، ص١٦٠. وقال في تاريخه الشّهير: "إسناده جيّد". البداية والنّهاية، ج٧، ص٩٨.



ولمّا انتهت مهمّة الخليفة عمر ﷺ رجع إلى المدينة، فاستقبله النّاس يهنّئونه بالنّصر والفتح، فسار حتّى دخل مسجد النّبيّ ﷺ فصلّى فيه ركعتين، وخطب في النّاس، فأمرهم أن يحمدوا الله - تعالى - ويشكروه حتّى يديم عليهم نصره ونعمه(١).

📖 فتح قَيْسارِيّة:

بدأ عمرو بن العاص ﷺ في فتح قَيْسَارِيّة(٢) سنة ١٣هـ/٦٣٤م، ولكنّها استعصت عليه؛ لأنّ الحصار كان متقطّعًا، فكان عمروٌ يقيم عليها ما أقام، فإذا كان للمسلمين اجتماع في أمر عدوّهم سار إليهم(٣).

ولمّا استعصت قيساريّة على عمرو بن العاص ﷺ كلّف الخليفة عمر ﷺ يزيد بن أبي سفيان ﷺ بفتحها سنة ١٥هـ/٦٣٦م، فوكّل أخاه معاوية ﷺ بمحاصرتها(٤)، فسار إليها وحاصرها معاوية طويلاً، وزاحف أهلها مرّات عديدة، وصمّم على فتحها، واجتهد في القتال حتّى فتح الله عليه سنة ١٩هـ/٦٤٠، وبعث معاوية بالفتح والأخماس إلى عمر ﷺ(٥).

📖 فتح الجزيرة الفراتيّة:

كان على المسلمين بعد فتح العراق والشّام أن يبلّغوا الإسلام إلى أهل الجزيرة(٦) ويزيحوا عنها الرّوم الّذين يحجبون أهلها عن الحقّ ويستخدمونهم في قتال المسلمين.

ومن ناحية أخرى، فقد كان فتح هذا الإقليم ضرورة عسكريّة، وخطوة صائبة لتثبيت الفتوح الإسلاميّة في العراق والشّام، وإحكام السّيطرة على القبائل العربيّة، وقطع صلاتها ببيزنطة، ووقف تجنيد العرب في الجيش البيزنطيّ(٧).

---

(١) الأزدي: فتوح الشّام، ص٢٣٩، ٢٤٠.

(٢) قيساريّة: مدينة فلسطينية بين عكّا ويافًا على ساحل البحر. ياقوت: معجم البلدان، جـ٤، ص٤٢١.

(٣) البلاذري: فتوح البلدان، ص١٦٤.

(٤) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٢، ص٤٤٧.

(٥) القاسم بن سلّام: الأموال، ص١٣٣؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص١٦٥- ١٦٧. وتختلف روايات أهل الأخبار في تأريخ فتح مدينة قيساريّة بين سنوات ١٥، ١٩، ٢٠هـ.

(٦) الجزيرة: الإقليم الّذي يقع في شمال العراق بين نهري دجلة والفرات، ويطلق عليها الجزيرة الفراتيّة.

(٧) محمّد سهيل طقوش: تاريخ الخلفاء الرّاشدين، ص٢٦٥، ٢٦٦.

وترجع فتوح الجزيرة الفراتيّة كلّها إلى عياض بن غَنْم الفهريّ ﷺ، فإنّه لمّا توفّي أبو عبيدة ﷺ في طاعون عَمَواس سنة ١٨هـ/٦٣٩م، لم يلبث الفاروق ﷺ أن ولّى عياض بن غنم على حمص وقنّسرين والجزيرة، فخرج إليها، فأتى الرَّقّة[١]، فحاصرها وفتحها صلحًا، فكانت أولى مدن الجزيرة الّتي فتحها المسلمون، وواصل تقدّمه إلى الرُّها[٢] ففتحها صلحًا بعد مقاومة استمرّت ستّة أيّام، وأمّن أهلَ المدينة على أنفسهم وأموالهم، وأقرّوا بالجزية والخراج، واشترط عليهم أن يصلحوا الجسور للمسلمين، وأن يرشدوا من ضلّ الطّريق منهم، ثمّ تقدّم إلى حَرّان[٣]، فصالحه أهلها على صلح الرُّها، وأرسل فرقة عسكريّة فتحت سُمَيْسَاط[٤]، ولم يلبث أهل المدن الأخرى مثل قَرْقِيسْياء، وآمِد[٥]، وماردِين[٦] أن طلبوا

---

(١) الرَّقَّة: يطلق أصل الرّقّة على كلّ أرض إلى جنب واد ينبسط عليها الماء، وتقع في وسط الجزيرة الفراتيّة على نهر الفرات، وهي مركز محافظة الرّقة، في الشّمال الشّرقيّ من سوريا. ياقوت: معجم البلدان، ج٣، ص٥٨؛ يحيى شامي: موسوعة المدن العربيّة والإسلاميّة، ص٦١.

(٢) الرُّها أو الرُّهاء: مدينة بالجزيرة بين الموصل والشّام، وهي الآن مركز ولاية الرّها، ومن أكبر المدن التّركيّة في الجنوب الشّرقيّ من البلاد على الحدود السّوريّة التّركيّة. ياقوت: معجم البلدان، ج٣، ص١٠٦؛ يحيى شامي: موسوعة المدن العربيّة والإسلاميّة، ص٣١٥.

(٣) حرّان: مدينة عظيمة مشهورة من جزيرة أقور، وتقع على الضّفة الشّرقيّة لنهر بليخ أحد روافد الفرات، وعلى طريق الموصل والشّام والرّوم، وكانت قصبة ديار مضر، وهي الآن مدينة تركيّة صغيرة على الحدود السّوريّة التّركيّة. ياقوت: معجم البلدان، ج٢، ص٢٣٥؛ يحيى شامي: موسوعة المدن العربيّة والإسلاميّة، ص٣١٣.

(٤) سُمَيْسَاط: مدينة على شاطئ الفرات في طرف بلاد الرّوم على غربي الفرات، وهي الآن مدينة تركيّة، من مدن آسيا الصّغرى. ياقوت: معجم البلدان، ج٣، ص٢٥٨؛ عبد الحكيم العفيفي: موسوعة ألف مدينة إسلاميّة، ص٢٨٧.

(٥) آمِد: يظنّ ياقوت الحموي أنّها لفظة روميّة، وهي أعظم مدن ديار بكر، وأجلّها قدرًا، وأشهرها ذكرًا. ياقوت: معجم البلدان، ج١، ص٥٦. وهي الآن مدينة تركيّة، من مدن ديار بكر.

(٦) مارِدِين: جمع مارد، وهي قلعة مشهورة على قنّة جبل الجزيرة، مشرفة على دنيسر ودارا ونصيبين، وذلك الفضاء الواسع، وهي الآن مدينة تركيّة، تقع في الجنوب الشّرقيّ من البلاد على الحدود السّوريّة التّركيّة، جنوب ديار بكر، وغربي نصيبين. ياقوت: معجم البلدان، ج٥، ص٣٩؛ يحيى شامي: موسوعة المدن العربيّة والإسلاميّة، ص٣٢٠.

الصّلح بشروط الرُّها، فأجابهم عياض بن غنْم ﷺ، ثمّ واصل فتوحه في عام ١٩هـ/٦٤٠م، ففتح مَيّافارِقين[١]، وكَفْرتُوْثَا[٢]، ونَصِيبِين[٣]، وأَرْزَن[٤]، وسائر بلاد الجزيرة[٥].

وقد أدّى فتح الجزيرة الفراتيّة إلى فصل بيزنطة عن القبائل العربيّة الموالية لها، وحرمانها من قوّتهم البشريّة، كما قضى على إمكان قيام تحالف بين البيزنطيّين والفرس ضدّ المسلمين، وحال دون قيام بيزنطة بإنقاذ الإمبراطوريّة الفارسيّة المتداعية[٦].

🕮 تسامح المسلمين مع أهل الذّمّة وأثره في انتشار الإسلام:

لقد رحّب أهالي الشّام والجزيرة الفراتيّة بالفتح الإسلاميّ، حبًّا في الخلاص من ظلم الرّومان، ورغبة في الخلاص من الخدمة العسكريّة، وأملاً في التّمتّع بالحرّيّة الدّينيّة؛

---

(١) ميّافارِقين: كانت أشهر مدن ديار بكر، والآن مدينة تركيّة صغيرة، شمال شرق ديار بكر، بين دجلة والفرات. ياقوت: معجم البلدان، ج٥، ص٢٣٥؛ يحيى شامي: موسوعة المدن العربيّة، ص٣٢٤.

(٢) كفر تُوْثا. قرية كبيرة من أعمال الجزيرة، بالقرب من ماردين، وقد أهمل ياقوت ضبط المقطع الأوّل "كفر"، وضبط الثّاني "تُوْثا" بضمّ التّاء وسكون الواو. أمّا ابن الأثير فقد ضبطها بفتح الكاف، وسكون الفاء، لكن خالفه السّيوطيّ فضبطها بفتحتين وسكون الرّاء. وعندي أنّ ابن الأثير أدرى بضبط بلاده. ياقوت: معجم البلدان، ج٥، ص٢٣٥؛ ابن الأثير: اللّباب في تهذيب الأنساب، ج٣، ص١٠٣؛ السّيوطيّ: لبّ اللّباب في تحرير الأنساب، دار صادر بيروت، بدون تاريخ طبع، ص٢٢٣.

(٣) نَصِيبِين: مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على طريق القوافل من الموصل إلى الشّام، ومن أشهر مدن الجزيرة وديار بكر، وهي الآن مدينة تركيّة، ، تقع في الجنوب الشّرقيّ من البلاد على الحدود السّوريّة التّركيّة، على مقربة من ماردين، وتكاد تلتصق بمدينة القامشلي السّوريّة. ياقوت: معجم البلدان، ج٥، ص٢٨٨؛ يحيى شامي: موسوعة المدن العربيّة والإسلاميّة، ص٣٢٦.

(٤) أَرْزَن: مدينة مشهورة قرب خلاط، ولها قلعة حصينة، وكانت من أعمر نواحي إرمينية، وهي من كور الجزيرة، وقد فتحت صلحًا على يد عياض بن غنم بعد فراغه من الجزيرة سنة ٢٠هـ، على مثل صلح الرّها. ياقوت: البكري: المسالك والممالك، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٢م، ج١، ص٤٩١؛ معجم البلدان، ج١، ص١٥٠. وهي في تركيا الآن.

(٥) القاسم بن سلّام: الأموال، ص١٣٢، ٢٦٧؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص١٩٥- ٢٠٠؛ النّويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، دار الكتب والوثائق القوميّة، القاهرة، الطّبعة الأولى، ١٤٢٣هـ، ج١٩، ص١١١- ١١٣؛ محمّد سهيل طقوش: تاريخ الخلفاء الرّاشدين، ص٢٦٦.

(٦) محمّد سهيل طقوش: تاريخ الخلفاء الرّاشدين، ص٢٦٦- ٢٦٧.

لأنّ الدّولة البيزنطيّة كانت تُجبر رعاياها على اعتناق مذهبها بالعنف والاضطهاد، أمّا المسلمون فكانوا يبيحون لأهالي البلدان المفتوحة أن يتمسّكوا بدينهم ويمارسوا شعائرهم الدّينيّة مقابل الجزية[١].

ولأجل هذه المعاملة الّتي لقيها أهل الذّمّة من الخلفاء الرّاشدين وسلوك المسلمين بينهم نرى غالبيّة المسيحيّين ينجرفون للدّخول في الإسلام[٢]، "ولو أنّ المسلمين حاولوا إدخالهم في الإسلام بالقوّة عندما انضووا بادئ الأمر تحت لواء الحكم الإسلاميّ لما كان من الممكن أن يعيش المسيحيّون بين ظهرانيهم حتّى عصر الخلفاء العبّاسيّين"[٣].

وقد استعرض المستشرق البريطانيّ توماس أرنولد (ت: ١٩٣٠م) نماذج من معاملة المسلمين للنّصارى في الشّام والعراق ثمّ قال: "ومن هذه الأمثلة الّتي بسطناها آنفًا عن ذلك التّسامح الّذي بسطه المسلمون الظّافرون إلى العرب المسيحيّين في القرن الأوّل من الهجرة، واستمرّ في الأجيال المتعاقبة، نستطيع أن نستخلص بحقّ أنّ هذه القبائل المسيحيّة الّتي اعتنقت الإسلام، إنّما فعلت ذلك عن اختيار وإرادة حرّة، وأنّ العرب المسيحيّين الّذين يعيشون في وقتنا هذا بين جماعات مسلمة لشاهد على هذا التّسامح"[٤].

وظهر أثر عدل المسلمين وتسامحهم مع أهل الذّمّة عندما حاول هرقل العودة بجيوشه إلى بلاد الشّام، فقد "أغلق أهل حمص أبواب مدينتهم دون جيش هرقل، وأبلغوا المسلمين أنّ ولايتهم وعدلهم أحبّ إليهم من ظلم الإغريق وتعسّفهم"[٥].

وقد أثبت البلاذريّ (ت: ٢٧٩هـ/٨٩٢م) هذه الحادثة فذكر أنّ هرقل لمّا جمع الجموع لإخراج المسلمين من بلاد الشّام، وبلغ المسلمين إقبالهم ردّوا على أهل حمص ما كانوا أخذوا منهم من الخراج وقالوا لهم: "قد شُغلنا عن نصرتكم والدّفع عنكم فأنتم على

---

(١) نبيل لوقا بباوي: انتشار الإسلام بحدّ السّيف بين الحقيقة والافتراء، ص١٤٥.

(٢) توماس أرنولد: الدّعوة إلى الإسلام، ترجمة/ حسن إبراهيم حسن، وآخرين، مكتبة النّهضة المصريّة، ١٩٧١م، ص٦٥.

(٣) الدّعوة إلى الإسلام، ص٦٨.

(٤) الدّعوة إلى الإسلام، ص٦٩، ٧٠.

(٥) الدّعوة إلى الإسلام، ص٧٣.



أمركم، فقال أهل حمص: لولايتكم وعدلكم أحبّ إلينا ممّا كنّا فيه من الظّلم والغشم ولندفعنّ جند هرقل عن المدينة مع عملكم، ونهض اليهود فقالوا: والتّوراة لا يدخل عامل هرقل مدينة حمص إلّا أن نغلب ونجهد، فأغلقوا الأبواب وحرسوها، وكذلك فعل أهل المدن الّتي صولحت من النّصارى واليهود، وقالوا: إن ظهر الرّوم وأتباعُهم على المسلمين صرنا إلى ما كنّا عليه، وإلّا فإنّا على أمرنا ما بقي للمسلمين عددٌ، فلمّا هزم الله الكفرة وأظهر المسلمين فتحوا مدنهم وأخرجوا المقلّسين[1] فلعبوا، وأدّوا الخراج، وسار أبو عبيدة إلى جند قِنّسرين وأنطاكية ففتحها"[2].

وكان أهل الشّام يقولون لمن يلومهم على التّمسّك بالمسلمين: "دماؤنا محقونة، وأموالُنا موفورة، وسبلُنا آمنة، وأعراضنا مصونة، وأهل ديننا يفتضّون أبكارنا، ويشربون خمورنا، ويأكلون ودوابُّهم أقواتنا وعلف مواشينا، ويسخّروننا لمعونتهم"! ويعلّق القاضي المعتزليّ عبد الجبّار الهَمَذانيّ (ت: ٤١٥ هـ/١٠٢٥م) على هذا الموقف بقوله: "فهل سمع النّاسُ بمن يأمن عدوّه"؟[3].

وقد كانت الحرّيّة الدّينيّة الّتي منحها المسلمون لنصارى الشّام أحبّ إلى نفوسهم من ارتباطهم بالدّولة الرّومانيّة وبأيّ حكومة مسيحيّة، ولم تكد المخاوف الأولى الّتي أثارها نزول جيشٍ فاتحٍ في بلادهم تتبدّد حتّى أعقبها تحمّسٌ قويّ لمصلحة العرب الفاتحين[4].

---

(١) القَلْس والتَّقْليس: الضّرب بالدّفّ والغناء. والمُقَلِّس: الّذي يلعب بين يدي الأمير إذا قدم المصر- ياقوت: معجم البلدان، جـ٦، ص١٨٠.

(٢) فتوح البلدان، ص١٣٩.

(٣) تثبيت دلائل النّبوّة، جـ٢، ص٣٢٧.

(٤) توماس أرنولد: الدّعوة إلى الإسلام، ص٧٤.

الفصل السّادس

فتوح مصـر

لقد بدأت دعوة النّبيّ ﷺ لقبط مصر إلى الإسلام عقب صلح الحديبية في أواخر السّنة السّادسة من الهجرة، وذلك عندما أرسل النّبيّ ﷺ حاطب بن أبي بلتعة ﷺ بكتاب إلى المقوقس(١) عظيم القبط، يدعوه إلى الإسلام(٢).

وعلى الرّغم من عدم استجابة المقوقس للإسلام فإنّه ردّ ردًّا جميلاً، وبعث للنّبيّ ﷺ بعض الهدايا فقبلها منه(٣).

وكان رسول الله ﷺ قد بشّر أصحابه ﷺ بفتح مصر وأوصاهم بأهلها خيرًا فقال: "إِنَّكُمْ سَتَفْتَحُونَ مِصْرَ، وَهِيَ أَرْضٌ يُسَمَّى فِيهَا الْقِيرَاطُ، فَإِذَا فَتَحْتُمُوهَا، فَأَحْسِنُوا إِلَى أَهْلِهَا، فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحِمًا، أَوْ قَالَ: ذِمَّةً وَصِهْرًا"(٤). ولذا كان المسلمون موقنين بفتح البلاد المصريّة لهذه البشارة النّبويّة.

---

(١) المقوقس: لم يكن "المقوقس" اسمًا لرجل؛ وإنّما كان لقبًا أو اسمًا لوظيفة، وكان اسمه "جورج"، وهو الّذي تذكره المصادر العربيّة باسم جريج بن قرقب الرّوميّ، وتورد المصادر العربيّة اسمًا آخر للمقوقس هو "قيرس"، وهو الاسم الّذي ينطقه اليونانيّون سيروس **Cyrus** وهذا يدلّ على أنّ المقوقس الّذي أرسل له النّبيّ ﷺ الكتاب غير الّذي فتحت مصر في أيّامه. أحمد عادل كمال: الفتح الإسلاميّ لمصر، الشركة الدّوليّة للطباعة، القاهرة، الطّبعة الأولى، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م، ص٨٢، ٨٣.

(٢) ابن هشام: السّيرة النّبويّة، ج٢، ص٦٠٧.

(٣) روى بُريدة ﷺ أنّ المقوقس أهدى إلى النّبيّ ﷺ جاريتين أختين، إحداهما: مارية أمّ إبراهيم ابن رسول الله ﷺ، والأخرى: وهبها النّبيّ ﷺ لحسّان بن ثابت ﷺ، وأهدى له بغلةً فقبل رسول الله ﷺ ذلك. البزّار: المسند (البحر الزّخّار)، ج١٠، ص٣٠٤، ح٤٤٢٣. وقال الهيثمي: "رجال البزّار رجال الصّحيح". مجمع الزّوائد، ج٤، ص١٥٢، ح٦٧٥١.

(٤) أحمد بن حنبل: المسند، ج٣٥، ص٤٠٩، ح٢١٥٢٠؛ مسلم: الصّحيح، (كتاب فضائل الصحابة، باب وصيّة النّبيّ ﷺ بأهل مصر)، ج٤، ص١٩٧٠، ح٢٥٤٣. وصحّ عن كعب بن مالك ﷺ أنّ النّبيّ ﷺ قال: "إِذَا افْتَتَحْتُمْ مِصْر فَاسْتَوْصُوا بِالْقِبْطِ خَيْرًا فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحِمًا"، وعلّق الزّهريّ بقوله: "فَالرَّحِمُ أَنَّ أُمَّ إِسْمَاعِيلَ مِنْهُمْ". الحاكم: المستدرك على الصّحيحين، ج٢، ص٦٠٣، ح٤٠٣٢. وصحّحه الحاكم على شرط الشّيخين، وأقرّه الذّهبيّ.

ويترجّح من مجموع الرّوايات الواردة في بدء فتح مصر[1]، أنّ عمرو بن العاص ﷺ هو الّذي عرض فكرة الفتح على الخليفة عمر ﷺ عندما أتى الجابية للمرّة الثّانية عام ١٨هـ/٦٣٩م، وأنّ عمرو بن العاص لم يتحرّك إلى مصر إلّا بإذن من الخليفة[2].

عقد الفاروق عمر ﷺ لعمرو بن العاص ﷺ على ثلاثة آلاف وخمسمائة رجل كلّهم من قبيلة عَكّ[3]، وجعل على ميمنته عبد الله بن سعد بن أبي السّرح ﷺ[4]، فلمّا كان بجبل الحلال نفرتْ معه راشدة وقبائل من لخم[5].

سار عمروٌ ﷺ إلى مصر مخترقًا صحراء سيناء، ومتّخذًا الطّريق السّاحليّ حتّى وصل العريش يوم عيد النّحر[6] سنة ١٨هـ/١٢ ديسمبر ٦٣٩م[7]، فوجدها خالية من القوّات البيزنطيّة، وتابع مسيره إلى مصر حتّى وصل حصن الفَرَما[8]، فتحصّن جند الرّوم خلف الأسوار، وقاتلوا المسلمين قتالاً شديدًا، وظلّوا يدافعونهم مدّة شهر، ثمّ هزمهم المسلمون، واستولوا على عسكرهم[9]، وذلك في المحرّم سنة ١٩هـ/ يناير ٦٤١م[10].

---

(١) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٣٤؛ الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٥١٢.

(٢) أحمد عادل كمال: الفتح الإسلامي لمصر، ص٢٤٩- ٢٥٧.

(٣) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص٦٤، ٦٥؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٣٦.

(٤) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص٦٧؛ ابن يونس: تاريخ ابن يونس، دار الكتب العلميّة، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ج١، ص٢٦٩.

(٥) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص٦٧. وبهذا يمكن الجمع بين الرّواية الّتي تنصّ على تحرّك عمرو بن العاص ﷺ إلى مصر بأربعة آلاف، ورواية الثّلاثة آلاف وخمسمائة.

(٦) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص٦٧.

(٧) البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٣٥؛ أحمد عادل كمال: الفتح الإسلامي لمصر، ص٢٥٩.

(٨) الفرما: مدينة مصريّة قديمة على ساحل البحر المتوسّط، بها حصن يُعدّ من أقدم الرّباطات المصريّة بقرب الحدود الشّرقيّة لمصر، وتعرف آثارها بتلّ الفرما. ياقوت: معجم البلدان، ج٤، ص٢٥٥؛ محمّد رمزي: القاموس الجغرافي للبلاد المصريّة، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، ١٩٩٤م، ق١، ص٩١.

(٩) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص٦٧؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٣٥.

(١٠) ألفرد بتلر: فتح العرب لمصر، ترجمة/ محمد فريد أبو حديد، مكتبة مدبولي، القاهرة، الطّبعة الثّانية، ١٩٩٦م، ص٥٦٢.

وكان المقوقس عندما علم بنزول المسلمين أرض مصر قد غادر الإسكندريّة إلى حصن "بابليون" وسط البلاد؛ ليستعدّ لمواجهتهم[١].

ولم يعمل المقوقس على التّصدّي للمسلمين في الحصون الشّرقيّة في سيناء؛ لعلمه بمقدرة المسلمين الفائقة على حرب الصّحراء، وقربهم من مراكز إمدادهم في فلسطين والشّام، وخوفه من ثورة المصريّين على الرّومان[٢].

تابع عمرو بن العاص ﷺ توغّله في أرض مصر بعد الفرما، حتى مرّ بالقواصر[٣] (القصّاصين)[٤]، وتقدّم دون مقاومة تذكر، فكان "لا يدافع إلّا بالأمر الخفيف"، حتّى بلغ بلبيس، فقاتلته حاميتها، ولكنّه استطاع دخول المدينة بعد شهر من المدافعة[٥].

تحرّك عمرو بن العاص ﷺ من بلبيس متاخمًا للصّحراء، فمرّ بمدينة هليوبوليس -عين شمس- ومضى "لا يدافع إلّا بالأمر الخفيف"، حتّى أتى قرية أمّ دُنَيْن[٦]، فقاتلته حاميتها قتالاً شديدًا أمام الأسوار، فاستعمل عمرو بن العاص دهاءه الحربيّ، فقسّم جيشه إلى ثلاث فرق، حيث جعل كمينًا للأعداء في الجبل الأحمر، وكمينًا آخر على النّيل قريبًا من أمّ دُنَين، وقابل أعداءه ببقيّة الجيش (في العبّاسيّة تقريبًا)، ولمّا نشب القتال انقضّ كمين الجبل الأحمر على الرّوم فاختلّ نظامهم، وانطلقوا إلى أمّ دُنَين فخرج عليهم الكمين الآخر،

---

(١) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص٦٦، ٦٧.

(٢) محمّد سهيل طقوش: تاريخ الخلفاء الرّاشدين، ص٢٩٦، ٢٩٧.

(٣) القواصر: تقع على الطّريق بين الفرما وبلبيس، وهي من مركز فاقوس قبل بلبيس. محمّد رمزي: القاموس الجغرافي للبلاد المصريّة، ق٢، ج١، ص١١١.

(٤) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص٦٧.

(٥) فتوح مصر وأخبارها، ص٦٨.

(٦) أمّ دُنين: من القرى المصريّة القديمة، كانت تقع على شاطئ النّيل، وأمّ دنين والمكس والمقس والمقسم أسماء لقرية واحدة تقع حاليًا في قلب مدينة القاهرة، لأنّها كانت مقرّا لصاحب المكوس وتقسيم الغنائم، وتُحدّ اليوم من الغرب بميدان باب الحديد فشارع رمسيس فشارع عماد الدّين، ومن الشّرق بشارع الكنيسة المرقسيّة، وكان في هذا المكان الجامع الأنور الّذي بناه الحاكم بأمر الله العبيديّ، وعرف بجامع المقس، ولا تدخل حديقة الأزبكيّة في حدود قرية أمّ دنين. محمّد رمزي: القاموس الجغرافي للبلاد المصريّة من عهد قدماء المصريّين إلى سنة ١٩٤٥م، ق١، ص١٢٨، ١٢٩.



فأصبحوا بين جيوش المسلمين الثّلاثة، فحاقت بهم الهزيمة، وفرّت القلّة الباقية إلى حصن بابليون الحصين(١).

وقد عزّ على المستشرق البريطانيّ بتلر أن ينتصر الأمير الفاتح عمرو بن العاص ﷺ بقوّاته القليلة على جيوش الرّوم الكثيرة العدد في موقعة أمّ دُنَيْن فقدّم تاريخ وصول المدد الّذي أتاهم في وقت لاحق من غير دليل، ونسب خبر تأخير الأمداد إلى المؤرّخ المقريزيّ (ت٨٤٥هـ/١٤٤١م) المتأخّر زمانًا(٢).

وقد تعمّد المستشرق بتلر المغالطة هاهنا؛ لأنّ الأئمّة المصريّين الكبار الّذين روَوْا أخبار فتح مصر كالقاضي عبد الله بن لَهِيعة (ت: ١٧٤هـ/٧٩٠م)، والإمام اللّيث بن سعد (ت: ١٧٥هـ/٧٩١م)، وسعيد بن عفير، يتّفقون على أنّ المدد قدم على عمرو بن العاص ﷺ وهو يحاصر بابليون(٣)، وليس في أمّ دُنَين أو معركة هليوبوليس، كما يدّعي بتلر، والصّواب أنّ عمرو بن العاص ﷺ استنجد بالخليفة عندما أبطأ عليه الفتح في أمّ دُنَين(٤)، ولكن لم يأته المدد إلّا في بابليون.

كان حصن بابليون - الّذي لا تزال بقاياه بمصر القديمة - يقع على السّاحل الشّرقيّ لنهر النّيل على الطّريق بين منف وعين شمس (هليوبوليس)، وكان موقع الحصن متميّزًا؛ حيث يتوفّر له الماء من نهر النّيل، ويتّصل من خلفه بالسّفن، كما تقابله تحصينات أخرى في الجزيرة (الرّوضة) على شاطئ النّيل المقابل(٥)، وتمتدّ مدينة بابليون جنوب الحصن، بينما تنتشر حدائق الكروم في شماله، وإلى شرقه المزارع بينه وبين جبل المقطّم(٦).

(١) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص٦٨؛ ابن تغري بردي: النّجوم الزّاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثّقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصر، بدون تاريخ طبع، جا، ص٨؛ بتلر: فتح العرب لمصر، ص٢٦٠- ٢٦٣.

(٢) بتلر: فتح العرب لمصر، ص٢٥٧.

(٣) الكندي: الولاة والقضاة، تحقيق/ محمّد حسن إسماعيل، وأحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلميّة، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ص١٠.

(٤) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص٦٨.

(٥) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص٧٣، ٧٤؛ أحمد عادل كمال: الفتح الإسلامي لمصر، ص٢٦٨.

(٦) بتلر: فتح العرب لمصر، ص٢٧٢؛ أحمد عادل كمال: الفتح الإسلامي لمصر، ص٢٦٩.

تقدّم عمروٌ ﷺ بجيشه إلى حصن بابليون وأحكم عليه الحصار، وكان الرّوم يخرجون لقتال المسلمين، ثمّ يعودون إلى حصنهم، وذلك طوال سبعة أشهر(١).

وهذا يدلّ على أنّ المسلمين كانوا متفوّقين في المناوشات الّتي دارت أمام الحصن، ولو رجحت كفّة الرّوم لأزاحوا المسلمين عن حصنهم(٢).

وأرسل المقوقس خلال الحصار رسله إلى عمرو ﷺ للمصالحة فخيّروهم بين الإسلام أو الجزية أو الحرب، فاختار المقوقس الجزية(٣)، وكتب إلى هرقل يستأذنه في ذلك، فلم يقبل منه، بل حنق عليه ولامه لومًا شديدًا، واستدعاه إلى القسطنطينيّة، ثمّ نفاه(٤).

وكما استقبل أهالي العراق خالد بن الوليد ﷺ، فقد رحّبت القبائل العربيّة المقيمة بمصر وكذلك الأقباطُ النّصارى بعمرو بن العاص ﷺ ترحيبًا شديدًا، وأظهروا عطفهم على المسلمين، لأجل ما تعرّضوا له من أقصى أنواع القمع على يد المقوقس الرّوميّ، الّذي سامهم سوء العذاب؛ لأنّهم رفضوا التّخلّي عن مذهب طبيعة المسيح الواحدة واعتناق مذهب الكنيسة الأرثوذكسيّة اليونانيّة(٥).

وكان عمرو بن العاص ﷺ قد استمدّ الخليفة الفاروق ﷺ عندما أبطأ عليه الفتح، فأمدّه بأربعة آلاف تمام ثمانية آلاف، على كلّ ألفٍ رجلٌ يقوم مقام الألف، وهم: الزّبير بن العوّام، والمقداد بن عمرو (ابن الأسود)، وعبادة بن الصّامت، ومسلمة بن مُخَلَّد ﷺ(٦)، وقيل الرّابع خارجة بن حذافة العدويّ ﷺ(٧).

---

(١) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص٦٨.

(٢) أحمد عادل كمال: الفتح الإسلامي لمصر، ص٢٧٦.

(٣) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص٧٤- ٨٠.

(٤) لا تذكر المصادر العربيّة خبر استدعاء هرقل للمقوقس ونفيه له، وإنّما تذكر تقبيحه لرأيه وتعجيزه، وأمره له باستنهاض الرّوم في مقاتلة المسلمين. محمّد سهيل طقوش: تاريخ الخلفاء الرّاشدين، ص٣٠٥.

(٥) أنتوني نتنج: العرب انتصاراتهم وأمجاد الإسلام، ص٧٧.

(٦) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص٧٠؛ الكلاعي: الاكتفاء، ج٢، ص٣٢٧، ٣٢٨.

(٧) ابن يونس: تاريخ ابن يونس، ج١، ص١٤٦؛ ابن عبد البرّ: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ج٢، ص٤١٨. وذكر ابن أبي عاصم أنّه خارجة بن حذافة السّهميّ أخو عبد الله بن حذافة؛ لكنّه لم يتابع عليه. أبو نعيم: معرفة الصّحابة، ج٢، ص٩٦٧.

ولمّا أبطأ فتح حصن بابليون، وهب الزّبير بن العوّام ﷺ نفسه لله ﷻ، وعزم على تسلّق الحصن وهو يرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين، فوضع سُلّمًا إلى جانب الحصن من ناحية سوق الحمّام(١)، ثمّ صعِد عليه، فتبعته مجموعة من أصحابه، وأمرهم إذا سمعوا تكبيره أن يجيبوه بالتّكبير، فلمّا بلغ رأس الحصن وكبّر هو ومن معه، أجابه المسلمون جميعًا(٢)، فلمّا أحسّ الرّوم بالزّبير ومن معه تملّكهم الخوف، ففتحوا الباب لعمرو بن العاص، وخرجوا إليه مصالحين، فقبل منهم(٣)، واستولى على الحصن(٤)، وفرض على كلّ رجلٍ من القبط دينارين دينارين(٥)، وأرسل عقبة بن عامر الجهنيّ ﷺ إلى الخليفة عمر ﷺ بالفتح، فحمد الله على ذلك(٦).

وقد تمّ فتح حصن بابليون يوم الجمعة مستهلّ شهر المحرّم سنة ٢٠هـ/٦٤١م(٧)، وصارت القبط أعوانًا للمسلمين(٨)، وكان لديهم رغبة قويّة في هزيمة الجيوش البيزنطيّة، ولذلك قاموا بإرشاد جيش عمرو بن العاص في كلّ تحرّكاته ليخلّصهم من حمّامات الدّم والمقابر الجماعيّة الّتي كان ينصبها الجنود الرّومان للأقباط في مصر والشّام(٩).

وقد صرّح المؤرّخ القبطيّ يوحنّا النّقيوسيّ بوفاء الفاتح عمرو بن العاص ﷺ بعهده مع الرّوم فقال: "ظلّ عمروٌ – رئيس جند المسلمين- خارج حصن بابليون، وحاصر الجنود الّذين كانوا به، وتسلّموا رسالة من لدنه: ألّا يقتلوهم، وأن يتركوا لهم كلّ عدّة الحرب، وهي

---

(١) عرف بذلك لحمّام ابن نصر السّرّاج الّذي كان بالسّوق. السّيوطي: حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق/ محمّد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربيّة، مكتبة عيسى البابي الحلبي وشركاه، القاهرة، الطّبعة الأولى، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م، جا، ص١٢٨.

(٢) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص٧٢، ٧٣.

(٣) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٥١٤؛ بتلر: فتح العرب لمصر، ص٢٩٩.

(٤) البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٣٥.

(٥) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص٧٣، ٨٠؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٣٨.

(٦) ابن سعد: الطّبقات الكبير، ج٥، ص٦٦.

(٧) الكندي: الولاة والقضاة، ص١٠؛ ياقوت: معجم البلدان، ج٤، ص٢٦٣.

(٨) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص٨٤.

(٩) نبيل لوقا بباوي: انتشار الإسلام بحدّ السّيف بين الحقيقة والافتراء، ص١٥٨.

كثيرة، ثمّ أمرهم أن يخرجوا من الحصن، فأخذ هؤلاء قليلاً من الذّهب وساروا"[١]، واستولى المسلمون على الحصن[٢]، وكان البيزنطيّون قد سجنوا كثيرًا من الأقباط بحصن بابليون وقطعوا أيديهم، فلم يطلقوا سراحهم إلّا بعد مصالحتهم للمسلمين[٣].

وقد أمسك المسلمون أيديهم عن بابليون وكورها، ولم ينهبوا منها شيئًا، ولم يظلموا القبط عملاً بوصيّة نبيّهم محمّد[٤].

🕮 رواية مكذوبة في فتح البَهْنَسا:

يشيع في كتاب "فتوح الشّام" مجهولِ المؤلّفِ[٥] عن "فتح البَهْنَسا[٦] وما وقع فيها من فضائل"[٧] أنّ المسلمين الّذين فتحوا مصر اشتبكوا مع الرّوم في معركة عنيفة عند

---

(١) يوحنّا النّقيوسي: تاريخ مصر، تحقيق/ عمر صابر عبد الجليل، عين للدّراسات والبحوث الاجتماعيّة، القاهرة، ٢٠٠٣م، ص٢٠٤.

(٢) يوحنا النّقيوسي: تاريخ مصر، ص٢٠٥؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٣٥.

(٣) يوحنا النّقيوسي: تاريخ مصر، ص٢٠٤.

(٤) ساويرس بن المقفّع: تاريخ البطاركة، القاهرة، رقم الإيداع بدار الكتب: ٩٩/١٧٤٦٠، جا، ص٨٧.

(٥) ينسب الكتاب إلى محمّد بن عمر الواقديّ، ولا يصحّ ذلك؛ لأنّ الواقديّ يروى كتابه "فتوح الشّام" بإسناد الرّوايات والأخبار إلى قائليها وناقليها على عادته في مصنّفاته إفرادًا وجمعًا، وقد نقل عنه الحافظ ابن عساكر في تاريخ دمشق غير مرّة، ولا يوجد شيء من المتون الّتي ساقها ابن عساكر ولا رجال أسانيدها في الكتاب المجهول. محمّد عبد العال محمّد حسن: مختلقات سيف بن عمر التّميميّ في تاريخ قومه، مجلّة كلّيّة اللّغة العربيّة بأسيوط، جامعة الأزهر، عدد ٣٨، ٢٠١٩م، ج٢، ص١٨٨٦.

(٦) البَهْنَسا: مدينة مصريّة بالصّعيد الأدنى غربي النّيل، وليست على ضِفّة النّيل، وتضاف إليها كورة كبيرة، وبظاهرها مشهد يزار، يزعم القبط أنّ عيسى وأمّه أقاما به سبع سنين. ياقوت الحموي: معجم البلدان، جا، ص٥١٦، ٥١٧. وتقع البهنسا الآن بمحافظة المنيا، في مركز بني مزار، وتبعد عن بني مزار ١٥ كيلو مترًا على الجانب الغربي لبحر يوسف.

(٧) يُلحق بفتوح الشّام المنسوب للواقديّ قطعة ركيكة بعنوان: "ذكر فتح البهنسا وما فيه من الفضائل وما وقع فيه للصّحابة ﭫ". وفي أوّلها: "قالت الرّواة بأسانيد صحيحة عمّن حضر الفتح من أصحاب السّير والتّواريخ، مثل الواقدي، وأبي جعفر الطّبرانيّ، وابن خلّكان في تاريخ البداية والنّهاية، ومحمّد بن إسحاق، وابن هشام، وكلّ منهم دخل حديثه في الآخر لما في ذلك من اختلاف الرّواة ممّن حضر الفتوحات وشاهد الوقعات من الصّحابة ﭫ". فتوح الشّام، ج٢، ص٢٩٤. وهذا قاطع بأنّ مؤلّف هذه القطعة متأخّر عن عصر ابن كثير، ثمّ هو جاهلٌ بالتّاريخ وبالمؤرّخين وأنسابهم وأسماء كتبهم.

البَهْنَسا فاستشهد منهم يومئذ خمسة آلاف رجل، معظمهم من الصّحابة ﷺ، وعدّ منهم جماعة لم ينزلوا مصر قطّ، مثل خالد بن الوليد ﷺ، وابنه سليمان[1]، وقيس بن هبيرة المراديّ، وضرار بن الأَزْوَر الأسديّ[2]، وميسرة بن مسروق العبسيّ، والفضل بن العبّاس الهاشميّ، وعبد الله بن جعفر الطّالبيّ[3]، وجعفر بن عقيل بن أبي طالب[4]، ومسلم بن عقيل[5]، والتّابعيّ أبان بن عثمان بن عفّان، وغيرهم.

كما ذكر نفرًا آخرين لم يدخلوا مصر أيّام الفتوح، وإنّما دخلوها في وقت لاحق، منهم عبد الرّحمن بن أبي بكر الصّدّيق رضي الله عنهما، فمع أنّه معدود في الصّحابة الّذين دخلوا مصر غير أنّه لم يشهد الفتوح؛ لأنّه دخل مصر في سبب أخيه محمّد بن أبي بكر[6]، وذلك في آخر عهد عثمان بن عفّان ﷺ سنة ٣٥هـ.

ومنهم عبد الله بن الزّبير بن العوّام رضي الله عنهما؛ فإنّه قدم مصر في عهد عثمان ﷺ، وشهد فتوح إفريقيّة[7].

---

(١) ذكر المؤلّف المجهول أنّ سليمان بن خالد بن الوليد بن المغيرة استشهد في فتوح البهنسا، والصّحيح أنّه استشهد هو وأخوه عبد الرّحمن في غزاة له بأرض الرّوم. خليفة بن خياط: طبقات خليفة، ص٢٤٥.

(٢) نقل محمّد بن سعد عن شيخه الواقديّ أنّ ضرار بن الأزور ﷺ أصيب في حرب مسيلمة الكذّاب باليمامة، وأنّه بقي مجروحًا حتّى استشهد قبل رحيل خالد ﷺ من اليمامة بيوم واحد، وهو الثّبت عند الواقديّ. ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٦، ص٣٩. وقد نقله عنه غير واحد من المؤرّخين. البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٥٥؛ ابن عبد البرّ: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ج٢، ص٧٤٨؛ ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج٢٤، ص٣٨٣.

(٣) لم يذكر الإمام السّيوطيّ أحدًا من هؤلاء فيمن نزلوا مصر أصلاً، كما في كتابه "درّ السّحابة فيمن دخل مصر من الصّحابة"، وقد ساقه كلّه في كتابه: حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، ج١، ص١٦٦- ٢٥٤.

(٤) قتل جعفر بن عقيل بن أبي طالب مع الحسين بن عليّ في كربلاء. ابن حبيب: المحبّر، ص٤٣٧.

(٥) قتل مسلم بن عقيل بن أبي طالب في الكوفة وصلبه عبيد الله بن زياد بن أبيه عندما وجّهه الحسين. ابن حبيب: المحبّر، ص٤٨٠؛ البلاذري: أنساب الأشراف، ج٢، ص٧٧- ٨٣.

(٦) السّيوطي: حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، ج١، ص٢١٦.

(٧) حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، ج١، ص٢١٢.

ولنا تعقيب وتحقيق على ذكر عدد الشّهداء المتخيّلين في فتح البهنسا يتلخّص في النّقاط الآتية:

أوّلاً: كيف يُقتل من الصّحابة ﷺ في فتح البَهْنسا وحدها هذا العدد الغفير الّذي أشار إليه هذا المؤلّف المجهول الجهول، وجميع من دخلوا مصر من الأصحاب عند الإمام السّيوطيّ ثلاثمائة وثلاثة وخمسون[١]، مع أنّه تساهل جدًّا في هذا العدد، وأدرج فيهم ما ليس منهم، بينما الصّحابة الّذين شهدوا الفتح لم يزيدوا على مائة ونيّف[٢].

ثانياً: لو قتل هذا العدد الكبير من جيش الفتح في البَهْنسا مع من استشهدوا في الوقعات السّابقة من الفرما إلى بابليون لما بقي من الاثني عشر ألفًا إلّا القليل، ولما استطاع القائد عمرو بن العاص ﷺ أن يتوجّه إلى الإسكندريّة المنيعة بحصونها وأسطولها وجنودها.

ثالثاً: لم تُذكر هذه الوقعة في مصادر التّاريخ الإسلاميّ قطّ، ولو حدثت هذه الكسرة الشّديدة للمسلمين لامتلأتْ بذكرها مصادر الفتوح الأولى، ولما أهملتْها كتب فتوح مصر خاصّة، بل ولتغنّى بها المؤرّخون المعادون للفتح الإسلاميّ.

رابعاً: يدلّ تأخّر هذه الرّواية المتهافتة - إلى ما بعد القرن الثّامن الهجريّ - على أنّ واضعها ومؤلّفها هو أحد البطّالين الأكّالين الّذين يستفيدون من زيارات البسطاء والعامّة للقبور والأضرحة الموهومة.

🕮 المسير إلى الإسكندريّة:

أقام المسلمون بحصن بابليون عدّة أشهر حتّى استجمّ الجند وجاءهم الإذن من عمر بن الخطّاب ﷺ بالزّحف لفتح الإسكندريّة، فترك عمروٌ ﷺ مسلحة قويّة في الحصن بقيادة خارجة بن حذافة العدويّ[٣]، وتحرّك بجنوده على الضّفّة اليسرى للنّيل حيث محافظة البحيرة اليوم، حتّى لا تشكل التّرع الكثيرة المنتشرة في جنوبي الدّلتا عائقًا يؤخّر زحفه[٤]،

---

(١) السّيوطي: حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة، ج١، ص٢٥٤.

(٢) ابن الكندي: فضائل مصر المحروسة، تحقيق/ علي محمّد عمر، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطّبعة الأولى، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، ص٢٠.

(٣) البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٤٣.

(٤) محمّد سهيل طقوش: تاريخ الخلفاء الرّاشدين، ص٣١٠.



وقد ساعده بعض الأقباط في إصلاح الطّرق وإقامة الجسور، كما اصطحب معه عددًا من زعمائهم ليكونوا أداة اتّصال بينه وبين من يلقاهم في طريقه[1]، وهذا يعني أنّ قبط مصر كانوا على عداء مع البيزنطيّين المحتلّين، واستوعبوا أهمّيّة الوجود الإسلاميّ الّذي يمكّنهم من طردهم[2].

تقدّم عمرو بن العاص ﷺ إلى الشّمال فلم يلق أحدًا حتّى بلغ تَرْنُوط[3]، فلقي بها طائفة من الرّوم فقاتلوه قتالاً خفيفًا فانهزموا، وولّوا الأدبار[4]، فأرسل في آثارهم قائد مقدّمته شريك بن سُميّ الغُطَيْفيّ المُراديّ ﷺ فرصدوه، وأحاطوا به، وتكاثروا عليه، فلجأ إلى كوم، واعتصم به، وأرسل إلى عمرو بن العاص ﷺ يستنجد به، فلمّا نهض إليه انصرفت عنه الرّوم، ونسب الكوم إلى شريك، وعرف به، وواصل عمروٌ ﷺ زحفه نحو الإسكندريّة فالتقاه الرّوم عند سُلْطَيْس - جنوبي دمنهور - فاقتتل الفريقان قتالاً شديدًا، فانهزم الرّوم، وولّوا الأدبار[5].

لم يفصل المسلمين عن الإسكندريّة من حصون الرّوم إلّا الكِرْيَوْن[6]، ولذا تجمّع فيه الرّوم، وحشدوا كثيرًا من القبط، وأجبروهم على المقاتلة معهم بجانب الموالين لهم[7].

علم عمروٌ ﷺ باستعدادات الرّوم، فأعاد تعبئة قوّاته، فجعل ولده عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما على المقدّمة، وأعطى لواءه لمولاه وَرْدان، وتقدّم لمصادمة الرّوم، فالتقى الجمعان في قتال شديد استمرّ بضعة عشر يومًا، وأصيب عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما بجراحات كثيرة،

---

(١) ينظر ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص٨٤.

(٢) محمّد سهيل طقوش: تاريخ الخلفاء الرّاشدين، ص٣١٠.

(٣) تَرْنُوط: قرية على النّيل بين مصر والإسكندرية. ياقوت: معجم البلدان، ج٢، ص٢٧. وكانت قرية ترنوط تبعد عن الأهرام خمسة بُرد (نحو ١١١ كيلو مترًا). السّيوطي: حسن المحاضرة، ج١، ص١٦٥.

(٤) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص٨٤.

(٥) فتوح مصر وأخبارها، ص٨٥.

(٦) الكريون: موضع قرب الإسكندريّة، كان يقع على نهر أو خليج يأخذ من النّيل إلى الإسكندريّة، وبين الإسكندريّة والكريون أربعة وعشرون ميلاً، (نحو ٤٥ كيلو مترًا). ابن خرداذبة: المسالك والممالك، دار صادر، بيروت، (طبعة ليدن، ١٨٨٩م)، ص٨٤. ياقوت: معجم البلدان، ج٤، ص٤٥٨.

(٧) البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٤٣؛ أحمد عادل كمال: الفتح الإسلامي لمصر، ص٣١٢.

وصلّى عمروٌ ﷺ صلاة الخوف، ثمّ فتح الله للمسلمين، وقتلوا من أعدائهم مقتلة عظيمة، واتّبعوهم حتّى بلغوا الإسكندريّة[1].

فتح الإسكندريّة:

كانت الإسكندريّة آنذاك عاصمة الدّيار المصريّة، وثانية حواضر الإمبراطوريّة بعد القسطنطينيّة، وأوّل مدينة تجاريّة في العالم، وقد أدرك البيزنطيّون أنّ سقوطها في أيدي المسلمين من شأنه أن يؤدّي إلى زوال سلطانهم من مصر، حتّى عبّر الإمبراطور البيزنطيّ عن ذلك بقوله: "لئن غلبوا على الإسكندريّة لقد هلكت الرّوم وانقطع ملكها"[2]، ولذا أسرع هرقل بإرسال قوّة عسكريّة للدّفاع عنها[3]، وزعم بعض الرّواة أنّه تجهّز ليخرج إلى الإسكندريّة بنفسه ليباشر قتال المسلمين بها، ولكنّه مات، وكفى الله المسلمين مؤنته[4]، وكان موته في ١١ فبراير سنة ٦٤١م/٢٠هـ[5]، واضطربت أمور الدّولة البيزنطيّة بعد موت هرقل بسبب الصّراعات والفتن الّتي ضربت البلاد عدّة أشهر[6].

وكانت مدينة الإسكندريّة من الحصانة بمكان، حيث يحيط بها خندقٌ يُملأ بماء البحر، وخلفه سوران محكمان، فيهما أبواب حديديّة من ثلاث طبقات، ولها عدّة أبراج، عليها مجانيق، ويحميها البحر من النّاحية الشّماليّة، وهو تحت سيطرة الأسطول البيزنطيّ الّذي كان يمدّها بالمؤن والرّجال والعتاد، وتحميها بحيرة مريوط[7] من الجنوب، ومن المتعذّر

(١) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص٨٥، ٨٦.

(٢) فتوح مصر وأخبارها، ص٨٧، ٨٨.

(٣) أبو عبيد القاسم بن سلّام: الأموال، ص١٨٨.

(٤) المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، (الخطط المقريزيّة)، دار الكتب العلميّة، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤١٨هـ، جـ١، ص٣٠٥. ويذكر يوحنّا النقيوسيّ أنّ هرقل حزن حزنًا شديدًا لمقتل اثنين من كبار رجاله بمصر، وهزيمة الروم، فمرض بالحمّى ومات سنة ٣٥٧ من تاريخ دقلديانوس، وهو يوافق يوم الأحد ١١ فبراير سنة ٦٤١م. تاريخ مصر، ص٢٠١.

(٥) بتلر: فتح العرب لمصر، ص٢٩٧؛ سيّدة كاشف: مصر في فجر الإسلام، القاهرة، ١٩٩٤م، ص١٢، ١٣.

(٦) يوحنا النقيوسي: تاريخ مصر، ص٢١٠، ٢١١؛ محمّد سهيل طقوش: تاريخ الخلفاء الرّاشدين، ص٣١٠.

(٧) مريوط: قرية من قرى مصر قرب الإسكندريّة، تضاف إليها كورة من كور الحوف الغربي. ياقوت الحموي: معجم البلدان، جـ٥، ص١١٩.



اجتيازها، كما تلفّها ترعة الثّعبان من الغرب، وبذلك لم يكن للمسلمين طريق إليها إلّا من ناحية الشّرق، وهو الطّريق الّذي يصلها بكريون، في حين بلغ عدد جنود حاميتها بعد الإمدادات الّتي أرسلها الإمبراطور البيزنطيّ خمسين ألف جنديّ(١).

وعندما ضرب عمروٌ ﷺ الحصار على المدينة الحصينة طلب أحد عظماء الرّوم مقابلة رجل من المسلمين ليكلّمه، فخرج إليه عمروٌ ﷺ بنفسه، لكن يبدو أنّ الرّوميّ كان مطمئنًّا لحصانة المدينة وكثرة المدافعين عنها، وأنّه يريد إضعاف معنويّات المسلمين، ولذا قال عمرو ﷺ لأصحابه: "مَا كَلَّمْتُ رَجُلاً قَطُّ أَمْكَرَ مِنْهُ"(٢).

وقد طال الحصار على الإسكندريّة عدّة أشهر، واستمات الرّوم في مقاتلة المسلمين أمام أسوارها، وحدث أن بارز رجلٌ روميّ مسلمة بن مُخَلّد الأنصاريّ ﷺ فصرعه، وألقاه عن فرسه، وأهوى إليه ليقتله لولا أن حماه رجلٌ من أصحابه، ففرحت بذلك الرّوم لمكان مسلمة، وشقّ ذلك على المسلمين، وغضب عمرو بن العاص ﷺ لذلك(٣)، وخاف من ملل جنوده أو شعورهم بالعجز أمام عدوّهم، فقرّر أن يبثّ كتائبه تجوس خلال بلاد الدّلتا وقرى الصّعيد، غير أنّ طول حصار الإسكندريّة أثار حفيظة الخليفة عمر ﷺ، وأثار في نفسه الهواجس والظّنون حول استعداد جنوده للتّضحية والمبادأة، ورأى أنّ ذلك ما كان إلّا لما أحدثوا، وكتب إلى عمرو ﷺ يلومه على تعلّقه وجنوده بالدّنيا، وتأخّرهم في فتح مصر طيلة سنتين، ويأمره بحضّ النّاس على القتال، وترغيبهم في الصّبر، وإخلاص النّيّة، ومصادمة العدوّ عند الزّوال يوم الجمعة، مع العجّ إلى الله ﷻ بالدّعاء في سؤال النّصر، وتقديم الزّبير بن العوّام ﷺ ورفاقه الأشداء أمام النّاس. وفي رواية أنّ عمرًا ﷺ استشار مسلمة بن مُخَلّد الأنصاريّ ﷺ عندما أبطأ عليه فتح الإسكندريّة فأشار عليه بعقد الرّاية لعبادة بن الصّامت الأنصاريّ ﷺ، وتوليته قتال الرّوم(٤).

---

(١) محمّد سهيل طقّوش: تاريخ الخلفاء الرّاشدين، ص٣١١.

(٢) ابن حبّان: الصّحيح، ج١٤، ص٥٢٢، ٥٢٣. وحسّن الأرناؤوط إسناده. وقال الهيثميّ: "رواه الطّبرانيّ، وفيه محمّد بن عمرو بن علقمة، وهو حسن الحديث، وبقيّة رجاله ثقات". مجمع الزّوائد، ج٦، ص٢١٨.

(٣) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص٨٥، ٨٦.

(٤) فتوح مصر وأخبارها، ص٩١، ٩٢.

ولا مانع من تقديم الزّبير بن العوّام وأصحابه أمام الجيش تحت راية عبادة بن الصّامت في تلك الخرجة.

وعلى أيٍّ من الرّوايتين فقد تمكّن الجيش الإسلاميّ في هذه الخرجة من اقتحام حصون المدينة وفتحها(١)، وعقدت معاهدة الإسكندريّة على الشّروط الآتية(٢):

١- أن تعقد هدنة مدّتها أحدَ عشرَ شهرًا.

٢- أن يدفع الجزية كلّ من دخل في العقد.

٣- أن يبقى المسلمون في مواضعهم خلال مدّة الهدنة على أن يعتزلوا وحدهم، ولا يسعوا لقتال الإسكندريّة، وأن يكفّ الرّوم عن القتال.

٤- أن ترحل مسلحة الإسكندريّة في البحر، يحمل جنودها معهم متاعهم وأموالهم جميعًا.

٥- أن لا يعود جيش من الرّوم إلى مصر، أو يسعى لردّها.

٦- أن لا يأخذ المسلمون كنائس النّصارى، ولا يتدخّلوا في أمورهم.

٧- أن يسمح لليهود بالإقامة في الإسكندريّة.

٨- أن يبعث الرّوم رهائن من قبلهم، مائة وخمسين من جنودهم وخمسين من غير الجند، ضمانًا لإنفاذ العقد.

وقد ورد في كتاب يوحنّا النّقيوسيّ أنّ الأمير الفاتح عمرو بن العاص ﵁ كان بحصن بابليون عند فتح الإسكندريّة فتوجّه إليه المقوقس وعقد معه معاهدة خاصّة بفتح الإسكندريّة(٣)، أطلق عليها بعض المُحْدثين "معاهدة بابليون الثّانية" تمييزًا لها عن معاهدة بابليون الأولى(٤)، مع أنّ الرّوايات الإسلاميّة عن شهود العيان وغيرهم تفيد بأنّ

---

(١) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص٩٢.

(٢) انفرد يوحنّا النّقيوسي بذكر شروط هذا الصّلح. تاريخ مصر، ص٢١١، ٢١٢. وينظر بتلر: فتح العرب لمصر، ص٣٤٣.

(٣) يوحنّا النّقيوسي: تاريخ مصر، ص٢١١.

(٤) سيّدة إسماعيل كاشف: مصر في عصر الولاة من الفتح العربي إلى قيام الدّولة الطولونيّة، مكتبة النّهضة المصريّة، القاهرة، موسوعة الألف كتاب، (٢٤١)، ص١٦؛ محمّد سهيل طقّوش: تاريخ الخلفاء الرّاشدين، ص٣١٤.



عمرو بن العاص ﷺ كان على رأس جيشه عند الفتح(١)، وكتاب النّقيوسيّ لا يخلو من الأخطاء، فهو يخلط بين فتح الإسكندريّة في المرّة الأولى والثّانية(٢)، ويظهر فيه تدخّل مترجمه الحبشيّ، بذكره الشّيءَ ونقيضَه في الموضع الواحد(٣)، واستعماله لعبارات مأخوذة من المصادر العربيّة، كإطلاقه مصطلح الوجه البحريّ على أسفل الأرض أو بلاد الدّلتا(٤).

وقد استبقى عمرو بن العاص ﷺ أهل الإسكندريّة فلم يقتل ولم يَسْبِ، وجعلهم أهل ذمّة، وفرض عليهم الجزية دينارين دينارين، كأهل بابليون(٥)، وبعث معاوية بن حديج السّكونيّ إلى عمر بن الخطّاب ﷺ بفتح الإسكندريّة(٦).

وقد طالب غالبيّة الفاتحين بقسم الإسكندريّة، ولكنّ الخليفة عمر ﷺ رفض ذلك؛ ليكون خراجُها فيئًا للمسلمين وقوّة لهم على جهاد عدوّهم، فأقرّها عمروٌ، وأحصى أهلها، وفرض عليهم الخراج، فكانت مصر صلحًا كلّها بفريضة دينارين على كلّ رجل لا يزاد على أحد منهم في جزية رأسه أكثر من دينارين، إلّا أنّه يلزم بقدر ما يتوسّع فيه من الأرض والزّرع إلّا أهل الإسكندريّة فإنّهم كانوا يؤدّون الخراج والجزية على قدر ما يَرى مَنْ وليهم، لأنّ الإسكندريّة فتحت عنوة بغير عهد ولا عقد، ولم يكن صلح ولا ذمة(٧).

🕮 اختلاف المؤرّخين في تأريخ فتح مصر:

يؤرّخ أكثر رواة الأخبار فتح الإسكندريّة بسنة عشرين هجرية(٨)، وهو قول فقيه مصر اللّيث بن سعد، ويخالفه في ذلك قاضي مصر عبد الله بن لهيعة فيؤرّخه بسنة إحدى

---

(١) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص٩١- ٩٣.

(٢) يوحنّا النّقيوسي: تاريخ مصر، ص٢١٩.

(٣) يوحنا النّقيوسي: تاريخ مصر، ص٢٢٠، ٢٢١.

(٤) يوحنا النّقيوسي: تاريخ مصر، ص١٩٩، ٢١٢.

(٥) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص٩٦، ٩٨؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٤٤. وينظر أبو عبيد: الأموال، ص١٨٨.

(٦) ابن سعد: الطّبقات الكبير، ج٥، ص٦٨.

(٧) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص٩٦. وهذا قول يزيد بن أبي حبيب واللّيث بن سعد. أبو عبيد القاسم بن سلّام، ص١٨٨.

(٨) هذا قول ابن إسحاق والواقدي وأبو معشر. الكلاعي: الاكتفاء، ج٢، ص٣٥٠.

وعشرين[١]، ويؤخّره الفسويّ إلى سنة اثنتين وعشرين[٢]، ويحدّده بتلر في ٢٨ ذي القعدة ٢٠هـ/ ٨ نوفمبر ٦٤١م[٣].

ويزعم سيف بن عمر التّميميّ أنّ فتح مصر والإسكندريّة تمّ في سنة ١٦هـ/٦٣٧م[٤]، ويرجّح عزّ الدّين بنُ الأثير قولَه؛ لقصّة بعث عمرو بن العاص ﷺ المِيرة من مصر عام الرّمادة[٥]، وهو معذورٌ فيما رجّحه[٦]؛ لأنّ "ذكرَ عمرو بن العاص ﷺ في عام الرّمادة مُشْكِلٌ؛ فإنّ مصر لم تكن فتحت في سنة ثماني عشرة، فإمّا أن يكون عامُ الرّمادة بعد سنةِ ثمانيَ عشرةَ، أو يكونَ ذكر عمرو بن العاص ﷺ في عام الرّمادة وهم"[٧].

ويذكر البلاذريّ أنّ عمر بن الخطّاب ﷺ كتب إلى عمرو بن العاص ﷺ في سنة إحدى وعشرين "يعلمه ما فيه أهل المدينة من الجهد ويأمره أن يحمل ما يفيض من الطّعام في الخراج إلى المدينة في البحر، فكان ذلك يحمل، ويحمل معه الزّيت"[٨]. وهذا الخبر هو الأقرب للصّواب، وفيه حلّ للإشكال.

🕮 دخول أقباط مصر في الإسلام:

كان المسلمون عند فتحهم للبلدان يخيّرون النّاس بين الإسلام والجزية والقتال، ولئن كانت الدّولة الإسلاميّة قد اتّسعت بحدّ السّيف في حروبها مع الفرس والرّوم وغيرهم من الجبابرة الّذين حجبوا النّاس عن رؤية الحقّ والصّواب، وساموهم سوء العذاب، فإنّ المسلمين لم يفرضوا عقيدتهم الدّينيّة قطّ.

---

(١) ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج٤٦، ص١٥٨.

(٢) تاريخ دمشق، ج٤٦، ص١٥٩.

(٣) بتلر: فتح العرب لمصر، ص٥٦٣.

(٤) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٥١٢.

(٥) الكامل في التّاريخ، ج٢، ص٣٨٣. وقصة إرسال الميرة من مصر مروية بسند جيّد. ابن كثير: البداية والنّهاية، ج٧، ص١٠٣. واختار النّويري فتح مصر قبل عام الرّمادة سنة ١٨هـ، وجزم بأنّه التّاريخ الصّحيح. نهاية الأرب في فنون الأدب، ج١٩، ص٢٨٤.

(٦) ابن كثير: البداية والنّهاية، ج٧، ص١١١.

(٧) البداية والنّهاية، ج٧، ص١٠٣.

(٨) البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٣٩.



وكان كثيرٌ من قبط مصر على علم بنبوّة سيّدنا محمّد ﷺ فسارعوا إلى الإسلام منذ بداية الفتح، حتّى أشار يوحنّا النّقيوسيّ إلى كثرة عدد الدّاخلين في الإسلام، فقال: "والآن كثيرٌ من المصريّين الّذين كانوا مسيحيّين كذبة، أنكروا العقيدة المقدّسة الأرثوذكسيّة والمعموديّة الحيّة، وساروا في عقيدة الإسلام أعداء الرّبّ"(١).

ولذلك هبطت جزية الرّؤوس إلى أقلّ من النّصف زمن عمرَ وعثمانَ رضي الله عنهما، ولم تستقرّ خلافة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه حتّى أسلم رجال القبط(٢).

وقد انزعج المستشرقون من التّحوّل العميق للعرب والمسلمين في الجانب الدّينيّ والسّياسيّ، ولم يدركوا أنّ القوّة الإلهيّة وحدها هي القادرة على مثل هذه الحركة الواسعة، ورفضوا الاعتقاد بأنّ حكمة الله هي المسئولة عن رسالة محمّد ﷺ، آخر الأنبياء الكبار حملة الشّرائع، الّذي ختم سلسلتهم إلى الأبد، وأنّ رسالته لهذا السّبب جاءت عالميّة لجميع أفراد الجنس البشريّ من غير تمييز، وعلى اختلاف الجنسيّات والأوطان والأعراق، ولكنّهم أغمضوا أعينهم عمدًا عن رؤية الحقّ، وهاموا طويلاً في متاهة التّخمينات الخاطئة(٣).

وكان يجب على هؤلاء المستشرقين أن يقارنوا بين استماتة الأقباط في التّمسّك بمذهبهم أمام الرّومان، واعتناق معظمهم للدّين الإسلاميّ بكلّ سهولة ويسر، حتّى قالت زيغريد هونكة: "ودون أيّ إجبار على انتحال الدّين الجديد اختفى معتنقو المسيحيّة اختفاء الجليد تشرق عليه الشّمس بدفئها"(٤).

وقد جلب الفتح الإسلاميّ للقبط حياة تقوم على الحرّيّة الدّينيّة، حيث تركهم عمرو بن العاص أحرارًا على أن يدفعوا الجزية، وكفل لهم الحرّيّة في إقامة شعائرهم الدّينيّة، وخلّصهم بذلك من هذا التّدخّل المستمرّ الّذي أنّوا من عبئه الثّقيل في ظلّ الحكم

---

(١) يوحنّا النّقيوسي: تاريخ مصر، ص٢٢٢.

(٢) اليعقوبي: البلدان، دار الكتب العلميّة، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤٢٢هـ، ص١٧٧، ١٧٨.

(٣) لورا فيشيا فاغليري: دفاع عن الإسلام، ترجمة/ منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، الطّبعة الخامسة، ١٩٨١م، ص٢٨.

(٤) شمس العرب تسطع على الغرب، (أثر الحضارة العربيّة في أوربّة)، ترجمة/ فاروق بيضون، كمال دسوقي، دار الجيل، دار الآفاق الجديدة، بيروت، الطّبعة الثّامنة، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، ص٣٦٥

الرّومانيّ، ولم يضع عمروٌ يده على شيء من ممتلكات الكنائس، ولم يرتكب عملاً من أعمال السّلب والنّهب[١].

وكان لتسامح المسلمين الدّينيّ مع سكّان البلاد المفتوحة أثرٌ كبير في حسن استقبالهم للمسلمين حتّى قال ساويرس بن المقفّع عن حال القبط عند فتح المسلمين مصر: "كانت أعمال الأرثوذكسيّين الصّالحة تنمو، وكانت الشّعوب فرحين مثل العجول الصّغار إذا حلّ رباطهم وأطلقوا على لبان أمّهاتهم"[٢].

ولذلك سارع قبط مصر إلى الدّخول في الإسلام بمجرّد دخول الفاتحين مصر، "وليس هناك شاهدٌ من الشّواهد يدلّ على أنّ ارتدادهم عن دينهم القديم ودخولهم في الإسلام على نطاق واسع كان راجعًا إلى اضطهاد أو ضغط يقوم على عدم التّسامح من جانب حكّامهم الحديثين، بل لقد تحوّل كثيرٌ من القبط إلى الإسلام قبل أن يتمّ الفتح، حين كانت الإسكندريّة - حاضرة مصر وقتئذ - لا تزال تقاوم الفاتحين، وسار كثير من القبط على نهج إخوانهم بعد ذلك بسنين قليلة"[٣].

ويعترف توماس أرنولد بأنّ كثيرًا من قبط مصر تركوا النّصرانيّة بمثل هذه السّهولة وتلك السّرعة الّتي اعتنقوا بها النّصرانيّة في مستهلّ القرن الرّابع الميلاديّ[٤]، ولكثرة عدد القبط الّذين كانوا يعتنقون الإسلام من حين إلى حين أخذ أتباع النّبيّ يعتبرونهم أشدّ ميلاً لقبول الإسلام من أيّة طائفة أخرى[٥]، وقد استمرّ دخول القبط في الإسلام، حتّى في القرن التّاسعَ عشرَ، في الوقت الّذي قيل فيه إنّ مصر كانت أشدّ البلاد الإسلاميّة تسامحًا في الدّين، لم تخل سنة من السّنوات لم يتحوّل فيها القبط إلى الإسلام[٦].

---

(١) توماس أرنولد: الدّعوة إلى الإسلام، ص١٢٣.

(٢) ساويرس بن المقفّع: تاريخ البطاركة، جا، ص٩٠؛ عبد العزيز جمال الدّين: تاريخ مصر من خلال مخطوطة تاريخ البطاركة لابن المقفّع، الهيئة العامّة لقصور الثّقافة، القاهرة، ٢٠١٢م، ج٢، ص٤٨، ٤٩.

(٣) توماس أرنولد: الدّعوة إلى الإسلام، ص١٢٤.

(٤) الدّعوة إلى الإسلام، ص١٢٥.

(٥) الدّعوة إلى الإسلام، ص١٢٦، ١٢٧.

(٦) الدّعوة إلى الإسلام، ص١٢٧.

📖 **فرية حرق المسلمين لمكتبة الإسكندريّة**:

يُلصق بعض المفترين "خرافة شرسة" تتعلّق بمكتبة الإسكندريّة، فيتّهمون القائد عمرو بن العاص بأنّه نفّذ أمر عمر بن الخطّاب بتحطيم مكتبة الإسكندريّة، الّتي أنشأها بطليموس سوتير، وكانت تحتوي نصوصًا كثيرة للفلاسفة، والآلاف من كتب التّاريخ والعلوم والأدب والفلسفة اليونانيّة والمصريّة والرّومانيّة، وكان زوال هذا الكنز من أعظم المآسي في تاريخ البشريّة[١].

وللرّدّ على هذه الفرية أقول:

(١) إنّ أوّل من أشار إليها بإيجاز هو الرّحّالة عبد اللّطيف بن يوسف البغداديّ (ت: ٦٢٩هـ/١٢٣١م)[٢]، ثمّ ذكرها مفصّلة القفطيّ (ت: ٦٤٦هـ/١٢٤٨م)[٣]، وتابعه ابن العبريّ النّصرانيّ (ت: ٦٨٥هـ/١٢٨٦م)[٤]، ولم يذكر أحدُهم إسنادًا يرجع إليه لمعرفة رواتها، ولا مصدرًا يشير لمنبعها، وإنّما هي افتراضات متخيّلة لأصحابها، وحكايات لا زمام لها.

(٢) لقد مرّت خمسة قرون ونصف وانصرمت ما بين وقوع الحادثة المزعومة وأوّل إعلان عنها، في حين أنّ أيّ معاصر لا يأتي على ذكرها، ولو حتّى إيطيخيوس، مطران الإسكندريّة الّذي وصف فتح الإسكندريّة عام ٣٢١هـ/٩٣٣م[٥].

(٣) إنّ تلك المكتبة لم يكن لها أثرٌ عند فتح المسلمين مصر؛ فقد أحرقت مكتبة أولى بأمر يوليوس قيصر سنة ٤٨ ق.م عندما هاجم الإسكندريّة، كما دمّر النّصارى مكتبة أخرى من النّوع ذاته في عهد البطريرك تيوفيل سنة ٣٩٢م، ووقعت عدّة معارك في ما بين

(١) جاك ريسلر: الحضارة العربيّة، ترجمة/ خليل أحمد خليل، منشورات عويدات، بيروت- باريس، الطّبعة الأولى، ١٩٩٣م، ص١٠٦.

(٢) عبد اللّطيف البغدادي: الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر، مطبعة وادي النّيل، القاهرة، الطّبعة الأولى، ١٢٨٦هـ، ص٢٨.

(٣) القفطي: إخبار العلماء بأخبار الحكماء، تحقيق/ إبراهيم شمس الدّين، دار الكتب العلميّة، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، ص٢٦٥، ٢٦٦.

(٤) جاك ريسلر: الحضارة العربيّة، ص١٠٦.

(٥) الحضارة العربيّة، ص١٠٧.

عامي ٣٩٢، ٦٤٢م، وهو عصر التّحطيم المزعوم، زد على ذلك أنّ عددًا من الكتب كان عرضة للزّوال في خلال مائتين وخمسين سنة، وذلك بسبب الإهمال وعدم الاعتناء(١)، وبهذا فلم يكن بالإسكندريّة عندما دخلها العرب مكتبات عامّة منذ زمن طويل(٢)، وأنّ النّصارى هم الّذين أحرقوا كتب المشركين قبل الفتح الإسلاميّ، كما هدموا تماثيلهم(٣).

(٤) لم يكن مثل هذا الموقف مألوفًا في سلوك عمرو بن العاص الّذي حال بنفسه دون نهب عدّة مدن، وانقلب على عادة قديمة جدًّا حين أعلن حرّيّة العبادات بكلّ جرأة(٤).

(٥) الطّابع الأسطوريّ الخرافيّ الّذي نقلت به الرّواية يهدمها من أساسها؛ حيث يزعم مختلقُها أنّ أسقفًا قبطيًّا يعقوبيًّا من أهل الإسكندريّة يُدعى يوحنّا النّحويّ رجع عن مذهبه اليعقوبيّ في طبيعة المسيح، فأسقطه رجال الدّين اليعاقبة من منزلته عندما أصرّ على ترك القول بالتّثليث، وعاش إلى أن فتح عمرو بن العاص ﷺ الإسكندريّة، فدخل على عمرو وقد عرف موضعه من العلوم فأكرمه، وسمع من ألفاظه الفلسفيّة الّتي لم تكن للعرب بها أنسة، ولم يزل مقرّبًا من عمرو حتّى سأله أن يدفع إليه كتب الحكمة في الخزائن الملوكيّة الّتي أحصى منها أربعة وخمسين ألفًا، ومائة وعشرين كتابًا، فاستكثر عمرو ما ذكره يحي، وأرجأ الرّدّ عليه بعد استئذان أمير المؤمنين، فكان ردّ الفاروق ﷺ: "أمّا الكتب الّتي ذكرتها فإن كان فيها ما يوافق كتاب الله ففي كتاب الله عنها غنى، وإن كان فيها ما يخالف كتاب الله فلا حاجة إليها، فتقدّم بإعدامها"، فشرع عمرو بن العاص في توزيعها على حمّامات الإسكندريّة وإحراقها في مواقدها، فاستنفدت في ستّة أشهر!(٥).

ولو أنّ هذه الكتب أحرقت على تلك الصّورة المزعومة لما بقيت هذه المدّة الطّويلة، ولاستطاع يوحنّا النّحويّ أن يأخذ ما يحتاجه منها(٦).

---

(١) جاك ريسلر: الحضارة العربيّة، ص١٠٧.

(٢) زيغريد هونكة: شمس العرب تسطع على الغرب، ص٣٦٣.

(٣) جوستاف لوبون: حضارة العرب، ترجمة/ عادل زعيتر، مؤسّسة هنداوي، القاهرة، ٢٠١٣م، ص٢١٣.

(٤) جاك ريسلر: الحضارة العربيّة، ص١٠٧؛ زيغريد هونكة: شمس العرب تسطع على الغرب، ص٣٦٣.

(٥) القفطي: إخبار العلماء بأخبار الحكماء، ص٢٦٥، ٢٦٦.

(٦) بتلر: فتح العرب لمصر، ص٤٢١.



(٦) لو كانت تلك الكتب المهمّة موجودة عند الفتح الإسلاميّ لاستطاع الرّومان أن يحملوها إلى القسطنطينيّة بكلّ سهولة خلال مدّة الهدنة الّتي استمرّت أحدَ عشرَ شهرًا قبل رحيلهم عن الإسكندريّة[١].

(٧) إنّ يوحنّا النّحويّ الّذي نسب إليه نَقَلَةُ الخرافة مقابلته لعمر بن العاص ﷺ وحرصه على الكتب مات قبل الفتح الإسلاميّ لمصر بنحو أربعين سنة[٢].

🕮 بناء مدينة الفسطاط:

أراد عمرو بن العاص ﷺ عقب فتح الإسكندريّة أن ينزل بجنده في مساكنها الّتي أخلاها الرّوم، وعرض الأمر على الخليفة عمر ﷺ فرفض؛ لأنّه لا يقبل أن ينزل المسلمون منزلاً يفصل بينه وبينهم ماء، ولذا تحوّل عمروٌ ﷺ إلى الفسطاط[٣]، بين ماء وصحراء[٤]، على الصّفة الّتي تصلح لإقامة العرب وإبلهم، وترك في الإسكندريّة رابطة من المسلمين عليهم عبد الله بن حذافة السّهميّ[٥].

ويذكر رواة الأخبار في سبب تسمية مدينة مصر بالفسطاط أنّ الأمير عمرو بن العاص ﷺ لمّا أراد التّوجّه إلى الإسكندريّة أمر بنزع فسطاطه فإذا فيه يمامٌ قد فرّخ، فأمر بتركه كما هو، وأوصى به صاحب القصر، فلمّا قفل المسلمون من الإسكندريّة نزلوا حول الفسطاط[٦].

وقد عرفت الفسطاط بمدينة مصر، وكان موضعها فضاء ومزارع فيما بين النّيل، والجبل الشّرقيّ الّذي يعرف بالجبل المقطّم، ليس فيه من البناء، والعمارة سوى حصن[٧] كان

---

(١) بتلر: فتح العرب لمصر، ص٤٣٩.

(٢) فتح العرب لمصر، ص٤٢٢.

(٣) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص١٠٤، ١٠٥.

(٤) ياقوت: معجم البلدان، جـ٤، ص٢٦٣.

(٥) ابن سعد: الطّبقات الكبير، جـ٥، ص٦٨.

(٦) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص١٠٥.

(٧) عرف جزء من هذا الحصن القديم زمن المقريزيّ بقصر الشّمع وبالقلعة. المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، (الخطط المقريزيّة)، جـ٢، ص٦٦.

ينزل به حاكم مصر من قبل الرّوم عند مسيره من الإسكندريّة، ويقيم فيه ما شاء، ثمّ يعود إلى دار الإمارة بالإسكندريّة، وكان هذا الحصن مطلّاً على النّيل، وتصل السّفن في النّيل إلى بابه الغربيّ الّذي كان يعرف بباب الحديد، ويفصله عن النّيل الجزيرة الّتي عرفت بالرّوضة قبالة مصر، وكان مقياس النّيل بجانب الحصن(١).

ولم يختلف تأسيس الفسطاط عن المدن الّتي بناها المسلمون قبل ذلك كالبصرة والكوفة، فقد بدأ عمرو بن العاص ﷺ ببناء مسجده الشّهير بمصر القديمة(٢)، واختطّ داره عند باب المسجد في النّاحية الشّرقيّة(٣)، واختطّ النّاس دورهم حوله(٤)، فكانت الخطط بمدينة الفسطاط، بمنزلة الحارات بالقاهرة فيما بعد، فقيل لها في مصر "خطّة"، وقيل لها في القاهرة "حارة"(٥).

🕮 تأمين حدود مصر الغربيّة (فتح برقة وطرابلس):

بعد أن اطمأنّ عمرو بن العاص ﷺ على استقرار الأوضاع في مصر، عمل على تبليغ رسالة الإسلام لأهل ليبيا، وتأمين حدود مصر الغربيّة، فخرج من الإسكندريّة في أواخر عام ٢٢هـ/٦٤٣م، وتوجّه نحو برقة التّابعة للإمبراطوريّة البيزنطيّة، وتسكنها قبيلة لَواتة البربريّة، فلم يصادف مقاومة تذكر، واستسلمت المدينة، ورضي أهلها بدفع جزية مقدارها ثلاثةَ عشرَ ألف دينار سنويًّا، وأرسل عمرو ﷺ عقبةَ بنَ نافع الفهريّ فسار حتّى بلغ زَوِيْلَة، وأضحى ما بين برقة إلى زويلة خاضعًا للمسلمين(٦).

وإنّ استسلام أهل برقة للفاتحين المسلمين دون مقاومة تذكر ليدلّ على تهافت ما ذكره مؤلّف فتوح الشّام المجهول الّذي يزعم أنّ المقوقس البيزنطيّ - حاكم مصر -

(١) المقريزي: الخطط المقريزيّة، ج٢، ص٦٦.

(٢) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص١٠٥.

(٣) فتوح مصر وأخبارها، ص١١٠.

(٤) فتوح مصر وأخبارها، ص١٠٥.

(٥) المقريزي: الخطط المقريزيّة، ج٢، ص٨٦.

(٦) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص١٨٦؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٤٧؛ محمّد سهيل طقوش: تاريخ الخلفاء الرّاشدين، ص٣٢٠، ٣٢١.



استنجد بحاكم برقة الرّومانيّ خلال محاصرة المسلمين لمدينة الإسكندريّة فأمدّه بأربعة آلاف بقيادة ابن أخيه اسطفانوس الرّومانيّ(١).

ولسنا بحاجة للكلام عن بطلان مثل هذه الرّواية المجهولة المؤلّف، والّتي تخالف المصادر الموثوقة في ذكر خالد بن الوليد، وشرحبيل بن حسنة، ويزيد بن أبي سفيان، والقعقاع بن عمرو، في جملة من فتحوا مصر والإسكندريّة!(٢)، وهؤلاء لم يردوا الدّيار المصريّة قطّ.

وقد سار عمرو بن العاص ﷺ من برقة إلى إقليم طرابلس سنة ٢٣هـ/٦٤٤م، فاستولى على قاعدته طرابلس بعد قتال عنيف مع حامية المدينة(٣).

واستأذن أمير مصر عمرو بن العاص ﷺ الخليفة الفاروق ﷺ في الزّحف إلى تونس، وما وراءها من شمالي إفريقيّة، فلم يأذن له، وخشي من تفرّق المسلمين في بلاد واسعة بعيدة، ولمّا تثبت أقدامهم فيها(٤).

وكتب الفاروق عمرُ ﷺ إلى عامله عمرو بن العاص ﷺ: "لَوْ فُتِحَتْ إِفْرِيقِيَّةُ مَا قَامَتْ بِوَالٍ مُقْتَصِدٍ لَا جُنْدَ مَعَهُ، ثُمَّ لَا آمَنُ أَنْ يَقْتُلُوهُ، فَإِنْ شَحَنْتَهَا بِالرِّجَالِ كَلِفْتَ حَمْلَ مَالِ مِصْرَ أَوْ عَامَّتِهِ إِلَيْهَا، لَا أُدْخِلُهَا جُنْدًا لِلْمُسْلِمِينَ أَبَدًا، وَسَيَرَى الْوَالِي بَعْدِي رَأْيَهُ"(٥).

وإلى هذا الحدّ توقّفت فتوحات الرّجل العظيم عمرو بن العاص ﷺ، والّذي يقف في الصّفّ الأوّل بين بُناة الدّولة الإسلاميّة، فهو الّذي انتزع فلسطين ومصر وليبيا من يد المحتلّين البيزنطيّين، وأضاف بذلك إلى دولة الإسلام أكثر من ثلث ما فتحته جيوشها إلى ذلك الحين(٦).

---

(١) فتوح الشّام المنسوب للواقدي، ج٢، ص٧٢.

(٢) فتوح الشّام، ج٢، ص٧٠.

(٣) ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص١٨٦؛ حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس، مكتبة الأسرة، ٢٠٠٤م، ص٣٤.

(٤) البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٤٩؛ محمّد سهيل طقوش: تاريخ الخلفاء الرّاشدين، ص٣٢٢.

(٥) ابن سعد: الطّبقات الكبير، ج٦، ص١٣٨.

(٦) حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص٣٤.

🕮 تأمين حدود مصر الجنوبيّة:

تطلّع عمرو بن العاص ﷺ بعد عودته من الغرب إلى الجنوب، وذلك لتعريف أهل بلاد النّوبة(١) بالإسلام، وتأمين حدود مصر الجنوبيّة، فأرسل إليها جيشًا بقيادة عقبة بن نافع الفهريّ، فقاتله أهلها قتالاً شديدًا، فرجع عقبةُ على أثره، ولم يعقد معهم صلحًا ولا هدنة، والمعروف أنّ أهل النّوبة اشتهروا برمي النّبْل، وكانوا لا يخطئون في ذلك، ويتحرّون الأعين فيرمونها فيفقأونها، فسمّاهم المسلمون رماة الحدق، وظلّ المسلمون يناوشون النّوبيّين من وراء الحدود(٢).

---

(١) النّوبة: كانت النّوبة تطلق على الأجزاء الممتدّة على نهر النّيل بين مدينتي أسوان المصريّة والخرطوم السّودانيّة. مصطفى محمد سعد: الإسلام والنّوبة في العصور الوسطى، الهيئة المصريّة العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١١م، ص١١٦، ١١٧.

(٢) ابن سعد: الطّبقات الكبير، ج٥، ص٦٩؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٦٠؛ محمّد سهيل طقوش: تاريخ الخلفاء الرّاشدين، ص٣٢٢.



الفصل السّابع

سياسة الفاروق مع ولاته

يدور الحديث في هذا الجانب عن معايير عمر ﷺ في اختيار ولاته وعزلهم، ومراقبة إدارتهم لولاياتهم، وسياستهم مع رعيّتهم، وسلوكيّاتهم في حياتهم الخاصّة.

🕮 معايير الفاروق عمر في اختيار ولاته:

سار الفاروق عمر ﷺ على المنهج النّبويّ الشّريف في اختيار الولاة، فكان لا يولّي إلّا صفوة الرّعيّة من الأكفاء والأمناء المؤهّلين للقيام بأعباء الولايات على أتمّ وجه وأعلى مستوى[(١)]، ومن أبرز تلك المعايير:

(١) أن يكون الوالي صحابياً ولم يقع في الرّدّة:

حرص الفاروق عمر ﷺ على اختيار ولاته من الصّحابة ﷺ، وإنّ المتتبّع لأخبار ولاته على البلدان يتّضح لديه أنّهم كانوا من صحابة النّبيّ ﷺ إلّا قليلاً[(٢)].

وكان الصّدّيق أبو بكر ﷺ لا يشرك من سبقت لهم الرّدّة في أعمال الجهاد أصلاً، فلمّا كان عهد عمر ﷺ ندبهم للجهاد، ولكنّه لم يؤمّر أحدًا منهم إلّا على النّفر، وما دون ذلك[(٣)]، وأمر سعد بن أبي وقّاص ﷺ أن لا يؤمّر أحدًا من رؤساء الرّدّة على مائة من الجند[(٤)]، ومع ذلك فقد كان عمر ﷺ يجلّهم ويأمر قادته باستشارتهم والسّماع لهم[(٥)].

(٢) أن لا يكون الوالي من عشيرة عمر ﷺ:

لم يعرف عن الفاروق عمر ﷺ أنّه استعمل أحدًا من بني عديّ إلّا النّعمان بن عديّ بن نضلة على مَيْسان العراقيّة، بل ثبت أنّه كان يجنّب قرابته الولاية والخلافة من

---

(١) علي محمّد محمّد الصّلّابي: عمر بن الخطاب، ص٣٩١.

(٢) عبد السّلام محسن آل عيسى: دراسة نقدية في المرويّات الواردة في سيرة عمر بن الخطّاب وسياستة الإداريّة، ج٢، ص٦٢١.

(٣) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٤٦٨.

(٤) تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٤٢١.

(٥) ابن سعد: الطّبقات الكبير، ج٦، ص٢٧١؛ الدّينوري: الأخبار الطّوال، ص١٣٥؛ حمدي شاهين: الدّولة الإسلاميّة في عصر الخلفاء الرّاشدين، ص١٣٢، ١٣٣.

بعده، وأوصى مَن بَعْدَه من الخلفاء بعدم تولية قراباتهم وحملهم على رقاب النّاس(١)، فلمّا طُعن وطُلب منه أن يوصي ويستخلف قال: "ما أجد أحدًا أحقّ بهذا الأمر من هؤلاء النّفر أو الرّهط الّذين توفّي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض"، فسمّى عليًّا وعثمان والزّبير وطلحة وسعدًا وعبد الرّحمن ﷺ، وقال: "ليشهدكم عبدُ الله بنُ عمرَ، وليس له من الأمر شيء"(٢).

(٣) القوّة والأمانة والخبرة السّياسيّة:

كان عمر ﷺ يبحث عن أهل الكفاءة بحمل أعباء الولايات ممّن تجتمع فيهم الخبرة والحنكة السّياسيّة استنانًا بما فعله النّبيّ ﷺ مع أبي ذرّ الغفاريّ ﷺ عندما طلب من النّبيّ ﷺ أن يستعمله فضرب على منكبه، ثمّ قال: "إِنَّكَ ضَعِيفٌ، وَإِنَّهَا أَمَانَةٌ، وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ، إِلَّا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا، وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا"(٣).

ولهذا عزل الفاروق عمر ﷺ عمّار بن ياسر ﷺ عن ولاية الكوفة بعد أن سأل عنه هل هو مجزئ في ولايته، فقال جرير بن عبد الله البجليّ ﷺ: "وَاللهِ مَا هُوَ بِمُجْزِئٍ وَلَا كَافٍ، وَلَا عَالِمٌ بِالسِّيَاسَةِ"، فعزله وولّى المغيرة بن شعبة ﷺ(٤).

وعندما عزل شرحبيل بن حسنة ﷺ عن ولاية الأُردنّ ظنّ الوالي أنّ عمر ﷺ عزله عن سُخطة من عجز أو خيانة، فقال له: "لَا، وَلَكِنَّا رَأَيْنَا مَنْ هُوَ أَقْوَى مِنْكَ، فَتَحَرَّجْنَا مِنَ اللَّهِ أَنْ نُقِرَّكَ وَقَدْ رَأَيْنَا مَنْ هُوَ أَقْوَى مِنْكَ"، وعذره على المنبر أمام النّاس(٥).

ولهذا كان عمر ﷺ يستعمل رجالاً كعمرو بن العاص، ومعاوية بن أبي سفيان، والمغيرة بن شعبة ﷺ، ويدع من هم أفضل منهم من أكابر الصّحابة مثل عثمان وعليّ وطلحة والزّبير وعبد الرّحمن بن عوف ﷺ ونظرائهم، لقوّة أولئك على العمل والبصر به، إضافة إلى إشرافه عليهم، وهيبتِهم له(٦).

(١) عبد السّلام آل عيسى: دراسة نقديّة في المرويّات الواردة في سيرة عمر بن الخطّاب، ج٢، ص٦٢٣، ٦٢٤.
(٢) البخاري: الصّحيح، (كتاب فضائل الصّحابة، باب قصّة البيعة)، ج٣، ص١٣٥٣، ح٣٤٩٧.
(٣) مسلم: الصّحيح، (كتاب الإمارة، باب كراهة الإمارة بغير ضرورة)، ج٣، ص١٤٥٧، ح١٨٢٥.
(٤) ابن أبي شيبة: المصنّف في الأحاديث والآثار، ج٦، ص٢٠٣. والأثر صحيح.
(٥) المصنّف في الأحاديث والآثار، ج٦، ص١٨٩. والأثر حسن الإسناد.
(٦) ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٣، ص٢٨٢، ٢٨٣؛ البلاذري: أنساب الأشراف، ج١٠، ص٣٢٣.



وكان عمر ﷺ لا يعدل بالأمانة وتوسيد الأمر إلى أهله شيئًا، فعندما قصد الشّام سنة الوباء قال: "إِنْ أَدْرَكَنِي أَجَلِي، وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ حَيٌّ، اسْتَخْلَفْتُهُ، فَإِنْ سَأَلَنِي اللهُ لِمَ اسْتَخْلَفْتَهُ عَلَى أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ؟ قُلْتُ: إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَكَ ﷺ يَقُولُ: "إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ أَمِينًا، وَأَمِينِي أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ"(١).

(٤) الرّحمة والشّفقة:

لا شكّ أنّ هاتين الخصلتين مهمّتان وأساسيّتان للوالي الّذي جمع صفات الصّلاح والقدرة والحنكة السّياسيّة، إذ بهما يُحسن التّعامل مع الرّعيّة، ويقيم العدل فيهم، ويحبّهم ويحبّونه، ويُقبلون إليه، ويأنسون به، ويرفعون إليه حوائجهم من غير رهبة ولا وجل، وقد قال - تعالى- لنبيّه ﷺ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾(٢)، ولهذا كان أمير المؤمنين عمر ﷺ لا يقبل أهل الجفاء والغلظة بين ولاته، ولمّا اختار رجلاً من بني أسد ليستعمله على عمل ودخل الأسديّ ليسلّم عليه أتي عمرُ ﷺ ببعض ولده، فقبّله، فتعجّب الأسديّ من صنيعه وقال: "أَتُقَبِّلُ هَذَا يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ؟ فَوَاللَّهِ مَا قَبَّلْتُ وَلَدًا لِي قَطُّ، فَقَالَ عُمَرُ ﷺ: فَأَنْتَ وَاللَّهِ بِالنَّاسِ أَقَلُّ رَحْمَةٍ، لَا تَعْمَلْ لِي عَمَلاً أَبَدًا، فَرَدَّ عَهْدَهُ"(٣).

وحدث أن استعمل عمر ﷺ رجلاً على جيش ليغزو بلاد الجبل التّابعة للفرس، فانتهوا إلى نهر ليس عليه جسر، فكلّف الأمير رجلاً من أصحابه بنزول الماء في يوم شديد البرد للبحث عن مخاضة يجوز فيها الجيش، فاعتذر الرّجل بأنّه يخاف الموت من شدّة برد الماء، ولكنّ الأمير أكرهه على النّزول، فدخل الماء وهو يقول: "يَا عُمَرَاهُ يَا عُمَرَاهُ"، ولم يلبث أن هلك، فبلغ ذلك الفاروق عمر ﷺ وهو في سوق المدينة، فقال: "يَا لَبَّيْكَاهُ يَا لَبَّيْكَاهُ"،

(١) أحمد بن حنبل: المسند، ج١، ص٢٦٣، ح١٠٨. وحسّنه محقّقو المسند لغيره.

(٢) سورة آل عمران: من الآية ١٥٩.

(٣) هنّاد بن السّري: الزّهد، تحقيق/ عبد الرّحمن عبد الجبّار الفريوائي، دار الخلفاء للكتاب الإسلامي، الكويت، الطّبعة الأولى، ١٤٠٦هـ، ج٢، ص٦١٩. والأثر صحيح. عبد السّلام محسن آل عيسى: دراسة نقديّة في المرويّات الواردة في سيرة عمر بن الخطّاب وسياسته الإداريّة، ج٢، ص٦٣٠.

وبعث إلى أمير ذلك الجيش فنزعه، وقال له: "لَوْلَا أَنْ تَكُونَ سُنَّةً لَأَقَدْتُ مِنْكَ، لَا تَعْمَلْ لِي عَلَى عَمَلٍ أَبَدًا"(١).

وإذا كانت هذه الأسس هي أهمّ الصّفات الّتي راعاها عمر ﷺ في ولاته، فقد كان يرى في بعض صحابة النّبيّ ﷺ نماذج مثاليّة للولاة بما توافر فيهم من صفات تؤهّلهم لحمل أعباء الولايات والقيام بها(٢)، وقد صرّح يومًا لجلسائه بأسماء بعضهم فقال لأصحابه: "تَمَنَّوْا، فقال بعضهم: أَتَمَنَّى لَوْ أَنَّ هَذِهِ الدَّارَ مَمْلُوءَةٌ ذَهَبًا أُنْفِقُهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَتَصَدَّقُ، وقال رجلٌ: أَتَمَنَّى لَوْ أَنَّهَا مَمْلُوءَةٌ زَبَرْجَدًا وَجَوْهَرًا فَأُنْفِقُهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَتَصَدَّقُ، ثمّ قال عمر: تَمَنَّوْا، فقالوا: مَا نَدْرِي يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، فقال عمر: أَتَمَنَّى لَوْ أَنَّهَا مَمْلُوءَةٌ رِجَالاً مِثْلَ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ الْجَرَّاحِ، وَمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، وَسَالِمٍ مَوْلَى أَبِي حُذَيْفَةَ، وَحُذَيْفَةَ بْنِ الْيَمَانِ"(٣).

وهؤلاء الّذين ذكرهم عمر ﷺ من خيرة صحابة النّبيّ ﷺ، ومن السّابقين إلى الإسلام، وممّن اتّصفوا بالورع والتّقوى، والزّهد وسعة العلم، والفقه في الدّين، والشّجاعة، وغيرها من الصّفات الحميدة، ولذلك كان ولاة عمر ﷺ مثلاً عاليًا في التّقوى والصّلاح والزّهد والورع وحسن القيام بأعباء الولاية والإخلاص لله في ذلك، وفوق كلّ ذلك ما تميّزوا به من شرف صحبتهم لرسول الله ﷺ(٤).

🕮 المراد بوعْد الشّيخينِ الأنصارَ بالوزارة:

جاء في أثر عن أمير المؤمنين عمر ﷺ أنّه عزم على استعمال الأنصار ﷺ في مختلف الولايات، وقال في ذلك: "قَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَكَّةَ يَعْرِضُ نَفْسَهُ عَلَى قَبَائِلِ الْعَرَبِ

(١) ابن شبّة: تاريخ المدينة، ج٢، ص١٩؛ ابن عبد الهادي: محض الصّواب في فضائل أمير المؤمنين عمر بن الخطّاب، تحقيق/ عبد العزيز محمّد عبد المحسن، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلاميّة، المدينة المنوّرة، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، ج٢، ص٥٢١. والأثر صحيح.

(٢) عبد السّلام آل عيسى: دراسة نقديّة في المرويّات الواردة في سيرة عمر بن الخطّاب، ج٢، ص٦٣٤.

(٣) ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٣، ص٤١٣؛ أحمد بن حنبل: فضائل الصّحابة، ج٢، ص٩٢٤، ح١٢٨٠. واستدركه الحاكم على الصّحيحين، وصحّحه الذّهبيّ. المستدرك على الصّحيحين، ج٣، ص٢٥٢، ح٥٠٠٥. والأثر حسن الإسناد.

(٤) عبد السّلام محسن آل عيسى: دراسة نقديّة في المرويّات الواردة في سيرة عمر بن الخطّاب، ج٢، ص٦٣٥.



قَبِيلَةً قَبِيلَةً فِي الْمَوْسِمِ، مَا يَجِدُ أَحَدًا يُجِيبُهُ إِلَى مَا يَدْعُو إِلَيْهِ حَتَّى جَاءَ إِلَيْهِ هَذَا الْحَيُّ مِنَ الْأَنْصَارِ لَمَّا أَسْعَدَهُمُ اللَّهُ وَسَاقَ إِلَيْهِمْ مِنَ الْكَرَامَةِ فَآوَوا وَنَصَرُوا فَجَزَاهُمُ اللَّهُ عَنْ نَبِيِّهِمْ خَيْرًا، وَاللَّهِ مَا وَفَيْنَا لَهُمْ كَمَا عَاهَدْنَاهُمْ عَلَيْهِ، إِنَّا قُلْنَا لَهُمْ: إِنَّا نَحْنُ الْأُمَرَاءُ وَأَنْتُمُ الْوُزَرَاءُ، وَلَئِنْ بَقِيتُ إِلَى رَأْسِ الْحَوْلِ لَا يَبْقَى لِي عَامَلٌ إِلَّا أَنْصَارِيٌّ"[١].

لكن لا يصحّ هذا الحديث عن الفاروق عمر ﷺ[٢]؛ فإنّه من أعلم النّاس بمعاني اللّغة، وأجلّ من أن يخطئ في فهم المراد من كلام الصّدّيق يوم السّقيفة.

وقد زعم أعداء الشّيخين أنّهما أطمعا الأنصار في الوزارة يوم السّقيفة ثمّ غدرا بهم، ولم يستوزر الصّدّيق ولا من بعده من الخلفاء أحدًا منهم[٣]، وهذا غلط من الطّاعنين؛ لأنّ أبا بكر ﷺ لم يقصد بقوله للأنصار يوم السّقيفة: "نحن الأمراء وأنتم الوزراء" أن يكونوا ولاة على البلدان؛ لأنّه لو قصد ذلك لفعله من أوّل أمره، ولما تركه الأنصار يتجاوزُهم في هذا الأمر، ثمّ إنّ الولاة أمراءُ، وليسوا وزراءَ، ولم تكن الوزارة في صدر الإسلام كما صارت عليه أيّام بني العبّاس، بل الوزارة الّتي ذكرها أبو بكر ﷺ للأنصار إنّما هي المعونة والمؤازرة في طاعة الله لمن يلي الأمر من قريش، فهذا زيادة في كلفة الأنصار في شدّة الوطأة عليهم والمشقّة الشّديدة فيما ألزمهم من معونة الخلفاء، وقد أشار على الأنصار يوم السّقيفة بتولية عمر بن الخطّاب أو أبي عبيدة بن الجرّاح رضي الله عنهما، وقال: "ودعوني أكون لهم وزيرًا"، وكذا قال عند وفاته: "ليتني يوم سقيفة بنى ساعدة لم أقبل البيعة وجعلتها في عمر أو في أبي عبيدة، وكنت وزيرًا لا أميرًا، وأراد بذلك أن يكون معينًا للخليفة لا أن يتولّى منصبًا معيّنًا، وسنرى عليّ بن أبي طالب ﷺ يقول للنّاس عندما يطلبونه للخلافة: "انظروا غيري تبايعوه وأبايعه معكم، ودعوني أكون لكم وزيرًا، فلأن أكون لكم وزيرًا خيرًا من أن أكون أميرًا"[٤].

---

(١) البزّار: البحر الزّخّار، جا، ص٤٠٤، ٤٠٥، ح٢٨١. وحسّن البزار إسناد الأثر.

(٢) لقد تعقّب الهيثمي البزّار في تحسينه هذا الأثر فقال: "رواه البزار وحسّن إسناده، وفيه عبد الله بن شبيب وهو ضعيف". مجمع الزّوائد، ج٦، ص٤٢، ح٩٨٧٩.

(٣) لقد استعمل الصّدّيق والفاروق غير واحد من الأنصار في الولاية على البلدان وغيرها من الوظائف.

(٤) القاضي عبد الجبّار: تثبيت دلائل النّبوّة، ج٢، ص٥٦٣، ٥٦٤.

📖 **معايير عمر ﷺ في عزل ولاته**:

لم يكن الفاروق عمر ﷺ بالخليفة المستضعف الّذي يسكت على تجاوزات الولاة وتقصيرهم في عملهم، بل كان يقف بالمرصاد لمتابعة أعمالهم، فيثبّت ذوي الكفاءة للإمارة ما قبلتهم الرّعيّة، ولا يتوانى في محاسبة المقصّرين في تنفيذ السّياسة الّتي وضعها لهم، ويمكن من خلال العرض الآتي معرفة الأسباب الّتي كان عمر ﷺ يعزل ولاته من أجلها:

(١) حماية عقيدة المسلمين:

لقد بدأ الفاروق عمر ﷺ خلافته بعزل خالد بن الوليد والمثنّى بن حارثة رضي الله عنهما من ولايتيهما على الشّام والعراق؛ لأنّه كان يخشى من افتتان النّاس بهذين القائدين الّذين لم يهزما في جاهليّة ولا في إسلام[١]، وحتّى لا يظنّ بعض النّاس أنّ النّصر على الأعداء مقترنٌ بهما، فيقلّ اعتمادهم على الله وتوكّلهم عليه واستنزالهم نصره، ولذا قال عمر ﷺ: "لَأَعْزِلَنَّ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ، وَالْمُثَنَّى مُثَنَّى بَنِي شَيْبَانَ؛ حَتَّى يَعْلَمَا أَنَّ اللَّهَ إِنَّمَا كَانَ يَنْصُرُ عِبَادَهُ، وَلَيْسَ إِيَّاهُمَا كَانَ يَنْصُرُ"[٢].

وعندما أتته البشارة بفتح الله ﷻ على أبي عبيدة بن الجرّاح ﷺ ونصر المسلمين بالشّام، وهزيمة الرّوم، اشتدّ فرحه وقال: "اللَّهُ أَكْبَرُ، رُبَّ قَائِلٍ لَوْ كَانَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ"[٣]. وعندما بلغته هزيمة وقعة الجسر بالعراق واستشهاد أبي عبيد الثّقفيّ وتراجع المثنّى ببقيّة الجيش اشتدّ غمّه[٤].

(٢) شكوى الرّعيّة من الوالي:

على الرّغم من حرص أمير المؤمنين عمر ﷺ على تولية ذوي الكفاءة فإنّه كان يعزلهم لشكوى الرّعيّة، ولو كانت الشّكوى ظاهرة الكذب، قطعًا للفتنة الّتي يمكن أن

---

(١) محمّد عبد العال محمّد حسن: بنو شيبان ودورهم السّياسيّ والحضاريّ في العراق والجزيرة الفراتيّة خلال القرون الثّلاثة الأولى من الهجرة، رسالة دكتوراة، كلّيّة اللّغة العربيّة بأسيوط، ص١٠٠.

(٢) ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٣، ص٢٨٤. والأثر يرتقي لدرجة الحسن لغيره. عبد السّلام محسن آل عيسى: دراسة نقديّة في المرويّات الواردة في سيرة عمر بن الخطّاب، ج٢، ص٧٣٢.

(٣) ابن أبي شيبة: المصنّف، ج٧، ص٨، ح٣٣٨٤٠. والأثر صحيح الإسناد.

(٤) اليعقوبي: التّاريخ، ج٢، ص١٤٢.

تؤدّي إلى شقّ عصا الطّاعة[١]، وكان يقول في ذلك: "هَانَ شَيْءٌ أُصْلِحُ بِهِ قَوْمًا، أَنْ أُبَدِّلَهُمْ أَمِيرًا مَكَانَ أَمِيرٍ"[٢].

وقد ثبت أنّ أهل الكوفة شكوا سعد بن أبي وقّاص ﷺ حتّى زعموا أنّه لا يُحسن الصّلاة، فعزله عمر ﷺ، وأرسل إليه بمزاعم أهل الكوفة، فقال سعدٌ: "أَمَّا أَنَا وَاللَّهِ فَإِنِّي كُنْتُ أُصَلِّي بِهِمْ صَلَاةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، مَا أَخْرِمُ عَنْهَا، أُصَلِّي صَلَاةَ العِشَاءِ، فَأَرْكُدُ فِي الْأُولَيَيْنِ، وَأُخِفُّ فِي الأُخْرَيَيْنِ"، فصدّقه عمر ﷺ، وأرسل معه رجلاً إلى الكوفة، فلم يدعْ مسجدًا إلّا سأل عنه، فوجدهم يُثْنُونَ عليه معروفًا، حتّى دخل مسجدًا لبني عبسٍ، فقام رجلٌ منهم يقال له أسامةُ بنُ قتادة فقال: "أَمَّا إِذْ نَشَدْتَنَا، فَإِنَّ سَعْدًا كَانَ لَا يَسِيرُ بِالسَّرِيَّةِ، وَلَا يَقْسِمُ بِالسَّوِيَّةِ، وَلَا يَعْدِلُ فِي القَضِيَّةِ"، فقال سعدٌ ﷺ: "اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ عَبْدُكَ هَذَا كَاذِبًا، قَامَ رِيَاءً وَسُمْعَةً، فَأَطِلْ عُمْرَهُ، وَأَطِلْ فَقْرَهُ، وَعَرِّضْهُ بِالفِتَنِ"، فأجاب الله دعوة سعد ﷺ، وبقي هذا الكذّاب حتّى سقط حاجباه على عينيه من الكِبَر، وإنّه ليتعرّض للجواري في الطّرقِ يغمزُهُنَّ، ويقول لمن يلومه: "شَيْخٌ كَبِيرٌ مَفْتُونٌ، أَصَابَتْنِي دَعْوَةُ سَعْدٍ"[٣].

وقد أشار أمير المؤمنين عمر بن الخطّاب ﷺ إلى جدارة سعد بن أبي وقّاص ﷺ بإمرة المؤمنين -ناهيك عن إمرة الكوفيّين- فقال عند وفاته: "إِنْ أَصَابَتِ الْإِمْرَةُ سَعْدًا فَهُوَ ذَاكَ، وَإِلَّا فَلْيَسْتَعِنْ بِهِ أَيُّكُمْ مَا أُمِّرَ، فَإِنِّي لَمْ أَعْزِلْهُ عَنْ عَجْزٍ، وَلَا خِيَانَةٍ"[٤].

(٣) عدم امتثال الوالي لأوامر الخليفة:

كان الفاروق عمر ﷺ يسارع إلى عزل من يخالف أوامره، فقد عزل سيف الله خالد بن الوليد ﷺ لهذا السّبب، وقال وهو يخطب بالجابية: "إنّي أعتذر إليكم من خالد بن

---

(١) عبد السّلام محسن آل عيسى: دراسة نقديّة في المرويّات الواردة في سيرة عمر بن الخطّاب وسياسته الإداريّة، ج٢، ص٦٣٧.

(٢) ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٣، ص٢٨٤. والأثر عن الحسن البصريّ.

(٣) البخاري: الصّحيح، (كتاب فضائل الصّحابة، باب مناقب عمر)، ج١، ص٢٦٢، ح٧٢٢. وروى مسلم الجزء الأوّل منه. الصّحيح، (كتاب الصّلاة، باب القراءة في الظّهر والعصر)، ج١، ص٣٣٤، ح٤٥٣.

(٤) البخاري: الصّحيح، (كتاب فضائل الصّحابة، باب قصّة البيعة والاتّفاق على عثمان)، ج٣، ص١٣٥٣، ح٣٤٩٧.

الوليد، إنّي أمرته أن يحبس هذا المال على ضعفة المهاجرين، فأعطى ذا البأس، وذا الشّرف، وذا اللَّسَانَةِ، فنزعته وأمّرت أبا عبيدة، فقال أبو عمرو بنُ حفص بنِ المغيرة: والله ما أعذرت يا عمر بن الخطّاب، لقد نزعت عاملاً استعمله رسول الله ﷺ، وغمدت سيفًا سلّه رسول الله ﷺ، ووضعت لواءً نصبه رسول الله ﷺ، ولقد قطعت الرّحم، وحسدت ابن العمّ، فقال عمر ﷺ: "إنّك قريبُ القرابة، حديثُ السّنّ، مُغْضَبٌ من ابن عمّك"[1].

فتبيّن من هذه الرّواية أنّ مخالفة خالد بن الوليد ﷺ لأمر الفاروق ﷺ في شأن قسمة المال كانت من بين أسباب عزله[2].

ويرى الشّيخ محمّد الصّادق إبراهيم عرجون أنّ عزل خالد الأوّل كان عن قيادة الجيوش عامّة، وأمّا العزل الثّاني فكان عن المشاركة في القتال مطلقًا وهو الّذي كان عندما قدم عمر ﷺ الجابية[3].

(٤) عزل الوالي الّذي يستهزئ بأفراد الرّعيّة:

لم يسمح أمير المؤمنين عمر ﷺ لأحد من عمّاله أن يستهزئ بفرد من الرّعيّة، ولو كان على غير دينه، ويدلّ على ذلك أنّه استعمل رجلاً من الأنصار فنزل بعظيم أهل الحيرة عبد المسيح بن بُقيلة النّصرانيّ، فأمال عليه بالطّعام والشّراب ما دعا به، ولكنّه أكثر من الهزل، فدعا الرّجل فمسح بلحيته، فركب عبد المسيح إلى الفاروق عمر ﷺ فأخبره أنّه خدم كسرى وقيصر ولم يُصَب بسوء كما أهين في ملك أمير المؤمنين، وقصّ عليه خبر عامله، فأرسل عمر ﷺ إلى عامله فقال: "أَمَالَ عَلَيْكَ بِالطَّعَامِ وَالشَّرَابِ مَا دَعَوْتَ بِهِ، ثُمَّ مَسَحَتَ بِلِحْيَتِهِ؟ وَاللَّهِ لَوْلَا أَنْ تَكُونَ سُنَّةً مَا تَرَكْتُ فِي لِحْيَتِكَ طَاقَةً إِلَّا نَتَفْتُهَا، وَلَكِنِ اذْهَبْ فَوَاللَّهِ لَا تَلِي لِي عَمَلاً أَبَدًا"[4].

---

(١) أحمد بن حنبل: المسند، ج٢٥، ص٢٤٦، ح١٥٩٠٥. وجوّد الحافظ ابن كثير إسناد الأثر. مسند الفاروق، ج٢، ص٤٧٧، ٤٧٨.

(٢) عبد السّلام محسن آل عيسى: دراسة نقديّة في المرويّات الواردة في سيرة عمر بن الخطّاب وسياسته الإداريّة، ج٢، ص٦٣٨.

(٣) محمّد الصّادق إبراهيم عرجون: خالد بن الوليد، ص٢٨٤.

(٤) ابن شبّة: تاريخ المدينة، ج٢، ص١٩. والأثر صحيح الإسناد.

(٥) عزل الوالي الّذي يرتكب الكبائر:

لمّا كان الوالي نائبًا عن الخليفة في تنفيذ شرع الله ﷻ على الرّعيّة فإنّ ارتكابه لما يوجب عليه الحدّ يؤدّي إلى سقوط مكانته بين الرّعيّة واحتقارهم له، ولذا كان أمير المؤمنين عمر ﷺ يسارع إلى عزل الوالي الّذي يتّهم بفعل الكبائر، لصيانة مقام الوالي، ويقيم عليه الحدّ مع العزل إذا ثبت عليه ارتكاب الفعل.

رُوي أنّ عمر ﷺ عزل النّعمان بن عديّ بن نضلة العدويّ عن مَيْسان عندما تغنّى بأبيات فيها مدحٌ للخمر، ثمّ اعتذر لعمر ﷺ، وبيّن له أنّه ما أراد مدح الخمر، وإنّما أراد مجرّد التّغنّي بالشّعر، فقال عمر ﷺ: "إنّي لأظنّك صادقًا، ولكن لا تعمل لي عملاً"[(١)].

وعزل عمر ﷺ قُدامة بنَ مظعون الجُمَحِيّ ﷺ عن ولاية البحرين بعد ما شهد عليه الجارود العبديّ وأبو هريرة رضي الله عنهما بأنّه شرب الخمر، فحدّه عمر ﷺ وعزله[(٢)].

ولمّا شهد أبو بكرة ونافع وشُبل بن معبد بالزّنا على المغيرة بن شعبة ﷺ وهو على البصرة، ونَكَلَ زياد بن أبي سفيان عن الشّهادة وقال: "رأيت مجلسًا قبيحًا وانبهارًا"، جلد عمر ﷺ أبا بكرة ونافعًا وشبلاً حدّ القذف[(٣)]، وعزل المغيرة عن البصرة[(٤)].

(٦) عزل الوالي إذا اعتذر عن الولاية لعذر شرعيّ:

ولّي عمر ﷺ النّعمان بن مُقَرِّن ﷺ خراج كَسْكَر، فكتب إليه: "يا أمير المؤمنين، إنّ مثلي ومثل كسكر كمثل رجل شابّ عند مومسة تلوّن له وتعطّر، وإنّي أنشدك بالله لما عزلتني عن كسكر، وبعثتني في جيش من جيوش المسلمين"، فعزله عمر، وكتب إليه: "سر إلى النّاس بنهاوند، فأنت عليهم، فسار إليهم، فالتقوا، فكان ﷺ أوّل قتيل"[(٥)].

---

(١) ابن هشام: السّيرة النّبويّة، ج٢، ص٣٦٦؛ البلاذري: أنساب الأشراف، ج١٠، ص٤٧٩، ٤٨٠. بدون إسناد.

(٢) النّسائي: السّنن الكبرى، (كتاب الحدّ في الخمر، باب إقامة الحدّ على من شرب الخمر على التّأويل)، ج٣، ص٢٥٣، ح٥٢٨٩؛ البيهقي: السّنن الكبرى، ج٨، ص٣١٥. والأثر صحيح الإسناد.

(٣) عبد الرّزّاق: المصنّف، ج٧، ص٣٨٤، ح١٣٥٦٦. وسنده متّصل، ورجاله ثقات. عبد السّلام محسن آل عيسى: دراسة نقديّة في المرويّات الواردة في سيرة عمر بن الخطّاب وسياسته الإداريّة، ج٢، ص٦٤٢.

(٤) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص٣٥.

(٥) ابن أبي شيبة: المصنّف، ج٦، ص٥٥٢. والأثر صحيح الإسناد.

وأمّا الّذين يعتذرون عن الولاية للهروب من أعبائها وتبعاتها فلم يقبل الفاروق منهم، فقد دعا سعيد بن عامر بن حُذيم الجمحيّ ﷺ ليستعمله، فقال: "أو تقيلني يا أمير المؤمنين"؟ فرفض عمر ﷺ، وقال: "والله لا أدعك، قلّدتموها في عنقي وتتركوني"؟[(١)].

🕮 مراقبة عمر ﷺ للولاة ومتابعته لهم:

لم يتّكل الفاروق عمر ﷺ على حسن اختياره لعمّاله ويقعد عن متابعتهم، بل كان يبذل أقصى جهده في مراقبتهم ليطمئنّ على سيرتهم في الرّعيّة الّتي سيسأله الله عنها، وكان يصرّح بأنّه لا يقضي الّذي عليه عند استعماله لخيرِ مَنْ يعلم ويأمره بالعدل حتّى ينظر في عمله، أعمل بما أمره أم لا"[(٢)].

وكان الفاروق عمر ﷺ يحاسب الولاة محاسبة شديدة على المال العام، فقد استعمل أبا هريرة ﷺ على البحرين، فقدم بعشرة آلافٍ، فقال له عمر ﷺ: "اسْتَأْثَرْتَ بِهَذِهِ الْأَمْوَالِ يَا عَدُوَّ اللَّهِ، وَعَدُوَّ كِتَابِهِ"، فقال أبو هريرة ﷺ: "لَسْتُ عَدُوَّ اللَّهِ، وَلَا عَدُوَّ كِتَابِهِ، وَلَكِنِّي عَدُوُّ مَنْ عَادَاهُمَا"، قال: فَمِنْ أَيْنَ هِيَ لَكَ؟ قال: "خَيْلٌ لِي تَنَاتَجَتْ، وَغلَّةُ رَقِيقٍ لِي، وَأُعْطِيَةٌ تَتَابَعَتْ عَلَيَّ"، فنظروه، فوجدوه كما قال، فلمّا كان بعد ذلك، دعاه عمر ﷺ ليستعمله، فأبى أن يعمل له، فقال: "أَتَكْرَهُ الْعَمَلَ وَقَدْ طَلَبَ الْعَمَلَ مَنْ كَانَ خَيْرًا مِنْكَ يُوسُفُ"؟ قال: "إِنَّ يُوسُفَ نَبِيٌّ ابْنُ نَبِيٍّ ابْنِ نَبِيٍّ، وَأَنَا أَبُو هُرَيْرَةَ ابْنُ أُمَيْمَةَ، أَخْشَى ثَلَاثًا وَاثْنَيْنِ"، قال له عمر ﷺ: "أَفَلَا قُلْتَ خَمْسًا؟ قال: "لَا، أَخْشَى أَنْ أَقُولَ بِغَيْرِ عِلْمٍ، وَأَقْضِيَ بِغَيْرِ حُكْمٍ، وَيُضْرَبَ ظَهْرِي، وَيُنْتَزَعَ مَالِي، وَيُشْتَمَ عِرْضِي"[(٣)].

وعندما استودع عمر ﷺ أنس بن مالك ﷺ ستّة آلاف درهم من الأموال العامّة فضاعت من بين أمواله، ضمّنه إيّاها، ولم يتّهمه بالخيانة، بل شعر بإهماله في حفظها[(٤)].

---

(١) معمر بن راشد: الجامع، ج١١، ص٣٤٨، ٣٤٩. والأثر يرتقي بمجموع طرقه إلى درجة الحسن لغيره كما قال محقّق المطالب العالية لابن حجر، ج١٣، ص٢٩٠.

(٢) معمر: الجامع، ج١١، ص٣٢٦، ح٢٠٦٦٥؛ البيهقي: السّنن الكبرى، ج٨، ص٢٨٢، ح١٦٦٥٥.

(٣) معمر: الجامع، ج١١، ص٣٢٣، ح٢٠٦٥٩؛ ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٤، ص٣٣٥؛ أبو عبيد: الأموال، ص٣٤٢. والأثر صحيح.

(٤) عبد الرزّاق: المصنّف، ج٨، ص١٨١، ح١٤٧٩٩؛ البيهقي: السّنن الكبرى، ج٦، ص٤٧٤. والأثر صحيح.

وكان عمر ﷺ لا يرى للولاة حقًّا في التّنعّم من المال العام دون الرّعيّة، فقد غضب على والي أذربيجان عتبة بن فَرْقَد السُّلَميّ ﷺ؛ لأنّه أهدى إليه خبيصًا (نوع من الحلوى) لم يكن الجند ينالونه، فكتب إليه عمر: "إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ كَدِّكَ، وَلَا مِنْ كَدِّ أَبِيكَ، وَلَا مِنْ كَدِّ أُمِّكَ، فَأَشْبِعِ الْمُسْلِمِينَ فِي رِحَالِهِمْ مِمَّا تَشْبَعُ مِنْهُ فِي رَحْلِكَ، وَإِيَّاكُمْ وَالتَّنَعُّمَ"(١).

وكان الفاروق ﷺ يكلّف محمّد بن مسلمة الأنصاريّ ﷺ بمهام التّفتيش على الولاة(٢)، ويأمرهم بالاجتماع بمكّة في موسم الحجّ للتّداول معهم في أحوال الأمّة(٣)، بل قام عمر ﷺ بتفقّد أحوال الولاة والقادة في الشّام عندما زار بيت المقدس لتسلّم مفاتيحها، وأصرّ على زيارتهم في بيوتهم ليتعرّف على أحوالهم وتعاملهم مع الدّنيا والأموال ومدى تعلّقهم بها، وقد عانق أبا عبيدة ﷺ وبكى؛ لأنّه لم يجد عنده إلّا كِسَرًا يابسة وبعض الملح مع كوز ماء، ولم ير عنده رياشًا ولا فُرُشًا ناعمة، وقال له: "ما من أحدٍ من أصحابي إلّا وقد نال من الدّنيا ونالت منه، غيرك"(٤).

📖 اقتصاص عمر للرّعيّة من الولاة:

كان عمر ﷺ يحقّق بنفسه في شكاوى الرّعيّة ضدّ الولاة، فإذا ثبتت إدانة الوالي وتعدّيه على النّاس أنزل عليه العقوبة الّتي يستحقّها، فقد روى جرير بن عبد الله البَجليّ أنّ رجلاً كان مع أبي موسى الأشعريّ ﷺ - والي البصرة - وكان ذا صوت، ونكاية، في العدوّ، فغنموا مغنمًا فأعطاه أبو موسى بعض سهمه، فأبى أن يقبله إلّا جميعًا، فجلده أبو موسى عشرين سَوْطًا وحلقه، فجمع الرّجل شَعْره وذهب به إلى عمر ﷺ فضرب به صدره، ثمّ قال: "أما والله لولا النّار، فقال عمر: صدق والله لولا النّار"، وأخبر الخليفة بما حدث له من أبي موسى، واستعداه عليه، فقال عمر: "لأَنْ يَكُونَ النَّاسُ كُلُّهُمْ عَلَى مِثْلِ صَرَامَةِ هَذَا

(١) ابن أبي شيبة: المصنّف، ج٦، ص٤٦٠، ح٣٢٩١٧؛ مسلم: الصّحيح، (كتاب اللّباس والزّينة، باب تحريم استعمال إناء الذّهب والفضّة على الرّجال والنّساء، وخاتم الذّهب والحرير على الرّجل، وإباحته للنّساء)، ج٣، ص١٦٤٢، ح٢٠٦٩.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٤٢، ٢٩٩.

(٣) أبو يوسف: الخراج، ص١٢٩؛ ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٣، ص٢٩٣.

(٤) الأزدي: فتوح الشّام، ص٢٥٥، ٢٥٦؛ أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الرّاشدة، ص١٢٤.

أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ جَمِيعِ مَا أُفِيءِ عَلَيْنَا"، وكتب إلى أبي موسى بأن يجلس للرّجل حتّى يقتصّ منه على الصّفة الّتي عاقبه عليها، سواء كان في خلاء أو على ملأ من النّاس، فقدم الرّجل على أبي موسى، وتلقّاه النّاس يسألونه العفو عن الأمير، فأقسم أنّه لن يدعه لأحد من النّاس، فلمّا قعد له ليقتصّ منه، رفع الرّجل رأسه إلى السّماء وقال: "اللّهمّ قد عفوت عنه لك"(١).

وحدث في مسير لعمر ﷺ أنّه أبصر رجلاً من بني تميم يسرع في سيره، فأدرك أنّه يريده فأناخ لأجله، وجاء الرّجل فبكى، فبكى عمر ﷺ، وسأله عن شأنه؟ فأخبره أنّه شرب الخمر، فضربه أبو موسى الأشعريّ ﷺ، وسوّد وجهه، وطاف به، ونهى النّاس أن يجالسوه، ولذلك همّ الرّجل أن يأخذ سيفه فيضرب به أبا موسى، أو يأتي أمير المؤمنين فيحوّله إلى بلد لا يعرف فيه، أو يلحق بأرض الشّرك، فبكى عمر ﷺ، ورقّ للرّجل عندما ذكر بلاد الشّرك، وهوّن عليه بأنّ النّاس قد شربت الخمر في الجاهليّة، وكسا الرّجل، وأمر له بمائتي درهم، وأمر أبا موسى أن يأمر النّاس بمجالسته ومخالطته، وأن يقبل شهادته عند توبته(٢)، وتوعّده بقوله: "وَأَيْمُ اللَّهِ لَئِنْ عُدْتَ لَأُسَوِّدَنَّ وَجْهَكَ، وَلَيُطَافُ بِكَ فِي النَّاسِ، فَإِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَعْلَمَ أَحَقٌّ مَا أَقُولُ، فَعُدْ"(٣).

ورُوي أنّ قبطيًّا مصريًّا سابَق محمّد بن عمرو بن العاص فسبقه، فضربه محمّدٌ بالسّوط، وتفاخر بأنّه ابن الأكْرَمِين، فذهب القبطيّ إلى المدينة ورفع شكواه لعمر ﷺ فاستدعى أمير المؤمنين عمرًا وولده، وأمر المصريّ بالقصاص من ابن عمرو بن العاص وقال له: "لو ضربت أباه عمرًا لما حلنا بينك وبين ذلك"، والتفت الفاروق عمرُ إلى عمرو بن العاص وقال قولته المشهورة: "متى استعبدتم النّاس وقد ولدتهم أمّهاتهم أحرارًا"(٤).

---

(١) ابن أبي شيبة: المصنّف، ج٧، ص٥؛ ابن عبد الهادي: محض الصّواب في فضائل أمير المؤمنين عمر بن الخطّاب، ج٢، ص٤٦٧. وإسناد الأثر حسن كما قرّر محقّق محض الصّواب.

(٢) ابن كثير: مسند الفاروق عمر، ج٢، ص٥٢١. وصحّح ابن كثير إسناده.

(٣) رواه ابن شبّة بإسناد حسن. أخبار المدينة، ج٢، ص٢٠.

(٤) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص١٨٣؛ ابن عبد الهادي: محض الصّواب، ج٢، ص٤٧٣. وإسناد الأثر ضعيف لانقطاعه وجهالة أحد رواته. علوي عبد القادر السّقاف: تخريج أحاديث وآثار كتاب في ظلال القرآن، دار الهجرة، الطّبعة الثّانية، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م، ص١٩٧، ح٣٨٣.

ورُوي أيضًا أنّ عمرو بن العاص ﷺ اتّهم جنديًّا تُجِيبِيًّا بالنّفاق أمام النّاس، فأمكنه الفاروق عمر ﷺ منه، فلمّا تيقّن الرّجل أنّ الأمير لا يقدِر على الامتناع منه بسلطانه تركه لله[1].

وكان أمير المؤمنين عمر ﷺ يحذّر عمّاله من مجاوزة الحدّ في التّعامل مع الرّعيّة، وثبت عنه أنّه خطب في النّاس فقال: "أَلَا إِنِّي وَاللَّهِ مَا أَبْعَثُ إِلَيْكُمْ عُمَّالًا لِيَضْرِبُوا أَبْشَارَكُمْ، وَلَا لِيَأْخُذُوا أَمْوَالَكُمْ، وَلَكِنْ أَبْعَثُهُمْ إِلَيْكُمْ لِيُعَلِّمُوكُمْ دِينَكُمْ وَسُنَّتَكُمْ، فَمَنْ فُعِلَ بِهِ سِوَى ذَلِكَ فَلْيَرْفَعْهُ إِلَيَّ، فَوَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَأُقِصَّنَّهُ مِنْهُ، فَوَثَبَ عَمْرُو بْنُ الْعَاصِ فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَرَأَيْتُكَ إِنْ كَانَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى رَعِيَّةٍ فَأَدَّبَ بَعْضَ رَعِيَّتِهِ إِنَّكَ لَمُقِصُّهُ مِنْهُ؟ قَالَ: إِي وَالَّذِي نَفْسُ عُمَرَ بِيَدِهِ لَأُقِصَّنَّهُ مِنْهُ، أَنَا لَا أُقِصُّهُ مِنْهُ وَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يُقِصُّ مِنْ نَفْسِهِ؟ أَلَا لَا تَضْرِبُوا الْمُسْلِمِينَ فَتُذِلُّوهُمْ، وَلَا تَمْنَعُوهُمْ مِنْ حُقُوقِهِمْ فَتُكَفِّرُوهُمْ، وَلَا تُجَمِّرُوهُمْ فَتَفْتِنُوهُمْ، وَلَا تُنْزِلُوهُمُ الْغِيَاضَ فَتُضَيِّعُوهُمْ"[2].

---

(١) عبد الرزّاق: المصنّف، ج٧، ص٤٢٨؛ ابن شبّة: تاريخ المدينة، ج٢، ص١٦. والأثر ضعيف لانقطاعه. عبد السّلام محسن آل عيسى: دراسة نقديّة في المرويّات الواردة في سيرة عمر بن الخطّاب وسياسته الإداريّة، ج٢، ص٦٥٣.

(٢) ابن أبي شيبة: المصنّف في الأحاديث والأثار، ج٦، ص٤٦١، ح٣٢٩٢١؛ أحمد بن حنبل: المسند، ج١، ص٣٨٤، ٣٨٥، ح٢٨٦؛ أبو داود: السّنن، (كتاب الدّيّات، باب القَوَد من الضّربة، وقصّ الأمير من نفسه)، ج٦، ص٥٩٤، ح٤٥٣٧. واستدركه الحاكم على الصّحيحين، وصحّحه على شرط مسلم، وأقرّه الذّهبيّ. المستدرك على الصّحيحين، ج٤، ص٤٨٥، ح٨٣٥٦. وعلّق الحافظ ابن كثير على الأثر فقال: "رواه عليّ بن المديني، عن عبد الأعلى وربعيّ بن إبراهيم، كلاهما عن الجريريّ بطوله، وقال: إسناده بصريّ حسن، وقال في موضع آخر: لا نعلم في إسناده شيئًا يطعن فيه، وأبو فراس رجل معروف من أسلم، روى عنه أبو نضرة وأبو عمران الجونيّ". ابن كثير: مسند الفاروق، ج٢، ص٥٤٤.

الفصل الثّامن

تدوين الدّواوين

على الرّغم من بساطة ميزانيّة الدّولة الإسلاميّة في العهد النّبويّ وتقسيم الغنائم على المجاهدين المشاركين في الغزوات، فإنّ رسول الله ﷺ أراد أن يُحصي النّاس، فقال: "اكْتُبُوا لِي مَنْ تَلَفَّظَ بِالإِسْلاَمِ مِنَ النَّاسِ"، فكتبوا له ألفًا وخمسمائة رجل(١)، إلّا أنّ الدّيوان لم ينشأ إلّا في عهد عمر ﷺ(٢)؛ نتيجة لاتّساع الدّولة الإسلاميّة، واتّصال المسلمين الفاتحين بالنّظم الإداريّة لفارس والرّوم(٣).

وقد أدّت الفتوحات الإسلاميّة إلى زيادة موارد الدّولة من الفيوء(٤)، والغنائم(٥)، والجزية(٦)، والخراج(٧)، وغيرها، حتّى قدم أبو هريرة ﷺ من البحرين بخمسمائة ألف درهم، فاستكثر عمر ﷺ الأموال، وعاود أبا هريرة ﷺ السّؤال ليتأكّد من صحّة العدد، فأخبره أنّه جاء بمائة ألف، وكرّر له مثلها أربع مرار، فحسِبه عمرُ ناعسًا، وأمره أن يرجع إلى بيته ثمّ يغدو عليه، فجاءه في الصّباح فأخبره بمقدار المال، وأنّه لا يعلمه إلّا طيّبًا، فاستشار الخليفة

---

(١) البخاري: الصّحيح، (كتاب الجهاد والسّير، باب كتابة الإمام للنّاس)، ج٣، ص١١١٤، ح٢٨٩٥؛ مسلم: الصّحيح، (كتاب الإيمان، باب الاستسرار للخائف)، ج١، ص١٣١، ح١٤٩.

(٢) فتحيّة النّبراوي: تاريخ النّظم والحضارة الإسلاميّة، دار النّهضة العربيّة، القاهرة، الطّبعة الأولى، ١٩٨٠م، ص٦٤.

(٣) تاريخ النّظم والحضارة الإسلاميّة، ص٧٢.

(٤) الفيء: ما يحصل عليه المسلمون من أعدائهم دون قتال، ولهذا لا يتعلّق به حقّ للمجاهدين. الماوردي: الأحكام السّلطانيّة، طبعة دار الحديث، القاهرة، ص٢٠٠.

(٥) الغنائم: ما يحصل عليها المسلمون من أعدائهم بالقتال، وقد أعطى القرآن أربعة أخماسها للغانمين. الماوردي: الأحكام السّلطانيّة، ص٢١٧.

(٦) الجزية: ما يؤخذ على رؤوس أهل الكتاب الّذين يتمسّكون بدينهم. الماوردي: الأحكام السّلطانيّة، ص٢٢١.

(٧) الخراج: إمّا أن يكون ضريبة فرضت على أرض فتحها المسلمون بالقوّة وتركوا الأرض لأهلها يستغلّونها، وإمّا أن يكون ضريبة على أرض صالح أهلها المسلمين على قدر يؤخذ منها. راجع الماوردي: الأحكام السّلطانيّة، ص٢٢٧، وما بعدها.



أصحابه في كيفيّة التّعامل مع تلك الأموال وقال: "إِنَّهُ قَدِمَ عَلَيَّ مَالٌ كَثِيرٌ، فَإِنْ شِئْتُمْ أَنْ نَعُدَّهُ لَكُمْ عَدًّا، وَإِنْ شِئْتُمْ أَنْ نَكِيلَهُ لَكُمْ كَيْلاً"، فطرحوا عليه آراءهم، حتّى قال له رجلٌ: "إِنِّي رَأَيْتُ هَؤُلَاءِ الْأَعَاجِمَ يُدَوِّنُونَ دِيوَانًا، وَيُعْطُونَ النَّاسَ عَلَيْهِ"، فأخذ عمر ﷺ برأيه، "فَدَوَّنَ الدَّوَاوِينَ"[١].

ويعني الدّيوان العمريّ تلك السّجلّات الّتي أحصيت فيها أسماء من فُرض لهم العطاء من الجند وغيرهم، ثمّ غدا الدّيوان مترادفًا مع الجهاز الإداريّ - الوزارات - المنوط به تنفيذ أعمال الدّولة الإداريّة، والماليّة والعسكريّة، كما أطلق أيضًا على المكان الّذي تحفظ فيه سجلّات الدّولة، والأمكنة الّتي يجلس فيها أفراد الجهاز الإداريّ[٢]، ولذا جعله الماورديّ (ت: ٤٥٠هـ/١٠٥٨م) "لحفظ ما يتعلّق بحقوق السّلطنة من الأعمال والأموال، ومن يقوم بها من الجيوش والعمّال"[٣].

وينبغي التّنويه إلى أنّ المصادر الإسلاميّة تتحدّث عن الدّيوان دون تحديد، لكن الباحث يستطيع أن يفرّق بين ديوان العطاء، وديوان الجيش[٤]، كما يتبيّن من الآتي:

📖 **ديوان العطاء**:

اختصّ هذا الدّيوان بالعطاء الماليّ الّذي فرضه عمر ﷺ لجميع المسلمين، وكان الصّدّيق ﷺ قد سوّى بين النّاس[٥]، فجعل الصّغير والكبير والحرّ والمملوك والذّكر والأنثى سواسية، فاتّبع عمر رأيه في التّسوية حتّى جاءه فتحُ العراقِ، ففضّل أهل السّوابق والمشاهد في الفرائض، وقال: "لَا أَجْعَلُ مَنْ قَاتَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَمَنْ قَاتَلَ مَعَه"[٦].

---

(١) ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٣، ص٣٠٠؛ ابن أبي شيبة: المصنّف في الأحاديث والآثار، ج٦، ص٤٥٣، ح٣٢٨٦٤؛ ابن زنجويه: الأموال، ج٢، ص٥٠٤. والأثر بإسناد صحيح.

(٢) محمّد سهيل طقوش: تاريخ الخلفاء الرّاشدين، ص٣٣٧.

(٣) الماوردي: الأحكام السّلطانيّة، ص٢٩٧؛ أبو يعلى الفرّاء: الأحكام السّلطانيّة، تحقيق/ محمّد حامد الفقي، دار الكتب العلميّة، بيروت، الطّبعة الثّانية، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ص٢٣٦.

(٤) فتحيّة النّبراوي: تاريخ النّظم والحضارة الإسلاميّة، ص٧٢.

(٥) ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٣، ص٢٩٦.

(٦) أبو يوسف: الخراج، ص٥٣.

وثبت عن الفاروق عمر ﷺ أنّه قال: "وَاللهِ مَا أَحَدٌ أَحَقَّ بِهَذَا الْمَالِ مِنْ أَحَدٍ، وَمَا أَنَا بِأَحَقَّ بِهِ مِنْ أَحَدٍ، وَاللهِ مَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ أَحَدٌ إِلَّا وَلَهُ فِي هَذَا الْمَالِ نَصِيبٌ إِلَّا عَبْدًا مَمْلُوكًا، وَلَكِنَّا عَلَى مَنَازِلِنَا مِنْ كِتَابِ اللهِ، وَقَسْمِنَا مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَالرَّجُلُ وَبَلَاؤُهُ فِي الإِسْلَامِ، وَالرَّجُلُ وَقِدَمُهُ فِي الإِسْلَامِ، وَالرَّجُلُ وَغَنَاؤُهُ فِي الإِسْلَامِ، وَالرَّجُلُ وَحَاجَتُهُ، وَوَاللهِ لَئِنْ بَقِيتُ لَهُمْ، لَيَأْتِيَنَّ الرَّاعِيَ بِجَبَلِ صَنْعَاءَ حَظُّهُ مِنْ هَذَا الْمَالِ وَهُوَ يَرْعَى مَكَانَهُ"[١].

ورفض عمر ﷺ أن يبدأ بنفسه في ترتيب الدّيوان، كما رفض العرض الّذي قُدّم إليه بجعل عشيرته "بني عديّ" بعد بني هاشم وبني تَيْم، وإنّما رتّب النّاس بحسب القرابة من رسول الله ﷺ[٢]، فبدأ ببني هاشم، ثمّ الأقرب فالأقرب، حتّى استوفى بطون قريش[٣]، فلمّا انتهى إلى الأنصار أمر بالبدء برهط سعد بن معاذ الأوسيّ ﷺ، ولمّا استقرّ النّاس في الدّيوان على قدر نسبهم المتّصل برسول الله ﷺ فضّل الفاروق ﷺ أهل السّوابق والمشاهد في الإسلام[٤]، فبدأ بالمهاجرين الأوّلين، لأنّهم أخرجوا من ديارهم ظلمًا وعدوانًا، ثمّ بأشرفهم، فبدأ بأهل بدر، ثمّ أحد، وقال: "مَنْ أَسْرَعَ فِي الْهِجْرَةِ أَسْرَعَ بِهِ الْعَطَاءُ، وَمَنْ أَبْطَأَ فِي الْهِجْرَةِ أَبْطَأَ بِهِ الْعَطَاءُ، فَلَا يَلُومَنَّ رَجُلٌ إِلَّا مُنَاخَ رَاحِلَتِهِ"[٥].

وقد جعل عمر ﷺ عطاء البدريّين خمسةَ آلافٍ، خمسة آلافٍ، وقال: "لَأُفَضِّلَنَّهُمْ عَلَى مَنْ بَعْدَهُمْ"[٦]، وجعل مولى البدريّين كعربيّهم[٧].

---

(١) أحمد بن حنبل: المسند، ج١، ص٣٨٩، ح٢٩٢. وضعّف الشّيخ الأرناؤوط وتلاميذه هذا الحديث لعنعنة ابن إسحاق، والصّواب أنّه صحيح كما قال الشّيخ أحمد شاكر. المسند، ج١، ص٢٨٩، ح٢٩٢. وابن إسحاق إمام في المغازي والسّير، ولا تضرّ عنعنته في هذا الشّأن.

(٢) الفسوي: المعرفة والتّاريخ، ج١، ص٤٦٦. والأثر بإسناد حسن. أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الرّاشدة، ص٢٣٣.

(٣) أبو يوسف: الخراج، ص٥٥؛ ابن أبي شيبة: المصنّف، ج٦، ص٤٥٧.

(٤) ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٣، ص٢٩٥- ٢٩٨.

(٥) ابن أبي شيبة: المصنّف في الأحاديث والآثار، ج٦، ص٤٥٧؛ أحمد بن حنبل: المسند، ج٢٥، ص٢٤٦. والأثر صحيح، رجاله ثقات.

(٦) البخاري: الصّحيح، (كتاب المغازي، باب شهود الملائكة بدرًا)، ج٤، ص١٤٧٥، ح٣٧٩٧.

(٧) ابن أبي شيبة: المصنّف، ج٦، ص٤١٥. وإسناده صحيح.



وبلغ من ورع الفاروق عمر ﷺ أنّه فرض للمهاجرين الأوّلين أربعة آلاف، وفرض لابنه عبد الله ﷺ ثلاثة آلاف وخمسمائة، فلمّا سُئل عن سبب نقصان عطاء ولده؟ أجاب بأنّه هاجر مع أبويه[١].

ولم يكن أمير المؤمنين عمر ﷺ يفرض للرّضّع من الأطفال، ممّا حمل بعض النّساء على التّبكير بفطم أولادهنّ، ولمّا اطّلع الفاروق عمر ﷺ على إحداهنّ وهو يطوف بالمدينة ذات ليلة اشتدّ بكاؤه، وقال: "يَا بُؤْسًا لِعُمَرَ، كَمْ قَتَلَ مِنْ أَوْلَادِ الْمُسْلِمِينَ"، وأمر مناديًا ينادي في النّاس: "أَلَا لَا تُعْجِلُوا صِبْيَانَكُمْ عَنِ الْفِطَامِ، فَإِنَّا نَفْرِضُ لِكُلِّ مَوْلُودٍ فِي الإِسْلَامِ"[٢].

وهدَفَ عمرُ ﷺ من التّفضيل في العطاء رفع الفئة الّتي أقامت على أكتافها صرح الدّولة الإسلاميّة، كما أنّها أكثر فقهًا والتزامًا بالشّرع ومقاصده، وأكثر ورعًا وصلاحًا في التّعامل مع المال، وتذليله لتحقيق المقاصد الاجتماعيّة عن طريق الإنفاق، ولا يخفى أنّ دعم هذه الفئة اقتصاديًّا يقوّي نفوذها في المجتمع، ويجعلها أقدر على القيام بالأمر بالمعروف والنّهي عن المنكر[٣].

ولئن كان العطاء على التّسوية هو الأصل فإنّ التّفضيل لا يطعن في أمير المؤمنين عمر ﷺ؛ لأنّه لم يفضّل لهوى، ولا حابى في ذلك أحدًا، بل كان قصده وجه الله - تعالى - وطاعة رسوله ﷺ، وتعظيم من عظّمه الله ورسوله، وتقديم من قدّمه الله ورسوله، وهذا يمدح ولا يذمّ[٤].

ولهذا كان يعطي عليًّا والحسن والحسين ﷺ ما لا يعطي لنظرائهم، وكذلك سائر أقارب النّبيّ ﷺ ولو سوّى لم يحصل لهم إلّا بعض ذلك.

---

(١) البخاري: الصّحيح، (كتاب فضائل الصّحابة، باب هجرة النّبيّ ﷺ وأصحابه إلى المدينة)، ج٣، ص١٤٢٤، ح٣٧٠٠. ويقصد عمر ﷺ أنّ ولده لم يتحمّل من العناء كمن هاجر بنفسه.

(٢) عبد الرّزّاق: المصنّف، ج٥، ص٣١١، ح٩٧١٧؛ ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٣، ص٣٠١؛ القاسم بن سلّام: الأموال، ج٢، ص٣٠٢، ٣٠٣. والأثر صحيح.

(٣) أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الرّاشدة، ص٢٣٦.

(٤) ابن تيمية: منهاج السُّنّة، ج٦، ص١٠٣، ١٠٤.

ويختلف المؤرّخون في تأريخ وضع ديوان العطاء بين سنة ١٥هـ/٦٣٦م[١]، وسنة ٢٠هـ/٦٤١م[٢]، مع اتّفاقهم على أنّ كثرة تدفّق الأموال على المدينة من فتوح الأمصار كانت السّبب الّذي دعا الفاروق عمر ﷺ إلى وضع الدّيوان، ويظهر من مجموع الرّوايات أنّه بدأ محدودًا بتقسيم خُمُس الغنائم الوارد إلى المدينة، ولم يستقرّ على العطاء الثّابت إلّا بعد استقرار الفتوح في سنة ٢٠هـ/٦٤١م[٣].

وعندما حقّقت سياسة التّفضيل في العطاء مقاصدها عزم عمر ﷺ على الرّجوع عنها، بل ثبت أنّه قسّم بين النّاس بالجابية على نصف دينار بالسّويّة، وأعطى دينارًا لمن كانت معه امرأته[٤]، وثبت عنه أنّه قال: "لَئِنْ بَقِيتُ إِلَى الْحَوْلِ لَأُلْحِقَنَّ أَسْفَلَ النَّاسِ بِأَعْلَاهُمْ"[٥]، "وَلَأَجْعَلَنَّهُمْ رَجُلاً وَاحِدًا"[٦].

🕮 ديوان الجند:

لجأ أمير المؤمنين عمر ﷺ إلى إحصاء عدد الجند وترتيب أمورهم وتوفير أعطيّاتهم وتقديرها عندما زاد عددهم[٧]، ولذا كان هذا الدّيوان الّذي "يختصّ بالجيش من إثبات وعطاء"[٨]، ولم يفرض رسول الله ﷺ للجند عطاء معيّنًا، بل كانوا يقتسمون أربعة أخماس

---

(١) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٤٥٢.

(٢) ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٣، ص٢٩٦؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص٤٦٦. من طريق الواقدي.

(٣) محمّد سهيل طقوش: تاريخ الخلفاء الرّاشدين، ص٣٣٩- ٣٤٠.

(٤) رواه مُسَدّد عن عمر ﷺ. ابن حجر: المطالب العالية، ج٩، ص٥٢٦، ٥٢٧. وحسّن المحقّق إسناده. وقال البوصيري: "رجاله ثقات". إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة، ج٥، ص١٨٢، ١٨٣، ح٤٤٨٨.

(٥) ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٣، ص٣٠٢؛ ابن زنجويه: الأموال، ج٢، ص٥٧٥. وإسناده صحيح. ابن حجر: فتح الباري، ج٧، ص٤٩٠.

(٦) ابن أبي شيبة: المصنّف، ج٦، ص٤٥٤؛ ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٣، ص٣٠١، ٣٠٢؛ القاسم بن سلّام: الأموال، ص٣٣٦. والأثر صحيح. وعلّق ابن سلّام فقال: "وقد كان رأي عمرَ الأوّل التّفضيل على السّوابق والغَناء عن الإسلام، وهذا هو المشهور من رأيه، وكان رأي أبي بكرٍ التّسوية، ثمّ قد جاء عن عمر شيءٌ شبيهٌ بالرّجوع إلى رأي أبي بكر".

(٧) فتحيّة النّبراوي: تاريخ النّظم والحضارة الإسلاميّة، ص٨٠.

(٨) الماوردي: الأحكام السّلطانيّة، ص٣٠٢.



الغنيمة[١]، ويقال إنّ الهُرْمُزان الفارسيّ رأى عمر ﷺ قد بعث بعثًا وأعطى أهله الأموال، فلم يعجبه صنيع الخليفة، معلّلاً أنّ أمير الجيش لن يعلم بمن تخلّف من جنده بعد أخذهم الأموال، وأشار عليه أن يثبت لهم ديوانًا[٢]، ولهذا كان لا بدّ من تخصيص ديوان للجيش[٣]، الّذي تقوم مقامه وزارة الدّفاع حاليًّا.

وكان المسلمون قبل عهد عمر ﷺ يكتفون بالكتابة فقط[٤]، وصحّ أنّ النّبيّ ﷺ قال: "لَا يَخْلُوَنَّ رَجُلٌ بِامْرَأَةٍ، وَلَا تُسَافِرَنَّ امْرَأَةٌ إِلَّا وَمَعَهَا مَحْرَمٌ"، فَقَامَ رَجُلٌ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، اكْتُتِبْتُ فِي غَزْوَةِ كَذَا وَكَذَا، وَخَرَجَتِ امْرَأَتِي حَاجَّةً، قَالَ: "اذْهَبْ فَحُجَّ مَعَ امْرَأَتِكَ"[٥].

وقد استنبط الماورديّ في أوصاف الجنديّ الّذي يثبت في ديوان الجند أن يكون مسلمًا، حرًّا، بالغًا، سليمًا من الآفات المانعة من القتال، عارفًا بالقتال، فيه إقدام على الحروب[٦].

وكان الجند الثّابتون في الدّيوان يرتّبون ترتيبًا عامًّا على القبائل والأجناس حتّى تتميّز كلّ قبيلة عن غيرها، بحسب القربى من رسول الله ﷺ، كما يرتّبون ترتيبًا خاصًّا الواحد بعد الواحد بالسّابقة في الإسلام، فإن تكافئوا في السّابقة ترتّبوا بالدّين، فإن تقاربوا فيه ترتّبوا بالسّنّ، فإن تقاربوا فيها ترتّبوا بالشّجاعة[٧].

وكان الانتظام في ديوان الجيش يستلزم التّفرّغ التّامّ للجنديّة والجهاد دفاعًا عن الإسلام، وقد شدّد عمر ﷺ على هذا الأمر حتّى لا ينشغل الجند بأعمال أخرى كالزّراعة مثلاً فيرتبطوا بالأرض ويهملوا أمر الجهاد[٨].

---

(١) أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الرّاشدة، ص٢٢٨.

(٢) الماوردي: الأحكام السّلطانيّة، ص٢٩٧.

(٣) فتحيّة النّبراوي: تاريخ النّظم والحضارة الإسلاميّة، ص٨٠.

(٤) عبد الرّازق الطنطاوي القرموط: في تاريخ الخلفاء الرّاشدين، ج١، ص٤٢٥.

(٥) البخاري: الصّحيح، (كتاب الجهاد والسّير، باب من اكتتب في جيش)، ج٣، ص١٠٩٤، ح٢٨٤٤؛ مسلم: الصّحيح، (كتاب الحجّ، باب سفر المرأة مع محرم إلى حج وغيره)، ج٢، ص٩٧٨، ح١٣٤١.

(٦) الماوردي: الأحكام السّلطانيّة، ص٣٠٢، ٣٠٣.

(٧) الأحكام السّلطانيّة، ص٣٠٣، ٣٠٤.

(٨) فتحيّة النّبراوي: تاريخ النّظم والحضارة الإسلاميّة، ص٨١، ٨٢.

وكانت الأمّة كلّها مقاتلةً حين تُدعى إلى الجهاد، حيث كان كلّ قادر على حمل السّلاح ومسجّل في ديوان العطاء يَهبّ للانخراط في الحملة العسكريّة[1].

📖 ديوان الخراج والاستيفاء:

يعود أصل هذا الدّيوان إلى حاجة الدّولة الإسلاميّة إلى إحصاء خراج البلاد المفتوحة، وتنظيم الإنفاق من موارده في الوجوه الّتي يجب الإنفاق فيها[2].

وإذا كان الدّيوان العمريّ قد بدأ داخليًّا عربيًّا، فإنّ ديوان الاستيفاء وجباية الأموال قد جرى بعد ظهور الإسلام على ما كان عليه من قبل، فبقي ديوان الشّام بالرّوميّة، وبقي ديوان العراق بالفارسيّة، ولم يزل أمرُهما جاريًا على ذلك إلى زمن الخليفة الأمويّ عبد الملك بن مرْوان، حيث تمّ نقل ديوان الشّام والعراق إلى العربيّة[3]، ويذكر أن ديوان مصر كان يكتب بالقبطيّة، ويقوم عليه موظّفون أقباط[4].

وكان الخليفة عمر ﷺ قد رأى بعد فتح العراق والشّام أنّه لا يُفتح بلدٌ فيكونُ فيه كبير نَيْل؛ بل عسى أن يكونَ كَلّاً وعبئًا على المسلمين؛ وأنّه إذا قسّمت أرضُ العراق، وأرضُ الشّام لا يجد المسلمون ما يسدّون به الثّغور، وما ينفقونه على الذّرّيّة والأرامل[5].

ولمّا خالف جماعة من الصّحابة رأي الخليفة عمر ﷺ وألحّوا عليه في قسمة أراضي العراق والشّام بين الّذين افتتحوها كما تقسّم غنيمة العسكر أبى عليهم، وأوقفها على أعطيّات المسلمين، واستدلّ عليهم بقول الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾[6] على أنّ الله ﷻ أشرك الّذين يأتون من بعد الصّحابة في هذا الفيء؛ وأنّه لو قسّمه بينهم لم يبق

---

(١) أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الرّاشدة، ص٣٧٩. نقلاً عن فاروق عمر فوزي: النّظم العسكريّة، (نشأة الجيش النّظاميّ في الإسلام)، جـ٢، ص٢٩٩، (أعمال ندوة النّظم الإسلاميّة، أبو ظبي ١٤٠٥هـ).

(٢) فتحية النبراوي: تاريخ النّظم والحضارة الإسلاميّة، ص٨٢.

(٣) الماوردي: الأحكام السّلطانيّة، ص٣٠٠، ٣٠١؛ ابن خلدون: المقدّمة، تحقيق/ علي عبد الواحد وافي، مكتبة الأسرة، القاهرة، الطّبعة الثّانية، ٢٠٠٦م، جـ٢، ص٦٤٤، ٦٤٥.

(٤) المقريزي: الخطط، جـ١، ص١٨٤.

(٥) أبو يوسف: الخراج، ص٣٥.

(٦) سورة الحشر: من الآية ١٠.



لمن بعدهم شيءٌ، فاقتنع الصّحابة ﷺ برأي الفاروق عمر ﷺ بعد مشاوراته ومناقشاته للمهاجرين الأوّلين وسادات الأنصار(١).

ولهذا لم يقسم عمر ﷺ أرض السّواد والأهواز وما افتتح من المدن، وإنّما ترك الأرض وأهلها، وضرب عليهم الجزية، وأخذ الخراج من الأرض(٢)، وقال: "لَوْلَا آخِرُ المُسْلِمِينَ، مَا فَتَحْتُ قَرْيَةً إِلَّا قَسَمْتُهَا بَيْنَ أَهْلِهَا، كَمَا قَسَمَ النَّبِيُّ ﷺ خَيْبَرَ"(٣).

وقد نهض عمر ﷺ للنّظر في إدارة الأموال في البلاد المفتوحة وتنظيمها، واختار سهل بن حنيف الأنصاريّ وحذيفة بن اليمان العبسيّ ﷺ لمهمّة مسح أراضي العراق(٤).

---

(١) أبو يوسف: الخراج، ص٣٤- ٣٦؛ ابن أبي شيبة: المصنّف، ج٦، ص٤٧١؛ البيهقي: السّنن، ج٦، ص٥٧١، ٥٧٢. والأثر صحيح.

(٢) أبو يوسف: الخراج، ص٣٩؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٨٩.

(٣) البخاري: الصّحيح، (كتاب الخمس، باب الغنيمة لمن شهد الوقعة)، ج٣، ص١١٣٦، ح٢٩٥٧.

(٤) ابن سعد: الطّبقات الكبير، ج٤، ص٣٠٥؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٩٠.

الفصل التّاسع

استشهاد الفاروق عمر

كان عمر ﷺ قد أخذ نفسه بالشّدّة في خلافته وأرهقها في مراقبة العمّال والرّعيّة، فشعر مع نهاية السّنة العاشرة من خلافته أنّه لا يستطيع أن يواصل ما أخذ به نفسه، "وخشي أن يعجز عن القيام بما فُرض عليه من أمر الأمّة، أو أن يفعل ما يلام عليه دنيا وأخرى"(١)، فلمّا عاد من الحجّ سنة ٢٣هـ/٦٤٣م، أخذ يدعو ربّه ويقول: "اللَّهُمَّ كَبِرَتْ سِنِّي، وَضَعُفَتْ قُوَّتِي، وَخَشِيتُ الانْتِشَارَ مِنْ رَعِيَّتِي، فَاقْبِضْنِي إِلَيْكَ غَيْرَ عَاجِزٍ وَلَا مَلُومٍ"(٢)، وشوهد عمر ﷺ وهو يكرّر هذا القول ليلة كاملة في البقيع(٣)، كما كان عمر ﷺ يدعو بقوله: "اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي شَهَادَةً فِي سَبِيلِكَ، وَاجْعَلْ مَوْتِي فِي بَلَدِ رَسُولِكَ ﷺ"(٤).

أجاب الله ﷻ دعوة الفاروق ﷺ وساق له الشّهادة في المدينة النّبويّة، فقد كان عمر لا يسمح لسبيٍ احتلم بدخول المدينة(٥) حتّى كتب إليه المغيرة بن شعبة ﷺ وهو على الكوفة يذكر له غلامًا عنده يدعى أبا لؤلؤة(٦) ويستأذنه أن يدخله المدينة؛ لأنّ عنده أعمالاً كثيرة فيها منافع للنّاس، فهو "حَدَّادٌ نَقَّاشٌ نَجَّارٌ"، فأذن عمر ﷺ بدخول ذلك الغلام(٧) الفارسيّ المجوسيّ الّذي سباه المسلمون من موقعة نهاوند سنة ٢١هـ/٦٤١م(٨).

---

(١) ابن الملقّن: التّوضيح لشرح الجامع الصّحيح، دار النّوادر، دمشق، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، ج٢٧، ص٣١٩.

(٢) معمر: الجامع، (باب تمنّي الموت)، ج١١، ص٣١٥، ح٢٠٦٣٩؛ ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٣، ص٣٣٥.

(٣) معمر: الجامع، (باب تمنّي الموت)، ج١١، ص٣١٥، ح٢٠٦٣٨.

(٤) البخاري: الصّحيح، (أبواب فضائل المدينة، باب كراهية النّبيّ ﷺ أن تُعْرَى المدينة)، ج٢، ص٦٦٨، ح١٧٩١. وقد علّقه البخاري في موضع آخر. الصّحيح، (كتاب الجهاد والسّير، باب الدّعاء بالجهاد والشّهادة للرّجال والنّساء)، ج٣، ص١٠٢٧.

(٥) كان عمر ﷺ لا يترك أحدًا من العجم يدخل المدينة. المسعودي: مروج الذّهب، ج٢، ص٣٢٠.

(٦) ذكر عبد الله بن عبّاس ﵄ أنّ أبا لؤلؤة كان مجوسيًّا. ابن أبي عاصم: الآحاد والمثاني، ج١، ص١١٢، ح١٠٥؛ الطّبراني: المعجم الكبير، ج١، ص٧٠، ح٧٧.

(٧) ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٣، ص٣٤٥، ٣٤٦. والأثر موقوف على الزهري.

(٨) ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٣، ص٣٤٧؛ البلاذري: أنساب الأشراف، ج١٠، ص٤٢٥؛ ابن كثير: البداية والنّهاية، ج٧، ص١٢٧.



ولمّا كان أبو لؤلؤةَ فيروزُ المجوسيُّ محترفًا يصنعُ الأرْحَاءَ، فقد جعل عليه المغيرة أربعةَ دراهمَ كلَّ يوم(١)، فلقيَ أبو لؤلؤة عمر ﷺ وشكا إليه المغيرة ﷺ، وقال: "قَدْ أَثْقَلَ عَلَيَّ غَلَّتِي فَكَلِّمْهُ يُخَفِّفْ عَنِّي"، فقال له عمر: "اتَّقِ اللَّهَ وَأَحْسِنْ إِلَى مَوْلَاكَ، وَمِنْ نِيَّةِ عُمَرَ أَنْ يَلْقَى الْمُغِيرَةَ فَيُكَلِّمَهُ يُخَفِّفُ، فَغَضِبَ الْعَبْدُ، وقال: "وَسِعَ النَّاسَ كُلَّهُمْ عَدْلُهُ غَيْرِي"، وأضمر على قتله(٢)، فاصطنع خِنجرًا له رأسان، وشحذه، وسمّهُ، ثمّ أتى به الهرمزان، فقال: "كَيْفَ تَرَى هَذَا؟ قال: أَرَى أَنَّكَ لَا تَضْرِبُ بِهَذَا أَحَدًا إِلَّا قَتَلْتَهُ"، فانصرف أبو لؤلؤة يتحيّن الفرصة لقتل عمر ﷺ، فأوحى إليه شيطانه باغتيال أمير المؤمنين وهو يصلّي الفجر بالمسلمين(٣).

ويدلّ تنفيذ العبد المجوسيّ لجريمته البشعة أثناء الصّلاة على شدّة حقده على الإسلام والمسلمين، وعلى اجتماعهم في الصّلاة خاصّة؛ لأنّ الفاروق عمر ﷺ لم يكن يتّخذ حرسًا له، بل كان ينام في المسجد وحده، وقد حدّث أنس ﷺ أنّ الهرمزان رأى الفاروق عمر ﷺ مضطجعًا في مسجد رسول الله ﷺ ليس حولَه أحدٌ فقال: "هَذَا وَاللَّهِ الْمَلِكُ الْهَنِيءُ"(٤).

ويَروي التّابعيّ عمرو بن ميمون حادثة استشهاد الفاروق الّتي شاهدها بعينيه وسمعها بأذنيه فيقول: "إِنِّي لَقَائِمٌ مَا بَيْنِي وَبَيْنَهُ إِلَّا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ غَدَاةَ أُصِيبَ، وَكَانَ إِذَا مَرَّ بَيْنَ الصَّفَّيْنِ قَالَ: اسْتَوُوا، حَتَّى إِذَا لَمْ يَرَ فِيهِنَّ خَلَلاً تَقَدَّمَ فَكَبَّرَ، وَرُبَّمَا قَرَأَ سُورَةَ يُوسُفَ، أَوِ النَّحْلَ، أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ، فِي الرَّكْعَةِ الأُولَى حَتَّى يَجْتَمِعَ النَّاسُ، فَمَا هُوَ إِلَّا أَنْ كَبَّرَ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: قَتَلَنِي - أَوْ أَكَلَنِي - الكَلْبُ، حِينَ طَعَنَهُ، فَطَارَ العِلْجُ بِسِكِّينٍ ذَاتِ طَرَفَيْنِ، لَا

---

(١) وفي رواية أنّ المغيرة ﷺ فرض عليه مائة درهم في الشّهر. ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٣، ص٣٤٥.

(٢) وزادت رواية الزهري أنّ العبد مرّ بعمر ﷺ وهو قاعدٌ فقال له: أَلَمْ أُحَدَّثْ أَنَّكَ تَقُولُ: لَوْ شِئْتُ أَنْ أَصْنَعَ رَحًى تَطْحَنُ بِالرِّيحِ فَعَلْتُ؟ فقال أبو لؤلؤة: لَأَصْنَعَنَّ رَحًى يَتَحَدَّثُ بِهَا النَّاسُ، وَمَضَى، فقال الفاروق عمر ﷺ: "أَمَّا الْعَبْدُ فَقَدْ أَوْعَدَنِي آنِفًا". عبد الرزّاق: المصنّف، ج٥، ص٤٧٥.

(٣) أبو يعلى: المسند، ج٥، ص١١٦، ح٢٧٣١؛ ابن حبّان: الصّحيح، ج١٥، ص٣٣١، ح٦٩٠٥. وصحّح إسناده محقّقو مسند أبي يعلى وصحيح ابن حبّان. وقال الهيثميّ: "رجال أبي يعلى رجال الصّحيح". مجمع الزّوائد، ج٩، ص٧٦، ح١٤٤٦٤.

(٤) ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٣، ص٢٩٣؛ البلاذري: أنساب الأشراف، ج١٠، ص٣٤٦. وإسناده صحيح.

يَمُرُّ عَلَى أَحَدٍ يَمِينًا وَلَا شِمَالاً إِلَّا طَعَنَهُ، حَتَّى طَعَنَ ثَلَاثَةَ عَشَرَ رَجُلاً، مَاتَ مِنْهُمْ سَبْعَةٌ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ رَجُلٌ مِنَ المُسْلِمِينَ طَرَحَ عَلَيْهِ بُرْنُسًا(١)، فَلَمَّا ظَنَّ العِلْجُ أَنَّهُ مَأْخُوذٌ نَحَرَ نَفْسَهُ، وَتَنَاوَلَ عُمَرُ يَدَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ فَقَدَّمَهُ، فَمَنْ يَلِي عُمَرَ فَقَدْ رَأَى الَّذِي أَرَى، وَأَمَّا نَوَاحِي المَسْجِدِ فَإِنَّهُمْ لَا يَدْرُونَ، غَيْرَ أَنَّهُمْ قَدْ فَقَدُوا صَوْتَ عُمَرَ، وَهُمْ يَقُولُونَ: سُبْحَانَ اللَّهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ، فَصَلَّى بِهِمْ عَبْدُ الرَّحْمَنِ صَلَاةً خَفِيفَةً(٢)، فَلَمَّا انْصَرَفُوا قَالَ: يَا ابْنَ عَبَّاسٍ، انْظُرْ مَنْ قَتَلَنِي، فَجَالَ سَاعَةً، ثُمَّ جَاءَ فَقَالَ: غُلَامُ المُغِيرَةِ، قَالَ: الصَّنَعُ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: قَاتَلَهُ اللَّهُ، لَقَدْ أَمَرْتُ بِهِ مَعْرُوفًا، الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذي لَمْ يَجْعَلْ مِيتَتِي بِيَدِ رَجُلٍ يَدَّعِي الإِسْلَامَ(٣)، قَدْ كُنْتَ أَنْتَ وَأَبُوكَ تُحِبَّانِ أَنْ تَكْثُرَ العُلُوجُ بِالْمَدِينَةِ، - وَكَانَ العَبَّاسُ أَكْثَرَهُمْ رَقِيقًا - فَقَالَ: إِنْ شِئْتَ فَعَلْتُ، أَيْ: إِنْ شِئْتَ قَتَلْنَا؟ قَالَ: كَذَبْتَ بَعْدَ مَا تَكَلَّمُوا بِلِسَانِكُمْ، وَصَلَّوْا قِبْلَتَكُمْ، وَحَجُّوا حَجَّكُمْ. فَاحْتُمِلَ إِلَى بَيْتِهِ فَانْطَلَقْنَا مَعَهُ، وَكَأَنَّ النَّاسَ لَمْ تُصِبْهُمْ مُصِيبَةٌ قَبْلَ يَوْمَئِذٍ، فَقَائِلٌ يَقُولُ: لَا بَأْسَ، وَقَائِلٌ يَقُولُ: أَخَافُ عَلَيْهِ، فَأُتِيَ بِنَبِيذٍ فَشَرِبَهُ، فَخَرَجَ مِنْ جَوْفِهِ، ثُمَّ أُتِيَ بِلَبَنٍ فَشَرِبَهُ فَخَرَجَ مِنْ جُرْحِهِ، فَعَلِمُوا أَنَّهُ مَيِّتٌ، فَدَخَلْنَا عَلَيْهِ، وَجَاءَ النَّاسُ، فَجَعَلُوا يُثْنُونَ عَلَيْهِ، وَجَاءَ رَجُلٌ شَابٌّ، فَقَالَ: أَبْشِرْ يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ بِبُشْرَى اللَّهِ لَكَ، مِنْ صُحْبَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَقَدَمٍ فِي الإِسْلَامِ مَا قَدْ عَلِمْتَ، ثُمَّ وَلِيتَ فَعَدَلْتَ، ثُمَّ شَهَادَةٌ، قَالَ: وَدِدْتُ أَنَّ ذَلِكَ كَفَافٌ لَا عَلَيَّ وَلَا لِي، فَلَمَّا أَدْبَرَ إِذَا إِزَارُهُ يَمَسُّ الأَرْضَ، قَالَ: رُدُّوا عَلَيَّ الغُلَامَ، قَالَ: يَا ابْنَ أَخِي ارْفَعْ ثَوْبَكَ، فَإِنَّهُ أَبْقَى(٤) لِثَوْبِكَ، وَأَتْقَى لِرَبِّكَ، يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ، انْظُرْ مَا عَلَيَّ مِنَ الدَّيْنِ، فَحَسَبُوهُ فَوَجَدُوهُ سِتَّةً وَثَمَانِينَ أَلْفًا أَوْ نَحْوَهُ، قَالَ: إِنْ وَفَى لَهُ مَالُ آلِ عُمَرَ فَأَدِّهِ مِنْ أَمْوَالِهِمْ، وَإِلَّا فَسَلْ فِي بَنِي عَدِيِّ بْنِ كَعْبٍ، فَإِنْ لَمْ

---

(١) البرنس: كلّ ثوب رأسه منه ملتزق به. ابن الأثير: النّهاية في غريب الحديث والأثر، ج١، ص١٢٢.

(٢) روى الحارث بن أبي أسامة أنّ عبد الرحمن بن عوف صلّى بأقصر سورتين: الكوثر، وإذا جاء نصر الله والفتح، خشية طلوع الشّمس. والحديث صحّحه ابن حجر. المطالب العالية بزوائد المسانيد الثّمانية، ج١٥، ص٧٧٥.

(٣) كان عمر ﷺ يقول: "اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَتْلِي بِيَدِ رَجُلٍ صَلَّى لَكَ سَجْدَةً". رواه إسحاق بن راهويه عن أسلم مولى عمر بإسناد صحيح. ابن حجر: المطالب العالية بزوائد المسانيد الثّمانية، ج١٥، ص٧٦٠.

(٤) وفي لفظ "أنقى لثوبك".



تَفِ أَمْوَالُهُمْ فَسَلْ فِي قُرَيْشٍ، وَلَا تَعْدُهُمْ إِلَى غَيْرِهِمْ، فَأَدِّ عَنِّي هَذَا المَالَ، انْطَلِقْ إِلَى عَائِشَةَ أُمِّ المُؤْمِنِينَ فَقُلْ: يَقْرَأُ عَلَيْكِ عُمَرُ السَّلَامَ، وَلَا تَقُلْ أَمِيرُ المُؤْمِنِينَ، فَإِنِّي لَسْتُ اليَوْمَ لِلْمُؤْمِنِينَ أَمِيرًا، وَقُلْ: يَسْتَأْذِنُ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ أَنْ يُدْفَنَ مَعَ صَاحِبَيْهِ، فَسَلَّمَ وَاسْتَأْذَنَ، ثُمَّ دَخَلَ عَلَيْهَا، فَوَجَدَهَا قَاعِدَةً تَبْكِي، فَقَالَ: يَقْرَأُ عَلَيْكِ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ السَّلَامَ، وَيَسْتَأْذِنُ أَنْ يُدْفَنَ مَعَ صَاحِبَيْهِ، فَقَالَتْ: كُنْتُ أُرِيدُهُ لِنَفْسِي، وَلَأُوثِرَنَّ بِهِ اليَوْمَ عَلَى نَفْسِي، فَلَمَّا أَقْبَلَ قِيلَ: هَذَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ قَدْ جَاءَ، قَالَ: ارْفَعُونِي، فَأَسْنَدَهُ رَجُلٌ إِلَيْهِ، فَقَالَ: مَا لَدَيْكَ؟ قَالَ: الَّذي تُحِبُّ يَا أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ أَذِنَتْ، قَالَ: الحَمْدُ لِلَّهِ، مَا كَانَ مِنْ شَيْءٍ أَهَمُّ إِلَيَّ مِنْ ذَلِكَ، فَإِذَا أَنَا قَضَيْتُ فَاحْمِلُونِي، ثُمَّ سَلِّمْ، فَقُلْ: يَسْتَأْذِنُ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ، فَإِنْ أَذِنَتْ لِي فَأَدْخِلُونِي، وَإِنْ رَدَّتْنِي رُدُّونِي إِلَى مَقَابِرِ المُسْلِمِينَ، وَجَاءَتْ أُمُّ المُؤْمِنِينَ حَفْصَةُ وَالنِّسَاءُ تَسِيرُ مَعَهَا، فَلَمَّا رَأَيْنَاهَا قُمْنَا، فَوَلَجَتْ عَلَيْهِ، فَبَكَتْ عِنْدَهُ سَاعَةً، وَاسْتَأْذَنَ الرِّجَالُ، فَوَلَجَتْ دَاخِلاً لَهُمْ، فَسَمِعْنَا بُكَاءَهَا مِنَ الدَّاخِلِ، ... فَلَمَّا قُبِضَ خَرَجْنَا بِهِ، فَانْطَلَقْنَا نَمْشِي، فَسَلَّمَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ، قَالَ: يَسْتَأْذِنُ عُمَرُ، قَالَتْ: أَدْخِلُوهُ، فَأُدْخِلَ، فَوُضِعَ هُنَالِكَ مَعَ صَاحِبَيْهِ"(١).

وعلى عادة الأخباريّ سيف بن عمر التّميميّ فإنّه قد خالف الرّوايات الصّحيحة الّتي تتّفق على نحر أبي لؤلؤة فيروزَ المجوسيِّ نفسَه(٢)، وزعم أنّ الرّجل التّميميّ تبع أبا لؤلؤة فقبض عليه وقتله(٣).

---

(١) البخاري: الصّحيح، (كتاب فضائل الصّحابة، باب قصّة البيعة والاتّفاق على عثمان ﷺ)، ج٣، ص١٣٥٣، ح٣٤٩٧.

(٢) ابن سعد: الطّبقات الكبير، ج٣، ص٣٢٠؛ البخاري: الصّحيح، (كتاب فضائل الصّحابة، باب قصّة البيعة والاتّفاق على عثمان بن عفّان ﷺ)، ج٣، ص١٣٥٣، ح٣٤٩٧؛ البلاذري: أنساب الأشراف، ج١٠، ص٤١٤؛ أبو العرب: المِحَن، تحقيق/ عمر سليمان العقيلي، دار العلوم، الرّياض، الطّبعة الأولى، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ص٦٣؛ ابن حبّان: الصّحيح، ج١٥، ص٣٥٠، ٣٥١؛ ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج٤٤، ص٤١٥.

(٣) سيف بن عمر التّميمي: كتاب الرّدّة والفتوح وكتاب الجمل ومسير عائشة وعليّ، تحقيق/ قاسم أحمد عبد الرزّاق السّامرّائي، دار أميّة للطّباعة والنّشر والتّوزيع، الرّياض، الطّبعة الثّالثة، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، ص٩؛ ابن بكر المالقي: التّمهيد والبيان في مقتل الشّهيد عثمان، تحقيق/ محمود يوسف زايد، دار الثّقافة، الدّوحة، الطّبعة الأولى، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م، ص٣٩.

وعمومًا فإنّ سيفًا لم يزد كثيرًا على رواية مقتل أبي لؤلؤة المجوسيّ، فقد وجد الأمور ممهّدة هذه المرّة ورأى الرّجل التّميميّ يقبض على المجرم ويعتنقه، فسلّ السّيف وقتل المجوسيّ بيد ابن عمّه التّميميّ.

ومن اللّافت للنّظر – وسيرة الفاروق كلّها كذلك – أنّ الخليفة عمر ﷺ لمّا أحسّ بنهايته لم ينس العدل مع أهل الذّمّة في آخر وصاياه، مع أنّ قاتله منهم، "إذ عهد فيها إلى من يخلفه بما ينبغي القيام به في هذا المنصب السّامي فقال: "وأوصيه بذمّة الله وذمّة رسوله أن يوفي لهم بعهدهم وألّا يكلّفوا إلّا طاقتهم"[١].

🕮 تحقيق في مقتل عمر:

إنّ الرّواية الصّحيحة المتواترة تجعل مقتل عمر ﷺ حادثًا فرديًّا لأبي لؤلؤة المجوسيّ، وفي رواية أخرى أنّ مقتله كان بتخطيط مجموعة من المناوئين للخلافة الإسلاميّة، فقد مرّ عبد الرّحمن بن أبي بكر الصّدّيق رضي الله عنهما على أبي لؤلؤة المجوسيّ وجُفَيْنَة النّصرانيّ[٢] والهرمزان الفارسيّ وهم نَجِيٌّ قبل مقتل الفاروق ﷺ، فلمّا بَغَتهم ثاروا فسقط من بينهم خِنجرٌ له رأسانِ ونصابُه في وسطه، فلمّا استشهد أمير المؤمنين عمر ﷺ أخبر عبد الرّحمن المسلمين بما رآه، وطالبهم بالنّظر في الخِنجر الّذي قُتل به عمر، فوجدوهُ على وصفه، وسمع ذلك عبيد الله بن عمر، فانطلق فأخذ سيفه فأتى الهرمزان فقتله، فلمّا وجد حرّ السّيف قال: لا إله إلّا الله، وقتلَ جفينة، فلمّا علاه بالسّيف صلّب بين عينيه، وانطلق إلى ابنة صغيرة لأبي لؤلؤة تدّعي الإسلام فقتلها، وأراد قتل كلّ سبي بالمدينة، فمنعه المهاجرون الأوّلون وتوعّدوه[٣]، فلمّا استُخلف عثمان بن عفّان ﷺ استشار المهاجرين والأنصار في أمر عبيد الله بن عمر، فشايع المهاجرون الأوّلون عثمان ﷺ على قتل عبيد الله، واجتمع جُلّ النّاس الأعظم مع عبيد الله يرفضون قتله، ويدْعُون على الهرمزان وجفينة، وكثر في

(١) توماس أرنولد: الدّعوة إلى الإسلام، ص٧٥.

(٢) جُفينة: رجل نصرانيّ من أهل الحيرة، كان يكون على خيل سعد بن أبي وقّاص. أبو العرب: المِحَن، ص٧٠.

(٣) ولمّا علم أمير المؤمنين عمر ﷺ بصنيع ولده عبيد الله وهو صريع طلبه فهرب عبيد الله حتّى مات أبوه. أبو العرب: المِحَن، ص٧٠. والأثر عن ابن إسحاق دون إسناد.



ذلك اللّغط والاختلاف، فقال عمرو بن العاص ﷺ لعثمان بن عفّان ﷺ: "إنّ هَذَا الأَمْرَ قَدْ كَانَ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ لَكَ عَلَى النَّاسِ سُلْطَانٌ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ"، فأخذ عثمان ﷺ بقوله، وتفرّق النّاس، وَوُدِيَ الرّجلان والجارية[١].

ويحشر الرّواة هاهنا خبرًا يفيد معرفة التّابعيّ "كعب الأحبار" الحميريّ باليوم والسّاعة الّتي مات فيها عمر بن الخطّاب ﷺ، وأنّه تردّد على عمر ثلاث مرّات في ثلاثة أيّام، ثمّ جزم له في اليوم الثّالث بأنّه لم يبق له إلّا ذلك اليوم وتلك اللّيلة إلى صبيحتها[٢]، وهو ما جعل بعض المُحْدثين يتّهمون كعبًا صراحة بالضّلوع في التّآمر على قتل عمر ﷺ، ولا ينبغي أن تبنى الاستنتاجات على روايات باطلة لا تصحّ سندًا، ولا متنًا[٣].

🕮 مدّة خلافة الفاروق وحياته:

كانت خلافة عمر ﷺ عشر سنين وستّة أشهر، فقد تولّى الخلافة لثمان بقين من جمادى الآخرة سنة ١٣هـ/٦٣٤م، وضربه أبو لؤلؤة فيروز المجوسيّ يوم الأربعاء، لأربع بقين من ذي الحجّة، سنة ٢٣هـ/٦٤٤م، ومكث ثلاثًا وتوفّي[٤]، فصلّى عليه صهيبٌ ﷺ، وعاش عمر ﷺ ثلاثًا وستّين سنة، وكان أنس ﷺ يقول: "قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ ابْنُ ثَلَاثٍ وَسِتِّينَ، وَأَبُو بَكْرٍ وَهُوَ ابْنُ ثَلَاثٍ وَسِتِّينَ، وَعُمَرُ وَهُوَ ابْنُ ثَلَاثٍ وَسِتِّينَ"[٥].

---

(١) ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٣، ص٣٥٥. وأورد ابن حجر هذه القصة من طريق الكرابيسي في أدب القضاء، وصحّح إسنادها إلى سعيد بن المسيّب: الإصابة، ج٦، ص٤٤٩.

(٢) ابن أبي الدّنيا: المحتضرين، دار ابن حزم، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م، ص٥٣، ٥٤؛ الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٥٥٩، ٥٦٠؛ الآجُرِّي: الشّريعة، ج٤، ص١٩٢٤، ٢٥؛ ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج٤٤، ص٤٠٨. ولا يروى هذا الأثر إلّا من طريق عبد العزيز بن أبي ثابت المتروك الرّواية عند المحدّثين، كما في تخريج أحاديث المطالب العالية لابن حجر، ج١٥، ص٧٩٣.

(٣) ينظر محمّد محمّد أبو زهو: الحديث والمحدّثون، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٣٧٨هـ، ص١٨٢، ١٨٣؛ محمّد حسين الذّهبي: التّفسير والمفسّرون، مكتبة وهبة، القاهرة، ج١، ص١٣٧.

(٤) ابن كثير: البداية والنّهاية، ج٧، ص١٥٥.

(٥) مسلم: الصّحيح، (كتاب الفضائل، باب كم سنّ النّبيّ ﷺ يوم قبض)، ج٤، ص١٨٢٥، ح٢٣٤٨.

الباب الثّالث

خلافة عثمان بن عفّان
(٢٤ ـ ٣٥هـ/٦٤٤ ـ ٦٥٦م)



الفصل الأوّل

سيرة عثمان قبل الخلافة وأهمّ صفاته

🕮 نسب عثمان ولقبه وصفته الخَلْقيّة:

هو عثمان، بن عفّان، بن أبي العاص، بن أميّة، بن عبد شمس، بن عبد مناف، وأمّه أرْوى، بنت كُرَيز، بن ربيعة، بن حبيب، بن عبد شمس، بن عبد مناف، وأمّها أمّ حكيم البيضاء، بنت عبد المطّلب(١)، وهي شقيقة عبد الله والد النّبيّ ﷺ، فكان عثمان ابن بنت عمّة النّبيّ ﷺ، وقد أسلمت أمّه وماتت في خلافته، وكان ممّن حملوها إلى قبرها(٢)، وأمّا أبوه فهلك في الجاهليّة(٣).

ولُقّب عثمانُ ﷺ بذي النّورين؛ لزواجه من ابنتيّ رسول الله ﷺ رُقيّة وأمّ كلثوم، ولا يُعلم أنّ رجلاً تزوّج ابنتي نبيّ غيره(٤)، ويكنى بأبي عمرو، وأبي عبد الله(٥).

وكان عثمان ﷺ من أجمل النّاس(٦)، وقد وُصف أيّام خلافته بأنّه: "ضَرْبُ اللَّحْمِ، طَوِيلُ اللِّحْيَةِ، حَسَنُ الْوَجْهِ"(٧).

🕮 حياته ومكانته في الجاهليّة:

نشأ عثمان بن عفّان ﷺ على الفطرة السّويّة، فلم ينهمك مع الشّباب في الملاهي والملذّات، ولم يقترف الفواحش والمنكرات، ولم تجتذبه عبادة الأوثان، ولقد تحدّث عن نفسه في آخر أيّام حياته فقال: "وَاللهِ مَا زَنَيْتُ فِي جَاهِلِيَّةٍ وَلَا إِسْلَامٍ قَطُّ، وَلَا قَتَلْتُ

---

(١) ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٣، ص٥٣؛ خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٥٦.

(٢) ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٨، ص٢٢٩.

(٣) ابن قتيبة: المعارف، ص١٩١؛ البلاذري: أنساب الأشراف، ج٥، ص٤٨٠.

(٤) الخلّال: السُّنّة، ج٢، ص٣٩١، ٣٩٢؛ البيهقي: السّنن الكبرى، ج٧، ص١١٥.

(٥) التّرمذي: السّنن، (كتاب المناقب، باب مناقب عثمان)، ج٥، ص٦٢٤.

(٦) أحمد بن حنبل: المسند، ج١، ص٥٤٣، ح٥٢٢. والأثر عن أمّ موسى، وهي تابعيّة ثقة، وإسناده حسن.

(٧) البيهقي: شعب الإيمان، ج٨، ص٢٥٤، ح٥٧٧٨. وهو من صحيح أحاديث عبد الله بن لهيعة المصري. الألباني: صحيح التّرغيب والتّرهيب للمنذريّ، مكتبة المعارف، الرّياض، الطّبعة الأولى، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ج٢، ص٤٧٨.

نَفْسًا[1]، وَلَا شَرِبْتُ خَمْرًا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَلَا إِسْلامٍ، وَلَا تَغَنَّيْتُ[2]، وَلَا تَمَنَّيْتُ[3]، وَقَدْ بَايَعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِيَدِي هَذِهِ الْيُمْنَى فَمَا مَسِسْتُ بِهَا ذَكَرِي"[4].

وكان عثمان ﷺ ثريًّا منذ الجاهليّة، فقد ورث تجارة عريضة عن والده، واهتمّ بتنميتها، فأصبح من رجالات بني أميّة الّذين لهم مكانة في قريش كلّها، وكان المجتمع المكّيّ الجاهليّ يُقدّر فيه الرّجالُ حسَب أموالهم، ويُهابون حسب أولادهم وإخوتهم، ثمّ عشيرتهم وقومهم[5].

ولمّا كانت شخصيّة عثمان ﷺ جامعة لكثير من صفات الخير وميّالة إلى البرّ والإحسان للنّاس وعدم الاستطالة عليهم بالمال والجاه فقد نال مكانة مرموقة في قومه، وحظي بمحبّة كبيرة منهم، ولحسن خلقه، ومعاملته؛ أحبّته قريشٌ، وتحدّثت به، حتّى إنّ المرأة العربيّة كانت ترقّص طفلها وتقول[6]:

أحبّــك والرّحمـــن ** حبَّ قريـش عثمـــان

🕮 إسلام عثمان:

كان عثمان بن عفّان ﷺ من السّابقين إلى الإسلام، فقد أسلم قديمًا بدعوة أبي بكر الصّدّيق ﷺ مع الزّبير بن العوّام، وطلحة بن عبيد الله، وسعد بن أبي وقّاص، وعبد الرّحمن بن عوف[7].

---

(١) أحمد بن حنبل: المسند، ج١، ص٥١٢، ح٤٦٨. وإسناده صحيح.

(٢) ما تغنّيت: يتبرّأ عثمان ﷺ من الغناء، ويفتخر بتركه. النّويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٤، ص١٣٥.

(٣) وفي رواية المسند: "وَلَا تَمَنَّيْتُ بَدَلاً بِدِينِي مُنْذُ هَدَانِي اللهُ ﷻ". أحمد بن حنبل: المسند، ج١، ص٥١٢، ح٤٦٨. وإسناده صحيح.

(٤) ابن أبي شيبة: المصنّف ج٦، ص٣٦٤، ح٣٢٠٥٥. وفي إسناده عبد الله بن لَهيعة المصري.

(٥) أحمد شلبي: موسوعة التّاريخ الإسلامي، مكتبة النّهضة المصريّة، الطّبعة الرّابعة عشرة، ١٩٩٦م، ج١، ص٦١٨.

(٦) ابن أبي الدّنيا: النّفقة على العيال، تحقيق/ نجم عبد الرّحمن خلف، دار ابن القيّم، الدّمّام، الطّبعة الأولى، ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، ج١، ص٣٣٥. والأثر موقوف على الشّعبيّ.

(٧) ابن هشام: السّيرة النّبويّة، ج١، ص٢٥٠؛ ابن الأثير: أسد الغابة، ج٣، ص٥٧٨.



ولمّا جهر رسول الله ﷺ بالدّعوة إلى الله واشتدّت قريشٌ على المسلمين لم يَسْلم عثمان ﷺ من الإيذاء؛ فقد أخذه عمّه الحكم بن أبي العاص، فأوثقه رباطًا، وأقسم ألّا يحلّه أبدًا حتّى يدع ما هو عليه ويرجع إلى دين قومه، فأقسم عثمان ﷺ أنّه لن يدع دينه أبدًا ولن يفارقه، فلمّا رأى الحكم صلابته في دينه تركه[1].

ولمّا أشار النّبيّ ﷺ على أصحابه بالهجرة إلى الحبشة لم يعبأ عثمان ﷺ بثروته الواسعة، وإنّما آثر دينه على دنياه، وسارع إلى الهجرة[2]، فكان أولَ من خرج مهاجرًا إلى الحبشة، وفي صحبته زوجته رقيّة بنت رسول الله ﷺ[3].

🕮 جهاد عثمان مع النّبيّ ﷺ:

شهد عثمان ﷺ غالبيّة مواطن الغزو والجهاد مع رسول الله ﷺ، وقد تخلّف عن غزوة بدر بإذن من رسول الله ﷺ، حيث كان يمرّض زوجته رقيّة الّتي فارقت الحياة عند سماع أهل المدينة بنصر بدر، ولذا جعله النّبيّ ﷺ في البدريّين، وأسهم له معهم[4]، كما استخلفه النّبيّ ﷺ على المدينة في غزوة ذات الرّقاع[5].

ولمّا قصد رسول الله ﷺ وأصحابُه زيارة البيت الحرام في السّنة السّادسة من الهجرة واعترضت قريشٌ سبيلهم وصمّمت على منعهم عزم النّبيّ ﷺ على إرسال الفاروق عمر ﷺ إليهم ليبلّغهم ما جاء له، ولكنّه اعتذر للنّبيّ ﷺ عن هذه المهمّة، لخلوّ مكّة آنئذ من بنيّ عديّ، وخوفه من قريش الّتي تعرف عداوته إيّاها وغلظته عليها، ثمّ دلّه على عثمان ﷺ؛ لأنّه أعزُّ منه نفرًا بمكّة، فأخذ النّبيّ ﷺ برأي عمر، ودعا عثمان ﷺ فبعثه إلى

---

(١) ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٣، ص٥٥.

(٢) ثبت في الصّحيح أنّه هاجر الهجرتين. البخاري: الصّحيح، (كتاب فضائل الصّحابة، باب مناقب عثمان بن عفّان ﷺ)، ج٣، ص١٣٥١، ح٣٤٩٣.

(٣) ابن سيّد النّاس: عيون الأثر في فنون المغازي والشّمائل والسِّير"، تحقيق/ محمود الشّرقاوي، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، ٢٠١١م، ج١، ص١٤٩؛ ابن حجر: فتح الباري، ج٧، ص١٨٨.

(٤) البخاري: الصّحيح، (كتاب فضائل الصّحابة، باب مناقب عثمان بن عفان ﷺ)، ج٣، ص١٣٥٢، ح٣٤٩٥.

(٥) ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٢، ص٣٤؛ الصّالحي: سبل الهدى والرّشاد في سيرة خير العباد، ج٤، ص١٧٦.

قريش، فلقيه أبانُ بن سعيد بن العاص الأمويّ، وحمله على دابّته بين يديه، وأجارهُ حتّى بلّغ رسالة النّبيّ ﷺ لأبي سفيان وعظماء قريش، وسمحوا له أن يطوف بالبيت، فرفض قائلاً: "ما كنت لأفعل حتّى يطوف به رسول الله ﷺ"، فلمّا سمعت قريشٌ هذا الكلام احتبسوه، فأُشيع بين المسلمين أنّه قد قتل[١]، فاتّخذ النّبيّ ﷺ إجراء سريعًا لمواجهة صلف قريش، فدعا أصحابه للبيعة تحت "الشّجرة"، فبايعوه بيعة الرّضوان، في غياب عثمان ﷺ[٢].

ولمّا وقعت الفتنة وخرج ضعاف الدّين وأهل الشّغب على عثمان ﷺ جعلوا يفترون عليه ويتنقّصون من قدره ومن جهاده مع النّبيّ ﷺ حتّى جاء أحدُهم من مصرَ فقرّر عبد الله بنَ عمر ﷺ بتغيُّب عثمان ﷺ عن غزوة بدرٍ، وفراره يومَ أُحُدٍ، وتغيُّبه عن بيعة الرِّضوان، ولمّا صدّقه ابن عمر فيما يقول طفق الرّجل يكبّر الله على ذلك، فأدرك ابن عمر أنّه مخدوع، وبيّن له وجه الحقيقة في مواقف عثمان ﷺ فقال: "أَمَّا فِرَارُهُ يَوْمَ أُحُدٍ، فَأَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ عَفَا عَنْهُ وَغَفَرَ لَهُ، وَأَمَّا تَغَيُّبُهُ عَنْ بَدْرٍ فَإِنَّهُ كَانَتْ تَحْتَهُ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَكَانَتْ مَرِيضَةً، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "إِنَّ لَكَ أَجْرَ رَجُلٍ مِمَّنْ شَهِدَ بَدْرًا، وَسَهْمَهُ"، وَأَمَّا تَغَيُّبُهُ عَنْ بَيْعَةِ الرِّضْوَانِ، فَلَوْ كَانَ أَحَدٌ أَعَزَّ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ عُثْمَانَ لَبَعَثَهُ مَكَانَهُ، فَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عُثْمَانَ، وَكَانَتْ بَيْعَةُ الرِّضْوَانِ بَعْدَ مَا ذَهَبَ عُثْمَانُ إِلَى مَكَّةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِهِ اليُمْنَى: "هَذِهِ يَدُ عُثْمَانَ"، فَضَرَبَ بِهَا عَلَى يَدِهِ، فقال: "هَذِهِ لِعُثْمَانَ"، ثمّ أمر ابنُ عمر الرّجل الخارجيّ أن يحدّث المصريّين بهذا الجواب الحقيق، وقال له: "اذْهَبْ بِهَا الآنَ مَعَكَ"[٣].

🕮 أبرز صفات عثمان في الإسلام:

كان عثمان ﷺ من خيار النّاس في الجاهليّة والإسلام، ولم يزده الإسلام إلّا عزًّا، على أنّ أبرز ما عرف به في الإسلام يتمثّل في الآتي:

(١) أحمد بن حنبل: المسند، ج٣١، ص٢١٦، ٢١٧، ح١٨٩١٠. وصحّح المحقّقون إسناده.

(٢) البخاري: الصّحيح، (كتاب الجهاد والسِّير، باب البيعة في الحرب)، ج٣، ص١٠٨٠، ح٢٧٩٨؛ مسلم: الصّحيح، (كتاب الإمارة، باب استحباب مبايعة الإمام الجيش عند إرادة القتال)، ج٣، ص١٤٨٣، ح١٨٥٦.

(٣) أحمد بن حنبل: فضائل الصّحابة، ج١، ص٥٥٧، ح٧٣٧؛ البخاري: الصّحيح، (كتاب فضائل الصّحابة، باب مناقب عثمان بن عفّان ﷺ)، ج٣، ص١٣٥٢، ح٣٤٩٥.

(١) حياء عثمان وعفّته:

كان عثمان ﷺ شديد الحياء، ولمّا تحدّث النّبيّ ﷺ عن خُلق الحياء بين أصحابه قال: "وَأَصْدَقُهُم حَيَاءً عُثْمَانُ"[١].

وحدث أن كان رسولُ الله ﷺ مضطجعًا في بيت عائشة رضي الله عنها كَاشِفًا عَنْ فَخِذَيْهِ[٢]، أَوْ سَاقَيْهِ، فَاسْتَأْذَنَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ فَأَذِنَ لَهُ، وحدّثه وَهُوَ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ، ثُمَّ اسْتَأْذَنَ عُمَرُ ﷺ فَأَذِنَ لَهُ، وحدّثه وَهُوَ كَذَلِكَ، ثُمَّ اسْتَأْذَنَ عُثْمَانُ ﷺ فَجَلَسَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَسَوَّى ثِيَابَهُ، فَدَخَلَ فَتَحَدَّثَ، فَلَمَّا خَرَجَ قالت عَائِشَةُ رضي الله عنها للنّبيّ ﷺ: دَخَلَ أَبُو بَكْرٍ فَلَمْ تَهْتَشَّ لَهُ وَلَمْ تُبَالِهِ، ثُمَّ دَخَلَ عُمَرُ فَلَمْ تَهْتَشَّ لَهُ وَلَمْ تُبَالِهِ، ثُمَّ دَخَلَ عُثْمَانُ فَجَلَسْتَ وَسَوَّيْتَ ثِيَابَكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "أَلَا أَسْتَحِي مِنْ رَجُلٍ تَسْتَحِي مِنْهُ الْمَلَائِكَةُ"[٣].

وقد شاهدت عائشة رضي الله عنها موقفًا آخر، وذلك أنّ النّبيّ ﷺ كان مُضْطَجِعًا عَلَى فِرَاشِهِ، لَابِسًا مِرْطَها[٤]، فاسْتَأْذَنَ أَبو بَكْرٍ، فَأَذِنَ له وَهُوَ كَذَلِكَ، فَقَضَى إِلَيْهِ حَاجَتَهُ، ثُمَّ انْصَرَفَ، ثُمَّ اسْتَأْذَنَ عُمَرُ، فَأَذِنَ لَهُ وَهُوَ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ، فَقَضَى إِلَيْهِ حَاجَتَهُ، ثُمَّ انْصَرَفَ، ثُمَّ اسْتَأْذَن عَلَيْهِ عثمان فَجَلَسَ، فَقَضَى إِلَيْهِ حَاجَته، ثُمَّ انْصَرَف، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: يَا رَسُولَ اللهِ،

---

(١) أحمد بن حنبل: المسند، ج٢٠، ص٢٥٢، ح١٢٩٠٤؛ التّرمذي: السّنن، (كتاب المناقب)، ج٥، ص٦٦٥، ح٣٧٩١. وقال التّرمذيّ: "حديث حسن صحيح".

(٢) وهذا الحديث لا يخالف قول النّبيّ ﷺ لجَرْهَدٍ ﷺ عندما مرّ عليه وهو كاشفُ فخِذه: "غَطِّهَا، فَإِنَّ الْفَخْذَ مِنَ الْعَوْرَةِ"؛ لأنّ الفخذ ليست عورة مغلّظة، ويجوز للرّجل إظهارها في منزله وعند نسائه، ومع خاصّته، ولا يحسن به أن يظهرها بين النّاس، وفي جماعاتهم وأسواقهم، وليس كلُّ شيءٍ حَلّ للرّجل يحسُن به أن يظهره في المجامع، ولذا نهى رسول الله ﷺ جرهدًا ﷺ عن كشف فخِذه في طريق النّاس وهذه العورة هي الّتي يجوز للرّجل أن يبديَها في الحمّام، وفي المواضع الخالية، وفي منزله، وعند نسائه، ولا يحسن به أن يظهرها بين النّاس، وفي جماعاتهم وأسواقهم. ابن قتيبة الدّينوريّ: تأويل مختلِف الحديث، ص٤٥٤، ٤٥٥.

(٣) أحمد بن حنبل: فضائل الصّحابة، ج١، ص٥٦٤، ح٧٤٨؛ مسلم: الصّحيح، (كتاب فضائل الصّحابة، باب فضائل عثمان ﷺ)، ج٤، ص١٨٦٦، ح٢٤٠١.

(٤) المرط: كساء من صوف أو خزّ يؤتزر به، ويكون للرّجل والمرأة. ابن منظور: لسان العرب، ج٧، ص٤٠١.

مَالِي لَمْ أَرَكَ فَزِعْتَ لِأَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرَ، كَمَا فَزِعْتَ لِعُثْمَانَ؟ فقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "إِنَّ عُثْمَانَ رَجُلٌ حَيِيٌّ، وَإِنِّي خَشِيتُ إِنْ أَذِنْتُ لَهُ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ، أَنْ لَا يَبْلُغَ إِلَيَّ فِي حَاجَتِهِ"[1].

وقد ذكر الإمام الحسن البصريّ شدّة حياء عثمان بن عفّان ﷺ فقال: "إِنْ كَانَ لَيَكُونُ فِي الْبَيْتِ وَالْبَابُ عَلَيْهِ مُغْلَقٌ، فَمَا يَضَعُ عَنْهُ الثَّوْبَ لِيُفِيضَ عَلَيْهِ الْمَاءَ، يَمْنَعُهُ الْحَيَاءُ أَنْ يُقِيمَ صُلْبَهُ"[2].

وكان لامرأة عثمان ﷺ جاريةٌ تسمّى بُنَانَةَ، فكانت إذا جاءت عثمان ﷺ بثيابه وهو يغتسل يقول لها: "لَا تَنْظُرِي إِلَيَّ فَإِنَّهُ لَا يَحِلُّ لَكِ"[3].

ومن حياء عثمان ﷺ أنّه "كَانَ لَا يُوقِظُ أَحَدًا مِنْ أَهْلِهِ مِنَ اللَّيْلِ، إِلَّا أَنْ يَجِدَهُ يَقْظَانَ فَيَدْعُوهُ، فَيُنَاوِلَهُ وَضُوءَهُ، وَكَانَ يَصُومُ الدَّهْرَ"[4].

(٢) كرم عثمان وسخاؤه:

كان عثمان ﷺ من خزائن الله في أرضه[5]، وقد قام بدورٍ كبير في إعانة الفقراء وتوفير احتياجاتهم من الأطعمة والمياه[6]، وفعلُه ببئر رومة[7] ليس بالمجهول، فعندما قدم النّبيّ ﷺ المدينة وجد أصحابه يستعذبون الماء من تلك البئر الّتي يملكها يهوديّ ويغالي في بيع مائها للمسلمين، فحثّ النّبيُّ ﷺ أصحابه على شرائها، وقال: "مَنْ يَشْتَرِي بِئْرَ رُومَةَ

---

(١) أحمد بن حنبل: فضائل الصّحابة، جا، ص٥٧١، ح٧٦٠؛ البخاري: الأدب المفرد، (باب الحياء)، ص٣٠٩، ٣١٠؛ مسلم: الصّحيح، (كتاب فضائل الصّحابة، باب فضائل عثمان ﷺ)، ج٤، ص١٨٦٦، ١٨٦٧، ح٢٤٠٢.

(٢) أحمد بن حنبل: المسند، جا، ص٥٥٤، ح٥٤٣. والأثر رجاله ثقات.

(٣) ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٣، ص٥٩.

(٤) أحمد بن حنبل: فضائل الصّحابة، جا، ص٥٦١، ٥٦٢، ح٧٢٤. وصحّح وصيّ الله إسناد الأثر.

(٥) حمدي شاهين: الدّولة الإسلاميّة في عصر الخلفاء الرّاشدين، ص٢٤٢.

(٦) محمّد عبد العال محمّد حسن: الأزمات الاقتصاديّة عند المسلمين في العهد النّبويّ، (أسبابها، آثارها، وسائل مواجهتها)، دار الإيمان للمعرفة، القاهرة، ١٤٤٠هـ/٢٠١٨م، ص١٤٢.

(٧) بئر رومة: تقع هذه البئر في وادي العقيق، وما زالت معروفة في آخر حرّة المدينة الغربيّة. ياقوت: معجم البلدان، جا، ص١٩٩؛ عاتق غيث البلادي الحربي: معجم المعالم الجغرافيّة في السّيرة النّبويّة، ص٢٨١.



فَيَجْعَلَ دَلْوَهُ مَعَ دِلَاءِ الْمُسْلِمِينَ بِخَيْرٍ لَهُ مِنْهَا فِي الْجَنَّةِ"؟ فاستجاب عثمان ﷺ لرغبة النّبيّ ﷺ واشتراها من صلب ماله[١]، بعشرين ألف درهم[٢]، وجعلها سبيلاً لسائر المسلمين[٣].

وعندما عزم النّبيّ ﷺ على توسيع المسجد النّبويّ نادى في أصحابه: "مَنْ يُوَسِّعُ لَنَا بِهَذَا الْبَيْتِ فِي الْمَسْجِدِ بِبَيْتٍ فِي الْجَنَّةِ"؟ فَابْتَاعهُ عُثْمَانُ مِنْ مَالِهِ فَوَسَّع بِهِ الْمَسْجِدَ"[٤].

وحدث أن جاع النّاس بسبب انقطاع الميرة عن المدينة، فخرج عثمان ﷺ إلى بقيع الغرقد فوجد خمسَ عشرةَ راحلةً عليها طعامٌ، فاشتراها، فحبس منها ثلاثًا، وأتى رسول الله ﷺ باثنتيْ عشرَة، فقال له رسول الله ﷺ: "بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيمَا أَمْسَكْتَ، وَبَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيمَا أَعْطَيْتَ"[٥].

ولمّا كان المسلمون في عُسرة اقتصاديّة سنة تبوك، فقد أنفق عثمان ﷺ نفقة عظيمة حتّى كان أكثر المنفقين على ذلك الجيش، فعندما حثّ النّبيّ ﷺ أصحابه على النّفقة بقوله: "مَنْ جَهَّزَ جَيْشَ الْعُسْرَةِ فَلَهُ الْجَنَّةُ"، جهّزهم عثمان ﷺ[٦]، وجاء بألف دينار فنثرها في حجر النّبيّ ﷺ فقلّبها مرارًا وهو يقول: "مَا ضَرَّ عُثْمَانَ مَا عَمِلَ بَعْدَ الْيَوْمِ"[٧].

---

(١) أحمد بن حنبل: المسند، ج١، ص٥٣٥، ٥٣٦، ح٥١١؛ التّرمذي: السّنن، (كتاب المناقب، باب مناقب عثمان بن عفّان ﷺ)، ج٥، ص٦٢٧، ح٣٧٠٣؛ النّسائي: السّنن الصّغرى، (كتاب الأحباس، باب وقف المساجد)، ج٦، ص٢٣٣، ح٣٦٠٦.

(٢) الدّينوري: المجالسة وجواهر العلم، تحقيق/ مشهور حسن سلمان، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ج٢، ص١٠٥؛ ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج٣٩، ص٢٠.

(٣) ابن حبان: الصّحيح، (ذكر مغفرة الله ﷻ لعثمان ﷺ بتسبيله رومة)، ج١٥، ص٣٦٢، ح٦٩٢٠. وحسّنه الشّيخ الأرناؤوط.

(٤) أحمد بن حنبل: المسند، ج١، ص٤٧٩، ح٤٢٠. وصحّحه محققو المسند.

(٥) ابن أبي عاصم: الآحاد والمثاني، ج١، ص٤٧٦، ٤٧٧، ح٦٦٦؛ ابن شبّة: تاريخ المدينة، ج٢، ص٢٩٦.

(٦) البخاري: الصّحيح، (كتاب الوصايا، باب إذا وقف أرضًا أو بئرًا واشترط لنفسه مثل دلاء المسلمين)، ج٣، ص١٠٢١.

(٧) أحمد بن حنبل: المسند، ج٣٤، ص٢٣٢، ح٢٠٦٣٠؛ فضائل الصّحابة، ج١، ص٥٥٨، ٥٥٩، ح٧٣٨. وحسّن المحقّقون إسناده. ورواه التّرمذيّ وقال: "حديث حسن غريب". السّنن، (كتاب المناقب، باب في مناقب عثمان بن عفّان ﷺ)، ج٥، ص٦٢٦، ح٣٧٠١.

ويُروى أنّ عثمان بن عفّان ﷺ تصدّق بثلاثمائة بعير بأحلاسها[1] وأقتابها[2] لجيش تبوك[3]، ولا مانع من ذلك؛ فقد صحّ أنّ الصّحابة ﷺ أقرّوا له بتجهيز جيش العسرة[4].

وعندما أصيب النّاس بأزمة اقتصاديّة في عهد الصّدّيق ﷺ واجتمعوا إليه، وشكوا له قحوط الأمطار، وانعدام النّبات، أمرهم بالصّبر والانصراف، وأكّد لهم قرب انفراج الأزمة بقوله: "إِنَّكُمْ لَا تُمْسُونَ حَتَّى يُفَرِّجَ اللَّهُ ﷻ عَنْكُمْ"، فتحقّق رجاء الصّدّيق ويقينه في ربّه، فلم يلبث النّاس إلّا قليلاً حتّى قدمت من الشّام قافلةٌ لعثمان ﷺ فيها مِائةُ راحلةٍ محمّلة بالبُرّ والطّعام، فاجتمع التّجّار إلى باب عثمان ﷺ ليشتروا منه الطّعام ثمّ يبيعوه للفقراء، فأدخلهم داره، ورحّب بهم، وأوقفهم على الطّعام، ثمّ سألهم كم تُربحوني على شرائي من الشّام؟ فقالوا: للعشرة اثنا عشرَ، وما زالوا يزيدونه حتّى جعلوا للعشرة خمسةَ عشرَ، فردّ عليهم عثمان ﷺ بأنّه قد زيد على ذلك، فقالوا: ما بقى في المدينة تجّارٌ غيرُنا، فمن ذا الّذي زادك؟ فقال: زادني الله ﷻ بكلّ دِرهمٍ عشرةً، أعندكم زيادةٌ؟ فقالوا: اللّهمّ لا، قال: فإنّي أُشهد الله أنّي قد جعلتُ هذا الطّعام صدقةً على فقراء المسلمين[5].

---

(١) الحلس: كلّ ما يوضع على ظهر الدّابة أو البعير تحت الرّحل والقَتَب والسّرج. ابن منظور: لسان العرب، ج٦، ص٥٤.

(٢) القتب: هو الرّحل الصّغير الّذي يوضع حول سنام البعير، ويكون على قدره. ابن منظور: لسان العرب، ج١، ص٦٦٠، ٦٦١.

(٣) أحمد بن حنبل: المسند، ج٢٧، ص٢٤٧، ح١٦٦٩٦. وضعّفه محقّقو المسند. ورواه التّرمذيّ، وقال: "حديث غريب". السّنن، (كتاب المناقب، باب في مناقب عثمان بن عفّان ﷺ)، ج٥، ص٦٢٠، ح٣٧٠٠. وقد حسّن عبد القادر الأرناؤوط حديث التّرمذيّ برواية سابقة عليه. ابن الأثير: (مجد الدّين: ت ٦٠٦هـ)، جامع الأصول في أحاديث الرّسول، تحقيق/ عبد القادر الأرناؤوط، مكتبة الحلواني، دار البيان، الطّبعة الأولى، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م، ج٨، ص٦٣٦، ح٦٤٧١. ووافقه علوي عبد القادر السّقّاف. تخريج أحاديث وآثار كتاب في ظلال القرآن، ص٢٧٤.

(٤) مهدي رزق الله أحمد: السّيرة النّبويّة في ضوء المصادر الأصليّة، ج٢، ص١٩٣، ١٩٤.

(٥) الآجُرِّي: الشّريعة، ج٤، ص٢٠١٣، ح١٤٨٦؛ الخركوشي: شرف المصطفى، دار البشائر الإسلاميّة، مكّة، الطّبعة الأولى، ١٤٢٤هـ، ج٥، ص٤٧٠، ٤٧١.

(٣) تعلّق عثمان بالقرآن العظيم:

لقد حفظ عثمان ﷺ القرآن الكريم على عهد رسول الله ﷺ، وعرَضَه عليه كاملاً قبل وفاته، ورَوَى قول النّبيّ ﷺ: "خَيْرُكُمْ مَنْ تَعَلَّمَ الْقُرْآنَ وَعَلَّمَهُ"(١).

ولعثمان ﷺ أقوالٌ في القرآن الكريم تدلّ على تعلّقه به، وحبّه له، وحياته به(٢)، حيث قال: "إِنِّي لَأَكْرَهُ أَنْ يَأْتِيَ عَلَيَّ يَوْمٌ لَا أَنْظُرُ فِي الْمُصْحَفِ"، وقال: "لَوْ أَنَّ قُلُوبَنَا طَهُرَتْ مَا شَبِعْنَا مِنْ كَلَامِ رَبِّنَا"(٣)، وكان حجره لا يكاد يفارق المصحف، فقيل له في ذلك، فقال: "إنّه مباركٌ جاء به مباركٌ"(٤)، وما مات عثمان ﷺ حتّى خرَق مصحفه من كثرة ما يُديم النّظر فِيه، وقد رُوي من غير وجهٍ أنّه صلّى بالقرآن العظيم في ركعةٍ واحدةٍ عند الحجر الأسود، أيّام الحجّ، وقد كان هذا من دأبه(٥)، ولمّا هجم عليه الخوارج يوم الدّار ليقتلوه، قالت امرأته: "اقْتُلُوهُ أَوْ دَعُوهُ، فَوَاللَّهِ لَقَدْ كَانَ يُحْيِي الْلَّيْلَ بِالْقُرْآنِ فِي رَكْعَةٍ"(٦).

وقال حسّان بن ثابت ﷺ في رثائه(٧):

ضَحَّوْا بِأَشْمَطَ عُنْوَانُ السُّجُودِ بِهِ ** يُقَطِّعُ اللّيْلَ تَسْبِيحًا وَقُرْآنَا

(٤) عفو عثمان وصفحه وحلمه ولينه:

لقد اشتهر عثمان ﷺ بالعفو والصّفح والحلم واللّين، ويكفي في ذلك أنّه خرج لصلاة الغداة يومًا فزحمه الباب الّذي يدخل منه، فأشار على غلمانه والمحيطين به بكشف

---

(١) البخاري: الصّحيح، (كتاب فضائل القرآن، باب خيركم من تعلّم القرآن وعلّمه)، ج٤، ص١٩١٩، ح٤٧٣٩.

(٢) علي محمّد محمّد الصّلّابي: تيسير الكريم المنان في سيرة عثمان بن عفّان، دار الفجر للتّراث، القاهرة، الطّبعة الأولى، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، ص٢٥- ٢٧.

(٣) أحمد بن حنبل: فضائل الصّحابة، ج١، ص٥٨٥، ٥٨٦، ح٧٧٥، ٧٧٦. ابن كثير: البداية والنّهاية، ج٧، ص٢٤٠. والأثران منقطعان.

(٤) الجاحظ: البيان والتّبيين، تحقيق/ فوزي عطوي، دار صعب، بيروت، ص٤٧٥.

(٥) ابن كثير: البداية والنّهاية، ج٧، ص٢٤٠.

(٦) الخلّال: السُّنّة، ج٢، ص٣٣٢؛ أبو العرب: المِحَن، ص٩١. والأثر صحيح إلى محمّد بن سيرين، لكنّه منقطع.

(٧) ابن كثير: البداية والنّهاية، ج٧، ص٢٤٠.

السّبب، فأتوه برجل يمنيّ مسلّح بخنجر أو سيف، فسأله عثمان ﷺ عن أمره، فصرّح بأنّه أراد قتله لأنّ عامله على اليمن ظلمه، فتعجّب عثمان ﷺ من أمره، وقال: "أَفَلَا رَفَعْتَ ظُلَامَتَكَ إِلَيَّ، فَإِنْ لَمْ أُنْصِفْكَ أَوَ أُعَدِّيكَ عَلَى عَامِلِي أَرَدْتَ ذَاكَ مِنِّي"؟ واستشار من حوله في أمر هذا الجاني، فأشاروا عليه بضرورة معاقبته، لأنّه عدوّ أمكن الله منه، ولكنّه عفا عنه، وأطلق سراحه بكفالة رجل من قومه، وما ضربه سوطًا، ولا حبسه يومًا، غير أنّه منعه من دخول المدينة مدّة خلافته(١).

وكان عثمان ﷺ يدرك أنّ حِلمه قد جرّأ النّاس عليه، فعندما عزم على زيادة المسجد الحرام وتوسعته سنة ٢٦هـ/٦٤٦م ابتاع من قوم، وأبى آخرون، فهدم عليهم، ووضع الأثمان في بيت المال، فصيّحوا به، فأمر بحبسهم، وقال: "مَا جَرَّأَكُمْ عَلَيَّ إِلَّا حِلْمِي، قَدْ فَعَلَ هَذَا بِكُمْ عُمَرُ ﷺ فَلَمْ تُصَيِّحُوا بِهِ"، ثمّ كلّمه فيهم عبد الله بن خالد بن أسيد الأمويّ - وكان من عظماء قريش - فأخرجوا(٢).

وهذه الأخلاق الفاضلة إنّما تفيد مع أهل الخير والصّلاح، وأمّا أهل الشّرّ والإفساد فلا تزيدهم إلّا جراءة واستهتارًا، وسيتّضح هذا الأمر عند الحديث عن موقف عثمان ﷺ من الخارجين على خلافته، ولهذا سنرى عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يقول: "لَقَدْ عِبْتُمْ عَلَى عُثْمَانَ أَشْيَاءَ لَوْ أَنَّ عُمَرَ فَعَلَهَا مَا عِبْتُمُوهَا"(٣).

ولعلّ عثمان ﷺ توقّع قرب الفتنة الّتي أخبره بها النّبيّ ﷺ، ممّا دفعه إلى أن يلين في سياسته مع النّاس، ويتّخذ من المسامحة منهجًا في التّعامل مع الرّعيّة، تجنّبًا للفتن، وتخفيفًا من وطأتها إن وقعت، لأنّها ستقع حتمًا، لإخبار النّبيّ ﷺ بوقوعها(٤).

---

(١) ابن شبّة: تاريخ المدينة، ج٢، ص١٣٨. وينظر أبو العرب: المِحَن، ص٩٤.

(٢) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٥٩٥؛ الذّهبي: تاريخ الإسلام، ج٣، ص٣١٥.

(٣) ابن أبي شيبة: المصنّف في الأحاديث والآثار، ج٦، ص٣٦٢. وإسناده صحيح.

(٤) محمّد عبد الله عبد القادر غبّان: فتنة مقتل عثمان، عمادة البحث العلمي، المدينة المنوّرة، الطّبعة الثّانية، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ج١، ص٦٤.

الفصل الثّاني
استخلاف عثمان ومنهجه في الحكم

أوّلاً: استخلاف عثمان:

لم يكن الحديث عن خليفة الفاروق ﷺ وليد إصابته على يد أبي لؤلؤة المجوسيّ؛ فقد شاع بين النّاس في الحجّة الأخيرة لعمر ﷺ أنّ الخليفة بعده عثمان بن عفّان ﷺ[1]، وسُمع الحادي يحدو بذلك[2]. وسأل الفاروقُ ﷺ حذيفةَ بن اليمان ﷺ بعرفات عن الرّجل الّذي يؤمّره المسلمون بعد وفاته فأخبره أنّه عثمان بن عفّان ﷺ[3].

وكان عمر ﷺ قد رأى في منامه كأنّ ديكًا نقره ثلاث نقَراتٍ فأوّله بحضور أجله، وذكره للنّاس، فطالبوه بالاستخلاف، فلمّا خطبهم يوم الجمعة[4] ذكر رؤياه وتأويلها[5]، ثمّ قال: "وَإِنَّ أَقْوَامًا يَأْمُرُونَنِي أَنْ أَسْتَخْلِفَ، وَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُنْ لِيُضَيِّعَ دِينَهُ وَلَا خِلَافَتَهُ، وَلَا الَّذِي بَعَثَ بِهِ نَبِيَّهُ ﷺ"[6]، فلمّا أصيب ألحّ النّاس عليه بالاستخلاف فلم يجبهم إلى طلبهم، وقال: "أَتَحَمَّلُ أَمْرَكُمْ حَيًّا وَمَيِّتًا! لَوَدِدْتُ أَنَّ حَظِّي مِنْهَا الْكَفَافُ لَا عَلَيَّ وَلَا لِيَ، فَإِنْ أَسْتَخْلِفْ فَقَدِ اسْتَخْلَفَ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي - يَعْنِي أَبَا بَكْرٍ - وَإِنْ أَتْرُكْكُمْ فَقَدْ تَرَكَكُمْ مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنِّي، رَسُولُ اللَّهِ ﷺ". وقد علّق ولده عبد الله بن عمر رضي الله عنهما على كلام أبيه فقال: "فَعَرَفْتُ أَنَّهُ حِينَ ذَكَرَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ غَيْرُ مُسْتَخْلِفٍ"[7].

---

(١) ابن أبي شيبة: المصنّف، ج٧، ص٤٤٠. وسنده صحيح.

(٢) أحمد بن حنبل: فضائل الصّحابة، ج١، ص٦٠٣، ٦٠٤، ح٨٠٢؛ ابن شبّة: تاريخ المدينة، ج٢، ص٨٦؛ البغوي: معجم الصّحابة، ج٤، ص٣٣١. وصحّح ابن حجر إسناده. فتح الباري، ج١٣، ص١٩٨.

(٣) ابن شبّة: تاريخ المدينة، ج٢، ص٨٦. وسنده صحيح.

(٤) خطب الفاروق عمر ﷺ يوم الجمعة وأصيب يوم الأربعاء لأربع ليال بَقِينَ من ذي الحجة. أحمد بن حنبل: المسند، ج١، ص٤٢٠، ٤٢١.

(٥) نصّت رواية لابن أبي شيبة بأنّ عمر ﷺ رأى رؤياه البارحة قبل خطبة الجمعة. المصنّف، ج٦، ص١٨٠.

(٦) أحمد بن حنبل: المسند، ج١، ص٢٤٩، ٢٥٠، ح٨٩؛ مسلم: الصّحيح، (كتاب المساجد ومواضع الصّلاة، باب نهي من أكل ثومًا أو بصلاً أو كرّاثًا أو نحوها)، ج١، ص٣٩٦، ح٥٦٧.

(٧) البخاري: الصّحيح، (كتاب الأحكام، باب الاستخلاف)، ج٦، ص٢٦٣٨، ح٦٧٩٢؛ مسلم: الصّحيح، (كتاب الإمارة، باب الاستخلاف وتركه)، ج٣، ص١٤٥٤، ح١٨٢٣.

غير أنّ الفاروق ﷺ لم يستسلم لآلام الطّعنات والجراحات الّتي ألمّت به، ولم ينشغل بنفسه عن أمر المسلمين، بل ثبت ينصح للمسلمين، ويرتّب لهم أمر اختيار الخليفة القادم بتماسكٍ عقليّ وثبات جنان لا يصنعه إلّا إيمانٌ عميق، ورشّح ستّة نفر ليختار المسلمون الخليفة من بينهم فقال: "مَا أَجِدُ أَحَدًا أَحَقَّ بِهَذَا الْأَمْرِ مِنْ هَؤُلَاءِ النَّفَرِ، أَوِ الرَّهْطِ، الَّذِينَ تُوُفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ عَنْهُمْ رَاضٍ، فَسَمَّى عَلِيًّا، وَعُثْمَانَ، وَالزُّبَيْرَ، وَطَلْحَةَ، وَسَعْدًا، وَعَبْدَ الرَّحْمَنِ[1]، وقال: يَشْهَدُكُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ، وَلَيْسَ لَهُ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ - كَهَيْئَةِ التَّعْزِيَةِ لَهُ - فَإِنْ أَصَابَتِ الْإِمْرَةُ سَعْدًا فَهُوَ ذَاكَ، وَإِلَّا فَلْيَسْتَعِنْ بِهِ أَيُّكُمْ مَا أُمِّرَ، فَإِنِّي لَمْ أَعْزِلْهُ عَنْ عَجْزٍ، وَلَا خِيَانَةٍ"، وأوصى عمر ﷺ الخليفةَ من بعده بالمهاجرين والأنصار وأهل الأمصار والأعراب وأهل الذّمّة[2].

ولمّا كان طلحة بن عبيد الله ﷺ غائبًا في أمواله بِالسَّرَاةِ[3]، فقد دخل الخمسة المرشّحون للخلافة على عمر ﷺ فقال لهم: "إِنِّي قَدْ نَظَرْتُ لَكُمْ فِي أَمْرِ النَّاسِ، فَلَمْ أَجِدْ عِنْدَ النَّاسِ شِقَاقًا إِلَّا أَنْ يَكُونَ فِيكُمْ، فَإِنْ كَانَ شِقَاقٌ فَهُوَ فِيكُمْ"، ثمّ خصّ عبد الرّحمن وعثمان وعليًّا ﷺ فقال: "إِنَّ قَوْمَكُمْ إِنَّمَا يُؤَمِّرُونَ أَحَدَكُمْ أَيُّهَا الثَّلَاثَةُ، فَإِنْ كُنْتَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ النَّاسِ يَا عَبْدَ الرَّحْمَنِ فَلَا تَحْمِلْ ذَوِي قَرَابَتِكَ عَلَى رِقَابِ النَّاسِ، وَإِنْ كُنْتَ يَا عُثْمَانُ عَلَى شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ النَّاسِ فَلَا تَحْمِلَنَّ بَنِي أَبِي مُعَيْطٍ عَلَى رِقَابِ النَّاسِ، وَإِنْ كُنْتَ عَلَى شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ النَّاسِ يَا عَلِيُّ فَلَا تَحْمِلَنَّ بَنِي هَاشِمٍ عَلَى رِقَابِ النَّاسِ"، ثمّ أمرهم أن يقوموا ليتشاوروا في تأمير أحدهم، فدعا عثمانُ عبدَ الله بن عمر ﷺ ليدخله في الأمر، فكره استدعاءه له؛ لعلمه أنّه سيكون في أمرهم ما قال عمر ﷺ، وأقسم عبد الله ﷺ أنّه قلّ ما

(١) استبعد عمرُ ﷺ سعيدَ بن زيد العدويّ من المرشّحين للخلافة مع أنّه من العشرة المبشّرين بالجنّة، لكونه من عشيرته، وخشية أن يراعَى في الإمارة بسببه. ابن كثير: البداية والنّهاية، ج٧، ص١٥٥. ومبالغة في التّبرّي من الأمر لقرابته منه. ابن حجر: فتح الباري، ج٧، ص٦٧.

(٢) البخاري: الصّحيح، (كتاب فضائل الصّحابة، باب قصّة البيعة والاتّفاق على عثمان ﷺ)، ج٣، ص١٣٥٣، ح٣٤٩٧.

(٣) السَّراة: المنطقة الجبليّة الواقعة جنوب الطّائف إلى قرب أبَهَا. عاتق غيث البلادي الحربي: معجم المعالم الجغرافيّة في السّيرة النّبويّة، ص١٥٥.

رأى أباه يحرّك شفتيه بشيءٍ قطّ إلّا كان حقًّا، فلمّا أكثر عليه عثمان ﷺ قال له: "أَلَا تَعْقِلُونَ؟ أَتُؤَمِّرُونَ وَأَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ حَيٌّ"؟ فانتبه عمر ﷺ وقال: "أَمْهِلُوا، فَإِنْ حَدَثَ بِي حَدَثٌ فَلْيُصَلِّ لَكُمْ صُهَيْبٌ ثَلَاثَ لَيَالٍ، ثُمَّ أَجْمِعُوا أَمَرَكُمْ، فَمَنْ تَأَمَّرَ مِنْكُمْ عَلَى غَيْرِ مَشُورَةٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ فَاضْرِبُوا عُنُقَهُ"(١).

واستدعى عمر ﷺ صهيبًا ﷺ فقال له: "صَلِّ بِالنَّاسِ- ثَلَاثًا - وَأَدْخِلْ هَؤُلَاءِ فِي بَيْتٍ، فَإِذَا اجْتَمَعُوا عَلَى رَجُلٍ، فَمَنْ خَالَفَهُمْ فَلْيَضْرِبُوا رَأْسَهُ، فَلَمَّا خَرَجُوا قَالَ: إِنْ وَلَّوْا الْأَجْلَحَ سَلَكَ بِهِمُ الطَّرِيقَ"، فسأله عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن السّبب الّذي يمنعه من استخلاف عليّ؟ فقال: "أَكْرَهُ أَنْ أَحْمِلَهَا حَيًّا وَمَيِّتًا"(٢).

ورُوي أن عمر ﷺ قال للسّتّة المرشّحين: "بايعوا لمن بايع له عبد الرّحمن، فإذا بايعتم لمن بايع له عبد الرّحمن فمن أبى فاضربوا عنقه"(٣).

ورُوي أنّه قال للأنصار: "أدخلوهم بيتًا ثلاثة أيّام، فإن استقاموا وإلّا فادخلوا عليهم فاضربوا أعناقهم"(٤).

ويبعد أن يأمر عمر ﷺ المرشّحين بمبايعة من يبايع له عبد الرّحمن بن عوف، وقد جعل الأمر للمسلمين يختارون أحدهم(٥)، والأقرب في وصيّته للأنصار هي الرّواية الّتي

---

(١) البيهقي: السّنن الكبرى، ج٨، ص٢٥٩، ٢٦٠، ح١٦٥٨٠؛ ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٣، ص٣٤٤. وصحّح ابن حجر إسناد ابن سعد. فتح الباري، ج٧، ص٦٨.

(٢) رواه الحارث بن أبي أسامة، وصحّحه الحافظ بن حجر. المطالب العالية بزوائد المسانيد الثّمانية، ج١٥، ص٧٧٦، ح٣٨٩٨. كما صحّح البوصيري إسناده. إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة، ج٧، ص١٦٨، ح٦٥٩١.

(٣) الطّبراني: المعجم الأوسط، ج٨، ص٩٥، ح٨٠٧٦. وإسناده منقطع، وفيه عبد الله بن زيد بن أسلم ضعّفه الجمهور. الهيثمي: مجمع الزّوائد، ج٥، ص١٨٥.

(٤) ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٣، ص٣٤٢. وهذا الأثر ضعيف، وليس له إسناد متّصل. عبد السّلام محسن آل عيسى: دراسة نقديّة في المرويّات الواردة في سيرة عمر بن الخطّاب وسياسته الإداريّة، ج٢، ص١١١٤.

(٥) عبد السّلام محسن آل عيسى: دراسة نقديّة في المرويّات الواردة في سيرة عمر بن الخطّاب، ج٢، ص١١١٦.

كلّف فيها أبا طلحة الأنصاريّ ﷺ أن يختار خمسين رجلاً من الأنصار ويستحثّ هؤلاء الرّهط حتّى يختاروا أحدهم(١).

ولمّا فرغ المسلمون من دفن أمير المؤمنين عمر ﷺ اجتمع الرّهط المرشّحون للخلافة، فأشار عليهم عبد الرّحمن ﷺ أن يجعلوا أمرهم إلى ثلاثة منهم، فاختار سعدٌ عبدَ الرّحمن، واختار الزّبير عليًّا، واختار طلحةُ عثمانَ(٢)، ثمّ تدرّج عبد الرّحمن للخطوة التّالية، فاقترح على عثمان وعليّ أن يتبرّأ أحدهما من الأمر، ويتولّى مهمّة اختيار الخليفة، فسكت الشّيخان(٣)، فأعلن عبد الرّحمن ﷺ خروجه من ذلك الأمر(٤)، وعرض عليهما أن يتولّي مهمّة إجراء الاستفتاء واختيار الأفضل للخلافة، وأعطاهما عهد الله على القيام بالأمر بنزاهة تامّة فوافقاه(٥).

وعندما علم النّاس بتفويض عبد الرّحمن ﷺ لاختيار الخليفة مالوا إليه يشاورونه في الأمر(٦)، فنهض لاستفتاء النّاس ومعرفة آرائهم حول عثمان وعليّ، فظلّ دائبًا للسّؤال ثلاثة أيّام بلياليها لا يدع أحدًا من المهاجرين والأنصار وأمراء الأجناد(٧)، ولا وفود العرب ولا صالحي التّابعين إلّا سأله عن رأيه في الخليفة المرتقب، فاجتمعت غالبيّة أصواتهم على عثمان ﷺ(٨).

---

(١) البلاذري: أنساب الأشراف، ج٥، ص٥٠٤.

(٢) روى المدائني أنّ طلحة لم يحضر إلّا بعد المبايعة لعثمان، وقد رجّح ابن حجر رواية الصّحيح، وفيها دلالة على أنّه كان غائبًا عند وصيّة عمر، وأنّه حضر قبل أن يتمّ أمر الشّورى. فتح الباري، ج٧، ص٦٩.

(٣) البخاري: الصّحيح، (كتاب فضائل الصّحابة، باب قصّة البيعة)، ج٣، ص١٣٥٣، ح٣٤٩٧.

(٤) البخاري: الصّحيح، (كتاب الأحكام، باب كيف يبايع الإمام النّاس)، ج٦، ص٢٦٣٤، ح٦٧٨١.

(٥) البخاري: الصّحيح، (كتاب فضائل الصّحابة، باب قصّة البيعة)، ج٣، ص١٣٥٣، ح٣٤٩٧.

(٦) البخاري: الصّحيح، (كتاب الأحكام، باب كيف يبايع الإمام النّاس)، ج٦، ص٢٦٣٤، ح٦٧٨١.

(٧) كان أمراء الأجناد قد وافوا تلك الحجّة مع عمر ﷺ. البخاري: الصّحيح، (كتاب الأحكام، باب كيف يبايع الإمام النّاس)، ج٦، ص٢٦٣٤، ح٦٧٨١.

(٨) أخرجه الحارث بن أبي أسامة في مسنده. الهيثمي: بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث، ج٢، ص٦٢٤، ح٥٩٥. ورجال الأثر ثقات، وإسناده متّصل بمجموع طرقه كما خرّجه محقّق المطالب العالية لابن حجر. ج١٧، ص٦٢٧، ٦٢٨، ح٤٣٦٢.

كما أجرى عبد الرّحمن ﷺ مقابلات مع النّفر المرشّحين للخلافة واحدًا تلو الآخر في اللّيلة الّتي أُعلن اسمُ الخليفة في صبيحتها(١)، فكان كلّما دعا رجلاً منهم ذكر مناقبه، ثمّ قال: "إِنَّكَ لَهَا لَأَهْلٌ فَإِنْ أَخْطَأْتُكَ فَمَنْ؟ فَيَقُولُ: إِنْ أَخْطَأْتَنِي فَعُثْمَانُ"(٢).

وقد بات عبد الرّحمن بن عوف ﷺ يحاور عليًّا ﷺ حتّى منتصف تلك اللّيلة، "ثُمَّ قَامَ عَلِيٌّ مِنْ عِنْدِهِ وَهُوَ عَلَى طَمَعٍ، وَقَدْ كَانَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ يَخْشَى مِنْ عَلِيٍّ شَيْئًا"(٣)، من المخالفة وعدم المطاوعة(٤).

ولمّا أُذّن للفجر اجتمع النّاس للصّبح كما يجتمعون للجمعة انتظارًا لمعرفة الخليفة ومبايعته، فأمر عبد الرّحمن ﷺ النّفر المرشّحين أن يجلسوا بين يدي المنبر، وانتظر حتّى طلعت الشّمس، ثمّ صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، وكشف للنّاس عن الخطّة الّتي قام بها في استفتاء النّاس ومعرفة آرائهم(٥)، وأخذ العهد والميثاق على المرشّحين بالسّمع والطّاعة لمن يتولّى الأمر(٦)، ثمّ أعلن أمام الجميع أنّ غالبيّة أصوات المرشّحين وأصوات النّاس قد اجتمعت على عثمان ﷺ(٧)، ولمّا كان عبد الرّحمن ﷺ يخشى مخالفة عليّ ﷺ فقد

---

(١) البخاري: الصّحيح، (كتاب الأحكام، باب كيف يبايع الإمام النّاس)، ج٦، ص٢٦٣٤، ح٦٧٨١.

(٢) أخرجه الحارث بن أبي أسامة في مسنده. الهيثمي: بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث، ج٢، ص٦٢٥، ح٥٩٦. وصحّح البوصيري إسناد الأثر. إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة، ج٥، ص١٧، ح٤١٦٠.

(٣) البخاري: الصّحيح، (كتاب الأحكام، باب كيف يبايع الإمام النّاس)، ج٦، ص٢٦٣٤، ح٦٧٨١.

(٤) ابن حجر: فتح الباري، ج١٣، ص١٩٧.

(٥) أخرجه الحارث بن أبي أسامة في مسنده. الهيثمي: بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث، ج٢، ص٦٢٤، ح٥٩٥. ورجال الأثر ثقات، وإسناده متّصل بمجموع طرقه، كما خرّجه محقّق المطالب العالية لابن حجر. ج١٧، ص٦٢٧، ٦٢٨، ح٤٣٦٢.

(٦) البخاري: الصّحيح، (كتاب فضائل الصّحابة، باب قصّة البيعة والاتّفاق على عثمان ﷺ)، ج٣، ص١٣٥٣، ح٣٤٩٧.

(٧) أخرجه الحارث بن أبي أسامة في مسنده. الهيثمي: بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث، ج٢، ص٦٢٤، ح٥٩٥. ورجال الأثر ثقات، وإسناده متّصل بمجموع طرقه كما خرّجه محقّق المطالب العالية لابن حجر. ج١٧، ص٦٢٧، ٦٢٨، ح٤٣٦٢.

بادره بقوله: "يَا عَلِيُّ إِنِّي قَدْ نَظَرْتُ فِي أَمْرِ النَّاسِ، فَلَمْ أَرَهُمْ يَعْدِلُونَ بِعُثْمَانَ، فَلَا تَجْعَلَنَّ عَلَى نَفْسِكَ سَبِيلاً"(١)، ورفع يدَ عثمان ﷺ فبايعه، فبايع له عليٌّ ﷺ(٢)، وتبعه المهاجرون والأنصار وأمراء الأجناد والمسلمون(٣).

ولم يعترض أحدٌ على عبد الرّحمن بن عوف ﷺ، ولم يخالف أحدٌ على عثمان ﷺ(٤)، بينما تخلّف عن بيعة العمرين سعد بن عبادة ﷺ(٥)، ولذا قال الإمام أحمد: "مَا كَانَ فِي الْقَوْمِ أَوْكَدُ بَيْعَةً مِنْ عُثْمَانَ، كَانَتْ بِإِجْمَاعِهِمْ"(٦)، وذلك لليلة بقيت من ذي الحجّة سنة ٢٣هـ/ ٦ نوفمبر ٦٤٤م، واستقبل عثمان بخلافته المحرّم سنة أربع وعشرين(٧).

وكان عثمان بن عفّان ﷺ جديرًا بتولّي الخلافة بعد الفاروق ﷺ، وقد صحّ عن عبد الله بن عمر ﵄ أنّه قال: "كُنَّا نُخَيِّرُ بَيْنَ النَّاسِ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ فَنُخَيِّرُ أَبَا بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ، ثُمَّ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ ﷺ"(٨).

و"لَمَّا اسْتُخْلِفَ عُثْمَانُ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ: أَمَّرْنَا خَيْرَ مَنْ بَقِيَ، وَلَمْ نَأْلُ"(٩)، وسَارَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ ﷺ مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَى الْكُوفَةِ ثَمَانِيًا حِينَ اسْتُخْلِفَ عُثْمَانُ بْنُ

---

(١) البخاري: الصّحيح، (كتاب الأحكام، باب كيف يبايع الإمام النّاس)، ج٦، ص٢٦٣٤، ح٦٧٨١. وقول عبد الرّحمن هذا هو الثّابت عند العلماء. القاضي عبد الجبّار: تثبيت دلائل النّبوّة، ج٢، ص٥٧٩.

(٢) البخاري: الصّحيح، (كتاب فضائل الصّحابة، باب قصّة البيعة والاتّفاق على عثمان ﷺ)، ج٣، ص١٣٥٣، ح٣٤٩٧.

(٣) البخاري: الصّحيح، (كتاب الأحكام، باب كيف يبايع الإمام النّاس)، ج٦، ص٢٦٣٤، ح٦٧٨١.

(٤) أخرجه الحارث بن أبي أسامة في مسنده. الهيثمي: بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث، ج٢، ص٦٢٤، ح٥٩٥. ورجال الأثر ثقات، وإسناده متّصل بمجموع طرقه كما خرّجه محقّق المطالب العالية لابن حجر. ج١٧، ص٦٢٧، ٦٢٨، ح٤٣٦٢.

(٥) ابن تيمية: منهاج السُّنّة، ج٨، ص٣١٤، ٣١٥، ٣٢٠.

(٦) الخلّال: السُّنّة، ج٢، ص٣٣٣.

(٧) ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٣، ص٦٣؛ الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٥٨٩.

(٨) البخاري: الصّحيح، (كتاب فضائل الصّحابة، باب فضل أبي بكر بعد النّبيّ ﷺ)، ج٣، ص١٣٣٧، ح٣٤٥٥.

(٩) أحمد بن حنبل: فضائل الصّحابة، ج١، ص٥٦٣، ٥٦٤، ح٧٤٧. وصحّح وصيّ الله إسناد الأثر.



عَفَّانَ، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ ثُمَّ قَالَ: "أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ مَاتَ، فَلَمْ يُرَ يَوْمٌ أَكْثَرُ نَشِيجًا مِنْ يَوْمَئِذٍ، وَإِنَّا اجْتَمَعْنَا أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ ﷺ فَلَمْ نَأْلُ عَنْ خَيْرِنَا ذِي فُوقٍ، فَبَايَعْنَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانَ، فَبَايِعُوهُ"(١).

ويُروى أنّه قيل لعبد الرّحمن بن عوفٍ ﷺ: "كَيْفَ بَايَعْتُمْ عُثْمَانَ وَتَرَكْتُمْ عَلِيًّا؟ قَالَ: مَا ذَنْبِي؟ قَدْ بَدَأْتُ بِعَلِيٍّ، فَقُلْتُ: أُبَايِعُكَ عَلَى كِتَابِ اللهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ، وَسِيرَةِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ، فَقَالَ: فِيمَا اسْتَطَعْتُ، ثُمَّ عَرَضْتُهَا عَلَى عُثْمَانَ، فَقَبِلَهَا"(٢).

ولا ننسى تقديم الشّكر الجزيل المتتابع للصّحابيّ الجليل عبد الرّحمن بن عوف الزّهريّ ﷺ؛ فإنّ إخراجه لنفسه من الخلافة ونهوضه لمعرفة آراء أهل الحلّ والعقد حتّى اجتمعت الأمّة على عثمان ﷺ لمن أفضل أعماله، ولو كان محابيًا فيها لأخذها لنفسه، أو لولّاها ابن عمّه وأقرب الجماعة إليه سعد بن أبي وقّاص ﷺ(٣).

وأمّا ما يذكره كثير من المؤرّخين وأهل الأخبار عن رجال لا يعرفون أنّ عليّ بن أبي طالب ﷺ قال لعبد الرّحمن بن عوف ﷺ خدعتني، وإنّك إنّما ولّيته لأنّهُ صهرُك، وليشاورك كلّ يومٍ في شأنه، وأنّه تلكّأ حتّى قال له عبد الرّحمن ﷺ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ۝١٠﴾(٤)، إلى غير ذلك من الأخبار المخالفة لما ثبت في الصّحاح فهي مردودةٌ على قائليها وناقليها، والمظنونُ بالصّحابة ﷺ خلافُ ما يتوهّم كثيرٌ من الرّافضة وأغبياءِ القصّاص الّذين لا تمييز عندَهم بين صحيح الأخبار وضعيفها، ومستقيمها وسقيمها(٥).

---

(١) أحمد بن حنبل: فضائل الصّحابة، ج١، ص٥٧٠، ٥٧١، ح٧٥٩. وحسّن المحقّق وصيّ الله إسناد الأثر.

(٢) أحمد بن حنبل: المسند، ج١، ص٥٦٠، ح٥٥٧. وإسناده ضعيف، فيه سفيان بن وكيع، كان صدوقًا، إلّا أنه ابتلي بورّاقه، فأدخل على حديثه ما ليس منه، ونُصح فلم يقبل، فسقط حديثه. ابن حجر: تقريب التّهذيب، ج١، ص٢٥٢.

(٣) الذّهبي: سير أعلام النّبلاء، ج١، ص٨٦.

(٤) سورة الفتح: الآية ١٠.

(٥) ابن كثير: البداية والنّهاية، ج٧، ص١٦٥.

وهنا يناقض الرّوافض أنفسهم عندما يقرّون رضا عليّ بن أبي طالب ﷺ بترشيح الفاروق عمر ﷺ له ضمن السّتّة أصحاب الشّورى؛ لأنّه لو كان منصوصًا عليه -كما يزعمون- لكان عليه أن يواجه الأمّة بالنّصّ المعهود إليه ولا يدخل في أمر يعرّضه للإقصاء من مهمّته! وإنّ في معرفة الأمّة كلّها بأخبار ترشيح الفاروق لعليّ رضي الله عنه في السّتّة المذكورين، وعهد أبي بكر لعمر -قبل ذلك- تأكيدًا لبطلان الوصيّة المزعومة؛ لأنّ في فقد العلم بذلك دليلاً على أنّه أمر لا أصل له بوجه من الوجوه(١).

وإن زعموا أنّ الّذي صنعه الفاروق عمر ﷺ في الشّورى حيلة على أمير المؤمنين عليّ ليخرجه من الرّئاسة، فلمَ دخل هو وقبلَه، وصلّى خلف صهيب، ورجع إلى عبد الرّحمن في الاختيار، أم أنّهم شعروا بهذا وخفي عليه؟(٢).

ثانياً: إعلان عثمان لمنهجه في الحكم:

كان عبد الرّحمن بن عوف ﷺ قد بايع عثمان بن عفّان ﷺ "عَلَى سُنَّةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَالخَلِيفَتَيْنِ مِنْ بَعْدِهِ"، وبايعه على ذلك المهاجرون والأنصار وأمراء الأجناد وعامّة المسلمين(٣).

وقد رُوي أنّ عثمان بن عفّان ﷺ أكّد على ما بايع عليه النّاس، فخطب بعدما بويع فقال: "إِنِّي قَدْ حُمِّلْتُ وَقَدْ قَبِلْتُ، أَلَا وَإِنِّي مُتَّبِعٌ وَلَسْتُ بِمُبْتَدِعٍ، أَلَا وَإِنَّ لَكُمْ عَلَيَّ بَعْدَ كِتَابِ اللَّهِ ﷻ وسُنّة نَبِيِّهِ ﷺ ثَلَاثًا: اتِّبَاعُ مَنْ كَانَ قَبْلِي فِيمَا اجْتَمَعْتُمْ عَلَيْهِ وَسَنَنْتُمْ، وَسَنُّ سُنَّة أَهْلِ الخَيْرِ فِيمَا لَمْ تَسِنُّوا عَنْ مَلَإٍ، وَالْكَفُّ عَنْكُمْ إِلَّا فِيمَا اسْتَوْجَبْتُمْ، أَلَا وَإِنَّ الدُّنْيَا خَضِرَةٌ قَدْ شُهِّيَتْ إِلَى النَّاسِ، وَمَالَ إِلَيْهَا كَثِيرٌ مِنْهُمْ، فَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الدُّنْيَا وَلَا تَثِقُوا بِهَا، فَإِنَّهَا لَيْسَتْ بِثِقَةٍ، وَاعْلَمُوا أَنَّهَا غَيْرُ تَارِكَةٍ إِلَّا مَنْ تَرَكَهَا"(٤).

---

(١) القاضي عبد الجبّار: تثبيت دلائل النّبوّة، ج١، ص٢١٢.

(٢) تثبيت دلائل النّبوّة، ج١، ص٢٥٢.

(٣) البخاري: الصّحيح، (كتاب الأحكام، باب كيف يبايع الإمام النّاس)، ج٦، ص٢٦٣٤، ح٦٧٨١؛ البيهقي: السّنن الكبرى، ج٨، ص٢٥٣، ح١٦٥٦٣؛ البغوي: شرح السُّنّة، ج١٠، ص٨٣.

(٤) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٦٩٣؛ المالقي: التّمهيد والبيان في مقتل الشّهيد عثمان، ص٤٢. والأثر من طريق سيف التّميميّ.



وأمّا ما أشاعه رواةُ الأخبار بأنّ الخليفة عثمان ﷺ صَعِد للخطبة فأُرْتِجَ(١) عليه(٢)، وأنّه اعتذر للنّاس فقال: "إِنَّ أَوَّلَ مَرْكَبٍ صَعْبٌ، وَإِنَّ بَعْدَ الْيَوْمِ أَيَّامًا، وَإِنْ أَعِشْ تَأْتِكُمُ الْخُطْبَةُ عَلَى وَجْهِهَا، وَمَا كُنَّا خُطَبَاءَ، وَسَيُعَلِّمُنَا اللَّهُ"(٣)، فلم يرَ له الحافظ ابن كثير إسنادًا تسكن النّفس إليه(٤).

وقد بدأ عثمان ﷺ مهام خلافته بإقرار عمّال الفاروق، فلم يعزل منهم أحدًا عامًا كاملاً أخذًا بوصيّة عمر ﷺ(٥).

ويستخلص من الكتب الّتي أرسلها عثمان ﷺ للولاة وقادة الجند وعمّال الخراج والعامّة(٦) أنّه سيسير على سياسة عمر ﷺ، ويركّز على قيم العدل السّياسيّ والاجتماعيّ والاقتصاديّ، وذلك بإعطاء ذوي الحقوق حقوقهم، وأخذ ما عليهم، وإعلاء شأن مبدأ الرّعاية السّياسيّة لا الجباية وتكثير الأموال(٧).

وكانت قضيّة مقتل الهرمزان الفارسيّ أوّل ما عرض لعثمان ﷺ، فأخذ فيها برأي عمرو بن العاص ﷺ، وأهدر دم القتيل(٨).

وزعم الإخباريّ سيفُ التّميميّ أنّ عثمان ﷺ أمكن القَمَاذْيَان بن الهرمزان من عبيد الله بن عمر بن الخطّاب، وأمره أن يقتله، وأيّده على ذلك الصّحابة والمسلمون كافّة، وسبّوا عبيد الله، إلّا أنّهم طلبوا من القماذيان العفو من غير عزيمة عليه، فلمّا رأى أنّهم

---

(١) أرتج عليه: استغلق عليه الكلام. ابن منظور: لسان العرب، ج٢، ص٢٨٠.

(٢) الزّبير بن بكّار: الأخبار الموفّقيّات، تحقيق/ سامي مكّي العاني، عام الكتب، بيروت، الطّبعة الثّانية، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، ص٧٣؛ وقد استغربه الزّيلعيّ: نصب الرّاية لأحاديث الهداية، تحقيق/ محمّد عوّامة، مؤسّسة الرّيّان، بيروت، دار القبلة، جدّة، الطّبعة الأولى، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، ج٢، ص١٩٧.

(٣) ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٣، ص٦٢؛ البلاذري: أنساب الأشراف، ج٥، ص٥١٠.

(٤) البداية والنّهاية، ج٧، ص١٦٦.

(٥) ابن سعد: الطّبقات الكبير، ج٣، ص٣٣٣؛ الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٥٩٠.

(٦) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٥٩٠.

(٧) حمدي شاهين: الدّولة الإسلاميّة في عصر الخلفاء الرّاشدين، ص٢٤٦.

(٨) ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٣، ص٣٥٥. وأورد ابن حجر هذه القصّة من طريق الكرابيسي في أدب القضاء، وصحّح إسنادها إلى سعيد بن المسيّب: الإصابة، ج٦، ص٤٤٩.

لا يمنعونه من قتله تركه لله ولهم، فأعجب النّاس بصنيعه، فاحتملوه على رؤوسهم وأكفّهم حتّى بلغ منزله[١]، لكن لا يصحّ هذا الادّعاء[٢].

وينهض الحافظ ابن عساكر لتقوية عفو القماذيان عن عبيد الله بن عمر؛ بحجّة أنّ الطّاعنين على عثمان ﷺ أقرّوا له بعدل ستّ سنين، ولم يقولوا استأنف الجور من لدن ولي، وعطّل حدًّا من محارم الله[٣]، إلّا أنّ النّقل الصّحيح مقدّم على الضّعيف والاستنتاج المحتمِل للصّحّة والخطأ، ولأنّ القول بعدل عثمان ﷺ ستّ سنين ليس من قول الخوارج الطّعّانين كما سيأتي في الحديث عن الفتنة، ولو وقع ذلك ما طلب عليٌّ عبيد الله بعد ذلك.

---

(١) المالقي: التّمهيد والبيان في مقتل الشّهيد عثمان، ص٤٠.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التّاريخ، ج٢، ص٤٤٨.

(٣) تاريخ دمشق، ج٣٨، ص٦٨.

الفصل الثّالث

جمع القرآن في عهد عثمان

تفرّق القرّاء في الأمصار خلال عهد عثمان بن عفّان ﷺ، وأخذ أهلُ كلّ إقليم بقراءة من اشتهر بينهم من الصّحابة، فقرأ أهل الشّام بقراءة أبيّ بن كعب ﷺ، وأهل الكوفة بقراءة عبد الله بن مسعود ﷺ، وأهل البصرة بقراءة أبي موسى الأشعريّ ﷺ، فكان بينهم اختلافٌ في حروف الأداء ووجوه القراءة، وتنازع النّاس في تفضيل قراءة على أخرى، وعظم الأمر، حتّى كادت الفتنة أن تقع في جميع البلدان الإسلاميّة بما فيها مكّة والمدينة(١).

ووصف التّابعيّ أبو قِلابَة ما حدث بين القرّاء آنذاك بقوله: "لَمَّا كَانَ فِي خِلَافَةِ عُثْمَانَ جَعَلَ الْمُعَلِّمُ يُعَلِّمُ قِرَاءَةَ الرَّجُلِ، وَالْمُعَلِّمُ يُعَلِّمُ قِرَاءَةَ الرَّجُلِ، فَجَعَلَ الْغِلْمَانُ يَلْتَقُونَ فَيَخْتَلِفُونَ حَتَّى ارْتَفَعَ ذَلِكَ إِلَى الْمُعَلِّمِينَ، حَتَّى كَفَرَ بَعْضُهُمْ بِقِرَاءَةِ بَعْضٍ، فَبَلَغَ ذَلِكَ عُثْمَانَ، فَقَامَ خَطِيبًا فَقَالَ: "أَنْتُمْ عِنْدِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَتَلْحَنُونَ، فَمَنْ نَأَى عَنِّي مِنَ الْأَمْصَارِ أَشَدُّ فِيهِ اخْتِلافًا، وَأَشَدُّ لَحْنًا، اجْتَمِعُوا يَا أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ وَاكْتُبُوا لِلنَّاسِ إِمَامًا"(٢).

وصدق حَدْسُ أمير المؤمنين عثمان ﷺ؛ فقد كانت الأمصار النّائية أشدّ اختلافًا ونزاعًا من مكّة والمدينة والحجاز، وكان حذيفةُ بن اليمان ﷺ يُغازي أهل الشّأم في فتح أَرْمِينِيَةَ، وَأَذْرَبِيجَانَ مع أهل العراق فأفزعه اختلافُهم في القراءة، فقدم على عثمان ﷺ فقال: "يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، أَدْرِكْ هَذِهِ الْأُمَّةَ، قَبْلَ أَنْ يَخْتَلِفُوا فِي الْكِتَابِ اخْتِلَافَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى"، فأرسل عثمانُ ﷺ إلى حفصة بنت عمر رضي الله عنهما: "أَنْ أَرْسِلِي إِلَيْنَا بِالصُّحُفِ نَنْسَخُهَا فِي الْمَصَاحِفِ، ثُمَّ نَرُدُّهَا إِلَيْكِ"، فأرسلتْ بها إليه، فأمر زيدَ بن ثابتٍ، وعبدَ الله بن الزّبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرّحمن بن الحارث بن هشامٍ(٣)، فنسخوها في المصاحف، وقال عثمان ﷺ للرّهط القرشيّين الثّلاثة: "إِذَا اخْتَلَفْتُمْ أَنْتُمْ وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ فِي شَيْءٍ مِنَ الْقُرْآنِ فَاكْتُبُوهُ بِلِسَانِ قُرَيْشٍ، فَإِنَّمَا نَزَلَ بِلِسَانِهِمْ"، ففعلوا، وردّ عثمان ﷺ الصّحف إلى

---

(١) أكرم الدّليمي: جمع القرآن، دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م، ص١٧٧، ١٧٨.

(٢) ابن أبي داود: كتاب المصاحف، ص٩٥.

(٣) استظهر هؤلاء النُّسّاخ بأُبيّ بن كعب ﷺ في الإملاء. ابن حجر: فتح الباري، جـ٩، ص١٩.

حفصة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، وأرسل إلى كلّ أُفق بمصحف ممّا نسخوا، وأمر بما سواه من القرآن في كلّ صحيفةٍ أو مصحفٍ، أن يحرق"[١].

وقد حفظ الإمام الزّهريّ نموذجًا من الاختلافات الّتي كتبها النّسّاخ بلغة قريش، فقال: "اخْتَلَفُوا يَوْمَئِذٍ فِي التَّابُوتِ وَالتَّابُوهِ، فَقَالَ القُرَشِيُّونَ: التَّابُوتُ، وَقَالَ زَيْدٌ: التَّابُوهُ، فَرُفِعَ اخْتِلَافُهُمْ إِلَى عُثْمَانَ، فقال: "اكْتُبُوهُ التَّابُوتُ، فَإِنَّهُ نَزَلَ بِلِسَانِ قُرَيْشٍ"[٢].

ولمّا شقّق عثمان ﷺ المصاحف الأخرى وأحرقها رضيَ الصّحابة ﷺ صنيعه، وأعجبوا به، ولم يعبْه أحدٌ بذلك[٣]، وأحرقوا مصاحفهم المخالفة له، ولم يتخلّف عن ذلك - في بادئ الأمر - إلّا عبد الله بن مسعود ﷺ؛ فإنّه شقّ عليه صرفه عن كتابة المصاحف[٤]، و"كَرِهَ لِزَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ نَسْخَ المَصَاحِفِ، وقال: "يَا مَعْشَرَ المُسْلِمِينَ، أُعْزَلُ عَنْ نَسْخِ كِتَابَةِ المُصْحَفِ وَيَتَوَلَّاهَا رَجُلٌ، وَاللَّهِ لَقَدْ أَسْلَمْتُ وَإِنَّهُ لَفِي صُلْبِ رَجُلٍ كَافِرٍ"، وقال: "يَا أَهْلَ العِرَاقِ، اكْتُمُوا المَصَاحِفَ الَّتِي عِنْدَكُمْ وَغُلُّوهَا، فَإِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾[٥]، فَالقُوا اللَّهَ بِالمَصَاحِفِ"[٦].

وقد عدل عثمان ﷺ عن ابن مسعود ﷺ إلى زيد بن ثابت ﷺ في نسخ المصاحف؛ لأنّ زيدًا أحدثُ القوم بالعرضة الأخيرة الّتي عرضها النّبيّ ﷺ على جبريل عليه السلام عام توفّي، وكان إمامًا في الرّسم بكتابته للنّبيّ ﷺ، كما مارس كتابة المصحف عندما ندبه الصّدّيق لجمع القرآن، وأمّا ابن مسعود ﷺ فكان إمامًا في الأداء دون الرّسم؛ لأنّه لم يكن من بين

---

(١) البخاري: الصّحيح، (كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن)، جـ٤، ص١٩٠٨، ح٤٧٠٢؛ ابن حبّان: الصّحيح، جـ١٠، ص٣٦١، ح٤٥٠٦.

(٢) التّرمذي: السّنن، (كتاب التّفسير، باب ومن سورة التّوبة)، جـ٥، ص٢٨٤، ح٣١٠٤؛ وقال التّرمذيّ: "حسن صحيح". ورواه ابن حبّان في الصّحيح، (ذكرُ ما يُستحبّ للإمام اتّخاذُ الكاتب لنفسه لما يقعُ من الحوادث والأسباب في أمور المسلمين)، جـ١٠، ص٣٦٢، ح٤٥٠٦.

(٣) البخاري: التّاريخ الكبير، جـ٧، ص٣٥٠؛ ابن أبي داود: كتاب المصاحف، ص٦٨.

(٤) ابن حجر: فتح الباري، جـ٩، ص١٩.

(٥) سورة آل عمران: من الآية ١٦١.

(٦) التّرمذي: السّنن، (كتاب التّفسير، باب ومن سورة التّوبة)، جـ٥، ص٢٨٤، ح٣١٠٤. وقال التّرمذيّ: "هذا حديث حسن صحيح".



كتبة الوحي الّذين كتبوا للنّبيّ ﷺ[1]، وكان زيد بن ثابت ﷺ أحفظ للقرآن من عبد الله ﷺ؛ إذ وعاه كلّه في حياة رسول الله ﷺ، ولم يحفظ منه عبد الله بن مسعود ﷺ في حياة النّبيّ ﷺ إلّا نيّفًا وسبعين سورة، ثم تعلّم الباقي بعد وفاة الرّسول ﷺ، فالّذي ختم القرآن وحفظه ورسولُ الله ﷺ حيٌّ أولى بجمع المصحف وأحقّ بالإيثار والاختيار، وليس في هذا طعنٌ على عبد الله بن مسعود ﷺ؛ لأنّ زيدًا إذا كان أحفظ للقرآن منه فليس ذلك موجبًا لتقدمته عليه؛ لأن زيدًا ﷺ كان أحفظ للقرآن من أبي بكر وعمر ﵄، وليس هو خيرًا منهما، ولا مساويًا لهما في الفضائل والمناقب، وعبد الله أفضل من زيد، وأقدم في الإسلام، وأكثر سوابق، وأعظم فضائل[2].

وقد بعث أمير المؤمنين عثمان ﷺ إلى ابن مسعود ﷺ يأمره بالقدوم عليه في المدينة فاجتمع عليه أهل الكوفة، وطالبوه بعدم المسير إلى الخليفة، ووعدوه بالنّصرة والمنعة، فأبى إلّا المسير وحده وردّ النّاس، وهو يقول: "إِنَّهَا سَتَكُونُ أُمُورٌ وَفِتَنٌ، لَا أُحِبُّ أَنْ أَكُونَ أَنَا أَوَّلَ مَنْ فَتَحَهَا وَلَهُ عَلَيَّ طَاقَةٌ"[3]، ولمّا التقى به الخليفة عثمان ﷺ وعظه وحذّره الفُرقة، فاستجاب، ورجع إلى الجماعة، وحثّ أصحابه على ذلك[4].

وكان عبد الله بن مسعود كغيره من الصّحابة ﷺ يعظّمون حقّ الخليفة، فقد" كَتَبَ عُثْمَانُ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ يَعْزِمُ عَلَيْهِ أَنْ لَا يَضَعَ كِتَابَهُ مِنْ يَدِهِ حَتَّى يَشْخَصَ إِلَيْهِ، فَأَتَى بِالْكِتَابِ فَجَعَلَ يَذْهَبُ وَيَجِيءُ وَالْكِتَابُ فِي يَدِهِ، لَا يَقْرَؤُهُ، فَقَالَتْ لَهُ أُمُّهُ: أَيْنَ تَذْهَبُ وَالْكِتَابُ فِي يَدِكَ؟ افْتَحِ الْكِتَابَ فَاقْرَأْهُ، فَقَالَ: يَا بِنْتَ الْكَافِرِينَ، أَتُرِيدِينَ أَنْ أَبِيتَ عَاصِيًا لِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، أَوْ أَشْخَصَ مِنْ لَيْلَتِي"[5].

ولم يكن جمعُ أبي بكر الصّدّيق وعثمان بن عفّان ﵄ واحدًا؛ فإنّ جمع الصّدّيق ﷺ كان لخشيته أن يذهب شيءٌ من القرآن بذهاب حملته؛ لأنّه لم يكن مجموعًا

(١) الذّهبي: سير أعلام النّبلاء، ج١، ص٤٨٨؛ أكرم الدّليمي: جمع القرآن، ص١٨٢، ١٨٣.

(٢) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ج١، ص٥٣.

(٣) ابن أبي شيبة: المصنّف، ج١٣، ص٢٥٠. وإسناده صحيح.

(٤) ينظر أكرم الدّليمي: جمع القرآن، ص١٩١.

(٥) أحمد بن حنبل: فضائل الصّحابة، ج١، ص٥٦٢، ح٧٤٣. وصحّح وصيّ الله إسناد الأثر.

في موضع واحد، فجمعه في صحائف مرتَّبًا لآيات سُوره على ما وقفهم عليه النّبيّ ﷺ، وجمع عثمان ﷺ كان لمّا كثر الاختلاف في وجوه القراءة حتّى قرأوه بلغاتهم على اتّساع اللّغات، فأدّى ذلك إلى تخطئة بعضهم البعض، فخشي من تفاقم الأمر في ذلك فنسخ تلك الصّحف في مصحف واحد مرتّبًا لسُوره، واقتصر في سائر اللّغات على لغة قريش محتجًّا بأنّه نزل بلغتهم، وإن كان قد وسّع في قراءته بلغة غيرهم دفعًا للحرج والمشقّة في ابتداء الأمر، ورأى أنّ الحاجة قد انتهت، فاقتصر على لغة واحدة(١).

ولمّا تمّ نسخ المصاحف ردّ أمير المؤمنين عثمان ﷺ الصّحف إلى أمّ المؤمنين حفصة ﵂ إيفاء بالعهد الّذي أعطاها إيّاه، فلم تزل عندها حتّى أرسل إليها مرْوان بن الحكم الأمويّ يطلبها، فلم تعطه حتّى ماتت، فعند ذلك عزم على أخيها عبد الله بن عمر حتّى أخذها منه فأحرقها(٢)؛ لئلّا يكون فيها شيءٌ يخالف المصاحف الأئمّة الّتي أنفذها عثمان ﷺ إلى الآفاق(٣).

---

(١) ابن حجر: فتح الباري، جـ٩، ص٢١.

(٢) ابن أبي داود: كتاب المصاحف، ص٥٧؛ أبو زرعة: تاريخ أبي زرعة الدّمشقيّ، رواية/ أبي الميمون بن راشد، مجمع اللّغة العربيّة، دمشق، ص٦٢؛ الطّحاوي: شرح مشكِل الآثار، جـ٥، ص٣٠٤، ٣٠٥.

(٣) ابن كثير: فضائل القرآن، مكتبة ابن تيمية، الطّبعة الأولى، ١٤١٦هـ، ص٧٧.

الفصل الرّابع
مواصلة الفتوحات في عهد عثمان ﵁

تمهيـد:

من القول المكرور أنّ الفرس والرّوم قد ظلّوا أمدًا بعيدًا يتحكّمون في مصير العالم القديم قبل ظهور الأمّة المحمّديّة، ولم يكن هؤلاء وهؤلاء يقيمون وزنًا للأمّة العربيّة، حيث كانوا يوكّلون بها بعض قرى الضّواحي فيكفونهم أمرها، ولم يدُر في خلدهم يومًا أن تكون نهاية الفرس وإذلال الرّوم على يد العرب المسلمين.

ولهذا فإنّ الفرس لم يستسلموا للفتوحات الإسلاميّة الّتي تمّت في عهد الفاروق عمر ﵁، ولم تكن طاعتهم إلّا مجرّد هدنة يرتّبون فيها أوضاعهم حتّى تواتيهم الفرصة لإعادة أمجادهم وطرد المسلمين من البلاد الّتي دانت لهم، وقد رأوا في خبر مقتل عمر بن الخطّاب ﵁ فرصة مواتية، فطمعوا في استرداد أملاكهم، وبدأ يزدجرد يخطّط لذلك.

وأمّا زعماء الرّوم فقد تركوا بلاد الشّام وانتقلوا إلى القسطنطينيّة، وبدءوا في البحث عن الوسائل الّتي تمكّنهم من استرداد ملكهم، فوقف لهم الخليفة عثمان ﵁ بالمرصاد، وعزم على إخضاع المتمرّدين، ومواصلة أعمال الجهاد والفتوح، وإقامة قواعد ثابتة يرابط فيها المسلمون لحماية البلاد المفتوحة، وإنشاء قوّة بحريّة عسكريّة لافتقار الجيش الإسلاميّ إلى ذلك.

أوّلاً: إعادة فتح بلاد فارس:

(١) إخضاع أذربيجان وأرمينية:

لقد انتفض أهل أذربيجان على واليهم عتبة بن فرقد السّلميّ ﵁ عقب وفاة الفاروق عمر ﵁ ومنعوا الجزية الّتي صالحوا عليها حذيفة بن اليمان ﵁ سنة ٢٢هـ/٦٤٣م، فغزاهم أمير الكوفة[١] الوليد بن عقبة بن أبي معيط الأمويّ، فأسرعوا لمصالحته على صلح

(١) كانت لأهل الكوفة قاعدتان لحماية البلاد المفتوحة في أذربيجان والرّيّ، فكان يقيم بأذربيجان ستّة آلاف وبالرّيّ أربعة آلاف في الوقت الّذي بلغ فيه الجيش الكوفيّ أربعين ألفًا، فكان الغزو يصيب الجنديّ مرّة كلّ أربع سنوات. الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٥٩١. من طريق أبي مخنف.

حذيفة - ثمانمائة ألف درهم - وأرسل سليمان بن ربيعة الباهليّ في اثني عشر ألفًا إلى أرمينية فأخضعها، وعاد الوليد منتصرًا إلى الكوفة سنة ٢٦هـ/٦٤٦م(١).

(٢) فتح طَبَرِسْتان وجُرْجان:

أمّر الخليفة عثمان ﷺ سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص الأمويّ على الكوفة سنة ٣٠هـ/٦٥٠م(٢)، فخرج غازيًا ومعه جماعة من الصّحابة فيهم: حذيفة بن اليمان، والحسن، والحسين، وعبد الله بن عبّاس، وعبد الله بن عمر بن الخطّاب، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وعبد الله بن الزّبير ﷺ، فأتى جُرجان فصالحه أهلُها، وافتتح طبرستان عَنوة بعد أن لاقى المسلمون مقاومة شديدة من أهلها، وصلّى سعيدٌ بالمسلمين صلاة الخوف وهم يقتتلون(٣)، علّمهم إيّاها حذيفة بن اليمان ﷺ(٤).

(٣) فتح فارس وخراسان:

انتقضت بلاد فارس وخراسان على المسلمين في بداية عهد الخليفة عثمان ﷺ فنهض والي البصرة عبد الله بن عامر بن كُرَيز العبشميّ لإعادة فتحها سنة ٣١هـ/٦٥١م، فوجّه جيشًا إلى سِجِسْتَانَ، فافتتحها صلحًا(٥)، وكان يزدجرد قدم إصطَخَر في جمع من الأعاجم عقب انتقاض أهلها، فسار إليهم عبد الله بن عامر، فظفر بهم، وهرب يزدجرد نحو خراسان(٦)، وغزا ابن عامر قلاع فارس فافتتحها ثانية، ثمّ توجّه بجيوشه إلى خراسان لتتبّع كسرى وقوّاد فارس، فلم يقف له شيء حتّى افتتح مدينة مرو صلحًا، وتتابعت الفتوح على

---

(١) يؤرّخ أبو مخنف إخضاع أذربيجان وأرمينية بسنة ٢٤هـ، والأرجح سنة ٢٦هـ؛ لأنّ المغيرة بن شعبة وسعد بن أبي وقّاص ﷺ سبقا الوليد بن عقبة على إمارة الكوفة في أوّل خلافة عثمان ﷺ. حمدي شاهين: الدّولة الإسلاميّة في عصر الخلفاء الرّاشدين، ص٢٤٩. وينظر إخضاع أذربيجان وأرمينية عند الطّبري. تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٥٩١، ٥٩٢.

(٢) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٦٠٨- ٦١٢. من طريق سيف.

(٣) تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٥٩١. من طريق عمر بن شبّة.

(٤) عبد الرّزّاق: المصنّف، ج٢، ص٥٠٩، ح٤٢٤٨؛ أحمد بن حنبل: المسند، ج٣٨، ص٣٠٢، ح٢٣٢٦٨. وإسناده صحيح.

(٥) ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٥، ص٤٥.

(٦) الدّينوري: الأخبار الطّوال، ص١٣٩.



عبد الله بن عامر وجيوشه، ففُتحتْ مَرْو الرُّوذِ، وَطُوس، وَطَخَارِسْتَان، ونَيْسَابُور، وَبَاذَغِيس، وَأَبْيُورْد، وآمُلُ، ثمّ خلّف ابنُ عامرٍ الأحنفَ بن قيسٍ التّميميّ على خراسان، وأحرم بالحجّ من خراسان سنة ٣٢هـ/٦٥٢م[١]، ورجع إلى البصرة فعاود الغزو، وأقام سوق الجهاد، فافتتح بُسْتَ، وكَابُلَ، وَزَابُلِسْتَانَ، ولم يزل ينتقصُ شيئًا شيئًا من خراسانَ حتّى افتتح هَرَاةَ، وَبُوشَنْجَ، وَسَرَخْسَ، وَأَبْرَشَهْرَ، وَالطَّالَقَانَ، وَالْفَارِيَابَ، وَبَلْخَ[٢].

(٤) مقتل الملك الفارسيّ يزدجرد:

كان يزدجرد قد أتى إصْطَخَر في أصل بلاد فارس[٣]، فلمّا أتمّ عبد الله بن عامر فتْح إقليم فارس سنة ٣٠هـ/٦٥٠م، هرب يزدجرد[٤]، إلى كرمان، فلم يحتمله مرزبانُها، وطرده منها، فأتى سجستان، وهو يظنّ نفسه ملكًا، فطالب ملكها بالخراج، فتنكّر له، فسار إلى خراسان فتلقّاه ماهويه مرزبان مرو معظّمًا مبجّلاً، وقدم عليه خاقان التّرك نيزك طرخان فحمله وخلع عليه وأكرمه، ومكث عنده شهرًا، ثمّ كتب إليه يخطب ابنته فغضب يزدجرد، وكتب إليه يعنّفه على جرأته؛ لأنّه لا يعدو أن يكون عبدًا من عبيد كسرى، وأمر بمحاسبة ماهويه مرزبان مرو وسأله عن الأموال، فاستعان عليه بصهره الخاقان، فأقبل إليه في الأتراك، وتضافرا على يزدجرد، فخرج لمواجهتهم فهزموه، وقتلوا أصحابه، ونهبوا عسكره، فرجع إلى مرو فلم يفتح له[٥]، فهام على وجهه حتّى قُتل شرّ قتلة على يد طحّان من رعيّته سنة ٣١هـ/٦٥١م[٦]، وقد اختلف الرّواة في كيفيّة مقتله بما لا فائدة من ورائه.

وفي هذا أبين عبرة للملوك والسّلاطين؛ فهذا يزدجرد الفارسيّ يملك أربع سنين، لا ملك فوقه إلّا ربُّ العالمين، ثمّ يرسل الله ﷻ عليه جندًا من العرب المسلمين، فيُبتلى بهم ستَّ عشرةَ من السّنين، يتقلّب فيها بين البلدان والدّهّاقين، ويتجرّع الخزي والهوان بين

---

(١) ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٥، ص٤٦.

(٢) الطّبقات الكبرى، ج٥، ص٤٧.

(٣) البلاذري: فتوح البلدان، ص٣٣٣.

(٤) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٦٤.

(٥) البلاذري: فتوح البلدان، ص٣٣٤؛ الدّينوري: الأخبار الطّوال، ص١٣٩. وبنحوه عند المدائني. الكلاعي: الاكتفاء بما تضمّنه من مغازي رسول الله والثّلاثة الخلفاء، ج٢، ص٦١٤.

(٦) ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٥، ص٤٦.

الحين والحين، إلى أن يهويَ إلى أسفل سافلين، ويُقتلَ على يد أحد عبيده الطّحّانين، فتنتهي به دولة الجبابرة السّاسانيّين، فسبحان من يرفع أقوامًا ويضع آخرين.

وكان كسرى يزدجرد آخرَ ملوك الفرس في الدّنيا على الإطلاق(١)، وتحقّق به للنّاس قول النّبيّ ﷺ: "إِذَا هَلَكَ كِسْرَى، فَلَا كِسْرَى بَعْدَهُ، وَإِذَا هَلَكَ قَيْصَرُ فَلَا قَيْصَرَ بَعْدَهُ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَتُنْفِقُنَّ كُنُوزَهُمَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ"(٢).

وكان النّبيّ ﷺ قد أخبر القرشيّين بانقطاع ملك كسرى وقيصر عن العراق والشّام عندما خافوا منهما على تجارتهم بعد دخولهم في الإسلام(٣).

وعندما انبثّ الصّحابة والتّابعون بين شعوب الفرس وسمعوا منهم القرآن وتعرّفوا منهم على الإسلام أدركوا جلال الله وعظمته، ووقفوا على ما كانوا عليه من الحُمق والجهل والنّجاسة والقذارة، فسارعوا للدّخول في الإسلام اختيارًا وطوعًا من تلقاء أنفسهم(٤).

ثانياً: فتوح الجبهة الشّاميّة:

(١) هجوم البيزنطيّين على الشّام:

قام البيزنطيّون بهجوم عنيف على بلاد الشّام في أوّل خلافة عثمان ﷺ فلجأ معاوية بن أبي سفيان ﷺ إلى طلب المدد من الخليفة، فأمر الوليد بن عقبة -والي الكوفة- بسرعة إمداده، فأنجده بثمانية آلاف مقاتل بقيادة سلمان بن ربيعة الباهليّ، فشاركوا جند الشّام في غزو بلاد الرّوم، واستطاع جند الإسلام أن يلحقوا بالبيزنطيّين هزيمة فادحة، ثمّ طاردوهم، وتوغّلوا في آسيا الصّغرى، وافتتحوا حصونًا كثيرة(٥).

---

(١) ابن كثير: البداية والنّهاية، ج٧، ص١٧٩.

(٢) البخاري: الصّحيح، (كتاب المناقب، باب علامات النّبوّة في الإسلام)، ج٣، ص١٣٢٥، ح٣٤٢٢؛ مسلم: الصّحيح، (كتاب الفتن وأشراط السّاعة، باب لا تقوم السّاعة حتّى يمرّ الرّجل بقبر الرّجل فيتمنّى أن يكون مكان الميّت من البلاء)، ج٤، ص٢٢٣٦، ٢٢٣٧، ح٢٩١٨.

(٣) ابن حجر: فتح الباري، ج٦، ص٦٢٥، ٦٢٦.

(٤) تثبيت دلائل النّبوّة، ج٢، ص٣٣١- ٣٣٣.

(٥) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٥٩٢. من طريق أبي مخنف. وقارن برواية الواقديّ عند الطّبريّ والبلاذريّ. فتوح البلدان، ص٢٢٠، ٢٢١.

(٢) فتح طرابلس الشّام:

كانت طرابلس[١] الشّاميّة لا تزال تحت سيطرة الرّوم حتّى خلافة عثمان ﷺ، وكان البيزنطيّون قد نجحوا في استعادة بيروت وجُبيل[٢] وبعض المدن السّاحليّة عام ٢٣هـ/٦٤٤م، وظلّوا بها مدّة عامين، فرأى معاوية بن أبي سفيان ﷺ ضرورة فتح طرابلس - آخر المعاقل البيزنطيّة على السّاحل الشّاميّ - الّتي أوى إليها الرّوم من مختلف البلدان الشّاميّة، وذلك لتأمين مكتسبات المسلمين من الهجمات البيزنطيّة البحريّة الّتي تنطلق من تلك القاعدة، والاستفادة منها كمنفذ بحريّ لبلاد الشّام، وثغر لدمشق وحمص[٣].

أرسل أمير الشّام معاوية ﷺ سفيان بن مجيب الأزديّ - والي بعلبك - لفتح طرابلس بإذن من الخليفة عثمان ﷺ، فعسكر في مشارفها، وراح يهاجم البيزنطيّين، إلّا أنّه فشل في تحقيق أيّ تقدّم لمناعة تحصيناتها، وعدم ارتكازه إلى قاعدة قريبة ثابتة ينطلق منها، وتلقّي أهلِها للإمدادات التّموينيّة البيزنطيّة عن طريق البحر[٤].

عرض سفيان بن مجيب الأمر على معاوية ﷺ فأمره ببناء حصن لعسكره، "يأوي إليه ليلاً، ويغازيهم نهارًا"[٥]، فنفّذ سفيان أمر معاوية، واختار مكانًا ملائمًا، فبنى فيه حصنًا عرف باسمه، وراح يشدّد ضغطه على المدينة، ووضع حرّاسًا على الشّواطئ المحيطة بها لمراقبة البيزنطيّين، فيئس المحاصرون من مصابرة المسلمين، وراحوا يفكّرون جدّيًّا في النّجاة بأنفسهم، وعجزوا عن الخروج للتّصدّي للقوّات الإسلاميّة، ولم تنقذهم من هذا الوضع الحرج إلّا السّفن البيزنطيّة الّتي نقلتهم ليلاً، وخفية إلى الجزر القريبة الواقعة تحت

---

(١) طرابلس: كانت تعرف بطرابلس الشّام تمييزًا لها عن طرابلس الغرب، وهي ثاني أكبر المدن اللّبنانيّة بعد العاصمة بيروت، وتبعد عنها ٨٣ كيلو مترًا على ساحل البحر المتوسّط شمالاً. يحي شامي: موسوعة المدن العربيّة والإسلاميّة، ص١٢٧، ١٢٨.

(٢) جُبيل: مدينة لبنانيّة على ساحل البحر الأبيض المتوسّط، تبعد عن بيروت ٣٨ كيلو مترًا. يحي شامي: موسوعة المدن العربيّة والإسلاميّة، ص١٢٢.

(٣) محمّد سهيل طقوش: تاريخ الخلفاء الرّاشدين، ص٣٧٦.

(٤) البلاذري: فتوح البلدان، ص١٥١.

(٥) ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج٢١، ص٣٥٦.

السّيطرة البيزنطيّة، وأضحت المدينة خالية ممّن يحميها أو يدافع عنها، فدخلها المسلمون وسيطروا عليها(١).

(٣) فتح قبرص:

أدرك والي الشّام معاوية بن أبي سفيان ﷺ ضرورة بناء أسطول إسلاميّ ليتمكّن من الرّدّ على الهجمات البحريّة البيزنطيّة، ويسيطر على الجزر القريبة الّتي يتّخذها البيزنطيّون قواعد للهجوم على البلاد الإسلاميّة، فكتب إلى أمير المؤمنين عمر ﷺ يطلب منه السّماح بركوب البحر، وغزو الجزر القريبة من ساحل بلاد الشّام، فرفض طلبه(٢)، وأقسم أنّه لن يحمل المسلمين فيه أبدًا(٣)، وأمر بترميم حصون الثّغور البحريّة، وترتيب المقاتلة فيها، وإقامة الحرس على مناظرها، واتّخاذ المواقيد لها، لحمايتها من غارات البيزنطيّين(٤).

ولمّا تولّى الخلافةَ عثمانُ بن عفّان ﷺ ألحّ عليه معاوية ﷺ في غزو البحر سنة ٢٧هـ/٦٤٨م، وخاصّة بعد احتلال البيزنطيّين لبعض سواحل الشّام، وأخذهم مدينة الإسكندريّة المصريّة مدّة، ونجح معاوية في إقناع عثمان بركوب البحر، والسّماح له بغزو قبرص على أن يحمل معه امرأته فاختة بنت قرظة(٥).

واستطاع أمير الشّام معاوية بن أبي سفيان ﷺ تجهيز الأسطول، وخرج على رأس أهل الشّام، وأبحر لغزو جزيرة قبرص عام ٢٨هـ/٦٤٩م، من ميناء عكّا(٦)، ووافاهم أمير مصر عبد الله بن سعد بن أبي السّرح ﷺ في جند مصر، فاجتمعوا عليها، تحت قيادة معاوية(٧)، وشارك في الغزوة جمعٌ من الصّحابة منهم: أبو أيّوب الأنصاريّ، وأبو الدّرداء، وفَضَالَة بن

---

(١) البلاذري: فتوح البلدان، ص١٥١؛ محمّد سهيل طقوش: تاريخ الخلفاء الرّاشدين، ص٣٧٧، ٣٧٨.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان، ص١٧٦.

(٣) ابن المبارك: الجهاد، ص١٥٨.

(٤) البلاذري: فتوح البلدان، ص١٥٣.

(٥) فتوح البلدان، ص١٧٦، ١٧٧.

(٦) فتوح البلدان، ص١٧٦.

(٧) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٦٠٢. من طريق الواقدي.



عبيد الأنصاريّ، وأبو ذرّ الغفاريّ، والمقداد بن عمرو (ابن الأسود)، وشدّاد بن أوس، وعبادة بن الصّامت، وزوجته أمّ حرام رضي الله عنها[١].

وقد حقّق معاوية رضي الله عنه نبوءة رسول الله ﷺ بغزو أصحابه البحر، فحدّث أنس رضي الله عنه عن خالته أمّ حَرَامٍ بنتِ مِلْحَانَ رضي الله عنها أنّها قالت: "نَامَ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمًا قَرِيبًا مِنِّي، ثُمَّ اسْتَيْقَظَ يَتَبَسَّمُ، فَقُلْتُ: مَا أَضْحَكَكَ؟ قَالَ: "أُنَاسٌ مِنْ أُمَّتِي عُرِضُوا عَلَيَّ يَرْكَبُونَ هَذَا البَحْرَ الأَخْضَرَ كَالْمُلُوكِ عَلَى الْأَسِرَّةِ"، قَالَتْ: فَادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ فَدَعَا لَهَا، ثُمَّ نَامَ الثَّانِيَةَ، فَفَعَلَ مِثْلَهَا، فَقَالَتْ مِثْلَ قَوْلِهَا، فَأَجَابَهَا مِثْلَهَا فَقَالَتْ: ادْعُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَقَالَ: "أَنْتِ مِنَ الأَوَّلِينَ"، فَخَرَجَتْ مَعَ زَوْجِهَا عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ غَازِيًا أَوَّلَ مَا رَكِبَ المُسْلِمُونَ البَحْرَ مَعَ مُعَاوِيَةَ، فَلَمَّا انْصَرَفُوا مِنْ غَزْوِهِمْ قَافِلِينَ، فَنَزَلُوا الشَّأْمَ، فَقُرِّبَتْ إِلَيْهَا دَابَّةٌ لِتَرْكَبَهَا، فَصَرَعَتْهَا، فَمَاتَتْ[٢].

ويُروى أنّ قَبْرَ أُمِّ حَرَامٍ بِقُبْرُص، وَهُمْ يَقُولُونَ: "هَذَا قَبْرُ الْمَرْأَةِ الصَّالِحَةِ"[٣]. وفي رواية أخرى عن أُمّ حرام رضي الله عنها أنّها سمعت النّبيّ ﷺ يقول: "أَوَّلُ جَيْشٍ مِنْ أُمَّتِي يَغْزُونَ البَحْرَ قَدْ أَوْجَبُوا"، فقالت: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَا فِيهِمْ؟ قَالَ: "أَنْتِ فِيهِمْ"، ثمّ قال النّبيّ ﷺ: "أَوَّلُ جَيْشٍ مِنْ أُمَّتِي يَغْزُونَ مَدِينَةَ قَيْصَرَ مَغْفُورٌ لَهُمْ"، فقالت: أَنَا فِيهِمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قال: "لَا"[٤].

وعندما وصل الأسطول الإسلاميّ إلى قبرص رسا على ساحلها، وأغار المسلمون على نواحيها، فاضطرّ ملك قبرص في ظلّ عجزه عن المقاومة إلى طلب الصّلح، فصالحه الأمير معاوية رضي الله عنه[٥] على الشّروط الآتية:

---

(١) البلاذري: فتوح البلدان، ص١٧٧، ١٧٨؛ الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٦٠٠.

(٢) البخاري: الصّحيح، (كتاب الجهاد والسّير، باب فضل من يصرع في سبيل الله)، ج٣، ص١٠٣٠، ح٢٦٤٦؛ مسلم: الصّحيح، (كتاب الإمارة، باب فضل الغزو في البحر)، ج٣، ص١٥١٩، ١٥٢٠، ح١٩١٢.

(٣) رواه الطّبرانيّ عن هشام بن الغاز الشّاميّ. المعجم الكبير، ج٢٥، ص١٣٠، ح٣١٦. وقال الهيثمي: "رجاله إلى قائله رجال الصّحيح". مجمع الزّوائد، ج٩، ص٢٦٣. وهشام ثقة، استعمله أبو جعفر المنصور على بيت المال، ومات سنة بضع وخمسين ومائة، وروايته هنا منقطعة. الخطيب: تاريخ بغداد، ج١٦، ص٦٤؛ ابن حجر: تقريب التّهذيب، ج٢، ص١٧٨.

(٤) البخاري: الصّحيح، (كتاب الجهاد والسّير، باب ما قيل في قتال الرّوم)، ج٣، ص١٠٦٩، ح٢٧٦٦.

(٥) البلاذري: فتوح البلدان، ص١٧٦، ١٧٧.

* يؤدّي أهل قبرص جزية سنويّة مقدارها سبعة آلاف دينار، كما يؤدّون للبيزنطيّين مثلها، وليس للمسلمين أن يحولوا بينهم، وبين ذلك.
* يمتنع المسلمون عن غزو الجزيرة، ولا يقاتلون عن أهلها من أرادهم من ورائهم.
* يُعلِم القبارصةُ المسلمين بتحرّكات البيزنطيّين المعادية لهم، ولا يساعدونهم على غزو بلاد المسلمين.
* أن يولّي خليفة المسلمين بطريقًا على القبارصة من أنفسهم[١]، ولا تجري عليهم أحكام المسلمين[٢].

وقد استمرّ العمل بين المسلمين والقبارصة بموجب هذه المعاهدة حتّى نقض أهل قبرص العهد وساعدوا البيزنطيّين في حربهم ضدّ المسلمين سنة ٣٢هـ/٦٥٣م، فغزا الأمير معاوية ﷺ تلك الجزيرة في خمسمائة مركب سنة ٣٣هـ/٦٥٤م، وفتحها عَنوة، وأقرّ أهلها على صلحهم، وعمد إلى تمصيرها، واستقرار المسلمين فيها، فبعث إليها اثني عشر ألفًا من أهل الدّيوان المكتتبين، فبنوا بها المساجد، كما نقل إليها جماعة من أهل بعلبك، وبنى بها مدينة، وأقاموا يأخذون الأعطيّات إلى أن توفّي[٣].

(٤) الغزوات البحريّة بعد فتح قبرص:

زعم الرّاوية الكذوب سيف بن عمر التّميميّ أنّ معاوية ﷺ استعمل عبد الله بن قيس الجاسيّ - حليف بني فزارة - على البحر عقب فتح قبرص، وأنّه غزا خمسين غزاةً، من بين شاتية وصائفة في البحر، ولم يغرق فيه أحد، ولم ينكب، وكان يدعو الله أن يرزقه العافية في جنده، وألّا يبتليه بمصاب أحد منهم، ثمّ كافأه الله بالشّهادة، فخرج وحده، فانتهى إلى المَرْقَى من أرض الرّوم، فعرفته امرأة منهم، فدلّتهم عليه، فهجموا عليه فقتلوه، واستخلف عند موته سفيان بن عوف الأزديّ على جنده، فكان أضعف منه في القتال[٤].

---

(١) البلاذري: فتوح البلدان، ص١٧٧، ١٧٨؛ الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٦٠٢.

(٢) السّرخسي: شرح السّير الكبير للإمام محمّد بن الحسن الشّيباني، ج٥، ص٣٠٦.

(٣) البلاذري: فتوح البلدان، ص١٧٧.

(٤) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٦٠١؛ ابن الأثير: الكامل في التّاريخ، ج٢، ص٤٦٩، ٤٧٠؛ الكلاعي: الاكتفاء، ج٢، ص٣٦٤؛ ابن خلدون: العبر، ج٢، ص٥٧٦.



وهذا الخبر من عجائب أكاذيب سيف - وعجائبه جمّة - فهذه الشّواتي والصّوائف الّتي نسبها لأمير البحر الجاسيّ تحتاج إلى خمس وعشرين سنةً متتالية إذا لم يتخلّف عن صائفة ولا شاتية، ولا يعقل أن يغزو البحر طوال هذه السّنوات، ويخوض تلك المعارك الكثيرة، ولا تكشف أخباره العظيمة إلّا في منامات سيف!

والحقّ أنّ معاوية بن أبي سفيان ﷺ استعمل التّابعيّ سفيان بن عوف الأزديّ أو الغامديّ على الصّوائف منذ عهد أمير المؤمنين عثمان ﷺ، فكان يخرج في البرّ، ويستخلف على البحر جنادة بن أبي أميّة، فظلّ على ذلك حتّى مات[1]، ولم تقتصر غزواته على الصّوائف، بل شتى بأرض الرّوم مرارًا بعد الخمسين من الهجرة[2]، ولمّا مات شاتيًا بأرض الرّوم سنة ٥٢هـ/٦٧٢م[3]، "بكتْ عليه العربُ جميعًا، حتّى كأنّه كان لهم والدًا، فلمّا بلغ معاوية وفاتُه كتب إلى أمصار المسلمين وأجناد العرب ينعاه لهم، فبُكي عليه في كلّ مسجد، وكان معاوية ﷺ إذا رأى في الصّوائف خللاً قال: واسفياناه ولا سفيان لي"[4].

ولمّا مات سفيان ولّى معاوية عبد الله بن قيس الجاسيّ غزو البحر بعد سفيان بن عوف سنة ٥٣هـ/٦٧٣م[5]، فظلّ يغزو حتّى وفاته[6].

ويتبيّن من كلام أهل العلم أنّ سيف بن عمر التّميميّ حرّف أخبار عبد الله بن قيس الجاسيّ، وأنّ سفيان بن عوف الأزديّ هو الّذي عهد إليه معاوية ﷺ بقيادة الأسطول عقب فتح قبرص، وأنّ الجاسيّ كان خليفة لسفيان وليس سابقًا له، ولا أميرًا عليه، وليس سيفٌ بالحجّة إذا خالف أهل العلم، وخاصّة في أخبار أهل اليمن.

---

(١) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٨٠؛ ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج٢١، ص٣٤٧، ٣٤٨. وينظر الحاكم: المستدرك على الصّحيحين، ج٣، ص٥٠٥، ح٥٨٨٥.

(٢) ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج٢١، ص٣٤٩- ٣٥١. وقد روى ابن عساكر أخبار تلك المغازي عن جماعة من ثقات أهل الأخبار.

(٣) ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج٢١، ص٣٥٢.

(٤) تاريخ دمشق، ج٢١، ص٣٥١.

(٥) الحاكم: المستدرك، ج٣، ص٥٠٥، ح٥٨٨٥؛ ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج٣٢، ص١١٨.

(٦) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص٢٢٥، ٢٢٩، ٢٣٠؛ ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج٣٢، ص١١٩.

ثالثًا: فتوح الجبهة المصريّة:

(١) إعادة فتح الإسكندريّة:

لم يكن فتح المسلمين للإسكندريّة يسيرًا على الرّوم، ولذلك ظلّوا يتحيّنون الفرصة لإعادتها، فلمّا رأت البقيّة الرّوميّة الّتي لا تزال في الإسكندريّة قلّة عدد جند المسلمين بها كاتبوا ملك الرّوم قسطنطين الثّالث (٦٤١- ٦٦٨م/٢٠- ٤٨هـ)[١]، وحرّضوه على غزوها وأخذها من يد المسلمين، فأرسل لتلك المهمّة قائده منويل الخصيّ بثلاثمائة مركب مشحونة بالمقاتلة والسّلاح والعتاد، وذلك في سنة ٢٥هـ/٦٤٥م[٢].

ويختلف المؤرّخون في والي مصر الّذي هاجمت الرّومُ الإسكندريّةَ في أيّامه بين عمرو بن العاص وعبد الله بن سعد بن أبي السّرح رضي الله عنهما، فيجزم جماعة من المؤرّخين[٣] بأنّ عمرو بن العاص رضي الله عنه كان لا يزال واليًا على الإسكندريّة آنذاك.

ويرى بعض مؤرّخي مصر[٤] أنّ عثمان رضي الله عنه كان قد عزل عمرو بن العاص رضي الله عنه، وجمع مصر كلّها لابن أبي السّرح رضي الله عنه الّذي ولّاه الفاروق عمر رضي الله عنه على الخراج والصّعيد، ويتّفق الجميع على قيام عمرو بن العاص رضي الله عنه بإعادة فتح الإسكندريّة؛ لأنّ المستمسكين بإمارة عبد الله بن سعد رضي الله عنه عند نزول الحملة البيزنطيّة يجزمون بأنّ أهل مصر التمسوا من

---

(١) تذكره المصادر العربيّة بقسطنطين بن هرقل، وهو قسطنطين الثّالث بن قسطنطين الثّاني بن هرقل، فهو حفيد هرقل، ويدعى أيضًا قنسطانز الثّاني. أسد رستم: الرّوم في سياستهم، وحضارتهم، ودينهم، وثقافتهم، وصلتهم بالعرب، دار المكشوف، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٩٥٥م، جا، ص٢٥٤، ٢٥٥. ويذكر المؤرّخ أبو الحسن المسعوديّ أنّ ملك الرّوم الذي غزا الإسكندريّة آنذاك هو قسطنطين بن قسطنطين أخي هرقل. التّنبيه والإشراف، ص١٣٥.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٤٤.

(٣) سيف بن عمر التّميمي: كتاب الرّدّة والفتوح، ص١١٤؛ ابن سعد: الطّبقات الكبير، ج٥، ص٦٨؛ خليفة ابن خياط: تاريخ خليفة، ص١٥٨؛ البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٤٤؛ ابن تغري بردي: النّجوم الزّاهرة في ملوك مصر والقاهرة، جا، ص٦٥، ٦٦.

(٤) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص١٩٠؛ الكندي: الولاة والقضاة، تحقيق/ محمّد حسن إسماعيل، دار الكتب العلميّة، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ص١٢؛ المقريزي: الخطط، جا، ص٣١١.



الخليفة عثمان ﷺ إقرار عمرو لمواجهة الرّوم، بسبب خبرته الحربيّة وهيبته في قلوب العساكر الرّوميّة، فاستجاب عثمان لهم.

وكان البيزنطيّون قد فاجئوا روابط المسلمين، وأعملوا فيهم القتل فلم ينج منهم إلّا من تمكّن من الهرب، واستولوا على المدينة كلّها، وتوغّلوا في مصر، وعاثوا فيها فسادًا، حتّى أوشكوا على الوصول إلى بابليون(١)، غير أنّ المقوقس لم ينكث عهده مع المسلمين(٢).

لم يسرع عمرو بن العاص ﷺ لمواجهة الرّوم؛ وإنّما سار إليهم بخمسةَ عشرَ ألف مقاتل(٣) على مَهَل، حتّى وصلوا نقيوس، وقد أبغضهم أهل القرى وحنقوا عليهم؛ لأنّهم أكلوا طعامهم، وشربوا خمورهم، وانتهبوا أمتعتهم(٤).

ودارت معركةٌ شديدة بين المسلمين والرّوم في البرّ والبحر تراجع فيها المسلمون في البداية، وعُقرتْ فرسُ عمرو بن العاص ﷺ فقاتل راجلاً، وانهزمت خيّالة المسلمين بقيادة شريك بن سُميّ الغُطَيفي المراديّ، واستعلى الرّوم، وبرز بطريقٌ منهم يطلب المبارزة فخرج له رجل زُبيديّ يمنيّ يقال له حومل فاقتتلا طويلاً حتّى قُتل الرّوميّ، وصدق المسلمون الحملةَ فهزموا الرّوم، وطاردوهم حتّى أدخلوهم الإسكندريّة(٥).

وفرح المصريّون بهزيمة الرّوم، وسألوا عمرًا ﷺ أن يردّ عليهم أمتعتهم الّتي انتهبها منهم لصوص الرّوم، فردّها عليهم بالبيّنة(٦).

ووصل عمروٌ ﷺ الإسكندريّة فضرب عليها الحصار(٧)، ونصب عليها المجانيق(٨)، وتابع عليها الضّرب حتّى تصدّعت أسوارها، وألحّ عليها بالحرب حتّى دخلها عَنوة، فقتل

(١) البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٤٤.

(٢) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٥٨؛ ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص١٨٩.

(٣) البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٤٤.

(٤) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص١٩١.

(٥) فتوح مصر وأخبارها، ص١٩١؛ المقريزي: الخطط، ج١، ص٣١١.

(٦) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص١٩٢.

(٧) البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٤٤.

(٨) رواه الحارث بن أبي أسامة في مسنده بإسناد صحيح رواته ثقات. ابن حجر: المطالب العالية بزوائد المسانيد الثّمانية، ج١٨، ص٤١.

مقاتلة الرّوم، وسبى نساءهم وذراريَّهم، ولم ينج منهم إلّا من هرب ولاذ إلى السّفن، وسقط قائدهم منويل الخصيّ في عداد القتلى[١]، وأمر عمروٌ ﷺ بتدمير أسوار الإسكندريّة[٢]، حتّى لا يتحصّن الأعداء فيها مرّة أخرى[٣].

(٢) غزو إفريقيّة:

كان عمرو بن العاص ﷺ قد أمّن حدود مصر الغربيّة بفتح برقة صلحًا، وطرابلس عنوة[٤]، ولم يجاوز ذلك لرفض الخليفة عمر بن الخطّاب ﷺ دخول إفريقيّة.

ولمّا جمع الخليفة عثمان ﷺ ولاية مصر لعبد الله بن سعد بن أبي السّرح ﷺ سنة ٢٥هـ/٦٤٦م، كان يرسل جرائد الخيل للإغارة على أطراف إفريقيّة، ولم يزل يستأذن الخليفة عثمان ﷺ في مواصلة فتح المغرب حتّى غيّر سياسته في التّوقّف عن غزوها[٥]، وأمدّ عامله عبد الله بن سعد ﷺ بجيش عظيم سنة ٢٧هـ/٦٤٨م[٦].

خرج الأمير عبد الله بن سعد بن أبي السّرح ﷺ قاصدًا إفريقيّة (تونس)، ودعا حاكمها البيزنطيّ جُرْجِير (جرجريوس)[٧] إلى الإسلام أو الجزية، فامتنع، وزحف إلى المسلمين بجيش كبير، واصطدم بهم خارج قاعدته سُبَيْطِلَة[٨]، فطالت الحرب بين الفريقين[٩]، وهم يقتتلون كلّ يوم، ولا يستطيع المسلمون تحقيق الانتصار، وذلك في الوقت الّذي غابت فيه الأخبار على أمير المؤمنين عثمان ﷺ، ممّا جعله يرسل إليهم مددًا بقيادة

---

(١) البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٤٥.

(٢) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص١٩١.

(٣) فتوح مصر وأخبارها، ص١٩٠.

(٤) البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٤٩.

(٥) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص١٩٨، ١٩٩.

(٦) البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٤٩.

(٧) جرجريوس: أحد قادة الرّوم، ولّاه هرقل على إفريقيّة فخلع طاعته، وضرب الدّنانير باسمه، وحكم ما بين أطرابلس اللّيبيّة إلى طنجة المغربيّة. ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص١٩٩.

(٨) سبيطلة: مدينة بتونس، تقع جنوبي القيروان في عمق البلاد. ياقوت: معجم البلدان، ج٣، ص١٨٧. وقد اتّخذ جرجير هذه المدينة قاعدة له، ليكون في مأمن من غارات البيزنطيّين.

(٩) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص١٧٢.

عبد الله بن الزّبير بن العوّام ﷺ، فارتفعت به معنويّاتهم، وتعالت أصواتهم بالتّكبير، وفتّ المدد في عضد جرجير(١).

عمل جرجير على رفع معنويّات جنده، فجعل مائةَ ألفِ دينارٍ جائزةً لمن يقتل عبد الله بن سعد إضافة إلى تزويجه من ابنته، فكان ابن سعد ﷺ يرسل جنده لمقاتلة الرّوم من الصّباح إلى الظّهيرة كلّ يوم دون أن يخرج معهم، فلمّا رأى ذلك عبد الله بن الزّبير ﷺ أشار عليه أن يجعل جائزةً مماثلة لمن يقتل جرجير، وأن يقسّم الجيش الإسلاميّ، فينتخب جماعة من الأبطال الشّجعان ويتركهم في خيامهم متأهّبين، ويقاتل الرّوم ببقيّة العسكر، واستؤنفت الحرب من الغد حتّى ملّ الرّوم ورجعوا متعبين، فقاد ابن الزّبير ﷺ مجموعة الفرسان المتأهّبين، وهجموا على الرّوم قبل أن يتمكّنوا من السّلاح، فقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وسقط جرجير قتيلاً على يد ابن الزّبير ﷺ سنة ٢٨هـ/٦٤٩م(٢).

وتحصّن من بقي من الرّوم بمدينة سبيطلة، فضرب عليها عبد الله بن سعد الحصار حتّى فتحها، وبثّ جنوده في بلاد إفريقيّة (تونس) حتّى بلغوا قفصة، وفتحوا حصن الأجم جنوبي القيروان، وعقد ابن سعدٍ صلحًا مع زعماء البلاد من البربر مقابل جزية سنويّة، وعاد إلى مصر في أوائل سنة ٢٩هـ/٦٤٩م، بعدما غنم مغانم عظيمة، وأرسل البطل عبد الله بن الزّبير ﷺ ببشارة الفتح إلى المدينة النّبويّة(٣)، ولم يترك مسلحة بإفريقيّة، ولم يولّ عليها أحدًا من قبله(٤).

ولمّا كانت هذه الغزوة قد ضمّت عبد الله بنَ عمر بن الخطّاب، وأخاه عبيدالله، وعبد الله بن العبّاس، وأخاه عبيد الله، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وعبد الله بن الزّبير، وعبد الرّحمن بن أبي بكر، فقد أُطلق عليها جيش العبادلة(٥).

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التّاريخ، ج٢، ص٤٦٣.

(٢) ابن الأثير: الكامل، ج٢، ص٤٦٣، ٤٦٤؛ ابن عذارى: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق/ كولان، وليفي بروفنسال، دار الثّقافة، بيروت، الطّبعة الثّالثة، ١٩٨٣م، ج١، ص١٠- ١٢.

(٣) ابن الأثير: الكامل، ج٢، ص٤٦٤.

(٤) البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٥٠.

(٥) البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٤٩، ٢٥٠؛ النّويري: نهاية الأرب في فنون الأدب، ج٢٤، ص٧، ٨.

(٣) غزو بلاد النّوبة:

لمّا علم النّوبيّون بوفاة الخليفة عمر بن الخطّاب ﷺ وعزل والي مصر عمرو بن العاص ﷺ أرسلوا سراياهم إلى الصّعيد، فجاسوا خلال الدّيار، وخرّبوا، وأفسدوا[١]، فقام عبد الله بن سعد ﷺ بغزو النّوبة سنة ٣١هـ/٦٥٢م، وتوغّل جنوبًا حتّى بلغ العاصمة "دنقلة"، واصطدم بأهلها في قتال شديد إلّا أنّه لم يتمكّن من فتحها، فهادنهم وعقد معهم صلحًا، يضمن لهم استقلال بلادهم، ويحقّق للمسلمين الاطمئنان إلى حدودهم الجنوبيّة، وبموجبه تمدّ مصر النّوبة بالحبوب والعدس، ويرسل النّوبيّون عددًا من الرّقيق إلى مصر[٢].

(٤) معركة ذات الصّواري:

وقعت معركة ذات الصّواري[٣] بين الأسطول البيزنطيّ صاحب التّاريخ البحريّ الطّويل والأسطول الإسلاميّ النّاشئ في مصر والشّام، وذلك سنة ٣٤هـ/٦٥٤م، على تأريخ جمهور المؤرّخين[٤].

ويرى ابن جرير الطّبريّ أنّ دافع غزوة ذات الصّواري يتمثّل في خروج إمبراطور الرّوم لمهاجمة المسلمين بسبب ما أصابوه في إفريقيّة[٥]، وهو ما يستبعده أحد المحْدثين؛ لعدم نشوب معارك إسلاميّة ضدّ البيزنطيّين بإفريقيّة منذ سنة ٢٨هـ/٦٤٩م عندما غزاها

---

(١) مصطفى محمّد سعد: الإسلام والنّوبة في العصور الوسطى، ص١١٦، ١١٧.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان، ص٢٦٠، ٢٦١؛ محمّد سهيل طقوش: تاريخ الخلفاء الرّاشدين، ص٣٨٢.

(٣) الصّواري: جمع صاري، وهو عمود السفينة الّذي ينصب في وسطها ويكون عليه الشّراع. ابن الأثير: النّهاية في غريب الحديث والأثر، ج٣، ص٢٨.

(٤) يقول بهذا التّاريخ ابن شهاب الزّهريّ. ابن شبّة: تاريخ المدينة، ج٢، ص١٩٢. وأبو معشر السّنديّ. الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٦١٨. وفقيه مصر اللّيث بن سعد. ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص٢٠٦. ويجزم به خليفة بن خياط. تاريخ خليفة، ص١٦٨. ويقرّره البلاذري، ويحدّده بشهر المحرّم أوّل السّنة. أنساب الأشراف، ج٥، ص٥٣٩. ويطابقهم عليه جماعة من مؤرّخي مصر. ابن يونس: تاريخ ابن يونس، ج١، ص٢٦٩؛ الكندي: الولاة والقضاة، ص١٣؛ المقريزي: الخطط، ج٣، ص٣٣٣؛ ابن تغري بردي: النّجوم الزاهرة، ج١، ص٨٠. ويخالف محمّد بن عمر الواقدي هذا القول فيؤرّخها بسنة ٣١هـ/٦٥١م.

(٥) تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٦١٩.



عبد الله بن سعد بن أبي السّرح ﷺ[1]، والصّحيح أنّ البيزنطيّين قاموا بهذه الحملة لأخذ الإسكندريّة العزيزة عليهم[2]، والّتي سبق استردادهم لها سنة ٢٥هـ/٦٤٥م، وطردهم منها على يد عمرو بن العاص ﷺ.

وكان البيزنطيّون يراقبون تحرّكات جنود المسلمين في مصر، وينتهزون الفرصة لاستعادة البلاد؛ فقد داهموا سواحل مصر بكامل أسطولهم البحريّ[3] في الوقت الّذي أرسل فيه الأمير عبدُ الله بنُ سعدٍ بُسرَ بن أرطأة العامريّ القرشيّ في نصف جنود مصر لغزوة برّيّة، وقد صدم بقيّة الجند عندما أخبرهم أميرهم ابن سعد بمداهمة الرّوم لهم في غياب خيرة الجند عنهم[4].

ويتبيّن من المصادر العربيّة حدوث موقعة ذات الصّواري أمام السّواحل المصريّة، ففي خطبة الأمير عبد الله بن سعد ﷺ في جنده يقول: "إنّ هرقل قد أقبل إليكم في ألف مركب"[5]، ويربط الطّبريّ موقعة ذات الصّواري بما أصاب المسلمون من الرّوم في إفريقيّة[6]، وهو ما يكرّره ابن الأثير[7]، وينصّ ابن كثير على أنّ الرّوم قصدوا عبد الله بن سعد ﷺ في أصحابه من المسلمين ببلاد المغرب[8]، ويحدّد ابن خَلدون خروج الرّوم بأسطولهم في تلك المعركة إلى الإسكندريّة[9]، ويجزم ابن تغري بردي (ت: ٨٧٤هـ/١٤٧٠م) بتحديد موقع المعركة بالبحر من ناحية الإسكندريّة[10].

(١) السّيّد عبد العزيز سالم: تاريخ البحريّة الإسلاميّة، ج١، ص٢٨، ٢٩.

(٢) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص٢٠٦؛ المقريزي: الخطط، ج١، ص٣١٣.

(٣) يحدّده ابن عبد الحكم بألف مركب، بينما يقيده الطّبريّ بخمسمائة أو ستّمائة. فتوح مصر وأخبارها، ص٢٠٦؛ تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٦٢٠.

(٤) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص٢٠٨.

(٥) فتوح مصر وأخبارها، ص٢٠٦.

(٦) تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٦١٩.

(٧) الكامل في التّاريخ، ج٢، ص٤٨٨.

(٨) البداية والنّهاية، ج٧، ص١٧٧.

(٩) العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج٢، ص٥٧٥.

(١٠) النّجوم الزّاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ج١، ص٨٠.

ويرى بعض الباحثين الحديثين أنّ ذات الصّواري وقعت أمام سواحل آسيا الصّغرى بالقرب من شاطئ ليكيا (Lycian Coast)[١]، ومردّ هذا القول إلى أنّ المراجع الأجنبيّة تعرّف ذات الصّواري بموقعة "فونيكة"، وهذا يؤيّد ما نصّت عليه المصادر العربيّة؛ لأنّ المكان الّذي يقصده المتمسّكون بوقوعها في آسيا الصّغرى يقال له "فونيكس" (Phoenix) ويتناسى هؤلاء ثغر "فونيكة" الّذي يقع غرب مدينة الإسكندريّة، بالقرب من مدينة مَرْسى مطروح المصريّة[٢]، ولو كانت المعركة بآسيا الصّغرى لكانت قيادتها لمعاوية بن أبي سفيان ﷺ قطعًا، لكنّنا لم نسمع من مختلف المصادر إلّا أقوال الأمير ابن أبي السّرح، ومشاوراته لجنده، وأوامره لهم، وصفّه لهم، وغير ذلك من المهام الّتي يقوم بها القائد السّياسيّ والعسكريّ.

وقد اندهش عبدُ الله بن سعد ﷺ عندما علم بكثرة عدد الرّوم وهاله الأمر، ونادى في جموع جنده يطلب منهم المشورة مرّتين، ولكن لم يردّ عليه أحدٌ لهول الموقف، ثمّ عزم عليهم في الثّالثة بإبداء رأيهم؛ "لأنّه لم يبق شيء"، فقام أحد المتطوّعة وذكّره بقول الله تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾[٣]، فأمر عبد الله بن سعد ﷺ جنده بركوب السّفن[٤]، الّتي بلغت نحو مائتي مركب[٥]، ولكنّه لم يستطع شحنها بكامل القوّات المصريّة؛ نظرًا لخروج نصفها مع بُسْر بن أبي أرطأة العامريّ في غزوة برّيّة[٦]، ولذا ركب "في كلّ مركب نصف شحنته"[٧].

---

(١) السّيّد الباز العريني: الدّولة البيزنطيّة، دار النّهضة العربيّة، القاهرة، ١٩٦١م، ص٤٢؛ إبراهيم أحمد العدوي: الإمبراطورية البيزنطيّة والدّولة الإسلاميّة، مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة، ص٥٣؛ عليّة عبد السّميع الجنزوري: هجمات الرّوم البحريّة على شواطئ مصر الإسلاميّة في العصور الوسطى، مكتبة الأنجلو المصريّة، الطّبعة الأولى، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م، ص٤٠.

(٢) شوقي أبو خليل: ذات الصّواري، دار الفكر، بيروت، الطّبعة الرّابعة، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، ص٦٤.

(٣) سورة البقرة: من الآية ٢٤٩.

(٤) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص٢٠٦.

(٥) ابن يونس: تاريخ ابن يونس، ص١٣.

(٦) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص٢٠٦، ٢٠٧.

(٧) فتوح مصر وأخبارها، ص٢٠٦.



ولمّا اقترب الأسطول الإسلاميّ من الرّوم نظر الجند إلى مراكب لم يروا مثلها قطّ، وكانت الرّيح لصالح مراكب الرّوم، فأرسى عبد الله بن سعد ﷺ بجنده ساعة، وأرسى الرّوم قريبًا منهم حتّى سكتت الرّيح، فأرسل ابن سعد للرّوم: "إن أحببتم ننزل إلى السّاحل فنقتتل حتّى يكتب لأحدنا النّصر، وإن شئتم فالبحر"، "فنخروا نخرة واحدة، وقالوا: بل الماء الماء"[1].

وهذا الموقف يظهر لنا ثقة الرّوم بخبرتهم البحريّة، وأملهم في النّصر، لممارستهم أحواله وفنونه، فقد مرنوا عليه طويلاً، وأحكموا الدّراية بثقافته وأنوائه، فطمعوا بالنّصر فيه، خصوصًا أنّهم يعلمون حِدْثَانَ عهد المسلمين به[2].

وكان الفريقان قد استأمن بعضهم بعضًا قبل المعركة[3]، لكنّ موقف المسلمين كان حرجًا، فطلب عبد الله بن سعد ﷺ المشورة من جنده، فأشاروا عليه أن ينتظر تلك اللّيلة حتّى يرتّبوا أمورهم ويختبروا عدوّهم، فباتوا يصلّون ويدعون الله ﷻ، وبات الرّوم يضربون بالنّواقيس، ولمّا أصبحوا أجمع ملك الرّوم على القتال وقرّب سفنه، وكان أمر المسلمين قد اجتمع على تنفيذ خطّتهم البرّيّة في عرض البحر، فربطوا سفنهم بعضها إلى بعض، وقام عبد الله بن سعد ﷺ فصفّ جنده في نواحي السّفن، وطاف عليهم يأمرهم بقراءة القرآن، ولزوم الصّبر[4].

ولمّا كان الرّوم مغترّين بقوّتهم وأسطولهم، فقد وثبوا على سفن المسلمين، وانقضّوا على صفوفهم الأماميّة فنقضوها، ودار قتال شديدٌ بين الطّرفين على غير صفوف[5]، واقتتلوا يومئذ بالنّبل والنّشّاب والحجارة[6]، والسّيوف والخناجر، وصبر الرّوم صبرًا لم يصبروا في موطن قطّ مثله حتّى قتل منهم ما لا يحصى، وقتل من المسلمين بشرٌ كثير، وسالت دماء

(١) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٦١٩. من طريق الواقدي.

(٢) شوقي أبو خليل: ذات الصّواري، ص٦٦.

(٣) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٦١٩. من طريق الواقدي.

(٤) تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٦٢٠. من طريق الواقدي.

(٥) تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٦٢٠، من طريق الواقدي.

(٦) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص٢٠٧.

الفريقين غزيرة حتّى غلبت على الماء، فاحمرّ لون البحر، "ورجعت الدّماء إلى السّاحل تضربها الأمواج، وطرحت الأمواج جثث الرّجال ركامًا"[1].

وكاد الأمير عبد الله بن سعد ﷺ أن يقع أسيرًا؛ فقد قام الرّوم بربط مركبه بأحد مراكبهم عند احتدام المعركة، وكادوا أن يجرّوه، لكنّ البطل علقمة بن يزيد الغُطَيْفيّ[2] الّذي كان مع ابن سعد أبصر الموقف، فأسرع إلى السّلسلة، وانقضّ عليها بسيفه فقطعها، وأنقذ القائد والسّفينة[3]، وحمِيَ المسلمون عندئذٍ، فقصدوا ملك الرّوم حتّى أثخنوه بالجراح، فولّى منهزمًا وهو حسير، ولم ينج من جنده إلّا الشّريد، وأتمّ الله النّصر للمسلمين[4]، وواصل الإمبراطور البيزنطيّ فراره حتّى نزل جزيرة صقلّيّة[5].

وقد أكثر أهل صقلّيّة من لوم ملكهم المهزوم وتأنيبه على تسبّبه في إهلاك رجال الرّوم وتدميره أسطولهم، ويزعم الرّواة العرب أنّ أهل صقلّيّة قتلوه في الحمّام[6]، إلّا أنّ القول بقتله آنئذ خطأ لا شكّ فيه؛ فقد استمرّ في حكم بلاده حتّى سنة ٦٦٨م/٤٨هـ[7]،

---

(١) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٦١٩، من طريق الواقدي.

(٢) علقمة: هو علقمة بن يزيد بن عمرو الغطيفيّ المراديّ، وفد على النّبيّ ﷺ، ورجع إلى اليمن، ثمّ قدم المدينة، وشهد فتح مصر هو وأخوه عمرو، واستعمله عتبة بن أبي سفيان على الإسكندريّة في خلافة معاوية، وجعل معه اثني عشر ألفًا، فشكا علقمة قلّة عدد الجند عن الدّفاع عن المدينة المعرّضة لهجمات الرّوم، فزوده معاوية بعدّة آلاف من أهل المدينة والشّاميّين. ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص٢٠٩؛ ابن يونس: تاريخ ابن يونس، ص٣٥٤.

(٣) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص٢٠٧.

(٤) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٦١٩، من طريق الواقدي. وينظر ابن الأثير: الكامل في التّاريخ، ج٢، ص٤٨٩.

(٥) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص٢٠٨.

(٦) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص٢٠٨؛ الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٧٠٤؛ ابن حبّان: الثّقات، ج٢، ص٢٧٨؛ المسعودي: التّنبيه والإشراف، ص١٣٥؛ البكري: المسالك والممالك، ج١، ص٤٨٤.

(٧) أسد رستم: الرّوم في سياستهم، وحضارتهم، ودينهم، وثقافتهم، وصلتهم بالعرب، ج١، ص٢٥٥؛ عليّة عبد السّميع الجنزوري: هجمات الرّوم البحريّة على شواطئ مصر الإسلاميّة في العصور الوسطى، ص٤٣.

لكنّه اتّخذ من صقلّيّة مقرًّا لحكمه، وقاعدة لمقاومة المسلمين[1]، ثمّ كان مقتله في الحمّام على يد أحد حجّابه في سبتمبر سنة ٦٦٨م[2].

وأقام الأمير عبد الله بن سعد ﷺ عدّة أيّام في موقع المعركة، ثمّ عاد بجنده إلى مصر، فسمّي مكان المعركة ذا الصّواري[3]، كما أطلق الاسم نفسه على تلك الغزوة، لكثرة صواري المراكب واجتماعها[4].

وكان لموقعة ذات الصّواري أثرٌ كبيرٌ على الطّرفين، فقد حقّقت نصرًا بحريًّا كبيرًا للمسلمين، كما وضعت نهاية لسيادة البيزنطيّين البحريّة[5]، وامتلئوا رعبًا من المسلمين، حتّى قال أهل صقلّيّة لملكهم: "شمّتّ النّصرانيّة، وأفنيت رجالها، لو دخل العرب علينا لم نجد من يردّهم"[6]، واعتبر المؤرّخ البيزنطيّ "ثيوفان" (ت: ٨١٨م/٢٠٣ه) أنّ معركة ذات الصّواري بمثابة "يرموك" ثانية على الرّوم[7].

ولا شكّ أنّ موقعة ذات الصّواري كانت حدًّا فاصلاً في سياسة الرّوم إزاء المسلمين، فأدركوا فشل خططهم في استرداد هيبتهم، وفوات الأوان في استرجاع مصر أو البلاد الشّاميّة[8].

ولقد أظهرت هذه المعركة جانبًا من تفوّق العقيدة الصّحيحة الصّلبة على الخبرة العسكريّة والتّفوّق في العَدد والعُدَد، كما أظهرت شجاعة القائد عبد الله بن سعد ﷺ،

---

(١) وديع فتحي عبد الله: العلاقات السّياسيّة بين بيزنطة والشّرق الأدنى الإسلامي، مؤسّسة شباب الجامعة، الإسكندريّة، ١٩٩٠م، ص٧١.

(٢) أسد رستم: الرّوم في سياستهم، وحضارتهم، ودينهم، وثقافتهم، وصلتهم بالعرب، ج١، ص٢٥٧.

(٣) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص٢٠٦؛ ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، ج٢، ص٥٧٥.

(٤) الكندي: الولاة والقضاة، ص١٣.

(٥) وديع فتحي عبد الله: العلاقات السّياسيّة بين بيزنطة والشّرق الأدنى الإسلامي، ص٧١.

(٦) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص٢٠٨.

(٧) وديع فتحي عبد الله: العلاقات السياسية بين بيزنطة والشرق الأدنى الإسلامي، ص٧١، نقلاً عن حوليّة ثيوفان. (**Theophanes, Chronographia, Col.788.**)

(٨) إبراهيم أحمد العدوي: الإمبراطوريّة البيزنطيّة والدّولة الإسلاميّة، ص٥٤.

ورباطة جأشه، ومقدرته الجيّدة على إدارة الحروب[1]، وقوّة إيمانه، وإخلاصه في نصرة أمير المؤمنين عثمان بن عفّان ﵁، وذلك على عكس ما يرميه به الإمام الحاكم النّيسابوريّ (ت: ٤٠٥هـ/١٠١٤م) رحمه الله[2].

📖 دلالة الفتوح على نبوّة سيّدنا محمّد ﷺ وصحّة خلافة الرّاشدين ﵃:

وإلى هنا يقف حديثُنا عن فتوح الإسلام في عصر الخلفاء الرّاشدين، وفي هذا دلالة واضحة على نبوّة سيّدنا محمّد ﷺ؛ لأنّه قال للكافرين: ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾[3]، فورثها أصحاب محمّد ﷺ كما قال، وكما أخبر[4].

وفي هذا أيضًا دلالة على صحّة الخلفاء الرّاشدين وأتباعهم وشيعهم؛ فإنّ الله قد شهد لهم بالصّلاح، وأورثهم الأرض كما وعدهم[5].

وهذا أبلغ ردّ على الإماميّة وطبقات الرّافضة الّذين يكفّرون أبا بكر وعمر وعثمان والبدريّين والمهاجرين والأنصار والّذين اتّبعوهم وأعانوهم على وراثة الأرض حتّى أبادوا الأمم وغلبوا ملوك الفرس والرّوم والتّرك وغيرهم من أمم الشّرك، ويزعمون أنّهم كانوا طلّاب دنيا لا طلّاب دين، وأنّهم غيّروا القرآن، وعطّلوا النّصوص، وبدّلوا الشّريعة، وشهادةُ الله لهم بخلاف قول هؤلاء فيهم، وقد تحقّق بهم موعود الله -تعالى- في قوله: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾، فلو كانوا مبطلين لما كان الظّاهر هو دين رسول الله ﷺ على

---

(١) عبد العزيز عبد الله الحميدي: التّاريخ الإسلامي مواقف وعبر، ج١٢، ص٤٠٧.

(٢) محمّد عبد العال محمّد حسن: المرويّات التّاريخيّة في المستدرك لأبي عبد الله الحاكم (الأنبياء والسّيرة النّبويّة)، رسالة ماجستير، كلّيّة اللّغة العربيّة بأسيوط، جامعة الأزهر، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، ج٢، ص٦١٧، ٦١٨.

(٣) سورة الأنبياء: الآيات ١٠٤- ١٠٧.

(٤) القاضي عبد الجبّار: تثبيت دلائل النّبوّة، ج٢، ص٣٥٢.

(٥) تثبيت دلائل النّبوّة، ج٢، ص٣٥٣.



الدّين كلّه؛ لأنّ الإماميّة يزعمون أنّ صاحب الحجّة والحقّ كان مغلوبًا مقهورًا، قد أسكته الخوف عن النّطق بالحقّ والدّعاء إلى دين النّبيّ ﷺ[1].

ولا يدري هؤلاء الرّوافض أنّهم يسيئون لسيّدنا عليّ بن أبي طالب ﷺ بافتراءاتهم ويخرجونه من أهل الإيمان؛ لأنّ الله -تعالى- قال: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا ۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾[2]، فخصّ التّمكين بالصّحابة الّذين كانوا مع رسول الله ﷺ، وفي هذا دلالة على صحّة الخلفاء من بعده، ولو كان الأمر على ما يقول الإماميّة لكانت هذه الأخبار قد كُذّبت وهذه المواعيد قد أخلفت، لأنّهم زعموا أنّ المستخلف كان عليّ بن أبي طالب ﷺ، وأنّه ما كان متمكّنًا ولا آمنًا، بل كان مقهورًا مغلوبًا خائفًا، فأين تصديق ما وعد الله، فنعوذ بالله من الذّهاب عن الحقّ[3].

(١) القاضي عبد الجبّار: تثبيت دلائل النّبوّة، ج٢، ص٣٥٤.

(٢) سورة النّور: الآية ٥٥.

(٣) القاضي عبد الجبّار: تثبيت دلائل النّبوّة، ج٢، ص٤٤٦، ٤٤٧.

الفصل الخامس

أحداث الفتنة

تطلق المصادر الإسلاميّة مصطلح "الفتنة" على تلك الأحداث الأليمة الّتي قام بها المتمرّدون والخوارج على أمير المؤمنين عثمان ﷺ حتّى قتلوه، فكان ذلك بداية فتن سود تتابعت على الأمّة الإسلاميّة كقطع اللّيل المظلم، تمزّق فيها شمل المسلمين، ووقع بأسُهم بينهم، ووقفت عمليّات الفتح والجهاد حتّى اجتمع المسلمون على معاوية بن أبي سفيان ﷺ سنة ٤١هـ/٦٦١م، وكان عثمان ﷺ قد مكث ستّ سنين في الخلافة لا يَعِيبُ النّاس عليه شيئًا، بل كانت طائفةٌ يفضّلونه على الفاروق عمر ﷺ ويقولون: "الْعَدْلُ مِثْلُ عُمَرَ، وَاللَّيِّنُ أَلْيَنُ مِنْ عُمَرَ"[١]، ثمّ بدأت الاعتراضات على سياسته بعد ستّ سنين من خلافته.

أوّلًا: بوادر الفتنة والتّمرّد في أقاليم الدّولة:

قبل أن نخوض في أحداث هذه الفتنة المشئومة لا بدّ أن نعرّج على أحوال الأقاليم الثّلاثة الّتي خرج منها المتمرّدون على عثمان ﷺ.

🕮 حال الكوفة:

لقد بدأت نذر التّمرّد الكوفيّ منذ عهد الخليفة القويّ عمر بن الخطّاب ﷺ، حيث كثرت في حياته اعتراضات شرار أهل الكوفة على الولاة الأخيار[٢]، فشغبوا على سعد بن أبي وقّاص ﷺ؛ واتّهموه بأنّه لا يحسن الصّلاة، وأنّه "لَا يَسِيرُ بِالسَّرِيَّةِ، وَلَا يَقْسِمُ بِالسَّوِيَّةِ، وَلَا يَعْدِلُ فِي الْقَضِيَّةِ"[٣]، ولم يمنعهم من ذلك انشغال المسلمين بالفرس الّذين تجمّعوا في نهاوند واستعدّوا لقتال المسلمين سنة ٢١هـ/٦٤١م[٤]، ولم يرض الكوفيّون عن الولاة بعد

---

(١) أخرجه الحارث بن أبي أسامة في مسنده. الهيثمي: بغية الباحث عن زوائد مسند الحارث، ج٢، ص٦٢٤، ح٥٩٥. ورجال الأثر ثقات، وإسناده متّصل بمجموع طرقه. كما خرّجه محقّق المطالب العالية لابن حجر. ج١٧، ص٦٢٧، ٦٢٨، ح٤٣٦٢.

(٢) حمدي شاهين: الدّولة الإسلاميّة في عصر الخلفاء الرّاشدين، ص٢٦٢.

(٣) البخاري: الصّحيح، (كتاب فضائل الصّحابة، باب مناقب عمر بن الخطّاب ﷺ)، ج١، ص٢٦٢، ح٧٢٢.

(٤) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٥٢٢.

سعد ﷺ، فشكوا عمّار بن ياسر رضي الله عنهما، وقالوا: "لا علم له بالسّياسة"، فعزله لهم[1]، وطالبوا بأبي موسى الأشعريّ ﷺ فاستعمله عليهم، فما صبروا عليه حولاً حتّى أزاحوه، فاغتمّ بهم عمر ﷺ، وضاق بأمرهم فقال: "وَأَيُّ نَائِبٍ أَعْظَمُ مِنْ مِائَةِ أَلْفٍ لَا يَرْضَوْنَ عَنْ أَمِيرٍ، وَلَا يَرْضَى عَنْهُمْ أَمِيرٌ"![2]، "وَلَا يُصْلِحُونَ وَلَا يَصْلُحُ عَلَيْهِمْ"[3]، ونادى يومًا في النّاس: "مَنْ عَذِيرِي مِنْ أَهْلِ الْكُوفَةِ، إِنِ اسْتَعْمَلْتُ عَلَيْهِمُ الضَّعِيفَ حَقَّرُوهُ، وَإِنِ اسْتَعْمَلْتُ عَلَيْهِمُ الْقَوِيَّ فَجَّرُوهُ"![4]، وبالرّغم من ذلك كان عمر ﷺ يقول: "هَانَ شَيْءٌ أُصْلِحُ بِهِ قَوْمًا، أَنْ أُبَدِّلَهُمْ أَمِيرًا مَكَانَ أَمِيرٍ"[5].

ولمّا بلغ الفاروقَ ﷺ أنّهم حَصَبُوا أميرهم خرج غضبانًا، وصلّى بالنّاس فَسَهَا، فلمّا انتهى من صلاته قال لنفرٍ من أهل الشّام صلّوا معه: "اسْتَعِدُّوا لِأَهْلِ الْعِرَاقِ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ بَاضَ فِيهِمْ وَفَرَّخَ، اللَّهمّ إِنَّهُمْ قَدْ لَبَّسُوا عَلَيَّ فَلَبِّسْ عَلَيْهِمْ، وَعَجِّلْ عَلَيْهِمْ بِالْغُلَامِ الثَّقَفِيِّ يَحْكُمُ فِيهِمْ بِحُكْمِ الْجَاهِلِيَّةِ، لَا يَقْبَلُ مِنْ مُحْسِنِهِمْ، وَلَا يَتَجَاوَزُ عَنْ مُسِيئِهِمْ"[6].

وقد ساء وضع الكوفة سنة ٢٥هـ/٦٤٥م؛ وذلك عندما عزل عثمان ﷺ سعد بن أبي وقّاص ﷺ وولّى عليها الوليد بن عقبة بن أبي معيط الأمويّ، وهو أخو الخليفة لأمّه، فنقم النّاس هذا الصّنيع على عثمان ﷺ[7]، واستعظموه[8]؛ لأنّ الوليد لم يكن من كبار الصّحابة، ولا يكاد يدانيهم في المنزلة والفضل؛ بل كان الوليد مستهترًا، فقد ثبت أنّ امرأة الوليد بن عقبة جاءت إلى رسول الله ﷺ تشكو أنّه يضربها، فقال لها: "ارْجِعِي فَقُولِي لَهُ إِنَّ

(١) البلاذري: فتوح البلدان، ص٣٠٠.

(٢) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٥٤٥؛ ابن كثير، البداية والنّهاية، ج٧، ص١٣٦.

(٣) الفسوي: المعرفة والتّاريخ، ج٢، ص٧٥٤.

(٤) البلاذري: أنساب الأشراف، ج١٠، ص٣٢٥؛ فتوح البلدان، ص٣٠٠.

(٥) ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٣، ص٢٨٤. والأثر عن الحسن البصريّ الّذي لم يدرك عمر، وهو ضعيف لانقطاعه.

(٦) الفسوي: المعرفة والتّاريخ، ج٢، ص٧٥٤، ٧٥٥. والأثر حسن الإسناد. الألباني: سلسلة الأحاديث الضّعيفة وأثرها السّيّئ على الأمّة، دار المعارف، الرّياض، الطّبعة الأولى، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م،ج١٢، ص٢٩.

(٧) الذّهبي: تاريخ الإسلام، ج٣، ص٣١١؛ سير أعلام النّبلاء، (الخلفاء الرّاشدون)، ص١٦٩.

(٨) ابن حجر: الإصابة في تمييز الصّحابة، ج٦، ص٤٨٢.

رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ أَجَارَنِي"، فانطلقتْ فمكثتْ ساعةً، ثمّ جاءت فقالت: يا رسول الله، لا أقلع عنّي، فقطع رسول الله هُدْبَةً من ثوبه فأعطاها، فقال: "قُولِي إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ أَجَارَنِي، هَذِهِ هُدْبَةٌ مِنْ ثَوْبِهِ"، فمكثت ساعةً، ثمّ إنّها رجعت فقالت: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا زَادَنِي إِلَّا ضَرْبًا، فَرَفَعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدَهُ فَقَالَ: "اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِالْوَلِيدِ"، مرّتين أو ثلاثًا[١].

وثبت أنّ ساحرًا كان يلعب عند الوليد بن عقبة وهو أمير على الكوفة، فكان يأخذ سيفه فيذبح نفسه، ويظهر للنّاس أنّه لا يضرّه، فقام جُنْدُبٌ[٢]، فأخذ السّيف فضرب عنقه، ثمّ قرأ: ﴿أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ﴾[٣].

وحدّث الحسن البصريّ: "أَنَّ أَمِيرًا مِنْ أُمَرَاءِ الْكُوفَةِ دَعَا سَاحِرًا يَلْعَبُ بَيْنَ يَدَيِ النَّاسِ، فَبَلَغَ جُنْدُبًا، فَأَقْبَلَ بِسَيْفِهِ، وَاشْتَمَلَ عَلَيْهِ، فَلَمَّا رَآهُ ضَرَبَهُ بِسَيْفِهِ، فَتَفَرَّقَ النَّاسُ عَنْهُ، فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ، لَنْ تُرَاعُوا إِنَّمَا أَرَدْتُ السَّاحِرَ، فَأَخَذَهُ الأَمِيرُ فَحَبَسَهُ فَبَلَغَ ذَلِكَ سَلْمَانَ، فَقَالَ: "بِئْسَ مَا صَنَعَا، لَمْ يَكُنْ يَنْبَغِي لِهَذَا - وَهُوَ إِمَامٌ يُؤْتَمُّ بِهِ - يَدْعُو سَاحِرًا يَلْعَبُ بَيْنَ يَدَيْهِ، وَلَا يَنْبَغِي لِهَذَا أَنْ يُعَاتِبَ أَمِيرَهُ بِالسَّيْفِ"[٤].

ولئن كان الوليد بن عقبة سخيًّا شجاعًا قائمًا بالجهاد، فقد كان يشرب الخمر[٥]؛ فقد حدّث التّابعيّ حُضين بن المنذر الذُّهْلِيّ فقال: "شَهِدْتُ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ وَأُتِيَ بِالْوَلِيدِ قَدْ

(١) رواه عبد الله بن أحمد بن حنبل في زوائده على أبيه. المسند، ج٢، ص٤٣١، ح١٣٠٤؛ والبزّار: المسند، ج٣، ص٢٠، ٢١، ح٧٦٨؛ وأبو يعلى: المسند، ج١، ص٢٥٣، ح٢٩٤. وحسّنه الدّكتور حسين سليم أسد. وقال الهيثميّ: "رواه عبد الله بن أحمد، والبزّار، وأبو يعلى، ورجاله ثقات". مجمع الزّوائد، ج٤، ص٣٣٢، ح٧٧٤٥. وقال البوصيريّ: "هذا حديث صحيح". إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة، ج٤، ص٩٢، ٩٣؛ ج٦، ص٤٧٦، ح٦٢٣٢.

(٢) جُنْدُب: هو جندب الخير بن عبد الله الأزديّ، له صحبة ورواية. الذّهبي: تاريخ الإسلام، ج٥، ص٨٦.

(٣) الطّبراني: المعجم الكبير، ج٢، ص١٧٧، ح١٧٢٥؛ الدّار قطني: السّنن، ج٤، ص١٢١، ح٣٢٠٥. وقال الذّهبي: "إسناده صحيح". تاريخ الإسلام، ج٥، ص٨٧. وقال الألباني: "هذا إسناد صحيح موقوف، صرّح فيه هشيم بالتّحديث". سلسلة الأحاديث الضّعيفة، ج٣، ص٦٤٢.

(٤) الحاكم: المستدرك، ج٤، ص٤٠١، ح٨٠٧٥. وقال الألباني: "وهذا إسناد موقوف صحيح إلى الحسن، وقد توبع". سلسلة الأحاديث الضّعيفة، ج٣، ص٦٤٢.

(٥) الذّهبي: سير أعلام النّبلاء، ج٣، ص٤١٢؛ ابن حجر: الإصابة، ج٦، ص٤٨٢.

صَلَّى الصُّبْحَ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ قَالَ: أَزِيدُكُمْ، فَشَهِدَ عَلَيْهِ رَجُلَانِ، أَحَدُهُمَا: حُمْرَانُ أَنَّهُ شَرِبَ الْخَمْرَ، وَشَهِدَ آخَرُ أَنَّهُ رَآهُ يَتَقَيَّأُ، فَقَالَ عُثْمَانُ: إِنَّهُ لَمْ يَتَقَيَّأْ حَتَّى شَرِبَهَا، فَقَالَ: يَا عَلِيُّ، قُمْ فَاجْلِدْهُ، فَقَالَ عَلِيٌّ: قُمْ يَا حَسَنُ فَاجْلِدْهُ، فَقَالَ الْحَسَنُ: وَلِّ حَارَّهَا مَنْ تَوَلَّى قَارَّهَا، فَكَأَنَّهُ وَجَدَ عَلَيْهِ، فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللهِ بْنَ جَعْفَرٍ قُمْ فَاجْلِدْهُ، فَجَلَدَهُ، وَعَلِيٌّ يَعُدُّ حَتَّى بَلَغَ أَرْبَعِينَ، فَقَالَ: أَمْسِكْ، ثُمَّ قَالَ: جَلَدَ النَّبِيُّ ﷺ أَرْبَعِينَ، وَجَلَدَ أَبُو بَكْرٍ أَرْبَعِينَ، وَعُمَرُ ثَمَانِينَ، وَكُلٌّ سُنَّةٌ، وَهَذَا أَحَبُّ إِلَيَّ"(١).

وكان أمير المؤمنين عثمان بن عفّان ﷺ قد حبس الوليد بن عقبة عندما اتّهم بشرب الخمر(٢)، وتريّث في أمره، وأخّر إقامة الحدّ عليه ليكشف عن حال من شهد عليه، فلمّا وضح له الأمرُ أقام عليه الحدّ، وعزله عن الكوفة(٣).

وقد روى الإمام أحمد والبخاريّ أنّ المِسْوَرَ بن مَخْرَمَةَ الزّهريّ وعبدَ الرّحمن بن الأسود بن عبد يغوث الزّهريّ قالا لعبيد الله بن عديّ بن الخِيَارِ النّوفليّ: "مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تُكَلِّمَ خَالَكَ(٤) عُثْمَانَ فِي أَخِيهِ الوَلِيدِ بْنِ عُقْبَةَ، وَكَانَ أَكْثَرَ النَّاسُ فِيمَا فَعَلَ بِهِ(٥)، قَالَ

---

(١) أحمد بن حنبل: فضائل الصّحابة، ج٢، ص٨٢٩- ٨٣١، ح١١٣٨؛ مسلم: الصّحيح، (كتاب الحدود، باب حدّ الخمر)، ج٣، ص١٣٣١، ح١٧٠٧؛ أبو داود: السّنن، (كتاب الحدود، باب الحدّ في الخمر)، ج٦، ص٥٢٨، ح٤٤٨٠.

(٢) رواه المدائني من طريق الشّعبيّ. ابن حجر: فتح الباري، ج٧، ص٥٦.

(٣) ابن حجر: فتح الباري، ج٧، ص٥٦.

(٤) كانت أمّ عبيد الله بنت عمّ عثمان، فهي أمّ قِتَال بنت أُسَيْدِ بن أبي العاص بن أميّة، وأقارب الأمّ يطلق عليهم أخوالٌ. ابن حجر: فتح الباري، ج٧، ص٥٥.

(٥) كان النّاس قد أكثروا القول في الوليد، وأكثروا القول في ترك إقامة الحدّ عليه، وأنكروا عزل سعد به، مع كون سعد من العشرة المبشّرين، ومن أهل الشّورى، واجتمع له من الفضل والسّنن والعلم والدّين والسّبق إلى الإسلام ما لم يتّفق شيءٌ منه للوليد، والعذر لعثمان في ذلك أنّ عمر كان قد عزل سعدًا، وأوصى من يلي الخلافة بعده أن يولّيه، وكان سبب عزل عثمان لسعد أنّه كان أميرًا على الكوفة وكان ابن مسعود على بيت المال، فاقترض سعدٌ منه مالاً، فلمّا جاءه يتقاضاه اختصما، وبلغ عثمانَ فغضب عليهما، وعزل سعدًا، واستحضر الوليد من ولايته على الجزيرة الفراتيّة فولّاه الكوفة، لما ظهر من كفايته، وليصل رحمه. ابن حجر: فتح الباري، ج٧، ص٥٥، ٥٦.

عُبَيْدُ اللَّهِ: فَانْتَصَبْتُ لِعُثْمَانَ حِينَ خَرَجَ إِلَى الصَّلَاةِ، فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً، وَهِيَ نَصِيحَةٌ، فَقَالَ: أَيُّهَا الْمَرْءُ، أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْكَ[1]، فَانْصَرَفْتُ، فَلَمَّا قَضَيْتُ الصَّلَاةَ جَلَسْتُ إِلَى المِسْوَرِ وَإِلَى ابْنِ عَبْدِ يَغُوثَ، فَحَدَّثْتُهُمَا بِالَّذِي قُلْتُ لِعُثْمَانَ، وَقَالَ لِي، فَقَالَا: قَدْ قَضَيْتَ الَّذِي كَانَ عَلَيْكَ، فَبَيْنَمَا أَنَا جَالِسٌ مَعَهُمَا، إِذْ جَاءَنِي رَسُولُ عُثْمَانَ، فَقَالَا لِي: قَدِ ابْتَلَاكَ اللَّهُ، فَانْطَلَقْتُ حَتَّى دَخَلْتُ عَلَيْهِ، فَقَالَ: مَا نَصِيحَتُكَ الَّتِي ذَكَرْتَ آنِفًا؟ قَالَ: فَتَشَهَّدْتُ، ثُمَّ قُلْتُ: "إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ، وَكُنْتَ مِمَّنِ اسْتَجَابَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ وَآمَنْتَ بِهِ، وَهَاجَرْتَ الهِجْرَتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ، وَصَحِبْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَرَأَيْتَ هَدْيَهُ، وَقَدْ أَكْثَرَ النَّاسُ فِي شَأْنِ الوَلِيدِ بْنِ عُقْبَةَ، فَحَقٌّ عَلَيْكَ أَنْ تُقِيمَ عَلَيْهِ الحَدَّ، فَقَالَ لِي: يَا ابْنَ أَخِي، آدْرَكْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ؟ قُلْتُ: لَا، وَلَكِنْ قَدْ خَلَصَ إِلَيَّ مِنْ عِلْمِهِ مَا خَلَصَ إِلَى الْعَذْرَاءِ فِي سِتْرِهَا، فَتَشَهَّدَ عُثْمَانُ، فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ بِالحَقِّ، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ، وَكُنْتُ مِمَّنِ اسْتَجَابَ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ ﷺ، وَآمَنْتُ بِمَا بُعِثَ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ، وَهَاجَرْتُ الْهِجْرَتَيْنِ الأُولَيَيْنِ، كَمَا قُلْتَ، وَصَحِبْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَبَايَعْتُهُ، وَاللَّهِ مَا عَصَيْتُهُ وَلَا غَشَشْتُهُ حَتَّى تَوَفَّاهُ اللَّهُ، ثُمَّ اسْتَخْلَفَ اللَّهُ أَبَا بَكْرٍ، فَوَاللَّهِ مَا عَصَيْتُهُ وَلَا غَشَشْتُهُ، ثُمَّ اسْتُخْلِفَ عُمَرُ، فَوَاللَّهِ مَا عَصَيْتُهُ وَلَا غَشَشْتُهُ، ثُمَّ اسْتُخْلِفْتُ، أَفَلَيْسَ لِي عَلَيْكُمْ مِثْلُ الَّذِي كَانَ لَهُمْ عَلَيَّ؟ قَالَ: بَلَى، قَالَ: فَمَا هَذِهِ الْأَحَادِيثُ الَّتِي تَبْلُغُنِي عَنْكُمْ؟[2] فَأَمَّا مَا ذَكَرْتَ مِنْ شَأْنِ الوَلِيدِ بْنِ عُقْبَةَ، فَسَنَأْخُذُ فِيهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِالحَقِّ، قَالَ: فَجَلَدَ الْوَلِيدَ أَرْبَعِينَ جَلْدَةً، وَأَمَرَ عَلِيًّا أَنْ يَجْلِدَهُ"[3].

وقد أخذ كبار أهل العلم برواية الصّحيحين وغيرهما في ثبوت شرب والي الكوفة الوليد بن عقبة بن أبي مُعيط الأمويّ للخمر وحدّه عليها بأمر الخليفة عثمان ﷺ[4]، لكنّ

(١) استعاذ عثمان ﷺ منه خشية أن يكلّمه بشيء يقتضي الإنكار عليه وهو في ذلك معذور فيضيق بذلك صدره. ابن حجر: فتح الباري، ج٧، ص٥٦.

(٢) يقصد عثمان ﷺ كلامهم في سبب تأخيره إقامة الحدّ على الوليد. ابن حجر: فتح الباري، ج٧، ص٥٧.

(٣) أحمد بن حنبل: فضائل الصّحابة، ج٢، ص٥٩٧، ح٧٩١؛ البخاري: الصّحيح، (كتاب فضائل الصّحابة، باب مناقب عثمان بن عفّان)، ج٣، ص١٣٥١، ح٣٤٩٣؛ (باب هجرة الحبشة)، ج٣، ص١٤٠٥، ح٣٦٥٩.

(٤) ابن عبد البرّ: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ج٤، ص١٥٥٤؛ ابن العربي: العواصم من القواصم، ص١٠٥؛ الذّهبي: سير أعلام النّبلاء، ج٣، ص٤١٢؛ ابن كثير: البداية والنّهاية، ج٨، ص٢٣٤؛ ابن حجر: الإصابة في تمييز الصّحابة، ج٦، ص٤٨٢.

كثيرًا من الكتّاب المُحْدثين[1] يقدّمون رواية الإخباريّ المجروح سيف بن عمر التّميميّ على رواية الصّحاح تعاطفًا مع الوليد بن عقبة من ناحية، واحترامًا لاختيار أمير المؤمنين عثمان ﷺ من ناحية أخرى.

وعند سيف أنّ جماعة من أهل الكوفة تعصّبوا على الوليد بغيًا وحسدًا، وشهدوا عليه زورًا أنّه تقيّأ الخمر، فأقام عليه عثمان ﷺ الحدّ، وقال له: "نقيم الحدود ويبوء شاهد الزّور بالنّار؛ فاصبر يا أخي"[2].

وقد استنكر الحافظ ابن عبد البرّ[3] رواية سيف بقوله: "وهذا الخبر من نقل أهل الأخبار لا يصحّ عند أهل الحديث، ولا له عند أهل العلم أصل"[4].

وتؤكّد روايات ثقات المؤرّخين أنّ الأمر لم يكن نكاية في الوليد بن عقبة الأمويّ كما صوّره سيف الكذوب؛ لأنّ أمير المؤمنين عثمان ﷺ عندما بلغته قصّة الوليد استشار عليّ بن أبي طالب ﷺ في أمره، فأشار عليه باستحضار الوليد والشّهود، وأن يقيم عليه الحدّ إن شهدوا عليه بمحضر منه، فشهد عليه أبو زينبَ الأزديّ، وأبو مُوَرِّعٍ، وجُنْدَبُ بنُ زهيرٍ الأزدِيُّ، وسعدُ بنُ مالكٍ الأشعريُّ، فأمر عثمان ﷺ بإقامة الحدّ عليه[5]، وفي رواية لعروة بن الزّبير أنّ الّذين شهدوا على الوليد كانوا خمسة، منهم: الصّعب بن جثامة، وهو صحابيّ معروف[6].

---

(١) على رأس هؤلاء: محبّ الدّين الخطيب؛ فقد اعترض على ابن العربيّ الّذي اعتبر الوليد بن عقبة كالصّحابيّ قدامة بن مظعون البدريّ عندما شرب الخمر وهو أمير على البحرين فأقام عليه الفاروق الحدّ وعزله. وفسّر محبّ الدّين رواية الصّحيح بما يناسب أساطير سيف التّميميّ. حاشية الخطيب على العواصم من القواصم، ص١٠٦- ١٠٨.

(٢) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٦١٢، ٦١٣؛ ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج٦٣، ص٢٤٣- ٢٤٥.

(٣) ابن حجر: الإصابة في تمييز الصّحابة، ج٦، ص٤٨٢.

(٤) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ج٤، ص١٥٥٦.

(٥) ابن شبّة: أخبار المدينة، ج٢، ص١٠٥. وإسناد الأثر حسن إلى أبي الضّحى. ابن حجر: فتح الباري، ج٧، ص٥٧.

(٦) الفسوي: المعرفة والتّاريخ، ج٣، ص٣٠٩؛ ابن حجر: الإصابة، ج٣، ص٣٤٥؛ تهذيب التّهذيب، ج٤، ص٤٢٢.

ولا يضير عثمان ﷺ أن يكون أخوه لأمّه شاربًا للخمر؛ لأنّه أقام عليه الحدّ وعزله عن ولاية الكوفة، سنة ٣٠هـ/٦٥٠م[١]، ولسنا في حاجة للدّفاع عن الوليد وردّ الرّوايات الصّحيحة لأجله؛ "وليست الذّنوب مسقطة للعدالة إذا وقعت منها التّوبة"[٢]؛ فقد ثبت أنّ رجلاً على عهد النّبيّ ﷺ يسمّى عبد الله، ويلقّب حمارًا، كان يُضحك رسول الله ﷺ، وبالرّغم من ذلك فقد كان لا يتورّع عن شرب الخمر، حتّى جلده النّبيّ ﷺ عدّة مرّات، ولمّا لعنه رجل من الصّحابة لكثرة ما يُؤتى به للحدّ قال النّبيّ ﷺ: "لَا تَلْعَنُوهُ، فَوَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ إِنَّهُ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ"[٣].

وكان الخليفة عمر بن الخطّاب ﷺ يعلم أنّ بعض النّاس لن يحتملوا للخليفة القادم تولية أقاربه فحذّر الخليفة الّذي يأتي بعده من تلك السّياسة، وتوقّع ما سيكون من عثمان ﷺ خاصّة فقال له: "وَإِنْ كُنْتَ يَا عُثْمَانُ عَلَى شَيْءٍ مِنْ أَمْرِ النَّاسِ فَلَا تَحْمِلَنَّ بَنِي أَبِي مُعَيْطٍ عَلَى رِقَابِ النَّاسِ"[٤].

وقد استعمل عثمانُ ﷺ سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص الأمويّ[٥]، على الكوفة بعد عزل الوليد سنة ٣٠هـ/٦٥٠م[٦]، فلم يحمد الكوفيّون سيرته، ولم يحبّوه[٧].

---

(١) ذكر ابن حجر أنّ عثمان عزل الوليد بعد ثبوت شرب الخمر عليه وجلده لذلك. الإصابة، جـ٦، ص٤٨٢.

(٢) ابن العربي: العواصم من القواصم، ص١٠٦.

(٣) البخاري: الصّحيح، (كتاب الحدود، باب ما يكره من لعن شارب الخمر وأنّه ليس بخارج عن الملّة)، جـ٦، ص٢٤٨٦، ح٦٣٩٨.

(٤) ابن سعد: الطّبقات الكبرى، جـ٣، ص٣٤٤؛ البيهقي: السّنن الكبرى، جـ٨، ص٢٥٩، ٢٦٠، ح١٦٥٨٠. وصحّح ابن حجر إسناد ابن سعد. فتح الباري، جـ٧، ص٦٨.

(٥) سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أميّة القرشيّ: كان من فصحاء قريش، وهو الّذي كتب القرآن مع زيد بن ثابت، وأقيمت عربيّة القرآن على لسانه؛ لأنّه كان أشبههم لهجة برسول الله ﷺ، وكان من أحلم النّاس وأوقرهم، وهو أحد سادات بني أميّة وعبّاد قريش، وقد اعتزل الفتنة كلّها عقب مقتل عثمان ﷺ إلى أن استقرّ الأمر لمعاوية ﷺ، ومات سنة ٥٨هـ/٦٧٨م. الذهبي: تاريخ الإسلام، جـ٤، ص٢٢٤؛ ابن حجر: الإصابة، جـ٣، ص٩٠.

(٦) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٢، ص٦١٢، ٦١٣.

(٧) ابن كثير: البداية والنّهاية، جـ٨، ص٩٢.

وبينا سعيد بن العاص في إحدى الجلسات العامّة الّتي تجمع أهل الأيّام والقادسيّة والقرّاء وزعماء العشائر سنة ٣٣هـ/٦٥٣م إذ بالحديث يدور بينهم حول سواد العراق، والثّراء، فتمنّى صاحب الشّرطة عبد الرّحمن بن خُنيس الأسديّ أن يكون "الملطاط"[(١)] للوالي سعيد بن العاص، ممّا أثار حفيظة الحضور، وتحوّل النّقاش إلى خلاف حادّ، كاد يفضي إلى صراع بين القبائل؛ حيث قام الأشتر مالك بن الحارث النّخعيّ[(٢)]، وردّ عليه بقوله: "تمنّ للأمير أفضل منه، ولا تمنّ له أموالنا"، وتطوّر الأمر من التّراشق بالكلام إلى اعتداء الأشتر والرّوادف على عبد الرّحمن الأسديّ وأبيه بعد اتّهامهم له بتحريضه[(٣)].

لم يقبل بنو أسد وأشراف الكوفة ما حدث، فقرّروا تأديب الأشتر وأعوانه، وتجمّعوا حول دار الإمارة، فتدخّل الأمير ومنعهم من الفتك بهم، فأرسل الأشراف والصّلحاء إلى الخليفة يطلبون منه إخراج هؤلاء النّفر الّذين خلقوا للفتنة في بلدهم، كما كتب الوالي إلى الخليفة عثمان ﷺ بالتّطوّرات الّتي طرأت على ولايته، وأنّه لا يملك من الكوفة مع الأشتر وأصحابه "الّذين يُدعون القرّاء، وهم السّفهاء شيئًا"، وأكّد له أنّهم "يؤلّبون ويجتمعون على عيبك، وعيبي والطّعن في ديننا، وقد خشيتُ إن ثبت أمرُهم أن يكثروا"، فسيّرهم الخليفةُ إلى بلاد الشّام[(٤)].

رُحّل الكوفيّون النّاقمون إلى الشّام، فما زالوا بها حتّى استغلّ أضرابُهم والمتعاطفون معهم استدعاء الخليفة عثمان ﷺ لسعيد بن العاص وبعض الولاة لتدارس أحوال الأمصار أواخر سنة ٣٤هـ/٦٥٤م، وكتبوا إليهم بتردّي أوضاع الكوفة السّياسيّة، وطالبوهم بسرعة

---

(١) الملطاط: هو ما كان لآل كسرى على جانب الفرات الّذي يلي الكوفة. الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٦٣٤.

(٢) كان الأشتر النّخعيّ قد دخل مع قومه على عمر ﷺ، فتفرّس فيه، وجعل ينظر إليه ويصرف بصره ثمّ قال: "مَا لَهُ، قَاتَلَهُ اللَّهُ، كَفَى اللَّهُ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ شَرَّهُ، وَاللَّهِ إِنِّي لَأَحْسَبُ أَنَّ لِلنَّاسِ مِنْهُ يَوْمًا عَصِيبًا". رواه الخلّال بإسناد حسن متّصل. السُّنّة، ج٣، ص٥١٦، ٥١٧.

(٣) البلاذري: أنساب الأشراف، ج٥، ص٥٢٩، من طريق أبي مخنف. والطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٦٣٤؛ والمالقي: التّمهيد والبيان في مقتل الشّهيد عثمان، ص٦٢. من طريق سيف.

(٤) ابن شبّة: تاريخ المدينة، ج٢، ص٢٠٥؛ البلاذري: أنساب الأشراف، ج٥، ص٥٢٩، كلاهما من طريق أبي مخنف. وروى الأصفهاني هذا الخبر من طريق ابن إسحاق وغيره عن الشّعبي. الأغاني، ج١٢، ص١٦٧.

العودة إليها للمساهمة في تغيير الوضع القائم، فكان لرجوعهم إليها دورٌ كبيرٌ في اضطراب الأوضاع واشتعال الفتنة الّتي أدّت إلى مقتل أمير المؤمنين عثمان ﷺ[1].

ولعلّ نظريّة ابن خلدون (ت: ٨٠٨هـ/١٤٠٦م) الاجتماعيّة الّتي يلخّص خلالها سبب الثّورة على عثمان ﷺ في رغبة القبائل في تعديل ميزان القوى وتغييره لصالحها ينطبق على وضع مدينة الكوفة الاجتماعيّ[2]، فقد "كان أكثر العرب الّذين نزلوا الأمصار جفاة، لم يستكثروا من صحبة النّبيّ ﷺ، ولا ارتاضوا بخُلقه، مع ما كان فيهم من الجاهليّة من الجفاء، والعصبيّة، والتّفاخر، والبعد عن سكينة الإيمان، وإذا بهم عند استفحال الدّولة قد أصبحوا في ملكة المهاجرين والأنصار، من قريش، وكنانة، وثقيف، وهذيل، وأهل الحجاز، ويثرب، السّابقين الأوّلين إلى الإيمان، فاستنكفوا من ذلك، وغصّوا به، لما يرون لأنفسهم من التّقدّم بأنسابهم، وكثرتهم، ومصادمة فارس والرّوم، مثل قبائل بكر بن وائل، وعبد القيس بن ربيعة، وقبائل كِندة والأزد من اليمن، وتميم وقيس من مُضر، فصاروا إلى الغضّ من قريش، والأنفة عليهم، والتّمريض في طاعتهم، والتّعلّل في ذلك بالتّظلّم منهم، والاستعداء عليهم، والطّعن فيهم بالعجز عن السّريّة، والعدل في القسم عن السّويّة، وفشت المقالة بذلك، وانتهت إلى المدينة"[3].

وهذا يدلّ على أنّ نذر التّمرّد الكوفيّ على أمير المؤمنين عثمان ﷺ تعود إلى أسباب سياسيّة واجتماعية[4].

ويؤكّد هذا الاستنتاج ما حدّث به عبد الله بن عمر ﵄ فقال: "جَاءَنِي رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ[5] فِي خِلَافَةِ عُثْمَانَ فَكَلَّمَنِي، فَإِذَا هُوَ يَأْمُرُنِي فِي كَلَامِهِ بِأَنْ أَعْيَبَ عَلَى عُثْمَانَ، فَتَكَلَّمَ كَلَامًا طَوِيلًا، وَهُوَ امْرُؤٌ فِي لِسَانِهِ ثِقَلٌ، فَلَمْ يَكَدْ يَقْضِي كَلَامَهُ فِي سَرِيحٍ[6]، فَلَمَّا قَضَى

---

(١) ابن شبّة: تاريخ المدينة، ج٢، ص٢٠٥. والطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٦٥٠. من طريق سيف.

(٢) محمّد سهيل طقوش: تاريخ الخلفاء الرّاشدين، ص٤١١.

(٣) مقدّمة ابن خلدون، ج٢، ص٥٩٨.

(٤) حمدي شاهين: الدّولة الإسلاميّة في عصر الخلفاء الرّاشدين، ص٢٦٤.

(٥) هو حَبّان بن مُنقذٍ الأنصاريّ. ابن شبّة: تاريخ المدينة، ج٢، ص١٩٠.

(٦) إخراج ما في صدره سهلاً سريعًا. ابن منظور: لسان العرب، ج٢، ص٤٧٩.

كَلَامَهُ قُلْتُ لَهُ: إِنَّا كُنَّا نَقُولُ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَيٌّ: أَفْضَلُ أُمَّةِ رَسُولِ اللَّهِ بَعْدَهُ أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرُ، ثُمَّ عُثْمَانُ، وَإِنَّا وَاللَّهِ مَا نَعْلَمُ عُثْمَانَ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ حَقٍّ، وَلَا جَاءَ مِنَ الْكَبَائِرِ شَيْئًا، وَلَكِنْ هُوَ هَذَا الْمَالُ، فَإِنْ أَعْطَاكُمُوهُ رَضِيتُمْ، وَإِنْ أَعْطَاهُ أُولِي قَرَابَتِهِ سَخِطْتُمْ، إِنَّمَا تُرِيدُونَ أَنْ تَكُونُوا كَفَارِسَ وَالرُّومِ، لَا يَتْرُكُونَ لَهُمْ أَمِيرًا إِلَّا قَتَلُوهُ"[١].

ويستفاد من هذه الرّواية أنّ الخليفة عثمان ﷺ كان يوزّع أموالاً خاصّة به على أقاربه تارة، وعلى غيرهم تارة أخرى، ولو كانت تلك الأموال من حقوق المسلمين لما سكت عنها عبد الله بن عمر وغيره من كبار الصّحابة ﷺ.

📖 **حال البصرة**:

لم تكن الأمور في ولاية البصرة بأحسن منها في الكوفة، فقد شكا بعض أهلها عاملهم المغيرة بن شعبة ﷺ زمن الفاروق عمر ﷺ، واتّهموه بالزّنا، فعزله عنهم[٢]، ثمّ عادوا فثاروا على أبي موسى الأشعريّ ﷺ زمن الخليفة عثمان - وكان عمر ولّاه عليهم - واتّهموه بسوء التّصرّف وتقدّم السّنّ، ومخالفة فعلِه قولَه، واستعفوا عثمان ﷺ منه[٣]، فعزله، واستعمل بدله عبد الله بن عامر بن كُريز العبشميّ[٤]، وكتب إلى أبي موسى: "إِنِّي لَمْ أَعْزِلْكَ عَنْ عَجْزٍ وَلَا خِيَانَةٍ"[٥].

وثبت عن أنس بن مالك ﷺ أنّه قال: "بَعَثَنِي الْأَشْعَرِيُّ إِلَى عُمَرَ فَقَالَ لِي عُمَرُ: كَيْفَ تَرَكْتَ الْأَشْعَرِيَّ؟ فَقُلْتُ لَهُ: " تَرَكْتُهُ يُعَلِّمُ النَّاسَ الْقُرْآنَ، فَقَالَ: أَمَا إِنَّهُ كَيِّسٌ، وَلَا تُسْمِعْهَا إِيَّاهُ، ثُمَّ قَالَ لِي: كَيْفَ تَرَكْتَ الْأَعْرَابَ؟ قُلْتُ: الْأَشْعَرِيِّينَ؟ قَالَ: لَا، بَلْ أَهْلَ الْبَصْرَةِ،

---

(١) أحمد بن حنبل: فضائل الصّحابة، ج١، ص١١٣، ح٦٤؛ الخلّال: السُّنّة، ج٢، ص٣٨٦، ح٥٤٦؛ الطّبراني: مسند الشاميّين، ج٣، ص٤٠، ح١٧٦٤. وعلّق عليه الهيثميّ بقوله: "في الصّحيح طرَفٌ من أوّله. رواه الطّبرانيّ في الأوسط والكبير بنحوه باختصار، ... وأبو يعْلَى بنحو الطّبرانيّ في الكبير، ورجالُه وُثّقوا، وفيهم خلافٌ". مجمع الزّوائد ومنبع الفوائد، ج٩، ص٥٨، ح١٤٣٨٥. وقد صحّح وصيّ الله - محقّق فضائل الصّحابة - إسنادَ الأثر.

(٢) ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٥، ص٤٥. ولم يُذكر له إسناد.

(٣) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٦٠٤، ٦٠٥. من طريق سيف.

(٤) تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٦٠٥. من طريق سيف.

(٥) ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٥، ص٤٥. ولم يُذكر له إسناد.

قُلْتُ: أَمَا إِنَّهُمْ لَوْ سَمِعُوا هَذَا لَشَقَّ عَلَيْهِمْ، قَالَ: وَلَا تُبْلِغْهُمْ، فَإِنَّهُمْ أَعْرَابٌ، إِلَّا أَنْ يَرْزُقَ اللَّهُ رَجُلًا جِهَادًا فِي سَبِيلِ اللَّهِ"[١].

وقد ظلّ عبد الله بن عامر على البصرة حتّى آخر عهد عثمان ﷺ، ولمّا عاد إلى البصرة بعد "مؤتمر العمّال" كان ليّنَ الجناح متردّدًا، ومرّ برجلٍ يحرّش بين الأشراف، فأجرى الخيل، فسبقه حَكيم بن جبلة العبديّ - من عبد القيس - فغضب، فأخذ خيلاً كانت له بفارسَ، فغضب حَكيمٌ فجعل يَعيبُ عثمان ﷺ، ورزق ابنُ عامرٍ النّاس طعامًا أصابته السّماء فتغيّر، فحمله قومٌ إلى عثمان ﷺ وشكَوا ابن عامرٍ، فلم يَعْرِض له، فتغيّر النّاس لعثمان وقالوا: "عَزَلَ أَبَا مُوسَى وَوَلَّى ابْنَ عَامِرٍ"[٢].

وهذا الخبر أولى من رواية سيف التّميميّ الّتي يتّهم فيها حكيم بن جبلة العبديّ بأنّه كان لصًّا، إذا قفلت الجيوش خنس عنهم فسعى في أرض فارس، فأغار على أهل الذّمّة، وتنكّر لهم، وأفسد في الأرض، وأصاب ما يشاء، ثم رجع، وأنّ أهل الذّمّة وأهل القبلة شكوه إلى عثمان ﷺ، فأمر عبد الله بن عامر بحبسه ومن كان مثله، وأوصاه بعدم إخراجه من البصرة حتّى يأنس منه رشدًا[٣].

وقد ذكر من ترجم لحكيم أنّه كان بطلاً، شريفًا[٤]، مطاعًا في قومه، وكان صالحًا، ذا دين[٥]، وتألّه[٦]، حتّى عرف بـ "العبديّ العابد"[٧]، وهو الّذي بعثه الخليفة عثمان ﷺ على السّند فنزلها[٨]، وهذا يفيد بأنه كان أحد الأشراف العبّاد القرّاء المعروفين، وليس من قطّاع الطّرق الموتورين.

---

(١) ابن سعد: الطّبقات الكبير، ج٤، ص١٠١؛ ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج٣٢، ص٦٩؛ الذّهبي: سير أعلام النّبلاء، ج٢، ص٣٩٠. وقال الأرناؤوط: "رجاله ثقات".

(٢) ابن شبّة: أخبار المدينة، ج٢، ص٢٠٨. من طريق علي بن محمد المدائني.

(٣) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٦٣٩.

(٤) الذّهبي: سير أعلام النّبلاء، ج٣، ص٥٣١.

(٥) ابن عبد البرّ: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ج١، ص٣٦٦؛ الذّهبي: تاريخ الإسلام، ج٣، ص٤٩٥.

(٦) الذّهبي: سير أعلام النّبلاء، ج٣، ص٥٣١.

(٧) الصّفدي: الوافي بالوفيات، ج١٣، ص٧٩.

(٨) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٨٠؛ ابن عبد البرّ: الاستيعاب، ج١، ص٣٦٦.



حال مصر:

لم تكن مصر خالية من مثيري الفتنة، بل كان أمرُها أشدّ من المصْرين العرّاقيّين؛ لأنّ التّمرّد فيها على الخليفة عثمان ﷺ أتاه من ذوي قرابته، وممّن أحسن إليهم، فكانت البادرة من محمّد بن أبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة العبشميّ، ربيب عثمان ﷺ الّذي كفله وهو يتيم، وكان محمدٌ قد سأل الخليفة أن يولّيه ولاية فرفض طلبه، ولم يره لذلك أهلاً[1].

خرج محمّد بن أبي حذيفة مصطحبًا محمّد بن أبي بكر إلى مصر بحجّة الغزو، فنهضا يؤلّبان أهلها على عثمان ﷺ، ولم يمنعهما قيامُ أهل مصر بجهاد الرّوم من التّمادي في الفتنة، فجعل ابن أبي حذيفة يقول للرّجل: "أما والله لقد تركنا خلفنا الجهاد حقًّا"، فيقول الرّجل: وأيّ جهاد؟ فيقول: عثمان بن عفّان، فعل وفعل، وكان همّهما في ذات الصّواري تحريضَ النّاس على عثمان وعيبه، وذكر ما خالف به أبا بكر وعمر، وإباحة دمه، وأنّه استعمل ابن سعد الّذي كفّره القرآن، وأدخل إلى المدينة من أخرجهم النّبيُّ ﷺ، ونزع أصحاب رسول الله ﷺ، واستعمل الأحداث.

كانت هذه الخيانة والافتراءات - إن ثبتت - بحاجة إلى والٍ قويٍّ يسرع في مداواتها بسيفه كخالد بن الوليد ﷺ، ولكنّ عبد الله بن سعد - الّذي كان أقلّ كفاءة من عمرو بن العاص ﷺ بلا ريب - لم يزد على نهيه لهما عن الرّكوب مع المجاهدين في البحر، فلم يعبئا بقوله، وركبا في مركب ما فيه أحدٌ من المسلمين، فلمّا التقى الجمعان كانا أقلّ المسلمين قتالاً، فلمّا عوتبا في ذلك قالا: "كيف نقاتل مع رجل لا ينبغي لنا أن نحكّمه"! فأفسدا أهل تلك الغَزاة، وعابا عثمان ﷺ أشدّ العيب، فأرسل ابن سعد ﷺ إليهما ينهاهما أشدّ النّهي، ويقول: "والله لولا أنّي لا أدري ما يوافق أمير المؤمنين لعاقبتكما وحبستكما"[2].

---

(١) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٦٨٠. من طريق سيف.

(٢) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٦٢٠؛ ابن كثير: البداية والنّهاية، ج٧، ص١٧٧، ١٧٨. والخبر عن صنيع ابن أبي بكر وابن أبي حذيفة من طريق الواقديّ وابن شبّة، وهو موقوف على الزّهريّ الّذي ولد بعد الحادثة بنحو خمسةَ عشرَ عامًا. محمّد عبد الله عبد القادر غبّان: فتنة مقتل عثمان، ج٢، ص٨٧٠. غير أنّ انتزاء ابن أبي حذيفة على مصر في غيبة ابن سعد، ومسير ابن أبي بكر مع الخوارج إلى عثمان وثبوت تأليبه لهم وإدخالهم عليه - كما سيأتي - يؤكّد فعلهما هذا.

ورفع ابن أبي السّرح خبر ابن أبي حذيفة وابن أبي بكر إلى عثمان ﷺ فعفا عنهما، وقال: "أمّا ابنُ أبي بكرٍ فإنّه يوهب لأبيه ولعائشة أمّ المؤمنين، وأمّا ابنُ أبي حذيفة فإنّه ابني وابنُ أخي وتربيتي، وهو فرخ قريشٍ، فكتب إليه: "إنّ هذا الفرخ قد استوى ريشُه ولم يبق إلّا أن يطير"، وبعث عثمان ﷺ إلى ابن أبي حذيفة بثلاثين ألف درهم، وبجملٍ عليه كُسوةٌ، فوضع ذلك في المسجد، ونادى في أهل مصر بأنّ عثمان يخادعه في دينه ويرشوه، فازدادوا طعنًا على عثمان ﷺ، وعظّموا ابن أبي حذيفة، ورأّسوه عليهم[١].

وقد ذكر الحافظ ابن كثير موقف محمّد بن أبي حذيفة ومحمّد بن أبي بكر من الخليفة عثمان ﷺ بقوله: "وَنَشَأَ بِمِصْرَ طَائِفَةٌ مِنْ أَبْنَاءِ الصَّحَابَةِ يُؤَلِّبُونَ النَّاسَ عَلَى حَرْبِهِ وَالإِنْكَارِ عَلَيْهِ، وَكَانَ عُظْمُ ذَلِكَ مُسْنَدًا إِلَى مُحَمَّدِ بْنِ أَبِي بَكْرٍ، وَمُحَمَّدِ بْنِ أَبِي حُذَيْفَةَ"[٢].

ثانياً: استغلال ضعاف الدّين لدعوة أبي ذرّ الغفاريّ:

كان أبو ذرّ الغفاريّ ﷺ قد لزم حياة الزّهد، ثمّ استأذن أمير المؤمنين عثمان ﷺ في سُكنى بلاد الشّام فأذن له[٣]، فلمّا رأى النّاسَ يتّسعون في المراكب والملابس أنكر عليهم، وعمل على تفريق جميع ذلك من بين أيديهم[٤]، وطفق يقول: "لَا يَبِيتَنَّ عِنْدَ أَحَدِكُمْ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ إِلّا مَا يُنْفِقُهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ يَعُدُّهُ لِغَرِيمٍ"[٥]، وغير ذلك من الآثار الكثيرة الّتي تدلّ على أنّه كان يذهبُ إلى أنّ كلّ مالٍ مجموعٍ يفضُلُ عن القوت وسداد العيش فهو كنزٌ، وأنّ آية الوعيد نزلت في ذلك[٦]، وقام يقرّع عمّال الخليفة عثمان ﷺ، ويتلو عليهم قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ ۝٣٤﴾[٧]، فوقع بينه وبين أمير الشّام معاوية بن أبي سفيان ﷺ كلامٌ بسبب رأيه في المال،

---

(١) البلاذري: أنساب الأشراف، ج٩، ص٣٧٠، ٣٧١. بدون إسناد.

(٢) البداية والنّهاية، ج٧، ص١٩١.

(٣) البيهقي: دلائل النّبوّة، ج٦، ص٤٠١.

(٤) ابن العربي: العواصم من القواصم، ص٨٥، ٨٦.

(٥) ابن حجر: فتح الباري، ج٣، ص٢٧٤.

(٦) ابن عبد البرّ: الاستذكار، دار الكتب العلميّة، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ج٣، ص١٧٣.

(٧) سورة التّوبة: من الآية ٣٤.



فطلب معاوية من الخليفة أن يخرجه من بلاد الشّام، حتّى لا يضطرب أمرُها، فاستدعاه عثمان ﷺ إلى المدينة[(١)].

ولمّا علم أبو ذرّ الغفاريّ ﷺ باستدعاء الخليفة له خاف حتّى إنّه قال له عندما قدم عليه: "أَخَفْتَنِي، فَوَاللَّهِ لَوْ أَمَرْتَنِي أَنْ أَتَعَلَّقَ بعُرْوَةِ قَتَبٍ حَتَّى أَمُوتَ لَفَعَلْتُ"[(٢)].

كما تخوّفت قبيلة غِفار على أبي ذرّ ﷺ من الخليفة فدخل رهطٌ منهم مع أبي ذرّ، فلمّا انتهى إلى عثمان ﷺ سلّم عليه، "ثُمَّ مَا بَدَأَهُ بِشَيْءٍ إِلّا أَنْ قَالَ: أَحَسِبْتَنِي مِنْهُمْ - يقصد الخوارج - يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، وَاللّهِ مَا أَنَا مِنْهُمْ وَلَا أُدْرِكُهُمْ، لَوْ أَمَرْتَنِي أَنْ آخُذَ بِعَرْقُوَيْ قَتَبٍ لأَخَذْتُ بِهِمَا حَتَّى أَموتَ"[(٣)].

ولكنّ النّاس اجتمعوا إلى أبي ذرّ ﷺ، فجعل يسلك تلك الطّرق، ويقوم على مجالس النّاس فيرهّبهم بعقوبة الكانزين[(٤)]، فأشار عليه أمير المؤمنين عثمان ﷺ بالاعتزال عن مخالطة النّاس، فاختار أن ينزل الرّبذة[(٥)]، وعرض عليه عثمان ﷺ إبلاً من نَعَم الصّدقة ليصيب من لبنها، فرفض أبو ذرّ ﷺ، ونادى: "دُونَكُمْ مَعَاشِرَ قُرَيْشٍ دُنْيَاكُمْ فَاعْذِمُوهَا لَا حَاجَةَ لَنَا فِيهَا"، وانطلق حتّى قدم الرّبذة، فصادف مولًى لعثمان ﷺ غلامًا حبشيًّا يؤمُّهم، فنودي بالصّلاة، فتقدّم، فلمّا رأى الغلامُ أبا ذرٍّ ﷺ نكص، فأومأ إليه أبو ذرٍّ أن يتقدّم، وصلّى أبو ذرٍّ خلفه[(٦)].

---

(١) البخاري: الصّحيح، (كتاب الزّكاة، باب ما أدّى زكاته فليس بكنز)، ج٢، ص٥٠٩، ح١٣٤١.

(٢) معمر بن راشد: الجامع، ج١١، ص٣٣٢؛ ابن أبي شيبة: المصنّف، ج٧، ص٥٢٣. وإسناد الأثر صحيح، رجاله رجال الشّيخين. محمّد عبد الله عبد القادر غبّان. فتنة مقتل عثمان، ج١، ص٥٥٦.

(٣) ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٤، ص٢٣٢؛ ابن شبّة: تاريخ المدينة، ج٢، ص١٤٢، ١٤٣؛ ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج٦٦، ص١٩٧. وإسناد ابن سعد صحيح. محمّد عبد الله عبد القادر غبّان: فتنة مقتل عثمان، ج١، ص٥٥٥.

(٤) البخاري: الصّحيح، (كتاب الزّكاة، باب ما أدّى زكاته فليس بكنز)، ج٢، ص٥١٠، ح١٣٤٢؛ مسلم: الصّحيح، (كتاب الزّكاة، باب في الكانزين للأموال والتّغليظ عليهم)، ج٢، ص٦٨٩، ح٩٩٢.

(٥) البخاري: الصّحيح، (كتاب الزّكاة، باب ما أدّى زكاته فليس بكنز)، ج٢، ص٥٠٩، ح١٣٤١.

(٦) ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٤، ص٢٣٢؛ ابن شبّة: تاريخ المدينة، ج٢، ص١٤٣. وإسناده صحيح. محمّد عبد الله غبّان: فتنة مقتل عثمان، ج١، ص٥٥٥.

وقد سئل أبو ذرٍّ الغفاريّ ﷺ عن سبب نزوله الرّبذة فقال: "كُنْتُ بِالشَّأْمِ، فَاخْتَلَفْتُ أَنَا وَمُعَاوِيَةُ فِي ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[1]، فقال معاوية: نَزَلَتْ فِي أَهْلِ الكِتَابِ، فقلت: "نَزَلَتْ فِينَا وَفِيهِمْ، فَكَانَ بَيْنِي وَبَيْنَهُ فِي ذَاكَ، وَكَتَبَ إِلَى عُثْمَانَ ﷺ يَشْكُونِي، فَكَتَبَ إِلَيَّ عُثْمَانُ: أَنِ اقْدَمِ المَدِينَةَ فَقَدِمْتُهَا، فَكَثُرَ عَلَيَّ النَّاسُ حَتَّى كَأَنَّهُمْ لَمْ يَرَوْنِي قَبْلَ ذَلِكَ، فَذَكَرْتُ ذَاكَ لِعُثْمَانَ، فَقَالَ لِي: إِنْ شِئْتَ تَنَحَّيْتَ، فَكُنْتَ قَرِيبًا، فَذَاكَ الّذي أَنْزَلَنِي هَذَا المَنْزِلَ، وَلَوْ أَمَّرُوا عَلَيَّ حَبَشِيًّا لَسَمِعْتُ وَأَطَعْتُ"[2].

وقد أشيع في صدر الإسلام أنّ عثمان ﷺ أخرج أبا ذرّ ﷺ من المدينة، ولكنّ علماء السّلف كانوا ينكرون هذا القول[3]، الّذي تلقّفته الرّافضة بعد ذلك وزادوا أنّ عثمان ﷺ ضربه ضربًا وجيعًا[4].

ويشاع أنّ أبا ذرّ ﷺ التقى بعبد الله بن سبأ اليهوديّ في بلاد الشّام وتأثّر به[5]، وهذا محض اختلاق؛ لأنّ أبا ذرّ الغفاريّ ﷺ كان فقيهًا عالمًا بقواعد الإسلام، شديد الاعتداد برأيه، فلا يعقل أن يأخذ عن رجل حديث العهد بالإسلام لم يشتهر بشيء من العلم[6]، وقد غضب أبو ذرّ ﷺ يومًا على التّابعيّ كعب الأحبار ورفع عليه العصا، وخاطبه بابن اليهوديّة عندما صرّح أمامه بأنّه لا بأس بجمع المال الّذي أُدّيت زكاته[7].

---

(١) سورة التّوبة: من الآية ٣٤.

(٢) البخاري: الصّحيح، (كتاب الزّكاة، باب ما أدّى زكاته فليس بكنز)، ج٢، ص٥٠٩، ح١٣٤١؛ ابن شبّة: تاريخ المدينة، ج٢، ص١٤٤.

(٣) ثبت إنكار هذا القول عن الحسن البصريّ ومحمّد بن سيرين بإسناد صحيح. ابن شبّة: تاريخ المدينة، ج١، ص١٣٦.

(٤) هذا قول ابن المطهّر الحِلِّي الرّافضيّ (ت: ٧٢٦هـ/١٣٢٥م). ابن تيمية: منهاج السُّنّة النّبويّة في نقض كلام الشّيعة والقدريّة، ج٦، ص١٨٣.

(٥) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٦١٥.

(٦) محمّد سهيل طقّوش: تاريخ الخلفاء الرّاشدين، ص٤١٤.

(٧) ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٤، ص٢٣٢؛ الذّهبي: سير أعلام النّبلاء، ج٢، ص٦٧، ٦٨. وصحّح محقّقو السّير إسناد الأثر.

وما كان أبو ذرّ ﷺ ليضرب كعب الأحبار ويشتمه على رأيه المخالف له، ثمّ يأخذ فقهه وعلمه من يهوديّ[1]، كما أنّ المنيّة وافتْ أبا ذرّ الغفاريّ ﷺ سنة ٣١هـ/٦٥١، أو ٣٢هـ/٦٥٢م، وذلك قبل ظهور ابن سبأ[2].

وقد أخذ أبو ذرّ الغفاريّ ﷺ منهجه في الأموال والزّكوات من فهمه الخاص لبعض الأحاديث الّتي رواها عن رسول الله ﷺ؛ فقد حدّث أبو ذرّ ﷺ فقال: انْتَهَيْتُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ جَالِسٌ فِي ظِلِّ الْكَعْبَةِ، فَلَمَّا رَآنِي قَالَ: "هُمُ الْأَخْسَرُونَ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ"، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي، مَنْ هُمْ؟ قَال: "هُمُ الْأَكْثَرُونَ أَمْوَالاً، إِلَّا مَنْ قَالَ هَكَذَا وَهَكَذَا وَهَكَذَا، مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ، وَمِنْ خَلْفِهِ، وَعَنْ يَمِينِهِ، وَعَنْ شِمَالِهِ، وَقَلِيلٌ مَا هُمْ، مَا مِنْ صَاحِبِ إِبِلٍ، وَلَا بَقَرٍ، وَلَا غَنَمٍ لَا يُؤَدِّي زَكَاتَهَا إِلّا جَاءَتْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْظَمَ مَا كَانَتْ وَأَسْمَنَهُ، تَنْطَحُهُ بِقُرُونِهَا وَتَطَؤُهُ بِأَظْلَافِهَا، كُلَّمَا نَفِدَتْ أُخْرَاهَا، عَادَتْ عَلَيْهِ أُولَاهَا، حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ"[3].

كما روى الأحنف بن قيسٍ التّميميّ التّابعيّ (ت: ٧٢هـ/٦٩١م) أنّه جلس إلى ملأٍ من قريشٍ في مسجد المدينة، فجاءهم أبو ذرّ ﷺ فقام عليهم فسلّم، ثمّ قال: "بَشِّرِ الْكَانِزِينَ بِرَضْفٍ[4] يُحْمَى عَلَيْهِم فِي نَارِ جَهَنَّمَ، ثُمَّ يُوضَعُ عَلَى حَلَمَةِ ثَدْيِ أَحَدِهِمْ حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ نُغْضِ كَتِفِهِ[5]، وَيُوضَعُ عَلَى نُغْضِ كَتِفِهِ حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ حَلَمَةِ ثَدْيِهِ، يَتَزَلْزَلُ، ثُمَّ وَلَّى، فَجَلَسَ إِلَى سَارِيَةٍ"[6]، وتبعه الأحنف فقال له: "لَا أُرَى الْقَوْمَ إِلّا قَدْ كَرِهُوا الّذي قُلْتَ، قال: إِنَّهُمْ لَا

---

(١) عبد العزيز صالح الهلّابي: عبد الله بن سبأ، دراسة للرّوايات التّاريخيّة عن دوره في الفتنة، حوليّة كلّيّة الآداب، الحوليّة الثّامنة، الرّسالة الخامسة والأربعون، جامعة الكويت، الكويت، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ص٢٠.

(٢) محمّد محمّد حسن شرّاب: المدينة المنوّرة، (فجر الإسلام والعصر الرّاشدي)، دار القلم، دمشق، الطّبعة الأولى، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م، ج٢، ص٢٢٥؛ علي محمّد محمّد الصّلّابي: عثمان بن عفّان، ص٣٢٦.

(٣) أحمد بن حنبل: المسند، ج٣٥، ص٢٨٧، ٣٨٨، ح٢١٤٩١؛ البخاري: الصّحيح، (كتاب الأيمان والنّذور، باب كيف كانت يمين النّبيّ ﷺ)، ج٦، ص٢٤٤٧، ح٦٢٦٢؛ مسلم: الصّحيح، (كتاب الزّكاة، باب تغليظ عقوبة من لا يؤدّي الزّكاة)، ج٢، ص٦٨٦، ح٩٩٠.

(٤) الرّضف: حجارة حَميتْ بالشّمس أو النّار. ابن منظور: لسان العرب، ج٩، ص١٢١.

(٥) نغض الكتف: أعلى الكتف، وقيل هو العظم الرّقيق على طرفها. لسان العرب، ج٧، ص٢٣٩.

(٦) سارية: أُسطوانة أو عمود من أعمدة المسجد. لسان العرب، ج١٣، ص٢٠٨.

يَعْقِلُونَ شَيْئًا، واستدلّ بقول النّبيّ ﷺ له: "مَا أُحِبُّ أَنَّ لِي مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا، أُنْفِقُهُ كُلَّهُ، إِلَّا ثَلَاثَةَ دَنَانِيرَ"، ثُمّ قَالَ: "إِنَّ هَؤُلَاءِ لَا يَعْقِلُونَ، إِنَّمَا يَجْمَعُونَ الدُّنْيَا، لَا وَاللَّهِ، لَا أَسْأَلُهُمْ دُنْيَا، وَلَا أَسْتَفْتِيهِمْ عَنْ دِينٍ، حَتَّى أَلْقَى اللَّهَ"(١).

ثالثاً: دور عبد الله بن سبأ اليهوديّ في الفتنة:

لقد دار جدلٌ طويل حول شخصيّة عبد الله بن سبأ التّاريخيّة من حيث الحقيقة والأسطورة؛ لأنّ تفاصيل أخباره في عهد أمير المؤمنين عثمان بن عفّان ﷺ قد نقلت إلينا من طريق الإخباريّ سيف بن عمر التّميميّ المجروح الرّواية، غير أنّ أصول أخبار ابن سبأ قد ثبتت في المصادر المتقدّمة على سيف التّميميّ والمتأخّرة عليه عند السُّنّة والشّيعة على السّواء(٢)، وإنّ تنوّع مصادر أخباره من سُنّيّة وشيعيّة يجعل من الصّعب القبول بنفي الوجود التّاريخيّ له(٣).

ويذكر سيفٌ أنّ ابن سبأ كان يهوديًّا يمنيًّا من أمة سوداء ينسب إليها، فادّعى الإسلام زمن عثمان ﷺ، واتّخذ من ذلك ستارًا لتآمره، واستغلّ النّاقمين على عثمان ببثّ روح التّمرّد في الأقطار الثّلاثة الّتي سبق ذكرها(٤).

وقد ثبت أنّ عبد الله بن سبأ خاض في حقّ الأئمّة، وكان أوّل من طعن على أبي بكر وعمر رضي الله عنهما وانتقصهما؛ فقد روى التّابعيّ سويد بن غفلة الجُعفيّ أنّه مرّ بنفر فيهم عبد الله بن سبأ يذكرون أبا بكر وعمر رضي الله عنهما بسوء، ويرون أنّ عليًّا ﷺ يضمر لهما مثل ذلك، فأخبر سويدٌ عليًّا ﷺ بأمرهم، فقال: "مَا لِي وَلِهَذَا الخَبِيثِ الأَسْوَدِ، مَعَاذَ اللهِ أَنْ أُضْمِرَ لَهُمَا إِلَّا الحَسَنَ الجَمِيلَ"، ثمّ أرسل إلى عبد الله بن سبأ فسيّره إلى المدائن، وقال: "لَا يُسَاكِنُنِي

---

(١) البخاري: الصّحيح، (كتاب الزّكاة، باب ما أدّى زكاته فليس بكنز)، ج٢، ص٥١٠، ح١٣٤٢؛ مسلم: الصّحيح، (كتاب الزّكاة، باب في الكانزين للأموال والتّغليظ عليهم)، ج٢، ص٦٨٩، ح٩٩٢.

(٢) سعدي مهدي الهاشمي: ابن سبأ حقيقة لا خيال، الجامعة الإسلاميّة، المدينة المنوّرة، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، ص١٤٨، ١٤٩؛ سليمان حمد العودة: الإنقاذ من دعاوى الإنقاذ، ١٤٢١هـ، ص٥- ١٨؛ محمّد عبد الله عبد القادر غبّان: فتنة مقتل عثمان، ج١، ص١٤٤- ١٥١.

(٣) أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الرّاشدة، ص٦٢، ٦٣.

(٤) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص٦١٥، ٦٣٩، ٦٤١، ٦٤٧.

فِي بَلْدَةٍ أَبَدًا"، ثمّ نهض إلى المنبر حتّى اجتمع النّاسُ، فأثنى على أبي بكر وعمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، وختم خطبته بقوله: "أَلَا، وَلَا يَبْلُغُنِي عَنْ أَحَدٍ يُفَضِّلُنِي عَلَيْهِمَا إِلَّا جَلَدْتُهُ حَدَّ المُفْتَرِي"[(١)].

ويؤيّد هذا ما ثبت بإسناد حسن عن الإمام الشّعبيّ (ت: ١٠٣هـ/٧٢١م) أنّه قال: "أوّل من كذب عبد الله بن سبأ"[(٢)].

رابعاً: اشتعال الفتنة:

على الرّغم من الشّكوك الّتي تدور حول رواية سيف بن عمر التّميميّ للفتنة فإنّ الباحث يجد نفسه مضطرًّا للأخذ منها؛ لأنّ خروج المتمرّدين على أمير المؤمنين عثمان ﷺ من الكوفة والبصرة ومصر في آن واحد لا بدّ له من محرّك يرتّب الأمر بين هؤلاء جميعًا، خاصّة وأنّ الأشتر النّخعيّ - أحد رؤوس الفتنة الكوفيّين - سنراه يعترف خلال حصار عثمان ﷺ بأنّ يدًا خفيّة كان لها دور كبيرٌ في إثارتهم وخروجهم[(٣)].

ولمّا بلغت نذر الفتنة مسامع الخليفة عثمان ﷺ استدعى عمّاله ليستكشف منهم أحوال البلدان، ويستشيرهم في مواجهة الأزمة[(٤)]، فلم يكد العمّال يخرجون من ولاياتهم ويتوجّهون إلى المدينة النّبويّة حتّى سيطر المتمرّدون وضعاف الدّين على مقاليد البلاد في مصر، وأجمعوا على منع إعادة الوالي سعيد بن العاص الأمويّ إلى الكوفة، فتمّ لهم ما أرادوه.

---

(١) الخطيب البغدادي: الكفاية في معرفة أصول علم الدّراية، تحقيق/ ماهر ياسين الفحل، دار ابن الجوزي، الدّمّام، الطّبعة الأولى، ١٤٣٢هـ، ج٢، ص١٧١. وعلّق عليه الخطيب بقوله: "وإسناد الأثر صحيح، ورجاله ثقات مشهورون بالعلم معروفون بالأمانة". وينظر ابن حجر: لسان الميزان، ج٤، ص٤٨٤، ٤٨٥؛ خالد كبير علال: رؤوس الفتنة في الثّورة على الخليفة الشّهيد عثمان بن عفّان، دار المحتسب، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، ص٨.

(٢) ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج٢٩، ص٧؛ محمّد عبد الله غبّان: فتنة مقتل عثمان، ج١، ص١٥١.

(٣) ابن أبي شيبة: المصنّف في الأحاديث والآثار، ج٧، ص٥٢١، ح٣٧٦٩٠؛ عبد الله بن أحمد بن حنبل: فضائل عثمان بن عفّان، تحقيق/ طلعت فؤاد الحلواني، دار ماجد عسيري، السّعودية، الطّبعة الأولى، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ص١٠٤، ح٥٥.

(٤) تختلف الرّوايات في تحديد تاريخ استدعاء أمير المؤمنين عثمان ﷺ لعمّاله بين سنتي ٣٤هـ، أو ٣٥هـ، والرّاجح من الأقوال أنّ الاجتماع كان عقب موسم الحجّ أواخر سنة ٣٤هـ؛ وذلك لأنّ المنحرفين عن عثمان ﷺ خرجوا عليه قبل موسم سنة ٣٥هـ.

📖 اشتعال الفتنة في الكوفة:

استغلّ زعماء الفتنة الكوفيّون غياب الوالي سعيد بن العاص الأمويّ، فقاموا بتحريض الأهالي ضدّه، زاعمين أنّه يريد إنقاص العطاء، ونجح الأشتر النّخعيّ في جمع المعارضين للوالي(١)، وعسكروا بالجَرَعَة(٢)، في ألف رجل(٣)، ومنعوا الوالي عند عودته من دخول الكوفة وردّوه(٤)، فرجع إلى المدينة(٥).

وقد أثبتت روايات المحدّثين هذه الحادثة الّتي تعدّ بداية للفتنة الفعليّة، فقد عُرض على حذيفة بن اليمان ﷺ أن يخرج مع النّاس ليراقب الموقف فرفض، وقال: "إِنَّ الْفِتْنَةَ تَسْتَشْرِفُ مَنِ اسْتَشْرَفَ لَهَا"(٦).

ولمّا قال جُنْدب بن عبد الله البجليّ ﷺ لحذيفة بن اليمان ﷺ: "وَاللهِ لَيُهْرَاقَنَّ الْيَوْمَ دِمَاءٌ"، أقسم حذيفة مرارًا أنّه لن يحدث، وأنّه يعلم ذلك من حديث رسول الله ﷺ(٧).

وكشف حذيفة ﷺ عن مصير رؤوس الفتنة الّذين خرجوا يوم الجَرَعة فقال: "إِنَّ الرَّجُلَ يُصْبِحُ مُؤْمِنًا، وَيُمْسِي وَمَا مَعَهُ شَيْءٌ، وَيُمْسِي مُؤْمِنًا، وَيُصْبِحُ وَمَا مَعَهُ شَيْءٌ، يُقَاتِلُ فِي الْفِتْنَةِ الْيَوْمَ، وَيَقْتُلُهُ اللَّهُ غَدًا"(٨).

---

(١) يذكر ابن سعد بدون إسناد أنّ الأشتر ورفاقه من أهل الفتنة رحلوا إلى عثمان ﷺ وسألوه أن يعزله عنهم فأبى، فعادوا إلى الكوفة وعملوا على عزله بالقوّة. الطّبقات الكبرى، ج٥، ص٣٣.

(٢) الجَرَعة: موضع بقرب الكوفة على طريق الحيرة فيه رمل وسهولة. ياقوت: معجم البلدان، ج٢، ص١٢٧، ١٢٨.

(٣) ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٥، ص٣٣.

(٤) أحمد بن حنبل: المسند، ج٣٨، ص٣٧١، ح٢٣٣٤٨. ورشّحه شعيب الأرناؤوط للتّحسين. واستدركه الحاكم على شرط الشّيخين، وصحّحه، وأقرّه الذّهبيّ. المستدرك، ج٢، ص١٧٠، ح٢٦٦٨.

(٥) ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٥، ص٣٣.

(٦) ابن أبي شيبة: المصنّف في الأحاديث والآثار، ج٧، ص٤٥٤، ح٣٧١٦٧.

(٧) مسلم: الصّحيح، (كتاب الفتن وأشراط السّاعة، باب في الفتنة الّتي تموج كموج البحر)، ج٤، ص٢٢١٩، ح٢٨٩٣.

(٨) أحمد بن حنبل: المسند، ج٣٨، ص٣٧١، ح٢٣٣٤٨. ورشّحه الأرناؤوط للتّحسين. واستدركه الحاكم على شرط الشّيخين، وصحّحه، وأقرّه الذّهبيّ. المستدرك، ج٢، ص١٧٠، ح٢٦٦٨.

عاد سعيد بن العاص الأمويّ بخبر متمرّدي الكوفيّين، وأنّهم يظهرون المطالبة بالبدل، ويختارون أبا موسى الأشعريّ ﷺ، فأجاب الخليفة عثمان ﷺ طلبهم، "إِزَاحَةً لِعُذْرِهِمْ، وَإِزَالَةً لِشُبَهِهِمْ، وَقَطْعًا لِعِلَلِهِمْ"[١]، وظلّ يتعامل باللّين، ويؤثر جانب الرّفق والهوادة على الشّدّة والصّرامة، وكان أهل الفتنة قد عرفوا شخصيّة أبي موسى الأشعريّ المشابهة للخليفة في اللّين وكُره الدّماء وإيثار العافية، ولذا لجّوا في غيّهم، وضعف مركز الوالي والخليفة عندهم إلى حدّ بعيد[٢].

📖 سيطرة المتمرّدين على البلاد المصريّة:

انتهز أهل الفتنة بمصر غياب الوالي عبد الله بن سعد بن أبي السّرح ﷺ، فانتزى ربيب عثمان العاقّ محمّد بن أبي حذيفة العبشميّ على خليفة عبد الله بن أبي السّرح فعزله، وتأمّر على البلاد، وأرصد خيلاً للتّصدّي لابن أبي السّرح عند القُلْزُم -السّويس - فلمّا عاد منعوه من الدّخول، فقال: "ويلكم، دَعُوني أدخل على جُندي فأُعلمهم بما جئت به، فإنّي قد جئتهم بخير"، ولكنّهم أصرّوا على منعه، فقال: "والله لودِدتُ أنّي دخلت عليهم فأعلمتهم بما جئت به ثمّ متّ"[٣]، ومضى إلى فلسطين، فأقام بها حتّى مات[٤].

دعا ابن أبي حذيفة إلى خلع عثمان ﷺ، وأسعر البلاد، وحرّض على الخليفة بكلّ شيء يقدر عليه[٥]. وروي الكنديّ (ت: ٣٥٠هـ/٩٦٠م) نموذجًا لما كان يفعله ابن أبي حذيفة للتّأثير على العامّة وتأليب النّاس على الخليفة فقال: "كان يكتب الكتب على ألسنة أزواج النّبيّ ﷺ، ثمّ يأخذ الرّواحل فيضَمِّرُها، ثمّ يأخذ الرّجال الّذين يريد أن يبعث لذلك معهم فيجعلُهم على ظهور البيوت، فيستقبلون بوجوههم الشّمس لتلوّحهم تلويح المسافر، ثمّ

---

(١) ابن كثير: البداية والنّهاية، ج٧، ص١٨٨.

(٢) ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٥، ص٣٤.

(٣) الكندي: الولاة والقضاة، ص١٦.

(٤) ابن يونس: تاريخ ابن يونس، ج١، ص٢٧٠؛ ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج٢٩، ص٢٦. ولم يتحزّب ابن أبي السّرح بعد عثمان لعليّ ولا لمعاوية، ودعا ربّه أن يجعل خاتمة عمله الصّلاة، فلمّا حانت وفاته توضّأ ثمّ صلّى الصّبح، فقرأ في الأولى بأمّ القرآن والعاديات، وفي الثّانية بأمّ القرآن وسورة، ثمّ سلّم عن يمينه، وذهب يسلّم عن يساره، فقبض الله روحه. ابن عبد البرّ: الاستيعاب، ج٣، ص٩٩١، ٩٢٠.

(٥) الكندي: الولاة والقضاة، ص١٤؛ المقريزي: الخطط، ج٤، ص١٥٢.

يأمرُهم أن يخرجوا إلى طريق المدينة بمصر، ثمّ يرسلون رسلاً يخبرون بهم النّاس ليَلْقَوْهم، وقد أمرهم إذا لقيهم النّاس أن يقولوا: ليس عندنا خبرٌ، الخبر في الكتب، ثمّ يخرج ابن أبي حذيفة والنّاس كأنّه يتلقّى رسل أزواج النّبيّ ﷺ فإذا لقُوهُم، قالوا: لا خبر عندنا عليكم بالمسجد، فيقرأ عليهم كتب أزواج النّبيّ ﷺ، فيجتمع النّاس في المسجد اجتماعًا ليس فيه تقصيرٌ، ثمّ يقوم القارئ بالكتاب، فيقول: إنّا لنشكو إلى الله وإليكم ما عُمل في الإسلام وما صُنع في الإسلام[١]، فيقوم أولئك الشّيوخ من نواحي المسجد بالبكاء، ثمّ ينزل عن المنبر ويَنْفُرُ النّاس بما قُرئ عليهم"[٢].

وبعيدًا عن صحّة هذا الخبر من عدمها، فقد ثبت تزوير رؤوس أهل الفتنة للكتب على لسان السّيّدة عائشة رضي الله عنها؛ فإنّها لمّا غضبت لمقتل عثمان رضي الله عنه وقالت: "تَرَكْتُمُوهُ كَالثَّوْبِ النَّقِيِّ مِنَ الدَّنَسِ، ثُمَّ قَرَّبْتُمُوهُ فَذَبَحْتُمُوهُ كَمَا يُذْبَحُ الْكَبْشُ؟ قال لها مسروقٌ: هَذَا عَمَلُكِ أَنْتِ، كَتَبْتِ إِلَى أُنَاسٍ تَأْمُرِينَهُمْ بِالْخُرُوجِ، فَقَالَتْ: لَا وَالّذي آمَنَ بِهِ الْمُؤْمِنُونَ وَكَفَرَ بِهِ الْكَافِرُونَ، مَا كَتَبْتُ إِلَيْهِمْ سَوْدَاءَ فِي بَيْضَاءَ حَتَّى جَلَسْتُ مَجْلِسِي هَذَا". وعلّق الأعمشُ (ت: ١٤٨هـ/٧٦٥م) على ذلك بقوله: "فَكَانُوا يَرَوْنَ أَنَّهُ كُتِبَ عَلَى لِسَانِهَا"[٣].

كما زوّر المفتونون الكتب على لسان عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه؛ وذلك أنّه لمّا قدم وفد مصر إلى المدينة لخلع أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه طالبوه بالقيام معهم، واتّهموه بالكتابة إليهم في الخروج على عثمان رضي الله عنه، فأقسم لهم بالله: "مَا كَتَبْت إِلَيْكُمْ كِتَابًا قَطُّ"[٤].

ولما بلغت أخبار مصر مسامع الخليفة أرسل سعد بن أبي وقّاص رضي الله عنه إلى أهلها ليصلح أمرهم، فلمّا علم به ابن أبي حذيفة خطب في أتباعه: "ألا إنّ الكذّاب ... قد بعث إليكم سعد بن مالك ليُقِلّ جماعتكم، ويشتّت كلمتكم، ويوقع التّخاذل فيكم، فانفروا

---

(١) يعدّدون المطاعن على عثمان. ابن حجر: الإصابة، جـ٦، ص١٠.

(٢) الولاة والقضاة، ص١٤، ١٥.

(٣) ابن أبي شيبة: المصنّف، جـ٦، ص٣٦٣، ح٣٢٠٥١؛ خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٧٦. وإسناده صحيح إلى عائشة رضي الله عنها. ابن كثير: البداية والنّهاية، جـ٧، ص٢١٨. وفي رواية أنّ الأشتر قال لعائشة: "كَتَبْتُنَّ إِلَيْنَا تَأْمُرْنَنَا، حَتَّى إِذَا قَامَتِ الْحَرْبُ عَلَى سَاقٍ أَنْشَأْتُنَّ تَنْهَيْنَنَا". الخلّال: السُّنّة، جـ٢، ص٣٤٠.

(٤) ابن أبي شيبة: المصنّف، جـ٧، ص٥٢٠، ح٣٧٦٩٠؛ أحمد بن حنبل: فضائل الصّحابة، جـ١، ص٤٧١. وإسناد الأثر صحيح، ورجاله ثقات. ابن حجر: المطالب العالية، جـ١٨، ص٤٧.



إليه"، وخرج بنحو مائة منهم فلَقُوه قائلاً بمرحلة بني سعد، فقلبوا عليه فُسطاطه، وشجّوه، وسبّوه، فركب راحلته ودعا عليهم، وعاد من حيث جاء(١).

خامساً: مسير المفتونين إلى المدينة وأسباب نقمتهم:

رأى أهل الفتنة أنّ الفرصة قد واتتهم بعد تسلّطهم على مصر، فكاتبوا إخوانهم في الكوفة والبصرة، وواعدوهم بالمسير إلى الخليفة في هيئة الحجّاج لئلّا يعترضهم النّاس، وخرجوا في شوّال سنة ٣٥هـ/٦٥٥م، على أن يجتمعوا في ضواحي المدينة، فتحرّك خوارج مصر(٢) برئاسة عبد الرّحمن بن عُديس البلويّ، وخرج الكوفيّون برئاسة الأشتر مالك بن الحارث النّخعيّ، كما سار إليهم خوارج البصرة برئاسة حكيم بن جبلة العبديّ(٣).

ويتبيّن من الرّوايات الصّحيحة أنّ خوارج مصر سبقوا العراقيّين، وبلغ عثمانَ خبرُهم، فخرج لاستقبالهم في قرية من ضواحي المدينة، وكره أن يدخلوها، فلمّا سمعوا به، أقبلوا إليه(٤)، وذكروا له أمورًا نقموا عليه بسببها(٥)، ومنها:

---

(١) الكندي: الولاة والقضاة، ص١٦.

(٢) يقدّر سيف التّميميّ عدد الخوارج المصريّين بين السّتمائة والألف، ويجعل الكوفيّين في مثل عددهم، وكذلك البصريّين، بينما المصادر الأخرى تجعل الكوفيّين مائتين، والبصريّين نحوهم.

(٣) ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٣، ص٧٧. من طريق الواقدي. وخليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٦٨. عن المدائني.

(٤) يحدّد المدائني تاريخ قدومهم بيوم الأربعاء هلال ذي القعدة. خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٦٨.

(٥) روى هذا الأثر جماعة من المحدّثين عن أبي سعيد مولى أبي أسيد الأنصاري. ابن أبي شيبة: المصنّف، ج٧، ص٥٢٠، ح٣٧٦٩٠؛ إسحاق ابن راهويه: المسند، ج٢، ص٣٣٢، ٣٣٣، ح٨٥٩؛ أحمد بن حنبل: فضائل الصّحابة، ج١، ص٥٧٤، ح٧٦٥؛ البزّار: البحر الزّخّار، ج٢، ص٤٢؛ ابن حبّان: الصّحيح، ج١٥، ص٣٥٧- ٣٦١، ح٦٩١٩. وصحّحه الحاكم على شرط مسلم، وأقرّه الذّهبيّ. المستدرك، ج٢، ص٣٦٩، ح٣٣٠٠. وقال الهيثميّ: "رواه البزّار، ورجاله رجال الصّحيح غير أبي سعيدٍ مولى أبي أُسَيْدٍ وهو ثقة". مجمع الزّوائد، ج٧، ص٢٢٩، ح١٢٠٠٠. وأورده ابن حجر من طريق إسحاق بن راهويه وقال: "رواته ثقات، سمع بعضهم من بعض". المطالب العالية، ج١٨، ص٤٧. وعلّق على رواية البزار فقال: "هذا إسناد صحيح، لأنّ أبا سعيد ثقة، والباقون من رجال الصّحيح". ابن حجر: زوائد مسند البزّار، تحقيق/ صبري عبد الخالق، مؤسّسة الكتب الثّقافيّة، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٩٩٢م، ج٢، ص١٦٩. وسنحيل على هذه الرّواية دون إعادة ذكر مصادرها.

(١) حميه الحمى:

حيث طلبوا من عثمان ﷺ أن يدعو بالمصحف، وأمروه أن يفتح سورة يونس، وكانوا يسمّونها السّابعة، فقرأ حتّى أتى قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ۝٥٩﴾[١]، فاستوقفوه، وقالوا: أرأيت مَا حميتَ من حمى الله تعالى، آللَّهُ أذن لك أم على الله تفتري؟ فبيّن لهم سبب نزولها، وكشف لهم حقيقة الحمى، فأخبرهم أنّ عمر بن الخطّاب ﷺ حمى الحمى قبله لإبل الصّدقة، فلمّا وُلّي هو وزادت إبل الصّدقة، زاد في الحمى، لما زاد في الصّدقة[٢].

(٢) جمعه للقرآن:

زعموا أنّهم ينقمون على عثمان ﷺ جعله الحروف حرفًا واحدًا، فأخبرهم بما كان من اختلاف النّاس في القراءات، وأمرِ حذيفة بن اليمان ﷺ[٣].

وقد ثبت أنّ بعض النّاس عابوا على عثمان ﷺ جمعه للقرآن في حضرة عليّ بن أبي طالب ﷺ، فردّ عنه، وقام يقول: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ، لَا تَغْلوا فِي عُثْمَانَ، وَلَا تَقُولُوا لَهُ إِلّا خَيْرًا فِي المَصَاحِفِ وَإِحْرَاقِ المَصَاحِفِ، فَوَاللَّهِ مَا فَعَلَ الّذي فَعَلَ فِي المَصَاحِفِ إِلّا عَنْ مَلأٍ مِنَّا جَمِيعًا"، وأقسم عليٌّ فقال: "وَاللَّهِ لَوْ وَلَيْتُهُ لَفَعَلْتُ مِثْلَ الّذي فَعَلَ"[٤].

(٣) ضربه عمّار بن ياسر:

قالوا لعثمان ﷺ: "نَنْقِمُ عَلَيْكَ ضَرْبَكَ عَمَّارًا"، فأجابهم بأنّ سعد بن أبي وقّاص وعمّار بن ياسر ﷺ أتياه وهو مشتغلٌ وغير مستعدّ لخصومتهم، فأمرهما بالانصراف، ووعدهما يومًا آخر، فانصرف سعدٌ، وأبى عمّارٌ، فتناولهُ رسولٌ له من غير أمره، وأقسم لهم أنّه ما أمر ولا رضي، وقدّم يده عارضًا اقتصاص عمّار ﷺ منها[٥].

---

(١) سورة يونس: الآية ٥٩.

(٢) من رواية أبي سعيد - مولى أبي أسيد الأنصاريّ - السّابق ذكرها.

(٣) ابن أبي شيبة: المصنّف، جـ٧، ص٥٢٢. بإسناد ضعيف.

(٤) ابن أبي داود: المصاحف، ص٩٧. وإسناده صحيح. ابن حجر: فتح الباري، جـ٩، ص١٨.

(٥) ابن أبي شيبة: المصنّف، جـ٧، ص٥٢١، ٥٢٢. والأثر ضعيف الإسناد، وما يُروى بعده في ضرب عثمان عمّارًا فلا إسناد له، ولا يصحّ. محمّد عبد الله غبّان: فتنة مقتل عثمان، جـ١، ص١٠٩- ١١٢.

(٤) استعماله أقاربه:

ذكروا لعثمان ﷺ نقمتهم عليه لاستعماله السّفهاء من أقاربه[١]، فطالب أهلَ كلّ مصرٍ بتسمية صاحبهم الّذي يحبّونه ليستعمله عليهم، ويعزل عنهم الّذي يكرهون[٢].

ويتقوّى السّببان الثّالثُ والرّابعُ بما ثبت عن عائشة ﵂ أنّها قالت للقتلة عندما نزلت البصرة للطّلب بدم عثمان ﷺ: "غضبنا لكم على عثمان في ثلاث: إمارة الفتي، وموقع الغمامة، وضربة السّوط والعصا، فما أنصفنا إن لم نغضب له عليكم في ثلاث جررتموها إليه: حرمة الشّهر، والبلد، والدّم"[٣].

وجعل الخارجون على الخلافة يأخذون عثمان ﷺ بالآية من كتاب الله ﷻ فيذكر لهم سبب نزولها، ويبيّن لهم حقيقة الأفعال الّتي يتّهمونه فيها زورًا وبهتانًا بمخالفته لنهج رسول الله ﷺ وصاحبيه، إلّا أنّهم "أَخَذُوهُ بِأَشْيَاءَ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُ مِنْهَا مَخْرَجٌ، فَعَرَفَهَا"، واستغفر الله، وأعلن توبته منها[٤]. ويؤكّد استتابتهم له أنّ عائشة ﵂ قالت بعد استشهاده: "استتابوه حتّى تركوه كالثّوب الرّحيض[٥]، ثمّ قتلوه"[٦].

وبلغ من مرونة عثمان ﷺ مع النّاقمين أنّه قال لهم: "هَاتَانِ رِجْلَايَ، فَإِنْ كَانَ فِي كِتَابِ اللَّهِ أَنْ تَجْعَلُوهُمَا فِي الْقُيُودِ فَاجْعَلُوهُمَا فِي الْقُيُودِ"[٧].

---

(١) ذكر الحافظ ابن حجر أنّ معظم ما أنكروه على عثمان ﷺ توليةُ أقاربه من بني أميّة وغيرهم. فتح الباري، ج١٣، ص١٠٧.

(٢) ابن أبي شيبة: المصنّف، ج٧، ص٥٢٢؛ البخاري: التّاريخ الأوسط، ج١، ص٨٤. وإسناد الأثر ضعيف. محمّد عبد الله عبد القادر غبّان: فتنة مقتل عثمان، ج١، ص١٥٦.

(٣) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص٣٠. وإسناده حسن. أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الرّاشدة، ص٤٥٠.

(٤) من رواية أبي سعيد -مولى أبي أسيد- الّتي سبق ذكرها. وينظر ابن تيمية: منهاج السُّنّة، ج٦، ص٢٠٨.

(٥) الرّحيض: المغسول. ابن الأثير: النّهاية في غريب الحديث والأثر، ج٢، ص٢٠٨.

(٦) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٧٥. بإسناد حسن لغيره. محمّد عبد الله غبّان: فتنة مقتل عثمان، ج١، ص٤٦٨.

(٧) ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٣، ص٦٩، ٧٠؛ ابن أبي شيبة: المصنّف، ج٧، ص٥٢٣؛ أحمد بن حنبل: المسند، ج١، ص٥٤٤، ح٥٢٤؛ فضائل الصّحابة، ج١، ص٦٠٢، ح٧٩٧، ٧٩٨. وصحّح المحقّقون إسناده.

وعمل الخليفة الرّاشد عثمان ﷺ على اجتثاث أسباب نقمتهم ومعالجتها من أساسها، فسأل المصريّين عمّا يريدون؟ فقالوا: "نريد أن لا يأخذ أهلُ المدينة عطاءً، فإنّما هذا المالُ لمن قاتل عليه، ولهذه الشّيوخ من أصحاب محمّد ﷺ"، فأعطاهم عثمان ﷺ ذلك، فأخذوا ميثاقه، وأخذ عليهم أن لا يشُقُّوا عصًا، ولا يفارقوا جماعةً ما قام لهم بشرطهم، فرضوا، وأقبلوا معه إلى المدينة راضين، وقام عثمان ﷺ فخطب قائلاً: "إنّي والله ما رأيت وفدًا في الأرض هو خيرٌ من هذا الوفد الّذي من أهل مصر، ألا من كان له زرعٌ فليلحق بزرعه، ومن كان له ضرعٌ فليحتلب، ألا إنّه لا مال لكم عندنا، فغضب النّاس، وقالوا: هذا مكرُ بني أميّة، ورجع الوفد المصريّون راضين"[١].

ولمّا جاء الكوفيّون والبصريّون وعسكروا بذي المروة[٢]، خارج المدينة استشار عثمانُ عبدَ الله بن عمر ﷺ في أمرهم فأشار عليه أن يعرض عليهم كتاب الله، فأرسل إليهم عليًّا ﷺ فالتقى بهم، وعرض عليهم الصّلح على كتاب الله، فشادّوه، وشادّهم، مرّتين أو ثلاثًا، ثمّ أجابوه، وكتبوا كتابًا اشترطوا فيه خمسًا: "أنّ المنفيَّ يُقلب، وأنّ المحروم يُعطى، وأنّ الفيء يوفّر، وأن يُعدل في القسم، وأن يُستعمل أولو القوّة والأمانة"، كما اشترطوا أن يُردّ ابنُ عامر على البصرة، وأبو موسى الأشعريّ على الكوفة، ثمّ انصرفوا راجعين[٣].

وكتب أمير المؤمنين عثمان ﷺ كتابًا إلى أهل العراق، يقول فيه: "إنّ جيش ذي المروة نزلوا بنا فكان ممّا صالحناهم عليه: أن يؤدّى إلى كلّ ذي حقٍّ حقّه، فمن كان له قِبَلنا حقٌّ فليركب إليه، فإن أبطأ أو تثاقل فليتصدّق فإنّ الله يجزي المتصدّقين"[٤].

---

(١) من رواية أبي سعيد - مولى أبي أسيد الأنصاريّ - الّتي سبق ذكرها.

(٢) ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج٣٩، ص٤٧٨. والأثر حسن الإسناد. محمّد عبد الله عبد القادر غبّان: فتنة مقتل عثمان، ج١، ص١٥٧.

(٣) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٦٩، ١٧٠؛ ابن شبّة: تاريخ المدينة، ج٢، ص٢٠٣؛ البلاذري: أنساب الأشراف، ج٥، ص٥٨٦؛ ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج٣٩، ص٣٢٤. وهذا أثر موقوف، وهو صحيح الإسناد إلى محمّد بن سيرين، وهو ثقة مأمون، لكنّه لم يدرك الفتنة. محمّد عبد الله غبّان: فتنة مقتل عثمان، ج١، ص١٥٥.

(٤) ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج٣٩، ص٤٧٨. والأثر حسن الإسناد. محمّد عبد الله غبّان: فتنة مقتل عثمان، ج١، ص١٥٧.

وبعد الصّلح وعودة أهل الأمصار تبيّن لمثيري الفتنة أن خطّتهم قد فشلت، وأهدافهم الدّنيئة لم تتحقّق، لذلك خطّطوا تخطيطًا آخر، يحيي الفتنة، ويدمّر الصّلح الّذي جرى بين أهل الأمصار والخليفة(١)، وبينما المصريّون في الطّريقِ عائدين إذا هم براكبٍ يتعرّضُ لهم ويفارقُهم، ثمّ يرجعُ إليهم، ثمّ يفارقهم ويسُبُّهم، فسألوه عن شأنه فأخبرهم أنّه رسول الخليفة إلى عامله بمصر، ففتّشوه، فإذا هم بالكتاب معه على لسان عثمان ﷺ، عليه خاتَمُه إلى عامله بمصر أن يقتلهم أو يصلّبهم أو يقطّع أيديَهم وأرجلهم من خلافٍ، فأقبلوا حتّى قدموا المدينة، فأتوا عليًّا ﷺ فأطلعوه على الكتاب، وأعلنوا حلّ دم الخليفة، وطالبوا عليًّا بالقيام معهم، فأقسم بالله ألّا يقوم معهم إليه، فقالوا: "فَلِمَ كَتَبْتَ إِلَيْنَا"؟ فحلف لهم بالله: "مَا كتبتُ إِلَيْكُمْ كِتَابًا قَطُّ"، فنظر بعضُهم إلى بعضٍ، فقالوا: "لِهَذَا تُقَاتِلُونَ! أَمْ لِهَذَا تَغْضَبُونَ"! فانطلق عليٌّ ﷺ فخرج من المدينة إلى قرية(٢).

والنّاظر في الصّورة الّتي بدا عليها الرّسول المفتون، من تعرّضه لهم، وسبّه لهم، وسلوكه في طريقهم، يستدلّ على تزوير الكتاب الّذي حمله إليهم، وأنّه لا دخل لأمير المؤمنين عثمان ﷺ بأمره.

ولمّا قفل الخوارج إلى أمير المؤمنين عثمان ﷺ أُخبر حذيفةُ بن اليمان ﷺ بمسيرهم إليه، فأقسم بالله أنّهم يقتلونه، وأنّه في الجنّة، وهم في النّار(٣)، وصرّح بأنّه سمع النّبيّ ﷺ يقول: "مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ وَاسْتَذَلَّ الْإِمَارَةَ لَقِيَ اللهَ وَلَا وَجْهَ لَهُ عِنْدَهُ"(٤).

وانطلق المفتونون حتّى دخلوا على عثمان ﷺ فأطلعوه على الكتاب وقالوا: "إِنَّ الله قد أحلّ دمك"، فقال لهم: "إنّهما اثنتان: أن تقيموا عليّ رجلين من المسلمين، أو يميني بالله الّذي لا إله إلّا هو، ما كتبتُ، ولا أمليتُ ولا علمتُ، وقد تعلمون أنّ الكتاب يكتب على

(١) محمّد عبد الله عبد القادر غبّان: فتنة مقتل عثمان، ج١، ص١٥٧.

(٢) من رواية أبي سعيد - مولى أبي أسيد الأنصاريّ - الّتي سبق ذكرها.

(٣) ابن أبي شيبة: المصنّف، ج٧، ص٥١٦؛ الفسوي: المعرفة والتّاريخ، ج٢، ص٧٦٢. وصحّح الفسويّ الأثر. المعرفة والتّاريخ ج٢، ص٧٦٨.

(٤) أحمد بن حنبل: المسند، ج٣٨، ص٣٢٠، ح٢٣٢٨٣. وصحّحه الحاكم على شرط الشّيخين. المستدرك، ج١، ص٢٠٦، ح٤١٠. وقال الهيثميّ: "رواه أحمد، ورجاله ثقات". مجمع الزّوائد، ج٥، ص٢٢٢، ح٩١٢٨.

كتاب الرّجل، وقد يُنقش الخاتمُ على الخاتم"، ولكنّهم لم يرضوا بقوله، وقالوا: "فواللَّهِ، لقد أحلّ الله دمك بنقض العهد والميثاق"[1].

ولم يقبل الخوارج المفتونون حكم الله في عثمان ﷺ مع أنّه جعل نفسه متّهمًا ونصّبهم للقيام بإدارة مهمّة القضاء، وذلك لأنّ رؤوسهم لا يريدون تفويت الفرصة في إشعال الفتنة، وسنراهم يحبطون أيّ محاولة يمكن أن تؤدّي إلى الصّلح مع الخليفة.

وكان الصّحابة ﷺ قد أعجبهم ما أظهره المفتونون من صور العبادة عند نزولهم المدينة، فغشّهم أمرُهم، وتهاونوا في التّعامل معهم[2]، حتّى قالت عائشة ﵂: "يَا لَيْتَنِي كُنْتُ نَسْيًا مَنْسِيًّا، فَأَمَّا الَّذِي كَانَ مِنْ شَأْنِ عُثْمَانَ فَوَاللَّهِ مَا أَحْبَبْتُ أَنْ يُنْتَهَكَ مِنْ عُثْمَانَ أَمْرٌ قَطُّ إِلَّا انْتُهِكَ مِنِّي مِثْلُهُ، حَتَّى لَوْ أَحْبَبْتُ قَتْلَهُ قُتِلْتُ، يَا عُبَيْدَ اللَّهِ بْنَ عَدِيٍّ[3]، لَا يَغُرَّنَّكَ أَحَدٌ بَعْدَ الَّذِي تَعْلَمُ، فَوَاللَّهِ مَا احْتَقَرْتُ أَعْمَالَ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى نَجَمَ النَّفَرُ الَّذِينَ طَعَنُوا فِي عُثْمَانَ فَقَالُوا قَوْلًا لَا يَحْسُنُ مِثْلُهُ، وَقَرَءُوا قِرَاءَةً لَا يَحْسُنُ مِثْلُهَا، وَصَلَّوْا صَلَاةً لَا يُصَلَّى مِثْلُهَا، فَلَمَّا تَدَبَّرْتُ الصَّنِيعَ إِذَنْ وَاللَّهِ مَا تَقَارَبُوا أَعْمَالَ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَإِذَا أَعْجَبَكَ حُسْنُ قَوْلِ امْرِئٍ فَقُلِ: ﴿ٱعْمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ﴾[4]، وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ أَحَدٌ"[5].

ولهذا فكلّ ما أشيع حول مواقف الصّحابة ﷺ من مواطأتهم لأهل الفتنة، وخاصّة طلحة بن عبيد الله ﷺ[6] إنّما هو لسكوتهم عن مواجهتهم في البداية لما أظهروه من صنوف الزّهد والعبادة.

---

(١) من رواية أبي سعيد - مولى أبي أسيد الأنصاريّ - الّتي سبق ذكرها.

(٢) أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الرّاشدة، ص٤٣٩.

(٣) هو عبيد الله بن عديّ بن الخيار النّوفليّ القرشيّ.

(٤) سورة التّوبة: من الآية ١٠٥.

(٥) أحمد بن حنبل: فضائل الصّحابة، جـ١، ص٥٦٥، ح٧٥٠. وصحّح المحقّق وصيّ الله إسناده. وقد أخرجه البخاريّ في خلق أفعال العباد والرّدّ على الجهميّة وأصحاب التّعطيل، تحقيق/ فهد سليمان الفهيد، دار أطلس الخضراء، الطّبعة الأولى، ٢٠٠٥هـ، جـ٢، ص١٠٢؛ وأبو داود في الزّهد، ص٢٧٩.

(٦) أحمد بن حنبل: المسند، جـ١، ص٥٥٦، ح٥٥٢. وضعّف المحقّقون إسناده.



سادساً: حصار عثمان ﷺ:

لمّا رجع أهل الفتنة إلى أمير المؤمنين عثمان ﷺ استدعى الأشتر النّخعيّ، وسأله عمّا يريد النّاس منه؟ فأخبره أنّهم يريدون واحدة من ثلاث: إمّا أن يدع لهم الخلافة ليختاروا من شاءوا، أو يُقِصّ من نفسه، وإلّا فإنّ القوم قاتِلوه، فأجاب عثمان ﷺ بقوله: "أَمَّا أَنْ أَخْلَعَ لَهُمْ أَمْرَهُمْ فَمَا كُنْتُ لِأَخْلَعَ سِرْبَالاً سُرْبِلْتُهُ، وَأَمَّا أَنْ أُقِصَّ مِنْ نَفْسِي، فَوَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّ صَاحِبَيَّ كَانَا يُعَاقِبَانِ، وَمَا يَقُومُ بَدَنِي لِلْقِصَاصِ، وَأَمَّا أَنْ يَقْتُلُونِي، فَوَاللَّهِ لَئِنْ قَتَلْتُمُونِي لَا تَحَابَوْنَ بَعْدِي أَبَدًا، وَلَا تُقَاتِلُونَ بَعْدِي عَدُوًّا جَمِيعًا أَبَدًا"(١).

ولمّا علم المفتونون بجواب الخليفة أسرعوا إلى داره(٢)، "فحاصروه"(٣)، وامتلأت السّاحة الّتي تقع بين الدّار والمسجد النّبويّ بالنّاس(٤)، "فَلَوْ أَنَّ حَصَاةً أَلْقَيْتَهَا مَا سَقَطَتَ إِلَّا عَلَى رَأْسِ رَجُلٍ"(٥)، وظلّ عثمان ﷺ يصلّي بالنّاس ويخطب حتّى قال في خطبته: "إِنَّا وَاللَّهِ قَدْ صَحِبْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِي السَّفَرِ وَالْحَضَرِ، وَكَانَ يَعُودُ مَرْضَانَا، وَيَتْبَعُ جَنَائِزَنَا، وَيَغْزُو مَعَنَا، وَيُوَاسِينَا بِالْقَلِيلِ وَالْكَثِيرِ، وَإِنَّ نَاسًا يُعْلِمُونِي بِهِ عَسَى أَنْ لَا يَكُونَ أَحَدُهُمْ رَآهُ قَطُّ"(٦)،

---

(١) ابن أبي شيبة: المصنّف، ج٧، ص٤٤١، ح٣٧٠٧٩؛ الطّبراني: المعجم الكبير، ج١، ص٨٢، ح١١٦؛ ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٣، ص٧٢، ٧٣؛ خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٧٠. وعلّق عليه الهيثميّ بقوله: "رواه الطّبرانيّ، ورجاله رجال الصّحيح غير وثّابٍ، وقد ذكره ابن أبي حاتمٍ ولم يجرّحه أحدٌ". مجمع الزّوائد، ج٧، ص٢٣١، ٢٣٢، ح١٢٠٠٦. وإسناده صحيح إلى وثّاب، ولبعضه شاهد صحيح. محمّد عبد الله غبّان، فتنة مقتل عثمان، ج١، ص٥١٥.

(٢) دار عثمان: هي داره الكبرى الّتي كان يسكنها في المدينة، وتسمّى أحيانًا بالقصر، وتقع شرق المسجد النّبويّ مقابل باب عثمان، وشرقها داره الصّغرى الّتي تليها دار عمرو بن حزم، ويقابل داره الصّغرى دارٌ لأبي بكر الصّدّيق. محمّد عبد الله غبّان: فتنة مقتل عثمان، ج١، ص١٦٦.

(٣) من رواية أبي سعيد مولى أبي أسيد الأنصاريّ. وتتراوح الأقوال في مدّة الحصار بين اثنين وعشرين إلى تسعة وأربعين يومًا. الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٦٦٨.

(٤) أحمد بن حنبل: المسند، ج١، ص٤٩١، ح٤٣٧. وصحّح المحقّقون إسناده.

(٥) أورده البوصيري من طريق أبي يعلى بسند ضعيف. إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة، ج٨، ص١٣، ح٧٣٨٢.

(٦) أحمد بن حنبل: المسند، ج١، ص٥٣٢، ح٥٠٤. وحسّن المحقّقون إسناده.

فقال له أَعْيَنُ التّميميّ ابن امرأة الفرزدق: "يَا نَعْثَلُ[1]، إِنَّكَ قَدْ بَدَّلْتَ"، فلمّا عرفه عثمان ﷺ قال: "بَلْ أَنْتَ أَيُّهَا الْعَبْدُ، فَوَثَبَ النَّاسُ إِلَى أَعْيَنَ، وَجَعَلَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي لَيْثٍ يَزَعُهُمْ عَنْهُ حَتَّى أَدْخَلَهُ دَارَهُ"[2].

وشدّد الخوارج الحصار على عثمان ﷺ، وامتنعوا عن كلامه حتّى أشرف عليهم ذات يومٍ وهو محصورٌ، فقال: "السّلام عليكم"، فحلف أبو سعيدٍ - راوي الخبر - بالله أنّه ما سمع أحدًا من النّاس ردّ عليه السّلام، إلّا أن يردّ الرّجل في نفسه، فناشدهم عثمان بالله الّذي لا إله إلّا هو، وذكر شيئًا في شأنه، وذكر كتابته المفصّل[3].

وقد طلع عليهم أمير المؤمنين عثمان ﷺ يومًا فقال لهم: "أنشدكم بالله والإسلام هل تعلمون أنّ رسول الله ﷺ قدم المدينة وليس بها ماءٌ يُستعذبُ غيرَ بئر رُومة فقال: "مَنْ يَشْتَرِي بِئْرَ رُومَةَ فَيَجْعَلَ دَلْوَهُ مَعَ دِلَاءِ الْمُسْلِمِينَ بِخَيْرٍ لَهُ مِنْهَا فِي الْجَنَّةِ"؟ فاشتريتُها من صُلْب مالي، فأنتم اليوم تمنعوني أن أشربَ منها حتّى أشربَ من ماء البحر. فقالوا: اللّهمّ نعم. قال: أنشدكم بالله والإسلام هل تعلمون أنّ المسجد ضاق بأهله، فقال رسول الله ﷺ: "مَنْ يَشْتَرِي بُقْعَةَ آلِ فُلَانٍ فَيَزِيدَهَا فِي الْمَسْجِدِ بِخَيْرٍ لَهُ مِنْهَا فِي الْجَنَّةِ"؟ فاشتريتُها من صلب مالي فأنتم اليوم تمنعوني أن أصلّيَ فيها ركعتين؟ قالوا: اللّهمّ نعم. قال: أنشدكم بالله والإسلام، هل تعلمون أنّي جهّزت جيش العسرة من مالي؟ قالوا: اللّهمّ نعم. قال: أنشدكم بالله والإسلام هل تعلمون أنّ رسول الله ﷺ كان على ثَبِيرِ مكّة ومعه أبو بكرٍ وعمرُ وأنا فتحرّك الجبل حتّى تساقطتْ حجارتُه بالحضيض فركضه برجله وقال: "اسْكُنْ ثَبِيرُ، فَإِنَّمَا

(١) النّعثل: الشّيخ الأحمق، وأمّا "نعثل" الّذي يقصده أهل الفتنة فهو رجلٌ من أهل مصر طويل اللّحية، كانوا يشبّهون به عثمان ﷺ، ولم يكن لعثمان عيبٌ يذكرونه به. ابن منظور: لسان العرب، ج١١، ص٦٦٩، ٦٧٠.

(٢) رواه أبو يعلى في مسنده الكبير. الهيثمي: المقصد العليّ إلى زوائد أبي يعلى الموصليّ، تحقيق/ سيّد كسروي، دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٩٩٣م، ج٤، ص٣٨٥، ح١٧٧٧؛ المقدسي: الأحاديث المختارة، ج١، ص٤٨١، ح٣٥٧. وقال الدّكتور عبد الملك دهيش: "إسناده لا بأس به". وعلّق عليه الهيثميّ فقال: "رواه أحمد وأبو يعلى في الكبير، ورجالهما رجال الصّحيح، غير عبّاد بن زاهر، وهو ثقة". مجمع الزّوائد، ج٧، ص٢٢٨، ح١١٩٩٩.

(٣) من رواية أبي سعيد - مولى أبي أسيد الأنصاريّ - الّتي سبق ذكرها.

عَلَيْكَ نَبِيٌّ وَصِدِّيقٌ وَشَهِيدَانِ"؟ قالوا: اللّهمّ، نعم. قال: الله أكبر، شهدوا لي وربّ الكعبة أنّي شهيدٌ، ثلاثًا[(١)].

ولمّا سمع النّاس مآثر عثمان ﷺ قالوا: "مهلاً عن أمير المؤمنين، ففشا النّهي، وقام الأشتر النّخعيّ فقال: فلعلّه قد مُكِر به وبكم، فوطِئَه النّاس حتّى لقي كذا وكذا"[(٢)]، يعني من الشّدّة والأذى.

ويتبيّن من هذه الحادثة أنّ الأشتر مالك بن الحارث النّخعيّ كان من المفتونين المدفوعين على الرّغم من رئاسته فيهم، وقد أثّر ما حدث له على غيره من عامّة القوم، حتّى إنّ أبا سعيد - راوي الخبر- ليقول: "ثمّ إنّه ﷺ أشرف عليهم مرّةً أخرى، فوعظهُم وذكّرهم، فلم تأخذ فيهم الموعظة، وكان النّاسُ تأخذُ فيهم الموعظة أوّل ما يسمعون بها، فإذا أعيدت عليهم لم تأخذ فيهم"[(٣)].

ولمّا أيقن عثمان ﷺ بعزم أهل الفتنة على قتله اطّلع إلى النّاس فقال: "أيّها النّاس لا تقتلوني واستعتبوا، فواللّٰه لئن قتلتموني لا تصلّون جميعًا أبدًا، ولا تجاهدون عدوًّا أبدًا، ولتختلفُنّ حتّى تصيروا هكذا، وشبّك بين أصابعه"[(٤)].

وكان أمير المؤمنين عثمان ﷺ حريصًا على إقامة المسلمين لصلاتهم في المسجد النّبويّ وهو محصور، ولمّا دخل عليه عبيد الله بن عديّ بن الخِيار وقال له: "إِنَّكَ إِمَامُ

---

(١) التّرمذي: السّنن، (كتاب المناقب)، ج٥، ص٦٢٧، ٦٢٨، ح٣٧٠٣. وقال التّرمذيّ: "حديث حسن، وقد روي من غير وجه عن عثمان". واجتباه النّسائيّ في السّنن الصّغرى، (كتاب الأحباس، باب وقف المساجد)، ج٦، ص٢٣٥، ح٣٦٠٨. وحسّنه الألباني. إرواء الغليل في تخريج أحاديث منار السّبيل، ج٦، ص٣٨- ٤٠.

(٢) من رواية أبي سعيد - مولى أبي أسيد الأنصاريّ - الّتي سبق ذكرها.

(٣) من الرّواية السّابقة.

(٤) ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٣، ص٧١؛ ابن أبي شيبة: المصنّف في الأحاديث والآثار، ج٧، ص٥١٥، ح٣٧٦٥٨؛ ابن شبّة: تاريخ المدينة، ج٢، ص٢٣٢. وأورده الحافظ ابن حجر من طريق أحمد بن منيع بسند صحيح، رواته ثقات. المطالب العالية بزوائد المسانيد الثّمانية، ج١٨، ص٦٦. وقال البوصيري: "رواه أحمد بن منيع موقوفًا، ورواته ثقات". إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة، ج٧، ص١٧٨، ح٦٦١٣.

عَامَّةٍ، وَنَزَلَ بِكَ مَا نَرَى، وَيُصَلِّي لَنَا إِمَامُ فِتْنَةٍ[١]، وَنَتَحَرَّجُ؟ قال: "الصَّلَاةُ أَحْسَنُ مَا يَعْمَلُ النَّاسُ، فَإِذَا أَحْسَنَ النَّاسُ، فَأَحْسِنْ مَعَهُمْ، وَإِذَا أَسَاءُوا فَاجْتَنِبْ إِسَاءَتَهُمْ"[٢].

ولمّا دخل وقت الحجّ أشرف أمير المؤمنين عثمان بن عفّان ﷺ على النّاس فاستدعى عبد الله بن عبّاس ﵄ فأمره أن يحُجّ بالنّاس[٣].

وعندما اشتدّ الحصار على عثمان ﷺ وحالَ المفتونون بينه وبين النّاس، ومنعوه كلّ شيء حتّى الماء صاح فيهم عمّار بن ياسر ﷺ فقال: "سبحان الله! قد اشترى بئر رومة وتمنعوه ماءها! خلّوا سبيل الماء"[٤].

وأرسل عثمان ﷺ في السّرّ إلى أزواج النّبيّ ﷺ وإلى عليّ بن أبي طالب ﷺ يطلب منهم الإغاثة بالماء، فركبت صفيّة بنت حُيَيٍّ ﵄ بغلةً لها، وسارت مع غلمانها إلى باب الدّار، فإذا الأشتر وناسٌ معه حول الدّار، فأمرها بالرّجوع إلى بيتها، فلمّا أبت رفع قناةً معه، أو رمحًا، فضرب عجز البغلة، فوثبت البغلة، ومال الهودج، حتّى كاد أن يقع، فلمّا رأت ذلك أمرت غلمانها بردّها[٥].

ولمّا بلغ الجهد مداه بأمير المؤمنين عثمان ﷺ بعث النّاس إلى أمّ المؤمنين أمّ حبيبة بنت أبي سفيان ﵄ فجاءت على بغلة بيضاء وهي مستورة، فلمّا دنت من الباب وعلموا بها أقسموا على عدم دخولها وردّوها[٦]، ويقال إنّ السّيّدة أمّ حبيبة تعلّلت للخوارج بأنّ وصايا بني أمية عند أمير المؤمنين عثمان ﷺ، وأنّها تخاف على هلاك أموال الأيتام

---

(١) هو عبد الرّحمن بن عديس البلويّ، أو كنانة بن بشر التُّجيبيّ. ابن حجر. فتح الباري، ج٢، ١٨٩.

(٢) البخاري: الصّحيح، (كتاب الجماعة والإمامة، باب إمامة المفتون والمبتدع)، ج١، ص٢٤٦، ح٦٦٣.

(٣) رواه الفسويّ بإسناده عن الزّهريّ. المعرفة والتّاريخ، ج٣، ص٣١١؛ ابن حجر: الإصابة، ج٤، ص١٢٩.

(٤) المحبّ الطّبريّ الرّياض النّضرة في مناقب العشرة، ج٣، ص٩٨. وذكر المحبّ أنّ الأثر رواه أبو الزّناد عن أبي هريرة ﷺ، ولكنّه لم يسق إسناده، ولم يحكم عليه، وقد نقبت عنه فلم أجده إلّا عند الدّيار بكري، حيث أورده عن المحبّ الطّبريّ أيضًا. تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس، ج٢، ص٢٧٢.

(٥) إسحاق بن راهويه: المسند، ج٤، ص٢٦١، ح٢٠٨٨. ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٨، ص١٢٨؛ ابن شبّة: تاريخ المدينة، ج٢، ص٣٠٤. وحسّن ابن حجر إسناد ابن سعد. الإصابة، ج٨، ص٢١٢. وأورده ابن حجر عن إسحاق بن راهويه. المطالب العالية، ج١٨، ص٩٧، ح٤٣٩٢. وحسّن المحقّق إسناد الأثر.

(٦) أحمد بن حنبل: فضائل الصّحابة، ج١، ص٦٠٢، ٦٠٣، ح٧٩٩. وصحّح المحقّق إسناده.

والأرامل، فكذّبوها، وقطعوا حبل بغلتها فنفرت، وكادت أن تسقط عنها، فتلقّاها النّاس فأخذوها، وذهبوا بها إلى بيتها[١].

وجاء عليّ بن أبي طالب ﷺ في الغَلس فنادى المحاصِرين لأمير المؤمنين: "إِنَّ الَّذِي تَفْعَلُونَ لَا يُشْبِهُ أَمْرَ الْمُؤْمِنِينَ وَلَا أَمْرَ الْكَافِرِينَ، فَلَا تَقْطَعُوا عَنْ هَذَا الرَّجُلِ الْمَاءَ وَلَا الْمَادَّةَ، فَإِنَّ الرُّومَ وَفَارِسَ لَتَأْسِرُ فَتُطْعِمُ وَتَسْقِي"! ولكنّهم أصرّوا على منعه، ورفضوا إغاثة عثمان ﷺ، فرمى عليٌّ بعمامته في الدّار ليدلّل على أنّه قد نهض فمنع[٢].

وقد ثبت من طرق يقوّي بعضُها بعضًا أنّ عليًّا ﷺ استجاب لطلب عثمان ﷺ، وانطلق إلى الدّار، فرأى بعضُ أهله كتائبَ أهل الفتنة حول الدّار فمنعوه من دخولها خوفًا عليه من القتل، فحلّ عليّ ﷺ عمامته السّوداء الّتي كان يرتديها، ورمى بها إلى رسول عثمان، ثمّ خرج حتّى انتهى إلى أحجار الزّيت في سوق المدينة[٣].

وفي تلك الأثناء الّتي شدّد الخوارج فيها الحصار على الدّار قامت أمّ المؤمنين صفيّة بنت حيّ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا بدور كبير في إغاثة عثمان ﷺ وآل بيته، حيث "وضعتْ خشبًا بين منزلها ومنزل عثمان تنقُل عليه الماء والطّعام"[٤].

---

(١) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٦٧٢، من طريق سيف التّميميّ. وروى ابن شبّة أنّ الخوارج تركوا أمّ حبيبة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا فسقت عثمان ﷺ. تاريخ المدينة، ج٢، ص٣٠٥. لكن إسناده فيه رجل مجهول، ويخالف رواية الحسن الصّحيحة في المنع.

(٢) رواه الطّبريّ من طريق سيف التّميميّ. تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٦٧٢. وإذا كان سيف التّميميّ ضعيفًا في رواية الحديث والأخبار فإنّ لمحاولة عليّ مساعدة عثمان وإلقائه عمامته شواهد صحيحة. محمّد عبد الله غبّان: فتنة مقتل عثمان، ج٢، ص٧١٠.

(٣) ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٣، ص٦٨، ٦٩؛ ابن أبي شيبة: المصنّف في الأحاديث والآثار، ج٧، ص٥١٧، ح٣٧٦٧٥، ٣٧٦٧٦؛ أبو العرب: المِحَن، تحقيق/ عمر سليمان العقيلي، دار العلوم، الرّياض، الطّبعة الأولى، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، ص٧٧؛ ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج٣٩، ص٣٦٩، ٣٧٠. وتتقوّى رواية أبي العرب برواية ابن سعد كما تتقوّى رواية ابن سعد بأبي العرب فيصير الإسناد حسنًا لغيره. محمّد عبد الله عبد القادر غبّان: فتنة مقتل عثمان، ج١، ص٤٣٧.

(٤) ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٨، ص١٢٨؛ ابن الجعد: مسند ابن الجعد، مؤسّسة نادر، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، ص٣٩٠، ح٢٦٦٦. وحسّن ابن حجر إسناد ابن سعد. الإصابة، ج٨، ص٢١٢.

سابعًا: تمسّك عثمان بالخلافة وترك المقاتلة وموقف الصّحابة منه:

عندما شاع بين النّاس أنّ الخوارج عازمون على قتل عثمان ﷺ ما لم يترك الخلافة جاء الحبر عبد الله بن سلام الإسرائيليّ ﷺ فناشد الخوارج ألّا يقتلوا الخليفة وطالبهم أن يستعتبوه، وأقسم لهم بالله: "ما قتلتْ أمّة قطّ خليفتَها، فيصلح الله بينهم حتّى يهريقوا دم أربعين ألفًا"، فلم ينظروا فيما قال لهم(١).

وكان منعُ الماء عن عثمان ﷺ آخر محاولات الخوارج الّتي رجَوا منها تنازله عن الخلافة، فلمّا رأوْا تمسّكه بالخلافة سارعوا في التّخلّص منه قبل عودة النّاس من الحجّ، وعندئذٍ دخل المغيرة بن الأخنس(٢) على الخليفة عثمان ﷺ وأشار عليه بالتّنازل عن الخلافة؛ لأنّ أهل الفتنة لن يتركوه إلّا بذلك، "فَإِنْ خَلَعَ تَرَكُوه، وَإِنْ لَمْ يَخْلَعْ قَتَلُوه"، فاستشار الخليفة عبد الله بن عمر ﵄ في عرض المغيرة، فرفضه، وقال لعثمان ﷺ: "أَرَأَيْتَ إِنْ خَلَعْتَ تُتْرَكُ مُخَلَّدًا فِي الدُّنْيَا؟ قَالَ: لَا، قَالَ: فَهَلْ يَمْلِكُونَ الْجَنَّةَ وَالنَّارَ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ لَمْ تَخْلَعْ هَلْ يَزِيدُونَ عَلَى قَتْلِكَ؟ قَالَ: لَا، قَالَ: فَلَا أَرَى أَنْ تَسُنَّ هَذِهِ السُّنَّةَ فِي الإِسْلَامِ، كُلَّمَا سَخِطَ قَوْمٌ عَلَى أَمِيرِهِمْ خَلَعُوهُ، لَا تَخْلَعْ قَمِيصًا قَمَّصَكَهُ اللَّهُ"(٣).

وقد وافق كلامُ عبد الله بن عمر ﵄ ما علمه عثمان ﷺ من وصيّة النّبيّ ﷺ له، فقد روت عائشة ﵂ أنّ النّبيّ ﷺ قال: "يَا عُثْمَانُ، إِنَّ اللَّهَ ﷻ عَسَى أَنْ يُلْبِسَكَ قَمِيصًا، فَإِنْ أَرَادَكَ الْمُنَافِقُونَ عَلَى خَلْعِهِ، فَلَا تَخْلَعْهُ حَتَّى تَلْقَانِي"، وكرّرها ثلاث مرّات(٤).

---

(١) البغوي: معجم الصّحابة، ج٤، ص١٠٤، ح١٦٣٨. وإسناده جيّد. ابن حجر: الإصابة، ج٤، ص١١٩. وأورده البوصيري بنحوه، عن إسحاق بن راهويه، ووثّق رواته. إتحاف الخيرة المهرة، ج٨، ص١٠، ١١، ح٧٣٧٥.

(٢) المغيرة بن الأخنس: هو المغيرة بن الأخنس بن شُرَيق الثّقفيّ، حليف بني زُهرة، مذكور في الصّحابة، وقد استشهد وهو يدافع عن عثمان ﷺ يوم الدّار. خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٧٧؛ ابن حجر: الإصابة، ج٦، ص١٥٥.

(٣) ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٣، ص٦٦؛ ابن أبي شيبة: المصنّف، ج٧، ص٥١٥، ح٣٧٦٥٦؛ أحمد بن حنبل: فضائل الصّحابة، ج١، ص٥٧٨، ٥٧٩، ح٧٦٨. وصحّح المحقّق وصيّ الله إسناد الأثر.

(٤) أحمد بن حنبل: المسند، ج٤١، ص١١٣، ح٢٤٥٦٦. وقال المحقّقون: "إسناده صحيح، رجاله ثقات". ورواه التّرمذيّ وقال: "حسن غريب"، ولفظه: "يَا عُثْمَانُ إِنَّهُ لَعَلَّ اللَّهَ يُقَمِّصُكَ قَمِيصًا". سنن التّرمذيّ، (كتاب المناقب)، ج٥، ص٦٢٨، ح٣٧٠٥.



وعلى الرّغم من ذلك فقد اتّخذ عثمان ﷺ موقفًا واضحًا وحاسمًا بعدم المقاومة، وألزم به الصّحابة الّذين نهضوا للدّفاع عنه[1]، فعندما دخل عليه المغيرة بن شعبة ﷺ وأشار عليه بمقاتلة الخوارج بأهل المدينة، أو الخروج من ظهر الدّار واللّحوق بمكّة والبيت الحرام، أو المسير إلى معاوية وأهل الشّام رفض كلّ هذه العروض، وردّ على المغيرة قائلاً: "أَمَّا أَنْ أَخْرُجَ فَأُقَاتِلَ، فَلَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ خَلَفَ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي أُمَّتِهِ بِسَفْكِ الدِّمَاءِ، وَأَمَّا أَنْ أَخْرُجَ إِلَى مَكَّةَ فَإِنَّهُمْ لَنْ يَسْتَحِلُّونِي بِهَا، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: "يُلْحِدُ رَجُلٌ مِنْ قُرَيْشٍ بِمَكَّةَ، يَكُونُ عَلَيْهِ نِصْفُ عَذَابِ الْعَالَمِ"، فَلَنْ أَكُونَ أَنَا إِيَّاهُ، وَأَمَّا أَنْ أَلْحَقَ بِالشَّامِ فَإِنَّهُمْ أَهْلُ الشَّامِ، وَفِيهِمْ مُعَاوِيَةُ، فَلَنْ أُفَارِقَ دَارَ هِجْرَتِي، وَمُجَاوَرَةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ"[2].

وقد توالت طلبات الصّحابة ﷺ على أمير المؤمنين عثمان ﷺ في الإذن لهم بالقتال، فأرسل إليه الزّبيرُ بن العوّام ﷺ يستأذنه في مقاتلة محاصريه، ويعلمه استعداده لهم برجال من الأنصار من بني عمرو بن عوف، فقال عثمان ﷺ: "عَزَمْتُ عَلَى مَنْ كَانَتْ لِي عَلَيْهِ طَاعَةٌ أَلَّا يُقَاتِلَ"[3].

وكان الخليفة عثمان ﷺ قد أمّر عبد الله بن الزّبير ﷺ على الدّار، وأمر النّاس بطاعته، فلمّا طلب من الخليفة مقاتلة الخارجين وقال له: "لَقَدْ أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ قِتَالَهُمْ" رفض عثمان ﷺ، وأقسم بالله: "لَا أُقَاتِلُهُمْ أَبَدًا"[4].

---

(١) أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الرّاشدة، ص٤٣٤.

(٢) أحمد بن حنبل: المسند، ج١، ص٥١٩، ح٤٨١. وإسناده ضعيف منقطع؛ لأنّ محمّد بن عبد الملك بن مرْوان لم يسمع من المغيرة. الهيثمي: مجمع الزّوائد، ج٧، ص٢٣٠. وذكر الدّكتور أكرم ضياء العمري أنّ عرض المغيرة يعتضد بروايتين ضعيفتين. عصر الخلافة الرّاشدة، ص٤٢٦. وانظر تعليق وصيّ الله على فضائل الصّحابة للإمام أحمد بن حنبل، ج١، ص٥٩٣.

(٣) أحمد بن حنبل: فضائل الصّحابة، ج١، ص٦٢٧، ح٨٣٦. وصحّح وصيّ الله إسناد الأثر. وقد رواه ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج٣٩، ص٣٧٣. وحسّن محمّد عبد الله عبد القادر غبّان إسناده. فتنة مقتل عثمان، ج١، ص١٩٨.

(٤) ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٣، ص٧٠؛ أحمد بن حنبل: فضائل الصّحابة، ج١، ص٥٨٠، ح٧٧٢. وصحّح المحقّق وصيّ الله إسناد الأثر، ووافقه محمّد عبد الله عبد القادر غبّان: فتنة مقتل عثمان، ج١، ص١٩٣.

وعاود ابن الزّبير رضي الله عنهما الطّلب لعثمان ﷺ قائلاً: "إنّ معك في الدّار عصبةً مستنصرة، ينصر الله تعالى بأقلّ منها، فأذنْ لي فلأقاتل" ردّ عليه قائلاً: "أَنْشُدُ اللَّهَ رَجُلاً أَهْرَاقَ فِيَّ دَمِهِ، أَوْ قَالَ: أَهْرَاقَ فِيَّ دَمًا"(١).

وكان أبو هريرة ﷺ قد تقلّد سيفه ودخل على عثمان ﷺ يطلب الدّفاع عنه(٢)، فقال له: "أَيَسُرُّكَ أَنْ تَقْتُلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَإِيَّايَ"؟ فقال: لَا، قال: "فَإِنَّكَ وَاللَّهِ إِنْ قَتَلْتَ رَجُلاً وَاحِدًا فَكَأَنَّمَا قُتِلَ النَّاسُ جَمِيعًا"، فرجع أبو هريرة ﷺ ولم يقاتل(٣).

كما تقلّد عبد الله بن عمر رضي الله عنهما سيفه يومئذ ونهض للقتال، غير أنّ الخليفة عزم عليه أن يخرج مخافة أن يقتل(٤).

ودخل الحسن بن عليّ رضي الله عنهما على عثمان ﷺ فقال: "يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، إِنَّا طَوْعُ يَدِكَ، فَمُرْنِي بِمَا شِئْتَ، فَقَالَ لَهُ عُثْمَانُ: يَا ابْنَ أَخِي، ارْجِعْ فَاجْلِسْ فِي بَيْتِكَ حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ، فَلَا حَاجَةَ لِي فِي هِرَاقَةِ الدِّمَاءِ"(٥).

ولم يكن الأنصار أقلّ استعدادًا للدّفاع عن أمير المؤمنين عثمان ﷺ من المهاجرين، فبالإضافة إلى بني عمرو بن عوف الّذين اتّفقوا مع الزّبير بن العوّام ﷺ، نرى زيد بن ثابت ﷺ يدخل على الخليفة فيخبره بتجمّع الأنصار على الباب، ويطلب منه الإذن

---

(١) ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٣، ص٧٠؛ خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٧٣. وأورده ابن حجر من طريق أحمد بن منيع. المطالب العالية، ج١٨، ص٩٥، ح٤٣٩١. وقال المحقّق: "صحيح بهذا الإسناد، رواته جميعهم ثقات". ووثّق البوصيري رجاله أيضًا. إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة، ج٧، ص١٧٧، ١٧٨، ح٦٦١١.

(٢) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٧٣. وإسناده صحيح. أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الرّاشدة، ص٤٢٥.

(٣) ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٣، ص٧٠. وإسناده صحيح. محمد عبد الله غبّان: فتنة مقتل عثمان، ج١، ص٤٤٧.

(٤) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٧٣. وإسناده حسن.

(٥) نعيم بن حماد: الفتن، تحقيق/ سمير أمين الزّهيري، مكتبة التّوحيد، القاهرة، الطّبعة الأولى، ١٤١٢هـ، ج١، ص١٥٢، ح٣٨٥؛ أحمد بن حنبل: فضائل الصّحابة، ج١، ص٥٦٧، ح٧٥٣. وصحّح المحقّق وصيّ الله إسناد الأثر.



بالقتال قائلاً: "إن شئت كنّا أنصار الله مرّتين"، ولكنّ الخليفة أمره بالكفّ عن القتال(١)، كما عرض عليه حارثة بن النّعمان الأنصاريّ ﷺ استعداد الأنصار للقتال دونه(٢).

وخاطب عثمان ﷺ النّفر الّذين دخلوا الدّار وعزموا على القتال كالحسن بن علي، وأبي هريرة، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزّبير ﷺ، فقال: "أَعْزِمُ عَلَى مَنْ كَانَ لَنَا عَلَيْهِ سَمْعٌ وَطَاعَةٌ لَمَا كَفَّ يَدَهُ وَسِلَاحَهُ، فَإِنَّ أَعْظَمَكُمْ عِنْدِي غَنَاءً الْيَوْمَ مَنْ كَفَّ يَدَهُ وَسِلَاحَهُ"(٣)، وكان عبد الله بن عامر العنزيّ(٤) قد شهد يوم الدّار، فحدّث عن عثمان ﷺ بهذا القول أيضًا(٥).

ويلاحظ من خلال الرّوايات الصّحيحة أنّ عثمان ﷺ كان يتشدّد في رفض الدّفاع عنه كلّما زاد أصحابه في الإلحاح عليه بطلب المقاتلة، بل لمّا رأى إصرارًا من بعضهم، وعظهم، وذكّرهم بالله، وناشدهم بما له عليهم من طاعة، ممّا يبيّن قوّة عزمه على الكفّ عن القتال، وعدم تردّده في ذلك(٦).

ولمّا رأى أمير المؤمنين عثمان ﷺ أنّ الصّحابة ﷺ غيرُ منتهين عنه أرسل إلى الحبر عبد الله بن سلام ﷺ فسأله عن رأيه في التّعامل مع محاصريه، فقال: "الْكَفَّ الْكَفَّ، فَإِنَّهُ

(١) نعيم بن حماد: الفتن، ج١، ص١٧٣؛ ابن أبي شيبة: المصنّف، ج٧، ص٤٤٢؛ الخلّال: السُّنّة، ج٢، ص٣٣٣. ثلاثتهم من مرسل محمّد بن سيرين، ولم يدرك الحادثة، ورواه ابن أبي شيبة عن الحسن البصريّ بسند صحيح. المصنّف في الأحاديث والآثار، ج٧، ص٥٢٤.

(٢) البخاري: التّاريخ الأوسط، ج١، ص٧٦؛ ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج٣٩، ص٣٩٧. وإسناد الأثر صحيح، رجاله ثقات، رجال مسلم. محمّد عبد الله عبد القادر غبّان: فتنة مقتل عثمان، ج١، ص٤٧٨.

(٣) ابن شبّة: تاريخ المدينة، ج٢، ص٢٤٤. ورجاله ثقات، وإسناده صحيح. محمّد عبد الله عبد القادر غبّان: فتنة مقتل عثمان، ج١، ص١٩٣.

(٤) العنزي: عبد الله بن عامر بن ربيعة العنزيّ، حليف للخطّاب بن نفيل العدويّ، ولد في عهد النّبيّ ﷺ، وكان عند وفاته ابن خمس سنين أو ستّ سنين. ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٥، ص٩.

(٥) ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٣، ص٧٠؛ خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٧٣؛ ابن أبي شيبة: المصنّف في الأحاديث والآثار، ج٧، ص٥١٥، ح٣٧٦٦١. وإسناده صحيح. أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الرّاشدة، ص٤٢٤.

(٦) محمّد عبد الله عبد القادر غبّان: فتنة مقتل عثمان، ج١، ص١٩٢.

أَبْلَغُ لَكَ فِي الْحُجَّةِ"[١]، ثمّ توجّه عثمان ﷺ إلى الصّحابة فقال لهم: "إنّ رسول الله ﷺ عَهِدَ إِلَيَّ عَهْدًا وَأَنَا صَابِرٌ عَلَيْهِ"[٢].

وكانت عائشة رضي الله عنها قد استدعت عثمان ﷺ للنّبيّ ﷺ وهو في مرض موته، فلمّا دخل عليه جعل يكلّمه ولونُ عثمان ﷺ يتغيّر، فكانوا يرون أنّه ذلك اليوم[٣].

وفي الحقيقة أنّ النّاظر في روايات المُحدّثين يلتمس العذر للخليفة الرّاشديّ الّذي كان يعلم علم اليقين بحتميّة حدوث الفتنة في أيّامه وإصابته فيها، وقد ثبتت معرفة أمير المؤمنين عثمان ﷺ وبعض الصّحابة ﷺ بذلك في أحاديث صحيحة كثيرة، فقد صحّ عن أبي موسى الأشعريّ ﷺ أنّه قال: "كُنْتُ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي حَائِطٍ مِنْ حِيطَانِ المَدِينَةِ فَجَاءَ رَجُلٌ فَاسْتَفْتَحَ، فقال النّبيّ ﷺ: "افْتَحْ لَهُ وَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ"، فَفَتَحْتُ لَهُ، فَإِذَا أَبُو بَكْرٍ، فَبَشَّرْتُهُ بِمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ، فَحَمِدَ اللَّهَ، ثُمَّ جَاءَ رَجُلٌ فَاسْتَفْتَحَ، فقال النّبيّ ﷺ: "افْتَحْ لَهُ وَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ"، فَفَتَحْتُ لَهُ، فَإِذَا هُوَ عُمَرُ، فَأَخْبَرْتُهُ بِمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ، فَحَمِدَ اللَّهَ، ثُمَّ اسْتَفْتَحَ رَجُلٌ، فَقَالَ لِي: "افْتَحْ لَهُ وَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ، عَلَى بَلْوَى تُصِيبُهُ"، فَإِذَا عُثْمَانُ، فَأَخْبَرْتُهُ بِمَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَحَمِدَ اللَّهَ، ثُمَّ قَالَ: اللَّهُ المُسْتَعَانُ"[٤].

ولعلّ هذه الحادثة هي الّتي جعلت أبا موسى الأشعريّ ﷺ يميل إلى كره الدّماء ويتّخذ موقفًا واضحًا في الإصلاح بين المسلمين.

---

(١) ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٣، ص٧١؛ ابن أبي شيبة: المصنّف في الأحاديث والآثار، ج٧، ص٥١٥، ح٣٧٦٥٨؛ ابن شبّة: تاريخ المدينة، ج٢، ص٢٣٢. والأثر بإسناد صحيح. ينظر تخريج المطالب العالية لابن حجر، ج١٨، ص٦٦.

(٢) أحمد بن حنبل: المسند، ج١، ص٤٦٧، ح٤٠٧؛ التّرمذي: السّنن، (كتاب المناقب)، ج٥، ص٦٣١، ح٣٧١١. وقال التّرمذيّ: "هذا حديث حسن صحيح غريب".

(٣) أحمد بن حنبل: فضائل الصّحابة، ج١، ص٦٠٤، ٦٠٥، ح٨٠٤؛ ابن ماجة: السّنن، (المقدّمة، باب فضل عثمان ﷺ)، ج١، ص٤٢، ح١١٣؛ ابن حبّان: الصّحيح، ج١٥، ص٣٥٦، ٣٥٧، ح٦٩١٨. وصحّح المحقّقون إسناد الحديث.

(٤) البخاري: الصّحيح، (كتاب فضائل الصّحابة، باب مناقب عمر بن الخطّاب ﷺ)، ج٣، ص١٣٥٠، ح٣٤٩٠؛ مسلم: الصّحيح، (كتاب فضائل الصّحابة، باب من فضائل عثمان بن عفّان ﷺ)، ج٤، ص١٨٦٧، ح٢٤٠٣.



وقد ثبت عن عبد الله بن عمر بن الخطّاب رضي الله عنهما أنّ النّبيّ ﷺ ذكر فتنةً، فقال: "يُقْتَلُ هَذَا فِيهَا مَظْلُومًا"، لعثمان[1]، وفي لفظ آخر عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنّ النّبيّ ﷺ قال عن تلك الفتنة: "يُقْتَلُ فِيهَا هَذَا الْمُقَنَّعُ يَوْمَئِذٍ مَظْلُومًا"، فنظر ابن عمر إليه "فَإِذَا هُوَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ"[2].

وقد حدّث أبو هريرة رضي الله عنه حين دخل على عثمان رضي الله عنه وهو محصور في الدّار فقال: "إنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إِنَّكُمْ تَلْقَوْنَ بَعْدِي فِتْنَةً وَاخْتِلافًا، أو قال: اخْتِلافًا وَفِتْنَةً"، فَقَالَ لَهُ قَائِلٌ مِنَ النَّاسِ: فَمَنْ لَنَا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قال: "عَلَيْكُمْ بِالْأَمِينِ وَأَصْحَابِهِ"، وَهُوَ يُشِيرُ إِلَى عُثْمَانَ بِذَلِكَ"[3].

ولهذه الأحاديث ونحوها كان أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه متيقّنًا بنهايته، وقد آثر العافية ولم يأخذ دعاة الفتنة بالشّدّة والبطش خشية أن يظلم بريئًا فيبوء بإثمه، واختار أن يكون كخير ابني آدم[4]، لكن على الرّغم من ذلك فقد وقعت بعض المناوشات بين الشّباب المدافعين عن الخليفة والخوارج، حيث شاهد كِنانة - مولى صفيّة أمّ المؤمنين - أربعة من شبّان قريش أخرجوا من الدّار محمولين ملطّخين بالدّم، وهم: "الحسن بنُ عليّ، وعبد الله بنُ الزّبير، ومحمّد بن حاطبٍ، ومروانُ بن الحكم"[5]، ولكنّ مقاومة المدافعين لم تكن عنيفة؛ فقد انصرف أكثرهم عن الدّار بسبب أوامر الخليفة الّتي أمرهم فيها

---

(١) التّرمذي: السّنن، (كتاب المناقب، باب مناقب عثمان بن عفّان)، ج٥، ص٦٣٠، ح٣٧٠٨. وقال التّرمذيّ: "هذا حديث حسن".

(٢) أحمد بن حنبل: المسند، ج١٠، ص١٦٩، ح٥٩٥٣؛ فضائل الصّحابة، ج١، ص٥٥١، ح٧٢٤. والحديث صحيح لغيره عند محقّقي المسند.

(٣) أحمد بن حنبل: المسند، ج١٤، ص٢١٩، ٢٢٠، ح٨٥٤١؛ فضائل الصّحابة، ج١، ص٥٥٠، ح٧٢٣. واستدرك الحاكم هذا الحديث على الشّيخين، وصحّح إسناده، وأقرّه الذّهبيّ. المستدرك على الصّحيحين، ج٤، ص٤٨٠، ح٨٣٣٥. وقال الحافظ ابن كثير: "تفرّد به أحمد، وإسناده جيّدٌ حسن". البداية والنّهاية، ج٧، ص٢٣٥.

(٤) ابن كثير: البداية والنّهاية، ج٧، ص٢٠٣.

(٥) ابن شبّة: تاريخ المدينة، ج٢، ص٢٩٧؛ ابن عبد البرّ: الاستيعاب، ج٣، ص١٠٤٦. والأثر حسن الإسناد. محمّد عبد الله غبّان: فتنة مقتل عثمان، ج١، ص٢٠٦.

بالكفّ عن القتال والخروج من الدّار ولزوم بيوتهم، واختار حقن دمائهم وفداء أرواحهم بدمه وروحه[١].

ولئن قال قائل: لِمَ لمْ يقاتل الصّحابة ﷺ عن عثمان ﷺ وقد علموا أنّه مظلوم وقد أشرف على القتل، حتّى وإن نهاهم عن ذلك يجيبه الآجرّي (ت: ٣٦٠هـ/٩٧٠م) بقوله: "لأنّ القوم كانوا أصحاب طاعة وفّقهم الله - تعالى - للصّواب من القول والعمل، فقد فعلوا ما يجب عليهم من الإنكار بقلوبهم وألسنتهم، وعرضوا أنفسهم لنصرته على حسَب طاقتهم، فلمّا منعهم عثمان ﷺ من نصرته، علموا أنّ الواجب عليهم السّمعُ والطّاعة له، وأنّهم إن خالفوه لم يسعْهم ذلك، وكان الحقّ عندهم فيما رآه عثمان ﷺ"[٢].

ولهذا فقد أبعد ابن تيمية عن الصّواب عندما زعم أنّ الصّحابة ﷺ فرّطُوا في الدّفاع عن عثمان ﷺ[٣]، و"لم ينصروه حقّ النّصرة، وأنّه حصل نوعٌ من الفُتور والخذلان، حتّى تمكّن أولئك المفسدون"[٤].

ولئن قال آخر: لمَ منعهم عثمان ﷺ من نصرته وهو مظلوم، وقد علم أنّ قتالهم عنه نهيٌ عن منكر، وإقامة حقّ يقيمونه؟ يجيبه الآجرّي أيضًا بعدّة أجوبة، منها:

(١) علْمُ أمير المؤمنين عثمان ﷺ بأنّه مقتولٌ مظلومٌ لا شكّ فيه؛ لأنّ النّبيّ ﷺ قد أعلمه أنّك تقتل مظلومًا، فاصبرْ، فقال: أصبر، فلمّا أحاطوا به علم أنّه مقتولٌ، وأنّ الّذي قاله النّبيّ ﷺ له حقٌّ كما قال لابدّ من أن يكون، ثمّ علم أنّه قد وعده من نفسه الصّبر، فصبر كما وعد، وكان عنده أنّ من طلب الانتصار لنفسه والذّبّ عنها فليس هذا بصابرٍ، إذ وعد من نفسه الصّبر[٥].

(٢) أنّ أمير المؤمنين عثمان بن عفّان ﷺ لمّا علم أنّها فتنةٌ، وأنّ الفتنة إذا سُلّ فيها السّيف لم يُؤمن أن يُقتل فيها من لا يستحقّ؛ فلم يختر لأصحابه أن يَسُلّوا في الفتنة السّيف، وهذا

(١) أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الرّاشدة، ص٤٣٠.
(٢) الآجُرّي: الشّريعة، جـ٤، ص١٩٨١، ١٩٨٢.
(٣) ابن تيمية: منهاج السُّنّة النّبويّة، جـ٤، ص٣٢٧.
(٤) منهاج السُّنّة النّبويّة، جـ٤، ص٣٢٣.
(٥) الآجُرّي: الشّريعة، جـ٤، ص١٩٨٢.



إشفاقٌ منه عليهم؛ لأنّ الفتنة تَعُمُّ، وتذهب فيها الأموال، وتُهتك فيها الحريم، فصانهم عن جميع هذا[١].

(٣) يُحتمل أنّ الخليفة عثمان ﷺ صبر عن الانتصار لتكون الصّحابة ﷺ شهودًا على من ظلمه، وخالف أمره، وسفك دمه بغير حقّ، لأنّ المؤمنين شهداء الله ﷻ في أرضه، ومع ذلك فلم يحبّ عثمان ﷺ أن يُهراق بسببه دم مسلمٍ، ولا يَخْلُفَ النّبيّ ﷺ في أمّته بإهراقه دم مسلمٍ، وكذا قال ﷺ، فكان بهذا الفعل موفّقًا معذورًا رشيدًا، وكان الصّحابة ﷺ في عذرٍ، وشَقِي قاتلُه[٢].

ثامناً: دخول الخوارج على عثمان ومقتله:

ظلّ المفتونون يحاصرون أمير المؤمنين عثمان ﷺ ويمنعون عنه الطّعام والماء حتّى تسوّر محمّد بن أبي بكر الصّدّيق في ثلاثةَ عشرَ من فوق الدّار، ونزل على عثمان ﷺ، فأخذ بلحيته حتّى سُمع وقعُ أضراسه، وقال: "مَا أَغْنَى عَنْكَ مُعَاوِيَةُ، مَا أَغْنَى عَنْكَ ابْنُ عَامِرٍ، مَا أَغْنَتْ عَنْكَ كُتُبُكَ"[٣]، فقال له عثمان ﷺ: "لَقَدْ أَخَذْتَ مِنِّي مَأْخَذًا، أَوْ قَعَدْتَ مِنِّي مَقْعَدًا مَا كَانَ أَبُوكَ لِيَقْعُدَهُ - أَوْ لِيَأْخُذَهُ - فَخَرَجَ وَتَرَكَهُ"[٤].

ويؤكّد هذه الرّواية أنّ كنانة - مولى أمّ المؤمنين صفيّة - قد حضر يوم الدّار، وشاهد قتل عثمان ﷺ، فسأله محمّد بن طلحة بن عبيد الله عن اشتراك محمّد بن أبي بكر في دم

---

(١) الآجُرّي: الشّريعة، جـ٤، ص١٩٨٣.

(٢) الشّريعة، جـ٤، ص١٩٨٣.

(٣) ابن سعد: الطّبقات الكبرى، جـ٣، ص٧٣؛ ابن أبي شيبة: المصنّف، جـ٧، ص٤٤١، ح٣٧٠٧٩؛ الطّبراني: المعجم الكبير، جـ١، ص٨٢، ح١١٦؛ ابن عساكر: تاريخ دمشق، جـ٣٩، ص٤٠٤. وعلّق عليه الهيثميّ بقوله: "رواه الطّبرانيّ، ورجاله رجال الصّحيح غير وثّابٍ، وقد ذكره ابن أبي حاتم ولم يجرّحه أحدٌ". مجمع الزّوائد، جـ٧، ص٢٣١، ٢٣٢، ح١٢٠٠٦. وإسناده صحيح إلى وثّاب. محمّد عبد الله عبد القادر غبّان: فتنة مقتل عثمان، جـ١، ص٥١٥.

(٤) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٧٤. من رواية صحيحة إلى الحسن البصريّ، رجالها ثقات، وكان الحسن البصريّ ممن حضر يوم الدّار. محمّد عبد الله عبد القادر غبّان: فتنة مقتل عثمان، ص٤٨٤. وهي في رواية أبي سعيد الّتي صححها الحافظ ابن حجر وغيره. كما صحّح هذا الحادثة الحافظ ابن كثير أيضًا. البداية والنّهاية، جـ٧، ص٢٠٧.

عثمان، فقال: "مَعَاذَ اللَّهِ دَخَلَ عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ عُثْمَانُ ﷺ: لَسْتَ بِصَاحِبِي، وَكَلَّمَهُ بِكَلَامٍ فَخَرَجَ وَلَمْ يَنْدَ بِشَيْءٍ مِنْ دَمِهِ"(١).

ويبتعد بعض القدامى والمحْدثين عن البحث الموضوعيّ فيجهدون أنفسهم في تبرئة التّابعيّ محمّد بن أبي بكر الصّدّيق(٢) من نيّة قتل الخليفة عثمان ﷺ، حتّى يقول ابن شبّة (ت: ٢٦٢هـ/٨٧٦م) عند ذكره لخبره: "فهذان الحديثان يبرّئان محمّد بن أبي بكر من أن يكون نوى قتل عثمان ﷺ، وسائر الأحاديث جاءت بخلافهما"(٣).

ويتابع ابن شبّة من المحْدثين الدّكتور/ محمّد عبد الله عبد القادر غبّان فيقول: "وبهاتين الرّوايتين الصّحيحتين تظهر لنا براءة محمّد بن أبي بكر الصّدّيق من دم عثمان، براءة الذّئب من دم يوسف، كما تبيّن أنّ سبب تهمته هو دخوله عليه قبل القتل"(٤).

وكأنّ محمّد بن أبي بكر قد تسوّر بمجموعته للدّفاع عن عثمان ﷺ أو للتّسليم عليه، ولم يدافعه عثمانُ ﷺ عن نفسه ويقُل له "لست بصاحبي"، ويذكّره بأبيه! ولذا قال الحافظ ابن عبد البرّ (ت: ٤٦٣هـ/١٠٧١م): "وقد نفى جماعة من أهل العلم والخبر أنّه شارك في دمه"(٥)، وهذا صحيح، لكنّه حرّض على عثمان ﷺ، وأجلب عليه، وعزم على قتله، ثمّ تاب في وقت لم يُفد فيه النّدم، ففي رواية وثّاب - وكان يقوم بين يدي عثمان - أنّ محمّد بن أبي بكر استعدى على عثمان ﷺ رجلاً يُعينُه، فقام إليه بمِشْقَصٍ حتّى وجَأ به في رأسه فأثبته، ثمّ تعاون الّذين أدخلهم محمّد بن أبي بكر حتّى قتلوه(٦).

---

(١) ابن شبّة: تاريخ المدينة، ج٢، ص٢٩٧؛ أبو نعيم: معرفة الصّحابة، ج١، ص٦٦، ٦٧. وإسناد الأثر صحيح لغيره، وهو حسن لذاته، صحيح بما قبله. محمّد عبد الله غبّان: فتنة مقتل عثمان، ص٤٨٦.

(٢) ولد محمّد بن أبي بكر الصّدّيق في عقب ذي القعدة عام حجّة الوداع. ابن أبي حاتم: الجرح والتّعديل، ج٧، ص٣٠١؛ ابن عبد البرّ: الاستيعاب، ج٣، ص١٣٦٦؛ ابن حجر: الإصابة، ج٦، ص١٩٤.

(٣) ابن شبّة: تاريخ المدينة، ج٢، ص٢٩٧.

(٤) فتنة مقتل عثمان، ص٢٥٦.

(٥) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ج٣، ص١٣٦٧.

(٦) ابن أبي شيبة: المصنّف في الأحاديث والآثار، ج٧، ص٤٤١، ح٣٧٠٧٩؛ الطّبراني: المعجم الكبير، ج١، ص٨٢، ح١١٦؛ ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٣، ص٧٣؛ ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج٣٩، ص٤٠٤. وإسناد الأثر صحيح. محمّد عبد الله عبد القادر غبّان: فتنة مقتل عثمان، ج١، ص٥١٥.



ولذا قال الحافظ ابن كثير: "ويُروى أنّ محمّد بن أبي بكر طعنه بمشاقص في أذنه، حتّى دخلت في حلقه، والصّحيح أنّ الّذي فعل ذلك غيرُه، وأنّه استحى ورجع حين قال له عثمان: لقد أخذت بلحيةٍ كان أبوك يكرمها، فتندّم من ذلك، وغطّى وجهه، ورجع وحاجز دونه، فلم يُفد، وكان أمر الله قدرًا مقدورًا، وكان ذلك في الكتاب مسطورًا"(١).

وقد ذكرت أمّ المؤمنين عائشة ﵂ أخاها محمّد بن أبي بكر الصّدّيق في قتلة أمير المؤمنين عثمان ﵁ ودعت عليهم فقالت: "أَقَادَ اللهُ ابْنَ أَبِي بَكْرٍ بِهِ، وَسَاقَ اللهُ إِلَى أَعْيِنِ بَنِي تَمِيمٍ هَوَانًا فِي بَيْتِهِ، وَأَهْرَاقَ اللهُ دِمَاءَ بَنِي بُدَيْلٍ عَلَى ضَلَالَةٍ، وَسَاقَ اللهُ إِلَى الأَشْتَرِ سَهْمًا مِنْ سِهَامِهِ"، فحلف طلق بن خُشَافٍ - راوي الأثر - بالله "مَا مِنَ الْقَوْمِ رَجُلٌ إِلّا أَصَابَتْهُ دَعْوَتُهَا"(٢). وثبت عن القاسم بن محمّد بن أبي بكر الصّدّيق أنّه كان يقول: "اللّهمَّ اغْفِرْ لِأَبِي ذَنْبَهُ فِي عُثْمَانَ ﵁"(٣).

وكان أمير المؤمنين عثمان ﵁ قد جهّز نفسه لتلقّي الشّهادة الّتي بشّره بها رسول الله ﷺ، حيث رآه في آخر ليلة من عمره يقول له: "أَفْطِرْ عِنْدَنَا اللّيْلَةَ"(٤)، فأصبح عثمان ﵁

---

(١) البداية والنّهاية، ج٧، ص٢٠٧.

(٢) البخاري: التّاريخ الأوسط، ج١، ص٩٥؛ الطّبراني: المعجم الكبير، ج١، ص٨٨؛ ابن شبّة: تاريخ المدينة، ج٢، ص٢٦٥؛ ابن أبي الدّنيا: مجابو الدّعوة، ص٤٩؛ ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج٥٦، ص٣٨١. وعلّق عليه الهيثميّ فقال: "رواه الطّبرانيّ، ورجاله رجال الصّحيح غير طلق، وهو ثقة". مجمع الزّوائد ومنبع الفوائد، ج٩، ص٩٧، ح١٤٥٦٧. والأثر حسن الإسناد. وينظر ابن تيمية: منهاج السُّنّة النّبويّة، ج٤، ص٣٣٠.

(٣) ابن حجر: المطالب العالية، ج١٨، ص٨٩، ح٤٣٨٨. وقال المحقّق: "إسناده صحيح، رجاله ثقات".

(٤) ثبت "أَنَّ عُثْمَانَ ﵁ أَعْتَقَ عِشْرِينَ مَمْلُوكًا، وَدَعَا بِسَرَاوِيلَ فَشَدَّهَا عَلَيْهِ، وَلَمْ يَلْبَسْهَا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَلَا إِسْلَامٍ، وَقَالَ: إِنِّي رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ الْبَارِحَةَ فِي الْمَنَامِ، وَرَأَيْتُ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ، وَإِنَّهُمْ قَالُوا لِي: اصْبِرْ، فَإِنَّكَ تُفْطِرُ عِنْدَنَا الْقَابِلَةَ، ثُمَّ دَعَا بِمُصْحَفٍ فَنَشَرَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقُتِلَ وَهُوَ بَيْنَ يَدَيْهِ". ابن أبي شيبة: المصنّف، ج٦، ص١٨١، ح٣٠٥١٠؛ أحمد بن حنبل: المسند، ج١، ص٥٤٥، ح٥٢٦. وقال الهيثميّ: "رواه عبد الله وأبو يعلى في الكبير، ورجالهما ثقات". مجمع الزّوائد، ج٩، ص٩٧، ح١٤٥٦٣. وقال البوصيري: "رواه أبو يعلى الموصليّ، ورواته ثقات". إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة، ج٨، ص١١، ح٧٣٧٧. وقد جمع محقّق المطالب العالية لابن حجر طرق هذا الحديث وانتهى إلى أنّه حسن لغيره. ج١٨، ص٦١- ٦٥.

صائمًا، ووضع المصحف بين يديه، حتّى دخل عليه رجلٌ منهم، فقال: بيني وبينك كتابُ الله، فخرج وتركهُ، ثمّ دخل عليه آخر، فقال: بيني وبينك كتابُ الله، فأهوى له بالسّيف، فاتّقاه بيده فقطعها، فقال عثمان ﷺ: أما والله إنّها لأوّلُ كفٍّ خطّت المفصّل، فنضح الدّم على قوله تعالى[١]: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ١٣٧﴾[٢]، وأخذت بنتُ الفرافصةِ[٣] حُليّها ووضعته في حجرها، وذلك قبل أن يقتل، فلمّا قتل، تفاجّتْ عليه[٤]، فقال بعضهم: "قَاتَلَهَا اللَّهُ مَا أَعْظَمَ عَجِيزَتَهَا"، فقال الرّاوي أبو سعيد: "فَعَلِمْتُ أَنَّ أَعْدَاءَ اللَّهِ لَمْ يُرِيدُوا إِلّا الدُّنْيَا"[٥].

وصحّ أنّ مقتل الخليفة عثمان ﷺ كان في أوسط أيّام التّشريق (الثّاني عشر)[٦] من شهر ذي الحجّة سنة ٣٥هـ/٦٥٦م، وفي يوم الجمعة بلا خلاف[٧].

وقد اختلفت الرّوايات في تعيين قاتل عثمان ﷺ؛ وذلك لأنّ الخوارج الأشقياء تعاوروا على ضربه وقتله[٨]، وأصحّ تلك الرّوايات ما حدّث بها كنانة -مولى صفيّة بنت

---

(١) وقد ثبت بسند صحيح عن عَمرة بنت أرْطأة العدويّة أنها قالت: "خَرَجْتُ مَعَ عَائِشَةَ سَنَةَ قُتِلَ عُثْمَانُ إِلَى مَكَّةَ، فَمَرَرْنَا بِالْمَدِينَةِ وَرَأَيْنَا الْمُصْحَفَ الَّذِي قُتِلَ وَهُوَ فِي حِجْرِهِ، فَكَانَتْ أَوَّلُ قَطْرَةٍ قَطَرَتْ مِنْ دَمِهِ عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ١٣٧﴾، قَالَتْ عَمْرَةُ: فَمَا مَاتَ رَجُلٌ مِنْهُمْ سَوِيًّا". أحمد بن حنبل: فضائل الصّحابة، جا، ص٦١٣، ٦١٤، ح٨١٧.

(٢) سورة البقرة: من الآية ١٣٧.

(٣) بنت الفرافصة: هي نائلة بنت الفَرافصة الكلبيّة، تزوّجها أمير المؤمنين عثمان ﷺ في خلافته، وكانت نصرانيّة فأسلمت قبل أن يدخل بها. ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج٧٠، ص١٣٧؛ الذّهبي: تاريخ الإسلام، ج٣، ص١٠٩.

(٤) لمّا شهر أحد الخوارج سيفه على عثمان ﷺ ليقتله قبضت زوجتُه نائلة بنت الفرافصة على السّيف فقطعت يدُها. أبو العرب: المِحَن، ص٧٩.

(٥) من رواية أبي سعيد - مولى أبي أسيد - الّتي سبق الاعتماد عليها مرارًا.

(٦) ابن أبي شيبة: المصنّف، ج٧، ص٥٢٥، ح٣٧٧١٣؛ أحمد بن حنبل: المسند، جا، ص٥٥٥، ح٥٤٦. وإسناد الأثر صحيح، رجاله رجال الشّيخين كما قال محقّقو المسند.

(٧) ابن كثير: البداية والنّهاية، ج٧، ص٢١٢.

(٨) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٧٤.



حيّ - حيث قال: "رأيت قاتل عثمان، رجلاً أسودَ من أهل مصر وهو في الدّار رافعًا يديه، أو باسطًا يديه، يقول: أنا قاتل نعثل"[١]، وكان رجلٌ من سدوس[٢] قد خنق عثمان ﷺ قبل مقتله[٣].

وقد اختلف الرّواة في تجهيز عثمان ﷺ ودفنه، والصّحيح أنّه حُمل على بابٍ بعد ما غُسّل وكُفّن، ولا خلاف أنّه دفن بحَشّ كوكب[٤]، شرقي البقيع، وذلك فيما بين المغرب والعشاء، خوفًا من القتلة، ولمّا تولّى معاوية ﷺ الخلافة اعتنى بمقبرة عثمان ﷺ وأمر النّاس بدفن موتاهم حولها حتّى اتّصلت بمقابر المسلمين، وبلغت خلافة عثمان ﷺ ثنتي عشرة سنة إلّا اثني عشر يومًا[٥].

ومات عثمان ﷺ وهو ابن اثنين وثمانين عامًا على الصّحيح من الأقوال[٦]، وقال الواقديّ: "لا خلاف عندنا أنّه قتل وهو ابن اثنتين وثمانين سنة"[٧].

ورُوي أنّ أمير المؤمنين عثمان بن عفّان ﷺ ظلّ مطروحًا على مزبلة ثلاثة أيّام[٨]، لكنّ هذا "كذبٌ بحت، وإفكٌ موضوع، وتوليد من لا حياء في وجهه، بل قتل عشيّة، ودفن من ليلته ﷺ"[٩].

---

(١) ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٣، ص٨٣؛ ابن حجر: المطالب العالية، ج١٨، ص٩٧. وإسناده حسن. محمّد عبد الله غبّان: فتنة مقتل عثمان، ج١، ص١٩٣.

(٢) سدوس: عشيرة من قبيلة ذُهْل بن ثعلبة البكرية الربعيّة. ابن الأثير: اللّباب في تهذيب الأنساب، ج٢، ص١٠٩.

(٣) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٧٤، ١٧٥، بإسناد صحيح. أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الرّاشدة، ص٤٣٠.

(٤) حشّ كوكب: الحشّ بفتح الحاء وضمّها هو البستان، وكوكب رجل من الأنصار أضيف إليه، وكان عثمان ﷺ قد اشتراه وزاده في البقيع. ياقوت: معجم البلدان، ج٢، ص٢٦٢.

(٥) ابن كثير: البداية والنّهاية، ج٧، ص٢١٢- ٢١٤.

(٦) ابن عبد البرّ: الاستيعاب، ج٣، ص١٠٤٨؛ الذّهبي: تاريخ الإسلام، ج٣، ص٤٨١.

(٧) ابن عبد البرّ: الاستيعاب، ج٣، ص١٠٤٨.

(٨) الطّبراني: المعجم الكبير، ج١، ص٧٨، ح١٠٩.

(٩) ابن حزم: الفِصَل في الملل والأهواء والنِّحَل، ج٤، ص١٢٣.

وقد لحق أمير المؤمنين عثمان ﷺ بصاحبيه الصّدّيق والفاروق راضيًا مرضيًّا، على غير ما يدّعيه مبغضو الصّحابة؛ لأنّه قد عرف بالتّواتر الّذي لا يخفى على العامّة والخاصّة، أنّ أبا بكر وعمر وعثمان ﷺ كان لهم بالنّبيّ ﷺ اختصاص عظيم، وكانوا من أعظم النّاس اختصاصًا به، وصحبة له، وقربًا إليه، واتّصالاً به، وقد صاهرهم كلّهم، وما عُرف عنه أنّه كان يذمّهم، ولا يلعنهم، بل المعروف عنه أنّه كان يحبّهم ويثني عليهم. وحينئذ فإمّا أن يكونوا على الاستقامة ظاهرًا وباطنًا، في حياته وبعد موته، وإمّا أن يكونوا بخلاف ذلك في حياته أو بعد موته، فإن كانوا على غير الاستقامة مع هذا التّقرّب، فأحد الأمرين لازم: إمّا عدم علمه بأحوالهم، أو مداهنته لهم، وأيّهما كان فهو أعظم القدح في الرّسول ﷺ، وإن كانوا انحرفوا بعد الاستقامة فهذا خِذلان من الله للرّسول ﷺ في خواصّ أمّته، وأكابر أصحابه، ومن قد أخبر بما سيكون بعد ذلك، أين كان عن علم ذلك؟ وأين الاحتياط للأمّة حتّى لا يُولّى مثل هذا أمرها، ومن وعد أن يَظهر دينُه على الدّين كلّه، فكيف يكون أكابر خواصّه مرتدّين؟ فهذا ونحوه من أعظم ما يقدح به الرّافضة في الرّسول ﷺ، كما قال الإمام مالكٌ وغيره: إنّما أراد هؤلاء الرّافضة الطّعن في الرّسول ﷺ ليقول القائل: رجل سوء كان له أصحاب سوء، ولو كان رجلاً صالحًا لكان أصحابه صالحين[1].

وينبغي أن تعلم أنّ الّذين يطعنون في أفاضل الصّحابة ﷺ إنّما قصدوا بذلك رسول الله ﷺ وأهل بيته؛ لشدّة عداوتهم له، وتستّروا بالتّشيّع، وكان غيظهم أعظم على أبي بكر وعمر وعثمان وتلك الجماعة لأنّهم هم الّذين اشتملوا على رسول الله ﷺ في حياته ونصروه، ثمّ كانوا بعد وفاته أشدّ نصرة في دينه منهم في حياته، وأحدقوا بأبي بكر ﷺ فغزاهم، وقتل مسيلمة، وقهر طليحة، وردّ الرّدّة، وغزا فارس والرّوم، وأذلّ أعداء رسول الله ﷺ بكلّ مكان، واستخلف عمر ﷺ، فأزال ملك فارس، وهو أشدّ الملوك، وأدخل ملكه في الإسلام، وألحق ملوك الرّوم بجبال الرّوم وخلجانها، وأخرجهم من الشّام ومصر ومن الجزيرة، وأدخل هذه الممالك في الاسلام، وقتل الشّرك وأماته، وأحيا الإسلام وبثّه، ونشره وبسطه، وبناه وشيّده، وجعله عاليًا على الأديان كلّها، وظاهرًا على أمم الشّرك جميعها، فغاظهم ذلك أشدّ

(١) ابن تيمية: منهاج السُّنّة، جـ٧، ص٤٥٨، ٤٥٩.

الغيظ، ولم يمكنهم المكاشفة بشتم رسول الله ﷺ فاشتفوْا منه بشتم هؤلاء، وغرّوا من لا يعرفهم[١].

وقد زعمت الرّافضة أنّ هؤلاء الّذين تملّكوا وتمكّنوا وكان الأمر والسّلطان والقهر والغلبة لهم أنّهم بدّلوا القرآن وأحرقوه، وغيّروا النّصوص، وعطّلوا الدّين، وغيّروا الطّهارة والأذان والمواقيت والصّلاة والصّيام والمناكح والطّلاق، وأماتوا السّنن، وأحيوا البدع؛ وكان خليفة رسول الله ﷺ ووصّيه مغلوبًا مقهورًا يظهر ما يظهرون من الشّرك، ويجوّز أحكامهم عليهم، فكذّبت الرّافضة هذه الآيات، ولو كان الأمر على ما يدّعيه الرّافضة لكان ينبغي أن تكون التّلاوة: «والّذين إن مكّنّاهم في الأرض عطّلوا الصّلاة والزّكاة وأماتوا النّصوص وقهروا الوصيّ المنصوص عليه، وأمروا بالمنكر ونهوا عن المعروف"، فعلم من هذا أنّ الرّافضة قد ذهبوا عن القرآن وفارقوا الدّين، وأنّ هؤلاء السّلف على الحقّ، وأنّ الله تولّى نصرهم كما وعدهم، والله لا ينصر إلّا أولياءه وأحبّاءه وأهل طاعته[٢].

---

(١) القاضي عبد الجبّار المعتزلي: تثبيت دلائل النّبوّة، جا، ص٦٣، ٦٤.

(٢) تثبيت دلائل النّبوّة، جا، ص٤٥.

الباب الرّابع

خلافة عليّ بن أبي طالب

(٣٥ - ٤٠هـ/٦٥٥ - ٦٦٠م)



الفصل الأوّل
سيرة عليّ قبل الخلافة

📖 نسب عليٍّ وكنيته:

هو عليّ، بن أبي طالب، بن عبد المطّلب، بن هاشم، بن عبد مناف[1]، ووالده شقيق عبد الله والد النّبيّ ﷺ[2]، وأمّه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف[3]، وهي أوّل هاشميّة ولدت هاشميًّا[4]، ولمّا كان أبو طالب غائبًا عند مولد عليّ فقد أسمته أمّه أسدًا باسم أبيها أسد بن هاشم، فلمّا عاد أبو طالب لم يعجبه هذا الاسم وسمّاه عليًّا[5]، وقد ثبت عن عليٍّ ﷺ أنّه ارتجز يوم خيبر فقال: "أنا الّذي سمّتني أمّي حيدرة"[6].

ويكنى عليٌّ ﷺ بأبي الحسن، نسبة إلى ابنه الأكبر الحسن[7]، كما كنّاه النّبيّ ﷺ بأبي تراب، وكان عليٌّ ﷺ يفرح إذا نودي بها؛ وذلك لأنّ الرّسول ﷺ أتى بيت فاطمة ﵂ وقت القيلولة فلم يجد عليًّا عندها، فسألها عن ابن عمّها، فأخبرته أنّه كان بينها وبينه شيء فغاضبها فخرج فلم يُقِل عندها، فكلّف النّبيّ ﷺ إنسانًا أن ينظر أين هو؟ فأخبره أنّه راقد في المسجد، فجاءه رسول الله ﷺ وهو مضطجع، وقد سقط رداؤه عن شِقّه، وأصابه تراب، فجعل يمسحه عنه ويقول: "قُمْ أَبَا تُرَابٍ، قُمْ أَبَا تُرَابٍ"[8].

---

(١) ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٦، ص١٢.

(٢) الصّالحي: سبل الهدى والرّشاد في سيرة خير العباد، ج١١، ص٨٣.

(٣) ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٦، ص١٢؛ أحمد بن حنبل: فضائل الصّحابة، ج٢، ص٦٨٥.

(٤) أحمد بن حنبل: فضائل الصّحابة، ج٢، ص٦٨٥.

(٥) المحبّ الطّبري الرّياض النضرة في مناقب العشرة، ج٣، ص١٠٧.

(٦) مسلم: الصّحيح، (كتاب الجهاد والسّير، باب غزوةِ ذي قَرَدٍ وغيرِها)، ج٤ ص١٨٧٢، ح٢٤٠٦. ولمّا كانت لعليّ وآبائه أسماء غير الّتي يشتهرون بها، فقد رُوي أنّ بعض أهل النّسب سأل عن رجل من الصّحابة من بني هاشم يُقال له: أسد بن عبد مناف بن شيبة بن عمرو بن المغيرة بن زيد، فلم يجبه أحد حتّى قال: هو عليّ بن أبي طالب. ابن الجوزي: المنتظم، ج٢، ص٢٢٣.

(٧) ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٦، ص١٢.

(٨) البخاري: الصّحيح، (كتاب المساجد، باب نوم الرّجال في المسجد)، ج١، ص١٦٩، ح٤٣٠؛ مسلم: الصّحيح، (كتاب فضائل الصّحابة، باب فضائل عليّ بن أبي طالب)، ج٤، ص١٨٧٤، ح٢٤٠٩.

📖 **نشأة عليّ**:

لقد أصاب الشّاعر الحكيم المتنبّي (ت: ٣٥٤هـ/٩٦٥م) عندما قال: "مَصَائِبُ قَوْمٍ عِنْدَ قَوْمٍ فَوَائِدُ"(١)؛ لأنّ هذا ما حدث مع عليّ بن أبي طالب ﷺ؛ فقد أصابت قريشًا أزمةٌ اقتصاديّة قبيل البعثة النّبويّة، وكانت لها آثارها القاسية على القرشيّين، حتّى جاع النّاس جوعًا شديدًا واضطرّوا لأكل الرّمم(٢)، وكان النّبيّ ﷺ قد تزوّج من السّيّدة القرشيّة الثّريّة خديجة بنت خويلد الأسديّة(٣)، فوضعت مالها تحت تصرّفه يوجّهه إلى الخير كيف يشاء(٤)، ولذا كان النّبيّ ﷺ عند حدوث تلك الأزمة من أيسر القرشيّين بجانب عمّه العبّاس(٥)، الّذي كان رجلاً تاجرًا(٦)، ذا مال كثير(٧).

ولم يقف النّبيّ ﷺ مكتوف اليدين وهو يرى النّاس على شفا هلكة، ولكنّه عمل على معالجة الأزمة على مستوى عشيرته الأقربين، ولم يكتف بما عزم عليه من القيام بتخفيف الأعباء عن المقلّين والمتضرّرين بمفرده؛ بل قام بدعوة الموسرين من عشيرته بتحمّل مسؤوليّاتهم تجاه تلك الأزمة(٨).

ولمّا كان أبو طالب بنُ عبد المطّلب من أكثر المتضرّرين من الأزمة الاقتصاديّة وقتئذٍ بسبب قلّة ماله وكثرة عياله، فقد اقترح النّبيّ ﷺ على عمّه العبّاس الثّريّ مساعدة أبي طالب، وقدّم له خطّة المساعدة الّتي تتمثّل في ضمّ بعض أولاد أبي طالب إليهما والتّكفّل

---

(١) ديوان المتنبّي، تحقيق/ مصطفى السّقّا، وآخرين، دار المعرفة، بيروت، ج١، ص٢٣.

(٢) الحاكم: المستدرك على الصّحيحين، ج٣، ص٦٦٦.

(٣) ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج١، ص١٣١.

(٤) محمد أحمد مصطفى أبو زهرة: خاتم النّبيّين ﷺ، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، ج١، ص١٤٦.

(٥) الهيثمي: كشف الأستار عن زوائد البزّار، تحقيق/ حبيب الرّحمن الأعظمي، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، ج٢، ص٣٧٤.

(٦) أبو يعلى: المسند، ج٣، ص١١٧.

(٧) ابن هشام: السّيرة النّبويّة، ج١، ص٦٤٦؛ مسلم: الصّحيح، (كتاب الحجّ، باب حجّة النّبيّ ﷺ)، ج٢، ص٨٨٩، ح١٢١٨.

(٨) محمّد عبد العال محمّد حسن: الأزمات الاقتصاديّة عند المسلمين في العهد النّبويّ، ص١٣.

بالنّفقة عليهم حتّى تنجلي الأزمة، واستصحب النّبيُّ ﷺ عمّه العبّاس إلى أبي طالب وعرضا عليه خطّة المساعدة فوافق عليها، فأخذ النّبيّ ﷺ عليًّا، وأخذ العبّاس جعفرًا، فلم يزالا معهما حتّى استغنيا[(١)].

وبهذا يردّ رسول الله ﷺ الجميل والمعروف لعمّه أبي طالب الّذي كفله بعد وفاة جدّه عبد المطّلب، فكان هذا من أكبر نعم الله ﷻ على عليٍّ ﷺ، حيث نشأ في بيت الإسلام وتعرّف على أسراره في مرحلة مبكّرة من حياته، وربّاه رسول الله ﷺ على أخلاق القرآن، فانعكس هذا الخلق القرآنيّ على عليٍّ ﷺ، وكفى بتربية النّبيّ ﷺ تربية[(٢)].

🕮 إسلام عليّ:

سبق القول في الحديث عن إسلام أبي بكر الصّدّيق ﷺ أنّ الرّوايات الصّحيحة تتعارض في أوّليّة من أسلم من الذّكور بعد السّيّدة خديجة ﵂ بين أبي بكر الصّدّيق وعلي بن أبي طالب ﵄.

وقد اختلفت الأقوال في سنّ عليّ بن أبي طالب ﷺ عند دخوله في الإسلام، فحدّده عروة بن الزّبير بثماني سنين، وجعله ابن إسحاق في العاشرة من عمره، وصعد به الحسن البصريّ إلى خمسَ عشرةَ أو ستَّ عشرةَ سنة[(٣)].

وقد استبعد أبو الفرج ابن الجوزيّ القول الثّالث اعتمادًا على حساب سنيّ عمره؛ لأنّه إذا كان لعليّ ﷺ يوم المبعث ثمان سنين، فقد عاش بعد المبعث ثلاثًا وعشرين سنة،

---

(١) ابن هشام: السّيرة النّبويّة، ج١، ص٢٤٦؛ الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج١، ص٥٣٨، ٥٣٩. ولم تصحّ رواية هذه القصّة حديثيًّا، لأنّها منقطعة الإسناد عند ابن إسحاق، وعنه رواها الطّبريّ والحاكم من نفس الطّريق، وعلّق الهيثميّ على رواية البزّار المتّصلة فقال: "فيه من لم أعرفهم"، مجمع الزّوائد، ج٨، ص١٥٣. ولكن هذا الضعف لا يضير خبر هذه الأزمة في شيء؛ لأنّه حدث تاريخي بحت لا يتعلّق بالعقيدة والأحكام. محمّد عبد العال محمّد حسن: الأزمات الاقتصاديّة عند المسلمين في العهد النّبويّ، ص١٤.

(٢) علي محمّد محمّد الصّلّابي: أسمى المطالب في سيرة أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب، دار الفجر، القاهرة، الطّبعة الأولى، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، ج١، ص٣٨.

(٣) الطّبراني: المعجم الكبير، ج١، ص٩٥؛ الحاكم: المستدرك على الصّحيحين، ج٣، ص٣٢٥؛ البيهقي: السّنن الكبرى، ج٦، ص٢٠٧.

وبقي بعد رسول الله ﷺ نحو الثّلاثين عامًا، فهذه مقاربة السّتّين على الصّحيح في مقدار عمره، ومتى قيل إنّه كان له يوم إسلامه خمسَ عشرةَ سنة صار عمره ثمانيًا وستّين، ولم يقل هذا أحد(١).

وقد كثرت الرّوايات الواهية والموضوعة، حول تحديد يوم إسلام عليٍّ ﷺ وصلاته بيوم الثّلاثاء بعد السّيّدة خديجة ﵂ بيوم واحد(٢)، وأنّه صلّى قبل المسلمين بسبع سنين(٣)، وفضائل عليّ ﷺ الثّابتة كثيرة فلا يحتاج إلى الكذب والمغالاة(٤).

📖 مصاهرة عليٍّ ﷺ للنّبيّ ﷺ:

تزوّج عليّ بن أبي طالب ﷺ من السّيّدة فاطمة ﵂ بعد غزوة بدر الكبرى، وكان قد أصاب شارفًا(٥) من مغانم يوم بدر، وأعطاه النّبيّ ﷺ شارفًا أخري، فأناخهما عند باب رجلٍ من الأنصار وهو يريد أن يحمل عليهما إذْخِرًا(٦) إلى سوق بني قينقاع ليستعين بذلك على وليمة زواجه، غير أنّ عمّه حمزة ﷺ كان قد جلس في ذلك البيت يشرب الخمر - قبل تحريمها - وجارية تغنّيه، وتبعث همّته على الكرم، فلعبت الخمر بعقل حمزة، فخرج إلى الشّارفين، وانهال عليهما عقرًا وبقرًا، حتّى أخذ من أكبادهما، وجاء عليٌّ ﷺ يسعى، فرأى منظرًا فظيعًا، فشكا عمّه للنّبيّ ﷺ فتغيّظ عليه، ثمّ رجع لغلبة السّكر على حمزة ﷺ(٧).

---

(١) ابن الجوزي: التّحقيق في أحاديث الخلاف، تحقيق/ مسعد عبد الحميد السّعدني، دار الكتب العلميّة، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤١٥هـ، جـ٢، ص٢٣٥.

(٢) البزّار: المسند "البحر الزّخّار"، جـ٩، ص٣٢١، ح٣٨٧١؛ الطّبراني: المعجم الكبير، جـ١، ص٣٢٠، ح٩٥٢؛ الحاكم: المستدرك، جـ٢، ص٣٢٦؛ ابن الأثير: جامع الأصول في أحاديث الرّسول، جـ٨، ص٦٤٨، ح٦٤٨٤؛ الهيثمي: مجمع الزّوائد، جـ٩، ص١٠٣.

(٣) محمّد عبد العال محمّد حسن: المرويّات التّاريخيّة في المستدرك، رسالة ماجستير، جـ١، ص٣٤٢، ٣٤٣.

(٤) أكرم ضياء العمري: السّيرة النّبويّة الصّحيحة، جـ١، ص١٣٤.

(٥) الشّارف: النّاقة المُسنّة. ابن منظور: لسان العرب، جـ٩، ص١٧٣.

(٦) الإذخر: حشيشة طيّبة الرّائحة تسقف بها البيوت فوق الخشب. ابن منظور: لسان العرب، جـ٤، ص٣٠٣.

(٧) البخاري: الصّحيح، (كتاب المساقاة، باب بيع الحطب والكلأ)، جـ٢، ص٨٣٧، ح٢٢٤٦؛ مسلم: الصّحيح، (كتاب الأشربة، باب تحريم الخمر)، جـ٣، ص١٥٦٨، ح١٩٧٩.

وأراد عليٌّ ﷺ بعد فاجعته في ماله أن يتزوّج، فأخبره النّبيّ ﷺ بأنّه لا بدّ للعرس من وليمة، فأعانه سعد بن أبي وقّاص ﷺ بكبش، كما ساعده جماعة من الأنصار بكميّة من ذُرَةٍ[1]، فتمّ زواجه من فاطمة ﷺ.

ولمّا أُهديت فاطمة ﷺ إلى ابن عمّها عليّ بن أبي طالب ﷺ لم يجدوا في بيته إلّا رَمْلًا مبسوطًا، ووسادةً حشوُها ليفٌ، وجَرّةً، وكوزًا[2].

وقد أنجبت السّيّدة فاطمة ﷺ الحسن والحسين ﷺ، وهما سيّدا شباب أهل الجنّة[3]، وسبطا رسول الله ﷺ.

ولم يأذن النّبيّ ﷺ لعليّ بن أبي طالب ﷺ في الزّواج من ابنة عدوّ الله أبي جهل[4] على ابنته فاطمة ﷺ؛ فقد حدث أن ذكرها عليٌّ ﷺ للزّواج، فلمّا بلغ ذلك فاطمة ﷺ أتت رسول الله ﷺ فقالت: "يَزْعُمُ قَوْمُكَ أَنَّكَ لَا تَغْضَبُ لِبَنَاتِكَ"[5]، كما جاء بنو المغيرة بن مخزوم يستأذنون النّبيّ ﷺ في تزويج ابنتهم لعليّ ﷺ، فرفض رسول الله ﷺ، وخطب فقال: "إِنَّ بَنِي هِشَامِ بْنِ الْمُغِيرَةِ اسْتَأْذَنُونِي أَنْ يُنْكِحُوا ابْنَتَهُمْ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ، فَلَا آذَنُ لَهُمْ، ثُمَّ لَا آذَنُ لَهُمْ، ثُمَّ لَا آذَنُ لَهُمْ، إِلَّا أَنْ يُحِبَّ ابْنُ أَبِي طَالِبٍ أَنْ يُطَلِّقَ ابْنَتِي وَيَنْكِحَ ابْنَتَهُمْ، فَإِنَّمَا ابْنَتِي بَضْعَةٌ مِنِّي، يَرِيبُنِي مَا رَابَهَا، وَيُؤْذِينِي مَا آذَاهَا"[6]، "وَأَنَا أَتَخَوَّفُ أَنْ تُفْتَنَ فِي دِينِهَا، وَإِنِّي

---

(١) أحمد بن حنبل: المسند، ج٣٨، ص١٤٢، ح٢٣٠٣٥. ورشّح المحقّقون إسناده للتّحسين. ورواه الطّبرانيّ في المعجم الكبير، ج٢، ص٢٠، ح١١٥٣. والطّحاويّ في شرح مشكِل الآثار، ج١٥، ص٢٠١، ح٥٩٤٧. وقال ابن حجر" "إسناده لا بأس به". فتح الباري، ج٩، ص٢٣٠.

(٢) أحمد بن حنبل: فضائل الصّحابة، ج٢، ص٧٠٢، ٧٠٣، ح٩٥٨. ورجال إسناده ثقات.

(٣) أحمد بن حنبل: المسند، ج١٧، ص٣١، ح١٠٩٩٩. وصحّح المحقّقون إسناده.

(٤) هي جويرية بنت أبي جهل. ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٨، ص٢٦٢؛ ابن حجر: الإصابة في تمييز الصّحابة، ج٨، ص٧٢.

(٥) البخاري: الصّحيح، (كتاب فضائل الصّحابة، باب ذكر أصهار النّبيّ ﷺ)، ج٣، ص١٣٦٤، ح٣٥٢٣؛ مسلم: الصّحيح، (كتاب فضائل الصّحابة، باب فضائل فاطمة)، ج٤، ص١٩٠٣، ح٢٤٤٩.

(٦) البخاري: الصّحيح، (كتاب النّكاح، باب ذبّ الرّجل على ابنته في الغيرة والإنصاف)، ج٥، ص٣٠٤، ح٤٩٣٢؛ مسلم: الصّحيح، (كتاب فضائل الصّحابة، باب فضائل فاطمة ﷺ)، ج٤، ص١٩٠٢، ح٢٤٤٩.

لَسْتُ أُحَرِّمُ حَلَالاً، وَلَا أُحِلُّ حَرَامًا، وَلَكِنْ وَاللهِ لَا تَجْتَمِعُ بِنْتُ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَبِنْتُ عَدُوِّ اللهِ أَبَدًا"(١).

ويظهر من هذه الأحاديث أنّ النّبيّ ﷺ نهى عليًّا ﷺ عن الزّواج من ابنة أبي جهل لعلّتين، **إحداهما**: "أنّ ذلك يُؤدّي إلى أذى فاطمةَ، فيتأذّى حينئذٍ النّبيُّ ﷺ فيهلِكُ مَن آذاه، فنهى النّبيّ ﷺ عن ذلك لكمال شفقته على عليٍّ وعلى فاطمة". **والثّانية**: "خوفُ الفتنة على فاطمة بسبب الغَيْرة"(٢).

ويحتمل أنّ النّبيّ ﷺ أخبر بتحريم الجمع بين بنت نبيّ الله وبنت عدوّ الله، ويكون معنى "لَا أُحَرِّمُ حَلَالًا" أي "لا أقول شيئًا يخالف حكم الله، فإذا أحلّ شيئًا لم أُحرّمه، وإذا حرّمه لم أحلّله ولم أسكت عن تحريمه، لأنّ سكوتي تحليلٌ له ويكون من جملة محرّمات النّكاح الجمع بين بنت نبيّ الله وبنت عدوّ الله"(٣).

وقد استنبط العلماء من مجموع روايات هذه القصّة أنّ النّبيّ ﷺ حرّم على عليٍّ ﷺ أن يجمع بين ابنته وابنة عدوّه أبي جهل؛ لأنّ ذلك يؤذيه، وأذيّته حرام بالاتّفاق(٤)، وأنّه راعى خاطر ابنته فاطمة ﷺ، ورجّح الحافظ ابن حجر أن يكون ذلك من خصائص النّبيّ ﷺ بألّا يُتزوّج على بناته، ولم يمنع احتمال خصوصيّته بالسّيّدة فاطمة ﷺ، وعلّل ذلك بأنّها أُصيبت بأمّها ثمّ بأخواتها واحدة بعد واحدة فلم يبق لها من تستأنس به ممّن يخفّف عليها الأمر ممّن تفضي إليه بسرّها إذا حصلت لها الغَيرة(٥).

والّذي يظهر لي أنّ النّبيّ ﷺ منع تزويج عليّ ﷺ من ابنة أبي جهل؛ لفرط حبّ فاطمة لأبيها ﷺ، وهي لذلك لا تتحمّل أن ترى من تذكّرها بالرّجل الّذي طالما آذى أباها ﷺ

---

(١) البخاري: الصّحيح، (كتاب الخمس، باب ما ذكر من درع النّبيّ ﷺ)، ج٣، ص١١٣٢، ح٢٩٤٣؛ (كتاب فضائل الصّحابة، باب ذكر أصهار النّبيّ ﷺ)، ج٣، ص١٣٦٤، ح٣٥٢٣، مسلم: الصّحيح، (كتاب فضائل الصّحابة، باب فضائل فاطمة)، ج٤، ص١٩٠٣، ح٢٤٤٩.

(٢) ابن تيمية: منهاج السُّنّة النّبويّة، ج٤، ص٢٥١.

(٣) منهاج السُّنّة النّبويّة، ج٤، ص٢٥١.

(٤) نقل الحافظ ابن حجر هذا القول عن ابن التّين. فتح الباري، ج٩، ص٣٢٨، ٣٢٩.

(٥) فتح الباري، ج٩، ص٣٢٩.



وحرّض عليه، وقد شاهدت هي بنفسها بعض تلك المواقف، بل انفردت بالذّبّ عنه أحيانًا، وطرحت سلا الجزور عن ظهره الشّريف، وشتمت المشركين وهي جويريّة(١).

🕮 جهاد عليٍّ مع النّبيّ ﷺ:

يطول الحديث بنا مع مواقف عليٍّ الجهاديّة مع النّبيّ ﷺ، فقد عُرف بالشّجاعة والبطولة، ولذا سيقتصر الحديث هاهنا على بعض المواقف الشّهيرة:

(أ) دوره في الهجرة النّبويّة:

كان لعليّ بن أبي طالب ﷺ دورٌ كبيرٌ عند الهجرة النّبويّة يكشف عن بطولته وشجاعته، وأنّه لا يبالي بالتّعرّض للخطر، فقد دعاه النّبيّ ﷺ عندما أُذن له في الهجرة فألبسه بُرده، وأمره بالمبيت في مكانه، واجتمع المشركون على باب النّبيّ ﷺ يريدون قتله، فجعلوا يرمونه بالحجارة كما كان يُرى نبيّ الله وهو يَتَضَوَّرُ(٢)، قد لفّ رأسه في الثّوب لا يخرجُه حتّى أصبح، ثمّ كشف عن رأسه، فقالوا: "إنّك للئيم، إنّك لتتضوّر، وكان صاحبُك لا يتضوّر، ولقد استنكرناه منك(٣).

كما أمره النّبيّ ﷺ أن يتخلّف بمكّة حتّى يؤدّي عنه الودائع الّتي كانت عنده للنّاس، ولم يكن بمكّة أحدٌ عنده شيءٌ يخشى عليه إلّا وضعه عند رسول الله ﷺ؛ لما يعلم من صدقه وأمانته(٤)، فأقام عليٌّ ﷺ لذلك ثلاث ليال وأيّامها حتّى أدّى عن رسول الله ﷺ الودائع وفرغ منها، ثمّ لحق رسول الله ﷺ(٥).

---

(١) ينظر موقف السّيّدة فاطمة في الذّبّ عن أبيها ﷺ عند البخاريّ. الصّحيح، (كتاب الصّلاة، باب المرأة تطرح عن المصلّي شيئًا من الأذى)، ج١، ص١٩٤، ح٤٩٨؛ مسلم: الصّحيح، (كتاب الجهاد والسّير، باب ما لقي النّبيّ ﷺ من أذى المشركين والمنافقين)، ج٣، ص١٤١٨، ح١٧٩٤.

(٢) يتضوّر: يتلوّى ويصيح من وجع الضّرب. ابن منظور: لسان العرب، ج٤، ص٤٩٤.

(٣) أحمد بن حنبل: المسند، ج٥، ص١٨٠، ح٣٠٦١. وقال الهيثميّ: "رواه أحمد والطّبرانيّ باختصار ورجال أحمد رجال الصّحيح غير أبي بلج الفزاريّ وهو ثقة وفيه لين". مجمع الزّوائد، ج٩، ص١١٩، ٢٢٠، ح١٤٦٩٦. واستدركه الحاكم، وصحّح إسناده، وأقرّه الذّهبيّ. المستدرك، ج٣، ص٥، ح٤٢٦٣.

(٤) ابن هشام: السّيرة النّبويّة، ج١، ص٤٨٥.

(٥) ابن هشام: السّيرة النّبويّة، ج١، ص٤٩٣؛ البيهقي: السّنن الكبرى، ج٦، ص٢٨٩، ح١٢٦٩٧. والحديث سنده قويّ. ابن حجر: التّلخيص الحبير، ج٣، ص٩٨.

(ب) في غزوة الخندق:

لم يعلم المشركون الّذين تحزّبوا على رسول الله ﷺ وأصحابه سنة خمسٍ من الهجرة بحفر المسلمين للخندق في الجهة الشّماليّة للمدينة النّبويّة حتّى وقفت عليه خيولهم، ولكنّ فرسانهم صمّموا على اقتحامه، وراحوا يبحثون عن مكان ضيّق غفل عنه الحرّاس فوجدوه في نصف الخندق الغربيّ فاقتحمه نفرٌ، منهم: عمرو بنُ عبد وُدّ العامريّ، وعكرمة ابن أبي جهلٍ المخزوميّ[1]، وكان ابن عبد وُدّ من فرسان قريش المعدودين، فخرج يوم الخندق معلّمًا، وطلب المبارزة، فخرج إليه عليّ بن أبي طالب ﷺ فقتله[2]، فولّى أصحابُه هاربين[3].

(ج) في غزوة خيبر:

لقد رُويت بعض الآثار الّتي تفيد بأنّ النّبيّ ﷺ بعث أبا بكر الصّدّيق ﷺ لفتح حصن "ناعم" فجهد ورجع منهزمًا، ثمّ بعث بعده عمر بن الخطّاب ﷺ فرجع يجبّن أصحابه ويجبّنونه[4]، إلى أن دفع الرّاية لعليّ بن أبي طالب ﷺ ففُتح الحصن على يديه.

والمتتبّع لتلك الرّوايات يشتمّ منها رائحة الخبث الشّيعيّ والوضع، ويجدها لا تخلو من ضعيف أو متّهم ببغض الشّيخين؛ فقد روى البخاريّ[5] ومسلم[6] حديث الرّاية عن سهل بن سعدٍ ﷺ أنّ رسول الله ﷺ قال يوم خيبرَ: "لَأُعْطِيَنَّ هَذِهِ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلاً يَفْتَحُ اللهُ عَلَى يَدَيْهِ، يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ، فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ[7] لَيْلَتَهُمْ أَيُّهُمْ

---

(١) ابن هشام: السّيرة النّبويّة، ج٢، ص٢٢٤؛ أكرم ضياء العمري: السّيرة النّبويّة الصحيحة، ج٢، ص٤٢٦.

(٢) لا يوجد في أخبار مبارزة عليّ بن أبي طالب ﷺ لعمرو بن عبد ودّ العامريّ أقوى من رواية أخرجها الحاكم مختصرة عن عبد الله بن عبّاس رضي الله عنهما، وقد صحّح الحاكم إسنادها على شرط الشّيخين، وأقرّه الذّهبيّ. المستدرك على الصّحيحين، ج٣، ص٣٣، ح٤٣٢٦. وأهل السِّير يجمعون على قتل عليّ ﷺ لعمرو بن عبد وُدّ.

(٣) ابن هشام: السّيرة النّبويّة، ج٢، ص٢٢٥.

(٤) لم يصحّ شيء من تلك الرّوايات، ولم ينهزم أبو بكر ولا عمر رضي الله عنهما. ابن تيمية: منهاج السُّنّة النّبويّة، ج٨، ص١٢٣.

(٥) صحيح البخاري، (كتاب المغازي، باب غزوة خيبر)، ج٤، ص١٥٤٢، ح٣٩٧٣.

(٦) صحيح مسلم، (كتاب فضائل الصّحابة، باب من فضائل عليّ ﷺ)، ج٤ ص١٨٧٢، ح٢٤٠٦.

(٧) يدوكون: يخوضون ويموجون أيّهم يدفعها إليه. ابن منظور: لسان العرب، ج١٠، ص٤٣٠.

يُعْطَاهَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ النَّاسُ غَدَوْا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَاهَا، فَقَالَ: أَيْنَ عَلِيُّ ابْنُ أَبِي طَالِبٍ؟ فَقِيلَ: هُوَ يَا رَسُولَ اللَّهِ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ، فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ، فَأُتِيَ بِهِ، فَبَصَقَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي عَيْنَيْهِ، وَدَعَا لَهُ، فَبَرَأَ، حَتَّى كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ، فَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ".

وهذه الرّواية الصّحيحة ليس فيها ذكرٌ من قريب ولا من بعيد لأبي بكر الصّدّيق ولا لعمر الفاروق، والاكتفاء بما في الصّحيح أسلم في مثل هذه المواضع الّتي تشعر بتحريف الرّوايات لتفضيل عليٍّ رضي الله عنه على الشّيخين(١).

وعندما أخذ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه الرّاية قال: "يَا رَسُولَ اللَّهِ، أُقَاتِلُهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا"؟ فقال: "انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلَامِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللَّهِ فِيهِ، فَوَاللَّهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ"(٢). وهذه الوصيّة من النّبيّ ﷺ لعليّ رضي الله عنه بدعوة يهود خيبر - أو أهل الحصن المُحَاصر - إلى الإسلام تؤيّد القول بأنّه لم يرسل قبله أبا بكر ولا عمر؛ لأنّ دعوة المشركين إلى الإسلام إنّما تكون قبل الشّروع في القتال، وليس للقائد الثّالث فقط!

وحديث الرّاية أصحّ فضائل عليّ رضي الله عنه، وليس هذا الوصفُ مختصًّا بالأئمّة ولا بعليٍّ؛ فإنّ الله ورسوله يحبّان كلّ مؤمن تقيّ، وكلّ مؤمنٍ تقيّ يحبّ الله ورسوله؛ لكنّ هذا الحديث من أحسن ما يُحتجّ به على النّواصب الّذين يتبرءون منه ولا يتولّونه ولا يحبّونه(٣).

وكان مَرْحَبٌ اليهوديّ قد خرج {من حصن ناعم} يطلب المبارزة وهو يَخْطِرُ بسيفه، فبرز له عامرُ بن الأكوع، فاختلفا ضربتين، فمات عامر رضي الله عنه من سيفه أثناء المبارزة، فظنّ بعض الصّحابة أنّه قتل نفسه، وقالوا: بطَل عملُ عامرٍ، ورُفع خبرُه إلى النّبيّ ﷺ فقال: "بَلْ لَهُ أَجْرُهُ مَرَّتَيْنِ"، ثمّ خرج مرحبٌ يطلب المبارزة مرّة أخرى، فخرج إليه عليٌّ رضي الله عنه فضرب رأسه فقتله، ثمّ كان الفتحُ على يديه(٤).

---

(١) محمّد عبد العال محمّد حسن: المرويّات التّاريخيّة في المستدرك، ج٢، ص٥٧١، ٥٧٢.

(٢) البخاري: الصّحيح، (كتاب المغازي، باب غزوة خيبر)، ج٤، ص١٥٤٢، ح٣٩٧٣؛ مسلم: الصّحيح، (كتاب فضائل الصّحابة، باب من فضائل عليّ رضي الله عنه)، ج٤ ص١٨٧٢، ح٢٤٠٦.

(٣) ابن تيمية: منهاج السُّنّة، ج٥، ص٤٤.

(٤) مسلم: الصّحيح، (كتاب الجهاد والسِّير، باب غزوة ذي قَرَدٍ وغيرِها)، ج٤ ص١٨٧٢، ح٢٤٠٦.

(د) في غزوة تبوك:

عندما توجّه النّبيّ ﷺ إلى تبوك استخلف عليًّا رضي الله عنه على أهله[١]، فعزّ عليه أن يتخلّف عن شهود ذلك اليوم فقال: "يَا رَسُولَ اللَّهِ، تُخَلِّفُنِي فِي النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ؟ فَقَالَ: "أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى، غَيْرَ أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي"[٢]. ويُجمع الرّواة على أنّ عليًّا رضي الله عنه لم يتخلّف إلّا عن غزوة تبوك[٣].

وقد تمسّك الشّيعة بهذا الحديث، وبقوله ﷺ: "مَنْ كُنْتُ مَوْلَاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلَاهُ"[٤]، وما أشبه ذلك ممّا يجعلونه حجّة في دعاويهم، وهذه الأقوال ليست من ألفاظ النّصوص والاستخلاف والوصايا في لغة ولا في عقل ولا في شريعة، وإنّما هي فضائل أدخلها هؤلاء في هذه الدّعاوي، ولا يوجد في عهود النّبيّ ﷺ ووصاياه في الإمارة والبعوث مثل هذا قطّ[٥].

ولو كانت الوصيّة لعليّ رضي الله عنه بمثل ما ذكروه من نصوص لثبتتْ لغيره بأقوى منه؛ فقد جعل النّبيّ ﷺ أبا بكر رضي الله عنه بمنزلة الخليل إبراهيم عليه السلام، وجعل عمر بمنزلة نوح عليه السلام، وشبّه عثمان رضي الله عنه بلوط عليه السلام، وقال: "رَضِيتُ لِأُمَّتِي مَا رَضِيَ لَهَا ابْنُ أُمِّ عَبْدٍ، وَكَرِهْتُ لِأُمَّتِي مَا كَرِهَ لَهَا ابْنُ أُمِّ عَبْدٍ"[٦]، ومثل هذه الفضائل كثيرة في حقّ المهاجرين والأنصار[٧].

ثمّ إنّ قول النّبيّ ﷺ لعليّ رضي الله عنه: "أَنْتَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى" لا ينصرف قطّ إلى أنّه الخليفة من بعده؛ لأنّ هارون عليه السلام مات قبل موسى عليه السلام بسنين كثيرة، وخَلَفَه بعد

---

(١) ابن حجر: فتح الباري، ج٨، ص١١٢.

(٢) البخاري: الصّحيح، (كتاب المغازي، باب غزوة تبوك)، ج٤، ص١٦٠٢، ح ٤١٥٤؛ مسلم: الصّحيح، (كتاب فضائل الصّحابة، باب من فضائل عليّ)، ج٤، ص١٨٧٠، ح٢٤٠٤.

(٣) ابن الأثير: أسد الغابة، ج٤، ص٨٧.

(٤) أحمد بن حنبل: المسند، ج٣٨، ص١٩٣، ح٢٣١٠٧؛ فضائل الصّحابة، ج٢، ص٧٠٣، ح٩٥٩. وصحّح المحقّقون إسناده. ورواه التّرمذيّ في سننه، وقال: "هذا حديث حسن غريب". (كتاب المناقب، باب مناقب علي بن أبي طالب)، ج٥، ص٦٣٣، ح٣٧١٣. واستدرك الحاكم هذا الحديث على الشّيخين، وصحّح إسناده، وأقرّه الذّهبيّ. المستدرك، ج٣، ص٦١٣، ح٦٢٧٢.

(٥) القاضي عبد الجبّار: تثبيت دلائل النّبوّة، ج١، ص٢١٦، ٢١٧.

(٦) أحمد بن حنبل: فضائل الصّحابة، ج٢، ص١٠٥٧، ح١٥٣٦؛ البزّار: البحر الزّخّار، ج٥، ص٣٥٤، ح١٩٨٦.

(٧) القاضي عبد الجبّار: تثبيت دلائل النّبوّة، ج١، ص٢١٨، ٢١٩.



موته يوشعُ بن نون[1]، وهذا الحديث المذكور في عليّ ﷺ ليس من خصائصه؛ فإنّ النّبيّ ﷺ استخلف على المدينة غير واحد من أصحابه، ولم يكن هذا الاستخلاف أكمل من غيره. ولهذا قال له عليٌّ: "أَتُخَلِّفُنِي مَعَ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ"؟ لأنّ النّبيّ ﷺ كان في كلّ غزاة يترك بالمدينة رجالاً من المهاجرين والأنصار إلّا في غزوة تبوك فإنّه أمر المسلمين جميعهم بالنّفير، فلم يتخلّف بالمدينة إلّا عاصٍ أو معذورٌ غير النّساء والصّبيان. ولهذا كره عليٌّ ﷺ الاستخلاف، وقال: "أَتُخَلِّفُنِي مَعَ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ"؟ يقول تتركني مخلّفًا لا تستصحبني معك؟ فبيّن له النّبيُّ ﷺ أنّ الاستخلاف ليس نقصًا ولا غضاضة؛ فإنّ موسى ﷺ استخلف هارون ﷺ على قومه لأمانته عنده، وكذلك أنت استخلفتك لأمانتك عندي، لكنّ موسى استخلف نبيًّا وأنا لا نبيّ بعدي. وهذا تشبيه في أصل الاستخلاف؛ فإنّ موسى استخلف هارون على جميع بني إسرائيل، والنّبيّ ﷺ استخلف عليًّا ﷺ على قليل من المسلمين، وجمهورهم استصحبهم في الغزاة[2].

ثمّ إنّ تأمير النّبيّ ﷺ لأبي بكر الصّدّيق ﷺ على عليّ بن أبي طالب ﷺ في حجّة السّنة التّاسعة من الهجرة كان بعد قوله ﷺ لعليّ ﷺ: "أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى"، فكان ما حصل في تلك الحجّة من أعظم فضائل الصّدّيق ﷺ؛ لأنّه خطب بالنّاس في ذلك الموسم والجمع العظيم، والنّاسُ منصتون لخطبته، يصلّون خلفه، وعليٌّ ﷺ من جملتهم، وقد قرأ عليٌّ ﷺ على النّاس عامئذ سورة براءة، وفيها فضل أبي بكر وذكر الغار، وهذا كلّه مناقض للاستخلاف الّذي ادّعته الشّيعة[3].

🕮 فقه عليّ ﷺ وقدرته على الإقناع:

عُرف عليّ بن أبي طالب ﷺ ببراعته في القضاء، حتّى كان عمر بن الخطّاب ﷺ يقول: "أَقْضَانَا عَلِيٌّ"[4].

---

(١) الباقِلّاني: تمهيد الأوائل وتلخيص الدّلائل، ص٤٥٨.

(٢) ابن تيمية: منهاج السُّنّة، ج٥، ص٤٣.

(٣) منهاج السُّنّة، ج٨، ص٢٩٧.

(٤) البخاري: الصّحيح، (كتاب التّفسير، باب قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾، ج٤، ص١٦٢٨، ح٤٢١١.

وقد تميّز عليٌّ ﷺ بفقهه الدّقيق وقدرته على التّأثير والإقناع، كما يلاحظ في إسلام قبيلة هَمْدان[1]، وذلك أنّ رسول الله ﷺ بعث خالد بن الوليد ﷺ إلى اليمن يدعوهم إلى الإسلام، فأقام عليهم ستّة أشهر لا يجيبونه إلى شيء، فبعث عليّ بن أبي طالب ﷺ في أثره، وأمره أن يقفل خالدًا ومن معه، فلمّا وصل عليٌّ إلى أوائل أهل اليمن، جمعوا له، فصلّى بالنّاس الفجر، ثمّ تقدّم إلى أهل اليمن، فحمد الله وأثنى عليه، ثمّ قرأ عليهم كتاب رسول الله ﷺ فأسلمتْ همْدانُ كلّها في يوم واحد، فكتب بذلك إلى رسول الله ﷺ فلمّا قرأ كتابه كبّر جالسًا، ثمّ سجد فقال: "السَّلَامُ عَلَى هَمْدَانَ" ثلاثًا، فتتابع أهل اليمن على الإسلام[2].

🕮 وجوب حبّ عليّ ﷺ:

ينبغي على كلّ مسلم أن يحبّ عليًّا ﷺ؛ لأنّ حبّه مقرون بحبّ الله ورسوله، وقد قال النّبيّ ﷺ: "مَنْ أَحَبَّ عَلِيًّا فَقَدْ أَحَبَّنِي، وَمَنْ أَحَبَّنِي فَقَدْ أَحَبَّ اللهَ، وَمَنْ أَبْغَضَ عَلِيًّا فَقَدْ أَبْغَضَنِي، وَمَنْ أَبْغَضَنِي فَقَدْ أَبْغَضَ اللهَ"[3].

وصحّ عن عليٍّ ﷺ أنّه قال: "وَالّذي فَلَقَ الْحَبَّةَ، وَبَرَأَ النَّسَمَةَ، إِنَّهُ لَعَهْدُ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ ﷺ إِلَيَّ: أَنْ لَا يُحِبَّنِي إِلّا مُؤْمِنٌ، وَلَا يُبْغِضَنِي إِلّا مُنَافِقٌ"[4].

---

(١) هَمْدان: إحدى قبائل كهلان القحطانيّة اليمنيّة الكبيرة. ابن الأثير: اللّباب، ج٣، ص٣٩١.

(٢) الرّوياني: مسند الرّوياني، تحقيق/ أيمن علي أبو يماني، مؤسّسة قرطبة، القاهرة، الطّبعة الأولى، ١٤١٦هـ، ج١، ص٢١٨؛ الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص١٩٧. وروى البيهقيّ هذا الحديث، وصحّح إسناده. معرفة السّنن والآثار، تحقيق/ عبد المعطي أمين قلعجي، دار الوفاء، المنصورة – القاهرة، الطّبعة الأولى، ١٤١٢هـ/١٩٩١م، ج٣، ص٣١٦، ٣١٧. وقد روى الإمام البخاري بعْثَ النّبيّ ﷺ عليًا إلى خالد باليمن مختصرًا. صحيح البخاري، (كتاب المغازي، باب بعث عليّ بن أبي طالب -عليه السّلام- وخالد بن الوليد ﷺ إلى اليمن قبل حجّة الوداع)، ج٤، ص١٥٨١، ح٤٠٩٣.

(٣) الطّبراني: المعجم الكبير، ج٢٣، ص٣٨٠، ح٩٠١؛ أبو طاهر المخَلِّص: المخلّصيّات، تحقيق/ نبيل سعد الدين، وزارة الأوقاف والشّئون الإسلاميّة، قطر، الطّبعة الأولى، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، ج٣، ص١٥٠، ح٢١٩٣. وحسّن الهيثمي إسناد الطبراني. مجمع الزّوائد، ج٩، ص١٣٢، ح١٤٧٥٧. وصحّح الألبانيّ إسناد المخلّص. السّلسلة الصّحيحة، ج٣، ص٢٨٨.

(٤) أحمد بن حنبل: فضائل الصّحابة، ج٢، ص٧٠٤، ح٩٦١؛ مسلم: الصّحيح، (كتاب الإيمان، باب الدّليل على أنّ حبّ الأنصار وعليّ ﷺ من الإيمان وعلاماته)، ج١، ص٨٦، ح٧٨.



واعلم أنّ من سبّ عليًّا ﷺ فقد ارتكب إثمًا عظيمًا؛ لأنّ رسول الله ﷺ قال: "مَنْ سَبَّ عَلِيًّا، فَقَدْ سَبَّنِي"(١).

وعندما سبّ رجلٌ من أهل الشّام عليًّا ﷺ عند ابن عبّاس ﷺ غضب عليه غضبًا شديدًا، وحصبه، وقال: "يَا عَدُوَّ اللَّهِ، آذَيْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ٥٧﴾(٢)، لَوْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَيًّا لآذَيْتَهُ"(٣).

ويصدّق ذلك قولُ عليّ ﷺ: "لَيُحِبُّنِي قَوْمٌ حَتَّى يَدْخُلُوا النَّارَ فِي حُبِّي، وَلَيُبْغِضُنِي قَوْمٌ حَتَّى يَدْخُلُوا النَّارَ فِي بُغْضِي"(٤).

ولهذا كان عليّ بن أبي طالب ﷺ شبيهًا بالمسيح بن مريم ﷺ؛ فقد غلا فيه قومٌ فوق قدره، حتّى ادّعوا فيه العصمة والإلهيّة، وانتقصه قومٌ آخرون حتّى كفّروه، فكانوا معه كاليهود مع المسيح(٥).

🕮 علاقة عليّ ﷺ بالخلفاء السّابقين:

كان عليّ بن أبي طالب ﷺ على علاقة طيّبة بالخلفاء الثّلاثة الرّاشدين ﷺ، وكان يفضّلهم على الأمّة كلّها، وقد روى ولدُه محمّد بن الحنفيّة رأيه فيهم فقال: "قُلْتُ لِأَبِي أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ: أَبُو بَكْرٍ، قُلْتُ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: ثُمَّ عُمَرُ، وَخَشِيتُ أَنْ يَقُولَ عُثْمَانُ، قُلْتُ: ثُمَّ أَنْتَ؟ قَالَ: مَا أَنَا إِلَّا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ"(٦).

---

(١) أحمد بن حنبل: المسند، ج٤٤، ص٣٢٨، ٣٢٩، ح٢٦٧٤٨. وصحّح إسناده محقّقو المسند، واستدركه الحاكم على الصّحيحين، وصحّح إسناده، وأقرّه الذّهبيّ. المستدرك، ج٣، ص١٣٠، ح٤٦١٥.

(٢) سورة الأحزاب: الآية ٥٧.

(٣) استدركه الحاكم على الصّحيحين، وصحّح إسناده، وأقرّه الذّهبيّ. المستدرك ، ج٣، ص١٣١، ح٤٦١٨.

(٤) أحمد بن حنبل: فضائل الصّحابة، ج٢، ص٦٩٨، ح٩٥٢؛ عبد الله بن أحمد بن حنبل: السُّنّة، ج٢، ص٥٧١، ح١٣٣٨؛ ابن أبي عاصم: السُّنّة، (ومعه ظلال الجنّة في تخريج السُّنّة)، المكتب الإسلامي، الطّبعة الأولى، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، ج٢، ص٤٧٦، ح٩٨٣. وصحّح المحقّقون إسناد الأثر.

(٥) ابن تيمية: منهاج السُّنّة، ج٤، ص١٩.

(٦) البخاري: الصّحيح، (كتاب فضائل الصّحابة، باب قول النّبيّ ﷺ لو كنت متّخذًا خليلاً)، ج٣، ص١٣٤٢، ح٣٤٦٨.

ولمّا استُخْلف الصّدّيق أبو بكر ﷺ مدحه عليّ ﷺ بالإيمان، وبايع له في البيعة العامّة كما مرّ في خلافة الصّدّيق، وخرج في صحبته إلى ذي القَصّة لمحاربة المرتدّين[1]، وبشّره بالظّفر على الرّوم[2]، ولم يفارقه في وقت من الأوقات، وكان يصلّي خلفه[3]، ويشاركه في المشورة، وتدبير أمور المسلمين.

وقد تحدّث أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ﷺ عن علاقته بأبي بكر الصّدّيق ﷺ أيّام خلافته فقال: "كُنْتُ وَاللَّهِ آخُذُ إِذَا أَعْطَانِي، وَأَغْزُو إِذَا أَغْزَانِي، وَأَضْرِبُ بِيَدِي هَذِهِ الْحُدُودَ بَيْنَ يَدَيْهِ"[4].

وبلغ من محبّة عليّ بن أبي طالب لأبي بكر الصّدّيق رضي الله عنهما أن سمّى ولدًا له باسمه، وهو "أبو بكر بن عليّ"[5]، وتبعه في ذلك الحسن والحسين رضي الله عنهما، فسمّى كلّ واحد منهما ولدًا له باسم أبي بكر[6].

ولمّا استُخْلف عمر ﷺ بايع له عليّ ﷺ مع المسلمين[7]، وزكّاه كما زكّى أبا بكر الصّدّيق ﷺ، وصلّى خلفه، وحجّ معه، ومدحه بالإيمان[8]، وخلّفه على المدينة في إحدى خرجاته إلى الشّام[9]، وتولّى له القضاء بالمدينة، فكان يقضي ويُفتي[10]، ثمّ دخل في الشّورى،

---

(١) القاضي عبد الجبّار: تثبيت دلائل النّبوّة، ج١، ص٢٤٦.

(٢) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ج٢، ص١٣٢، ١٣٣.

(٣) أحمد بن حنبل: المسند، ج١، ص٢١٣، ح٤٠؛ فضائل الصّحابة، ج٢، ص٩٦٢، ح١٣٥١. وصحّح المحقّقون إسناده.

(٤) الآجُرّي: الشّريعة، ج٤، ص١٧٢٤، ح١١٩٤. وأورده البوصيري من طريق إسحاق بن راهويه وصحّح إسناده. إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة، ج٤، ص٢١٧، ح٣٤٤٩.

(٥) ابن سعد: الطّبقات الكبير، ج٣، ص١٧؛ المسعودي: التّنبيه والإشراف، ص٢٥٨.

(٦) ابن سعد: الطّبقات الكبير، ج٦، ص٣٥٢؛ المسعودي: التّنبيه والإشراف، ص٢٦٣.

(٧) الآجُرّي: الشّريعة، ج٤، ص١٧٢٤، ح١١٩٤. وأورده البوصيري من طريق إسحاق بن راهويه وصحّح إسناده. إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة، ج٤، ص٢١٧، ح٣٤٤٩.

(٨) القاضي عبد الجبّار: تثبيت دلائل النّبوّة، ج١، ص٢٣٤.

(٩) تثبيت دلائل النّبوّة، ج١، ص٢٤٦.

(١٠) تثبيت دلائل النّبوّة، ج١، ص٢٤٩.



وعمل بالاختيار، وصلّى خلف صهيب الرّوميّ ﵁، كما وصّى عمر ﵁، وأطاع عمر كما وصّى أبو بكر[1].

وتحدّث أمير المؤمنين عليٌّ ﵁ عن علاقته بالفاروق عمر ﵁ أيّام خلافته فقال: "كُنْتُ أغزو إِذَا أَغْزَانِي، وَآخُذُ إِذَا أَعْطَانِي، وَكُنْتُ سَوْطًا بَيْنَ يَدَيْهِ فِي إِقَامَةِ الحُدُودِ[2]، وزوّج عليٌّ ابنته أمّ كلثوم بنت فاطمة ﵁ من أمير المؤمنين عمر وهو خليفة[3]، كما سمّى ولدًا له على اسمه، وهو عمر بن عليّ[4].

وحدث في خلافة عليٍّ ﵁ أن جاءه أهل نجران يطلبون شفاعته ويلتمسون إعادتهم إلى نجران بعدما أخرجهم الفاروق عمر ﵁، فقال لهم: "إِنَّ عُمَرَ كَانَ رَشِيدَ الْأَمْرِ، فَلَا أُغَيِّرُ شَيْئًا صَنَعَهُ عُمَرُ"، فقال النّاس: "لَوْ كَانَ فِي نَفْسِهِ عَلَيْهِ شَيْءٌ لَاغْتَنَمَ هَذَا"[5].

ولمّا استُخْلف عثمان ﵁ بايعه عليّ ﵁ وسلّم له، وزكّاه، ومدحه بالإيمان، وصلّى خلفه، وحجّ معه، وأطاعه، وعمل له[6]، وغزا الحسن والحسين ﵄ غير مرّة مع ولاة أمير المؤمنين عثمان ﵁ برضا أبيهما عليّ ﵁[7].

وقد سمّى عليٌّ ﵁ ولدًا له باسم "عثمان"[8]، وسمّى الحسين بن عليّ ﵄ ولدًا له باسم عثمان أيضًا[9]، ومن المعروف أنّ الرّجل لا يسمّي أولاده إلّا بأسماء أحبابه وأئمّته، وقد تبع عليًّا ﵁ بنوه في تسمية أولادهم بأسماء الرّاشدين، وكثر ذلك فيهم[10].

---

(١) القاضي عبد الجبّار: تثبيت دلائل النّبوّة، جا، ص٢٣٤.

(٢) أورده البوصيري من طريق إسحاق بن راهويه وصحّح إسناده. إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة، ج٤، ص٢١٧، ح٣٤٤٩.

(٣) ابن إسحاق: سيرة ابن إسحاق، ص٢٣٢؛ ابن سعد: الطّبقات الكبير، ج١٠، ص٤٢٩.

(٤) ابن سعد: الطّبقات الكبير، ج٣، ص١٨؛ المسعودي: التّنبيه والإشراف، ص٢٥٨.

(٥) القاسم بن سلّام: الأموال، ص١٣٨، ١٣٩.

(٦) القاضي عبد الجبّار: تثبيت دلائل النّبوّة، جا، ص٢٣٤.

(٧) تثبيت دلائل النّبوّة، جا، ص٢٤٩.

(٨) ابن سعد: الطّبقات الكبير، ج٣، ص١٨.

(٩) المسعودي: التّنبيه والإشراف، ص٢٦٣.

(١٠) القاضي عبد الجبّار: تثبيت دلائل النّبوّة، جا، ص٢٤٩.

وتحدّث أمير المؤمنين عليٌّ ﷺ عن حاله مع عثمان ﷺ بقوله: "كُنْتُ أَغْزُو إِذَا أَغْزَانِي، وَآخُذُ إِذَا أَعْطَانِي، وَكُنْتُ سَوْطًا بَيْنَ يَدَيْهِ فِي إِقَامَةِ الْحُدُودِ"(١).

ولئن كان الخلفاء الثّلاثة الرّاشدون كفّارًا كما تزعم الرّافضة، وأنّ عليّا ﷺ جاملهم، وفعل كلّ هذا خوفًا منهم وممّن بعدهم من شيعتهم فما تبيّن الحقّ إلى أن خرج من الدّنيا، فإذا كان هذا هو الحجّة والمعصوم والقائم مقام الرّسول ﷺ فعل هذا بغير حقّ، لم نأمن أن يكون كلّ من صاهر النّبيّ ﷺ ومدحه ونصّ عليه وشهد له بالجنّة وأمر النّاس بطاعته أن لا يكون هذا حاله، وأنه فعل مثل فعل هذا الحجّة، وهذا ما لا حيلة لهم فيه، وفيه فساد الدّيانات كلّها(٢).

ولو كان عليٌّ ﷺ كارهًا لإمارة الرّاشدين قبله، لما تعلّق بأبي بكر الصّديق ﷺ عندما خرج بنفسه لمحاربة المرتدّين وأخذ بعنان فرسه، وراح يشير عليه بالرّجوع، وينصحه بتسيير رجاله والعودة إلى المدينة حتّى أجابه(٣)، وقد فعل ذلك مع عمر ﷺ عندما همّ بالمسير لمقاتلة يزدجرد وجموع الفرس، حيث أمره أن يقيم بمكانه، فأخذ الفاروق برأيه، وأنفذ الجيش، وأقام في المدينة النّبويّة(٤).

ولئن زعمت الرّافضة أنّ أبا بكر وعمر ﷺ قد أحسنا إلى عليّ وبني هاشم حيلة وخديعة ليخرجوهم من الرّئاسة، فمن الحيلة والخديعة أن لا يدخلوهم في الشّورى، ولا ينبّهوا عليهم في الرّئاسة، ولا يستسقوا بهم، ولا يستشفعوا إلى الله بجاههم ومكانهم، ولا يشهدوا لهم بالجنّة، ولا يسيروا إليهم بالعلم والمعرفة، ولا فرق بين من ادّعى هذا، أو ادّعى أنّ ما كان من مدح رسول الله ﷺ لأهله وأصحابه إنّما كان على طريق المداراة والخديعة(٥).

---

(١) أورده البوصيري من طريق ابن راهويه وصحّح إسناده. إتحاف الخيرة المهرة، ج٤، ص٢١٧، ح٣٤٤٩.

(٢) القاضي عبد الجبّار: تثبيت دلائل النّبوّة، ج١، ص٢٣٤.

(٣) تثبيت دلائل النّبوّة، ج١، ص٢٤٦.

(٤) تثبيت دلائل النّبوّة، ج١، ص٢٤٨.

(٥) تثبيت دلائل النّبوّة، ج١، ص٢٥٠.



الفصل الثّاني

استخلاف واختلاف

كان عليٌّ ﷺ قد أُنذر بعزم الخوارج على قتل عثمان ﷺ فأسرع إلى دار الخليفة، ولكنّه لم يدركه إلّا مقتولاً، فرجع فأغلق عليه بابه[١]، وأنكر نفسه، وطاش عقله[٢]، وأسقط في أيدي جماعة، وأصاب المسلمين بلاءٌ عظيمٌ بمقتل الخليفة، وتوجّعوا له[٣]، وماج النّاس لقتله موجًا عظيمًا[٤]، وغدوا أمام تجربة جديدة لاستخدام الخوارج العنف في تغيير السّلطة الّتي ما انفكّت تنتقل سلميًّا منذ وفاة النّبيّ ﷺ إلى استخلاف عثمان ﷺ[٥].

وقد أدرك ثُمامة بن عديّ القرشيّ ﷺ - عامل عثمان على صنعاء - ما يمكن أن يؤدّي إليه هذا التّحوّل الخطير عندما جاءه قتل عثمان ﷺ، فخطب في أهل اليمن فبكى بكاءً شديدًا، فلمّا أفاق واستفاق قال: "الْيَوْمَ انْتُزِعَتْ خِلَافَةُ النُّبُوَّةِ مِنْ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَصَارَتْ مُلْكًا وَجَبْرِيَّةً[٦]، مَنْ أَخَذَ شَيْئًا غَلَبَ عَلَيْهِ"[٧].

وعمل قتلة عثمان ﷺ على ملء الفراغ الّذي أحدثوه في منصب الخلافة فبادروا لمبايعة عبد الله بن عمر بن الخطّاب ﷺ فقالوا له: "أَنْتَ سَيِّدُنَا، وَابْنُ سَيِّدِنَا، اخْرُجْ

---

(١) أحمد بن حنبل: فضائل الصّحابة، ج٢ ص٧٠٨، ح٩٦٩. والأثر عن محمّد بن الحنفيّة بإسناد صحيح، كما قال وصيّ الله محقّق الفضائل.

(٢) الحاكم: المستدرك على الصّحيحين، ج٣، ص١٠١، ح٤٥٢٧. وصحّحه الحاكم على شرط الشّيخين، وأقرّه الذّهبيّ.

(٣) الذّهبي: العبر في خبر من غبر، تحقيق/ صلاح الدّين المنجّد، مطبعة حكومة الكويت، الطّبعة الثّانية، ١٩٨٤م، ج١، ص٣٧.

(٤) ابن تيمية: منهاج السُّنّة النّبويّة، ج١، ص٥٣٥.

(٥) أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الرّاشدة، ص٤٣٩.

(٦) سنرى عليّ بن أبي طالب ﷺ يعمل جاهدًا على إعادة الخلافة بالشّورى بين المسلمين عقب مقتل الخليفة عثمان ﷺ مباشرة.

(٧) معمر بن راشد: الجامع، ج١١، ص٤٤٧، ح٢٠٩٦٨؛ ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٣، ص٨٠؛ الطّبراني: المعجم الكبير، ج٢، ص٩٠، ح١٤٠٤. وقال الهيثميّ: "رواه الطّبرانيّ بإسنادين، ورجال أحدهما رجال الصّحيح". مجمع الزّوائد، ج٩، ص٩٩، ح١٤٥٧٧. وصحّح ابن حجر إسناد الأثر. الإصابة، ج١، ص٥٢٧.

يُبَايِعْكَ النَّاسُ، وَكُلُّهُمْ بِكَ رَاضٍ"، فقال: "لَا وَاللَّهِ، لَا يُهْرَاقُ فِي سَبَبِي مِحْجَمَةٌ[1] مِنْ دَمٍ، مَا كَانَ فِيَّ رُوحٌ"، وعادوا إليه فأطمعوه مرّة، وهدّدوه بالقتل أخرى، فلم يقدروا منه على شيء[2].

ساءت الأمور في المدينة النّبويّة في الوقت الّذي سيطر فيه القتلة على مقاليد الأمور، فانطلق النّاس إلى عليّ ﷺ فدخلوا عليه فقالوا: "إِنَّ هَذَا الرَّجُلَ قَدْ قُتِلَ، وَلَا بُدَّ لِلنَّاسِ مِنْ خَلِيفَةٍ، وَلَا نَعْلَمُ أَحَدًا أَحَقَّ بِهَا مِنْكَ"، فتمنّع عليٌّ ﷺ في بداية الأمر، وقال: "لَا تُرِيدُونِي، فَإِنِّي لَكُمْ وَزِيرٌ خَيْرٌ مِنِّي لَكُمْ أَمِيرٌ"، ولكنّ النّاس أكثروا الإلحاح عليه[3].

ولمّا وجد عليّ ﷺ أنّ النّاس مصرّين عليه قال لهم: "إِنِّي لَأَسْتَحْيِي مِنَ اللَّهِ أَنْ أُبَايِعَ وَعُثْمَانُ قَتِيلٌ عَلَى الْأَرْضِ لَمْ يُدْفَنْ بَعْدُ"، فانصرفوا حتّى دُفن عثمان ﷺ، ثمّ رجع النّاس فسألوه البيعة، فقال: "اللَّهُمَّ إِنِّي مُشْفِقٌ مِمَّا أَقْدَمُ عَلَيْهِ"، ثُمَّ جَاءَتْ عَزِيمَةٌ فَبَايَعْ[4]، وكلّ هذا يدلّ على بطلان النّصّ الّذي تدّعيه الشّيعة، ولو كان ثمّت نصّ لاكتفى به[5].

وقد اشترط عليّ ﷺ على النّاس أن تكون بيعتُه علانية في المسجد النّبويّ، فوافقوه، وخرج إلى المسجد فبايعه النّاس[6]، وفي مقدّمتهم جميع أهل المدينة من الصّحابة[7]، وغيرهم[8].

---

(١) محجمة: آلة الحجامة، وهي القارورة، أو زجاجة الحجامة. محمّد السّيّد الفاسي: شرح كفاية المتحفّظ، (تحرير الرّواية في تقرير الكفاية)، تحقيق/ علي حسين البوّاب، دار العلوم للطّباعة والنّشر، الرّياض، الطّبعة الأولى، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، ص١٩٦.

(٢) ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٤، ص١٥١؛ أحمد بن حنبل: فضائل الصّحابة، ج٢ ص١١٣٢، ح١٧٠٢؛ والأثر عن الحسن البصريّ بإسناد صحيح، كما قال محقّق الفضائل.

(٣) أحمد بن حنبل: فضائل الصّحابة، ج٢ ص٧٠٨، ح٩٦٩؛ الخلّال: السُّنّة، ج٢، ص٤١٥- ٤١٧. والأثر عن محمّد بن الحنفيّة بإسناد صحيح، كما قال وصيّ الله محقّق الفضائل.

(٤) الحاكم: المستدرك، ج٣، ص١٠١، ح٤٥٢٧. وصحّحه الحاكم على شرط الشّيخين، وأقرّه الذّهبيّ.

(٥) ابن تيمية: منهاج السُّنّة النّبويّة، ج٧، ص٤٩.

(٦) أحمد بن حنبل: فضائل الصّحابة، ج٢ ص٧٠٨، ٧٠٩، ح٩٦٩. والأثر عن ابن الحنفيّة بإسناد صحيح.

(٧) زعم ابن تيمية أنّ كثيرًا من الصّحابة لم يبايعوا عليًّا ﷺ بالخلافة. ابن تيمية: منهاج السُّنّة النّبويّة، ج١، ص٥٣٥. والصّواب أنّهم بايعوه، ثمّ قعد من قعد منهم عن القتال معه.

(٨) ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٣، ص٣١؛ أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الرّاشدة، ص٤٤١.

وكان كبار أصحاب رسول الله ﷺ - وفيهم عائشة وطلحة والزّبير ﷺ - مجمعين على أفضليّة عليّ ﷺ وأحقّيّته بالخلافة بعد عثمان ﷺ(١).

ولذا بايع طلحة بن عبيد الله(٢) والزّبير بن العوّام عليًّا ﷺ مع النّاس(٣)، وصرّح عليّ ﷺ بذلك(٤)، وكانت أمّ المؤمنين عائشة ﵂ تنصح النّاس بعد مقتل عثمان ﷺ بلزوم جانب عليّ ﷺ(٥).

وهذا يدلّ على بطلان الوصيّة لعليّ ﷺ؛ فلو ثبتت له لما اهتمّ بمبايعة المسلمين له، وحرص على أن تكون علانية في المسجد، كما كانت للخلفاء السّابقين عليه(٦).

---

(١) ابن أبي شيبة: المصنّف في الأحاديث والآثار، ج٦، ص١٩٧، ح٣٠٦٢٩. ورواه إسحاق بن راهويه بإسناد ابن أبي شيبة. ابن حجر: المطالب العالية، ج١٨، ص١٢٦. ورواه الطبريّ بإسناد ابن أبي شيبة أيضًا، وأشار إلى إنّه رواية المحدّثين. تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص٣٤. وصحّح ابن حجر إسناد الطّبريّ. فتح الباري، ج١٣، ص٣٤. وتعقّبه محقق المطالب العالية بأنّ في سنده عمر بن جاوان وهو مجهول، وجزم بأنّه لا وجه لتصحيح الحافظ ابن حجر للأثر. المطالب العالية، ج١٨، ص١٢٩.

(٢) لقد انخدع الإمام ابن تيمية بالرّوايات المردودة الّتي تصرّح بمبايعة طلحة بن عبيد الله ﷺ مكرهًا. منهاج السُّنّة النّبويّة، ج١، ص٥٣٥.

(٣) الطّبري: المنتخب من ذيل المذيّل، مؤسّسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ص١٤٨؛ تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص٤٧. والأثر من قول الأشتر النّخعي بسند صحيح. ابن حجر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج١٣، ص٥٧، ٥٨. وثبت بإسناد صحيح أنّ عليًّا ﷺ قال لطلحة والزبير يوم الجمل: "ألم تبايعاني؟ قالا: نطلب دم عثمان". ابن أبي شيبة: المصنّف، ج٧، ص٥٤٦، ح٣٧٨٣٣. وصحّح ابن حجر إسناده. فتح الباري، ج١٣، ص٥٧.

(٤) البيهقي: الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرّشاد على مذهب السّلف وأصحاب الحديث، ص٣٧٢. ورواه ابن الجزري وجوّد إسناده. مناقب الأسد الغالب ممزّق الكتائب ومظهر العجائب ليث بني غالب أمير المؤمنين أبي الحسن عليّ بن أبي طالب، تحقيق/ طارق الطنطاوي، مكتبة القرآن، الطّبعة الأولى، ١٩٩٤م، ص٣٧. وأورده البوصيري من طريق إسحاق بن راهويه، وصحّح إسناده. إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة، ج٤، ص٢١٦- ٢١٨.

(٥) رواه ابن أبي شيبة عن عبد الله بن بديل بن ورقاء الخزاعي، وهو السّائل لأمّ المؤمنين. المصنّف، ج٧، ص٥٤٥، ح٣٧٨٣١. وإسناد الأثر جيّد. ابن حجر: فتح الباري، ج١٣، ص٥٧.

(٦) القاضي عبد الجبار: تثبيت دلائل النّبوّة، ج١، ص٢٢٦.

ولمّا بويع لعليّ ﷺ في المدينة النّبويّة دخل قتلةُ عثمان ﷺ وأعوانُهم في طاعته، وأصبحوا من جملة أتباعه[١]، وكانت الشّوكة آنذاك لهم[٢]، كما بايع أهلُ الأمصار لعليّ ﷺ إلّا ما كان من معاوية ﷺ وأهل الشّام وخواصّ من النّاس[٣]، وذلك أنّ عليًّا ﷺ ثبّت أبا موسى الأشعريّ ﷺ على ولاية الكوفة فأخذ له البيعة من معظم أهلها[٤]، وولّى عثمان بن حُنيف الأنصاريّ ﷺ على البصرة، فضبط أمرها[٥]، على انقسام في أهلها، فمنهم من بايع، ومنهم من اعتزل، ومنهم من رفض البيعة حتّى يُقتل قتلة عثمان ﷺ[٦]، وعزل عليٌّ ﷺ خالد بن العاص المخزوميّ من إمارة مكّة، واستعمل عليها أبا قتادة الأنصاريّ ﷺ مدّة شهرين، ثمّ عزله وعيّن مكانه قُثَم بن العبّاس بن عبد المطّلب الهاشميّ[٧].

وكان محمّد بن أبي حذيفة العبشميّ قد استولى على مصر في غياب الأمير عبد الله ابن سعد بن أبي السّرح، فلمّا قتل عثمان ﷺ واجه معارضة عثمانيّة تطالب بالقصاص من قتلة عثمان ﷺ[٨]، كما بعث عليٌّ ﷺ عبيد الله بن العبّاس واليًا على اليمن[٩]، فأخذ له البيعة من أكثر أهلها[١٠].

وقد أشار غير واحد على أمير المؤمنين عليٍّ ﷺ بتثبيت معاوية بن أبي سفيان ﵄ على الشّام حتّى تستقرّ الأمور فأبى إلّا عزله، وهذا كافٍ في الرّدّ على الشّيعة الّذين يتّهمونه بالأخذ بالتّقيّة ومداراة النّاس[١١].

---

(١) ابن كثير: البداية والنّهاية، ج٧، ص٢٥٧.

(٢) ابن تيمية: منهاج السُّنّة النّبويّة، ج١، ص٥٣٥.

(٣) البلاذري: أنساب الأشراف، ج٢، ص٢١٢.

(٤) أنساب الأشراف، ج٢، ص٢١٣؛ أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الرّاشدة، ص٤٤١.

(٥) البلاذري: أنساب الأشراف، ج٢، ص٢٢٢.

(٦) ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٦، ص٣٣٣.

(٧) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٧٨، ٢٠١؛ أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الرّاشدة، ص٤٤٢.

(٨) عبد الرّزّاق: المصنّف، ج٥، ص٤٥٨، ٤٥٩، ٩٧٧٠. من مرسل صحيح للزّهريّ.

(٩) ابن سعد: الطّبقات الكبير، ج٦، ص٣٤٩؛ البلاذري: أنساب الأشراف، ج٤، ص٥٨.

(١٠) أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الرّاشدة، ص٤٤٢، ٤٤٣.

(١١) القاضي عبد الجبّار: تثبيت دلائل النّبوّة، ج١، ص٢٨٧.

🕮 المطالبة بالقصاص من قتلة عثمان:

إنّ مبايعة المسلمين لعليٍّ ﷺ بالخلافة على كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ تقتضي منه الإسراع في تنفيذ حدود الله ﷻ، ولذا كانت قضيّة القصاص من قتلة عثمان ﷺ هي أخطر ما يواجه الخليفة الجديد، وكان عبد الله بن عبّاس ﵄ قد نبّه عليًّا ﷺ على خطورة الموقف قبل تولّيه الخلافة، وأعلمه أنّ النّاس سيلزمونه دم عثمان ﷺ[1].

ونظرًا لتفرّق النّاس على أمير المؤمنين عليّ ﷺ فقد اضطرّ لانتهاج سياسة إماتة الفتنة وتخطّيها بعدم إيقاع القصاص على القتلة حتّى يستتبّ له الأمر وتدخل الأمّة كلّها في بيعته؛ وذلك لأنّ القتلة كانوا عسكرًا مختلطًا بجيشه، ولهم قبائل تغضب لهم، ولا يتمكّن من قتلهم إلّا بفتنة تزيد الأمر شرًّا وبلاءً، - كما سيحدث عقب مسير طلحة والزّبير إلى البصرة - "ودفعُ أفسدِ الفاسدَيْنِ بالتزام أدناهما أولى من العكس"[2].

ولو تمكّن عليٌّ ﷺ من قتلة عثمان ﷺ لسارع بتطبيق حكم الله فيهم[3]، فقد قال عندما بويع: "اللَّهُمَّ خُذْ مِنِّي لِعُثْمَانَ حَتَّى تَرْضَى"[4]. وثبت عن ابن عبّاس -أكبر مساعديه - أنّه خطب فقال: "لَوْ أَنَّ النَّاسَ لَمْ يَطْلُبُوا بِدَمِ عُثْمَانَ لَرُجِمُوا بِالْحِجَارَةِ مِنَ السَّمَاءِ"[5]، فكان أمر القصاص من القتلة عند أمير المؤمنين عليّ وأعوانه مسألة وقت حتّى تستتبّ الأمور، خوفًا من ازدياد الفتنة وتحوّلها إلى حرب أهليّة قبل تثبيت أركان الدّولة[6].

---

(١) ينظر قول عبد الله بن عبّاس عند معمر بن راشد. الجامع، ج١١، ص٤٤٨، ح٢٠٩٦٩. وإسناد الأثر صحيح. أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الرّاشدة، ص٤٤٣.

(٢) ابن تيمية: منهاج السُّنّة النّبويّة، ج٤، ص٤٠٧.

(٣) ابن كثير: البداية والنّهاية، ج٧، ص٢٥٧.

(٤) الحاكم: المستدرك على الصّحيحين، ج٣، ص١٠١، ح٤٥٢٧. وصحّح الحاكم هذا الأثر على شرط الشّيخين، وأقرّه الذّهبيّ.

(٥) ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٣، ص٨٠؛ الطّبراني: المعجم الكبير، ج١، ص٨٤، ح١٢٢. وقال الهيثميّ: "رواه الطّبرانيّ في الكبير والأوسط، ورجال الكبير رجال الصّحيح". مجمع الزّوائد، ج٩، ص٩٧، ح١٤٥٦٥. وإسناد ابن سعد حسن لغيره. محمّد عبد الله غبّان: فتنة مقتل عثمان، ج١، ص٤٦٥.

(٦) محمد آمحزون: تحقيق مواقف الصّحابة في الفتنة من روايات الإمام الطّبريّ والمحدّثين، دار طيبة، الرّياض، الطّبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ج٢، ص١٠٨.

غير أنّ المطالبين بدم عثمان ﷺ لم يعذروا عليًّا ﷺ في هذه السّياسة، بل سيتطوّر الأمر إلى اتّهامه بمشاركة القتلة أو موافقتهم، ويروح يحلف: "وَاللَّهِ مَا قَتَلْتُ عُثْمَانَ، وَلَا أَمَرْتُ بِقَتْلِهِ، وَلَكِنْ غُلِبْتُ"(١)، مع أنّ معاوية نفسه سوف ينتهج سياسة إسكات الفتنة - بعد اجتماع النّاس عليه – ولا يتعرّض لقتلة عثمان(٢). وهذا يدلّ على صحّة رأي عليّ ﷺ وحسن بصيرته في الفتنة؛ "وذلك أنّ الفتن إنّما يُعرف ما فيها من الشّرّ إذا أدبرت. فأمّا إذا أقبلت فإنّها تُزَيّن، ويُظنّ أنّ فيها خيرًا، فإذا ذاق النّاس ما فيها من الشّرّ والمرارة والبلاء، صار ذلك مبيّنًا لهم مضرّتها، وواعظًا لهم أن يعودوا في مثلها"(٣).

وكانت عائشة رضي الله عنها قد يمّمت وجهها شطر المسجد الحرام عندما شدّد الخوارج الحصار على عثمان ﷺ ولم يعرفوا حقًّا لأمّهات المؤمنين(٤)، وعادت من مكّة عقب الموسم فسمعت بمقتل عثمان ﷺ في طريق عودتها، فاستدارت حتّى دخلت المسجد الحرام، واجتمع النّاس إليها، فحثّتهم على الطّلب بدم الخليفة المقتول، وراحت تنادي: "إنّ الأمر لا يستقيم ولهذه الغوغاء أمر، فاطلبوا بدم عثمان تعزّوا الإسلام"(٥).

وندّدت عائشة رضي الله عنها بصنيع القتلة فقالت: "تَرَكْتُمُوهُ كَالثَّوْبِ النَّقِيِّ مِنَ الدَّنَسِ، ثُمَّ قَرَّبْتُمُوهُ فَذَبَحْتُمُوهُ كَمَا يُذْبَحُ الْكَبْشُ"؟(٦)، "قُتِلَ وَالله مَظْلُومًا، لَعَنَ اللهُ قَتَلَتَهُ"(٧).

وقد أقام طلحة والزّبير رضي الله عنهما بالمدينة أربعة أشهر، فلمّا وجدا الوقت يمرّ دون معاقبة الجناة، بل هم الّذين يستحوذون على أمير المؤمنين عليٍّ ﷺ استأذناه في العمرة، فأذن

---

(١) معمر بن راشد: الجامع، ج١١، ص٤٥٠، ح٢٠٩٧٢. وإسناده صحيح، رجاله ثقات، رجال الشّيخين، أخرج به مسلم في عدّة مواضع. محمّد عبد الله عبد القادر غبّان: فتنة مقتل عثمان، ج١، ص٤٨٨.

(٢) ابن تيمية: منهاج السُّنّة النّبويّة، ج٤، ص٤٠٧، ٤٠٨.

(٣) منهاج السُّنّة النّبويّة، ج٤، ص٤٠٩.

(٤) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٦٧٣. من طريق سيف.

(٥) تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص٧.

(٦) ابن أبي شيبة: المصنّف، ج٦، ص٣٦٣، ح٣٢٠٥١؛ خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٧٦. وإسناد الأثر صحيح إلى أمّ المؤمنين عائشة. ابن كثير: البداية والنّهاية، ج٧، ص٢١٨.

(٧) البخاري: التّاريخ الكبير، ج٤، ص٣٥٨. والأثر بإسناد حسن. محمّد عبد الله غبّان: فتنة مقتل عثمان، ج١، ص٤٢٦.

لهم، واجتمعا بمكّة مع عائشة رضي الله عنها[1]، واتّفقوا على المطالبة بدم عثمان رضي الله عنه[2]، وأيّدهم على ذلك سبعمائة رجل، وقد أسهم بعض عمّال عثمان رضي الله عنه في تجهيزهم؛ لأنّ أمير البصرة عبد الله بن عامر بن كريز كان في مكّة آنئذ يحثّ النّاس على الخروج ويعرض المعونة الماديّة، كما كان أمير اليمن يَعْلَى بن أميّة التّميميّ[3] قد خرج لإعانة عثمان رضي الله عنه، ووصل مكّة بعد مقتل الخليفة بكثير من المال والسّلاح والدّواب، فجعل ما معه في طلب قتلة عثمان[4].

عقد القادة المطالبون بدم عثمان رضي الله عنه مجلسًا استشاريًّا لاختيار المكان الّذي يتوجّهون إليه، فاستقرّ رأيهم على البصرة، وسارعوا بالخروج إليها[5]، وكانت أمّهات المؤمنين قد وافقن عائشة رضي الله عنها على المطالبة بدم عثمان رضي الله عنه، ولكنّهنّ فارقنها عندما عدل المطالبون بالقصاص عن المدينة النّبويّة إلى البصرة[6]، ولم تبق معها إلّا حفصة رضي الله عنها حتّى عزم عليها أخوها عبد الله بن عمر رضي الله عنهما بالرّجوع[7].

وقد مرّت السّيّدة عائشة رضي الله عنها في مسيرها إلى البصرة باللّيل على مياه بني عامرٍ الّتي يقال لها "مَاء الْحَوْأَبِ" ونبحتْ عليها الكلابُ، فقالت: "مَا أَظُنُّنِي إِلّا رَاجِعَةٌ"، وحدّثتهم بأنّ النّبيّ ﷺ قال لأزواجه ذات يومٍ: "كَيْفَ بِإِحْدَاكُنَّ تَنْبَحُ عَلَيْهَا كِلَابُ الْحَوْأَبِ؟"، فقال الزّبير بن العوّام رضي الله عنه: "بَلْ تَقْدَمِينَ فَيَرَاكِ الْمُسْلِمُونَ، فَيُصْلِحُ اللهُ عز وجل ذَاتَ بَيْنِهِمْ"[8].

---

(١) ابن كثير: البداية والنّهاية، ج٨، ص٢٣٠،٢٣١.

(٢) الحاكم: المستدرك على الصّحيحين، ج٣، ص٤١٩، ح٥٥٩٥. وجوّد الذّهبيّ إسناده.

(٣) هو حليف بني نوفل بن عبد شمس القرشيّين، وأمّه مُنية، فينسب حينًا إلى أبيه، وحينًا إلى أمّه، وهو من مُسْلمة الفتح. ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٥، ص٤٥٦؛ ابن عبد البرّ: الاستيعاب، ج٤، ص١٥٨٥.

(٤) البلاذري: أنساب الأشراف، ج٢، ص٢٢١؛ الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص٣، ٩.

(٥) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص٩.

(٦) ابن كثير: البداية والنّهاية، ج٧، ص٢٥٨.

(٧) ابن حبّان: الثّقات، ج٢، ص٢٨٠.

(٨) أحمد بن حنبل: المسند، ج٤٠، ص٢٩٨، ٢٩٩، ح٢٤٢٥٤؛ ج٤١، ص١٩٧، ح٢٤٦٥٤. وصحّحه ابن حبّان، والحاكم، والذّهبيّ، وابن كثير، وابن حجر. صحيح ابن حبّان، ج١٥، ص١٢٦، ح٦٧٣٢؛ مستدرك الحاكم، ج٣، ص١٢٩، ح٤٦١٣؛ سير أعلام النّبلاء، ج٢، ص١٧٨؛ البداية والنّهاية، ج٦، ص٢٣٦؛ فتح الباري، ج١٣، ص٥٥.

ولمّا وصل المطالبون بالقصاص إلى البصرة نزلوا جانب الخُرَيْبة، وفوجئ أهل البصرة بقدوم طلحة والزّبير وأمّ المؤمنين ﷺ في جمعهم فارتاعوا لهم، وجاءوا إليهم يسألونهم عن أمرهم، فكان جوابهم أنّهم "خرجوا غضبًا لعثمان، وتوبة ممّا صنعوا من خِذلانه"(١).

وعلى الرّغم من تشدّد أمير المؤمنين عثمان ﷺ في النّهي عن مقاتلة محاصريه فإنّ الضّغوط النّفسيّة على أعصاب بعض الصّحابة ﷺ جعلتهم يتّهمون أنفسهم بأنّهم خذلوا الخليفة المظلوم، ولم يفعلوا شيئًا لإيقاف قتله، ورأوْا أنّه لا تكفير لذنبهم إلّا بالخروج للمطالبة بدمه(٢)، ولذا نرى أمّ المؤمنين عائشة ﵂ تقول للكوفيّين: "إِنَّكُمْ عَتَبْتُمْ عَلَى عُثْمَانَ فِي ثَلَاثِ خِلَالٍ: فِي إِمَارَةِ الْفَتَى، وَمَوْضِعِ الْغَمَامَةِ، وَضَرْبِهِ بِالسَّوْطِ وَالْعَصَا، حَتَّى إِذَا مُصْتُمُوهُ مَوْصَ الثَّوْبِ بِالصَّابُونِ عَدَوْتُمْ عَلَيْهِ الْفِقَرَ الثَّلَاثَ: حُرْمَةَ الْبَلَدِ، وَحُرْمَةَ الْخِلَافَةِ، وَحُرْمَةَ الشَّهْرِ الْحَرَامِ، وَإِنْ كَانَ عُثْمَانُ لَأَحْصَنَهُمْ فَرْجًا، وَأَوْصَلَهُمْ لِلرَّحِمِ"(٣).

وفي رواية أخرى أنّها قالت: "غضبنا لكم على عثمان في ثلاث: إمارة الفتي، وموقع الغمامة، وضربة السّوط والعصا، فما أنصفنا إن لم نغضب له عليكم في ثلاث جررتموها إليه: حرمة الشّهر، والبلد، والدّم"(٤).

وكان طلحة بن عبيد الله ﷺ يُحسّ بالنّدم على ما ظنّه تفريطًا وتهاونًا في نصر عثمان ﷺ(٥)، ويرغب في التّكفير عن ذلك كلّه؛ فقد حدّث التّابعيّ علقمة بن وقّاصٍ اللّيثيّ أنّه رأى طلحة ﷺ بعد نزوله البصرة خاليًا وحده وهو مهموم فقال له: "إِنْ تَكْرَهْ هَذَا الْيَوْمَ فَدَعْهُ، فَلَيْسَ يُكْرِهُكَ عَلَيْهِ أَحَدٌ"؟ فقال: "لَا تَلُمْنِي، كُنَّا يَدًا وَاحِدَةً عَلَى مَنْ سِوَانَا، فَأَصْبَحُوا الْيَوْمَ جَبَلَيْنِ، يَزْحَفُ أَحَدُنَا إِلَى صَاحِبِهِ، وَلَكِنَّهُ كَانَ مِنِّي فِي أَمْرِ عُثْمَانَ مَا لَا أَرَى

(١) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص٣٠. وإسناده حسن. أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الرّاشدة، ص٤٥٠.

(٢) على محمّد محمّد الصّلّابي: علي بن أبي طالب، ج٢، ص٤٢.

(٣) أحمد بن حنبل: فضائل الصّحابة، ج١، ص٥٥١، ٥٥٢، ح٧٢٦. وصحّح المحقّق وصيّ الله إسناد الأثر.

(٤) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص٣٠. وإسناده حسن. أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الرّاشدة، ص٤٥٠.

(٥) ابن تيمية: منهاج السُّنّة، ج٦، ص٢٠٨.

كَفَّارَتَهُ إِلّا أَنْ يُسْفَكَ دَمِي فِي طَلَبِ دَمِهِ"(١)، وقد سُمع طلحة ﷺ يوم الجمل وهو يقول: "إِنَّا كُنَّا قَدْ دَاهَنَّا(٢) فِي أَمْرِ عُثْمَانَ فَلَا نَجِدُ بُدًّا مِنَ الْمُبَالَغَةِ"(٣).

وكان لمثل هذا الكلام الصّادر عن رؤوس المطالبين بالدّم أثرٌ سلبيٌّ عليهم، فقد جاءهم التّابعيّ الفاضل الورع مُطَرِّفُ بنُ عبد الله بن الشِّخِّير العامريّ في جماعة من البصريّين فقالوا للزّبير ﷺ: "مَا جَاءَ بِكُمْ، ضَيَّعْتُمُ الْخَلِيفَةَ حَتَّى قُتِلَ، ثُمَّ جِئْتُمْ تَطْلُبُونَ بِدَمِهِ؟ فقال الزّبير: إِنَّا قَرَأْنَاهَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَأَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرَ، وَعُثْمَانَ: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾(٤)، لَمْ نَكُنْ نَحْسَبُ أَنَّا أَهْلُهَا حَتَّى وَقَعَتْ مِنَّا حَيْثُ وَقَعَتْ"(٥).

وكان الأحنف بن قيس التّميميّ(٦) قد نزل المدينة النّبويّة في طريقه للحجّ سنة ٣٥هـ/٦٥٦م، فوافق الخوارج يحاصرون عثمان ﷺ، وتوقّع مقتل الخليفة، فسأل عائشة وطلحة والزّبير ﷺ عن الرّجل الّذي يأمرونه ببيعته بعد وفاة أمير المؤمنين عثمان ﷺ،

---

(١) الحاكم: المستدرك، ج٣، ص٤١٩، ح٥٥٩٥. وجوّد الذّهبيّ إسناده في تلخيص المستدرك، ووافقه محقّقو سير الأعلام. الذّهبيّ: سير أعلام النّبلاء، ج١، ص٣٤.

(٢) يفهم من ذكر المداهنة لينُ الصّحابة ﷺ مع أهل الفتنة الّذين خرجوا على عثمان ﷺ لما رأوا من حسن كلامهم وصورة صلاتهم وعبادتهم كما سبق بيانه من السّيّدة عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا.

(٣) ابن أبي شيبة: المصنّف في الأحاديث والآثار، ج٦، ص٢٠٥، ح٣٠٦٩٧. والأثر بإسناد صحيح. ويقصد بالمبالغة التّشدّد في القصاص.

(٤) سورة الأنفال: الآية ٢٥.

(٥) أحمد بن حنبل: المسند، ج٣، ص٣١، ح١٤١٤؛ المقدسي: الأحاديث المختارة، ج٣، ص٦٦، ح٨٧٢. وقال الهيثميّ: "رواه أحمد بإسنادين، رجال أحدهما رجال الصّحيح". مجمع الزّوائد، ج٧، ص٢٧، ح١١٠٢٧. وقد جوّد الأرناؤوط إسناد الأثر، وحسّنه محقّق المختارة، وصحّحه الشّيخ أحمد شاكر في تخريجه للمسند. طبعة دار الحديث، القاهرة، الطّبعة الأولى، ١٤١٦هـ/١٩٩٥م، ج٢، ص١٩١.

(٦) الأحنف: هو الأحنف بن قيس بن معاوية بن حصين السّعديّ التّميميّ، من كبار التّابعين وساداتهم، جمع بين رياسة الدّنيا والدّين، وضُرب بحلمه وسؤدده المثل، وكان له دور كبير في فتوح خراسان، وكان من قوّاد جيش عليّ يوم صفّين، وتوفّي بالكوفة في إمرة مصعب بن الزّبير على العراق. ابن الأثير: اللّباب في تهذيب الأنساب، ج٣، ص٢٠٢؛ الذّهبي: سير أعلام النّبلاء، ج٤، ص٨٦- ٩٦.

فأشاروا عليه بعليّ ﷺ، فلمّا نزلوا خُريبة البصرة، وأرسلوا إليه يستنصرونه، أتاه أفظع أمر قطّ، فقال: "إِنَّ خِذْلَانِي هَؤُلَاءِ وَمَعَهُمْ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ وَحَوَارِيُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَشَدِيدٌ، وَإِنَّ قِتَالِي ابْنِ عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ أَنْ أَمَرُونِي بِبَيْعَتِهِ لَشَدِيدٌ"، ولهذا اعتزل الأحنفُ الفريقين في زهاء ستّة آلاف(١).

ولم يعمل المطالبون بدم عثمان ﷺ على جذب الكوفيّين لصفّهم، بل أرسلت أمّ المؤمنين عائشة ﵂ إلى أبي موسى الأشعريّ - والى الكوفة - تعلمه أنّها خرجت للإصلاح بين النّاس، وتطلب منه أن يأمر الكوفيّين بالبقاء في منازلهم، والرّضا بالعافية حتّى يأتيهم ما يحبّون من صلاح أمر المسلمين(٢).

---

(١) ابن أبي شيبة: المصنّف في الأحاديث والآثار، ج٧، ص٥٤٠، ح٣٧٧٩٨. ورواه إسحاق بن راهويه بإسناد ابن أبي شيبة. ابن حجر: المطالب العالية، ج١٨، ص١٢٦. ورواه الطّبريّ بإسناد ابن أبي شيبة أيضًا، وأشار إلى إنّه رواية المحدّثين الّتي تخالف رواية سيف في أمر الأحنف. تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص٣٤. وصحّح ابن حجر إسناد الطّبريّ. فتح الباري، ج١٣، ص٣٤.

(٢) عبد الرّزّاق: المصنّف، ج٥، ص٤٥٧، ح٩٧٧٠.



الفصل الثّالث

موقعة الجمل

تسارعت الأحداث في البصرة بعد نزول طلحة والزّبير بها، فقد حاول عثمان بن حُنيف الأنصاريّ ﷺ - والي البصرة لعليّ - تهدئة الأمور والإصلاح قدر المستطاع[١]، فاتّفق مع المطالبين بالدّم على نزولهم البصرة والكفّ عن القتال، مع احتفاظه بدار الإمارة والمسجد وبيت المال[٢]، إلّا أنّ الأمور خرجت من يده بسبب انضمام أكثر قبائل البصرة إلى جموع طلحة والزّبير، وقد أُلقي القبض على الوالي، ثمّ أطلق سراحه ليلتحق بعليّ ﷺ[٣].

واتّجه المطالبون بالدّم إلى بيت المال ودار الرّزق فاعترضهم حَكِيم بن جبلة العبديّ - أحد زعماء القتلة - في سبعمائة من قومه، وجرت بين الطّرفين معركة قُتل فيها حكيمٌ وسبعون من قومه كانوا قد شاركوا في حصار عثمان ﷺ[٤]، وتمكّن المطالبون بدم الخليفة المظلوم من السّيطرة على مدينة البصرة بقيادة الزّبير بن العوّام ﷺ[٥]، واستولوا على بيت المال بما فيه من الذّهب والفضّة[٦]، وذلك في ربيع الآخر سنة ٣٦هـ/٦٥٦م.

وعندما علم أمير المؤمنين عليٌّ ﷺ بنزول طلحة والزّبير ﷺ البصرة وطرحهم عامله عثمان بن حنيف ﷺ أدرك خطورة الموقف، وقرّر اتّباعهم[٧]، وإعادتهم إلى الطّاعة، "لكيلا يفتقوا في الإسلام فتقًا، ولا يخرقوا جماعة"[٨].

---

(١) ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٦، ص٣٣٣.

(٢) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٨٣؛ الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص١٧.

(٣) أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الرّاشدة، ص٤٥٠.

(٤) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص١٧.

(٥) البلاذري: أنساب الأشراف، ج٢، ص٣٩. بسند حسن. أكرم العمري: عصر الخلافة الرّاشدة، ص٤٥٠.

(٦) ابن أبي شيبة: المصنّف، ج٧، ص٥٤٣، ح٣٧٨١٥. بإسناد صحيح.

(٧) ابن أبي شيبة: المصنّف، ج٧، ص٥٤٦، ح٣٧٨٣٣. وإسناده صحيح. ابن حجر: فتح الباري، ج١٣، ص٥٨.

(٨) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص٣١. والأثر بإسناد حسن. أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الرّاشدة، ص٤٥٠.

واستنفر عليٌّ ﷺ أهل المدينة للخروج معه فاجتمع له حوالي سبعمائة رجل(١)، وتثاقل عنه عدد من كبار الصّحابة، منهم سعد بن أبي وقّاص، وعبد الله بن عمر، وأبو مسعود الأنصاريّ، وعبد الله بن سلام، وأسامة بن زيد ﷺ، مع أنّهم معظمون لعليّ، يحبّونه ويوالونه ويقدّمونه على من سواه، ولا يرون أنّ أحدًا أحقّ بالإمامة منه في زمنه، لكن لم يوافقوه في رأيه في القتال، إذ رأوا أنّها أحداث فتنة ينبغي عدم الخوض فيها، وقد اختصّ النّبيّ ﷺ بعضهم بالتّحذير من المشاركة في الفتن، فاعتذروا لعليٍّ ﷺ بذلك(٢).

وقد حاول الحبر عبد الله بن سلام ﷺ منع أمير المؤمنين عليٍّ ﷺ من المسير إلى العراق ومغادرة المدينة النّبويّة، ونصحه بلزوم منبر رسول الله ﷺ بقوله: "فَوَاللَّهِ لَئِنْ تَرَكْتَهُ لَا تَرَاهُ أَبَدًا"، فأراد جماعة من القتلة المحيطين بالخليفة أن يقتلوه، فنهاهم عليٌّ ﷺ بقوله: "إِنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ سَلَامٍ مِنَّا رَجُلٌ صَالِحٌ"(٣).

توجّه أمير المؤمنين عليٌّ ﷺ صوب العراق، فلمّا انتهى إلى الرَّبَذة عسكر بها، فحاول الحسن بن عليّ ﷺ أن يثنيه عن التّوجه إلى العراق، فقام إليه وهو يبكي، فقال له: "تَكَلَّمْ وَلَا تَحِنَّ حَنِينَ الْجَارِيَةِ"، فقال: أَمَرْتُكَ حِينَ حَصَرَ النَّاسُ هَذَا الرَّجُلَ أَنْ تَأْتِيَ مَكَّةَ فَتُقِيمَ بِهَا فَعَصَيْتَنِي، ثُمَّ أَمَرْتُكَ حِينَ قُتِلَ أَنْ تَلْزَمَ بَيْتَكَ حَتَّى تَرْجِعَ إِلَى الْعَرَبِ غَوَارِبُ أَحْلَامِهَا، فَلَوْ كُنْتَ فِي جُحْرِ ضَبٍّ لَضَرَبُوا إِلَيْكَ آبَاطَ الإِبِلِ حَتَّى يَسْتَخْرِجُوكَ مِنْ جُحْرِكَ فَعَصَيْتَنِي، وَأُنْشِدُكَ بِاللَّهِ أَنْ تَأْتِيَ الْعِرَاقَ فَتُقْتَلَ بِحَالِ مَضْيَعَةٍ"، فقال عليٌّ: "أَمَّا قَوْلُكَ: آتِي مَكَّةَ، فَلَمْ أَكُنْ

---

(١) البلاذري: أنساب الأشراف، ج٢، ص٢٣٣، بإسناد حسن. أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الرّاشدة، ص٤٥١. وفي رواية لابن أبي خيثمة بإسناد صحيح أنّهم كانوا ستمائة رجل: التّاريخ الكبير، تحقيق/ صلاح فتحي هلال، مكتبة الفاروق الحديثة، القاهرة، الطّبعة الأولى، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م، ج٣، ص٤٩.

(٢) ابن تيمية: منهاج السُّنّة، ج٦، ص٣٣٣.

(٣) البغوي: معجم الصّحابة، ج٤، ص١٠٤. وإسناده جيّد. ابن حجر: الإصابة في تمييز الصّحابة، ج٤، ص١١٩. ورواه إسحاق بن راهويه بسند رجاله ثقات. البوصيري: إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة، ج٨، ص١١، ح٧٣٧٥. كما صحّح محقّق المطالب العالية إسناد الأثر، ج١٨، ص٥٨. وفي رواية أنّه قال له: "يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لَا تَخْرُجْ مِنْهَا، فَوَاللَّهِ إِنْ خَرَجْتَ مِنْهَا لَا يَعُودُ إِلَيْهَا سُلْطَانُ الْمُسْلِمِينَ أَبَدًا! فَسَبُّوهُ. فَقَالَ: دَعُوا الرَّجُلَ مِنْ أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ". الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص١٠. وإسناده صحيح.



بِالرَّجُلِ الّذي تُسْتَحَلُّ لِي مَكَّةُ، وَأَمَّا قَوْلُكَ: قَتَلَ النَّاسُ عُثْمَانَ، فَمَا ذَنْبِي إِنْ كَانَ النَّاسُ قَتَلُوهُ، وَأَمَّا قَوْلُكَ: آتِي الْعِرَاقَ، فَأَكُونُ كَالضَّبُعِ تَسْتَمِعُ اللَّدْمَ"(١).

وأصرّ عليٌّ ﷺ على إعادة المعارضين له إلى الطّاعة محتجًّا ببيعتهم له بالمدينة، غير أنّ عدد المنضمّين إليه بالرّبذة كان قليلاً، فلم يزد على مائتي رجل(٢)، فأرسل محمّد بن أبي بكر الصّدّيق ومحمّد بن جعفر بن أبي طالب، لاستنفار الكوفيّين للنّهوض معه ومناصرته، ولكنّ الرّسولين أخفقا في مهمّتهما(٣)، لأنّ أبا موسى الأشعريّ - والي الكوفة - كان معارضًا لانخراط النّاس في تلك الفتنة(٤)، فحذّرهم من المشاركة فيها، وذكّرهم بقول رسول الله ﷺ: "اكْسِرُوا قِسِيَّكُمْ - يعني في الفتنة - وَاقْطَعُوا الأَوْتَارَ، وَالْزَمُوا أَجْوَافَ الْبُيُوتِ، وَكُونُوا فِيهَا كَالْخَيِّرِ مِنَ ابْنَيْ آدَمَ"(٥).

وكان أمير المؤمنين عليٌّ ﷺ يعوّل كثيرًا على أهل الكوفة، ولذا أرسل إليهم هاشم بن عتبة بن أبي وقّاص ﷺ، فلمّا أخفق في التّأثير عليهم غادر الخليفة الرّبذة حتّى اقترب من الكوفة فنزل بذي قار، وعسكر بها(٦).

وتابع عليٌّ ﷺ رسله إلى الكوفيّين من ذي قار، فأرسل عبد الله بن عبّاس رضي الله عنهما فأبطئوا عليه(٧)، وبلغ عليًّا أنّ أبا موسى الأشعريّ لا ينتهي عن تخذيل النّاس عن النّهوض

---

(١) ابن أبي شيبة: المصنّف، ج٧، ص٤٧٨، ح٣٧٣٧١؛ ابن أبي خيثمة: التّاريخ الكبير، ج٣، ص٤٩، ٥٠؛ ابن شبّة: تاريخ المدينة، ج٢، ص٢٧٣. وإسناده صحيح. واللّدم هو اللّطم والضّرب بشيء ثقيل يُسمعُ وقعُه، وذلك أنّ الصّيّاد يضرب للضّبع فتخرج من جحرها فيصيدها، فأراد أنّه لا يخدع كما تخدع الضّبع. ابن منظور: لسان العرب، ج١٢، ص٥٣٩.

(٢) البلاذري: أنساب الأشراف، ج٢، ص٤٥؛ أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الرّاشدة، ص٤٥١.

(٣) أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الرّاشدة، ص٤٥٢.

(٤) البخاري: الصّحيح، (كتاب الفتن، باب الفتنة الّتي تموج موج البحر)، ج٦، ص٢٦٠١، ح٦٦٨٩.

(٥) ابن أبي شيبة: المصنّف، ج٧، ص٤٤٨، ح٣٧١٢٢. وإسناده صحيح. الألباني: سلسلة الأحاديث الصّحيحة، ج٤، ص٣٠، ح١٥٢٤.

(٦) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص١١؛ أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الرّاشدة، ص٤٥٢.

(٧) ابن أبي شيبة: المصنّف، ج٧، ص٥٤٦، ح٣٧٨٣٣. وإسناده صحيح. ابن حجر: فتح الباري، ج١٣، ص٥٨.

معه فعزله عن الكوفة، وولّى عليها قَرَظَة بن كعب الأنصاريّ ﷺ[1]، كما بعث الحسن بن عليّ وعمّار بن ياسر ﷺ يستنفران أهل الكوفة، فاجتهد عمّار ﷺ في إقناع الكوفيّين بالنّهوض مع عليّ ﷺ، ولم يعبأ بملامة أبي موسى الأشعريّ وأبي مسعود البدريّ الأنصاريّ له على تسرّعه في الأمر، وأنكر عليهما قعودهما[2].

وقد قال أبو مسعود لعمّار: "مَا مِنْ أَصْحَابِكَ أَحَدٌ إِلَّا لَوْ شِئْتُ لَقُلْتُ فِيهِ غَيْرَكَ، وَمَا رَأَيْتُ مِنْكَ شَيْئًا مُنْذُ صَحِبْتَ النَّبِيَّ ﷺ أَعْيَبَ عِنْدِي مِنَ اسْتِسْرَاعِكَ فِي هَذَا الْأَمْرِ، قَالَ عَمَّارٌ: يَا أَبَا مَسْعُودٍ، وَمَا رَأَيْتُ مِنْكَ وَلَا مِنْ صَاحِبِكَ هَذَا شَيْئًا مُنْذُ صَحِبْتُمَا النَّبِيَّ ﷺ أَعْيَبَ عِنْدِي مِنْ إِبْطَائِكُمَا فِي هَذَا الْأَمْرِ، فَقَالَ أَبُو مَسْعُودٍ، وَكَانَ مُوسِرًا: يَا غُلَامُ هَاتِ حُلَّتَيْنِ، فَأَعْطَى إِحْدَاهُمَا أَبَا مُوسَى، وَالأُخْرَى عَمَّارًا، وَقَالَ: رُوحَا فِيهِ إِلَى الجُمُعَةِ"[3].

وإنّ رضا الصّحابيّين أبي موسى الأشعريّ وأبي مسعود البدريّ رضي الله عنهما عن تصرّفات عمّار بن ياسر رضي الله عنهما سوى إسراعه في استنفار الكوفيّين للنّهوض مع أمير المؤمنين عليّ ﷺ - كما في روايتي البخاريّ السّابقتين - ليدلّ دلالة قاطعة على كذب بعض أهل الأخبار على عمّار ﷺ، ونكارة الرّوايات الّتي تتّهمه بخيانة أمير المؤمنين عثمان ﷺ والقيام ضدّه ومواطأة السّبئيّة عليه[4].

وقد خطب عمّار بن ياسر رضي الله عنهما في الكوفيّين فقال: "إِنَّ عَائِشَةَ قَدْ سَارَتْ إِلَى الْبَصْرَةِ، ووَاللَّهِ إِنَّهَا لَزَوْجَةُ نَبِيِّكُمْ ﷺ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ ﷻ ابْتَلَاكُمْ لِيَعْلَمَ إِيَّاهُ تُطِيعُونَ أَمْ هِيَ"[5].

وهذا القول يعدّ من إنصاف عمّار ﷺ وشدّة ورعه، وتحرّيه قول الحقّ، فلئن كان يرى الصّواب مع عليّ ﷺ فإنّه يقرّ لأمّ المؤمنين بالجنّة[6].

---

(١) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص٣٦؛ ابن حجر: فتح الباري، ج١٣، ص٥٨.

(٢) البخاري: الصّحيح، (كتاب الفتن، باب الفتنة الّتي تموج موج البحر)، ج٦، ص٢٦٠١، ح٦٦٨٩.

(٣) البخاري: الصّحيح، (كتاب الفتن، باب الفتنة الّتي تموج موج البحر)، ج٦، ص٢٦٠١، ح٦٦٩٠.

(٤) ينظر الطّبري. تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٦٤٨، ٦٥٧، ٦٥٨. ج٣، ص٢٦. من طريق سيف.

(٥) البخاري: الصّحيح، (كتاب الفتن، باب الفتنة الّتي تموج موج البحر)، ج٦، ص٢٥٩٩، ح٦٦٨٣.

(٦) ابن حجر: فتح الباري، ج١٣، ص٥٨.

وقد سأل التّابعيُّ قيسُ بن عَبَّادٍ البصريّ عَمَّارًا ﷺ "أَرَأَيْتَ هَذَا الأَمْرَ، رَأْيًا رَأَيْتُمُوهُ؟ فَإِنَّ الرَّأْيَ يُخْطِئُ وَيُصِيبُ، أَوْ عَهْدًا عَهِدَهُ إِلَيْكُمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟ فَقَالَ مَا عَهِدَ إِلَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ، شَيْئًا لَمْ يَعْهَدْهُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً"(١).

ولم يزل عمّار ﷺ يستنفر أهل الكوفة حتّى خرجوا إلى عليّ ﷺ(٢)، في اثني عشر ألفًا(٣)، كما التحق به ألفان من أهل البصرة من قبيلة عبد القيس، وجماعات من قبائل أخرى، وضمّ جيشه ثمانمائة من الأنصار، وأربعمائة ممّن شهد بيعة الرّضوان(٤).

وتقدّم أمير المؤمنين عليٌّ ﷺ نحو البصرة فعسكر بالزّاوية(٥) أيّامًا، وطلب من الأحنف بن قيس التّميميّ أن يكفّ النّاس عن الالتحاق بالزّبير ﷺ، وأن يفي بوعده لطلحة ﷺ في اعتزال القتال(٦).

وقد نزل أمير المؤمنين عليّ ﷺ إلى جانب البصرة في الوقت الّذي خندق فيه طلحة والزّبير رضي الله عنهما على عسكرهما(٧).

وكان أُهْبَانُ بنُ صَيْفِيّ الغفاريّ ﷺ بالبصرة، فأتاه عليٌّ ﷺ حتّى وقف على باب حجرته، وطلب منه القيام معه وإعانته على معارضيه، فوافقه على أن يخرج معه بسيفه الخشبيّ، وعلّل ذلك بأنّ النّبيّ ﷺ "عَهِدَ إِلَيْهِ إِذَا كَانَتْ فِتْنَةٌ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، أَنْ يتَّخِذ سَيْفًا مِنْ خَشَبٍ"، فتركه عليٌّ، ورجع"(٨).

---

(١) أحمد بن حنبل: المسند، ج٣١، ص١٨٠، ١٨١، ح١٨٨٨٥؛ أبو يعلى: المسند، ج٣، ص١٩٠، ح١٦١٦. وإسناده صحيح، كما قرّر محققو المسندين.

(٢) ابن أبي شيبة: المصنّف في الأحاديث والآثار، ج٧، ص٥٤٦، ح٣٧٨٣٣. وإسناده صحيح. ابن حجر: فتح الباري، ج١٣، ص٥٨.

(٣) ابن حجر: فتح الباري، ج١٣، ص٥٨.

(٤) أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الرّاشدة، ص٤٥٣.

(٥) الزّاوية: موضع قريب من البصرة. ياقوت: معجم البلدان، ج٣، ص١٢٨.

(٦) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص٣٦؛ أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الرّاشدة، ص٤٥٣.

(٧) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص٣١، بسند حسن. أكرم العمري: المرجع السّابق، ص٤٥٠.

(٨) أحمد بن حنبل: المسند، ج٣٤، ص٢٧٠، ٢٧١، ح٢٠٦٧٠؛ التّرمذي: السّنن، (كتاب الفتن، باب ما جاء في اتّخاذ سيف من خشب في الفتنة)، ج٤، ص٤٩٠، ح٢٢٠٣. وقال التّرمذيّ: "حديث حسن غريب".

وبعث عليٌّ ﷺ إلى محمّد بن مسلمة ﷺ، فجيء به، فسأله عن سبب تخلّفه عنه؟ فأخبره أنّ النّبيّ ﷺ دفع إليه سيفًا، وقال له: "قَاتِلْ بِهِ مَا قُوتِلَ الْعَدُوُّ، فَإِذَا رَأَيْتَ النَّاسَ يَقْتُلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، فَاعْمَدْ بِهِ إِلَى صَخْرَةٍ، فَاضْرِبْهُ بِهَا، ثُمَّ الْزَمْ بَيْتَكَ حَتَّى تَأْتِيَكَ مَنِيَّةٌ قَاضِيَةٌ، أَوْ يَدٌ خَاطِئَةٌ"، فأمر عليٌّ ﷺ بإخلاء سبيله[١].

وقد تخوّف كثير من البصريّين من الفتنة الّتي لم يتبيّن لهم وجهُها، ولهذا أتى التّابعيّ قيسُ بن عُبَادٍ البصريّ عليًّا ﷺ فقال له: "أَرَأَيْتَ مَسِيرَكَ هَذَا عَهْدٌ عَهِدَهُ إِلَيْكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، أَمْ رَأْيٌ رَأَيْتَهُ؟ قال: "مَا تُرِيدُ إِلَى هَذَا"؟ قَالَ: دِينَنَا دِينَنَا، فَقَالَ عَلِيٌّ: "مَا عَهِدَ إِلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِيهِ شَيْئًا، وَلَكِنْ رَأْيٌ رَأَيْتُهُ"[٢].

وقد اتّفق أمير المؤمنين عليٌّ وطلحة والزّبير ﷺ على إقامة فُسطاط آمن بين المعسكرين ليجتمع فيه القادة الثّلاثة للتّفاوض في إيجاد حلٍّ سلميّ، فظلّ عليٌّ والزّبير وطلحة ﷺ يأتون تلك الخيمة ثلاثة أيّام قبل نشوب المعركة، لكن لم يتوصّل الطّرفان إلى حلّ خلال تلك الأيّام[٣].

وعندما قال عليٌّ لطلحة والزّبير ﷺ: "أَلَمْ تُبَايِعَانِي؟ قَالَا: نَطْلُبُ دَمَ عُثْمَانَ؛ فَقَالَ: لَيْسَ عِنْدِي دَمُ عُثْمَانَ"[٤].

ولمّا كان يوم الجمل - ثالث الأيّام - دعا عليٌّ عبد الله بن عبّاس ﷺ فبعثه إلى طلحة والزّبير برسالة يقول فيها: "إِنَّ أَخَاكُمَا يُقْرِئُكُمَا السَّلَامَ وَيَقُولُ لَكُمَا: هَلْ وَجَدْتُمَا عَلَيَّ حَيْفًا فِي حُكْمٍ أَوِ اسْتِئْثَارًا بِفَيْءٍ"؟ فَقَالَ الزُّبَيْرُ: "لَا فِي وَاحِدَةٍ مِنْهَا"[٥].

---

(١) أحمد بن حنبل: المسند، ج٢٩، ص٤٩٦، ح١٧٩٧٩. وحسّن محقّقو المسند هذا الحديث بمجموع طرقه.

(٢) أحمد بن حنبل: المسند، ج٢، ص٤١٧، ح١٢٧١؛ أبو داود: السّنن، (كتاب السُّنّة، باب ما يدلّ على ترك الكلام في الفتنة)، ج٧، ص٦٠، ح٤٦٦٦. وصحّح المحقّقون إسناده.

(٣) ابن أبي شيبة: المصنّف، ج٧، ص٥٣٧، ح٣٧٧٧٧. والأثر بإسناد حسن. أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الرّاشدة، ص٤٥٤.

(٤) ابن أبي شيبة: المصنّف، ج٧، ص٥٤٦، ح٣٧٨٣٣. وصحّح الحافظ ابن حجر إسناد الأثر. فتح الباري، ج١٣، ص٥٧.

(٥) ابن أبي شيبة: المصنّف، ج٧، ص٥٣٨، ح٣٧٧٣٢؛ أحمد بن حنبل: فضائل الصّحابة، ج٢، ص٧٣٨، ح١٠١٥. وإسناد الأثر صحيح.



وهذه الرّوايات الثّلاثة تكذّب الإخباريّ المفتري سيف بن عمر التّميميّ الّذي زعم أنّ عليًّا ﷺ أرسل القعقاع بن عمرو التّميميّ من ذي قار فالتقي بعائشة وطلحة والزّبير ﷺ وتوصّل معهم إلى الصّلح الّذي وافقوا فيه على "التّسكين"، والتّريّث في المطالبة بدم عثمان ﷺ من بقيّة القتلة حتّى تستتبّ الأمور![1]، ولو اتّفقوا مع القعقاع المذكور لما ظلّوا ثلاثة أيّام يتفاوضون مع الخليفة دون الوصول إلى حلّ[2]، كما أنّ أمر عليّ ﷺ لجنده: "لا تبدءوهم بالقتال حتّى يقاتلوكم"[3]، يؤكّد عدم اتّفاقهم على الصّلح أوّلاً وآخرًا.

ولو اتّفقوا على الصّلح لما عبّئوا الجيوش وصفّوها إزاء بعضها، ولالتقوا في مكان بعيد عن المعسكرين بحضور السّادات والأشراف فقط[4].

وكان البصريّون المتحمّسون للثّأر من قتلة عثمان ﷺ أسرع في إنشاب الحرب، فقد عرض أحدهم على الزّبير ﷺ اغتيال أمير المؤمنين عليّ ﷺ، فرفض الزّبير ﷺ، وسأله: "وَكَيْفَ تَقْتُلُهُ وَمَعَهُ الْجُنُودُ؟ قَالَ: أَلْحَقُ بِهِ فَأَفْتِكُ بِهِ، فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: "إِنَّ الْإِيمَانَ قَيَّدَ الْفَتْكَ، لَا يَفْتِكُ مُؤْمِنٌ"[5].

وفي الوقت الّذي أخفق فيه الطّرفان في الوصول إلى حلٍّ سلميّ واتّجه الموقف إلى سلّ السّلاح ركب عليٌّ ﷺ بغلته لمقابلة الزّبير[6]، فلمّا التقيا وتحادثا، "رجع الزّبَيرُ عَلَى دَابَّتِهِ يَشُقُّ الصُّفُوفَ، فَعَرَضَ لَهُ ابْنُهُ عَبْدُ اللَّهِ، فَقَالَ: مَا لَكَ؟ فَقَالَ: ذَكَرَ لِي عَلِيٌّ حَدِيثًا سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: "لَتُقَاتِلَنَّهُ وَأَنْتَ ظَالِمٌ لَهُ"، فَلَا أُقَاتِلُهُ، قَالَ: وَلِلْقِتَالِ جِئْتَ؟ إِنَّمَا جِئْتَ لِتُصْلِحَ بَيْنَ النَّاسِ، وَيُصْلِحُ اللَّهُ هَذَا الأَمْرَ بِكَ، قَالَ: قَدْ حَلَفْتُ أَنْ لَا أُقَاتِلَ، قَالَ: فَأَعْتِقْ

---

(١) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص٢٩. وقد مال ابن تيمية إلى تصديق رواية سيف التّميميّ في هذا الموضع، وترك روايات أهل الحديث. (منهاج السُّنّة النّبويّة، ج٤، ص٣١٦، ٣١٧). ممّا أوقع بعض المتابعين له في التّناقض بادّعاء السّير على منهج المحدّثين، والأخذ برواية سيف الكذوب عند التّطبيق.

(٢) محمّد عبد العال محمّد حسن: مختلقات سيف بن عمر التّميميّ في تاريخ قومه (دراسة في المتون)، مجلّة كلّيّة اللّغة العربيّة بأسيوط، جامعة الأزهر، العدد ٣٨، ج٢، ص١٩٠٨.

(٣) السّرخسي: شرح السّير الكبير للإمام محمّد بن الحسن الشّيباني، ج٤، ص٢٠٧.

(٤) عبد العزيز صالح الهلابي: عبد الله بن سبأ، ص٣٧.

(٥) أحمد بن حنبل: المسند، ج٣، ص٤١، ح١٤٢٦؛ ج٣، ص٤٥، ح١٤٣٣. وصحّح المحققون هذا الحديث.

(٦) ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج١٨، ص٤١٠.

غُلَامَكَ جِرْجِسَ، وَقِفْ حَتَّى تُصْلِحَ بَيْنَ النَّاسِ، قَالَ: فَأَعْتَقَ غُلَامَهُ جِرْجِسَ، وَوَقَفَ، فَاخْتَلَفَ أَمْرُ النَّاسِ، فَذَهَبَ عَلَى فَرَسِهِ"(١).

وكان الزّبير ﷺ قد دعا ولده عبد الله فقال له: "يَا بُنَيِّ، إِنَّهُ لَا يُقْتَلُ اليَوْمَ إِلّا ظَالِمٌ أَوْ مَظْلُومٌ، وَإِنِّي لَا أُرَانِي إِلَّا سَأُقْتَلُ اليَوْمَ مَظْلُومًا"(٢)، فلمّا رجع الزّبير اتّبعه عمرو بن جُرْمُوز التّميميّ فقتله غيلة بوادي السّباع أثناء نومه أو صلاته، وجاء يستأذن على أمير المؤمنين عليٍّ ﷺ لينال الحظوة عنده، فقال عليٌّ للآذن: "بَشِّرْ قَاتِلَ ابْنِ صَفِيَّةَ بِالنَّارِ"(٣)، إنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إِنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيًّا، وَحَوَارِيَّ الزُّبَيْرُ"(٤)، وأمسك بسيف الزّبير ﷺ وبكى، وقال: "كَمْ مِنْ كُرْبَةٍ قَدْ فَرَّجَهَا السَّيْفُ عَنْ وَجْهِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ"(٥).

وبدأت الحرب يومئذ من الصّبيان، فقد تسابُّوا، ثمّ ترَامَوْا، ثمّ تبعهم العبيد، ثمّ السّفهاء فنشِبت الحرب(٦)، "والفتنةُ إذا وقعت عجز العقلاء فيها عن دفع السّفهاء، فصار

---

(١) الحاكم: المستدرك، ج٣، ص٤١٣، ح٥٥٧٥. وقد رواه الحاكم من طريقين، حسّن الألباني إحداهما وصحّح الأخرى. السّلسلة الصّحيحة، ج٦، ص٣٣٩، ح٢٦٥٩. وروى ابن سعد بإسناد صحيح، عن ابن عبّاس أنّه قال للزّبير يوم الجمل: "أجئت تقاتل ابن عبد المطّلب؟ قال: فرجع الزّبير، فلقيه ابن جرموز فقتله". ابن سعد: الطبقات الكبير، ج٣، ص١٠٢؛ ابن حجر: الإصابة، ج٢، ص٤٦٠.

(٢) البخاري: الصّحيح، (كتاب الخمس، باب بركة الغازي في ماله حيًّا وميّتًا)، ج٣، ص١١٣٧، ح٢٩٦١.

(٣) لم يُقتل عمرو بنُ جُرْموز بالزّبير بن العوّام ﷺ مع اعترافه بقتله، وليس ذلك عن رضا وسكوت من أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب ﷺ، فقد كان الحقّ في ذلك لبني الزّبير ﷺ، وقد أهملوه وترفّعوا عن قتله تحقيرًا لشأنه؛ لأنّ عبد الله بن الزّبير لمّا قام بالأمر غلب على الأرض سبع سنين، وانبثّ عماله في الأمصار، وكان عمرو بن جرموز حيًّا بالبصرة فما تعرّضوا له، ولمّا أُخبر به مصعب بن الزّبير وهو على البصرة رفض أن يقيده بأبيه، وأمّنه على حياته، وأجرى له عطاءه، وقد اشتدّ ندم عمرو بن جرموز بعد الّذي سمعه من أمير المؤمنين عليّ ﷺ، وأكثر من الاستغفار، واشتدّ إشفاقه على نفسه، وكان الحجّاج بن يوسف الثّقفيّ يذكّره بقتله الزّبير ﷺ فتظهر عليه الكراهية. القاضي عبد الجبّار: تثبيت دلائل النّبوّة، ج١، ص٢٩٨.

(٤) أحمد بن حنبل: المسند، ج٢، ص٩٩، ح٦٨١. وحسّن محققو المسند إسناده، وصحّحه ابن حجر. فتح الباري، ج٦، ص٢٢٩.

(٥) الخلّال: السُّنّة، ج٢، ص٤٦٨، ح٧٣٥. وصحّح الزهرانيّ إسناد الأثر.

(٦) ابن حجر: فتح الباري، ج١٣، ص٥٧.

الأكابر عاجزين عن إطفاء الفتنة وكفّ أهلها، وهذا شأن الفتن كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾[1].

وكان جند أمير المؤمنين عليٍّ ﷺ ملتزمين بطاعته، فقد كفّهم عن قتال طلحة والزّبير وأصحابهما، وكفّ يده حتّى بدءوه، فأصدر أمره بالقتال بعد صلاة الظّهر[2]، وذلك في جُمادَى الآخرة سنة ٣٦هـ/ ديسمبر ٦٥٦م[3].

ولمّا التقى الجمعان "خَرَجَ كَعْبُ بْنُ سُورٍ نَاشِرًا مُصْحَفَهُ، يُذَكِّرُ هَؤُلَاءِ، وَيُذَكِّرُ هَؤُلَاءِ، حَتَّى أَتَاهُ سَهْمٌ فَقَتَلَهُ"[4].

ورمى مروانُ بنُ الحكم الأمويّ طلحةَ بن عبيد الله ﷺ بسهم في ركبته فلم يزل الدّم ينزف منها حتّى مات[5]، وجزم التّابعيّ قيس بن أبي حازم أنّه رأى مرْوان بن الحكم حين رمى طلحة ﷺ يومئذ بسهم[6]، وحدّث الجارود بن أبي سبرة أنّ مروان نظر إلى طلحة يوم الجمل فقال: "لَا أَطْلُبُ ثَأْرِي بَعْدَ اليَوْمِ، فَنَزَعَ لَهُ بِسَهْمٍ فَقَتَلَهُ"[7].

ولهذه الآثار وغيرها نرى الحافظ أبا عمر بن عبد البرّ يقول: "لا يختلف العلماء الثّقات في أن مرْوان قتلَ طلحة"[8]، وأكّد الحافظ ابن حجر قولَه بقوله: "جاء من طرق

---

(١) ابن تيمية: منهاج السُّنّة النّبويّة، جـ٤، ص٣٤٣.

(٢) ابن أبي شيبة: المصنّف في الأحاديث والآثار، جـ٧، ص٥٤٦، ح٣٧٨٣٣. وإسناده صحيح. ابن حجر: فتح الباري، جـ١٣، ص٥٧.

(٣) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٣، ص٥٩.

(٤) ابن سعد: الطّبقات الكبرى، جـ٧، ص٩٢؛ الطّبري تاريخ الأمم والملوك، جـ٣، ص٣٤، ٣٥. وصحّح ابن حجر إسناد الأثر: فتح الباري، جـ١٣، ص٣٤.

(٥) ابن سعد: الطّبقات الكبرى، جـ٣، ص٢٢٣؛ ابن أبي شيبة: المصنّف في الأحاديث والآثار، جـ٧، ص٥٣٦، ح٣٧٧٧٠. وإسناد الأثر صحيح.

(٦) الطّبراني: المعجم الكبير، جـ١، ص١١٣، ح٢٠١. وقال الهيثمي: "رجاله رجال الصّحيح". مجمع الزّوائد، جـ٩، ص٢١٠، ح١٤٨٢٢. ورواه الفسويّ عن قيس بسند صحيح. ابن حجر: الإصابة، جـ٣، ص٤٣٢.

(٧) ابن أبي شيبة: المصنّف، جـ٧، ص٥٤٢، ح٣٧٨٠٣؛ خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٨١؛ البغوي: معجم الصّحابة، جـ٣، ص٤١١. وصحّح ابن حجر إسناد البغوي. الإصابة، جـ٣، ص٤٣٢.

(٨) الاستيعاب في معرفة الأصحاب، جـ٢، ص٧٦٦.

كثيرةٍ أنّ مرْوان بن الحكم رماه فأصاب ركبته، فلم يزل ينزف الدّمُ منها حتّى مات، وكان يومئذٍ أوّلَ قتيلٍ"(١).

وقد قاتل عبد الله بن الزّبير رضي الله عنهما قتالاً شديدًا حتّى أُثخن بالجراح، وتقابل مع الأشتر النّخعيّ، فاجتهد كلّ واحد منهما في قتل صاحبه، ثمّ سلِما، وثبت أنّ عائشة رضي الله عنها عاتبت الأشتر عقب موقعة الجمل على عزمه قتل عبد الله بن الزّبير(٢).

وارتفعت الأصوات بالدّعاء في المعسكرين يومئذ، وقد شجروا رماحهم حتّى لو شاءت الرّجال لمشت عليها، وهم يقولون: "الله أكبر، سبحان الله"(٣)، فتكلّمت أمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها في المِرْبَد بلعن قتلة عثمان رضي الله عنه، وهتف مؤيّدوها بلعنهم، فلما سمع ذلك أمير المؤمنين عليٌّ رضي الله عنه قال: "لَعَنَ اللَّهُ قَتَلَةَ عُثْمَانَ فِي السَّهْلِ وَالْجَبَلِ وَالْبَرِّ وَالْبَحْرِ"(٤)، "اللَّهُمَّ احْلُلْ بِقَتَلَةِ عُثْمَانَ خِزْيًا"(٥).

وكانت السّيّدة عائشة رضي الله عنها قد ركبت جملها وقامت بين النّاس في هودجها تدعو إلى الإصلاح(٦)، فاستشاط القتلة غيظًا عليها، فصوّبوا سهامهم نحوها، فأحاط بها بنو ضبّة، فاستبسلوا في الدّفاع عنها، فبلغ من كثرة السّهام الّتي استهدفت أمّ المؤمنين أن رؤي جملُها يومئذٍ "كَأَنَّهُ قُنْفُذٌ مِنَ النَّبْلِ"(٧).

---

(١) فتح الباري، ج٧، ص٨٢.

(٢) أحمد بن حنبل: المسند، ج٤٠، ص٣٤٩، ح٢٤٣٠٤؛ ج٤٢، ص٤٦٢، ٤٦٣، ح٢٥٧٠٠. وصحّحه الحافظ ابن حجر. فتح الباري، ج٦، ص٢٢٩. وروى الطّبريّ خبر تقاتلهما بسند صحيح. ابن حجر: فتح الباري، ج١٣، ص٥٧.

(٣) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٩٨. وإسناده صحيح. أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الرّاشدة، ص٤٥٦.

(٤) ابن أبي شيبة: المصنّف في الأحاديث والآثار، ج٧، ص٥٣٩، ح٣٧٧٩٣؛ أحمد بن حنبل: فضائل الصّحابة، ج١، ص٥٥٥، ٥٥٦، ح٧٣٣. والأثر صحيح الإسناد.

(٥) ابن أبي شيبة: المصنّف، ج٧، ص٥٤٢، ح٣٧٨١٠. وإسناده صحيح.

(٦) ابن حجر: فتح الباري، ج٨، ص١٢٨.

(٧) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٩٠؛ البلاذري: أنساب الأشراف، ج٢، ص٢٤٢. والأثر بإسناد حسن. أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الرّاشدة، ص٤٥٦.



ولم يزل القتال مستعرًا حول جمل عائشة ﵂ حتّى كثرت القتلى حولها، ووقع ما أخبر به النّبيّ ﷺ عندما قال لنسائه: "أَيَّتُكُنَّ صَاحِبَةُ الْجَمَلِ الْأَدْبَبِ[1]، تَخْرُجُ فَتَنْبَحُهَا كِلَابُ الْحَوْأَبِ، يُقْتَلُ عَنْ يَمِينِهَا وَشِمَالِهَا قَتْلَى كَثِيرٌ، ثُمَّ تَنْجُو بَعْدَمَا قَدْ كَادَتْ"[2]، و"مَا غَرَبَتِ الشَّمْسُ وَحَوْلَ الْجَمَلِ عَيْنٌ تَطْرِفُ مِمَّنْ كَانَ يَذُبُّ عَنْهُ"[3]، ورأى عليٌّ ﵁ الرّؤوسَ تَنْدَرُ فجعل يلوذ بولده الحسن ﵁ ويضمّه إلى صدره، ويقول: "إِنَّا لِلَّهِ يَا حَسَنُ، أَيُّ خَيْرٍ يُرْجَى بَعْدَ هَذَا"[4]، "وَدِدْتُ أَنِّي متُّ قَبْلَ هَذَا بعشرين سَنَةٍ"[5].

وانتهى عبد الله بن بُديل بن ورقاء الخزاعيّ إلى عائشة ﵂ وهي في الهودج فقرّرها بوصيّتها له بلزوم جانب عليٍّ ﵁ عند مقتل عثمان ﵁ فسكتت، فأمر من معه بعقر الجمل، ونزل ابن بديل مع محمّد بن أبي بكر الصّدّيق فاحتملا الهودج حتّى وضعاه بين يدي عليٍّ ﵁، فأمر بها فأدخلت بيتًا[6].

وكان لفقد المطالبين بدم عثمان لأمّ المؤمنين عائشة ﵂ أثرٌ كبيرٌ في انتهاء القتال، "فَلَمْ يَنْشَبْ أَهْلُ الْبَصْرَةِ أَنِ انْهَزَمُوا، فَصَرَخَ صَارِخٌ لِعَلِيٍّ: لَا يُقْتَلُ مُدْبِرٌ، وَلَا يُذَفَّفُ عَلَى جَرِيحٍ، وَمَنْ أَغْلَقَ عَلَيْهِ بَابَ دَارِهِ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ طَرَحَ السِّلَاحَ آمِنٌ". وكان مروان بن الحكم يحدّث بأنّه لم يَرَ أحدًا أحسن غلبة من عليّ بن أبي طالب لهذا الموقف، وكان مروان قد دخل دارًا فاحتمى بها، واستجار بالحسن والحسين وابن عبّاس وعبد الله بن جعفر ﵃ فكلّموا له أمير المؤمنين، فأمّنه، وسمح له بالتّوجّه حيث يشاء، فأتاه عندئذ فبايعه[7].

---

(١) الأدبب: كثير وبر الرّأس. ابن منظور: لسان العرب، ج١، ص٣٧٣.

(٢) ابن أبي شيبة: المصنّف، ج٧، ص٥٣٨، ح٣٧٧٨٥؛ البزّار: البحر الزّخار، ج١١، ص٧٣، ح٤٧٧٧. ورجاله ثقات كما قال الهيثميّ وابن حجر. مجمع الزّوائد، ج٧، ص٢٣٤، ح١٢٠٣٦؛ فتح الباري، ج١٣، ص٥٥.

(٣) ابن أبي شيبة: المصنّف، ج٧، ص٥٤٦، ح٣٧٨٣٣. وإسناد الأثر صحيح. فتح الباري، ج١٣، ص٥٧.

(٤) الخطّابي: العزلة، المطبعة السّلفيّة، القاهرة، الطّبعة الثّانية، ١٣٩٩هـ، ص١٤.

(٥) ابن أبي شيبة: المصنّف، ج٧، ص٥٤٤، ح٣٧٨٢٤؛ عبد الله بن أحمد بن حنبل: السُّنّة، ج٢، ص٥٦٦، ح١٣٢٦. وصحّح إسناده محقّق السُّنّة.

(٦) ابن أبي شيبة: المصنّف، ج٧، ص٥٣٨، ح٣٧٧٨٥. وجوّد ابن حجر إسناده. فتح الباري، ج١٣، ص٥٧.

(٧) سعيد بن منصور: السّنن، ج٢، ص٣٨٩؛ البيهقي: السّنن الكبرى، ج٨، ص١٨١، ح١٦٥٢٣. والأثر بإسناد حسن. أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الرّاشدة، ص٤٥٧.

وانتهى عمّار ﷺ إلى أمّ المؤمنين عائشة ﵂ فقال: "السَّلَامُ عَلَيْكِ يَا أُمَّتَاهُ"، فردّت بالسّلام على من اتّبع الهدى، مرّتين، أو ثلاثًا، وقالت: "لَسْتُ لَكَ بِأُمٍّ"، فقال: "أَمَا وَاللهِ إِنَّكِ لَأُمِّي وَإِنْ كَرِهْتِ"(١).

ولمّا فرغوا من موقعة الجمل قال لها عمّار ﷺ: "مَا أَبْعَدَ هَذَا الْمَسِيرِ مِنَ الْعَهْدِ الّذي عُهِدَ إِلَيْكُمْ"(٢)، فقالت له: "وَاللَّهِ إِنَّكَ مَا عَلِمْت لَقَوَّالٌ بِالْحَقِّ، قال: الْحَمْدُ لِلَّهِ الّذي قَضَى لِي عَلَى لِسَانِكِ"(٣).

وقد ندمت أمّ المؤمنين عائشة ﵂ على مسيرها إلى البصرة فقالت: "لَوَدِدْتُ أَنِّي كُنْتُ ثَكِلْتُ عَشَرَةً كُلُّهُمْ مِثْلُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ، وَأَنِّي لَمْ أَسِرْ مَسِيرِي الّذي سِرْتُ"(٤).

ولا شكّ أنّ اعتراف أمّ المؤمنين عائشة ﵂ بخطئها وندمها على خروجها ليدلّ على كمالها، و"أنّ خطأها من الخطأ المغفور بل المأجور"(٥).

ولم تستمرّ المعركة يوم الجمل أكثر من نصف نهار، فقد بدأت عند الزّوال، وانتهت عند غروب الشّمس، وجاء النّاس من الغد يكلّمون عليًّا ﷺ في الغنيمة، فحاورهم محاورة رائعة ظهر فيها فقهُه العظيم في مقاتلة البغاة من المسلمين وفيها:

قال عليٌّ ﷺ: "أَيُّكُمْ لِعَائِشَةَ؟

قالوا: سُبْحَانَ اللَّهِ، أُمُّنَا.

قال: أَحَرَامٌ هِيَ؟

قالوا: نَعَمْ.

قَالَ: فَإِنَّهُ يَحْرُمُ مِنْ بَنَاتِهَا مَا يَحْرُمُ مِنْهَا.

---

(١) أحمد بن حنبل: المسند، ج٤٠، ص٣٤٩، ح٢٤٣٠٤؛ ج٤٢، ص٤٦٢، ٤٦٣، ح٢٥٧٠٠. وصحّحه المحقّقون .

(٢) يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾. ابن حجر: فتح الباري، ج١٣، ص٥٨.

(٣) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص٦١. وإسناده صحيح. ابن حجر: فتح الباري، ج١٣، ص٥٨.

(٤) الحاكم: المستدرك على الصّحيحين، ج٣، ص١٢٨، ح٤٦٠٩. وإسناده حسن. أكرم العمري: عصر الخلافة الرّاشدة، ص٤٥٩.

(٥) الألباني: سلسلة الأحاديث الصّحيحة، ج١، ص٨٥٤.



وقال: أَفَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ أَنْ يَعْتَدِدْنَ مِنَ الْقَتْلَى أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا؟

قَالُوا: بَلَى.

قال: أَفَلَيْسَ لَهُنَّ الرُّبُعُ وَالثُّمُنُ مِنْ أَزْوَاجِهِنَّ؟

قالوا: بَلَى.

وأمر عليٌّ ﷺ مولى له فنادى: "مَنْ عَرَفَ شَيْئًا فَلْيَأْخُذْهُ"، فكان الرّجل يمرّ على القِدْر وأتباعُ عليٍّ يطبخون فيها فيأخذها منهم[1].

وخطب أمير المؤمنين عليٌّ ﷺ لمّا ظهر يوم الجمل فقال: "إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمْ يَعْهَدْ إِلَيْنَا فِي هَذِهِ الإِمَارَةِ شَيْئًا، وإِنّمَا هُوَ رَأْيٌ رَأَيْنَاهُ"[2].

وقد أمر عليّ ﷺ بردّ أمّ المؤمنين عائشة ﵂ إلى المدينة مع أخيها محمّد بن أبي بكر[3]، وجهّزها بكلّ ما تحتاج إليه، وشيّعها هو وأولاده، ووصّى بإكرامها، وردّها إلى سدانة قبر رسول الله ﷺ وإلى بيتها، وأعطاها ما كان يُعطيها الخلفاء من قبله. وفي هذا أبلغ ردّ على الرّوافض الّذين يكفّرونها؛ إذ كيف يردّها أمير المؤمنين إلى قبر رسول الله ﷺ، ويعطيها ما يُعطى أمّهات المؤمنين، ولا سيّما والمدينة في ملكه وسلطانه، وفيها عمّاله، وليس به في أمرها حاجة الى المداراة والمداهنة بعد مقاتلتها، وكان أمير المؤمنين عليٌّ ﷺ يركب إليها هو وأولاده وابن عبّاس وعبد الله بن جعفر، ويجلسون إليها ويعظّمونها، وقد استغفرت، واستغفر لها أمير المؤمنين[4]، وكانت -بعد ذلك- تلعن من يلعنه، وتتبرّأ من الخوارج الّذين تفرّقوا عنه وخرجوا عليه[5].

وزعمت الطّائفة الإماميّة أنّ أمير المؤمنين ﷺ قد ردّ عائشة ﵂ إلى المدينة النّبويّة وأحسن إليها على طريق حسن العشرة، وعلى سبيل التّكرّم والتّفضّل، لكنّ قولهم

---

(١) ابن أبي شيبة: المصنّف، ج٧، ص٥٤٦، ح٣٧٨٣٣. وإسناد الأثر صحيح. فتح الباري، ج١٣، ص٥٧.

(٢) البخاري: التّاريخ الكبير، ج٦، ص٣٣٤، ٣٣٥؛ عبد الله بن أحمد بن حنبل: السُّنّة، ج٢، ص٥٧٠، ح١٣٣٦. وصحّح محقّق السُّنّة إسناد الأثر.

(٣) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص٦٠.

(٤) القاضي عبد الجبّار: تثبيت دلائل النّبوّة، ج١، ص٢٩٦.

(٥) تثبيت دلائل النّبوّة، ج١، ص٢٩٧.

مردودٌ على وجوههم؛ لأنّ عليًّا ﷺ أجلّ قدرًا وأشدّ ورعًا من أن يردّ امرأة كافرة أو فاسقة إلى قبر رسول الله ﷺ ويمكّنها منه، ويعطيها ما يعطي أمهات المؤمنين، ويسمّيها أمّ المؤمنين(١).

وثبت أنّ النّبيّ ﷺ قال لعليّ ﷺ: "إِنَّهُ سَيَكُونُ بَيْنَكَ وَبَيْنَ عَائِشَةَ أَمْرٌ، قال: فَأَنَا أَشْقَاهُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: لَا، وَلَكِنْ إِذَا كَانَ ذَلِكَ فَارْدُدْهَا إِلَى مَأْمَنِهَا"(٢).

ورجع أمير المؤمنين عليٌّ ﷺ مهمومًا حزينًا إلى الكوفة، فوصلها في ١٢ رجب سنة ٣٦هـ/ ديسمبر ٦٥٦م(٣).

وتكثر الرّوايات المتخالفة في أعداد القتلى يومئذ، حتّى أجمل المسعوديّ ذلك بقوله: "قد تنازع النّاس في مقدار من قُتل من الفريقين، فمن مقلّل ومُكثّر، فالمقلّل يقول: قتل منهم سبعة آلاف، والمكثّر يقول: عشرة آلاف؛ على حسب ميل النّاس وأهوائهم إلى كلّ فريق منهم"(٤).

ولم يكن لموقعة الجمل أدنى أثر سيّئ في قلب عليّ ﷺ على طلحة والزّبير ﵄؛ بل ثبت عن عليّ ﷺ أنّه قال: "إِنِّي لَأَرْجُو إِنْ أَكُونَ أَنَا وَالزُّبَيْرُ، وَطَلْحَةُ، مِمَّنْ قَالَ اللَّهُ -عَزَّ وَجَلَّ- فيهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ۝٤٧﴾(٥)، فَقَامَ رَجُلٌ مِنْ هَمْدَانَ فَقَالَ: اللَّهُ أَعْدَلُ مِنْ ذَلِكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، فَصَاحَ بِهِ عَلِيٌّ صَيْحَةً: إِنَّ الْقَصْرَ يُدَهْدِهُ لَهَا، ثُمَّ قَالَ: مَنْ هُمْ؟ إِذَا لَمْ نَكُنْ نَحْنُ هُمْ؟"(٦).

(١) القاضي عبد الجبّار: تثبيت دلائل النّبوّة، ج١، ص٢٩٧.

(٢) أحمد بن حنبل: المسند، ج٤٥، ص١٧٥، ح٢٧١٩٨، وقال الهيثمي: "رواه أحمد والبزّار: والطّبرانيّ، ورجاله ثقات". مجمع الزّوائد، ج٧، ص٢٣٤، ح١٢٠٢٤. وحسّن ابن حجر إسناده. فتح الباري، ج١٣، ص٥٥.

(٣) الدّينوري: الأخبار الطّوال، ص١٥٢.

(٤) مروج الذّهب ومعادن الجوهر، ج٢، ص٣٥١.

(٥) سورة الحجر: الآية ٤٧.

(٦) أحمد بن حنبل: فضائل الصّحابة، ج٢، ص٩٣٥، ح١٣٠٠. وصحّح المحقّق وصيّ الله إسناد الأثر.

الفصل الرّابع
موقعة صفّين وقضيّة التّحكيم

أقرّت البلدانُ الإسلاميّة بالبيعة العامّة أو بالأغلبيّة لعليٍّ ﷺ إلّا أهلَ الشّام وأميرهم معاوية بن أبي سفيان ﷺ(١)، فإنّهم قالوا: "لا نبايع من يؤوي القتلة"(٢).

وكانت بلاد الشّام قد اهتزّت عند سماع مقتل الخليفة عثمان ﷺ فاجتمع النّاس في المساجد الكبيرة لسماع كلام العلماء، وقام خطباءُ بِإِيلِيَاءَ، فقام من آخرِهم مُرّةُ بنُ كعبٍ البَهْزِيُّ ﷺ فقال: "لَوْلَا حَدِيثٌ سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَا قُمْتُ، إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ ذَكَرَ فِتْنَةً، فَمَرَّ رَجُلٌ مُتَقَنِّعٌ فَقَالَ: "هَذَا وَأَصْحَابُهُ يَوْمَئِذٍ عَلَى الْحَقِّ"، فَانْطَلَقْتُ فَأَخَذْتُ بِمَنْكِبِهِ، وَأَقْبَلْتُ بِوَجْهِهِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقُلْتُ: هَذَا؟ قَالَ: "نَعَمْ"، فَإِذَا هُوَ عُثْمَانُ"(٣).

ولمّا جمع معاوية ﷺ الشّاميّين بعد مقتل أمير المؤمنين عثمان ﷺ للمطالبة بدمه قام البَهزيّ مرّة أخرى فقال: "لَوْلَا شَيْءٌ سَمِعْتُهُ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ مَا قُمْتُ هَذَا الْمَقَامَ، فَلَمَّا سَمِعَ معاويةُ بِذِكْرِ رَسُولِ اللهِ ﷺ أَجْلَسَ النَّاسَ، فلمّا سمع النّاسُ قول النّبيّ ﷺ في الفتنة الّتي يكون فيها عثمان ﷺ وأتباعه على الهدى قام ابنُ حَوَالَةَ الأَزْدِيُّ ﷺ فقال: "وَاللهِ إِنِّي لَحَاضِرٌ ذَلِكَ الْمَجْلِسَ، وَلَوْ عَلِمْتُ أَنَّ لِي فِي الْجَيْشِ مُصَدِّقًا كُنْتُ أَوَّلَ مَنْ تَكَلَّمَ بِهِ"(٤).

وكان عبد الله بن حَوَالة الأزديّ قد سمع النّبيّ ﷺ يقول: "سَيَصِيرُ الْأَمْرُ إِلَى أَنْ تَكُونُوا جُنُودًا مُجَنَّدَةً، جُنْدٌ بِالشَّامِ، وَجُنْدٌ بِالْيَمَنِ، وَجُنْدٌ بِالْعِرَاقِ، قَالَ ابْنُ حَوَالَةَ: خِرْ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنْ أَدْرَكْتُ ذَلِكَ، فَقَالَ: عَلَيْكَ بِالشَّامِ، فَإِنَّهَا خِيرَةُ اللَّهِ مِنْ أَرْضِهِ، يَجْتَبِي إِلَيْهَا خِيرَتَهُ مِنْ عِبَادِهِ، فَأَمَّا إِنْ أَبَيْتُمْ، فَعَلَيْكُمْ بِيَمَنِكُمْ، وَاسْقُوا مِنْ غُدُرِكُمْ، فَإِنَّ اللَّهَ تَوَكَّلَ لِي بِالشَّامِ وَأَهْلِهِ"(٥).

---

(١) ابن حجر: فتح الباري، ج٧، ص٧٢.

(٢) ابن العربي: العواصم من القواصم، ص ١٣٠.

(٣) أحمد بن حنبل: المسند، ج٢٩، ص٦٠١، ٦٠٢، ح١٨٠٦٠؛ ج٢٩، ص٦٠٩، ح١٨٠٦٨. وصحّحه المحقّقون.

(٤) أحمد بن حنبل: المسند، ج٢٩، ص٦٠٨، ح١٨٠٦٧. وصحّح إسناده محقّقو المسند.

(٥) أحمد بن حنبل: المسند، ج٣، ص٤، ح٢٤٨٣؛ فضائل الصّحابة، ج٢، ص١١٣٣، ح١٧٠٤؛ أبو داود: السّنن، (كتاب الجهاد، باب في سكنى الشّام)، ج٤، ص١٤٠، ح٢٤٨٣. وصحّح المحقّقون هذا الحديث.

ولمّا بلغ أمير الشّام معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما أنّ السّيّدة عائشة رضي الله عنها تحدّث عن رسول الله ﷺ أنّه قال لعثمان ثلاث مرار: "إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ عَسَى أَنْ يُلْبِسَكَ قَمِيصًا، فَإِنْ أَرَادَكَ الْمُنَافِقُونَ عَلَى خَلْعِهِ، فَلَا تَخْلَعْهُ حَتَّى تَلْقَانِي"، بعث إليها أن تكتب له بهذا الحديث، فكتبتْ إليه به كتابًا[1].

ولهذا سينظر الشّاميّون لأنفسهم بأنّهم على الهدى بمدافعتهم عن عثمان رضي الله عنه، خلافًا للقتلة الّذين سيكونون أصحاب ضلالة، ويستحلّ معاوية رضي الله عنه والشّاميّون قتال أمير المؤمنين عليٍّ رضي الله عنه متأوّلين، ولا يتبيّن لبعضهم خطأ موقفهم إلّا بعد مقتل عمار بن ياسر رضي الله عنه في صفّين ومقتل المخدَّج في النّهروان[2].

وقد كان معاوية رضي الله عنه والشّوام مخالفين لهدي عثمان رضي الله عنه في مطالبتهم بدمه وشقاقهم على المؤمنين؛ فقد ثبت أنّ أبا قتادة الأنصاريّ رضي الله عنه ورجلًا آخرَ من الأنصار "دَخَلَا عَلَى عُثْمَانَ رضي الله عنه وَهُوَ مَحْصُورٌ، فَاسْتَأْذَنَا فِي الْحَجِّ فَأَذِنَ لَهُمَا، ثُمَّ قَالَا: مَعَ مَنْ نَكُونُ إِنْ ظَهَرَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ؟ قَالَ: عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ، قَالَا: أَرَأَيْتَ إِنْ أَصَابَكَ هَؤُلَاءِ الْقَوْمُ، وَكَانَتِ الْجَمَاعَةُ فِيهِمْ؟ قَالَ: الْزَمُوا الْجَمَاعَةَ حَيْثُ كَانَتْ"[3].

ولم يكن قتال عليّ رضي الله عنه مباحًا لمعاوية رضي الله عنه وأتباعه، حتّى ولو ترك عليٌّ رضي الله عنه القصاص من قتلة عثمان رضي الله عنه عامدًا، لا متأوّلاً، ولا عاجزًا؛ لأنّ ذلك ليس "موجبًا لتفريق الجماعة، والامتناع عن مبايعته، ومقاتلته، بل كانت مبايعتُه على كلّ حالٍ أصلحَ في الدّين، وأنفع للمسلمين، وأطوع للّه ولرسوله من ترك مبايعته"[4]، "ولم يكن في وقته أحقُّ منه بالخلافة، وهو خليفة راشد تجب طاعته، ومعلومٌ أنّ قتل القاتل إنّما شُرع عصمة للدّماء، فإذا أفضى قتلُ الطّائفة القليلة إلى قتل أضعافها، لم يكن هذا طاعة ولا مصلحة، وقد قُتل بصفّين أضعاف أضعاف قتلة عثمان"[5].

---

(١) أحمد بن حنبل: المسند، ج٤١، ص١١٣، ح٢٤٥٦٦. وقال المحقّقون: "إسناده صحيح، رجاله ثقات".

(٢) أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الرّاشدة، ص٤٦٥.

(٣) أحمد بن حنبل: فضائل الصّحابة، ج١، ص٥٦٧، ح٧٥٣. وصحّح وصيّ الله إسناد الأثر.

(٤) ابن تيمية: منهاج السُّنّة، ج٤، ص٤١١.

(٥) منهاج السُّنّة، ج٤، ص٤١٣.



وقد عمل جماعة من صلحاء المسلمين على حلّ النّزاع بين عليّ ومعاوية رضي الله عنهما في بداية الأمر، فأتى التّابعيُّ أبو مسلم الخَوْلانيُّ معاويةَ ﵁ في أناس معه فقالوا له: "أَنْتَ تُنَازِعُ عَلِيًّا فِي الخِلَافَةِ أَوْ أَنْتَ مِثْلُهُ؟ قَالَ: لَا وَاللهِ، إِنِّي لَأَعْلَمُ أَنَّهُ أَفْضَلُ مِنِّي، وَأَحَقُّ بِالأَمْرِ مِنِّي، وَلَكِنْ أَلَسْتُمْ تَعْلَمُونَ أَنَّ عُثْمَانَ قُتِلَ مَظْلُومًا، وَأَنَا ابْنُ عَمِّهِ، وَوَلِيُّهُ أَطْلُبُ بِدَمِهِ، فَأْتُوا عَلِيًّا فَقُولُوا لَهُ يَدْفَعُ لَنَا قَتَلَةَ عُثْمَانَ، فَأَتَوْهُ فَكَلَّمُوهُ فَقَالَ: يَدْخُلُ فِي الْبَيْعَةِ وَيُحَاكِمُهُمْ إِلَيَّ، فَامْتَنَعَ مُعَاوِيَةُ"[١].

ولمّا فشلت محاولات الصّلح عزم عليٌّ ﵁ على المسير إلى الشّام لإخضاع معاوية وأتباعه بالقوّة، فتحرّك بجيوشه[٢] من العراق حتّى نزل صفّين[٣]، وكان الشّاميّون[٤] قد سبقوهم إلى ذلك المكان وعسكروا به، فحالوا بين العراقيّين وبين الماء، فوجّه عليٌّ ﵁ إليهم الأشعث بن قيس الكنديّ فقاتلهم على الماء حتّى أزالهم[٥].

وقد أوعب الشّوام، و"قاتلوا مع معاوية لظنّهم أنّ عسكر عليٍّ فيه ظلمة يعتدون عليهم كما اعتدوا على عثمان، وأنّهم يقاتلونهم دفعًا لصِيالهم عليهم، وقتال الصّائل جائز، ولهذا لم يبدءوهم بالقتال حتى بدأهم أولئك. ولهذا قال الأشتر النّخعيّ: "إِنَّهُمْ يَنْصُرُونَ عَلَيْنَا لِأَنَّا نَحْنُ بَدَأْنَاهُمْ"[٦].

---

(١) رواه يحي بن سليمان الجعفيّ - أحد شيوخ البخاريّ - في كتاب صِفّين (المفقود) بسند جوّده ابن حجر. فتح الباري، ج١٣، ص٨٦. وأورده الذّهبيّ بإسناد الجعفيّ. سير أعلام النّبلاء، ج٣، ص١٤٠. ووثّق محقّقو السّير رجال الأثر.

(٢) يصل بعض الرّواة بعدد جيش عليّ ﵁ إلى مائة وخمسين ألفًا. خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٩٣. وإسناده حسن. ويرى الدّكتور أكرم ضياء العمريّ أنّ جيش عليٍّ كان أكثر من خمسين ألفًا. عصر الخلافة الرّاشدة، ص٤٦٥.

(٣) ابن حجر: فتح الباري، ج١٣، ص٨٦.

(٤) وتختلف الرّوايات الضّعيفة في تقدير عدد جيش معاوية بين ستين ألفًا، ومائة وخمسين ألفًا. أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الرّاشدة، ص٤٦٥.

(٥) ابن أبي شيبة: المصنّف في الأحاديث والآثار، ج٧، ص٥٤٩؛ خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٩٣. وإسناده حسن.

(٦) ابن تيمية: منهاج السُّنّة، ج٤، ص٣٨٣.

وقد بدأ القتال بين الجمعين في أوّل ذي الحجّة سنة ٣٦هـ/ مايو ٦٥٧م، واستمرّ متواصلاً طوال هذا الشّهر على شكل كتائب صغيرة، فكان عليٌّ ﷺ يُخرج من جيشه الكتيبة الصّغيرة، ويؤمّر عليها أميرًا، فيُخرج لها معاوية ﷺ ما يقابلها، فيلتقيان، فيقتتلان مرّة أو مرّتين، ثمّ يعودان، وكانوا يكرهون اللّقاء بجميع رجال الجيشين؛ مخافة الاستئصال والهلاك[(١)]، وأملاً في وقوع صلحٍ بين الطّرفين، تصان به الأرواح، وتحقن به الدّماء[(٢)]، ولذلك فعندما أهلّ عليهم شهر المحرّم، توادع الطّرفان على ترك الحرب فيه إلى انقضائه؛ طمعًا في الصّلح[(٣)].

وكان الفريقان يدركان أنّ القتال بين طائفتين من المؤمنين، إلّا في بعض الحالات الفرديّة، ولمّا سمع عليٌّ ﷺ رجلاً من جنده يدعو بلعن الشّاميّين قال: "لَا تَسُبَّ أَهْلَ الشَّامِ جَمًّا غَفِيرًا، فَإِنَّ بِهَا الْأَبْدَالَ[(٤)]، فَإِنَّ بِهَا الْأَبْدَالَ، فَإِنَّ بِهَا الْأَبْدَالَ"[(٥)].

ولمّا كانت أغلب القبائل موزّعة بين الفريقين فقد كانوا كلّما توادعوا "دَخَلَ هَؤُلَاءِ فِي عَسْكَرِ هَؤُلَاءِ، وَهَؤُلَاءِ فِي عَسْكَرِ هَؤُلَاءِ"[(٦)].

---

(١) نصر بن مزاحم: وقعة صفّين، تحقيق/ عبد السّلام هارون، المؤسّسة العربيّة الحديثة، القاهرة، الطّبعة الثّانية، ١٩٨٠م، ص١٩٥؛ محمّد عبد العال محمّد حسن: بنو شيبان ودورهم السّياسيّ والحضاريّ في العراق والجزيرة الفراتيّة، ص٨٧.

(٢) على محمّد محمّد الصّلّابي: الدّولة الأمويّة، عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار، دار ابن الجوزي، القاهرة، الطّبعة الأولى، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م، ج١، ص١١١.

(٣) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص٧٩.

(٤) الأبدال: جمع بِدْل وبَدَل، وهم الأولياء والعبّاد، سمّوا بذلك لأنّه كلّما مات واحدٌ منهم أبدل بآخر. ابن الأثير: النّهاية في غريب الحديث والأثر، ج١، ص١٠٧.

(٥) معمر بن راشد: الجامع، ج١١، ص٢٤٩؛ أحمد بن حنبل: فضائل الصّحابة، ج٢، ص١١٤٥، ١١٤٦، ح١٧٢٦؛ ابن أبي الدّنيا: الأولياء، تحقيق/ محمّد بسيوني زغلول، مؤسّسة الكتب الثّقافيّة، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤١٣هـ، ص٣٠، ح٧٠. والأثر صحيح كما خرّجه محقّق المطالب العالية لابن حجر، ج١٣، ص٣٦٤.

(٦) الطّبراني: المعجم الكبير، ج١٣، ص٤٦١، ح١٤٣٢٧؛ الحاكم: المستدرك على الصّحيحين، ج٣، ص٤٣٦، ح٥٦٦٠. وقال الهيثميّ: "رواه الطّبرانيّ وأحمد باختصار، وأبو يعلى بنحو الطّبرانيّ، ورجال أحمد وأبي يعلى ثقات". مجمع الزّوائد، ج٧، ص٢٤١، ح١٢٠٤٨.

ولمّا انسلخ المحرّم سنة ٣٧هـ/٦٥٧م، ولم يقع بين الطّرفين صلح، استؤنف القتال بين الفريقين في أوّل صفر[١] بالمبارزات الفرديّة والمجموعات القتاليّة القبليّة[٢]، واستمرّ قتال الكتائب والفرق، والمبارزات الفرديّة، طوال الأسبوع الأوّل من صفر ٣٧هـ/٦٥٧م[٣]، حتّى ملّه أمير المؤمنين عليٌّ ﷺ، فقرّر أن يزحف بجيشه كلّه إلى الشّاميّين، فالتقى الجمعان في يوم الأربعاء الثّامن من صفر، فاقتتلوا قتالاً شديدًا نهارهم كلّه، ثمّ انصرفوا دون أن تترجّح إحدى الطّائفتين على الأخرى[٤].

وعاد الفريقان للحرب في يوم الخميس، فقاتل العراقيّون قتالاً شديدًا حتّى وصلوا إلى قُبّة معاوية ﷺ[٥]، ولكنّ جماعة من الشّاميّين تبايعوا على الموت، وصمدوا للميمنة العراقيّة الّتي هاجمت معاوية، فردّوهم إلى مكانهم، وانهزمت الميمنة والقلب عن عليٍّ ﷺ، فانحاز إلى ميسرته الّتي تصطفّ فيها قبائل ربيعة، فثبتوا يدافعون عنه[٦].

وكان عمّار بن ياسر ﷺ يقاتل مع عليٍّ ﷺ وقد جاوز التّسعين من عمره[٧]، وهو مع ذلك يحمّس النّاس، ويحرّضهم على القتال، ويستنهض هممهم، ويقول: "مَنْ سَرَّهُ أَنْ تَكْتَنِفَهُ، الْحُورُ الْعِينُ فَلْيَتَقَدَّمْ بَيْنَ الصَّفَّيْنِ مُحْتَسِبًا، فَإِنِّي لَأَرَى صَفًّا لَيَضْرِبَنَّكُمْ ضَرْبًا يَرْتَابُ مِنْهُ الْمُبْطِلُونَ"[٨].

وبالرّغم من ذلك فقد كان عمّار ﷺ راسخ الإيمان عارفًا لموضع قدمه في تلك الفتنة، فلمّا سمع أحد العراقيّين يقول: "كَفَرَ أَهْلُ الشَّامِ"، قال عمّار ﷺ: "لَا تَقُولُوا ذَلِكَ،

---

(١) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص٨٢.

(٢) ابن مزاحم: وقعة صفّين، ص٥٥٦؛ ابن حبّان: الثّقات، ج٢، ص٢٩١.

(٣) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص٨٢، ٨٣.

(٤) تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص٨٤.

(٥) تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص٨٥، ٨٦.

(٦) ابن مزاحم: وقعة صفّين، ص٢٤٨، ٢٤٩؛ الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص٨٦.

(٧) ابن الأثير: أسد الغابة في معرفة الصّحابة، ج٤، ص١٤٥؛ ابن حجر: الإصابة في تمييز الصّحابة، ج٤، ص٥٧٥.

(٨) ابن أبي شيبة: المصنّف في الأحاديث والآثار، ج٧، ص٥٤٧، ح٣٧٨٣٩. وصحّح الحافظ ابن حجر إسناد الأثر. فتح الباري، ج١٣، ص٨٦.

نَبِيُّنَا وَنَبِيُّهُمْ وَاحِدٌ، وَقِبْلَتُنَا وَقِبْلَتُهُمْ وَاحِدَةٌ؛ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ مَفْتُونُونَ جَارُوا عَنِ الْحَقِّ، فَحَقَّ عَلَيْنَا أَنْ نُقَاتِلَهُمْ حَتَّى يَرْجِعُوا إِلَيْهِ"(١).

وتقدّم عمّار ﵁ فقاتل قتالاً شديدًا، وهو يقول: "وَالَّذي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ ضَرَبُونَا حَتَّى يَبْلُغُوا بِنَا سَعْفَاتِ هَجَرَ(٢)، عَرَفْنَا أَنَّ مُصْلِحِينَا عَلَى الْحَقِّ وَأَنَّهُمْ عَلَى الْبَاطِلِ"(٣).

وأُتِيَ عمّارٌ ﵁ بشربة لبنٍ في ذلك الموقف، فضحك، وقال: إنّ النّبيّ ﷺ قال: "آخِرُ شَرْبَةٍ تَشْرَبُهَا مِنَ الدُّنْيَا شَرْبَةُ لَبَنٍ"، فشربها، ثمّ تقدّم فقتل(٤).

وفور مقتل عمّار ﵁ هرع رجلان إلى معاوية ﵁ حتّى دخلا عليه وهما يختصمان في رأس عمّارٍ، فقال عبد الله بن عمرو بن العاص ﵄: "لِيَطِبْ أَحَدُكُمَا بِهِ نَفْسًا لِصَاحِبِهِ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يقول: "تَقْتُلُهُ الْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ"، فقال معاوية: "أَلَا تُغْنِي عَنَّا مَجْنُونَكَ يَا عَمْرُو؟ فَمَا بَالُهُ مَعَنَا"؟ قَالَ: "إِنِّي مَعَكُمْ وَلَسْتُ أُقَاتِلُ، إِنَّ أَبِي شَكَانِي، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "أَطِعْ أَبَاكَ مَا دَامَ حَيًّا وَلَا تَعْصِهِ"، فَأَنَا مَعَكُمْ وَلَسْتُ أُقَاتِلُ"(٥).

---

(١) ابن أبي شيبة: المصنّف في الأحاديث والآثار، ج٧، ص٥٤٧، ح٣٧٨٤١؛ محمّد بن نصر المروزي: تعظيم قدر الصّلاة، تحقيق/ عبد الرّحمن عبد الجبّار الفريوائي، مكتبة الدّار، المدينة المنوّرة، الطّبعة الأولى، ١٤٠٦هـ، ج٢، ص٥٤٦. ويعتضد الأثر بشواهده إلى الحسن لغيره. أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الرّاشدة، ص٤٦٩.

(٢) سعفات هجر: أغصان النّخيل، وإنّما خصّ هجر؛ للمباعدة في المسافة، ولأنّها موصوفة بكثرة النّخيل. ابن منظور: لسان العرب، ج٩، ص١٥١.

(٣) أحمد بن حنبل: المسند، ج٣١، ص١٧٨، ١٧٩، ح١٨٨٨٤؛ ابن حبّان: الصّحيح، ج١٥، ص٥٥٥، ٥٥٦. وقال محقّقو الصّحيح: "رواته ثقات". وقال الهيثميّ: "رواه الطّبرانيّ، وإسناده حسن". مجمع الزّوائد ومنبع الفوائد، ج٩، ص٢٩٧، ٢٩٨، ح١٥٦٢٥.

(٤) ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٣، ص٢٥٧؛ ابن أبي شيبة: المصنّف، ج٧، ص٥٥٢، ح٣٧٨٧٧؛ أحمد بن حنبل: المسند، ج٣١، ص١٧٢، ح١٨٨٨٠؛ ج٣١، ص١٧٨، ح١٨٨٨٣. والحديث صحيح كما خرّجه محقّقو المسند والألبانيّ. سلسلة الأحاديث الصّحيحة، ج٧، ص٦٦٤.

(٥) أحمد بن حنبل: المسند، ج١١، ص٥٢٣، ح٦٩٢٩. وصحّح محقّقو المسند إسناده. وقال الهيثميّ: "رواه أحمد، ورواته ثقات". مجمع الزّوائد، ج٧، ص٢٤٤، ح١٢٠٦٣. وصحّحه البوصيري. إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة، ج٣، ص١٠٩.



ولمّا تأثّر عمرو بن العاص ﷺ بكلام ولده وراجع معاوية ﷺ فيه قال له: "لَا تَزَالُ تَأْتِينَا بِهَنَةٍ أَنَحْنُ قَتَلْنَاهُ؟ إِنَّمَا قَتَلَهُ الّذينَ جَاءُوا بِهِ أَنَحْنُ قَتَلْنَاهُ، إِنَّمَا قَتَلَهُ مَنْ جَاءَ بِهِ"(١).

وفي رواية أخرى أنّ معاوية قال لعمرو ﷺ: "دُحِضْتَ فِي بَوْلِكَ، أَوَ نَحْنُ قَتَلْنَاهُ؟ إِنَّمَا قَتَلَهُ عَلِيٌّ وَأَصْحَابُهُ، جَاءُوا بِهِ حَتَّى أَلْقَوْهُ بَيْنَ رِمَاحِنَا، أَوْ قَالَ: بَيْنَ سُيُوفِنَا"(٢).

ولا شكّ أنّ اتّهام أمير المؤمنين عليّ ﷺ بقتل عمّار ﷺ لمجرّد مجيئه به خطأٌ محضٌ؛ ولو كان الأمر كذلك لكان النّبيُّ ﷺ هو السّبب في مقتل حمزة ﷺ وسائر الشّهداء في الغزوات النّبويّة، كما ألزم عليٌّ ﷺ بذلك المخالفين له(٣)، ولذا فإنّ حجّة معاوية ﷺ مردودة(٤)، وكلامه من التّأويلات الظّاهرة الفساد للعامّة والخاصّة، وقد صرّح الإمام أحمد بقتل أهل الشّام لعمّار ﷺ(٥).

وعقب مقتل عمّار ﷺ في مساء يوم الخميس ٩ صفر ٣٧هـ/٦٥٧م(٦)، أسرع عليٌّ ﷺ في تنظيم جيشه، وبايع أصحابه على الموت(٧)، وتقدّمهم على بغلته، فحملوا معه حملة رجل واحد، فلم يبق لأهل الشّام صفٌّ إلّا انتقض، حتّى بلغوا معاوية ﷺ(٨)، فلمّا استحرّ القتل في أهل الشّام انحاز بهم معاوية إلى تلّ مجاور لأرض المعركة فاعتصموا به(٩)، وهذا ما جعل معاوية يفكّر في طريق آخر غير السّيف؛ لإنقاذ نفسه، وعسكره من سيوف العراقيّين.

---

(١) أحمد بن حنبل: المسند، ج١١، ص٤٢، ح٦٤٩٩. وصحّح المحقّقون إسناده.

(٢) أحمد بن حنبل: المسند، ج٢٩، ص٣١٦، ح١٧٧٧٨. وصحّح المحقّقون إسناده.

(٣) ابن عبد ربّه: العقد الفريد، ج٥، ص٩٠؛ أبو حيّان التّوحيدي: البصائر والذّخائر، دار صادر، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ج٧، ص٢٥٧؛ ابن تيمية: منهاج السُّنّة، ج٤، ص٤١٩.

(٤) ابن تيمية: منهاج السُّنّة النّبويّة، ج٤، ص٣٥٧.

(٥) منهاج السُّنّة النّبويّة، ج٤، ص٤١٤.

(٦) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص٩٨؛ ابن الوردي: تاريخ ابن الوردي، دار الكتب العلميّة، بيروت، الطّبعة الأولى، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، ج١، ص١٥١.

(٧) الحاكم: المستدرك على الصّحيحين، ج٣، ص٤٥٥، ح٥٧١٨.

(٨) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص٩٤.

(٩) أحمد بن حنبل: المسند، ج٢٥، ص٣٤٨، ح١٥٩٧٥. وصحّح ابن حجر إسناده. المطالب العالية بزوائد المسانيد الثّمانية، ج١٨، ص٢١٧، ح٤٤٣٩.

عرض عمرو بن العاص ﷺ على معاوية ﷺ أن يرسل إلى عليٍّ ﷺ بمصحفٍ، ويدعوه إلى كتاب الله، فقبل عرضه، وأرسل رجلاً من أصحابه إلى عليٍّ ﷺ فقال: "بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ كِتَابُ اللهِ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ٢٣﴾[1]، فقبل عليٌّ ﷺ التّحاكم إلى كتاب الله، وقال: "أَنَا أَوْلَى بِذَلِكَ"[2]، واعتبره فتحًا[3].

أحدثت هذه الفكرة انقسامًا في صفوف العراقيّين؛ فقبلها عليٌّ ﷺ وغالبيّة أتباعه[4]، ورفضها كثيرٌ من القرّاء[5]، وطالبوا عليًّا ﷺ بمواصلة القتال، وإعمال السّيف في المتحصّنين بالتّلّ، فلمّا رَفض طلَبهم، خرجوا عليه؛ لقبوله التّحكيم، ووقْفِ القتال[6]، وقالوا: "لَا حُكْمَ إِلّا لِلَّهِ"، فقال عليٌّ ﷺ: "كَلِمَةُ حَقٍّ أُرِيدَ بِهَا بَاطِلٌ"[7].

وقد انشقّ المحتجّون من القرّاء واعتزلوا جيش أمير المؤمنين عليٍّ ﷺ محتجّين بأنّه محا اسمه من إمرة المؤمنين[8]، وانتهى الأمر باختيار أبي موسى الأشعريّ ﷺ ممثّلاً لعليّ ﷺ

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٢٣.

(٢) أحمد بن حنبل: المسند، ج٢٥، ص٣٤٨، ح١٥٩٧٥. وصحّح ابن حجر إسناده. المطالب العالية بزوائد المسانيد الثّمانية، ج١٨، ص٢١٧، ح٤٤٣٩.

(٣) ابن أبي شيبة: المصنّف في الأحاديث والآثار، ج٧، ص٥٥٨، ح٣٧٩١٤. وصحّح ابن حجر إسناده. المطالب العالية، ج١٨، ص٢١٧.

(٤) محمد آمحزون: تحقيق مواقف الصّحابة في الفتنة، ج٢، ص٢١٧.

(٥) القرّاء: هذه النّسبة إلى قراءة القرآن، ويراد بها هنا جماعة الخوارج الّذين رفضوا التّحكيم، وخرجوا على أمير المؤمنين عليّ، ولمّا كانوا من قرّاء القرآن الكريم كان النّاس يسمّونهم بذلك. ابن الأثير: اللّباب في تهذيب الأنساب، ج٣، ص٢٠؛ ابن حجر: فتح الباري، ج٨، ص٥٨٨.

(٦) أحمد بن حنبل: المسند، ج٢٥، ص٣٤٨، ح١٥٩٧٥. وصحّح ابن حجر إسناده. المطالب العالية، ج١٨، ص٢١٧، ح٤٤٣٩.

(٧) مسلم: الصّحيح، (كتاب الزّكاة، باب التّحريض على قتل الخوارج)، ج٢، ص٧٤٩، ح١٠٦٦؛ النّسائي: السّنن الكبرى، (كتاب الخصائص، باب ذكر ما خصّ به عليّ من قتال المارقين)، ج٥، ص١٦٠، ح٨٥٦٢؛ ابن حبّان: الصّحيح، ج١٥، ص٣٨٧، ٣٨٨، ح٦٩٣٩.

(٨) أحمد بن حنبل: المسند، ج٥، ص٢٦٣، ح٣١٨٧. وحسّن المحققون إسناده. واستدركه الحاكم على الصّحيحين، وصحّحه على شرط مسلم، وأقرّه الذّهبيّ. المستدرك، ج٢، ص١٦٤، ح٢٦٥٦.



والعراقيّين، وعمرو بن العاص ﷺ عن معاوية ﷺ وأهل الشّام[1]، وقد ألحّت أمّ المؤمنين حفصة رضي الله عنها على أخيها عبد الله بن عمر رضي الله عنهما في حضور الحكومة خوفًا من فُرقة المسلمين، ولم تدعه حتّى ذهب إليهم[2].

ومع أنّ سعد بن أبي وقّاص ﷺ هو الوحيد الّذي بقي مع عليّ ﷺ من أصحاب الشّورى فقد اعتزل في إبله وغنمه[3]، ورفض حضور التّحكيم، فقد صحّ عن عامر بن سعد أنّه قال: "كَانَ سَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ فِي إِبِلِهِ، فَجَاءَهُ ابْنُهُ عُمَرُ، فَلَمَّا رَآهُ سَعْدٌ قَالَ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ هَذَا الرَّاكِبِ، فَنَزَلَ فَقَالَ لَهُ: أَنَزَلْتَ فِي إِبِلِكَ وَغَنَمِكَ، وَتَرَكْتَ النَّاسَ يَتَنَازَعُونَ الْمُلْكَ بَيْنَهُمْ؟ فَضَرَبَ سَعْدٌ فِي صَدْرِهِ، فَقَالَ: اسْكُتْ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ التَّقِيَّ، الْغَنِيَّ، الْخَفِيَّ"[4].

وكان عمر بن سعد هذا يحبّ الرّياسة، ولو حصلت على الوجه المذموم، وسوف يتمسّك بالولاية الّتي يمنحه إيّاها الأمويّون في عهد يزيد بن معاوية، مع أنّها مشروطة بمقاتلة الحسين بن عليّ رضي الله عنهما، ويكون أميرًا على تلك السّريّة الّتي قتلته[5].

وقد حاول معاوية استمالة أبي موسى الأشعريّ إلى صفّه فكتب إليه: "إِنَّ عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ قَدْ بَايَعَنِي عَلَى الّذي قَدْ بَايَعَنِي عَلَيْهِ، وَأُقْسِمُ بِاللَّهِ: لَئِنْ بَايَعْتَنِي عَلَى مَا بَايَعَنِي عَلَيْهِ لَأَبْعَثَنَّ ابْنَيْكَ، أَحَدَهُمَا عَلَى الْبَصْرَةِ، وَالْآخَرُ عَلَى الْكُوفَةِ، وَلَا يُغْلَقُ دُونَكَ بَابٌ، وَلَا تُقْضَى دُونَكَ حَاجَةٌ". فكان جواب أبي موسى ﷺ: "إِنَّكَ كَتَبْتَ إِلَيَّ فِي جَسِيمِ أَمْرِ أُمَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَمَاذَا أَقُولُ لِرَبِّي إِذَا قَدِمْتُ عَلَيْهِ، لَا حَاجَةَ لِي فِيمَا عَرَضْتَ عَلَيَّ". وعقّب أبو بُرْدَةَ بنُ أبي موسى بقوله: "فَلَمَّا وَلِيَ أَتَيْتُهُ، فَلَمْ يُغْلَقْ دُونِي بَابٌ، وَلَمْ تَكُنْ لِي حَاجَةٌ إِلّا قُضِيَتْ"[6].

(١) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص١٠٣.

(٢) البخاري: الصّحيح، (كتاب المغازي، باب غزوة الخندق وهي الأحزاب)، ج٤، ص١٥٠٨، ح٣٨٨٢.

(٣) ابن تيمية: منهاج السُّنّة النّبويّة، ج٤، ص٤٧٢، ٤٧٣.

(٤) مسلم: الصّحيح، (كتاب الزّهد والرّقائق)، ج٤، ص٢٢٧٧، ح٢٩٦٥.

(٥) ابن تيمية: منهاج السُّنّة، ج٦، ص٣٣٥.

(٦) ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٤، ص١١١، ١١٢؛ ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج٣٢، ص٩٥؛ الذّهبي: سير أعلام النّبلاء، ج٢، ص٣٩٦. والأثر بإسناد صحيح كما قرّر محقّقو سير الأعلام.

وقد حاولت الرّوايات الضّعيفة أن تعطي صورة محرّفة عن سيّدنا أبي موسى الأشعريّ ﷺ، ونعتته بالغباء وضعف العقل[١]، وأنّه اختير للتّحكيم من قبل الجند العراقيّ، وفُرض على أمير المؤمنين عليٍّ ﷺ دون رضاه، والصّحيح أنّ عليًّا ﷺ كان راضيًا عن اختيار أبي موسى[٢]، ولو لم يكن الأمر برضا عليٍّ ما قال لأبي موسى عندما توجّه للتّحكيم: "احْكُمْ وَلَوْ يَحُزُّ عُنُقِي"[٣].

ولم يكن أبو موسى الأشعريّ ﷺ متّهمًا في طاعة أمير المؤمنين عليّ ﷺ؛ فقد صحّ أنّ رجلاً من غَطَفَان قال للحسن البصريّ: "إِنَّمَا أَزْرى بِأَبِي مُوسَى اتِّبَاعَهُ عَلِيًّا، فَغَضِبَ الْحَسَنُ حَتَّى تَبَيَّنَ الْغَضَبُ فِي وَجْهِهِ وقَالَ: فَمَنْ يُتَّبَعُ؟ قُتِلَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانُ مَظْلُومًا، فَعَمَدَ النَّاسُ إِلَى خَيْرِهِمْ فَبَايَعُوهُ، فَمَنْ يُتَّبَعُ، حَتَّى رَدَّهَا مِرَارًا"[٤].

وكان أبو موسى الأشعريّ فطنًا ذكيًّا، يدلّ على ذلك حالُه عند رسول الله ﷺ وعند أبي بكر، ومنزله من عمر بن الخطّاب، ومكانه من عثمان بن عفّان، وكثرة فتوحه، وصحّة تدبيره، وسياسته الأجناد، وحفظه الرّعيّة، وقسمته بالسّويّة، مع الفقه في الدّين، والعلم بالقياس، والحجج في الفُتيا، وقلّة تغيّره مع طول الولاية، وثباته على الأمر الأوّل مع كثرة الفتوح والفائدة، ولو كان أبو موسى - كما يقولون - غبيًّا منقوص العقل ضعيفًا، لكان اللّوم على تأميره على البلدان والأمصار وعلى الجيوش العظام وتسليطه على الأحكام، على من ولّاه قبل أمير المؤمنين عليّ ﷺ[٥].

وقد اجتمع الحكمان بدومة الجندل[٦]، فاتّجه رأيهما إلى المبايعة لعبد الله بن عمر ابن الخطّاب ﵄، وفي ذلك يقول نافع مولى ابن عمر: "لَمَّا قَدِمَ أَبُو مُوسَى، وَعَمْرُو بْنُ

(١) البلاذري: أنساب الأشراف، ج١، ص٣٣٨؛ الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص١١٣.

(٢) أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الرّاشدة، ص٤٧٥.

(٣) ابن أبي شيبة: المصنّف، ج٧، ص٥٤٨، ح٣٧٨٥٣. وإسناده صحيح.

(٤) أحمد بن حنبل: فضائل الصّحابة، ج٢، ص٧١٢، ٧١٣، ح٩٧٦. وصحّح المحقّق وصيّ الله إسناد الأثر. وهو عند البلاذريّ أيضًا. أنساب الأشراف، ج٢، ص٢١٥.

(٥) الجاحظ: الرّسائل السّياسيّة، دار ومكتبة الهلال، بيروت، ص٣٥١.

(٦) ذكر ابن سعد أنّ الحكمين اجتمعا بأذرح. الطّبقات الكبرى، ج٣، ص٣٢، ٣٣. ورجّح خليفةُ دومةَ الجندل على أذرح، وعقّب بأنّ موقع أذرح قريب من دومة الجندل. تاريخ خليفة، ص١٩٢.

الْعَاصِ أَيَّامَ حُكِّمَا، قَالَ أَبُو مُوسَى: لَا أَرَى لِهَذَا الأَمْرِ غَيْرَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، فَقَالَ عَمْرٌو لِابْنِ عُمَرَ: إِنَّا نُرِيدُ أَنْ نُبَايِعَكَ فَهَلْ لَكَ أَنْ تُعْطَى مَالاً عَظِيمًا عَلَى أَنْ تَدَعَ هَذَا الأَمْرَ لِمَنْ هُوَ أَحْرَصُ عَلَيْهِ مِنْكَ؟ فَغَضِبَ ابْنُ عُمَرَ، فَقَامَ، فَأَخَذَ ابْنُ الزُّبَيْرِ بِطَرَفِ ثَوْبِهِ، فَقَالَ: يَا أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ إِنَّمَا قَالَ: تُعْطَى مَالاً عَلَى أَنْ أُبَايِعَكَ، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: وَيْحَكَ يَا عَمْرُو! قَالَ عَمْرٌو: إِنَّمَا قُلْتُ: أُجَرِّبُكَ، فَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: لَا وَاللَّهِ لَا أُعْطِي عَلَيْهَا شَيْئًا، وَلَا أُعْطَى، وَلَا أَقْبَلُهَا إِلَّا عَنْ رِضًى مِنَ الْمُسْلِمِينَ"(١).

وعلّق الحافظ الذّهبيّ على موقف عبد الله بن عمر رضي الله عنهما بقوله: "كاد أن تنعقد البيعةُ له يومئذ، مع وجود مثل الإمام عليّ وسعد بن أبي وقّاص، ولو بُويع، لما اختلف عليه اثنان، ولكنّ الله حماه، وخار له"(٢).

وكان من أمر الحكمين أنّهما اتّفقا على أن يتركا الأمر لكبار الصّحابة رضي الله عنهم، فلمّا بلغ ذلك معاوية رضي الله عنه، وكان قد حضر إلى مكان التّحكيم(٣)، أرسل حضين بن المنذر الذّهليّ لاستطلاع الخبر، فلمّا أتى حضينٌ عمرو بن العاص رضي الله عنه واستكشفه عن الأمر، قال له: "قد قال النّاس في ذلك ما قالوا، والله ما كان الأمر على ما قالوا، ولكن قلتُ لأبي موسى: ما ترى في هذا الأمر؟ قال: أرى أنّه في النّفر الّذين تُوفي رسولُ الله ﷺ وهو عنهم راضٍ، قلت: فأين تجعلني أنا ومعاوية؟ فقال: إن يُستعن بكما ففيكما معونة، وإن يُستغن عنكما فطالما استغنى أمر الله عنكما"(٤).

---

(١) البلاذري: أنساب الأشراف، ج١، ص٤٧٣؛ أبو نعيم: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ج١، ص٢٩٣، ٢٩٤؛ الذّهبي: سير أعلام النّبلاء، ج٣، ص٢٢٦، ٢٢٧. وإسناد البلاذري حسن، وإسناد أبي نعيم صحيح. أكرم العمري: عصر الخلافة الرّاشدة، ص٤٧٣.

(٢) الذّهبي: سير أعلام النّبلاء، ج٣، ص٢٢٧. وذكر ابن تيمية أنّه "قد عيّن للخلافة يوم الحكمين فتغيّب". منهاج السُّنّة النّبويّة، ج٦، ص١٧٤.

(٣) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٩٢؛ أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الرّاشدة، ص٤٧٧.

(٤) رواه البخاريّ مختصرًا بإسناد رجاله ثقات. التّاريخ الكبير، ج٥، ص٣٩٨. ورواه ابن عساكر بسند ضعيف. تاريخ دمشق، ج٤٦، ص١٧٦. وأورد ابن العربي هذا الخبر عن الدّارقطني بإسناد صحيح إلى حضين بن المنذر. العواصم من القواصم، ص١٤٠. وينظر خالد كبير علال: قضية التّحكيم في موقعة صِفّين بين الحقائق والأباطيل، دار البلاغ، الجزائر، ط١، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ص٤٨.

ولمّا اشتمل هذا الحلّ على إخراج معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما من الأمر فقد رفضه أهل الشّام، وتنكّروا لعمرو بن العاص رضي الله عنه[١]، "وافترق النّاس على غير اتّفاق"[٢].

ويُشيع رُواةُ الأخبار الّذين يجمعون الغثّ والسّمين أنّ أبا موسى الأشعريّ وعمرو ابن العاص رضي الله عنهما اتّفقا على عزل عليٍّ ومعاوية رضي الله عنهما وجعل الأمر شورى بين المسلمين، ليختاروا لأنفسهم من أحبّوا، وأنّ أبا موسى الأشعريّ أظهر وهنًا وغفلةً خلال التّحكيم، فاستغلّ ذلك عمرو بن العاص وخدع أبا موسى، حيث قدّمه لإلقاء الحكم على النّاس، فصعد المنبر فخلع عليًّا ومعاوية، ثمّ صعد عمروٌ بعده فخلع عليًّا وثبّت معاوية، فاتّهمه أبو موسى بالغدر وتشاتما[٣].

ولمّا تفرّق النّاس دون اتّفاق خطب معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه فقال: "مَنْ كَانَ يُرِيدُ أَنْ يَتَكَلَّمَ فِي هَذَا الأَمْرِ فَلْيُطْلِعْ لَنَا قَرْنَهُ، فَلَنَحْنُ أَحَقُّ بِهِ مِنْهُ وَمِنْ أَبِيهِ"، فسأل حبيبُ بن مسلمة عبد الله بن عمرَ رضي الله عنهما عن ردّ فعله فقال: "حَلَلْتُ حُبْوَتِي[٤]، وَهَمَمْتُ أَنْ أَقُولَ: أَحَقُّ بِهَذَا الْأَمْرِ مِنْكَ مَنْ قَاتَلَكَ وَأَبَاكَ عَلَى الإِسْلَامِ، فَخَشِيتُ أَنْ أَقُولَ كَلِمَةً تُفَرِّقُ بَيْنَ الجَمْعِ، وَتَسْفِكُ الدَّمَ، وَيُحْمَلُ عَنِّي غَيْرُ ذَلِكَ، فَذَكَرْتُ مَا أَعَدَّ اللَّهُ فِي الجِنَانِ"، فقال حَبِيبٌ: حُفِظْتَ وَعُصِمْتَ"[٥].

---

(١) ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج٤٦، ص١٧٦.

(٢) ابن تيمية: منهاج السُّنّة النّبويّة، ج١، ص٣٠٦.

(٣) عبد الرّزّاق: المصنّف، ج٥، ص٤٦٣، (رواية موقوفة على الزّهريّ الّذي لم يدرك الحادثة). وإذا لم يسمّ الزّهريُّ رجاله، فإنّه لم يرضهم. وذكر ابن تيمية أنّ عبد الرّزّاق كان يميل إلى التّشيّع، ويروي الضّعيف في فضائل عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه. منهاج السُّنّة، ج٧، ص١٣. وروى ابن سعد هذه القصّة عن شيخه الواقديّ. الطّبقات الكبير، ج٥، ص٧٧، ٧٨. ورواها البلاذريّ والطّبريّ كلاهما من طريق أبي مخنف الشّيعيّ الرّافضيّ المحترق. البلاذري: أنساب الأشراف، ج١، ص٣٣٧، ٣٣٨؛ الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص١١٢، ١١٣. وليس لهذه الرّواية طريق صحيح البتّة. يحي إبراهيم اليحيى: مرويّات أبي مخنف في تاريخ الطّبريّ، دار العاصمة، الرّياض، الطّبعة الأولى، ١٤١٠هـ، ص٤٠٤- ٤٠٨.

(٤) الحُبوة: ثوب يلقى على الظّهر ويربط طرفاه على السّاقين بعد ضمّهما. ابن حجر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج٧، ص٤٠٤.

(٥) البخاري: الصّحيح، (كتاب المغازي، باب غزوة الخندق وهي الأحزاب)، ج٤، ص١٥٠٨، ح٣٨٨٢.



وقد قيّد بعض العلماء هذه الحادثة بزمن خلافة معاوية ، وأخذه البيعة لولده يزيد[١]، لكن الحافظ ابن حجر ردّ ذلك القول بالرّوايات الّتي صرّحت باجتماعهما يوم الحكمين، وبدومة الجندل[٢].

وهذا الحديث قاطعٌ في أنّ التّحكيم يومئذٍ كان في أمر الخلافة، وليس في القصاص من قتلة عثمان كما يراه بعض الحديثين[٣]، وجزم غير واحد من المحقّقين بأنّ معاوية ادّعى الخلافة لنفسه بعد التّحكيم، فقال ابن تيمية: "وَلَمْ يَكُنْ مُعَاوِيَةُ قَبْلَ تَحْكِيمِ الْحَكَمَيْنِ يَدَّعِي الْأَمْرَ لِنَفْسِهِ، وَلَا يَتَسَمَّى بِأَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ، بَلْ إِنَّمَا ادَّعَى ذَلِكَ بَعْدَ حُكْمِ الْحَكَمَيْنِ"[٤]، وأيّد ذلك ابنُ حجر فقال: "ثمّ تسمّى بالخلافة بعد الحكمين"[٥].

وكان رأي معاوية في الخلافة تقديم الفاضل في القوّة والرّأي والمعرفة على الفاضل في السّبق إلى الإسلام والدّين والعبادة، فلهذا أطلق أنّه أحقّ، وكان ابن عمر يرى خلاف ذلك، وأنّه لا يُبايعُ المفضولُ إلّا إذا خُشي الفتنة، ولهذا بايع بعد ذلك معاوية، ثمّ ابنه يزيدَ، ونهى بنيهِ عن نقض بيعته[٦].

وفي قصّة التّحكيم فائدة لأهل السُّنّة؛ لأنّها تكذّب ما تدّعيه الرّافضة من النّصّ لعليّ بن أبي طالب بالخلافة، وقد كان معه أكثر النّاس، فلم يكن في المسلمين من أصحابه ولا غيرهم من ذكر هذا النّصّ، مع كثرة شيعته، ولا فيهم من احتجّ به، في مثل هذا المقام الّذي تتوفّر فيه الهمم والدّواعي على إظهار مثل هذا النّصّ، ولو كان معروفًا عند شيعة عليّ ؛ لكانت العادة المعروفة تقتضي تقديمه في الحكومة يومئذ[٧].

---

(١) ابن الجوزي: كشف المشكِل من حديث الصّحيحين، ج٢، ص٥٧٦.

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج٧، ص٤٠٣.

(٣) منهم محمد آمحزون: تحقيق مواقف الصّحابة في الفتنة من روايات الإمام الطّبريّ والمحدّثين، ج٢، ص٢٣٣، ٢٣٤؛ خالد كبير علال: قضيّة التّحكيم في موقعة صفّين بين الحقائق والأباطيل، ص٤٦.

(٤) ابن تيمية: منهاج السُّنّة النّبويّة، ج٤، ص٤٨٣.

(٥) ابن حجر: الإصابة في تمييز الصّحابة، ج٦، ص١٢٠.

(٦) ينظر ابن حجر: فتح الباري، ج٧، ص٤٠٤.

(٧) ابن تيمية: منهاج السُّنّة، ج٧، ص٥١.

الفصل الخامس

افتراق العراقيّين ونهاية عصر الرّاشدين

أوّلاً: فتنة الخوارج:

لمّا كاتب عليٌّ معاوية رضي الله عنهما وحكّم الحكمين، اعترض عليه ثمانية آلاف من قرّاء النّاس، وقالوا له: "انْسَلَخْتَ مِنْ قَمِيصٍ أَلْبَسَكَهُ اللهُ تَعَالَى، وَاسْمٍ سَمَّاكَ اللهُ تَعَالَى بِهِ، ثُمَّ انْطَلَقْتَ فَحَكَّمْتَ فِي دِينِ اللهِ، فَلَا حُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ تَعَالَى"، واعتزل هؤلاء القرّاء، فنزلوا بحَرُوراء[1]، ولم يدخلوا الكوفة[2].

وقد نشط الخوارج في دعوة النّاس إلى رأيهم، حتّى بلغ عددُهم بضعةَ عشرَ ألفًا[3]، فانزعج لذلك أمير المؤمنين عليٌّ رضي الله عنه واجتمع بحملة القرآن في الكوفة حتّى امتلأت بهم الدّار، ودعا بمصحفٍ إمامٍ عظيمٍ، فوضعه بين يديه، فجعل يصُكُّه بيده ويناديه أن يحدّث النّاس، فتعجّب الجمع من صنيعه، وقالوا: "إِنَّمَا هُوَ مِدَادٌ فِي وَرَقٍ، وَنَحْنُ نَتَكَلَّمُ بِمَا رُوِينَا مِنْهُ"، وسألوه ماذا يريد؟ فقال: "أَصْحَابُكُمْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ خَرَجُوا، بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ كِتَابُ اللهِ عز وجل، يَقُولُ اللهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ فِي امْرَأَةٍ وَرَجُلٍ: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ﴾[4]، فَأُمَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ أَعْظَمُ دَمًا وَحُرْمَةً مِنَ امْرَأَةٍ وَرَجُلٍ. وَنَقَمُوا عَلَيَّ أَنْ كَاتَبْتُ مُعَاوِيَةَ: كَتَبَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَقَدْ جَاءَنَا

---

(١) حروراء: قرية بظاهر الكوفة، وقيل موضع على ميلين منها، نزل بها الخوارج الّذين خالفوا عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه فنسبوا إليها. ياقوت: معجم البلدان، ج٢، ص٢٤٥.

(٢) أحمد بن حنبل: المسند، ج٢، ص٨٤، ح٦٥٦؛ أبو يعلى: المسند، ج١، ص٣٦٧، ح٤٧٤. واستدركه الحاكم على الشّيخين، وصحّحه على شرطهما، ووافقه الذّهبيّ. المستدرك، ج٢، ص١٦٥، ح٢٦٥٧. واختاره الضّياء المقدسيّ في الأحاديث المختارة، ج٢، ص٢٢٣، ح٦٠٥. وصحّح ابن كثير إسناده. البداية والنّهاية، ج٧، ص٣١٢.

(٣) ابن أبي شيبة: المصنّف في الأحاديث والآثار، ج٧، ص٥٥٨، ح٣٧٩١٤؛ أبو يعلى: المسند، ج١، ص٣٦٥، ح٤٧٣. وقال الهيثميّ: "رواه أبو يعلى، ورجاله رجال الصّحيح". مجمع الزّوائد، ج٦، ص٢٣٨، ح١٠٤٤٥. وصحّح ابن حجر إسناد الأثر. المطالب العالية، ج١٨، ص٣١٧.

(٤) سورة النّساء: من الآية ٣٥.

سُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو، وَنَحْنُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ بِالْحُدَيْبِيَةِ، حِينَ صَالَحَ قَوْمَهُ قُرَيْشًا، فَكَتَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ"، فَقَالَ سُهَيْلٌ: لَا تَكْتُبْ: بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. فَقَالَ: "كَيْفَ نَكْتُبُ؟ فَقَالَ: اكْتُبْ بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: "فَاكْتُبْ: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ"، فَقَالَ: لَوْ أَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُ اللهِ لَمْ أُخَالِفْكَ، فَكَتَبَ: هَذَا مَا صَالَحَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ قُرَيْشًا. والله ﷻ يقول في كتابه: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ﴾[1].

وقد استأذن عبد الله بنُ عبّاس عليًّا رضي الله عنه في إتيان الخوارج بحروراء بعد اجتماع عليٍّ رضي الله عنه بقرّاء الكوفة فبعثه إليهم، فلمّا توسّط عسكرهم ورآه زعيمُهم عبد الله بن الكوّاء اليشكُريّ قام في الخوارج فحذّرهم من مناظرته، وأمرهم بردّه إلى عليٍّ فلم يقبلوا منه، وواضعوا ابن عبّاس رضي الله عنهما الكتاب ثلاثة أيّام، فحاجّهم بمثل حجج عليٍّ رضي الله عنه فتاب منهم أربعةُ آلافٍ، ورجعوا معه، ودخلوا الكوفة، وفيهم ابنُ الكوّاءِ[2]، وشَبَثُ بن رِبْعِيّ التّميميّ، وهما رئيسا الخوارج[3].

وخرج أمير المؤمنين عليٌّ رضي الله عنه بنفسه عقب عبد الله بن عبّاس رضي الله عنهما إلى حروراء، فوقع الرّضا بينه وبين بقيّة الخوارج فعادوا معه، ولكنّهم فهموا خطأً أنّه أعلن توبته ورجع عن التّحكيم والكفر، فلمّا بلغ أمير المؤمنين عليًّا رضي الله عنه قولُهم أعلن لهم موقفه في خطبة له، وعاب عليهم أمرهم، فتنادَوا من نواحي المسجِد: "لَا حُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ"، وناداه أحدهم: ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٦٥﴾[4]، فأجابه عليٌّ رضي الله عنه: ﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞۖ وَلَا يَسۡتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ٦٠﴾[5]، وأخذ عليٌّ رضي الله عنه يقلّب يديه، ويعلن موقفه منهم بقوله: "لَا نَمْنَعُكُمْ صَلَاةً فِي

(١) سورة الأحزاب: من الآية ٢١. والأثر رواه الإمام أحمد بن حنبل: المسند، ج٢، ص٨٤، ح٦٥٦؛ وأبو يعلى: المسند، ج١، ص٣٦٧، ح٤٧٤. وصحّح ابن كثير إسناد الأثر. البداية والنّهاية، ج٧، ص٣١٢.

(٢) من رواية الإمام أحمد وأبي يعلى الصّحيحة السّابقة.

(٣) ابن حجر: فتح الباري، ج١٢، ص٢٨٤.

(٤) سورة الزُّمَر: الآية ٦٥.

(٥) سورة الرّوم: الآية ٦٠.

هَذَا الْمَسْجِدِ، وَلَا نَمْنَعُكُمْ نَصِيبَكُمْ مِنْ هَذَا الْفَيْءِ مَا كَانَتْ أَيْدِيكُمْ مَعَ أَيْدِينَا، وَلَا نُقَاتِلُكُمْ حَتَّى تُقَاتِلُونَا"[(١)].

وقد طالب الخوارج عليًّا ﷺ بنقض القضيّة، والعودة لقتال أهل الشّام، وقالوا: "إِنْ قَبِلَ عَلِيٌّ الْقَضِيَّةَ قَاتَلْنَا عَلَى مَا قَاتَلْنَا يَوْمَ صِفِّينَ، وَإِنْ نَقَضَهَا قَاتَلْنَا مَعَهُ"، فلمّا أبى عليهم فارقوه، وساروا من الكوفة متسلّلين حتّى بلغوا النّهروان[(٢)]، وكتبوا لإخوانهم من أهل البصرة لموافاتهم بها[(٣)]، فخرجوا إليهم مجتمعين[(٤)]، ولم يعمل أمير المؤمنين عليٌّ ﷺ على منع تجمّعاتهم أو إعادتهم إلى الطّاعة، بل سمح لهم بالمسير حيث شاءوا، وبعث إليهم: "بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَنْ لَا تَسْفِكُوا دَمًا حَرَامًا، أَوْ تَقْطَعُوا سَبِيلاً، أَوْ تَظْلِمُوا ذِمَّةً، فَإِنَّكُمْ إِنْ فَعَلْتُمْ فَقَدْ نَبَذْنَا إِلَيْكُمِ الْحَرْبَ عَلَى سَوَاءٍ، إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ"[(٥)].

ولمّا فشل الحكمان وافترقا دون اتّفاق لم يرجع الخوارج إلى صفّ الخليفة عليّ ﷺ، رغم أنّه أعدَّ جيشه لمواجهة أهل الشّام وعسكر بالنّخيلة قرب الكوفة[(٦)]، وبينما عليٌّ ﷺ يتجهّز للمسير إلى الشّام بلغه أنّ فرقة من الخوارج بالنّهروان "جَعَلُوا يَهُدُّونَ النَّاسَ قَتْلاً"، فأنكر عليهم أصحابُهم، وقالوا: "مَا عَلَى هَذَا فَارَقْنَا عَلِيًّا"[(٧)]، ولكنّهم لم ينتهوا حتّى مرّوا

---

(١) القاسم بن سلّام: الأموال، ص٢٩٦، ٢٩٧؛ ابن أبي شيبة: المصنّف، ج٧، ص٥٦٢، ح٣٧٩٣٠؛ الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص١١٥؛ الطّبراني: المعجم الأوسط، ج٧، ص٣٧٦، ح٧٧٧١؛ البيهقي: السّنن الكبرى، ج٨، ص٣١٩. وأصل هذا الحديث عند الإمام مسلم. ابن حجر: التّلخيص الحبير، ج٤، ص٤٥.

(٢) ابن أبي شيبة: المصنّف، ج٧، ص٥٥٨، ح٣٧٩١٤؛ أبو يعلى: المسند، ج١، ص٣٦٥، ٣٦٦، ح٤٧٣. وصحّح ابن حجر إسناد الأثر. المطالب العالية، ج١٨، ص٣١٧.

(٣) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص١١٥.

(٤) يذكر البلاذريّ أن عددهم ثلاثمائة رجل. أنساب الأشراف، ج٣، ص١٣٦. بينما في رواية الطّبريّ أنّ عددهم خمسمائة رجل. تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص١١٦،

(٥) أحمد بن حنبل: المسند، ج٢، ص٨٦، ح٦٥٦؛ أبو يعلى: المسند، ج١، ص٣٦٩، ح٤٧٤. وصحّح ابن كثير إسناده. البداية والنّهاية، ج٧، ص٣١٢.

(٦) أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الرّاشدة، ص٤٨٤.

(٧) أحمد بن حنبل: المسند، ج٧، ص٥٥٨، ح٣٧٩١٤؛ أبو يعلى: المسند، ج١، ص٣٦٦، ح٤٧٤. وصحّح ابن حجر إسناد الأثر. المطالب العالية، ج١٨، ص٣١٧.



على عبد الله بن خبّاب بن الأرتّ وقد اعتزل الفتنة بنواحي النّهروان فقتلوه، وبقروا بطن سُرّيته وهي حبلى[١]. وكان من عجيب أمرهم أنّهم لمّا أخذوا عبد الله بن خبّاب مرّ أحدهم على تمرةٍ ساقطةٍ من نخلةٍ لأهل العهد فأخذها فألقاها في فيه، فأنكروا عليه استحلاله أكلَها دون ثمن، وعظّموا عليه حرمة مال المعاهَد حتّى ألقاها من فيه، ثمّ مرّوا على خِنزيرٍ فبعجه أحدهم بسيفه، فأنكروا عليه استحلاله خنزير معاهَدٍ؟ فانتهز عبدُ الله بن خبّاب تلك الفرصة وأخبرهم أنّه أَعظمُ عليهم حرمةً من التّمرة والخنزير، وأنّه لم يترك صلاة ولا صيامًا، وعدّد عليهم أشياء فعلها، فلم يعبئوا به، وقدّموه فضربُوا عنقه[٢].

ولمّا كان أمير المؤمنين عليٌّ ﷺ قد نهى أصحابَه عن مقاتلة الخوارج حتّى يحدثوا حدَثًا، فقد أرسل إليهم أن أقيدونا بعبد الله بن خبّاب، فأرسلوا إليه: "كُلُّنَا قَتَلَهُ"، فأمر أصحابه عندئذٍ أن يسْطُوا عليهم[٣]، وقد حلف التّابعيّ عبد الله بن شدّاد لأمّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنّ عليًّا ﷺ لم يقاتل الخوارج "حَتَّى قَطَعُوا السَّبِيلَ، وَسَفَكُوا الدَّمَ، وَاسْتَحَلُّوا أَهْلَ الذِّمَّةِ"[٤].

وقام عليٌّ ﷺ في أصحابه فأعلمهم أنّ الخوارج قد سفكوا الدّم الحرام، وأغاروا في سرْح النّاس، وأمرهم بتعجيل مقاتلتهم والقضاء عليهم قبل المسير إلى أهل الشّام، لئلّا يخلفوهم في ذراريهم وأموالهم، وذكر أنّه سمع النّبيّ ﷺ يقول: "يَخْرُجُ قَوْمٌ مِنْ أُمَّتِي يَقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ، لَيْسَ قِرَاءَتُكُمْ إِلَى قِرَاءَتِهِمْ بِشَيْءٍ، وَلَا صَلَاتُكُمْ إِلَى صَلَاتِهِمْ بِشَيْءٍ، وَلَا صِيَامُكُمْ إِلَى صِيَامِهِمْ بِشَيْءٍ، يَقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ يَحْسِبُونَ أَنَّهُ لَهُمْ وَهُوَ عَلَيْهِمْ، لَا تُجَاوِزُ

---

(١) أخرجه يعقوب بن سفيان الفسويّ بسند صحيح إلى حميد بن هلال. فتح الباري شرح صحيح البخاري، ج١٢، ص٢٩٧.

(٢) أبو عبيد القاسم بن سلّام: الأموال، ص٢٢٨، ٢٢٩؛ ابن أبي شيبة: المصنّف، ج٧، ص٥٥٤، ح٣٧٨٩٣؛ الدّارقطني: السّنن، ج٣، ص١٣١، ح١٥٦؛ البيهقي: السّنن الكبرى، ج٨، ص٣٢٠، ح١٦٧٦٧. وقال البوصيري في الإتحاف: "رواه مسدّد بسند رجاله ثقات". وصحّح الأثر محقق المطالب العالية لابن حجر، ج١٨، ص٢٢٠.

(٣) من نفس الرّواية الصّحيحة السّابقة الّتي رواها أبو عبيد وغيره.

(٤) أحمد بن حنبل: المسند، ج٢، ص٨٦، ح٦٥٦؛ أبو يعلى: المسند، ج١، ص٣٦٩، ح٤٧٤. وصحّح ابن كثير إسناده. البداية والنّهاية، ج٧، ص٣١٢.

صَلَاتُهُمْ تَرَاقِيَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، لَوْ يَعْلَمُ الْجَيْشُ الَّذِينَ يُصِيبُونَهُمْ مَا قُضِيَ لَهُمْ عَلَى لِسَانِ نَبِيِّهِمْ ﷺ لَاتَّكَلُوا عَنِ الْعَمَلِ، وَآيَةُ ذَلِكَ أَنَّ فِيهِمْ رَجُلاً لَهُ عَضُدٌ، وَلَيْسَ لَهُ ذِرَاعٌ، عَلَى رَأْسِ عَضُدِهِ مِثْلُ حَلَمَةِ الثَّدْيِ، عَلَيْهِ شَعَرَاتٌ بِيضٌ"(١).

وتحرّك عليٌّ ﷺ بجيشه لمواجهة الخوارج حتّى عسكر على شاطئ النّهروان الغربيّ، وأرسل إليهم رسله يدعونهم إلى التّوبة، فقتلوا رسولَه، فأمر بقتالهم(٢).

ولمّا التقى الجمعان بالنّهروان واقترب بعضُهما من بعض خاف عبدُ الله بنُ وهبٍ الرّاسبيُّ -رئيس الخوارج يومئذ- على أصحابه من مقاربة جند أمير المؤمنين عليّ ﷺ ومحاورتهم، فصاح فيهم: "أَلْقُوا الرِّمَاحَ، وَسُلُّوا سُيُوفَكُمْ مِنْ جُفُونِهَا، فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يُنَاشِدُوكُمْ كَمَا نَاشَدُوكُمْ يَوْمَ حَرُورَاءَ"، فرجع الخوارج فسلّوا السّيوف، وهجموا على جند عليٍّ ﷺ فالتقوهم برماحهم فقُتل الخوارج بعضُهم على بعض(٣)، ولم يصيبوا من أتباع عليّ إلّا بضعةَ عشرَ رجلاً(٤).

ولمّا كان عليٌّ ﷺ قد جعل المُخدج(٥) ذا الثّدية شاهدًا على صحّة موقفه وضلال الخوارج فقد اهتمّ بالبحث عنه، وأمر جنده بذلك، "فَالْتَمَسُوهُ فَلَمْ يَجِدُوهُ"(٦)، حتّى اتّهم بعضُهم عليًّا ﷺ بأنّه غرّهم حتّى قتلوا إخوانهم، "فَدَمَعَتْ عَيْنُ عَلِيٍّ"(٧)، وقام يبحث عنه

---

(١) أحمد بن حنبل: المسند، ج٢، ص ١١٣، ١١٤، ح٧٠٦؛ مسلم: الصّحيح، (كتاب الزّكاة، باب التّحريض على قتل الخوارج)، ج٢، ص٧٤٨، ح١٠٦٦.

(٢) ابن أبي شيبة: المصنّف، ج٧، ص٥٦١، ح٣٧٩٢٧. والأثر بإسناد حسن.

(٣) مسلم: الصّحيح، (كتاب الزّكاة، باب التّحريض على قتل الخوارج)، ج٢، ص٧٤٨، ح١٠٦٦؛ أبو داود: السّنن، (كتاب السُّنّة، باب في قتال الخوارج)، ج٧، ص١٤٧، ح٤٧٦٨.

(٤) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص١٩٧؛ النّسائي: السّنن الكبرى، (كتاب الخصائص، باب ثواب من قاتلهم)، ج٥، ص١٦٣، ح٨٥٧٠؛ الفسوي: المعرفة والتّاريخ، ج٣، ص٣١٥.

(٥) المخدج: النّاقص الخلْق. ابن الأثير: النّهاية في غريب الحديث والأثر، ج٢، ص١٣.

(٦) مسلم: الصّحيح، (كتاب الزّكاة، باب التّحريض على قتل الخوارج)، ج٢، ص٧٤٨، ح١٠٦٦.

(٧) ابن أبي شيبة: المصنّف، ج٧، ص٥٥٩، ح٦٥٦؛ أبو يعلى: المسند، ج١، ص٣٦٦، ح٤٧٣. وقال الهيثميّ: "رواه أبو يعلى، ورجاله رجال الصّحيح". مجمع الزّوائد، ج٦، ص٢٣٨. وصحّح ابن حجر إسناد الأثر. المطالب العالية، ج١٨، ص٣١٧.



بنفسه، فلمّا وقف عليه كبّر، وقال: "صَدَقَ اللَّهُ، وَبَلَّغَ رَسُولُهُ"[1]، "وَفَرِحَ النَّاسُ وَرَجَعُوا"[2]، وذلك سنة ٣٨هـ/٦٥٨م[3].

وقد عامل أمير المؤمنين عليٌّ ﷺ الخوارج معاملة البُغاة، فلم يَسْبهم[4]، مع تكفيرهم لعثمان وعليٍّ ومن والاهما، واستحلالهم لدماء المسلمين المخالفين لهم[5].

وتحقّق بقتل الخوارج قولُ النّبيّ ﷺ: "تَفْتَرِقُ أُمَّتِي فِرْقَتَيْنِ، فَيَمْرُقُ بَيْنَهُمَا مَارِقَةٌ، تَقْتُلُهَا أَوْلَى الطَّائِفَتَيْنِ بِالْحَقِّ"[6]. فكان هذا دليلاً آخر على بغي معاوية ﷺ والشّاميّين على أمير المؤمنين عليّ ﷺ.

ويستفاد من هذا الحديث أنّ معاوية وطائفته كانوا على جانب من الحقّ، ولم يعارضوا عليًّا ﷺ لأجل الدّنيا، "لكن عليًّا وطائفته كانوا أقرب إلى الحقّ منهم"[7]، ولو قال النّبيّ ﷺ: "يقتلها أهل الحقّ" لكان الحقّ كلّه مع عليّ ﷺ، ولكان الشّوام أهل ضلالة.

ولمّا فرغ عليٌّ ﷺ من النّهروان قال: "لَا أَغْزُو الْعَامَ، وَرَجَعَ إِلَى الْكُوفَةِ"[8]، غير أنّ النّهروان لم تكن نهاية المطاف مع الخوارج، فلقد تركت تلك المعركة جراحًا أليمة في

---

(١) مسلم: الصّحيح، (كتاب الزّكاة، باب التّحريض على قتل الخوارج)، ج٢، ص٧٤٨، ح١٠٦٦.

(٢) ابن أبي شيبة: المصنف، ج٧، ص٥٥٩، ح٦٥٦؛ أبو يعلى: المسند، ج١، ص٣٦٦، ح٤٧٣. وقال الهيثميّ: "رواه أبو يعلى، ورجاله رجال الصّحيح". مجمع الزّوائد، ج٦، ص٢٣٨. وصحح ابن حجر إسناد الأثر. المطالب العالية، ج١٨، ص٣١٧.

(٣) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص١٢١؛ ابن تغري بردي: النّجوم الزّاهرة، ج١، ص١١٦.

(٤) البيهقي: السّنن الكبرى، ج٨، ص٣١٥، بإسناد صحيح. أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الرّاشدة، ص٤٨٦.

(٥) ابن تيمية: منهاج السُّنّة، ج٥، ص٩٥.

(٦) أحمد بن حنبل: المسند، ج١٧، ص٢٩٠، ح١١١٩٦؛ مسلم: الصّحيح، (كتاب الزّكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم)، ج٢، ص٧٤٦، ح١٠٦٤.

(٧) ابن العربي: العواصم من القواصم١٧١، ١٧٢؛ ابن تيمية: منهاج السُّنّة، ج٤، ص٤٥٠.

(٨) ابن أبي شيبة: المصنّف، ج٧، ص٥٥٩، ح٦٥٦؛ أبو يعلى: المسند، ج١، ص٣٦٦، ح٤٧٣. وقال الهيثميّ: "رواه أبو يعلى، ورجاله رجال الصّحيح". مجمع الزّوائد، ج٦، ص٢٣٨، ح١٠٤٤٥. وصحّح ابن حجر إسناد الأثر. المطالب العالية، ج١٨، ص٣١٧.

الكوفة العلويّة الاتّجاه والبصرة العثمانيّة معًا، حيث ينتمي معظم الخوارج إلى قبائل المدينتين[1]، وانضمّ إلى من بقي من الخوارج من مال إلى رأيهم[2]، وانطوت صدورهم على جرح عميق؛ بسبب مقتلة النّهروان، وتحرّكوا للثّأر من عليٍّ وأصحابه والانتقام منهم، حتّى أصبحت النّهروان بالنسبة للخوارج -فيما بعد- مثل كربلاء بالنسبة للشّيعة، في طلب الثّأر لأصحابها[3].

وقد توالت تحرّكات الخوارج بعد النّهروان بمعدّل تحرّك في كلّ شهر[4]، فكان الرّجل منهم يخرج ومعه المائة والمائتان، فإذا قضي على واحد خرج آخر، وتتجدّد القضيّة، ثمّ لا تنقضي إلّا لتتجدّد[5].

ثانياً: ظهور بدعة التّشيّع:

لم يقتصر أثر اختلاف المسلمين وعدم اتّفاقهم في قضيّة التّحكيم على مروق الخوارج من بينهم، بل حدثت أيضًا بدعة التّشيّع، وإنّما سمّوا شيعة عليٍّ ﷺ لمّا افترق النّاس فرقتين: فرقةٌ شايعت أولياء عثمان ﷺ، وفرقةٌ شايعت عليًّا ﷺ، ومع ذلك فقد كان فيهم أشرّ النّاس معاملة لعليٍّ ﷺ، وذاق منهم من الكاسات المرّة ما لا يعلمه إلّا الله، وكانوا يَغُشّونه ويكاتبون من يحاربه، ويخونونه في الولايات والأموال[6].

وقد غالت طائفة من الشّيعة في أمير المؤمنين عليّ ﷺ، فادّعى بعضهم إلهيّة عليٍّ، وزعم آخرون أنّ رسول الله ﷺ نصّ على إمامة عليّ ﷺ من بعده، وسبّوا الشّيخيّن أبا بكر وعمر رضي الله عنهما[7].

---

(١) أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الرّاشدة، ص٤٨٨.

(٢) ابن حجر: فتح الباري، ج١٢، ص٢٨٤.

(٣) Nicholson: A Literary of the Arabs, London, 1907. p. 208.

(٤) لطيفة البكاي: حركة الخوارج، نشأتها وتطوّرها إلى نهاية العصر الأموي، دار الطّليعة، بيروت، الطّبعة الثّانية، ٢٠٠٧م ص٤٩.

(٥) طه حسين: الفتنة الكبرى (عليّ وبنوه)، دار المعارف، القاهرة، الطّبعة التّاسعة، ص١٣٩.

(٦) ابن تيمية: منهاج السُّنّة، ج٢، ص٩٠، ٩١.

(٧) منهاج السُّنّة، ج١، ص٣٠٦.

وكما قاتل أمير المؤمنين عليّ ﷺ الخوارج المارقين فقد عاقب الشّيعة المغالين، فأمر بإحراق أولئك الّذين ادّعَوا فيه الإلهيّة[1]، فقد ثبت أنّه قيل لعليٍّ ﷺ: "إنَّ هاهنا قومًا على باب المسجد يزعمون أنّك ربُّهم، فدعاهم فقال لهم: ويلكم ما تقولون؟ قالوا: ربُّنا وخالقُنا ورازقُنا، فقال: ويلكم، إنّما أنا عبدٌ مثلُكم، آكلُ الطّعام كما تأكلون، وأشربُ كما تشربون، إنْ أطعتُه أثابني إنْ شاء، وإن عصيتُه خشيتُ أن يُعذّبني، فاتّقوا الله وارجعوا"، وإلّا ضربت أعناقكم، فأصرّوا على قولهم في اليوم الثّاني والثّالث، فأخّرهم ثلاثة أيّام، فلمّا أصرّوا على كفرهم ولم يرجعوا أمر بأخاديد من نار فخدّت لهم بين باب المسجد والقصر، وقذفهم في تلك النّار[2].

وقتل هؤلاء واجبٌ باتّفاق المسلمين[3]، لكنّ عبد الله بن عبّاس ﵄ اعترض على تحريقهم؛ فإنّه لمّا بلغه صنيع عليٍّ ﷺ قال: لو كنتُ أنا لم أحْرقْهم، لقول رسول الله ﷺ: "لَا تُعَذِّبُوا بِعَذَابِ اللَّهِ"، ولقتلتهم، لقول رسول الله ﷺ: "مَنْ بَدَّلَ دِينَهُ فَاقْتُلُوهُ"[4]، فبلغ ذلك عليًّا ﷺ فقال: "وَيْحَ ابْنِ عَبَّاسٍ"[5]، أو "صَدَقَ ابْنُ عَبَّاسٍ"[6].

---

(١) الدّينوري: المجالسة وجواهر العلم، ص٢٣٦، ح١٠٦٥؛ ابن الأعرابي: معجم ابن الأعرابي، جـ١، ص٥٦، ح٦٧؛ الآجُرّي: الشّريعة، جـ٥، ص٢٥٢١.

(٢) المخلّص: المخلّصيّات، جـ١، ص٣٣٥، ح٥٤٦. وحسّن ابن حجر إسناده. فتح الباري، جـ١٢، ص٢٧٠.

(٣) ابن تيمية: منهاج السُّنّة، جـ١، ص٣٠٧.

(٤) أحمد بن حنبل: المسند، جـ٤، ص٣٣٦، ح٢٥٥١؛ البخاري: الصّحيح، (كتاب الجهاد والسّير، باب لا يعذّب بعذاب الله)، جـ٣، ص١٠٩٨، ح٢٨٥٤؛ (كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب حكم المرتدّ والمرتدّة واستتابتهم)، جـ٦، ص٢٥٣٧، ح٦٥٢٤؛ النّسائي: السّنن الصّغرى، (كتاب تحريم الدّم، باب الحكم في المرتدّ)، جـ٧، ص١٠٤، ح٤٠٦٠.

(٥) أبو داود: السّنن، (كتاب الحدود، باب الحكم فيمن ارتدّ)، جـ٤، ص١٢٦، ح٤٣٥١. ورواه الدّار قطنيّ بهذه الزّيادة وقال: "ثابت صحيح". سنن الدّار قطني، (كتاب الحدود والدّيّات)، جـ٣، ص١٠٨، ح٩٠. واستدركه الحاكم على شرط البخاريّ، وأقرّه الذّهبيّ. المستدرك على الصّحيحين، جـ٣، ص٦٢٠، ح٦٢٢٥.

(٦) التّرمذي: السّنن، (كتاب الحدود، باب ما جاء في المرتدّ)، جـ٤، ص٥٩، ح١٤٥٨. وقال التّرمذيّ: "حديث حسن صحيح".

ولا منافاة بين الروايتين؛ لأنّ "وَيْحَ" كلمة ترحّم وتوجّع، وقد تأتي بمعنى المدح والتّعجب، كما هنا، فكأنّ عليًّا ﷺ أعجب بقول ابن عبّاس[1].

وأمّا السّبّابةُ الّذين يسبّون الشّيخين أبا بكر وعمر ﭫ فإنّ عليًّا ﷺ لمّا بلغه ذلك طلب عبد الله بن سبأ - زعيم السّبّابة – وأراد قتله فهرب منه[2].

وأمّا المفضّلة الّذين يفضّلون عليًّا ﷺ على أبي بكر وعمر ﭫ فقد ثبت عنه أنّه قال: "لَا يَبْلُغُنِي عَنْ أَحَدٍ يُفَضِّلُنِي عَلَيْهِمَا إِلَّا جَلَدْتُهُ حَدَّ المُفْتَرِي"[3].

وقد تواتر عن أمير المؤمنين عليٍّ ﷺ أنّه كان يقول على منبر الكوفة: "خَيْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ بَعْدَ نَبِيِّهَا أَبُو بَكْرٍ ثُمَّ عُمَرُ"[4].

وكانت عامّة الشّيعة الأولى الّذين يحبّون أمير المؤمنين عليًّا ﷺ يفضّلون عليه الشّيخين أبا بكر وعمر ﭫ، لكن كان فيهم طائفة ترجّحه على عثمان بن عفّان ﷺ، وكان النّاس في الفتنة صاروا شيعتين: شيعة عثمانيّة، وشيعة علويّة. وليس كلّ من قاتل مع عليٍ كان يفضّله على عثمان ﷺ، بل كان كثيرٌ منهم يفضّل عثمان عليه، كما هو قول سائر أهل السُّنّة[5].

ثالثاً: وهن العراقيّين ووفاة أمير المؤمنين:

لقد أخذ أمير المؤمنين عليٌّ ﷺ نفسه بالشّدّة في إصلاح حال رعيّته ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، وانتهج في ذلك منهج الفاروق عمر بن الخطّاب ﷺ، فكان يمشي في الأسواق، ومعه الدِّرَّةُ، ويأمرُ النّاس بتقوى اللّه، وحُسنِ البيع[6]، ولكنّ أتباعه أصيبوا بالوهن بعد

(١) ابن الأثير: النّهاية في غريب الحديث والأثر، جـ٥، ص٢٣٥.

(٢) ابن تيمية: منهاج السُّنّة، جـ١، ص٣٠٧، ٣٠٨.

(٣) الخطيب البغدادي: الكفاية في معرفة أصول علم الدّراية، جـ٢، ص١٧١. وعلّق عليه الخطيب بقوله: "وإسناد الأثر صحيح، ورجاله ثقات مشهورون بالعلم معروفون بالأمانة".

(٤) أحمد بن حنبل: المسند، جـ٢، ص٢٠١، ح٨٣٥؛ ابن أبي عاصم: السُّنّة، جـ٢، ص٥٧٠، ح١٢٠١. وقد جاء هذا عنه من أكثرَ من ثمانين وجهًا. ابن تيمية: منهاج السُّنّة، جـ١، ص٣٠٨.

(٥) ابن تيمية: منهاج السُّنّة، جـ٤، ص١٣٢.

(٦) أحمد بن حنبل: فضائل الصّحابة، جـ٢، ص٦٨٧، ٦٨٨، ح٩٣٨. وصحّح المحقّق وصيّ الله إسناد الأثر.

النّهروان، ولم يجد فيهم النّشاط لقتال الشّاميّين، وأفاد معاوية بن أبي سفيان ﷺ من الظّروف الّتي أحاطت بهم، فمدّ نفوذه إلى مصر بقيادة عمرو بن العاص ﷺ، وبالتّعاون مع العثمانيّة فيها[1]، ممّا أضاف إليه قوّة بشريّة واقتصاديّة، كما راسل وجوه القادة في العراق محاولاً استمالتهم[2].

وأمام الوهن والشّقاق وضعف الطّاعة في جيش أمير المؤمنين عليٍّ ﷺ لم يتمكّن من القيام بأيّة حملة ضدّ أهل الشّام، وبلغ من سوء تعامل العراقيّين مع عليٍّ ﷺ أنّهم ازدحمُوا عليه حتّى أدمَوْا رجله، فقال: "اللَّهُمَّ إِنِّي قَدْ كَرِهْتُهُمْ وَكَرِهُونِي، فَأَرِحْنِي مِنْهُمْ وَأَرِحْهُمْ مِنِّي"[3].

ويتبيّن من خطب أمير المؤمنين عليٍّ الأخيرة مدى ما عاناه من المَلل والألم إذ كان يقول: "اللَّهُمَّ إِنِّي قَدْ سَئِمْتُهُمْ، وَسَئِمُونِي، وَمَلِلْتُهُمْ، وَمَلُّونِي، فَأَرِحْنِي مِنْهُمْ، وَأَرِحْهُمْ مِنِّي، فَمَا يَمْنَعُ أَشْقَاكُمْ أَنْ يَخْضِبَهَا بِدَمٍ؟ وَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى لِحْيَتِهِ"[4].

وقد تعدّدت إشارات أمير المؤمنين عليّ ﷺ للعراقيّين بقرب نهايته ومقتله، فذكر لهم أنّ الحبر عبد الله بن سلام الإسرائيليّ ﷺ تعلّق به عند خروجه من المدينة إلى العراق فقال له: "أَمَا إِنَّكَ إِنْ جِئْتَهَا لَيُصِيبَنَّكَ بِهَا ذُبَابُ السَّيْفِ"، وأقسم عليٌّ ﷺ أنّه سمع ذلك من رسول الله ﷺ[5].

وكان رسول الله ﷺ قد أخبر عليّ بن أبي طالب ﷺ بأنّ أشقى الأوّلين هو الّذي عقر ناقة ثمود، وأنّ أشقى الآخِرين هو الّذي يضربه على يافُوخه، فكان أمير المؤمنين عليٌّ ﷺ يقول

---

(١) الكندي: الولاة والقضاة، ص٢٥، ٢٦.

(٢) أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الرّاشدة، ص٤٨٨.

(٣) ابن أبي شيبة: المصنّف، ج٧، ص٤٤٣، ح٣٧٠٩٦. وإسناد الأثر صحيح.

(٤) عبد الرّزّاق: المصنّف، ج١٠، ص١٥٤، ح ١٨٦٧٠؛ ابن أبي شيبة: المصنّف، ج٧، ص٤٤٤، ح٣٧١٠٠. وإسناده صحيح.

(٥) الحميدي: المسند، ج١، ص١٨٠، ١٨١، ح٥٣؛ أبو يعلى: المسند، ج١، ص٣٨١، ح٤٩١. وصحّح الدّكتور حسين سليم أسد إسناد الحديث في تحقيقه لمسند أبي يعلى. وقال الهيثميّ: "رجال أبي يعلى رجال الصّحيح غيرَ إسحاق بن أبي إسرائيل، وهو ثقةٌ مأمون". مجمع الزّوائد، ج٩، ص١٣٨، ح١٤٧٨٦. وحسّن محقّق المطالب العالية لابن حجر إسناد الحديث، ج١٨، ص٢٢٩.

لأهل العراق: "وَدِدْتُ أَنَّهُ قَدِ انْبَعَثَ أَشْقَاكُمْ يُخَضِّبُ هَذِهِ -يعني لحيته- مِنْ هَذِهِ، وَوَضَعَ يَدَهُ عَلَى مُقَدَّمِ رَأْسِهِ"(١).

ولمّا سمع العراقيّون عليًّا ﷺ يقول: "لَتُخْضَبَنَّ هَذِهِ مِنْ هَذَا، فَمَا يَنْتَظِرُ بِي الأَشْقَى"، قالوا: "أَخْبِرْنَا بِهِ نُبِيرُ عِتْرَتَهُ"، قال: "إِذًا تَاللَّهِ تَقْتُلُونَ بِي غَيْرَ قَاتِلِي"، وطالبوه أن يستخلف عليهم، فقال: "لَا، وَلَكِنِ أَتْرُكُكُمْ إِلَى مَا تَرَكَكُمْ إِلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ"، قالوا: فَمَا تَقُولُ لِرَبِّكَ إِذَا أَتَيْتَهُ؟ قال: "أَقُولُ: اللَّهُمَّ تَرَكْتَنِي فِيهِمْ مَا بَدَا لَكَ، ثُمَّ قَبَضْتَنِي إِلَيْكَ وَأَنْتَ فِيهِمْ، فَإِنْ شِئْتَ أَصْلَحْتَهُمْ وَإِنْ شِئْتَ أَفْسَدْتَهُمْ"(٢).

وكان أمير المؤمنين عليٌّ ﷺ يعرف قاتله الشّقيّ؛ فقد ثبت أنّه دعا النّاس إلى البيعة، فجاء عبدُ الرّحمن بنُ مُلْجَمٍ المراديُّ فردّه مرّتين، ثمّ أتاه فقال: "مَا يَحْبِسُ أَشْقَاهَا، لَتُخَضَّبَنَّ أَوْ لَتُصْبَغَنَّ هَذِهِ مِنْ هَذَا"، يعني لحيته من رأسه، ثمّ تمثّل بهذين البيتين:

اشْدُدْ حَيَازِيمَكَ لِلْمَوْتِ ** فَإِنَّ الْمَوْتَ آتِيكَا
وَلَا تَجْزَعْ مِنَ الْقَتْلِ ** إِذَا حَلَّ بِوَادِيكَا(٣)

وعندما علم أمير المؤمنين عليٌّ ﷺ بالمؤامرة عليه لاقت منه انتظارًا، فقد جاءه رجلٌ من مُرَادٍ وهو يصلّي في المسجد ونصحه أن يحترس؛ لأنّ ناسًا من مراد يريدون قتله،

---

(١) ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٣، ص٣٥؛ البزّار: المسند، (البحر الزّخّار)، ج٤، ص٥٤، ح١٤٢٤؛ أبو يعلى: المسند، ج١، ص٣٧٧، ح٤٨٥. وصحّح الألباني الحديث بشواهده. سلسلة الأحاديث الصّحيحة، ج٣، ص٧٨. وانتهى محقّق المطالب العالية لابن حجر إلى أنّ الحديث حسن لغيره بمجموع الطّرق والشّواهد، ج١٨، ص٢٣٤، ٢٣٥.

(٢) ابن أبي شيبة: المصنّف في الأحاديث والآثار، ج٧، ص٤٤٣، ح٣٧٠٩٨؛ أحمد بن حنبل: المسند، ج٢، ص٣٢٥، ح١٠٧٨. والأثر حسن لغيره كما قال محقّقو المسند. وقال الهيثمي: "رواه أحمد وأبو يعلى، ورجاله رجال الصّحيح غيرَ عبد الله بن سُبيعٍ، وهو ثقة، ورواه البزّار بإسنادٍ حسن". مجمع الزّوائد ومنبع الفوائد، ج٩، ص١٣٧، ح١٤٧٨٢.

(٣) ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٣، ص٣٣؛ البلاذري: أنساب الأشراف، ج٢، ص٥٠٠؛ ابن أبي الدّنيا: مقتل عليّ، تحقيق/ إبراهيم صالح، دار البشائر، دمشق، الطّبعة الأولى، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، ص٤٣. والأثر صحيح الإسناد. أبو عبد الله الدّاني بن منير آل زهوي: سلسلة الآثار الصّحيحة، (الصّحيح المسند من أقوال الصّحابة والتّابعين)، دار الفاروق، الطّبعة الأولى، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م، ج٢، ص٢٥٠.



فقال له: "إِنَّ مَعَ كُلِّ رَجُلٍ مَلَكَيْنِ يَحْفَظَانِهِ مِمَّا لَمْ يُقَدَّرْ، فَإِذَا جَاءَ الْقَدْرُ خَلَّيَا بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ، وَإِنَّ الأَجَلَ جُنَّةٌ حَصِينَةٌ"(١).

وكان ثلاثة نفر من الخوارج قد تآمروا على قتل أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب، ومعاوية بن أبي سفيان، وعمرو بن العاص ﷺ، وسمّوا سيوفهم، وتعاقدوا على تلك المهمّة، فعمد عبدُ الرّحمن بنُ مُلْجَمٍ المراديُّ إلى أمير المؤمنين عليّ ﷺ، وقصد البُرَكُ بنُ عبد الله التّميميُّ معاويةَ ﷺ، وتوجّه عمرو بن بُكيرٍ التّميميُّ إلى عمرو بن العاص ﷺ، فتمكّن الأشقى عبد الرّحمن بن مُلْجَم المراديّ من ضرب أمير المؤمنين عليّ ﷺ(٢)، فجر ١٧ رمضان سنة ٤٠ هـ/ يناير٦٦١م(٣)، ويؤيّد هذا التّأريخ تصريحُ الحسن بن عليّ رضي الله عنهما بأنّ أباه قُتل في اللّيلة الّتي نزل فيها القرآن، وذلك أنّه خطب عقب مقتل أبيه فقال: "وَاللَّهِ لَقَدْ قَتَلْتُمُ اللَّيْلَةَ رَجُلًا فِي لَيْلَةٍ نَزَلَ فِيهَا الْقُرْآنُ"(٤).

ولمّا كان أمير المؤمنين عليٌّ ﷺ من الخلفاء الرّاشدين، وسادات الصّحابة السّابقين، فلا نستغرب منه وصيّته لبنيه بقاتله خيرًا حيث يقول لهم: "إِنَّهُ أَسِيرٌ، فَأَحْسِنُوا نُزُلَهُ، وَأَكْرِمُوا مَثْوَاهُ، فَإِنْ بَقِيتُ قَتَلْتُ أَوْ عَفَوْتُ، وَإِنْ مُتُّ فَاقْتُلُوهُ قَتْلَتِي، وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ"(٥).

وقد بقي أمير المؤمنين عليٌّ ﷺ حتّى فارق الحياة في صبيحة إحدى وعشرين من رمضان(٦)، فمات شهيدًا، كما بشّره النّبيّ ﷺ عندما "كان على حِرَاءٍ هو وأبو بكرٍ، وعمرُ،

---

(١) ابن سعد: الطّبقات الكبرى، جـ٣، ص٣٤، بإسناد صحيح. أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الرّاشدة، ص٤٨٩.

(٢) ابن سعد: الطّبقات الكبرى، جـ٣، ص٣٥.

(٣) ابن سعد: الطّبقات الكبرى، جـ٦، ص١٢؛ الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، جـ٣، ص١٥٥؛ الذّهبي: العبر في خبر من غبر، جـ١، ص٤٦.

(٤) أبو يعلى: المسند، جـ١٢، ص١٢٤، ح٦٧٥٧. وصحّح الدّكتور حسين سليم أسد إسناد الأثر، وحسّنه محقّقو المطالب العالية لابن حجر، جـ١٨، ص٢٣٨.

(٥) ابن سعد: الطّبقات الكبرى، جـ٣، ص٣٥؛ أحمد بن حنبل: فضائل الصّحابة، جـ٢، ص٥٦٠، ويتقوّى الأثر بطرقه إلى الحسن لغيره. أكرم ضياء العمري: عصر الخلافة الرّاشدة، ص٤٨٩.

(٦) البخاري: التّاريخ الكبير، جـ١، ص٩٩. بإسناد صحيح.

وعثمانُ، وعليٌّ، وطلحةُ، والزّبيرُ، فتحرّكت الصّخرةُ، فقال رسول الله ﷺ: اهْدَأْ فَمَا عَلَيْكَ إِلّا نَبِيٌّ، أَوْ صِدِّيقٌ، أَوْ شَهِيدٌ"[١].

ودفن أمير المؤمنين عليٌّ ﷺ بالكوفة عند مسجد الجماعة بدار الإمارة[٢]، وعُمّي موضع قبره، خوفًا عليه من الخوارج أن ينبشوا جثّته[٣]، فلمّا تغلّب الملوك البويهيّون الرّوافض على الخلفاء العبّاسيّين في القرن الرّابع الهجريّ أقاموا له مشهدًا بمدينة النّجف، غير أنّ انقطاع معرفة القبر لثلاثة قرون يشكّك في كون المشهد على القبر[٤].

وقد جزم الحافظ ابن كثير بتزوير المشهد بقوله: "وما يعتقدُه كثيرٌ من جهلة الرّوافض من أنّ قبره بمشهد النّجف فلا دليل على ذلك، ولا أصل له، ويقالُ إنّما ذاك قبر المغيرة بن شعبة"[٥].

وحكى الخطيب البغداديّ (ت: ٤٦٣هـ/١٠٧٢م) عن غير واحد من العلماء أنّ الحسن بن عليّ رضي الله عنهما حوّل أباه إلى المدينة[٦].

رابعاً: تنازل الحسن بن عليّ لمعاوية بن أبي سفيان ﷺ:

لمّا قُتل أمير المؤمنين عليٌّ ﷺ استُخلف ولدُه الحسنُ بن عليّ رضي الله عنهما، فسار بسيرة أبيه بضعة أشهر، ثمّ بعث بالبيعة إلى معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما[٧]، وسلّم إليه الخلافة،

(١) مسلم: الصّحيح، (كتاب فضائل الصّحابة، باب من فضائل طلحة والزّبير)، ج٤، ص١٨٨٠، ح٢٤١٧؛ التّرمذي: السّنن، (كتاب المناقب، باب في مناقب عثمان بن عفّان)، ج٥، ص٦٢٤، ح٣٦٩٦. وقال التّرمذيّ: "حديث صحيح".

(٢) ابن سعد: الطّبقات الكبرى، ج٦، ص١٢.

(٣) ابن كثير: البداية والنّهاية، ج٧، ص٣٦٥.

(٤) ابن تيمية: مجموع الفتاوى، تحقيق/ عبد الرّحمن محمّد قاسم، مكتبة ابن تيمية، الطّبعة الثّانية، ج٢٧، ص٤٤٦.

(٥) البداية والنّهاية، ج٧، ص٣٦٥.

(٦) تاريخ بغداد، ج١، ص٤٦٥، ٤٦٦.

(٧) ابن أبي شيبة: المصنّف في الأحاديث والآثار، ج٧، ص٥٥٩، ح٦٥٦؛ أبو يعلى: المسند، ج١، ص٣٦٦، ح٤٧٣. وقال الهيثميّ: "رواه أبو يعلى، ورجاله رجال الصّحيح". مجمع الزّوائد ومنبع الفوائد، ج٦، ص٢٣٨، ح١٠٤٤٥. وصحّح ابن حجر إسناد الأثر. المطالب العالية، ج١٨، ص٣١٧.

فقدم الكوفة، وبايع له أهلُها سنة ٤١هـ/٦٦١م(١)، واجتمعت الأمّة كلّها عليه، وعرفت تلك السّنة بعام الجماعة(٢)، وحقّق الحسن بن عليّ رضي الله عنهما ما أخبر به جدّه المصطفى ﷺ(٣) حين قال: "إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ، وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ المُسْلِمِينَ"(٤).

وقد روى الحسن البصريّ حديثًا صحيحًا جامعًا في صلح الحسن ومعاوية رضي الله عنهما فقال: "اسْتَقْبَلَ وَاللَّهِ الحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ مُعَاوِيَةَ بِكَتَائِبَ أَمْثَالِ الجِبَالِ، فَقَالَ عَمْرُو بْنُ العَاصِ: إِنِّي لَأَرَى كَتَائِبَ لَا تُوَلِّي حَتَّى تَقْتُلَ أَقْرَانَهَا، فَقَالَ لَهُ مُعَاوِيَةُ، وَكَانَ وَاللَّهِ خَيْرَ الرَّجُلَيْنِ: أَيْ عَمْرُو، إِنْ قَتَلَ هَؤُلَاءِ هَؤُلَاءِ، وَهَؤُلَاءِ هَؤُلَاءِ، مَنْ لِي بِأُمُورِ النَّاسِ؟ مَنْ لِي بِنِسَائِهِمْ؟ مَنْ لِي بِضَيْعَتِهِمْ؟ فَبَعَثَ إِلَيْهِ رَجُلَيْنِ مِنْ قُرَيْشٍ مِنْ بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ: عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ سَمُرَةَ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَامِرِ بْنِ كُرَيْزٍ، فَقَالَ: اذْهَبَا إِلَى هَذَا الرَّجُلِ، فَاعْرِضَا عَلَيْهِ، وَقُولَا لَهُ: وَاطْلُبَا إِلَيْهِ، فَأَتَيَاهُ، فَدَخَلَا عَلَيْهِ فَتَكَلَّمَا، وَقَالَا لَهُ: فَطَلَبَا إِلَيْهِ، فَقَالَ لَهُمَا الحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ: إِنَّا بَنُو عَبْدِ المُطَّلِبِ، قَدْ أَصَبْنَا مِنْ هَذَا المَالِ، وَإِنَّ هَذِهِ الأُمَّةَ قَدْ عَاثَتْ فِي دِمَائِهَا، قَالَا: فَإِنَّهُ يَعْرِضُ عَلَيْكَ كَذَا وَكَذَا، وَيَطْلُبُ إِلَيْكَ وَيَسْأَلُكَ، قَالَ: فَمَنْ لِي بِهَذَا، قَالَا: نَحْنُ لَكَ بِهِ، فَمَا سَأَلَهُمَا شَيْئًا إِلَّا قَالَا: نَحْنُ لَكَ بِهِ، فَصَالَحَهُ، فَقَالَ الحَسَنُ: وَلَقَدْ سَمِعْتُ أَبَا بَكْرَةَ يَقُولُ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَلَى المِنْبَرِ وَالحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ إِلَى جَنْبِهِ، وَهُوَ يُقْبِلُ عَلَى النَّاسِ مَرَّةً، وَعَلَيْهِ أُخْرَى، وَيَقُولُ: "إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ، وَلَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ المُسْلِمِينَ"(٥).

وهذا يدلّ على أنّ ما فعله الحسن رضي الله عنه من ترك القتال على الإمامة وقصد الإصلاح بين المسلمين هو الأفضل والأصلح، ولم يكن من أعظم المصائب، ولا ذلًّا للمسلمين كما

---

(١) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٣، ص١٦٧.

(٢) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص٢٠٣؛ ابن عبد البرّ: الاستيعاب في معرفة الأصحاب، ج١، ص٣٨٧.

(٣) الذّهبي: العبر في خبر من غبر، ج١، ص٤٧.

(٤) أحمد بن حنبل: المسند، ج٢٤، ص٣٣، ح٢٠٣٩٢؛ البخاري: الصّحيح، (كتاب المناقب، باب علامات النّبوّة في الإسلام)، ج٣، ص١٣٢٨، ح٢٤٣٠؛ (كتاب الصّلح، باب قول النّبيّ ﷺ: ابني هذا سيّد)، ج٢، ص٩٦٢، ح٢٥٥٧؛ التّرمذي: السّنن، (كتاب المناقب، باب مناقب الحسن والحسين رضي الله عنهما)، ج٦، ص١٢١، ح٣٧٧٣. وقال التّرمذيّ: "حسن صحيح".

(٥) البخاري: الصّحيح، (كتاب الصّلح، باب قول النّبيّ ﷺ للحسن بن عليّ رضي الله عنهما: ابني هذا سيّد)، ج٢، ص٩٦٢، ح٢٥٥٧.

زعمت الشّيعة[١]، كما أنّ مدح النّبيّ ﷺ الحسنَ بن عليّ رضي الله عنهما بالإصلاح بين الفئتين المتقاتلتين يدلُّ على أنّ الإصلاح بينهما هو المحمودُ، ولو كان القتالُ واجبًا أو مستحبًّا، لم يكن تركه محمودًا[٢].

وفي تنازل الحسن بن عليّ رضي الله عنهما ردٌّ على الرّوافض الّذين يتّهمون معاوية رضي الله عنه ومن معه بالرّدّة عن الإسلام؛ لأنّه "إنْ كان أولئك مرتدّين، وقد نزل الحسن عن أمر المسلمين وسلّمه إلى كافر مرتدّ، كان المعصوم عندهم قد سلّم أمر المسلمين إلى المرتدّين، وليس هذا من فعل المؤمنين، فضلاً عن المعصومين"[٣].

وقد توقّفت الفتوح طوال السّنوات السّتّة الماضية؛ فإنّه لمّا وقعت الفتنة بين المسلمين "لَمْ يُقَاتَلْ فِيهَا كُفَّارٌ، وَلَا فُتِحَ مِصْرٌ، وَإِنَّمَا كَانَ السَّيْفُ بَيْنَ أَهْلِ الْقِبْلَةِ"[٤].

(١) ابن تيمية: منهاج السُّنّة النّبويّة، ج٤، ص٤٠، ٤١.

(٢) منهاج السُّنّة النّبويّة، ج٤، ص٤٥٠.

(٣) منهاج السُّنّة، ج٤، ص٤٩٧، ٤٩٨.

(٤) منهاج السُّنّة، ج١، ص٥٤٦.

ملحق رقم (١)
موقف أهل السُّنّة من الفتنة بين الصّحابة

ينبغي علينا -نحن المسلمين- عند ذكر الفتنة الّتي وقعت بين الصّحابة ﭫ أن نستحضر قول الله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ فَإِن فَآءَتۡ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ وَأَقۡسِطُوٓاْۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ۝٩ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ إِخۡوَةٞ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَ أَخَوَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ۝١٠﴾[١]؛ وذلك لأنّ الله ﷻ "سَمَّاهُمْ إِخْوَةً، وَوَصَفَهُمْ بِأَنَّهُمْ مُؤْمِنُونَ، مَعَ وُجُودِ الِاقْتِتَالِ بَيْنَهُمْ، وَالْبَغْيِ مِنْ بَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ"[٢].

وبهذا استدلّ الإمام البخاريّ وغيره على أنّه لا يخرج عن الإيمان بالمعصية وإن عظمت، لا كما يقوله الخوارج ومن تابعهم من المعتزلة ونحوهم[٣].

ولا تنس أيها القارئ لما شجر بين الصّحابة ﭫ أنّ الله ﷻ أمر نبيّه ﷺ بالعفو عنهم والاستغفار لهم في قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ فَإِذَا عَزَمۡتَ فَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُتَوَكِّلِينَ ۝١٥٩﴾[٤]، فعلينا أن نستغفر لهم، وأن نترضّى عنهم، وأن نتذكّر أنّ هدايتنا للإسلام بجهودهم، وفي ميزانهم.

وأمّا الّذين لم يعرفوا للصّحابة ﭫ حقًّا وبسطوا فيهم ألسنتهم بالسّوء، كما قالت أمّنا السّيّدة عائشة ﭬ: "أُمِرُوا بِالاسْتِغْفَارِ لأَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ فَسَبّوهُم"[٥]، فهؤلاء نبغضهم ولا نحبّهم، ونشتدّ عليهم، ولا نلين لهم.

---

(١) سورة الحجرات: الآية ٩، ١٠.

(٢) ابن تيمية: منهاج السُّنّة النّبويّة، جـ٤، ص٣٩٤.

(٣) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، تحقيق/ خالد محمّد محرّم، المكتبة العصريّة، الطّبعة الثّالثة، صيدا، بيروت، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، جـ٤، ص١٨٩.

(٤) سورة آل عمران: الآية ١٥٩.

(٥) أحمد بن حنبل: فضائل الصّحابة، جـ١، ص٦٦، ٦٧، ح١٤، جـ٢، ص١١٥١، ح١٧٣٨. وصحّح المحقّق وصيّ الله إسناد الأثر. وصحّحه الألبانيّ أيضًا. ابن أبي عاصم: السُّنّة، جـ٢، ص٤٨٤.

وثبت عن عبد الله بن عبّاس رضي الله عنهما أنّه قال: "لَا تَسُبُّوا أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ؛ فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَمَرَ بِالِاسْتِغْفَارِ لَهُمْ وَهُوَ يَعْلَمُ أَنَّهُمْ سَيَقْتَتِلُونَ"(١).

ويرحمُ الله الخليفة الصّالح والملك العادل عمر بن عبد العزيز المرْوانيّ الأُمويّ (٦١ - ١٠١ هـ/ ٧٨١ - ٧٢٠م)؛ فقد سُئل عن رأيه في أهل صفّين؟ فقال: "تِلْكَ دِمَاءٌ طَهَّرَ اللَّهُ يَدَيَّ مِنْهَا، فَلَا أُحِبُّ أَنْ أَخْضِبَ لِسَانِي فِيهَا"(٢).

---

(١) رواه الإمام أحمد بن حنبل بسند ضعيف، فيه مجهول. فضائل الصّحابة، ج١، ص٧٠، ٧١، ح١٨. ورواه الآجُرّي بسند صحيح متّصل. الشّريعة، ج٥، ص٢٤٩٢، ح١٩٨٠. وقال ابن تيمية: "رواه ابن بطّة بالإسناد الصّحيح". منهاج السُّنّة النّبويّة، ج٢، ص٢٢.

(٢) أبو نعيم: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ج٩، ص١١٤.

ملحق رقم (٢)

نصّ حوار المغيرة بن شعبة مع رستم الفارسيّ في القادسيّة من رواية محمّد بن إسحاق

روى الطّبريّ خبر سفارة المغيرة بن شعبة الثّقفيّ ﷺ إلى رستم قائد الجيش الفارسيّ في القادسيّة والحوار الّذي دار بينهما من طريق إمام المغازي والسّير محمّد بن إسحاق فقال: "فَلَمَّا أَنْ نَزَلَ بِهِمْ رُسْتُمُ بَعَثَ إِلَيْهِمْ أَنِ ابْعَثُوا إِلَيَّ رَجُلاً مِنْكُمْ جَلِيدًا أُكَلِّمُهُ، فَبَعَثُوا إِلَيْهِ الْمُغِيرَةَ بْنَ شُعْبَةَ، فَجَاءَهُ وَقَدْ فَرَقَ رَأْسَهُ أَرْبَعَ فِرَقٍ: فِرْقَةٌ مِنْ بَيْنَ يَدَيْهِ إِلَى قَفَاهُ، وَفِرْقَةٌ إِلَى أُذُنَيْهِ، ثُمَّ عَقَصَ شَعْرَهُ، وَلَبِسَ بُرْدًا لَهُ، ثُمَّ أَقْبَلَ حَتَّى انْتَهَى إِلَى رُسْتُمَ، وَرُسْتُمُ مِنْ وَرَاءِ الْجِسْرِ الْعَتِيقِ مِمَّا يَلِي الْعِرَاقَ، وَالْمُسْلِمُونَ مِنْ نَاحِيَتِهِ الأُخْرَى مِمَّا يَلِي الْحِجَازَ فِيمَا بَيْنَ الْقَادِسِيَّةِ وَالْعُذَيْبِ، فَكَلَّمَهُ رُسْتُمُ، فَقَالَ: إِنَّكُمْ مَعْشَرَ الْعَرَبِ كُنْتُمْ أَهْلَ شَقَاءٍ وَجَهْدٍ، وَكُنْتُمْ تَأْتُونَنَا مِنْ بَيْنِ تَاجِرٍ وَأَجِيرٍ وَوَافِدٍ، فَأَكَلْتُمْ مِنْ طَعَامِنَا، وَشَرِبْتُمْ مِنْ شَرَابِنَا، وَاسْتَظْلَلْتُمْ مِنْ ظِلالِنَا، فَذَهَبْتُمْ فَدَعَوْتُمْ أَصْحَابَكُمْ، ثُمَّ أَتَيْتُمُونَا بِهِمْ، وَإِنَّمَا مَثَلُكُمْ مَثَلُ رَجُلٍ كَانَ لَهُ حَائِطٌ مِنْ عِنَبٍ، فَرَأَى فِيهِ ثَعْلَبًا وَاحِدًا، فَقَالَ: مَا ثَعْلَبٌ وَاحِدٌ! فَانْطَلَقَ الثَّعْلَبُ، فَدَعَا الثَّعَالِبَ إِلَى الْحَائِطِ، فَلَمَّا اجْتَمَعْنَ فِيهِ جَاءَ الرَّجُلُ فَسَدَّ الْجُحْرَ الَّذِي دَخَلْنَ مِنْهُ، ثُمَّ قَتَلَهُنَّ جَمِيعًا. وَقَدْ أَعْلَمُ أَنَّ الَّذِي حَمَلَكُمْ عَلَى هَذَا مَعْشَرَ الْعَرَبِ الْجَهْدُ الَّذِي قَدْ أَصَابَكُمْ، فَارْجِعُوا عَنَّا عَامَكُمْ هَذَا، فَإِنَّكُمْ قَدْ شَغَلْتُمُونَا عَنْ عِمَارَةِ بِلادِنَا، وَعَنْ عَدُوِّنَا، وَنَحْنُ نُوقِرُ لَكُمْ رَكَائِبَكُمْ قَمْحًا وَتَمْرًا، وَنَأْمُرُ لَكُمْ بِكِسْوَةٍ، فَارْجِعُوا عَنَّا عَافَاكُمُ اللَّهُ! فَقَالَ الْمُغِيرَةُ بْنُ شُعْبَةَ: لَا تَذْكُرْ لَنَا جَهْدًا إِلّا وَقَدْ كُنَّا فِي مِثْلِهِ أَوْ أَشَدَّ مِنْهُ، أَفْضَلُنَا فِي أَنْفُسِنَا عَيْشًا الَّذِي يَقْتُلُ ابْنَ عَمِّهِ، وَيَأْخُذُ مَالَهُ فَيَأْكُلُهُ، نَأْكُلُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَالْعِظَامَ، فَلَمْ نَزَلْ كَذَلِكَ حَتَّى بَعَثَ اللَّهُ فِينَا نَبِيًّا، وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ، فَدَعَانَا إِلَى اللَّهِ وَإِلَى مَا بَعَثَهُ بِهِ، فَصَدَّقَهُ مِنَّا مُصَدِّقٌ، وَكَذَّبَهُ مِنَّا آخَرُ، فَقَاتَلَ مَنْ صَدَّقَهُ مَنْ كَذَّبَهُ، حَتَّى دَخَلْنَا فِي دِينِهِ، مِنْ بَيْنِ مُوقِنٍ بِهِ، وَبَيْنِ مَقْهُورٍ، حَتَّى اسْتَبَانَ لَنَا أَنَّهُ صَادِقٌ، وَأَنَّهُ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ. فَأَمَرَنَا أَنْ نُقَاتِلَ مَنْ خَالَفَنَا، وَأَخْبَرَنَا أَنَّ مَنْ قُتِلَ مِنَّا عَلَى دِينِهِ فَلَهُ الْجَنَّةُ، وَمَنْ عَاشَ مَلَكَ وَظَهَرَ عَلَى مَنْ خَالَفَهُ، فَنَحْنُ نَدْعُوكَ إِلَى أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَتَدْخُلَ فِي دِينِنَا، فَإِنْ فَعَلْتَ كَانَتْ لَكَ بِلَادُكَ، لَا يَدْخُلُ

عَلَيْكَ فِيهَا إِلّا مَنْ أَحْبَبْتَ، وَعَلَيْكَ الزَّكَاةُ وَالْخُمُسُ، وَإِنْ أَبَيْتَ ذَلِكَ فَالْجِزْيَةُ، وَإِنْ أَبَيْتَ ذَلِكَ قَاتَلْنَاكَ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ. قَالَ لَهُ رُسْتُمُ: مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنِّي أَعِيشُ حَتَّى أَسْمَعَ مِنْكُمْ هَذَا مَعْشَرَ الْعَرَبِ. لَا أُمْسِي غَدًا حَتَّى أَفْرَغَ مِنْكُمْ وَأَقْتُلَكُمْ كُلَّكُمْ"[١].

انتهى الكتاب

وآخر دعوانا ﴿أَنِ الحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ﴾

وَصَلِّ اللّهُمّ وَسَلِّم وَبَارِكْ عَلَى نَبِيِّنَا مَحْمَدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ

(١) الطّبري: تاريخ الأمم والملوك، ج٢، ص٤٢٩، ٤٣٠.



فهرس الموضوعات













تاريخ الخلفاء الراشدين
بين الحقائق والأباطيل

لقد دعت الضّرورة إلى تصنيف هذا الكتاب؛ لأنّه على الرّغم من كثرة المكتوب حول الخلفاء الرّاشدين، فإنّ غالبيّة ما صنّف فيهم بعيدٌ عن المنهج العلميّ الصّحيح، ولا يخلو كتابٌ من تأثّر صاحبه بالعاطفة الإيجابيّة أو السّلبيّة، ثمّ أُشيع مؤخّرًا بأنّ تاريخ الخلفاء الرّاشدين ليس له أساسٌ ثابتٌ، ولا مصادرُ موثوقةٌ عند أهل السُّنّة، وجلّ الاعتماد فيه على الإخباريّين المتّهمين، فجاء هذا الكتاب مغايرًا لكتابات السّابقين، معتمدًا على الرّوايات الصّحيحة من كتب السُّنّة النّبويّة ومصنّفات المؤرّخين الموثوقين، حتّى يكون جوابًا شافيًا للباحثين عن الحقائق، وسدًّا منيعًا أمام هجمات المغرضين، وسهمًا مصوّبًا إلى صدور مروّجي الإشاعات .

متوفر على:



تابعنا :





Design AMANY EZZ